

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

العماد الأصفهاني الأديب

إعداد

عبدالرحيم بخيت مفضي الشهاب عميد كلية الدراسات العليا

لنقط

إشراف

الأستاذ الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراة
في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية.

كانون الثاني/ ١٩٩٥ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

العماد الأصفهاني الأديب

إعداد

عبدالرحيم بخيت مفضي الشهاب

إشراف

الأستاذ الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراة
في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية.

كانون الثاني/ ١٩٩٥ م.

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٥/١/٩ م ، وأجيزت .

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

١ - الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي (مشرفاً)

٢ - الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة (عضواً)

٣ - الأستاذ الدكتور محمود ابراهيم (عضواً)

٤ - الأستاذ الدكتور يوسف بكار (عضواً)

شكر وتقدير

وبعد أه فرغم من عملي هذا ، أجد لزاماً عليّ أه أذكر الشكر لأهه ، وأخص به
 الأستاذ الدكتور عبد الحبيب عبد المهيدي ، الذي أسيغ عليّ نعماً ، لن بقتري لساني عن شكرها ، فكم
 أفضاني الشكاه عبر الشرحاه في مزالني هذا البعم ، وكلم حضن في الأكلار والأشاه
 حتى إزلا جنه وجرني أرو نبعا رفرافاً وحوضاً نمبراً يقني قساي ويعرني من أصفاه قني ، ووالله
 ما نعلمن في صدي جولا أوكي من وجه ، ولا علم ، إلا وجران ولكن فرعا من
 أضع أغتره ، أو سببا من باب افنتعه ، أو وفضة من قبه ، فله الشكر موفورا والأرحاه
 موصولاً .

ك أنقدم بوالفر شكرا وتقديرا لعمدا ، الأجملا الذين سرفن بالدراسة عليهم في مراحل
 وراسني أختلفة : الأستاذ الدكتور عبد الكريم خبيفة ، والأستاذ الدكتور معمر إبراهيم ،
 والأستاذ الدكتور يوسف بكر ، فقد نعمن بتوجيهاتهم ، واستفان بسرير أرائهم ،
 وسرفن بالله عليهم على رسالتي ، واحتضنني ومائة نفعن بها سألهم ، وأسرتني حلوة
 نرفقن من أخلافهم ، ومدينة تجلس موزنهم والأجلهم ، ونشبر لهم في القلوب صروحا
 سافا البنا ، وفيرة الأرحاه ، ملكينة الأساس ، ولعن رو جبيلهم ينسئل في الحرم على الشعلي
 بأخلافهم وأفتنا ، وأارهم .

فهرس المحتويات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
ب	- قرار لجنة المناقشة
ج	- شكر وتقدير
د	- فهرس المحتويات
ط	- الملخص باللغة العربية
ل	- المقدمة

التمهيد

١	- الحياة السياسية
١٦	- الحياة الاجتماعية
٢٦	- الحياة الفكرية والثقافية

الفصل الأول :

٣٤	- السيرة
٣٥	- <u>اسمه وشهرته ونسبه</u>
٣٨	- مولده : المكان والزمان
٣٩	- <u>النشأة الأولى (في أصفهان)</u>
٤٠	- مرحلة ما بعد أصفهان
٤٠	- في بغداد
٤١	- العودة إلى أصفهان
٤٢	- الرجوع إلى بغداد
٤٣	- في خدمة عون الدين بن هبيرة
٤٤	- العماد في السجن
٤٦	- العماد في الشام
٤٧	- في ظل نور الدين
٥٠	- في خدمة الملك الصالح اسماعيل

- ٥٠ العودة إلى الموصل -
٥١ العودة إلى الشام (الدخول في خدمة صلاح الدين) -
٥٤ في خدمة خلفاء صلاح الدين -
٥٤ مصادر ثقافة العماد وشيوخه ✓ ✓
٥٥ شيوخ العماد ✓ -
٥٥ شيوخ ورد ذكرهم عند من ترجموا له -
٦٠ شيوخ ذكر العماد أنه سمع منهم -
٦٥ وفاته -

الفصل الثاني:

- ٦٧ اتجاهات شعر العماد ✓
٦٩ الاتجاه الأول : الشعر التقليدي ويشمل : -
٧٠ المديح : -
٧١ مدح الخلفاء العباسيين -
٨١ مدح الوزراء والأمراء -
٨٥ مدح العلماء -
٩١ الاستعطاف -
٩٥ الرثاء -
١٠٨ التشوق والحنين -
١١٨ الإخوانيات -
١٢٢ الوصف : -
١٢٢ المدينة في شعر العماد -
١٢٧ الروض في شعر العماد -
١٢٩ وصف الأطلعة -
١٣٤ أوصاف أخرى : -
١٣٤ وصف الحمى -
١٣٤ وصف الكوارث الطبيعية -
١٣٥ وصف البراغيث -

١٣٦ الغزل	-
١٤٣ الغزل بالمدكر	-
١٤٦ الاتجاه الثاني : شعر الجهاد	-
١٥١ البطولة في شعر العماد	-
١٥٣ نور الدين زنكي	-
١٥٣ نور الدين راعي المسلمين	-
١٦٠ نور الدين المجاهد	-
١٦٥ نور الدين المقتدي بالسلف	-
١٦٧ صلاح الدين	✗
١٦٨ صلاح الدين راعي المسلمين	-
١٧٤ صلاح الدين المجاهد	-
١٧٨ صلاح الدين المقتدي بالسلف	✗
١٨٠ أسد الدين شيركوه	-
١٨٤ الدعوة إلى الوحدة الإسلامية	✗
١٨٩ الحث على الجهاد وتحرير الأرض المحتلة	✗
١٩٥ الجيش الإسلامي	-
٢٠٥ جيش الفرنجة	-

الفصل الثالث :

٢١١ شعر العماد - التقويم الفني :	✓
٢١٢ البناء الفني للقصيدة	-
٢٢٢ الأسلوب	-
٢٥٦ الصورة الشعرية	-

الفصل الرابع :

٢٧٣ النثر الفني / موضوعاته	✓
٢٧٥ النثر التاريخي ، موضوعاته :	-
٢٧٧ صورة البطل المسلم :	-

- ٢٧٧ راعي الأمة -
٢٨١ المجاهد -
٢٨٨ تصوير المعارك -
٢٨٨ المعركة البرية -
٢٠٠ المعركة البحرية -
٢١١ الجيش الإسلامي -
٢١٦ صورة الفرنجة : -
٢١٦ (أ) جيش الفرنجة
٢٢٠ (ب) المرأة الفرنجية
٢٢١ الطبيعة -
٢٢٢ الحضارة : -
٢٢٣ الأظمعة والأشربة -
٢٢٣ التحف والهدايا والعطور والملابس
٢٢٥ النثر الأدبي --
٢٢٦ (أ) ما يصدر عن ديوان الإنشاء
..... الرسائل -
٢٢٧ رسائل طلب النجدة -
٢٢٢ الرسائل الإخبارية -
٢٤٥ رسائل البشرى -
٢٥٤ رسائل الشكر -
٢٥٨ رسائل التعزية -
٢٦٢ المنشورات -
٢٧١ (ب) الرسائل الإخوانية
٢٧٧ (ج) موضوعات النثر الفني في الخريدة

الفصل الخامس :

- ٢٨٢ التقويم الفني لنثر العماد -
٢٨٤ البناء الفني للرسالة -

٣٩٥	الأسلوب	-
٤١٥	الصورة الأدبية	-
٤٣٧	الخاتمة	
٤٤٢	ثبت المصادر والمراجع	
٤٥٦	الملحق	
٤٦٧	الملخص باللغة الانجليزية	

المخلص
العماد الأصفهاني الأديب
إعداد
عبدالرحيم بخيت مفضي الشهاب
إشراف
الأستاذ الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي

عنوان هذه الدراسة : العماد الأصفهاني الأديب ، وقد أعدت استكمالاً
لمتطلبات درجة الدكتوراة في الجامعة الأردنية في تخصص اللغة العربية وآدابها .
وقد تشكلت الدراسة من تمهيد وخمسة فصول .

التمهيد : درستُ فيه الحياة السياسية وتتبعنا الأحداث الدائرة في العراق
ومصر وبلاد الشام ، منذ بداية القرن السادس الهجري حتى نهايته ووقفت عند
النزاعات الداخلية وبيّنت أثرها على إضعاف المقاومة الإسلامية للمدّ الصليبي ،
ثم أظهرت التحولات التي رافقت نشوء الدولة الزنكية في الصراع الدائر بين
القوى الإسلامية والقوى الغازية ، وبيّنت دور الدولة الأيوبية في النهوض بالامة
الإسلامية وتحقيق الانتصارات على الأعداء في مختلف الجبهات .
وحددت في التمهيد أبرز ملامح الحياة الاجتماعية في هذا القرن ،
والعوامل المؤثرة فيها من فتن داخلية وحروب مع الفرنجة ، وكوارث طبيعية
وأوبئة .

وتناولت في التمهيد أبرز ملامح الحركة الثقافية في هذا القرن والمتمثلة
ببناء المدارس والعناية بالمكتبات ، ورعاية العلماء ، وتشجيع التعليم .
وجعلت الفصل الأول للحديث عن سيرة العماد ، إذ تتبعت نشاطه منذ
ولادته في أصفهان سنة ٥١٩هـ حتى وفاته في دمشق سنة ٥٩٧هـ ، وحققت في
هذه السيرة اسمه وشهرته ونسبه ، ومكان ولادته وزمانها ، وتحدثت عن نشأته في
أصفهان ورحيله إلى بغداد ، وتلقيه العلم في معاهد المدينتين ، وتحدثت بعد ذلك
عن حياته العملية واتصاله بابن هبيرة والنيابة عنه بالبصرة ثم بواسط ، ثم
رحيله بعد محنته في بغداد إلى الشام واتصاله بنورالدين وملازمته له حتى
وفاته ، كما تحدثت عن علاقته بصلاح الدين ، وقيامه بخدمته وخدمة أبنائه من

بعده ، وحققت في الحديث عن سيرته سنة وفاته ومكانها ، وبعد ذلك وقفت على مصادر ثقافته وعرفت بشيوخه .

ودرست في الفصل الثاني اتجاهات شعر العماد ، وحصرتها في اتجاهين : الأول وسميته الشعر التقليدي ، واشتمل على عدد من الأغراض هي : المديح ، وكان في مدح الخلفاء من بني العباس ، والوزراء ، والعلماء ، والاستعطاف والرثاء ، والإخوانيات ، والشوق والحنين ، والوصف ، والغزل .

والثاني وسميته شعر الجهاد ، وقد درست فيه شعر العماد الذي قاله في مواكبة حركة الجهاد المقدس الذي خاضه المسلمون ضد الصليبيين الغزاة ، ووقفت عند أبرز رموزه كما صورهم العماد ومجد بطولاتهم وهم : نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، وأسد الدين شيركوه ، ونوهت بالدور الذي أداه شعر العماد في مجال الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، والحث على مجاهدة الأعداء ، وتحرير المقدسات والأرض الإسلامية ، ووضحت في هذا الاتجاه صورة الجيش الإسلامي ، وصورة الجيش الصليبي .

وفي الفصل الثالث درست شعر العماد دراسة فنية وتناولته من ثلاثة جوانب هي : البناء الفني للقصيدة ، وبيئت فيه كيف يبني العماد قصيدته من خلال نماذج من شعره ومدى انسجام هذا البناء مع آراء النقاد .

والجانب الثاني تناولت فيه أسلوب العماد ، فدرست اللغة في شعره ، ودرست بعض الظواهر الأسلوبية مثل الصنعة اللفظية وخاصة الجناس والطباق ووقفت عند تأثره بالقرآن والاقْتباس منه ، كما أشرت إلى استخدامه بعض أساليب الخطاب المتنوعة .

وأما الجانب الثالث فكان الصورة الشعرية ، وقد تتبعت الصور في شعر العماد وبيئت مصادرها وأنواعها ، وطريقة بنائها وعناصرها .

واعتني في الفصل الرابع بموضوعات نثر العماد ، وقد قسمت النثر قسمين : الأول النثر التاريخي ، وهو النثر الذي وصف فيه تحركات السلطان صلاح الدين في كتابيه البرق الشامي ، والفتح القسي في الفتح القدسي ، ودرست في هذا القسم صورة البطل المسلم ، وصورة المعركة ، وصورة الجيش الإسلامي ، وصورة الجيش الصليبي . كما درست فيه صوراً غير حربية وهي صور الطبيعة وصور مظاهر الحضارة المختلفة .

· والثاني النثر الأدبي ودرسته ضمن موضوعات ثلاثة هي :

الأول : ما صدر عن ديوان الإنشاء ويشتمل على الرسائل الديوانية ، والمنشورات ، وقد قسمت الرسائل حسب موضوعاتها فكان بعضها رسائل إخبارية، وبعضها في الاستنفار وطلب النجدة ، وبعضها في البشري ، وبعضها في الشكر وبعضها في التعزية . وأما المنشورات فقد درست موضوعاتها وحللت بعض النماذج منها .

الثاني : الرسائل الإخوانية : ودرست في هذا الموضوع رسائل العماد التي تبادلها مع القاضي الفاضل وقسمتها رسائل ذات موضوعات عامة ، ورسائل ذات موضوعات خاصة .

والثالث : وهو النثر الأدبي الوارد في مصنفاة ، ودرست تحت هذا العنوان نثر العماد الذي قدّم به لتراجمه في الخريدة ، وبيّنت أهم الموضوعات التي اشتمل عليها هذا النوع من النثر .

الفصل الخامس : وكان موضوعه دراسة نثر العماد من جانبه الفني ، وتناولت فيه البناء الفني للرسالة عند العماد ، وبيّنت من خلال استعراض نماذج من رسائله طريقتة في بناء الرسالة ومدى انسجام ذلك البناء مع آراء النقاد . وتحدثت في هذا الفصل عن أسلوب العماد في النثر وسيطرة الصنعة اللفظية عليه وخاصة السجع . كما تحدثت عن الصورة الأدبية ، فبيّنت ، عناصرها وأنواعها ومصادرها التي أخذت منها ، ومدى انسجامها وتآلف عناصرها ، ودورها في التعبير عن الحدث .

المقدمة

شهد المجتمع الإسلامي في القرن السادس الهجري تحولات كبيرة وخطيرة ، إذ استمرت الهجمة الفرنجية ، واستمرت حالة الضعف والتفكك إلى أن هيا الله له قيادة صالحة مخلصه أخذت على عاتقها النهوض به ، وشرعت في توحيد مقدراته ، ولم صفوف أبنائه ، وتوجيه كل الطاقات لدحر أعدائه وقد بدأت هذه الحركة على يد عماد الدين زنكي وتابعه فيها ابنه نورالدين زنكي ، ثم جاء صلاح الدين فنهج نهج سلفه في توحيد الجبهة الإسلامية ومحاربة الصليبيين .

كان العماد من الأدباء الذين شاركوا في رسم ملامح هذا القرن ، من خلال أدبه ، فقد واكب الأحداث وعبر عن روح العصر ، وجاء شعره ونثره صورة لحياته وحياة عصره ، فقد عبّر عن صلّاته وعلاقاته ، وواكب الأحداث الدائرة بين المسلمين والصليبيين ، وصوّرها عن قرب أثناء عمله في ديوان الإنشاء ، وملازمته نورالدين ، وصلاح الدين . إذ سجل الأحداث في عهديهما بلغة أدبية مسجوعة ، وكتب على لسانيهما الكثير من الرسائل الديوانية ، والمنشورات ، وصوّر بشعره ونثره المعارك الدائرة بين الفريقين ، وصوّر الجيوش ، ومجد الأبطال ، ودعا إلى الوحدة الإسلامية ، وتحرير المقدّسات .

لقد ساهم العماد مع غيره من أدباء عصره في الجهاد بالكلمة الموجية المؤثرة التي تثير الحماسة في النفوس ، وتغرس فيها حب الجهاد والتضحية في سبيل الله ، وكان دوره واضحاً ، ومشاركته لا يمكن لدارسي أدب هذه الفترة أن يغفلوها . وما هذه الدراسة إلا محاولة متواضعة للكشف عن شخصية العماد الأديب ، ودوره في أدب عصره .

ويعود الفضل في اختياري لهذا البحث إلى أستاذي الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي الذي وجهني إلى دراسة أدب هذا العصر . وبعد دراسة متأنية في المصادر والمراجع المتوافرة التي اهتمت بتاريخ هذه الحقبة وأدبها ، وجدت نفسي متردداً بين الشعر والنثر . هل أختار موضوعاً في النثر أم في الشعر ؟ وعندما عرضت الأمر على أستاذي وجهني إلى اختيار شخصية أدبية تجمع بين الشعر والنثر ، فكان أن اخترت العماد الأصفهاني موضوعاً للدراسة ، وذلك لفزارة إنتاجه وتنوعه ، ولقربه من مواقع الأحداث ، ومشاركته فيها وملازمته قيادة الجهاد ، وعمله في ديوان الإنشاء .

وبعد الاختيار المبدئي لشخصية العماد لتكون موضوع رسالة أتقدم بها لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي ، بدأت أبحث عن أخباره وأثاره ، وجمعت منها ما أمكنتني الوسيلة من جمعه - من المصادر المخطوطة والمطبوعة ، والمراجع الحديثة - فوجدت نفسي أمام شخصية أدبية تسترعي الانتباه ، وجديرة بالاهتمام والدراسة لتنوع إنتاجها وغزارته ، ومعالجته موضوعات مهمة في عصره .

لكن شخصية أدبية بشهرة شخصية العماد الأصفهاني لا يعقل أن تظل حتى الآن دون دراسة . وللوصول إلى معرفة يقينية في هذا الأمر كان لا بد من الرجوع إلى فهارس الرسائل الجامعية في الجامعات الأردنية والعربية والتنقيب فيها لمعرفة ما كُتب عن العماد . وتم ذلك البحث والاستقصاء ، وكان أن وجدت دراستين: الأولى رسالة قدمت إلى جامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير سنة ١٩٤٩م بعنوان « العماد الأصفهاني حياته وأدبه » وقدمها علي مظفر سلطان .

والثانية : رسالة قدمت لجامعة الأزهر لنيل درجة الدكتوراه سنة ١٩٧٧م بعنوان « العماد الأديب وخريدته ، قدمها فؤاد حسين أبو الهيجا » .

وقد حصلت على صورة للرسالتين ، واطلعت عليهما ، كما اطلعت على ما كتب عن العماد وأدبه في كتب الأدب الحديثة التي تحدثت عن أدب مصر والشام في زمن الحروب الصليبية مثل مؤلفات : أحمد أحمد بدوي ، ومحمد زعلول سلام ، وعبد اللطيف حمزة ، ومحمد سيد كيلاني وغيرهم ، فوجدت أن ما كتب عن العماد يختلف في طبيعة تناوله عما أنوي القيام به في بحثي ؛ فكان أن طرحت الأمر على أستاذي لأخذ الرأي فلاقي استحساناً فكان عنوان الدراسة (العماد الأصفهاني الأديب) .

وقد جعلت دراستي في خمسة فصول ، قدمت لها بتمهيد تحدثت فيه عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية في المجتمع الإسلامي في مصر وبلاد الشام والعراق إبّان القرن السادس الهجري . وذلك لمعرفة مدى تأثير أدب العماد بالأحداث . ومدى انعكاسها فيه .

تناولت في الفصل الأول الحديث عن سيرة العماد الأصفهاني منذ ولادته سنة ٥١٩هـ وحتى وفاته سنة ٥٩٧هـ ، وتوقفت عند اسمه ونسبه وكنيته ، ونشأته ، وتكوينه العلمي والثقافي ، وتحدثت عن أهم مصادر ثقافته وشيوخه ، وبيّنت الأدوار التي قام بها في خدمة الخلفاء والوزراء والسلطين .

وتحدثت في الفصل الثاني عن موضوعات شعره وقسمته اتجاهين :

الاتجاه الأول : شعره التقليدي ، واشتمل على أغراض مثل المديح والاستعطاف والثناء والشوق والحنين والوصف .

الاتجاه الثاني : شعر الجهاد ، وهو الاتجاه الذي واكب حركة الجهاد المقدس الذي خاضه المسلمون ضد الغزاة ، فصورّ العماد بشعره المعارك التي دارت بين الفريقين ، كما صورّ الجيوش ، ومجدّ الأبطال ، ودعا إلى الوحدة ، وتحرير الأرض .

وفي الفصل الثالث درست شعر العماد دراسة فنية تناولت فيها بناء القصيدة الفني ، والسمات الأسلوبية ، والصورة الشعرية .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن موضوعات نثر العماد ، وقسمت النثر

قسمين : نثر تاريخي ، وتضمن الأول عدداً من الموضوعات هي : صورة البطل ، وصورة المعركة ، وصورة الجيش الإسلامي ، وصورة جيش العدو ، وصورة المظاهر الحضارية ، وصورة الطبيعة .

ودرست الثاني ضمن موضوعات ثلاثة هي : الرسائل الديوانية ، والرسائل الإخوانية ، والنثر الأدبي الوارد في مصنّفاته .

وأما الفصل الخامس فقد درست فيه نثر العماد دراسة فنية تناولت فيها البناء الفني للرسالة ، والأسلوب ، والصورة الأدبية .

وأنتهيت رسالتي بخاتمة أجملت فيها ما توصلت إليه من نتائج في دراستي وجعلت للدراسة ملحقاً ضمّنته شعر العماد الذي عثرت عليه خلال البحث والتنقيب في المصادر المطبوعة والمخطوطة ، والذي لم يرد له ذكر في الديوان المجموع . وقد بلغ عدد الأبيات في الملحق مئة وستة وتسعين بيتاً ، عثرت على معظمها في مخطوط بعنوان البرق الشامي ، محفوظ في مكتبة ليدن (تحت رقم NR 1592) كانت قد أشارت إليه فتحية النبراوي في مقدمة تحقيقها لكتاب سنا البرق الشامي وقالت في وصفه إنه ليس من أجزاء البرق الشامي وإنما هو مجموعة أشعار ورسائل للعماد . وعندما حصلت عليه من المكتبة المذكورة ، وجدت أن ما ذكر بشأنه صحيحاً ، فاستخرجت ما فيه من أشعار لم ترد في الديوان المحقق وجعلتها في ملحق للرسالة .

وأما المصادر الأساسية التي استقيت منها مادة البحث فقد تنوعت بين التاريخ والأدب ، وشكلت كتب العماد جانباً مهماً من هذه المصادر ، ومنها :

- الديوان : وقد اعتمدت عليه في دراسة شعر العماد موضوعياً وفنياً . وتكمن أهمية هذا الديوان بالنسبة للباحث في اشتماله على مجموعة كبيرة من قصائد العماد ومقطعاته الشعرية المتناثرة في المصادر التاريخية والأدبية ، وهي قصائد تمثل أغراض شعره المختلفة .
- البرق الشامي ، ويعالج الجزءان الموجودان من هذا الكتاب الحوادث من بداية سنة ٥٧٣هـ وحتى سنة ٥٧٥هـ . وحوادث مختارة للسنتين ٥٧٨هـ ، ٥٧٩هـ . وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يصور الصراع بين صلاح الدين والصليبيين . ودور صلاح الدين الجهادي ودوره في توحيد ديار الإسلام . وقد حفظ لنا هذا الكتاب أنماطاً من النثر التاريخي المسجوع الحافل بالصنعة اللفظية والمعنوية . كما حفظ بعض الأشعار ، والرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية والمنشورات .
- الفتح القسي في الفتح القدسي : يُعدّ هذا الكتاب سجلاً لفتوحات صلاح الدين وتحركاته العسكرية من سنة ٥٨٢هـ حتى سنة ٥٨٩هـ وتكمن أهميته في توفيره مادة خصبة من النثر التاريخي ، الذي صور حقبة من الصراعات الحاسمة بين السلطان صلاح الدين والفرنجة ، كما وقرّ عدداً من الرسائل الديوانية ، والمنشورات والتقاليد .
- سنا البرق الشامي : ويقدم فيه الفتح بن علي البنداري مختصراً لأحداث البرق الشامي من سنة ٥٦٣هـ حتى سنة ٥٨٢هـ . وتكمن أهمية هذا الكتاب في حفظه جزءاً من المادة المفقودة من البرق الشامي ، ويشتمل على وصف للحوادث التاريخية كما يصورها العماد . وقد وقرّ للبحث معلومات عن سيرة العماد ، كما حفظ بعض أشعاره ورسائله الإخوانية والديوانية وبعض المنشورات ، وهذه المواد لا نجدها في غيره من المصادر .
- خريدة القصر وجريدة العصر : وقد اشتمل هذا الكتاب على تراجم أدبية لمعاصري العماد وبعض من سبقوه ، وقد أفاد هذا الكتاب في معرفة بعض جوانب حياة العماد ، وصلاته وعرفّ ببعض شيوخه . وقرّ مادة من النثر الأدبي فيما كتبه العماد من مقدمات لتراجم الكتاب .
- وثمة مصادر أخرى استفاد منها الباحث ، منها :
 - كتاب الروضتين لأبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥) وتكمن أهمية هذا المصدر في أنه أورد أخباراً كثيرة نقلت عن البرق الشامي للعماد الأصفهاني ، وهي أخبار لا

-أب-

نجدها في غيره من المصادر . وقد حفظ لنا هذا المصدر مجموعة كبيرة من أشعار العماد ورسائله الديوانية والإخوانية ، والتقاليد والمنشورات ، وجزءاً من نثره التاريخي ، وبعض الأخبار المتعلقة بسيرة العماد .

* مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، لابن واصل ت ٦٩٧هـ ، وتكمن أهمية هذا المصدر فيما يوفره من مادة تاريخية تصور الأحداث في القرن السادس الهجري في منطقة نفوذ الدولة الزنكية ومن بعدها الأيوبية . وفي تصويره للأحداث كثيراً ما ينقل عن العماد الأصفهاني ، فاشتمل هذا المصدر على نماذج من نثر العماد التاريخي وبعض رسائله .

* رحلة ابن جبير ت ٦١٤هـ ، وهو من المصادر الأساسية التي وفرت للبحث معلومات موثقة عن الحياة الاجتماعية والثقافية في مصر وبلاد الشام والعراق في زمن الحروب الصليبية . فقد كان ابن جبير شاهد عيان ، وعاش في هذه البيئات التي تحدث عنها ووصف أحوالها خلال رحلته في هذه البلاد .

وهناك مصادر أخرى أفادتني في حديثي عن الجانب السياسي والاجتماعي والثقافي ، وعن سيرة العماد ، وقد تنوعت هذه المصادر بين تراجم رجال وطبقات ، ومصادر تاريخية وأدبية ، ومعجم لغوية ، وجغرافية ، ومن أهمها : ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، والباهر في التاريخ لابن الأثير ، والكامل في التاريخ لابن الأثير كذلك ، وتاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن علي البنداري ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، والكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبه ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ، ومعجم البلدان ، وغيرها من المصادر المختلفة .

وبعد ، فهذا هو الموضوع ، وأسباب اختياره ومصادره الأساسية . وإني لآمل أن أكون قد وفقت في بيان دور العماد الأصفهاني في رسم ملامح عصره من خلال أدبه . فإن أصبت فبتوفيق من الله ، وإلا فحسبي نصيب المجتهد وأجره ، ولا أقول إلا كما قال العماد : « إنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قُدّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

تمهيد

الحياة السياسية

مع نهاية القرن الخامس الهجري ، كان الصليبيون قد تمكنوا من بسط نفوذهم على أجزاء واسعة من بلاد الشام والجزيرة في حملتهم الصليبية الأولى ، مستفيدين من حالة الضعف السياسي التي كان عليها العالم الإسلامي آنذاك ، إذ كانت السلطة السياسية في بلاد الشام ومصر والعراق ، مقسمة بين خلافتين متصارعتين هما : الخلافة العباسية في بغداد ، والفاطمية في مصر . ولم تكن هاتان الخلافتان تملكان من السلطة إلاّ اسمها ، فالخلافة في بغداد كانت واقعة تحت نفوذ السلاطين السلاجقة والخلافة في مصر كانت رهينة بيد الوزراء ، وقد مكّن هذا الوضع ، الصليبيين من إرساء قواعد لهم تمثلت بأربع إمارات هي : إمارة القدس^(١) وإمارة (الرّها)^(٢) وإمارة (أنطاكية)^(٣) وإمارة (طرابلس)^(٤) ، اتخذوا قواعد لتوسعهم في بلاد الشام والجزيرة وأخذوا يضايقون أهل البلاد منها^(٥) . وحين يستنجد أهل الشام بالخلافتين فإن صرخاتهم تذهب سدى ، وذلك لانشغالهما بالأمور الداخلية عن نصرة المسلمين الذين يواجهون الخطر الصليبي^(٦) .

(١) القدس : حاصرها الصليبيون واحتلوها سنة ٤٩٢ هـ وكانت بيد الأمير سقمان بن ارتق التركماني وظلت تحت الاحتلال حتى خلّصها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ج ٩ ، ص ١٩)

(٢) الرّها : مدينة بين الموصل والشام بينهما ست فراسخ احتلها الصليبيون سنة ٤٨٩ هـ تسلمها يغدو بن أخي الملك كندفري صاحب القدس وانتقلت في أيدي ملوك الفرنج إلى أن فتحها عنوة عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩ هـ . بعد أن نازلها ثمانية وعشرين يوماً وكانت بيد جوسلين بن جوسلين (ابن شداد الاعلاق الخطيرة ، تحقيق يحيى عبارة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٨ ، ق ١ ، ج ٣ ، ص ٩٤) ؛ وانظر معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ج ٣ ، ص ١٠٦ .

(٣) أنطاكية : قسبة العواصم من الثغور الشامية وهي من أعيان البلاد وأمهاتها . احتلها الصليبيون سنة ٤٩١ هـ وأقاموا فيها مملكة لهم (الكامل : ٩ : ١٣ ؛ وانظر معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٦٦) .

(٤) طرابلس : مدينة من مدن الشام الساحلية إحتلها الصليبيون سنة ٥٠٣ هـ وأقاموا فيها مملكة لهم . (الكامل : ٩ : ١٣٦) .

(٥) ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزه بن أسد التميمي ، تاريخ دمشق ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٣ ، ص : ٢٤٣ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ١١٣ - ١٢١ .

لم تتمكن الخلافة العباسية من الاضطلاع بدورها في الدفاع عن البلاد التي تقع تحت نفوذها ، لأنها لم تكن تملك من القوة ما يتيح لها الاشتراك الفعلي في قتال الصليبيين ولكنها حاولت أن تستفيد من سلطتها المعنوية ، في الحث على الجهاد والاستنجاد بالسلاطين السلاجقة ، كلما جاء المستنصرون ولكن السلطان لا يقدم غير الوعود فيما راح الصليبيون يتوغلون شرقاً وغرباً ، ويستولون على المواقع والمدن والحصون واحداً تلو الآخر^(١) يضاف إلى ذلك أن الخلافة في بغداد كان اهتمامها في هذه الأثناء منصباً على استعادة سلطانها من السلاجقة الذين سلبوها هذا السلطان وجعلوها رمزاً دينياً يستمدون منه شرعيتهم في السلطة ، وقد نجحت الخلافة نجاحاً ملحوظاً في استرداد سلطتها في بغداد بدءاً من عهد الخليفة (المسترشد)^(٢) الذي تولى الخلافة سنة ٥١٢ هـ^(٣) وقد عدّ بعض الدارسين هذه السنة حداً فاصلاً بين استسلام الخلافة للحكم الدخيل، الصحوة التي أنعشت الخلافة فاستردت حريتها واستعادت مكانتها القديمة^(٤) فقد ظلت الخلافة العباسية حتى عام ٥٥٥ هـ ، تخوض معارك عنيفة إحياءً لسلطانها ومحافظة على مكاسبها ، وتوكيداً لمكانتها في النفوس^(٥) ففي عام ٥١٧ هـ تصدى الخليفة المسترشد لـ (دُبَيْس بن صدقة)^(٦) أمير

(١) عماد الدين خليل : المقاومة الإسلامية للفرز الصليبي ، عهد ولاية السلاجقة في الموصل ، مكتبة المعارف ، الرياض : ١٩٨١ ، ص ٢٧-٢٨ .

(٢) هو المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر ، بويغ بالخلافة عند موت أبيه سنة ٥١٢ هـ قتل على أيدي الباطنية بعد وقوعه في أسر السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٢٩ هـ . (تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ١٩٠٢ ، ص : ٤٣١-٤٣٦) .

(٣) نفسه : ٤٣١ .

(٤) أنظر : محمد القزاز : الحياة السياسية في العراق في العهد العباسي الأخير ، النجف ، ١٩٧١ ، ص : ١٠٠ .

(٥) نفسه : ٤٠ .

(٦) دُبَيْس بن صدقة : هو دبَيْس بن منصور بن دُبَيْس الأسدي أبو الأغر أمير الحلة ، خرج على الإمام المسترشد أكثر من مرة ، وقتل على يد السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٢٩ هـ (أنظر : خريدة القصر ، العماد الأصفهاني ، قسم العراق ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، منشورات وزارة الإعلام العراقية ، ج ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٧٠ ، وأنظر كذلك : وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ج ٢ ، ص : ٢٦٣) .

«الحلة»^(١) . الذي قصد بغداد وعات في أطرافها فساداً وانتصر عليه ونهب مركز سلطته^(٢) .

وفي سنة ٥٢١هـ هاجم السلطان «مسعود»^(٣) بغداد واستمر الصراع بين السلطان مسعود والخليفة المسترشد حتى عام ٥٢٩هـ ، وهي السنة التي انتصر فيها جيش السلطان مسعود على جيش الخليفة المسترشد ووقع الخليفة في الأسر وقتل على أيدي (الباطنية) في السنة نفسها^(٤) . وفي سنة ٥٥٣هـ حاصر السلطان مسعود بغداد ففر الخليفة (الراشد)^(٥) إلى الموصل فخلع وعين (المقتفي)^(٦) خلفاً له^(٧) . وظل الراشد يخوض صراعاً مع السلاجقة إلى أن قتل على أيدي الباطنية سنة ٥٣٢هـ في (أصفهان)^(٨) .

بعد وفاة السلطان مسعود عام ٥٤٧هـ بدأ المقتفي الاستعداد لدفع الأعاجم عن بغداد مستغلاً حالة الضعف التي آل إليها السلاجقة بعد موت مسعود ، فقد كان موته موتاً لسعادة بني سلجوق الذين لم تقم لهم راية يُعتد بها^(٩) ، ففي سنة

(١) الحلة : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، (أنظر معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ج ٢ ، ص : ٢٩٤ .

(٢) أنظر تاريخ دمشق : ابن القلانسي ، ص ٢٤٢ .

(٣) أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، الملقب بـ غياث الدين أحد ملوك السلجوقية المشاهير ، استقل بالسلطة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، ودخل بغداد ، كان سلطاناً عادلاً لين الجانب كبير النفس ، فرق مملكته بين أصحابه ولم يكن له من السلطة غير الاسم ، توفي سنة ٥٤٧هـ/ وفيات الأعيان : ٢٠٠:٥) ، وأنظر : (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن إبراهيم الحنبلي : تحقيق : ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص : ٢٥١) .

(٤) أنظر : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية : ابن الأثير تحقيق : عبد القادر طليمات ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص : ٥٠) .

(٥) الراشد : أبو جعفر بن المسترشد ، بويغ بالخلافة بعد قتل أبيه سنة ٥٢٩هـ ، وخلع سنة ٦٣٠هـ (أنظر تاريخ الخلفاء : للسيوطي ، ص ٤٢٦ ، والفريده ، قسم العراق ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

(٦) المقتفي لأمر الله ، أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، بويغ له بالخلافة عند خلع ابن أخيه سنة ٥٢٠هـ ، عزت الخلافة في زمنه . توفي سنة ٥٥٥هـ . (أنظر تاريخ الخلفاء : للسيوطي ، ص : ٤٢٧ ، والفريده ، قسم العراق ، ج ١ ، ص : ١٣٤) .

(٧) تاريخ دمشق : ابن القلانسي ، ص : ٤٠٣ .

(٨) التاريخ الباهر : ابن الأثير ، ص : ٥٣ .

(٩) أنظر : المقرئزي : أحمد بن علي المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص : ٢٨) .

٥٥٢هـ ، انتصر جيش الخليفة المقتفي على جيش السلطان السلجوقي (محمد بن ملكشاه) ^(١) ومن سائده ، وانقطعت بعد هذه المعركة أطماع السلاطين السلجقة عن بغداد ^(٢) .

وانتهى أمر السلجقة في عهد الخليفة (الناصر لدين الله) ^(٣) الذي سير جيشاً إلى همذان لمحاربة السلطان (طغريل) ^(٤) آخر سلاطينهم ، وجرت بين الفريقين حرب شابت منها الذوائب . ثم طارده الخليفة بجيش آخر فقبض عليه واعتقله في قلعة (بأذربيجان) وقتل بعد خروجه في معركة مع السلطان (علاء الدين تكش) ^(٥) سنة ٥٩٠هـ ^(٦) وبقتله ، وهو آخر ملوك السلجوقية ، صارت جمرة آل سلجوق رماداً تذروه الرياح ^(٧) .

ساعد الخلافة العباسية في نزاعها مع السلجقة حالة الصراع الداخلي التي تفشت بعد وفاة السلطان (بركيا روق) ^(٨) فقد تولى السلطنة في العراق بعد وفاة

(١) أبو شجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان الملقب بدغيات الدين رجل الملوك السلجوقية وفحلهم ، استقل بالممالك بعد موت أخيه بركيا روق سنة ٤٩٨هـ ، وقد دانت له الدنيا ولم يبق له منازع ، توفي بأصفهان ودفن فيها سنة ٥١١هـ (وفيات الأعيان : ٥ : ٧١) .

(٢) أنظر الحسيني : صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر الحسيني : زبدة التواريخ ، تحقيق : محمد نور الدين ، دار اقرأ ، ١٩٨٥ ، ص : ٢٤٧ .

(٣) الخليفة الناصر لدين الله : أحمد أبو العباس بن المستفيء بأمر الله ، بويغ له بالخلافة سنة ٥٧٥هـ عند موت أبيه ، وظل في الخلافة إلى وفاته سنة ٦٢٢هـ . (أنظر : تاريخ الخلفاء : للسيوطي : ص : ٤٤٨) .

(٤) السلطان طغريل : طغريل شاه بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه ، آخر ملوك السلجوقية ، وهو الذي خرج على الإمام الناصر ، قتل سنة ٥٩٠هـ ويُعث رأسه إلى بغداد (الصفدي ، الوافي بالوفيات باعتناء هلموت ريتز ، فسيبان ، ط ٢ ، ١٩٦٢ ، ج ١٦ ، ص ٤٥٦) .

(٥) علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش بن ألب أرسلان ، السلطان علاء الدين خوارزم شاه دانت له الممالك وأستولى على الأقاليم ، تغلب عليه الخطا فهرب منهم ، ومات سنة ٦١٧هـ (أنظر ، الوافي بالوفيات ، ط ٢ ، ح ٢ ، ص ٢٧٥ : وأنظر الصفدي ، الشعور بالعمور ، تحقيق عبد الرزاق حسين ، دار عمار ، ١٩٨٨ ، ص ١٢٨) .

(٦) أنظر : زبدة التواريخ : الحسيني ، ص : ٣١٢ .

(٧) نفسه : ٤١٤ .

(٨) بركيا روق : أبو المظفر بركيا روق الملقب ركن الدين ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان الملقب شهاب الدولة ، مجد الملك ، أحد الملوك السلجوقية ، ولي المملكة بعد موت أبيه ، كانت وفاته سنة ٤٩٨هـ . (أنظر وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٨) .

السلطان (غياث الدين محمد بن ملكشاة) سنة ٥١١هـ^(١) ولده السلطان (مغيث الدين محمود)^(٢) وبلغ السلطان (سنجر)^(٣) ما تمّ في العراق من اختلاف الأهواء والفساد فتحرك من خراسان قاصداً بلاد الريّ .

وجمع السلطان محمود عسكريه والتقوا سنة ٥١٢هـ فانهمزم السلطان محمود^(٤) وبعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥هـ تحرك السلطان مسعود أخو السلطان طغرل بطلب السلطنة لنفسه والتقى مع طغرل وعمه سنجر ، ودارت بينهم معركة انهزم فيها مسعود^(٥) . واستمرت المعارك بين طغرل ومسعود إلى أن مات الأول بالمرض سنة ٥٢٨هـ^(٦) وقد أمضى السلطان مسعود مدة ولايته في معارك وحروب داخلية مع السلاطين السلاجقة إلى وفاته سنة ٥٤٧هـ^(٧) .

وفي مصر لم تكن الخلافة الفاطمية أفضل حالاً من الخلافة العباسية في بغداد ، فإذا كانت الخلافة في بغداد تخوض صراعاً مع السلاجقة والامراء المحليين ، من أجل استرداد هيبتها ، فإن الخلافة الفاطمية كانت تخوض صراعاً مع الوزراء المستبدين من أجل بقائها ، ولكن صراعها انتهى بطي صفحتها من التاريخ على أيدي الأيوبيين مع نهاية العقد السابع من القرن السادس^(٨) .

(١) أنظر : حامد نياپ : الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص : ١٣ .

(٢) السلطان مغيث الدين محمود : أبو القاسم محمود بن محمد بن محمد بن ملكشاة بن ألب أرسلان السلجوقي ، الملقب مغيث الدين ، أحد ملوك السلجوقية المشاهير ، تولى السلطنة بعد وفاة والده ، وخطب له بها بمدينة بغداد سنة ٥١٢هـ ، توفي سنة ٥٢٥هـ . (أنظر وفيات الأعيان : ٥ : ١٨٢) .

(٣) السلطان سنجر : أبو الحارث سنجر ملكشاة بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، سلطان خراسان وغزنة ، وما وراء النهر ، خطب له بالعراقيين وأذربيجان وأران وأرمينية والشام والموصل ، وديار بكر وربيعة والحرمين (وفيات الأعيان : ٢ : ٤٢٧) .

(٤) أنظر : زبدة التواريخ : الحسيني : ص : ١٧٨ .

(٥) نفسه : ١٩٧ .

(٦) نفسه : ٢٠٠ .

(٧) نفسه : ٢٠٧ .

(٨) أنظر : المقدسي : (أبو شامه شهاب الدين : الروهتين في أخبار الدولتين : تحقيق محمد حلمي ، المؤسسة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ق ١ ، ص : ٤٩٢) .

فقد كان الخلفاء مسلوبي الإرادة وليس لهم من أمر الخلافة إلا اسمها والأمر كله للوزير مدبر المملكة^(١) ولم تستسلم الخلافة الفاطمية إلا بعد أن استنفذت كل قواها في صراعها مع الطامعين في السلطة والوزارة . ومن صور هذا الصراع : أن الخليفة (الأمر)^(٢) قبض على وزيره (المأمون بن البطانحي)^(٣) سنة ٥١٩ هـ وصلبه سنة ٥٢٢ هـ^(٤) .

وفي سنة ٥٢٤ هـ وثبت النزارية على الخليفة الأمر ، وقتلته^(٥) . وفي سنة ٥٢٥ هـ ، قتل الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي^(٦) وخرج الخليفة (الحافظ)^(٧) من الخزانة التي كان معتقلاً فيها ، وبويع بالخلافة بيعة عامة^(٨) .

وفي سنة ٥٤٥ هـ اختلف وزيراً مصر (ابن مصال)^(٩) و (العادل بن السلار)^(١٠)

(١) أنظر : ابن ميسر : تقي الدين أحمد بن علي المقرئ : المنتقى من أخبار مصر ، تحقيق : أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة . ص ٧٦ .

(٢) أبو علي الأمر بأحكام الله بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر ابن الحاكم العبيدي بويع بالولاية يوم مات أبوه ، سنة ٤٩٥ هـ وكان عمره خمس سنوات وقتل سنة ٥٢٤ هـ (وفيات الأعيان : ٥ : ٢٩٩) .

(٣) الملك أبو عبد الله المأمون بن البطانحي ، وزير الديار المصرية والدولة العبيدية ، قبض عليه الخليفة الأمر وصلبه سنة ٥١٩ هـ (أنظر : شمس الدين الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة : ١٩٨٤ ، ج ١٩ ، ص ٥٥٣) .

(٤) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ١٠٣ .

(٥) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر : ص : ١١١ .

(٦) أبو القاسم هنشاه الملقب الملك الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي ، وزير للأمر العبيدي ودبر دولته ، فدبر الأمر قتله وكان ذلك سنة ٥١٥ هـ (أنظر وفيات الأعيان : ٤٤٨) .

(٧) أبو الميمون عبد المجيد ، الملقب الحافظ ، ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز ، بويع بالولاية : يوم قتل ابن عمه الأمر ، ولياً للعهد ومدبراً للملكة حتى يظهر الحمل المخلف عن الأمر سنة ٥٢٤ هـ . وتوفي سنة ٥٤٣ هـ (أنظر وفيات الأعيان : ٣ : ٢٣٥) .

(٨) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر : ١١٥-١١٦ .

(٩) نجم الدين بن مصال : سليم بن محمد بن مصال ، الوزير نجم الدين ، حار من أكابر الدولة العبيدية وتولى الوزارة للظاهر نحواً من خمسين يوماً قتله العادل ابن سلار سنة : ٥٤٤ هـ (الوافي بالوفيات : ٣٢٩ : ١٥) .

(١٠) العادل بن سلار : أبو الحسن علي بن السلار . المنعوت بالملك العادل سيف الدين ، وزير الخافق العبيدي صاحب مصر تولى الوزارة سنة ٥٤٣ هـ ، قتل سنة ٥٤٨ هـ على يد نصر ابن الوزير عباس الصنهاجي (وفيات الأعيان : ٤١٦ : ٣) .

وجمعا العساكر ، واقتتلا ، فقتل ابن مصال ، واستقل ابن سلاّر بالوزارة والملك ولكنه قتل في العام نفسه ^(١) . وفي سنة ٥٤٩هـ هرب (عباس) ^(٢) وزير (الفائز) ^(٣) ، وابنه (نصر) لما حصل منهما من قتل الخليفة (الظاهر) ^(٤) .

وملك الصالح طلائع بن رزّيك ^(٥) ديار مصر من غير قتال وعظم أمره ^(٦) واستمرت وزارته حتى سنة ٥٥٦هـ وقتل بتدبير من عمّة الخليفة الفائز ، وتولى الوزارة من بعده ابنه (رزّيك) ^(٧) .

وانتهت وزارته على يد (شاور) ^(٨) ، الذي دخل في صراع مع (ضرغام) ^(٩) على الوزارة فانتهصر الأخير ، وهرب شاور إلى الشام طالباً النجدة من (نور الدين

(١) انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ ، ج ٥ ، ص : ٢٩٨ .

(٢) عباس : العباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن غنيم بن المعز بن باديس . أبو الفضل . وزير الفائز عيسى العبيدي ، قاتل الفائز والظاهر من خلفاء بني عبّيد ، هرب بعد مقتل الظاهر إلى الشام ولكن الفرنجة قتلوه في الطريق (الوافي) : ١٦ : ٦٤٦ .

(٣) الفائز : أبو القاسم عيسى الملقب بالفائز بن الظاهر بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر ، تولى الأمر بعد مقتل أبيه الظاهر ، لم تطل مدة ولايته إذ توفي سنة ٥٥٥هـ (وفيات الأعيان : ٣ : ٤٩١) .

(٤) الظاهر : أبو المنصور إسماعيل الملقب ابن الحافظ محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم ، بويح له بالولاية يوم وفاة أبيه سنة ٥٤٣هـ ، قتله نصر ابن الوزير عباس سنة ٥٤٩هـ (وفيات الأعيان : ١ : ٢٢٧) .

(٥) طلائع بن رزّيك : أبو الغارات طلائع بن رزّيك الملقب الملك وزير مصر ، تولى الوزارة في أيام الفائز واستقل بالأمور وتدبير أموال الدولة . تولى الوزارة سنة ٥٤٩هـ وقتل في ولاية العاضد سنة ٥٥٦هـ (وفيات الأعيان : ٢ : ٢٥٦) .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص : ٣١١ .

(٧) رزّيك : روزّيك (بضم الراء وتشديد الزاي) العادل محي الدين أبو شجاع ابن الصالح طلائع بن رزّيك تولى الوزارة للعاضد بعد مقتل أبيه ، واستمرت ما يقرب ثلاث سنوات ، قتله شاور سنة ٥٥٨هـ ، (انظر الوافي بالوفيات : ١٤ : ١١٨) .

(٨) أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشاثر . تولى الوزارة بعد تغلبه على رزّيك ودخل في صراع على الوزارة مع ضرغام ، قتل سنة أربع وخمسين وخمسمائة . (وفيات الأعيان : ٢ : ٤٣٩) .

(٩) ضرغام بن عامر بن سوار الملك المنصور ، أبو الأشبال اللخمي المنذري ، استولى على الديار المصرية بعد هروب شاور ووزر للعاضد ، قتل سنة ٥٥٢هـ . (الوافي بالوفيات : ١٦ : ٣٦٥) .

زنكي^(١) الذي سير معه جيشاً بقيادة (أسد الدين شيركوه)^(٢) يعضده (صلاح الدين الأيوبي)^(٣) سنة ٥٥٧ هـ على شروط مقرره ، فدخلوا القاهرة ، وقتلوا (ضرغاما) ؛ فاستقام الأمر لشاور في القاهرة ، ولما ثبت أمره ظهرت منه إمارات الغدر فاستنجد بالصلبيين ضد أسد الدين شيركوه فدخلوا مصر فاضطر أسد الدين للخروج منها والعودة إلى الشام^(٤) .

وأمام استبداد شاور وظلمه ، استنجد (العاقد)^(٥) بنور الدين زنكي فسير إليه جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٢ هـ ، وانتهت هذه الجولة بالصلح وعودة أسد الدين إلى دمشق^(٦) . ولما اشتدت وطأة الفرنج على أهل مصر ، استنجد شاور والعاقد بنور الدين فسير إليهم للمرة الثالثة جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي ، وفي هذه المرة قتل شاور على يد صلاح الدين ، وتولى الوزارة في مصر أسد الدين شيركوه ، وبعد وفاته تولاها صلاح الدين الأيوبي^(٧) وعمل صلاح الدين بعد توليه أمر الوزارة في مصر بأمر نور الدين زنكي على إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر والدعوة لبني العباس في بغداد ، وتم له ذلك سنة ٥٦٧ هـ^(٨) .

(١) نور الدين زنكي : أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن أقي سنقر ، الملقب الملك العادل نور الدين ، صاحب الشام والجزيرة ومصر ، كان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً مجاهداً في سبيل الله حارب الصليبيين وانتصر عليهم في وقعات كثيرة واسترد منهم عدداً كبيراً من الحصون والمدن الإسلامية (وفيات الأعيان : ٥ : ١٨٤) .

(٢) شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب ، الملك المنصور أسد الدين وزير العاقد ، كان من كبار أمراء نور الدين سيره إلى مصر ثلاث مرات واستقر بها ومات سنة ٥٦٤ هـ (الوافي : ١٦ : ٢١٤) .

(٣) صلاح الدين الأيوبي : أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي ، الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمينية ، ولد سنة ٥٢٢ هـ في قلعة تكريت . دخل في صراع مع الصليبيين حتى وفاته واستطاع أن يحرر القدس من قبضتهم . توفي سنة ٥٨٩ هـ (وفيات الأعيان : ٧ : ١٢٩) .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص : ٣٤٨ .

(٥) أبو محمد عبد الله الملقب العاقد بن يوسف بن الحافظ ، آخر ملوك مصر من العبديين ، ولي المملكة بعد وفاة ابن عمه الفائز وتوفي سنة ٥٦٧ هـ (وفيات الأعيان : ٣ : ١٠٩) .

(٦) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٥ ، ص : ٣٤٨ .

(٧) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص : ٣٥٢ .

(٨) نفسه : ٣٥٥ .

لم تكن الشام وبلاد الجزيرة في منأى عن الأحداث الدائرة في مصر والعراق . وكان أبرز ما يميز ظروفها السياسية الصراع بين الإمارات الإسلامية نفسها من جهة وبين الإمارات الصليبية من جهة أخرى . وقد حاولت الإمارات الناشئة في أطراف الشام أن تضطلع بمهمة مقاومة الزحف الصليبي ، ولكن هذه الإمارات كانت صغيرة هشه يخشى بعضها بعضاً وتنعدم الثقة بين حكامها ، إذا تعاونت ضد الصليبيين ، فإن هذا التعاون يكون بدافع من الحفاظ على نفسها من الخطر الصليبي ، وحين يشعرون أن الخطر على ممتلكاتهم قد جاء من إمارة إسلامية أخرى، فلا مانع عندهم من الاستعانة بالصليبيين ضد إخوانهم ، فقد استعان (رضوان) ^(١) صاحب حلب سنة ٥٠٢ هـ (بطنكري) الفرنجي صاحب أنطاكية ضد (جاولي سقاوه) ^(٢) أمير الموصل ، وأرسل إليه ستمائه فارس ، فلما سمع جاولي الخبر أرسل إلى (القمص) ^(٣) صاحب الرها يستدعيه إلى مساعدته وأطلق له ما بقي عليه من مال المفاداة .

ظلت الساحة السياسية الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة تفتقر إلى وجود قيادة إسلامية قوية تضطلع بدور الجهاد حتى ظهور (آل زنكي) في إمارة الموصل مع بداية العقد الثالث من القرن السادس . فقد كان الأتابك (عماد الدين زنكي) ^(٤) . أول من اضطلع بتوحيد جهود المسلمين وتوجيهها ضد الصليبيين في بلاد الشام والجزيرة حين بدأت ولايته على الموصل سنة ٥٢١ هـ ^(٥) . وقد كانت بلاد المسلمين في هذه الديار على أسوأ حال عندما تولى عماد الدين زنكي أمر الموصل . وقد عدّ المؤرخون الذين كتبوا عن هذه الفترة أن ظهور آل زنكي كان بمثابة إنقاذ للأمة

(١) رضوان بن السلطان تتش بن ألب أرسلان فخر الدولة السلجوقي ، ولي سلطنة حلب بعد أبيه إلى أن

مات بها سنة ٥٠٧ هـ (الوافي : ١٤ : ١٢٩) . ٤٤٥٤٨٣

(٢) والتي من ولاية السلاجقة أطمعه السلطان محمد بن ملكشاه الموصل سنة (٥٠٠ هـ) وقد أخذها بعد حصار طويل ، وكانت وفاته سنة (٥١٠ هـ) (الكامل في التاريخ : ٩ : ١٦٢) .

(٣) القمص : أو القومص : الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية (جمال الدين بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ١٩٥٧ ، حاشية ٢ ، ج ٢ ، ص ٢٩) .

(٤) عماد الدين زنكي : أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالجابج ، صاحب الموصل ، حارب الصليبيين وفتح أول إماراتهم في المشرق الإسلامي (الرّها) وقتل سنة ٥٤١ هـ وهو يحاصر قلعة جعبر : (وفيات الاعيان : ٢ : ٣٢٧) .

(٥) الروضتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٥ .

الإسلامية من كيوتهما^(١) وقد وصف ابن الأثير حالة المسلمين غداة تولي عماد الدين زنكي أمر الموصل وصفاً يشف عن حالة الضعف والذل والهوان فقال « .. ولما ملك المولى الشهيد البلاد كان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أخبارهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم . وعلا شرهم واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الشام إيديهم ، وضعف أهلها عن كف عاديهم وتتابعت غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب .. وناهيك بهذه الحالة ذلّة للمسلمين وصفاً ، وللكافرين قدرة واقتداراً »^(٢) .

وكان عماد الدين زنكي خير من تولى هذا الأمر « فغزا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم ، فأصبحت أهلة الإسلام مبدرة بعد إسرارها، وشموس الإيمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وماس المسلمون في حلل من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل ، واستنقذوا من أهل التثليث حصوناً ، ومعاقل ، وجازوهم بما أسلفوا من الدخول الطويل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية والشامية جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر وقال : يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصاري ولاوزر ، فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعاً ولم يستكبر ، فيا لها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة فرقت من الشرك شمله^(٣) وبعد أن نظم عماد الدين أمور الموصل ، استولى على (نصيبين)^(٤) من الأراتقة : وأتجه إلى (حران)^(٥) التي كانت دائماً تحت رحمة الصليبيين ، وقد اختار زنكي إلا يبدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين إلا بعد أن يضع يده على حلب أولاً ، وينظم أمور تلك البلاد ، فاضطر عقب استيلائه على نصيبين إلى عقد هدنة مع

(١) الروضتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ١ ، ص : ٧٥ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص : ٣٢ - ٣٤ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص : ٣٢ - ٣٤ .

(٤) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام (معجم البلدان ، ياقوت : ٥ : ٢٨٨) .

(٥) حران : مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام والروم ، بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان (أنظر معجم البلدان ، ياقوت : ٢ : ٢٣٥) .

(جوسلين)^(١) .

كانت الظروف مهياة لعماد الدين زنكي ليقوم بمشروعه الضخم ، وهو توحيد القوى الإسلامية في العراق والشام بعد وفاة (طغتكين)^(٢) أتابك دمشق العنيد ، ولكي يتمكن من إتمام ذلك المشروع لقيام بخطوتين الأولى زواجه من (خاتون بنت الملك رضوان) ملك حلب ، وذلك ليثبت مركزه في حلب ، ويرث عن طريق تلك الزوجة حقوق بيت رضوان في شمال الشام . وكانت الخطوة الثانية : ذهابه إلى بلاط السلطان محمود السلجوقي الذي منحه التوقيع بملك الغرب كله .

وبعد ذلك عاد زنكي إلى حلب في عسكره عازماً على الجهاد ، ومعه منشور بالجزيرة والشام وما اتصل بها^(٣) . وقد اعترض مشروع زنكي هذا عدة عقبات جعلته يبطئ بعض الشيء في تنفيذه ، منها : معارضة الأمراء المحليين وخاصة الأراقة ، وتدخله في الأحداث التي كانت تدور في بلاد فارس والعراق .

وبالرغم من هذه المعوقات استطاع عماد الدين زنكي أن يحقق انتصارات على الصليبيين تكلفت بفتح الرها سنة ٥٢٩ هـ وهي من أشرف المدن عند النصارى ، وهي إحدى الكراسي عندهم^(٤) وقد كان فتح الرها من أعظم الانتصارات على الفرنج منذ دخولهم بلاد الشام، وكان بداية تحول في الصراع بين القوى الإسلامية والقوى الغازية ، وتعد استعادة الرها سنة ٥٢٩ هـ بداية لصحوة المشرق الإسلامي وقد عدّها بعضهم قمة المرحلة الأولى في هذه الصحوة^(٥) لكن حركة العماد الجهادية تعرضت لنكسه قوية بمقتله على يد غلمانته وهو في أوج

(١) جوسلين الثالث بن كورثيني . الأمير الأسمي للرّها . كان سجيناً في حلب ثم أطلق سراحه : (مفرج الكروب ، حاشية ٢ ج ٢ : ٣٨٠) .

(٢) الأمير أبو منصور المعروف بآتابك ، تملك دمشق بعد موت دقاق . كان شهماً شديداً على الفرنج ، توفي سنة ٥٢٢ هـ (الوافي بالوفيات : ١٦ : ٤٥١) وسير أعلام النبلاء : ١٩ : ٢٦) .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ ، ص : ٥٥٢ .

(٤) بدر الدين بن قاضي شهبه ، الكواكب الدرّية في السيرة النورية ، تمقيق : محمد زايد ، دار الكتب الجديدة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١١٦ .

(٥) سوادى عبد محمد : مقاله بعنوان : الإنفاة العربية الإسلامية بوجه الخطر الصليبي ، مجلة المورد ، مجلد ١٤ ، العدد الثاني ، ١٩٨٥ ، ص : ٥ .

جهاده سنة ٥٤١ هـ عندما كان يحاصر قلعة (جَعْبَر) ^(١).

استمرت حركة الجهاد بقيادة (نور الدين زنكي) ، الذي جاهد الثغور ، وانتزع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة وحصناً ، منها الرها ^(٢). وقد أخلص السلطان نور الدين محمود النية في الجهاد ، وقام بأعمال جليلة ضد الفرنج ، وملك دمشق سنة ٥٤٩ هـ ووحد مصر والشام سنة ٥٦٧ هـ ، ودعا لبني العباس على منابر مصر والقاهرة ^(٣). وبعد عامين من توحيد مصر والشام توفي نور الدين زنكي سنة ٥٦٩ هـ ^(٤) ، وقام بعده ابنه الملك (الصالح إسماعيل) ^(٥) وكان عمره إحدى عشرة سنة وأطاعه الناس بالشام . وصلاح الدين بمصر ، وخطب له بها ، وضرب السكة باسمه ^(٦) ، وبعد ذلك قام صلاح الدين ببسط نفوذه على بلاد الشام والجزيرة لتخليص تلك البلاد من خطر الصراعات بين ورثة نور الدين زنكي ، ولتوحيد القوى الإسلامية لرد خطر الفرنجة عن ديار المسلمين ، ويصف ابن شداد هذه الخطوة بقوله : « ولما تحقق صلاح الدين من وفاة نور الدين ، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد تجهز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ، فتجهز بجمع كثير من العساكر ، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ونظم أمور سياستها ، وخرج هو سائراً مع أهله وأقاربه ، وهو ي كاتب أهل البلاد وأمراثها . فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ^(٧).

(١) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية : ١٢٢ . قلعة جَعْبَر : بالفتح ثم السكون ، قلعة على الفرات بين بالس والرقمة قرب صفين (معجم البلدان ، ياقوت : ٢ : ١٤١) .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دار المعارف العثمانية ، ١٣٥٨ ، ج ١ ، ص : ٢٤٨ .

(٣) الكامل : لابن الأثير ، ج ١ ، ص : ٩٦ .

(٤) نفسه : ١٠ : ٥٥ .

(٥) الملك الصالح إسماعيل (إسماعيل بن محمود بن زنكي الملك الصالح نور الدين ابن الشهيد العادل عماد الدين) . تولى الأمر في دمشق بعد وفاة أبيه ثم انتقل إلى حلب ، توفي سنة ٥٧٧ هـ (أنظر : الوافي : الوفيات : ٩ : ٢٢٣) .

(٦) ابن الأثير : الكامل : ١٠ : ٩٦ .

(٧) ابن شداد القاضي : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار المصرية ، ١٩٦٤ ، ص : ٥٠ .

وعاد صلاح الدين إلى الشام مرة ثانية عام ٥٧٨ هـ وأغار على الفرنج ونهب بيروت ، وعبر الفرات ، وملك ديار الجزيرة ، ومصر والموصل ثم تركها ، وسار إلى (سنجار) ^(١) وملكها ^(٢) ، وتملك مدينة حلب سنة ٥٧٩ هـ ^(٣) وبعد ذلك أخذ يُعد العدة لمعركة فاصلة مع الصليبيين في بلاد الشام ، فكانت معركة حطين عام ٥٨٢ هـ ^(٤) وكانت هذه المعركة بداية للانهييار الصليبي في المشرق الإسلامي ، فقد بشرت بسقوط مملكة بيت المقدس ، وهي أهم الممالك الصليبية في بلاد الشام ^(٥) .

سار صلاح الدين بعد هذه المعركة إلى الساحل ، فاسترد مدينة عكا من الفرنجة دون قتال . وفتح عدة حصون ومدن ، ثم سار إلى (عسقلان) ^(٦) والقدس واجتمع بأخيه (العادل) ^(٧) ومن معه من عساكر مصر ، فتسلم مدينة عسقلان ^(٨) . وبعدها تم فتح بيت المقدس ، وكان فتحاً عظيماً سجله التاريخ ، وما زال هذا الفتح ماثرة تذكراً لصلاح الدين ، وستبقى كذكى مدى الأيام ^(٩) ، وتابع صلاح الدين حركته الجهادية ففتح الكرك بعد حصار طويل ^(١٠) . لكن الأجل لم يمهل طويلاً لإتمام مشروعه الرامي إلى تطهير بلاد المسلمين من دنس الفرنجة فكانت وفاته سنة ٥٨٩ هـ وهو في أوج جهاده ^(١١) .

(١) سنجار : بكسر أوله وسكون ثانيه ، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام (معجم البلدان ، ياقوت : ٢ : ٢٦٢) .

(٢) ابن الأثير : الكامل : ١٠ : ١١٢ .

(٣) نفسه : ١٠ : ١٢١ .

(٤) نفسه : ١٠ : ١٤٥ .

(٥) سهيل زكار : حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص : ١٦٧ .

(٦) عسقلان : بفتح أوله وسكون ثانيه ، مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين (معجم البلدان ، ياقوت : ٤ : ١٢٢) .

(٧) أبو بكر محمد بن أيوب الملقب بالملك العادل سيف الدين ، أخو صلاح الدين ، كان ينوب عن أخيه صلاح الدين في مصر . وملك الديار المصرية والشامية معاً ثم ملك اليمن سنة ٦١٢ هـ توفي سنة ٦١٥ هـ ودفن في دمشق (أنظر وفيات الأعيان : ٥ : ٧٤) .

(٨) ابن الأثير : الكامل : ١٠ : ١٥٤ .

(٩) نفسه : ١٠ : ١٥٤ .

(١٠) نفسه : ١٠ : ١٧٥ .

(١١) نفسه : ١٠ : ٢٢٤ .

توزعت مملكة صلاح الدين بعد وفاته بين ورثته فملك ابنه الأكبر (الأفضل) ^(١) دمشق والساحل وبيت المقدس ، وجميع الأعمال ^(٢) إلى (الداروم) ^(٣) ، وكان (العزیز عثمان) ^(٤) بمصر فاستولى عليها ، واستقر ملكه بها ، وأما ولده (الظاهر غازي) ^(٥) فكان بحلب ، فاستولى عليها وعلى جميع الأعمال ^(٦) وكان بحماه (محمود بن تقي الدين) عمه فأطاعه ، وصار معه ، وكان بحمص (شيركوه بن محمد بن شيركوه) ^(٧) فأطاع الملك الأفضل ، وكان الملك العادل بالكرك فانضم إلى الأفضل ^(٨) .

أدى هذا التقسيم إلى تصدع الجبهة الإسلامية الموحدة التي قضى صلاح الدين سنوات في بنائها والتي حققت أعظم الانتصارات على الصليبيين ، وحجّمت نفوذهم في بلاد الشام . فكان من نتائج هذا التقسيم أن دبّ الصراع بين ورثة صلاح الدين على السلطة ، ففي سنة ٥٩٠ هـ حصر الملك العزيز صاحب مصر ، دمشق ^(٩) . وفي سنة ٥٩٢ هـ ملكها العادل من الأفضل ^(١٠) وفي سنة ٥٩٥ هـ حصر

(١) الأفضل أبو الحسن علي الملقب الملك الأفضل نور الدين ، ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . كان أكبر أولاد أبيه وإليه كانت ولاية عهده ، استقل بمملكة دمشق بعد وفاة أبيه إلى أن أخلاها منه أخوه العزيز وعمه العادل ، (وفيات الأعيان : ٣ : ٤١٩) .

(٢) جميع الأعمال : مثل : بعلبك ، صرخد ، بصرى ، بانثياس ، هونين ، تبنين (الكامل : لابن الأثير : ١٠ : ٢٢٥) .

(٣) الداروم : قلعة بعد غزه للقاصد إلى مصر ، بينها وبين البحر مقدار فرسخ (معجم البلدان : ٢ : ٤٢٤) .

(٤) عماد الدين أبو الفتح عثمان : ابن صلاح الدين كان نائباً عن أبيه في الديار المصرية . واستقل بها بعد وفاة أبيه ، توفي سنة ٥٩٥ هـ (وفيات الأعيان : ٣ : ٢٥١) .

(٥) الظاهر غازي : ابن صلاح الدين أعطاه أبوه مملكة حلب سنة ٥٨٢ هـ ، فظل فيها إلى أن وافته المنية سنة ٦١٢ هـ (وفيات الأعيان : ٤ : ٦) .

(٦) جميع الأعمال مثل : حارم ، وقتل باشر ، وعزاز ، وبرزيه ، ودرج ساك ومنبج (الكامل : لابن الأثير : ١٠ : ٢٢٥) .

(٧) شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي بن مروان بن يعقوب ، صاحب حمص ابن الأمير ناصر الدين ابن الملك المنصور أسد الدين ، أعطاه صلاح الدين حمص بمصر سنة ٦٣٧ هـ (الوافي بالوفيات : ١٦ : ٢١٦) .

(٨) الكامل لابن الأثير : ١٠ : ٢٢٥) .

(٩) نفسه : ١٠ : ٢٣٤) .

(١٠) نفسه : ١٠ : ٢٤٣) .

الأفضل مدينة دمشق ثم عاد عنها ^(١) . وفي سنة ٥٩٦ هـ ملك العادل الديار المصرية بعد أن كانت بيد العزيز عثمان ^(٢) . وفي سنة ٥٩٧ هـ ملك (الظاهر) صاحب حلب منبج وغيرها من بلاد الشام وملك هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق ^(٣) وقد أدت هذه الصراعات إلى ضعف الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين مما مكنهم من إعادة تنظيم صفوفهم وبناء قوتهم من جديد ، بعد أن حطمها صلاح الدين في معركة حطين ، وما تلاها ، وبدأوا يستعيدون مواقعهم التي حررها صلاح الدين ، ففي سنة ٥٩٢ هـ ملكوا بيروت من المسلمين وحصروا تبنين ^(٤) .

وهكذا فإن هذا القرن قد انتهى دون أن يحقق صلاح الدين لمشروعه النجاح التام ، وذلك بسبب الصراعات التي دبت بين أبناء البيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين . ويمكن القول إن أبرز ما يميز هذا القرن كثرة الصراعات الداخلية بين القوى الإسلامية ، مما أعاقها عن مواجهة الخطر الصليبي . ومكّن لهؤلاء الغزاة أن يستقروا ويكونوا لهم الممالك التي شغلت الدولتين الزنكية والأيوبية طوال هذا القرن بصراع مرير ، كلف المسلمين من الخسائر في الممتلكات والأرواح الشيء الكثير . ولكن هاتين الدولتين استطاعتا الصمود أمام هذا الخطر وحققتا إنجازاً عظيماً في هذا المضمار على أيدي ثلاثة من قادتها العظام ، فقد تحقق على يدي عماد الدين زنكي تكوين النواة الأولى للمقاومة الإسلامية ضد الصليبيين عندما تولى الأمر في إمارة الموصل . وقاد حرباً ضد الصليبيين تكلفت بالنجاح وحققت انتصارات مهمة أبرزها تحرير الرها . وأنجز خليفته نور الدين إنجازات كبيرة في جهاده ضد الصليبيين ، وفي مجال توحيد القوى الإسلامية بضمه مصر إلى الشام ، والقضاء على الخلافة الفاطمية فيها ، وأما صلاح الدين فقد أعاد توحيد مصر والشام والقضاء على الخلافة الفاطمية فيها ، ووجّه ضربة حاسمة للصليبيين بانتصاره عليهم في معركة حطين وتحرير بيت المقدس .

(١) الكامل لابن الأثير : ١٠ : ٢٥٧ .

(٢) نفسه : ١٠ : ٢٦٥ .

(٣) نفسه : ١٠ : ٢٦٩ .

(٤) نفسه : ١٠ : ٢٤٥ .

الحياة الاجتماعية

كان للظروف السياسية التي شهدها هذا القرن أثر واضح في رسم ملامح الحياة الاجتماعية فيه ، فإذا كانت الحياة السياسية مضطربة يحكمها الصراع والنزعات ، والحروب ، فإن الحياة الاجتماعية لن تعرف الهدوء والاستقرار الذي تحتاج إليه المجتمعات للرفي والإزدهار . وهكذا كانت الحياة في القرن السادس في بلاد الشام ومصر والعراق ، وانشغل المسلمون بالحروب والفتن عن الاهتمام بأمور الحياة الاقتصادية ، بسبب تلك الحروب ، وتسخير الاقتصاد لخدمة الحرب . ونتيجة لهذه الظروف ، فقد تشكل المجتمع على أساس في نظام الإقطاع . فكانت السلطة المركزية تمنح القادة العسكريين إقطاعات يعيشون فيها مقابل مشاركتهم في الحرب ضد الصليبيين وغيرهم من الأعداء . وقد كان لهذا النظام نتائجه الإيجابية على مستوى الصراع مع القوى الصليبية الفازية ، وكان له بالمقابل نتائج سلبية على فئات واسعة من الشعب ، عانت من ظلم الحكام أصحاب الإقطاع واستبدادهم الذين تعسفوا في جمع الأموال من العاملين في إقطاعاتهم .

وكان من نتائج الحروب والصراعات على العناصر السكانية في المجتمع الإسلامي ، أن تغيرت تركيبته فتشكل خليط من الأجناس : « فقد اجتمعت في بلاد الشام في هذا القرن طوائف متعددة الأصول ، والمشارب ، والعقائد ، والاتجاهات ، وحرص كل فريق منها على التمسك بعاداته وتقاليده ، ومعتقداته ، مما أدى إلى ظهور تشكيلة واسعة من الأوضاع الاجتماعية ، وهكذا نجد أنفسنا أمام عدة مجتمعات لا مجتمع واحد أو مجتمعين في بلاد الشام في زمن الحروب الصليبية » ^(١) . ولا يطمئن بعض الدارسين إلى التقسيم السياسي للمجتمع في بلاد الشام في زمن الحروب الصليبية ، ويرى أن المعسكرين السياسيين الإسلامي والفرنجي اللذين يشكلان المجتمع في بلاد الشام ينقسمان بدورهما إلى مجتمعات أصغر لها خصائصها وتقاليدها ، وربما لا تربط بينهما سوى رابطة الجهاد الديني ضد الفريق الآخر ^(٢) .

(١) سعيد عاشور ، مؤتمر بلاد الشام ، تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر ، الدار

المتحدة للنشر ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٤ ، ص ٢١٩ .

(٢) نفسه : ٢١٩ : ٢٢٠ .

انقسم المجتمع في هذا العصر قسمين متميزين هما : الفئة الخاصة ، والفئة العامة ، ولكل فئة من هذه الفئات فروع ، فالعامة بمفهوم ذلك الزمان هم : أهل المهن والصنائع والتجار ، والخدم من الإماء والرقيق ، والعيارين والشطّار ، وأما الفئة الخاصة فتضم الخليفة ، وخواصه ، وأتباعه ، وأعوانه في الحكم فضلاً عن كبار أمراء الجيش وكبار التجار والأثرياء^(١) .

وقد عاش الناس بين البادية والمدينة ، فاشتغل أهل المدينة بالتجارة والصناعة والحرف اليدوية ، ومارس أهل الريف أعمال الزراعة والرعي ، وتعرض السكان في مدنهم وحواضرهم في هذا القرن لهزات كبيرة فرضتها طبيعة العصر الذي اتّسم بالصراعات المستمرة ، فقد تعرضت مدن كثيرة للدمار والنهب والسلب، والحرق ، وقتل أهلها وتشردوا ، أو أخذوا سبايا ، وذلك بسبب المعارك التي كانت تدور رحاها بين المسلمين والصليبيين والفتن الداخلية . فقد تعرضت طرابلس سنة ٥٠٢هـ لهجوم صليبي^(٢) إذ ملكوها بالسيف ونهبوا حاميتها وأسروا رجالها ، وسبوا نساءها وأطفالها^(٣) . وفي سنة ٥٠٦هـ هجم (بغدوين)^(٤) على دمشق : فنهبها وخرّبها ، وانقطعت الموارد عنها ؛ فغلت الأسعار فيها وقلّت الاقوات^(٥) . وفي سنة ٥٢١هـ هاجم وادي موسى فنهب أهله وسباهم وشردهم^(٦) . وفي سنة ٥٦٤هـ أحرقت مصر عند تعرضها لهجوم الصليبيين^(٧) وظلت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً^(٨) .

ردّ المسلمون في بعض الأحيان على أفعال الفرنجة بمثلاً من تخريب وتدمير بلدانهم وحصونهم ، واقتصاد ممالكهم ، فحين علم حاكم دمشق سنة ٥٢٨هـ بعزم الفرنج على مهاجمتها : قصد بلادهم فظفر بما لا يحصى كثرة من المواشي

(١) إكتمال إسماعيل : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العراق من ٤٤٧ هـ - ٥٩٠ هـ ، رسالة ماجستير جامعة دمشق : ١٩٩٠ م ، ص : ٦ .

(٢) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٢٦٢ .

(٣) أحد زعماء الفرنجة ، كان جباراً خبيثاً شجاعاً ، فتح القدس ، وجعلها ملكة له ، توفي سنة ٥١١هـ (ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عُنيت بنشره مكتبة القدس ، ١٣٥٠ هـ ، ٤ : ٣٠٠) .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٩ : ١٤٩ .

(٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٣٤٧ .

(٦) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية : ١٧٥ .

والعوامل والنسوان ، والصبيان والرجال وقتل من صادفه ، وسبى من ظهر له ، وأحرق ما وجده ، وامتلات أيدي التركمان من غنائمهم^(١) . وحين استرد عماد الدين زنكي الرها من يد الصليبيين سنة ٥٢٩هـ ملكها بالسيف وشرع في النهب والقتل والأسر والسلب ، وامتلات الأيدي من المال والأثاث والدواب والغنائم والسبي^(٢) . لم يكن الدمار مقتصرأ في أسبابه على الحروب بين المسلمين والفرنجة ، بل ساهمت الفتن والحروب الداخلية في الكثير من الدمار ، وقتلت وشردت أعداداً كبيرة من السكان ، ففي سنة ٥٢٠هـ يروي ابن الأثير : أنه كثرت الفساد في العراق وتطرق المفسدون والعساكر للنهب^٣ فنهبوا الحريم الظاهري ، وشارع دار الرقيق ، وبعض طرق خراسان ، ونُهبت الأموال العامة أيضاً ببغداد علانية لا مانع لهم من ذلك^(٤) .

وفي سنة ٥٤٢هـ ، اضطربت الأحوال في بغداد وظهر العبث والفساد في نواحيها ، وضواحيها ، إذ اجتمع الأمير (دُبَيْس بن صدقه)^(٥) مع بعض الأمراء بقصد مهاجمة بغداد ، واتفقوا في تقدير خمسة آلاف فارس ، ووصلوا إلى بغداد على حين غفلة من أهلها ، وهاجموها ، وحصلوا بدار السلطان وتناهوا في الفساد والعناد بحيث وقعت الحرب بينهم ، وقتل من النظار وغيرهم نحو خمسمائة إنسان في الطرقات ، وتناهوا في العبث والإفساد في الأعمال والاستيلاء على الغلال^(٦) . ولم تسلم القوافل التجارية في بعض الأحيان من النهب والسلب ، فقد تعرضت قافلة للمسلمين سنة ٥٨٢هـ للنهب على يد (أرناط)^(٧) صاحب الكرك الذي غدر بعد أن هادنه صلاح الدين^(٨) . وطال النهب والسلب قوافل الحجاج ؛ فقد خرج العرب سنة ٥٤٥هـ على الركب العراقي بين مكة والمدينة^٩ وظهرت العرب على الحجاج وأخذوا

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٢٨٤ .

(٢) نفسه : ٤٣٦ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر : ٥٢ .

(٤) دُبَيْس بن صدقه : أمير الحلة : سبقت ترجمته .

(٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٤٦٩ .

(٦) Leprince Arnauld صاحب الكرك والشريك وكان يُسمى قبل ذلك : Renauld de chafillon (الروشتين ، تحقيق حلمي ، حاشية (٣) ، مج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٢) .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ١٠ : ١٤٢ .

منهم ما لا يحصى حتى إنه أخذ من خاتون أخت السلطان مسعود ما قيمته مائة ألف دينار . ومات معظم الناس جوعاً وعطشاً وبرداً^(١) .

وتعرضت المدن الإسلامية في بلاد الشام ومصر والعراق في هذا القرن إلى سلسلة من الزلازل ، دمرت ما بناه المسلمون من قلاع وحصون وأسوار ، ففي سنة ٥٠٨ هـ ، كانت زلزلة شديدة بديار الجزيرة والشام وغيرها فخرّبت الرّها ، وحران و(سُميساط)^(٢) و(بالس)^(٣) ، وغيرها . وهلك خلق كثير تحت الردم^(٤) . وفي سنة ٥٢٢ هـ كانت زلزلة عظيمة في بلاد الشام والجزيرة والعراق ، فانهدم شيء كثير ومات خلق كثير تحت الردم^(٥) . وفي سنة ٥٥٠ هـ والسنة التي قبلها ، كانت زلازل عظيمة متوالية بالشام وكانت ذات آثار مدمرة على هذه المدن . وفي سنة ٥٦٥ هـ كانت الزلزلة العظيمة الكبرى التي لم ير الناس مثلها . فقد عمّت أكثر البلاد في الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق ، وانطاكية ، واللاذقية ، وجميع بلاد الساحل إلى الداروم^(٦) . وتعرضت بغداد في هذا القرن لسبعة فيضانات من نهر دجلة تسببت بخسائر مادية كبيرة^(٧) . وأسهمت الأمراض والأوبئة بتردي الأحوال الاجتماعية في هذا القرن ، فقد تعرضت (دمياط)^(٨) في مصر لفناء عظيم ، فهلك من أهلها سنة ٥٤٥ هـ سبعة آلاف شخص ، وفي سنة ٥٤٦ هـ هلك مثلهم . وفي سنة ٥٤٧ هـ فتك وباء بأهل دمشق ، وصعب معه أمر المغسلين والحفارين واحتيج إليهم لكثرة الموتى^(٩) . وفي سنة ٥٧٤ هـ انقطعت الأمطار في سائر البلاد الشامية

(١) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية : ١٣٦ .

(٢) سُميساط : يضم أوله وفتح ثانيه ، مدينة على شاطئ الفرات ، في طرف بلاد الروم على غربي النهر . (معجم البلدان : ياقوت : ٣ : ٢٥٨) .

(٣) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقه (معجم البلدان : ياقوت : ١ : ٣٢٨) .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٩ : ١٥٧ .

(٥) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية : ١٠٧ .

(٦) نفسه : ١٨٩ .

(٧) حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، منشورات المكتبة الأهلية ، ١٩٦٥ ، ص ٤١١-٤١٠ .

(٨) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والذيل ، وهي تعد من شغور الإسلام (معجم البلدان : ياقوت : ٢ : ٤٧٢) .

(٩) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٤٩٠-٤٩١ .

والجزيرة والعراق والديار البكرية ، والموصل وبلاد الجبل ، و(خلاط) ^(١) ، وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاماً في سائر البلاد فبيعت الفرارة من الحنطة بدمشق بعشرين ديناراً سورية ، واستسقى الناس في أقطار الأرض فلم يسقوا ، وتعذرت الاقوات ، وأكلت الناس الميتة وُدام ذلك إلى سنة خمس وسبعين ، ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد وكثر فيه الموتى وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى ^(٢) . وفي هذا القرن عانى الناس كثيراً من استبداد الحكام وظلمهم ، إذ حملوهم ما لا يطيقون ؛ فقد كان الصالح طلائع بن رُزيك الوزير المصري شرهاً حريصاً على التحصيل ، باع الولايات للأمراء ، وجعل لها أسعاراً ، ومدتها ستة أشهر ، فتضرر الناس من تردد الولاة عليهم كل ستة أشهر ^(٣) .

وقد جمع هؤلاء الوزراء أموالاً طائلة ، وخلفوا بعد رحيلهم ثروات هائلة لا تحصى. جمعوها من الناس ظلماً ؛ فقد ترك الملك الأفضل أحمد بن أمير الجيوش بدر الجمالي مدبر دولة الفاطميين من الأموال ما لم يسمع بمثله ^(٤) . ونقل إلينا عمارة اليمني عن تعسف شاور وظلمه ما تشمئز منه النفوس ؛ فحين عاد من حصار الاسكندرية، أكثر من سفك الدماء بغير حق ؛ وكان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان . وقد وصف عمارة اليمني حالة الرعب التي اعترت الناس من هذا الظلم بأبيات منها قوله :

إلا أن حدّ السيف لم يُنقِ خاطرأ من الناس إلا حائرأ يتردد
ذعرت الورى حتى لقد خاف مضلح على نفسه أضعاف ما خاف مفسد ^(٥)

(١) خلاط : بكسر أوله : هي البلدة الفاخرة كثيرة الخيرات ، قسبة بلاد أرمينية (معجم البلدان : ياقوت : ٢ : ٢٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ١٠ : ٩٢ . وانظر كذلك ، مضممار الحقائق وسر الخلائق ، تأليف محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، تحقيق د. حسن حبشي عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٣) ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة : ٥ : ٣١١ .

(٤) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية : ٥ : ٣١١ .

(٥) عمارة اليمني : نجم الدين أبي محمد عمارة بن أبي الحسن اليمني : كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، باعتناء هرتويغ درشبرغ : ١٨٩٧ : ص ٨٧ .

وعظمت شرور الباطنية وازدادت في هذا القرن ، وخافهم الناس . وتعرضوا لقتل الخلفاء والحكام والعلماء . فقد وثبوا سنة ٥١٨هـ على القاضي زين الإسلام (أبي سعد محمد بن نصر الهروي) ^(١) بجامع همذان على حين غفلة منه ، فضربوه بسكاكينهم ، فقتلوه ، وهربوا في الحال ، ولم يظهر لهم خير ، ولا بان منهم أثر ، ولا تبعهم شخص للخوف منهم ^(٢) . وفي سنة ٥٢٠هـ استفحل أمر (بهرام) ^(٣) راعي الباطنية ، وعظم خطبه في حلب والشام وهو على غاية من الاستتار والاختفاء وتغيير الزي واللباس ^(٤) . وقد منحه أتابك (ظهير الدين) حصناً يأوي إليه ، وسلم إليه ثغر بانياس ، فعظمت المصيبة بهم ، وحلت المحنة بظهورهم ، وضاق صدور العلماء والفقهاء ، والمتدينين ، وأهل السنة ، وأهل الستر والسلامة من الأخيار والمؤمنين ، وأحجم كل منهم عن الكلام فيهم دفعا لشهرهم واتقاء لدائرة السوء عليهم ، لأنهم شرعوا في قتل من يعاندهم ، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال ، ويرافدهم ، بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير ، ولا يفل حد شهرهم مقدم ولا أمير ^(٥) .

وقد قتلت الباطنية في هذا القرن اثنين من الخلفاء العباسيين هما المسترشد سنة ٥٢٩هـ والراشد سنة ٥٣٢هـ ^(٦) .

وبالرغم من هذه الظروف الصعبة والأحداث العظيمة التي صبغت القرن السادس بصبغتها ، إلا أن الحياة بجانبها المشرق لم تتوقف ، بل استمر الناس في حياتهم ، ومارسوا أعمالهم في الزراعة والصناعة والتجارة ، ولم تكن العلاقة بين المسلمين والفرنج علاقة عدااء دائم ، بل كان يتخلل هذه العلاقات فترات من الهدنة . كما أن العلاقات بين الناس في مصالحهم كانت مفتوحة ، ولا مانع من دخول التجار المسلمين إلى الممالك الصليبية ، كما لا مانع من دخول تجار الفرنجة إلى

(١) زين الإسلام : أبي سعد محمد نصر الهروي ، لم أجد له ترجمة في المصادر المتاحة .

(٢) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٣٢٦ .

(٣) ابن أخت إبراهيم الأسد أبادي ، هرب الى الشام بعد مقتل خاله في بغداد وصار داعي الاسماعيلية فيها ، قتل سنة ٥٢٣هـ (الكامل في التاريخ : ٦٠ : ٢٣٥) .

(٤) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٣٤٢ .

(٥) نفسه : ٣٤٣ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٩ : ٢٨٢ ، ٣٠٥ .

بلاد المسلمين^(١) . ويصور ابن جبير في رحلته هذه العلاقات فيقول «... ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج من بلاد المسلمين لتخرج إلى بلاد الفرنج وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين، شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عظيماً»^(٢) .

ويقول في موضع آخر «... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعمهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشغولون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب»^(٣) .

وظهر في هذا القرن حكام ساسوا رعاياهم بالعدل ؛ فرفعوا عنهم الأعباء والمكوس ومنهم الأمير (نجم الدين آيل غازي)^(٤) الذي رفع المكوس عن أهل حلب سنة ٥١٤هـ ، وكذلك المؤن والكلف ، وأبطل ما حدده الظلمة من الجور والرسوم المكروهة، وقوبل منه ذلك بالشكر والثناء^(٥) .

وفي سنة ٥١٦هـ أمر السلطان محمود السلجوقي، حين خرج من بغداد، بإسقاط المكوس والضرائب وما وضع على الباعة من السلطان^(٦) . ويذكر صاحب الكواكب الدرية عن عدل السلطان نور الدين محمود زنكي ؛ أنه لم يترك على بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً بل أطلقها جميعاً في بلاد الشام

(١) ابن جبير : أبو الحسن محمد بن جبير : رحلة ابن جبير ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٦ .

(٢) نفسه : ٢٧٢ .

(٣) نفسه : ٢٦٠ .

(٤) نجم الدين آيل غازي الأمير نجم الدين بن أرتق بن أكسب التركماني صاحب ماردين ، كان من أمراء الملك تتش صاحب الشام . تملك حلب بعد أولاد رضوان ابن تتش ، وملك ميأفارفين وتوفي فيها سنة ٥١٦هـ . (انظر الواقي بالوفيات : ٦ : ٢٦) .

(٥) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٢٢٢ .

(٦) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبد القادر ورفيقه : دار الكتب العلمية : بيروت : ١٩٩٢م ، ج ١٧ ، ص ٤٠٢ .

والجزيرة وأعمالها وديار مصر وغيرها^(١). ويذكر ابن الفرات في تاريخه عن صلاح الدين الأيوبي أنه رفع جميع المكوس عن مصر سنة ٥٦٦هـ^(٢). ومن مفاخر صلاح الدين إزالته المكوس المفروضة على الحجاج أيام الدولة العبيدية^(٣).

وبالإضافة إلى التخفيف عن الناس برفع المكوس، واعفائهم من الأعشار، فإن نور الدين زنكي، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، قد جهدا في إنعاش الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وذلك من أجل تدعيم الجبهة الإسلامية ضد الفرنجة، فقد قام نورالدين ببناء أسوار مدن الشام جميعها، وقلاعها، ومنها دمشق وحمص، وحلب وغيرها من القلاع والحصون، وحصنها وأحكم بناءها، وأنفق عليها من الأموال الكثير، وبنى أيضاً المدارس بدمشق وحمص وحماه، وحلب وغيرها، للشافعية والحنفية، حتى إن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، وبنى الجوامع في غالب البلاد^(٤). وبنى البيمارستانات، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق^(٥). وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليهم الأوقاف الكثيرة، وأدر عليهم الإدارات الصالحة^(٦).

سار صلاح الدين على نهج نور الدين بالاهتمام بأمور الناس وتوفير أسباب الحياة الكريمة لهم، وقد وصف ابن جبير أعماله الجليلة في رحلته عندما تحدث عن مناقب مدينة الاسكندرية فقال: «وفي مناقب هذا البلد، ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، المدارس والمحارس الموضوعه فيه لأهل الطلب والتعبد، يفتدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وأجرأ يقوم به في جميع أحواله».

(١) ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية: ٩.

(٢) ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحرير ونشر، حسن محمد الشعاع، جامعة البصرة، ١٩٦٧، ج ٤، مجلد ١، ص ١٢٤.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير: ٣٠.

(٤) ابن قاضي شهبه: الكواكب الدرية: ٣٥.

(٥) نفسه: ٣٧.

(٦) نفسه: ٣٨.

واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الفرياء الطارئين^(١) حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل لهم أطباء يتفقدون أحوالهم... الخ . وهذا السلطان هو صلاح الدين الأيوبي^(٢) . وبالرغم من انشغال الأيوبيين بالحرب والاستعداد لها إلا أن هذا الأمر لم يصددهم عن الاهتمام بالأمور الاقتصادية للبلاد ، وخاصة الزراعية منها ، لأنها إحدى دعائم الجيش والقوات المحاربة ، فقد اعتنى الأيوبيون من أجل ذلك بأنظمة الري عناية فائقة ، فتقدمت الزراعة في عهدهم وازدهرت^(٣) . وإلى جانب اهتمامهم بالزراعة فقد اهتموا بالتجارة ، إذ نشطت في عهدهم الحركة التجارية في بلاد الشام ، لأسباب منها ، انتشار الأمن ، وسهولة الانتقال من مكان لآخر دون عوائق ، وتوافر الحماية للتجار وأموالهم من المصادرة ، فقد حرص الأيوبيون على تأمين طرق التجارة ، والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق ، ولذلك أكثروا من عقد المعاهدات التجارية ، والاتفاقات الحربية ، وإطلاق سياسة التسامح للتجار الفرنج وعدم القصاص منهم بسبب اشتراك حكوماتهم في الحرب . وتوافرت كذلك الأسواق النافقة للتجارة ، وساعد على ازدهارها كذلك توافر الصناعات المتقدمة ووحدة النقد^(٣) .

وحيث كانت الحرب تدور في ساحاتها ، كان الناس يجدون للفرح متسعاً . فيُحيون أيام أعيادهم ومناسباتهم بالاحتفالات الكبيرة ، وقد ظهرت في هذه الاحتفالات مظاهر من البذخ والإسراف عند العباسيين والفاطميين ، فقد كثرت الاحتفالات عند الفاطميين في مصر ، وتفننوا في الاحتفال بها . ومن هذه الاحتفالات جلوس الخليفة الفاطمي في المولد النبوي ، وكان من عاداتهم في هذا العيد أن يُعمل في دار الفطرة عشرون مثقالاً من السكر الفائق الحلوى ، من طرائف الأصناف ، وتعباً في ثلثمائة صينية نحاس ، فإذا كان ليلة ذلك المولد تُفرق في

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير : ١٦ .

(٢) أمين أبو دمع : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي ، رسالة ماجستير ، جامعة دمشق ، ١٩٨٨ ، ص ٣١ .

(٣) نفسه : ٨٠ .

أرياب الرسوم كقاضي القضاة وداعي الدعاة وغيرهم^(١) . ومن الدلائل على عناية العباسيين وبذخهم في الأعياد والمناسبات ، ما فعله الخليفة المسترشد سنة ٥١٧هـ حين ختن أولاده وأولاد أخيه ، فقد زينت بغداد فعمل الناس القباب ، وعملت خاتون قبة على باب النوير علفت عليها من الديباج والجواهر ما أدهش الأبصار ، وعملت قبة على باب السيد العلوي عليها غرائب الحلي والحلل^(٢) .

ونقل إلينا ابن جبير في رحلته بعض المشاهد التي تصور اهتمام السلاجقة ، وعنايتهم بالمناسبات والأعياد ، ومنها حديثه عن دخول ركب الخاتون المسعودية العائدة من الحج إلى الموصل إذ يقول : « تقود عسكر جواريتها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد جللت قبعتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهله فودنانير شبه الأكف ، وسلاسل وتمائيل بديعة الصفات فلا تكاد تبين من القبة موضعاً ، ومطاياها تزحف بها زحفاً ، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ، ومراكب جواريتها كذلك ، ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره ، وكان مشهداً أبهت الأبصار وأحدث الاعتبار^(٣) .

وأما زمن الأيوبيين فلم تعط الاحتفالات والمناسبات اهتماماً كبيراً ، وذلك لانشغال الناس والسلطين بالإعداد للحرب وجهاد الصليبيين . فقد غلبت على هذه الفترة فكرة الحرب والجهاد المقدس^(٤) فلم يعد عند الناس متسع من الوقت للتوسع في حياة الترف والقيام بالاحتفالات كتلك التي سادت عند أسلافهم الفاطميين ، أو عند خلفائهم المماليك ، فالمال والجهد والوقت كلها أمور مدخرة وموجهة لقتال الصليبيين^(٥) .

(١) القلقشندي : أحمد بن علي القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ج ٢ ، ص ٥٧٦ .

(٢) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية : ٩٠ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير : ٢١٢ .

(٤) أمينة البيطار : تاريخ العصر الأيوبي : الناشر : جامعة دمشق : دمشق ، ١٩٨١-١٩٨٢ ، ص ٢٢٨ .

الحياة الفكرية والثقافية :

من الأمور التي تسترعي الانتباه في القرن السادس الهجري أن الحياة الثقافية والفكرية قد نشطت نشاطاً ملموساً رغم الأحداث الخطيرة . فقد نشطت الحركة العلمية نشاطاً يللمسه المدارس لتراث هذا القرن ببسر ، ومن أبرز مظاهر هذه الحركة العلمية كثرة المدارس ، ودور العلم ، وتنافس الحكام والأمراء في بنائها ، وشاركهم في ذلك أبناء الرعية من علماء ، وسيدات مجتمع ، وتجار وخدم وقد أوقفوا على هذه المدارس أوقافاً عظيمة ، وأحضروا لها العلماء من أقطار العالم الإسلامي ، ويقف إلى جانب هذه المدارس في الحركة العلمية دور الكتب التي حوت النفائس ، وأنفقت على إنشائها الأموال الطائلة ، واختير لإدارتها الثقات من العلماء ، ويضاف إلى هذه المظاهر شغف الحكام بالعلم وإقبالهم عليه حتى تكونت لديهم ثقافة ممتازة ، وكانوا يحيطون أنفسهم بطبقة متميزة من المثقفين يقربونهم ويفقدون عليهم ، وكان للفاطميين في ذلك نصيب وافر (١) .

نشطت حركة التعليم في هذا القرن حتى أصبح من السهل على أبناء الشعب بمختلف طبقاته أن ينالوا حظهم من التعليم، ومنهم الفقراء والأيتام الذين خصص لهم في عهد الدولة الأيوبية من يقوم على شؤون تعليمهم من المعلمين . فقد أمر صلاح الدين بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، وتجري عليهم الجارية الكافية لهم (٢) .

وقد عمل السلاطين السلاجقة على إنشاء المدارس قبل بداية هذا القرن وخلال . وكان الدافع والمحرك لهم، إحياء شعائر أهل السنة ، فقد أنشأ (نظام الملك) (٣) المدارس النظامية ، ومنها المدرسة النظامية في بغداد التي كانت مركز إشعاع للعلم على جميع الأقطار الإسلامية في فارس والعراق ، وسوريا ومصر ، ويمثل بناء المدارس بالنسبة للسلاجقة عملاً مهماً يوازي الأعمال الجليلة كبناء

(١) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عهد الحروب الصليبية بمصر والشام ، مكتبة نهضة مصر ، ص ٥ .

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير : ٢٧ .

(٣) نظام الملك : أبو علي الحسين بن علي بن اسحاق بن العباس الملقب بنظام الملك ، قوام الدين الطوسي ، خدم السلطان السلجوقي الب أرسلان ، ومن بعده ولده ملك شاه ، وصار الأمر كله له وليس للسلطان إلا التخت والصيد ؛ وهو أول من أنشأ المدارس واقتدى به الناس (أنظر وفيات الأعيان : ٢ : ١٢٨) .

المساجد وفتح المدن ، وبناء القلاع ^(١) ، ودفعت هذه الروح نفسها أمراء الأتابكيات ^٦ بعد انحلال دولة السلاجقة إلى التشبه بسلاطين النظام فأصبحت دمشق وحلب والقاهرة والموصل وبغداد وحمص وبعليك وُمدن أخرى إسلامية عربية كثيرة في عهد نور الدين وصلاح الدين مراكز هامة للثقافة ، بفضل ما أنشئ فيها من المدارس ، ومن نشأ فيها ، أو أقام وعلم من العلماء ^(٢) .

ومن مظاهر اهتمام العباسيين بالعلم ما ذكره ابن جبير عن مشاهداته في بغداد إذ يقول عن مدارسها : « في بغداد نحو ثلاثين مدرسة ، وهي كلها بالشرقية ^٤ وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها ، وأشهرها النظامية ، وهي التي بناها نظام الملك وجددت سنة ٥٠٤ هـ ، ولهذه المدرسة أوقاف عظيمة ، وعقارات محبسة تصير إلى الفقهاء أو المدرسين بها ، ويجرون فيها على الطلبة ما يقوم بهم » ^(٣) . وقد اهتم العباسيون بالمكتبات ، بالإضافة إلى اهتمامهم بالمدارس ، فقد بنى الخليفة الناصر لدين الله العباسي دار كتب بالمدرسة النظامية ببغداد ^٥ ونقل إليها عشرة آلاف مجلد ، فيها الخطوط المنسوبة وغيرها ^(٤) وكان في (أمِد) ^(٥) دار كتب عظيمة حوت ألف وأربعين ألف كتاب ، وقد استولى على نفائسها القاضي الفاضل بعد استيلاء صلاح الدين على البلدة ، وقد وقع اختيار الفاضل منها على حمل سبعين بغيراً ^(٦) . وفي مصر نشطت الحركة الثقافية في هذا القرن ، وولدت حواضرها العلمية الكثير من العلماء والأدباء والشعراء في زمن الخلافة الفاطمية ، وخلفائهم من بنى أيوب ، فقد عمل الفاطميون منذ وقت مبكر على تدعيم مذهبهم في الديار المصرية بإنشائهم الجامع الأزهر الذي أصبح مصدر إشعاع علمي وثقافي . وقامت (دار الحكمة) بدور علمي كبير ، إذ شغلت من زمن الحروب الصليبية زهاء ثلاثة أرباع القرن ، وكانت مصدر ثقافة

(١) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٧٧ .

(٢) نفسه : ٧٧ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير : ٢٠٥ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ٦ : ١٢٢ .

(٥) أمِد . بكسر الميم : وهي أعظم مدن ديار بكر ، وهي بلد قديم حصين مبني بالحجارة السود على نضز ، ودجلة محيطة بأكثره مستديرة كالهلال (معجم البلدان : ياقوت : ١ : ٥٦) .

(٦) محمد زغلول سلام : الأدب في العصر الأيوبي : ٣٥ .

رفيعة ضمت طائفة من الفقهاء ، والقراء والنحويين ، ورجال الحديث والأدب واللغة ، وعلماء الهيئة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة ، وأجريت عليهم الأرزاق الواسعة ، وهيئت الدار بمكتبة ضخمة نقلت إليها الكتب من خزائن القصر الملكي في سائر العلوم والآداب، مما لم يُر مثله مجتمعاً لأحد من قبل ، وأودعت بها كتب الشيعة^(١) .

ومن فضائل الفاطميين على الحركة الثقافية لما جمعه من نفائس في مكتبة القصر الفاطمي ، فقد حوت هذه المكتبة النفائس من الكتب، وكانت من عجائب الدنيا ، وقد وصف ابن الفرات هذه المكتبة وذكر ما جرى لها عند الاستيلاء على القصر الفاطمي بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، فقال^(٢) : «ومن جملة ما باعوه/أخزانه الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا يقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي كانت بالقاهرة المحروسة بالقصر ، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك ، ويقال إنها كانت تحتوى على ألف ألف وستمئة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة .. الخ^(٣) .»

وإذا ما بلغنا عصر الزنكيين والأيوبيين، فإننا نلمس اهتماماً بالعلم والأدب في القرن السادس الهجري وخاصة في بلاد الشام . فقد نشأ للامة في هذه الديار علماء خدموا العلم في فنونه المختلفة ، وامتاز هذا القرن بأن أنشئت فيه أول مدرسة بحلب لأهل السنة ، عرفت (الزجاجية) سنة ٥١٥ هـ ، حتى كان نور الدين زنكي ، فأنشأ المدارس . وأول مدرسة أنشأها كانت سنة ٥٤٥ هـ في حلب/سماها (العصرونية) وهو أول من أنشأ داراً للحديث في الإسلام ، ثم كثر إنشاء المدارس في هذا القرن والذي بعده ، فأخذ الفقهاء والمحدثون والأدباء يتخرجون فيها على نظام في الجملة ، فكثرت نور الدين ، وصلاح الدين عدد العلماء^(٤) . ويذكر عن نور الدين زنكي أنه كان شديد الاهتمام بالعلماء ، وكان يفرهم بالقدوم إلى الشام للإقامة فيها، ويبني لهم المدارس ويغدق عليهم وعلى مرديهم أنواع الإحسان والرواتب ، ومن العلماء الذين استقدمهم وسكنوا الشام (قطب الدين

(١) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر المروء الصليبية بمصر والشام ، ٢٧ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات : مجلد ٤ ، ج ١ : ١٦٨ .

(٣) محمد كرد علي : خطط الشام . مطبعة الترقى ، دمشق : ١٩٢٦ ، ص : ٤ : ٣٨ .

النيسابوري^(١) ، و(شرف الدين بن أبي عصرون)^(٢) (٣) . وعرف عن نور الدين شغفه بجمع الكتب واحتفاؤه بكبار العلماء وبتبحره في الشرع^(٤) .

وأما صلاح الدين فقد شجع العلماء وقربهم . وكان مجلسه حافلاً ليتذاكرون في أصناف العلوم ، وهو يُحسن السماع والمشاركة لحتى صار لكثرة مخالطته للعلماء ، وأخذه عنهم من كبار الفقهاء ، يضرب في كل علم بسهم صائب^(٥) . وقد شهد العصر الأيوبي حركة واسعة في بناء المدارس في مصر والشام واشترك في ذلك الحكام والأمراء والقادة والتجار ، والعلماء والوزراء وسيدات المجتمع ، حتى الخدم والعُتقاء ، وقد اهتم الأيوبيون ببناء المدارس لنشر مذهبهم السني ، ولذلك اهتموا ببناء مدارس القرآن والحديث ، ومدارس الفقه للمذاهب الأربعة ، ففي سنة ٦٦٠ هـ بنى صلاح الدين بالقاهرة موضع شجرة المعونة مدرسة للشافعية ، وبنى بالقرب من دار العدل مدرسة للمالكية^(٦) .

ويصف لنا ابن جبير مناقب الاسكندرية ، في عصر صلاح الدين فيقول :
 «ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يغدون من الأقطار النائية فيلقى كل منهم مكاناً يأوي إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه^(٧) . وقد عدد ابن جبير جملة من المدارس في الشام وحلب وحمص وحماء وقال عن مدارس دمشق وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، ومن أحسن مدارس الدنيا منظرأ مدرسة نور

(١) قطب الدين النيسابوري : قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري شيخ الشافعية ، درس في نظامية نيسابور وبلغ رتبة الإمامة . قدم بغداد سنة ٥٢٨ هـ فوعظ وناظر ثم سكن دمشق . كان فقيهاً مفسراً توفي سنة ٥٧٨ هـ في دمشق ودفن فيها (أنظر : شمس الدين الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق بشار عواد معروف ، رمحي هلال السرحان مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ج ٢١ ، ص : ١٠٦ .

(٢) شرف الدين بن أبي عصرون : سترد ترجمته في شيوخ العماد .

(٣) محمد كردعلي : خطط الشام : ٤ : ٢٩ .

(٤) أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : ٥ .

(٥) أحمد بدوي : الحياة العقلية : ٥ .

(٦) ابن قاضي شهبه : الكواكب الدرية : ٥ .

(٧) ابن جبير : رحلة ابن جبير : ١٦ .

الدين ، وهي قصر من القصور الأنيقة^(١) . وقد أسهم أمراء الأسر المالكة ورجال الدولة في إنشاء المدارس بمصر والشام ، فوقف (تقي الدين عمر)^(٢) قصر الفاطميين المعروف بمنازل العزّ مدرسة للشافعية عرفت (بالتقوية) في دمشق و(المظفرية) في حماه كما بنى مدرسة بالرّها ومن الوزراء الذين شاركوا في بناء المدارس (القاضي الفاضل)^(٣) الذي بنى المدرسة الفاضلية بمصر سنة ٥٨٠ هـ .

ومن البيت الأيوبي شاركت أختا صلاح الدين في إنشاء المدارس ، وخاصة في الشام ، فقد شيّدت زمرد خاتون مدرسة للشافعية بدمشق وبنت ربيعه خاتون مدرسة بدمشق للحنابلة .

تنوعت المدارس في هذا القرن بتنوع أهدافها فمنها ما كان لتدريس الحديث ومنها ما كان لتدريس اللغة والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو وغيرها من العلوم كالطب والفلك . ولم يقف اهتمام الأيوبيين عند بناء المدارس بل شمل اهتمامهم جوانب أخرى من جوانب الحياة الثقافية ، فاهتموا بالأدب وشجعوا مجالسه ، وأثابوا على الشعر ، وظهر منهم عدد من الأدباء والشعراء المعروفين في هذا القرن ، وقد ترجم العماد لمجموعة منهم في خريدته ، وكان صلاح الدين رغم إنشغاله بأمور السياسة والحرب يجد متسعاً من الوقت لسماع الشعر والتغني به ، فقد روى أنه كان يستحسن الأشعار الجيدة ويردها في مجالسه حتى أنه كثيراً ما ينشد قول منصور محمد بن الحسين^(٤) .

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير : ٢٥٥ .

(٢) الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدين شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ابن أخي السلطان صلاح الدين توفي سنة ٥٨٧ هـ (انظر وفيات الأعيان : ٣ : ٤٥٦ ، وانظر : العماد الأصبهاني : الخريدة : بداية قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٨٠ .

(٣) أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي الجد علي ابن القاضي السعيد أبي محمد الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرخ بن أحمد اللخمي النمسقلاني المولد المصري الدار ، المعروف بالقاضي الفاضل الملقب مجد الدين ، وزير للمسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، وتمكن منه غاية التمكن ، وبرز في صناعة الإنشاء ، وكان من المتقدمين تولى أبوه القضاء في بيسان فلهذا نسب إليها ، وتوفي سنة ٥٩٦ هـ في القاهرة (انظر : وفيات الأعيان : ج ٢ ، ص ١٥٨ ، وانظر كذلك الخريدة للعماد : قسم شعراء مصر ، تحقيق أحمد أمين ، وشوقي ضيف ، وإحسان عباس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١ : ٣٥ - ٥٤) .

(٤) منصور محمد بن الحسين ، لم أجد له ترجمة .

وزارني طيفٌ من أهوى على حذرٍ
فكدت أوقف من حولي به فرحاً
ثم انتبهت وآمالي تخيل لي
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
نيل المنى فاستحالت غبطني أسفا

وقيل إنه كان يعجب بقول نشو الملك أبي الحسن علي بن مفرج^(١) المعروف
بابن المنجم وهو في خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقبحه
ولكنه مات الشباب فسودت
وأقبح منه حين يظهر ناصله
على الرسم من حزن عليه منازلته^(٢)

وهو إن لم يكن يقول الشعر ، إلا أنه ناقد خبير ، ونافذ بصير ، يعجبه المعنى
المعري ، واللفظ السهل الأبي ، وهو يحفظ من محاسن العرب . ومزايين الأدب
وأعاجيب السير وأساليب العبر وقصائد القدماء ونوادر الحكماء مايشهد فيه لكل
حادث وحديث بما هو اللائق ، ولا يجري في مجلسه ومأنسه إلا ما هو من الحكم
والكلم الفائق الرائق ، ويحب الشعر الجيد ، ويحبوه بشعار جوده^(٣) .

وقد تشكلت حول صلاح الدين حركة شعرية ذات شأن ، فمدحه معظم شعراء
عصره مثل : (علم الدين الشاتاني)^(٤) ، و(ابن الشحنة الموصلية)^(٥) و(ابن قلاقس)^(٦)

(١) ابن المنجم : نشو الدولة علي بن مفرج المنجم ، نشأ على اللهو والمجون وكان أشعر أهل زمانه وأفضل
أقرانه مدح الملوك الوزراء ، وصل الى الشام في خدمة الملك المعظم تورانشاه ابن أيوب من اليمن ، ولد
سنة ٥٤٩ هـ وتوفي سنة ٦٢٠ هـ (الخريدة ، قسم مصر ، ج ١ ، ص : ١٦٨) .

(٢) وفيات الأعيان : ج ٧ ص : ٢٠٦-٢٠٨ .

(٣) العماد الأصفهاني : الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ، ص : ٧٨ .

(٤) علم الدين الشاتاني : أبو علي الحسن بن سعيد بن عبد الله من شعراء القرن السادس ، عاش في الموصل
وكان مولده سنة ٥١٠ هـ وتوفي سنة ٥٩٩ هـ (الخريدة ، قسم الشام ، ج ٢ ، ص ٣٦ وما بعدها) .

(٥) ابن الشحنة الموصلية : المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر المعروف بابن الشحنة
الموصلية الشاعر المشهور ، كانت وفاته سنة ٦٠٦ هـ (وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٢١١ ، والروضتين ج ٢ ،
ص ٦١) .

(٦) ابن قلاقس : أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس اللخمي
الأزهري الاسكدراني ، الملقب القاضي الأعمز ، الشاعر المشهور ، كان شاعراً مجيداً وفاضلاً نبيلاً ، توفي
بعميذاب سنة ٥٦٧ هـ (وفيات الأعيان : ٥ : ٣٨٥) .

و(ابن المنجم)^(١) وابن سناء الملك^(٢) و(البحراني الأربلي)^(٣) و(ابن دهن الحصى الموصللي)^(٤) وغير هؤلاء^(٥).

وكان للأيوبيين دور كبير في بعث الحركة الثقافية في القرن السادس الهجري، ويمكن القول إن دورهم كان أوضح الأدوار وأكثرها أثراً ولعل ذلك يعود إلى أسباب منها ما يتعلق برجال هذه الدولة، ومنها ما يتعلق بالظروف العامة في تلك الحقبة من الزمن، فقد كان رجال بني أيوب يحبون العلم والأدب ويقدرون أهله ويشجعون دارسيه، يضاف إلى ذلك حبهم للغة العربية، وتثقفهم بها، وإتفاقهم الأموال بسخاء على العلماء والأدباء، فأقبلوا عليهم من كل حدب وصوب، فقد جمع صلاح الدين في بلاطه جمهرة من العلماء والشعراء والكتاب، كالقاضي الفاضل، وابن (شداد القاضي)^(٦) و(العماد

(١) سبقت ترجمته وهو (نشو الملك أبي الحسن علي بن مفرح المعروف بابن المنجم).

(٢) ابن سناء الملك: القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله الشاعر المشهور المصري أحد الفضلاء توفي سنة ٥٦٨ هـ (وفيات الأعيان: ٥: ٩).

(٣) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن قائد الملقب موفق الدين الأربلي أصلاً والنشأة البحراني مولداً، الشاعر المشهور، كان إماماً مقدماً في علم العربية: مُفْتَنُاً في أنواع الشعر، رحل إلى دمشق ومدح صلاح الدين توفي سنة ٥٨٥ هـ بباريل ودفن فيها (وفيات الأعيان: ٥: ٩).

(٤) ابن دهن الحصى الموصللي: الأستاذ الأديب الحسن بن هبة بن دهن الحصى الموصللي من أدباء الموصل المتصدرين للإقراء، رحل إلى حلب واتصل بصلاح الدين ومدحه، فرتبّه للإقراء في جامع المدينة فلم يزل على تلك الحال حتى وفاته (أنظر: الفصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ابن سعيد أبي الحسن علي بن موصللي الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار المعارف بمصر، ١٩٤٥، ص: ٨١).

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٧، ج ٧، ص: ٢١١.

(٦) ابن شداد القاضي: أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي قاضي حلب، المعروف بابن شداد، الملقب بهاء الدين، الفقيه الشافعي، اتصل بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف توفي سنة ٦٢٢ هـ (وفيات الأعيان: ٧: ٨٤).

الأصفهاني الكاتب) و(أسامة بن منقذ) (١) (٢) . ولعل أسباباً أخرى غير التي ذكرت ساهمت في النشاط العلمي والثقافي في هذا القرن منها : الصراع بين المذاهب ، فقد عمل السلاجقة على نشر مذهبهم السني في بلاد كان يسيطر عليها المذهب الشيعي ، فكان لا بد من الاهتمام بالمدارس ، وتوفير ما يلزم للقيام على أمورها من العلماء ، وانصبَّ اهتمامهم على علوم القرآن والحديث والفقه ، وذلك لإحياء المذهب السني ، الذي تعرض لمحاولات الطمس على يد من سبقهم في حكم البلاد ، وهكذا فعل الأمراء في الأتابكيات السلجوقية بعد انحلال الدولة السلجوقية ، وبلغ هذا الاهتمام بنشر المذهب السني أوجه في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية ، وخاصة بعد أن تولى الأيوبيون أمور الحكم في مصر .

وثاني هذه الأسباب الصراع الحضاري بين الإسلام وحضارة الغرب المسيحي ، فقد حاول حكام المسلمين الحفاظ على الهوية الإسلامية أمام المدّ الفرنجي ، فشجعوا العلوم الدينية ، وبنوا لها المدارس ، وأنفقوا عليها الأموال الطائلة للحفاظ على هوية الأمة وشخصيتها الإسلامية ، ونالت هذه الأسباب تنافس الحكام المسلمين فيما بينهم على استقطاب العلماء إلى حواضرهم وبناء المدارس لهم .

ورابع هذه الأسباب : الأحداث الكبيرة التي شهدها القرن ، وبروز القادة العظام ، فقد كانت هذه الأحداث مادة للكثير من الأعمال الأدبية والشعرية واستدعت الأحداث الكثير من المراسلات الديوانية والمعاهدات بين المتصارعين .

(١) أسامة بن منقذ : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيرازي ، الملقب مؤيد الدولة ، مجد الدين ، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلماهم وشجعانهم ، له تصانيف عديدة في فنون الأدب وله ديوان شعر في جزاين ، توفي سنة ٦٠٧ هـ بمصر ودفن فيها (وفيات الأعيان : ١ : ١٩٥) وانظر : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (ذيل الروضتين ، لابي شامة المقدسي ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٤) . ص : ٩٣ .

(٢) مقالة بعنوان : الأدب عند بني أيوب ، مجلة المورد ، مجلد ٥ ، العدد ٣ ، السنة ١٩٧٦ ، ص : ٣٥ .

الفصل الأول السيرة

الفصل الأول

السيرة

اسمه وشهرته ونسبه:

هو أبو عبد الله^(١) محمد بن صفي الدين أبي الفرج بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن علي بن محمود بن هبة الله بن أله^(٢). المعروف بابن

(١) هذه كنيته التي اشتهر بها عند معظم من ترجم له . ولكن معاصره علي بن ظافر الأزدي ذكر كنية أخرى هي (أبو حامد) في غير موضع من كتابه بدائع البدائة (انظر ابن ظافر الأزدي : بدائع البداية : تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، (الصفحات : ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٤٠ ، ١٨٤ ، ٢٤٢ ، وغيرها). وذكر هذه الكنية كذلك أبو شامة المقدسي (انظر الروضتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ١ ، ص : ٨ ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٨) . (وانظر : عيون الروضتين في أخبار الدولتين : أبو شامة المقدسي ، تحقيق : أحمد البيسومي ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، ١٩٩١ ، ج ١ ، ص ١١٨) وتابعهم في إطلاق هذه الكنية عليه ابن الفرات (انظر : تاريخ ابن الفرات ، مع ٤ ، ج ٢ ، ص ٢٢٠) وأضاف ابن ظافر الأزدي كنية أخرى هي : (أبو جعفر) (المصدر السابق : ١٠٦) .

(٢) (أله Aloh) : لفظة فارسية ، معناها العقاب ، ضبطها بعض من ترجم للعماد ، وتركها بعضهم دون ضبط . ومن الذين ضبطوها : ابن الأثير فقال : (ابن أله باللام المشددة المضمومة) انظر : (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٦ ، ج ٩ ، ص ٢٥٥) . ووافقه في هذا الضبط ابن كثير الدمشقي . (انظر : البداية والنهاية : لابن كثير الدمشقي ، تحقيق احمد ابو ملحم ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ج ١٢ ، ص ٢٣) . وقال ابن خلكان في ضبطه : (ابن أله بفتح الهمزة ، وضم اللام ، وسكون الهاء) . (انظر : وفيات الأعيان : ج ٥ ، ص ١٥٢) . وهكذا ضبطه كل من : النعميمي ، (انظر : الدارس في تاريخ المدارس ، للنعميمي ، تحقيق : جعفر الحسني ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٨٨ ، ج ١ ، ص ٤٠٨) . والصفدي : (انظر : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٤٦) . وابن قاضي شهبه . (انظر : طبقات الشافعية : ابن قاضي شهبه ، طبعة حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٧٩ ، ج ٢ ، ص ٥٢) . وكذلك الذهبي في السير . (انظر : سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي ، تحقيق بشار عواد معروف ، وريحي هلال السرحان ، مؤسسة الرسالة ، العراق ، ١٩٨٤ ، ج ٢١ ، ص ٣٤٢) . وقال سبط ابن الجوزي في ضبطه (أله بتشديد اللام) . (انظر : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، سبط ابن الجوزي ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٢ ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٠٤) . وقد خالف السبكي الجميع في ضبطها فقال : (ابن أله بضم الهمزة واللام) انظر : طبقات الشافعية الكبرى : ابن السبكي ، تحقيق : عبدالفتاح الطلو ورفيقه الناشر عيسى البياي الطلبي ، ١٩٦٨ ، ج ٦ ، ص ١٧٩ . وضبطه بن المحدثين : محمد بهجت الأثري ، وقد أخذ بضبط ابن خلكان ، والنعميمي له ، انظر : (مقدمة الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ ، ص ٩) . وضبطها محققو القسم المصري من الخريدة (أله) بعد الهمزة وضم اللام . انظر : (العماد الاصفهاني : خريدة القصر ، القسم المصري ، ج ١ ،

أخي العزيز^(٣) الملقب عماد الدين الكاتب^(٤) .

المقدمة - ص ك - ، ج ١ ، المقدمة : ص ك . وقال أبو الهيجا : إنه يأخذ برأي الأثري في ضبطه لاسم اله المبني على رأي أصحاب البداية والنهاية ، وطبقات الشافعية ، والوافي ، وغيرهم لسهولة ضبطه . انظر : (فواد أبو الهيجا ، العماد الأديب وخريدته ، رسالة دكتوراه ، ١٩٧٧ ، ص ٢٦) . ليس هذا السبب كافياً للاخذ برأي الأثري فيما أرى . كما أن الأثري في رأيه لم يعتمد على من ذكرهم أبو الهيجا ، بل نصراً صراحة أنه اعتمد على اثنين ممن ترجموا للعماد هما : ابن خلكان ، والنعميمي (انظر : الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ ، المقدمة ، ص ٢٩) . ولكن رأي الأثري المعتمد على ابن خلكان ، والنعميمي يظل هو الأقرب الى الضبط الصحيح لامتبارات منها أن ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان كان يترجم للأعلام . فلا بد أن يولي الضبط الصحيح عناية خاصة ، لا نجد مثلها عند من يؤرخون للأحداث ويسجلون الوقائع . كما أن ابن خلكان عاش في القرن الذي يلي قرن العماد ، وهذا الأمر يجعلنا نطمئن إلى أن الاسم قد وصل لابن خلكان دون تعريف .

(٣) العزيز : أبو نصر أحمد بن حامد الأصفهاني : هو عز الدين المستوفي عم العماد الكاتب الأصفهاني ، تولى الخزانة السلطانية للسلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي ، حبس في قلعة تكريت ، وقتل فيها سنة ٥٢٥هـ . (انظر وفيات الأعيان ، ج ١ : ١٨٨) .

(٤) هذه ترجمة العماد كما ذكرها ابن خلكان (انظر وفيات الأعيان ، ج ١٤٧:٧) وهي أشمل ترجمة وردت في كتب التراجم عن العماد ، وقد أخذ الصفدي هذه الترجمة مع اختلاف في الترتيب فقال : (العماد الكاتب محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن محمود بن هبة الله بن اله ، عماد الدين ، أبو عبدالله بن صفى الدين أبي الفرج بن نفيس الدين أبي الرجاء الكاتب الأصفهاني المعروف بابن أخي العزيز) . انظر : (الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٤٦) . وأما التراجم الأخرى فقد خالف بعضها ترجمة ابن خلكان ، فأسقطت بعض الأسماء ، ومنها ترجمة المنذري الذي حذف من الترجمة اسم صفى الدين ، ونفيس الدين أبي الرجاء) . (انظر : التكملة لوفيات النقلة : المنذري ، تحقيق : بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، ج ٢ ، ص ٤ ، ص ٦٦) . وفعل مثله سبط ابن الجوزي الذي أسقط اللقب من الترجمة . (انظر : مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٠٤) . وتابعهم في حذف هذه الأسماء واللقب ابن السامي . (انظر : الجاع المختصر في عنوان التاريخ ، وعيون السير ، ابن السامي ، المطبعة السريانية ، ١٩٢٤ ، ج ٩ ، ص ٦١) . وابن الفرات (انظر : تاريخ ابن الفرات : ص ٤ ، ج ٢ ، ص ٢٢٠) وجاءت بعض التراجم مختصرة وأبدلت أسماء بأخرى . كما فعل أبو الفداء : إذ استبدل الاسم الثاني وهو : (محمد بعبدالله) فقال : (محمد بن عبدالله) . انظر : (المختصر في أخبار البشر : أبو الفداء ، المطبعة الحسينية ، ج ٢ ، ص ١٠٠) . وتابعه في ذلك ابن الوردي (انظر : تنمة المختصر في أخبار البشر : ابن الوردي ، تحقيق أحمد رفعت البدرابي ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٧٠ ، ج ٢ ، ص ١٧٥) . وأما السيرطي فقد استبدل الاسم الثاني (وهو محمد بأحمد) فقال : محمد بن أحمد (انظر : حسن المحاضرة : السيوطي ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٢١هـ ، ص ٢٧٠) . وزاد بعضهم اسماً في الترجمة كما فعل النعميمي : إذ زاد اسم (عبدالله) بعد اسم (علي) انظر : الدارس في تاريخ المدارس : ج ١ ، ص ٤٠٨) .

وقد أطلقت بعض المصادر على العماد لقب الوزير^(١) بالرغم من عدم توليه هذا المنصب . ولعل الذي أوقعهم في هذا الوهم بعض الإشارات التي ذكرت أن العماد كان من نور الدين وصلاح الدين بمرتبة الوزير^(٢) . واشتهر العماد بالأصفهاني نسبة إلى مدينة أصفهان^(٣) . فقد نسب إليه كل من ترجم له ، وأضاف بعضهم إن الاسم الأخير في سلسلة نسبه فارسي معناه العقاب ، وسكتوا عند هذا الحد . وكأنهم ارتضوا هذه النسبة وسكوتهم إقرار . إلا أن واحداً منهم وهو : (ابن الفوطي) تفرد بنسبته إلى قريش^(٤) . و تابعه من المحدثين محمد بهجت الأثري

(١) من الذين أطلقوا هذا اللقب على العماد : ابن العديم (انظر : بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٨ ، ج ٢ ، ص ١٢٥٨) ، والنعميمي ، انظر : (الدارس في تاريخ المدارس : ج ١ : ٨) والياضي في مرآة الجنان (انظر مرآة الجنان : الياضي ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٧هـ ، ج ٢ ، ٤٢٩) . وابن الفوطي (انظر : تلخيص مجمع الآداب : ابن الفوطي ، تحقيق مصطفى جواد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ق ٢ ، ج ٤ ، ص ٨٤٥) . وشمس الدين الذهبي (انظر : سير أعلام النبلاء ، ج ٢١ ، ص ٣٤٥ ، وكذلك (العبر : شمس الدين الذهبي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٣ ، ج ٤ ، ص ٢٩٩) . والسيوطي (انظر : حسن الحاضرة ، ص ٢٧٠) . وحاجي خليفة . (انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، طبعة وكالة المعارف ، ١٩٤١ ، ج ١ ، ص ٧٠١) . وابن العماد الحنبلي (انظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٤ ، ص ٣٢٢) . وأشار إلى هذا اللقب من المحدثين : يوسف سركريس . (انظر : معجم المطبوعات العربية والمصرية : يوسف سركريس . مطبعة سركريس بمصر ، ١٩٢٨ ، ص : ١٣٧٥) . وظن على مظفر سلطان أن هذا اللقب منحة من يوسف سركريس ، أو أنه قد أخذه عن حاجي خليفة . (انظر : علي مظفر سلطان ، العماد الأصفهاني حياته وأدبه ، علي مظفر سلطان ، طبعة وزارة الثقافة السورية ، ١٩٥١ ، ص ٩٥-٩٦) . ولو كان علي مظفر سلطان قد اطلع على الكتب المذكورة أعلاه لما وقع في هذا الوهم .

(٢) انظر سنا البرق الشامي : اختصار الفتح بن علي البنداري ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٣) أصفهان : قال صاحب معجم البلدان في ضبطها : (منهم من يفتح الهمزة وهم الأكثر ، وكسرها آخرون ، منهم : السمعاني وأبو عبيد البكري الأندلسي . وكتبها أصبهان بالباء وليس بالفاء) وقال في تعريفها : (وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ، وأصبهان اسم للإقليم بأسره : وكانت مدينتها أولاً جياً ثم صارت اليهودية ، وهي من نواحي الجبل في آخر الإقليم الرابع) . انظر معجم البلدان : ياقوت ، ج ١ ، ص ٢٠٦) . وقال الحميري في ضبطها : (أصبهان : ليست هذه الباء بخالصة ولذلك يكتبها بعض الناس بالفاء وهي مكسورة الأولى) . وقال في تعريفها : سميت بأصبهان بن نوح وهو الذي بناها وقيل سميت أصبهان لأن أصب بن بلسان العربي البلد وهان الفرس ، وهي من بلاد (فارس) . انظر : (الروض المعطا في خير الأقطار ، معجم جغرافي ، محمد بن عبد المنعم الحميري ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٤ ، ص ٤٣) .

(٤) انظر : تلخيص مجمع الآداب : ابن الفوطي ، ق ٢ ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

الذي أقر هذه النسبة وأكدها^(١) وحاول أبو الهيجا في حديثه عن نسب العماد أن ينقض ما ذهب إليه ابن الفوطي والأثري^(٢). وقد جُلّيت هذه المسألة بعد تحقيق جزءين من كتاب العماد (البرق الشامي)^(٣) الذي تحدث فيه عن نسبه في جواب بعثه رداً على رسالة وردت إليه وهو في بعلبك من القاضي الفاضل في مصر يبشره فيها بولد من جارية حامل خلفها بمصر، فقال: «والآن فهو مصري الولد، وإن كان عراقي المولد، مضريّ العرق، وإن كان فارسي المحتد»^(٤)، ويفهم من هذا القول أن العماد ينتسب إلى العرب، وهو لا ينكر أن أصوله قد نمت في بلاد فارس.

مولده : المكان والزمان

أجمع المترجمون لحياة العماد في رواياتهم أن أصفهان كانت مسقط رأسه وكان ذلك سنة تسع عشرة وخمسمئة، وفيما يخص زمان ولادته، فإن بعض الروايات تكتفي بذكر السنة^(٥). وتذكر روايات أخرى السنة والشهر^(٦) وبعضها يحدد تاريخ اليوم بالإضافة إلى السنة والشهر^(٧)، وأكثر الروايات شمولاً هي

- (١) انظر : خريدة القصر وجريدة العصر، قسم العراق، ج ١، المقدمة، ص ١٠.
- (٢) انظر : العماد الأديب، وخريدته، أبو الهيجا : ص ٢٦-٢٧.
- (٣) حقق من البرق الشامي الجزئين الثالث والخامس سنة ١٩٨٧.
- (٤) انظر البرق الشامي، العماد الأصفهاني، تحقيق : مصطفى الحيارى، الناشر مؤسسة شومان، ١٩٨٧، ج ٣، ص ١٤٢.
- (٥) انظر : مرآة الزمان : ج ٢، ص ٨، و ص ٥٠٤؛ والدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٤٠٨؛ والمختصر، ج ٣، ص ١٠٠؛ والعبير، ج ٤، ص ٢٢٩. وسير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٣٤٥؛ وتتممة المختصر، ج ٢، ص ١٧٥؛ والوافي بالوفيات، ج ١، ص ٤٦؛ والبيدابة والنهاية، ج ١٣، ص ٣٣؛ وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبه، ج ٢، ص ٥٢؛ والنجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٨٧، وحسن المحاضرة، ص ٢٧٠؛ وشذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٢٢.
- (٦) انظر : المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي، انتقاء محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥١، ج ١، ص ١٢٣.
- (٧) انظر : التكملة، ج ٤، ص ٣٩٢. وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج ٦، ص ١٩٧٩؛ وتاريخ ابن الفرات : لناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات، جامعة البصرة، ١٩٨٨، مج ٤، ج ٢، ص ٢٢١. وذكر المنذري وابن الفرات شهراً آخر بالإضافة إلى جمادى الآخرة. وهو شهر شعبان ولكنهما رجحا شهر جمادى الآخرة.

التي حددت السنة والشهر وتاريخ اليوم ، وذكرت اليوم بالاسم ^(١) . وهناك روايات ذكرت اسم اليوم وحددت تاريخ السنة وأهملت الشهر وتاريخ اليوم ^(٢) . ويحدد العماد تاريخ ولادته ومكانها في رده على سؤال القاضي القرشي بأنها كانت (يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة بأصبهان) ^(٣) .

النشأة الأولى (في أصفهان)

في مدينة أصفهان كانت النشأة الأولى ، إذ شبَّ العماد في كنف أسرته التي كانت تعيش في أصفهان ، وتملك عناصر المنعة والسؤدد ، فقد كان عمه (العزیز) مستوفياً في ديوان السلطان (محمود بن ملكشاه السلجوقي) ، ثم وزيراً ، فقائماً على خزائن السلطان وأولاده ^(٤) . وظلت الأيام باسمه لهذه الأسرة إلى أن نزلت بها نازلة دبرها (الدركزيني) ^(٥) وزير السلطان (محمود بن ملكشاه السلجوقي) ؛ تمثلت بحبس العزیز في تكريت ، وحبس والد العماد وعمه في قلعة أصفهان ونهب أموال العائلة وأملأها ، وقد ظل محبوساً في تكريت إلى أن تمكن (الدركزيني) من قتله سنة ٥٢٧هـ ^(٦) . بالرغم من المحاولات الجادة لإنقاذه التي بذلها والي المدينة ، يومئذ نجم الدين أيوب ، وأخوه أسد الدين شيركوه ^(٧) .

(١) حددت هذه الروايات الولادة بيوم الاثنين الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة . انظر : (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، اعتناء د. سي مرجليوث ، مطبعة هندية بالموسكي ، بمصر ، ١٩٢٥ ، ج ٧ ، ص ٨١) ؛ والجامع المختصر ، ج ٩ ، ص ٦٢ ؛ ووفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٥٢ . وقد تردد ابن خلكان في تحديد الشهر الذي ولد فيه العماد ، فقال : وكانت ولادته يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة ، وقيل في شعبان سنة تسع عشرة وخمسمائة بأصبهان (انظر : وفيات الأعيان : ١٥٢:٥) .

(٢) انظر : طبقات الشافعية : للأسنوي ، تحقيق : عبدالله الجبوري ، وزارة الأوقاف ، بغداد ، ١٩٧١ ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ .

(٣) انظر : الجامع المختصر : ٦٢:٩ .

(٤) انظر : تاريخ دولة آل سلجوق : العماد الأصفهاني ، اختصار : الفتح بن علي البنداري الأصفهاني ، دار الأفاق ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ط ٢ ، ص ١٢٨-١٢٩ .

(٥) أبو القاسم الأنساباني الدركزيني . تولى الوزارة للسلطان علي بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١٨هـ ، ثم لأخيه السلطان طغرل ، وقد قتله طغرل سنة ٥٢٧هـ (الروضتين ، تحقيق حلمي ، حاشية رقم (٤) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٣٦) .

(٦) نفسه : ١٥٥ .

(٧) نفسه : ١٥٢ .

أمضى العماد فترة الطفولة المبكرة في أصفهان ، وتلقى فيها علومه الأولى ، إذ كانت تلك المدينة من أهم مراكز العلم في ديار الإسلام آنذاك . ولأهلها عناية وافرة بسماع الحديث ، وبها من الحفاظ عدد كبير^(١) . وكانت بداية التكوين العلمي والثقافي للعماد في (قاشان)^(٢) ، كما يذكر ، إذ التحق فيها بالمدرسة (المحدثة)^(٣) يرافقه أخوه أبو بكر . مكثا فيها سنة ثم عادا بعدها إلى أصفهان^(٤) وفيها بدأ يتعلم العربية على (ابن الأخوة الشيباني البغدادي)^(٥) نزيل أصفهان ، وفيها تعلم الفارسية وسمع الحديث وهو في سن السادسة^(٦) .

مرحلة ما بعد أصفهان

- في بغداد :

بعد تغير الأحوال في أصفهان ، رحل والد العماد إلى بغداد فدخلها سنة أربع وثلاثين وخمسمائة^(٧) وقد وصف العماد هذا الرحيل فقال : « ولما نقلني والذي من أصفهان إلى بغداد حين نبا - بعد النكبة - نبا الوطن ، وضاق بنا العطن ، ولم نجد الأمن والسلامة ، واليمن ، والكرامة ، إلا في ظل الدار العزيزة النبوية الامامية المقتفوية^(٨) فسكننا مدينة السلام ، واتخذناها دار مقام ، وذلك في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة . وقد بلغت سني خمس عشرة سنة^(٩) . وفي بغداد بدأ العماد

(١) الخريدة ، القسم العراقي ، ج ١ ، ص ١٤ .

(٢) قاشان : بالشين المعجمة ، وآخره نون : مدينة قرب أصفهان تذكر مع قَم (انظر : معجم البلدان : ياقوت الحموي : ٢٩٦:٤) .

(٣) المدرسة المحدثة : لم أعثر على تعريف لها في المصادر المتاحة .

(٤) تاريخ دولة آل سلجوق : ١٦٨ .

(٥) سأترجم له في شيوخ العماد .

(٦) انظر : الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٧) الخريدة : قسم العراق ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٨) المقتفوية : نسبة إلى الخليفة العباسي المقتفي الذي تولى الخلافة من سنة ٥٣٠-٥٥٥ هـ . وقد سبقت ترجمته .

(٩) انظر : الخريدة . القسم العراقي ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

مرحلة جديدة في طلب العلم فالتحق بالمدرسة (الثقتية) ^(١) . وأقام فيها ثلاث سنوات ^(٢) . ثم انتقل إلى المدرسة (النظامية) ^(٣) ، وهي من أشهر المدارس الإسلامية آنذاك فقتلهمذئبيها على مجموعة من العلماء الذين عرفتهم بغداد في مجالات شتى ، فأتقن الفقه والخلاف ، وفنون الأدب .

وخلال الإقامة في بغداد قام العماد بزيارة إلى الموصل سنة ٥٤٢هـ ، واتصل بوزيرها (جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور) ^(٤) ومدحه بقصيدة من بواكير شعره مطلعها :

أظنهم وقد عزموا ارتحالاً ثنوا عنا جمالاً لا جمالاً ^(٥)

كما اتصل ببعض فقهاءها ، ثم عاد إلى بغداد ^(٦) .

- العودة إلى أصفهان :

بعد تسع سنوات من تلقي العلم في بغداد تُعاد العماد إلى مدارج الصبا ، إلى أصفهان دون أن يخلع ثياب العلم عن نفسه ، فيدخلها بزي طلبية العلم سنة ٥٤٣هـ ويتفقه فيها على (أبو المعالي الوركاني) ^(٧) ، ومحمد بن عبداللطيف الضجندي ^(٨) . ويرحل من أصفهان إلى مكة حاجاً سنة ٥٤٩هـ مارةً بهمذان

(١) المدرسة الثقتية : وهي المدرسة التي بناها ثقة الدولة الدريني ، المعروف بابن الإبري ، أبو الحسن علي بن محمد ، أحد أركان دولة المقتدي ، بناها للشافعية في بغداد على الشط تحت دار الخلافة (الفريدة ، قسم العراق : ١٤٤:١) .

(٢) الفريدة : قسم العراق ، ج ١ ، ص ٨١ ، ١٤٤-١٤٥ .

(٣) المدرسة النظامية : وهي المدرسة التي بناها نظام الملك ، وشرع في بنائها سنة ٤٥٧هـ ؛ أنظر وفيات الأعيان : ١٢٨:٢ .

(٤) أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الملقب جمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني ، وزير صاحب الموصل ، أتابك زنكي بن آق سنقر ، عرف بالجواد ، وترك آثاراً حميدة خلال ولايته ، توفي سنة ٥٥٩هـ (وفيات الأعيان ٥ : ١٤٣-١٤٧) .

(٥) أنظر : ديوان العماد الأصفهاني : جمع وتحقيق : ناظم رشيد ، ١٩٨٣ ، ص ٣٢٢) .

(٦) تاريخ دولة آل سلجوق : ١٩٤-١٩٥ .

(٧) سترد ترجمته في شيوخ العماد .

(٨) سترد ترجمته في شيوخ العماد .

(٩) أنظر : طبقات الشافعية للسبكي : ١٧٩:٦ ، والدارس في تاريخ المدارس : ٤٠٨:٦ .

برفقة شيخه الخجندي^(١) . وفي السنة نفسها يعود إلى بغداد بعد رجوعه من رحلة الحج ، وفي الطريق إلى بغداد من أصفهان يمرّ (بعسكر مكرم)^(٢) . ويلتقي فيها بـ (محمد بن القاضي أبي بكر الأرجاني)^(٣) رئيس ديوان الملك (ملكشاه بن محمود)^(٤) الذي كان يتولى نيابة القضاء، فيحصل منه على مسودات من أشعار أبيه (القاضي أبي بكر الأرجاني)^(٥) . ومن عسكر مكرم، يعود مع والده إلى بغداد^(٦) .

- الرجوع إلى بغداد :

عاد العماد إلى بغداد بعد غياب دام ست سنوات ليبدأ مرحلة جديدة من حياته ، بعد أن أتقن الكتابة والترسل ، والنظم ، وفاق الأقران ، وحاز قصب السبق^(٧) . وقد وصف الرجوع إلى بغداد وصفاً ينمّ عن شوقه إليها وعن مكانتها في نفسه فقال في ذلك : « وكان وصولي إلى بغداد في الأيام المقتفوية ، وفي ظلها المنشأ ، وفي فضلها المربي ، وفي جوارها حصل الأمن ووصل المن ، وبخدمتها عُرقت وبنعمتها تعرفت ، وفي جناها حلا الجنا وعلا السنّا »^(٨) .

(١) تاريخ دولة آل سلجوق : ٢٢٤ .

(٢) عسكر مكرم : بضم الميم ، وسكون الكاف ، وفتح الراء ، بلد مشهور من نواحي خوزستان منسوب إلى مكرم بن معز العارث (معجم البلدان : ٤ : ١٢٢) .

(٣) سائرجم له ضمن شيوخ العماد .

(٤) السلطان ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، مات بأصبهان مسموماً سنة ٥٥٥هـ ، ويقال أن الوزير عون الدين بن هبيرة دس إليه من سقاء اياه (البداية والنهاية : ١٢ : ٢٦٠) .

(٥) الإمام ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني ، نائب القاضي بعسكر مكرم ، ترجم له العماد في الخريدة وذكر أشعاره . توفي سنة ٥٤٤هـ بعسكر مكرم (انظر الخريدة ، قسم فارس ، الورقة ٣٢ ، وانظر وفيات الأعيان : ١ : ١٥٩) .

(٦) انظر : تاريخ دولة آل سلجوق : ٢٢٥ ، وانظر كذلك الخريدة : القسم المخطوط فارس وبلاد العجم ، ج ٢ ، الورقة : ٣٣ .

(٧) انظر : العبر : ٤ : ٢٩٩ .

(٨) الخريدة : قسم العراق : ١ : ٣٦ .

- في خدمة عون الدين بن هبيرة :

بدأ العماد حياته العملية بعد رجوعه إلى بغداد مشتغلاً بالكتابة^(١) إذ دخل في خدمة الوزير (عون الدين يحيى بن هبيرة)^(٢) وزير المقتفي فولاه النظر (بالبصرة) ثم (بواسط) . وكان ذلك سنة ٥٥٢هـ كما يذكر العماد في قوله : (... واستخدمني عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسطة فنقلني من المدرسة إلى العمل ، وعطلني عن الاشتغال بالعلم ، وظن أنه حلّاني بشغله عن العطل)^(٣) . وبالرغم من أن العماد لا يبدي إعجابه بهذا العمل كما يلاحظ في حديثه ، إلا أنه يستمر فيه حتى النهاية ، وكان هذا العمل سبباً في اتصاله بالخليفة المقتفي الذي زار واسط سنة ٥٥٤هـ وهو نائب فيها عن ابن هبيرة ، فقدمه (مخلص الدين ابن الكيا الهراسي)^(٤) للخليفة ويقول في تقديمه هذا الذي يقول في أمير المؤمنين من قصيدته كأنه يصف هذه الحالة :

لما شفعت العزم وهو مؤيدٌ	بالحزم أسفر بالني منك السُفر
وبرزت مثل الشمس تشرق للورى	وسناك يحجبُ عنك ناظر من نظر
بمظلة سوداء تحكي هالة	وجه الإمام يضيء فيها كالقمر ^(٥)

وقد نال العماد في خدمته لابن هبيرة الرضا والإعجاب، وقد بدا ذلك واضحاً في حديث الوزير ابن هبيرة حين قدم العماد للخليفة المقتفي عندما زار واسط، إذ قال فيه : (هذا صاحبى وقد وصيته ، وأصحابته وأوليته ، وبهج بخدمتي ونجح ، وبذخ بنيابتي ورجح ، فوصى الإمام وزيره بي وأعجبه سميتي وأسلوبى)^(٦) .

(١) انظر : طبقات الشافعية : السبكي : ١٧٩:٦ ، والدارس في تاريخ المدارس : ٤٠٩:٦ .

(٢) الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة أبو المظفر ، وزير للمقتفي والمستنجد . كان غزير العلم ، ذا هبة وهيبة ، مهيباً ، توفي في خلافة المستنجد سنة ٥٦٠هـ (انظر الفريدة : قسم العراق : ٩٦:٦ ، وانظر وفيات الأعيان : ٣٣٠:٦) .

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ، ٢٣٥ .

(٤) كان من خلصاء المقتضي وإمامه (سنا البرق الشامي ، حاشية (٣) ، ص ١٠٦) .

(٥) تاريخ دولة آل سلجوق : ٢٦٤ ، اختلفت رواية البيت الثالث في الديوان إذ ورد الشطر الأول منه على النحو التالي : (وكانما تلك المظلة هالة) . (الديوان : ١٢-١٥٣) .

(٦) تاريخ دولة آل سلجوق : ٢٦٤ .

استمر العماد في خدمة ابن هبيرة فخاب عنه في البصرة بعد واسط وكان ذلك سنة ٥٥٧هـ حتى سنة ٥٦٠هـ وهي السنة التي قُتل فيها ابن هبيرة^(١) . وقد أفاد العماد من خدمته لابن هبيرة التي امتدت ما يقرب من ثماني سنوات ، في جمع أجزاء من مادة كتبه التي ألفها فيما بعد مثل الخريدة ، إذ اتصل بشعراء واسط والبصرة ، واطلع على دواوين بعضهم وسجل ما استطاع تسجيله من أشعارهم .

وبالرغم من هذه الفترة الطويلة التي قضاها العماد في خدمة ابن هبيرة وكان أحد شعرائه وكتابه^(٢) ومدائحه فيه كثيرة كما يقول^(٣) : « إلا أننا لا نجد مدحة واحدة من هذه المدائح ، كما لا نجد رسائل ديوانية أنشأها العماد على لسان ابن هبيرة . ولعل السبب في ذلك يعود إلى النكبة التي حلت بأعوان الوزير بعد وفاته . فآثروا ومنهم العماد التخلص مما قد يكون سبباً في إيدانهم مما له علاقة بالوزير .

- العماد في السجن -

ظل العماد في عيشة راضية خلال خدمته للوزير ابن هبيرة في واسط والبصرة ، ولكن هذا النعيم لم يدم ، إذ تغيرت الأحوال بعد وفاة ابن هبيرة ، فاعتقل الخليفة المستنجد أبناء الوزير وأعوانه ، ومنهم العماد الأصفهاني الذي يصف هذه الحادثة فيقول : « ولما توفي الوزير ابن هبيرة اعتقلت في الديوان ببغداد بسبب منابتي عنه في واسط ، والبصرة ، فمدحتُ الخليفة بقصيدة استعطفته بها سنة خمس مئة وستين^(٤) » ومنها :

أعيذكُم أن تغفلوا عن أمورهِ وأن تتركوه نهيةً لمغيرهِ^(٥)

(١) الخريدة : قسم العراق : ٤ : ٢ : ٦٨٢ .

(٢) انظر مرآة الزمان : ق ٨ ، ج ٢ ، ٥٠٤هـ .

(٣) الخريدة : قسم العراق : ١ : ٩٨ .

(٤) نفسه : ١ : ٥٦ .

(٥) الديوان : ٢١٧ .

ولكن قلب الخليفة لا يرق لحاله ويبقى في السجن فيكرر المحاولة ثانية ويستعطف الخليفة بقصيدة ثانية^(١) ، ولكن الخليفة لا يستجيب لتوسلات العماد ، وحين يشعر باليأس ويفقد الأمل في عفو الخليفة فيتوجه إلى غيره . فيهدي مدائحه إلى (عماد الدين بن رئيس الرؤساء)^(٢) وكان حينذاك (أستاذ الدار)^(٣) ، يستعطفه ويتوسل إليه ليفك كربته ويخلصه من الاعتقال فيقول في مخاطبته طالباً أن يشفع له عند الإمام :

قل للإمام : علام حبس وليكم ؟ أولوا جميلكم جميل ولائه
أوليس إذ حبس الغمام وليه خلى أبوك سبيله بدعائه^(٤)

وتشفعُ هذه القصيدة للعماد عند عماد الدين فيأمر بإطلاقه وتوفير أرزاقه كما يقول^(٥) .

مكث العماد بعد خروجه من السجن عامين مسهد الجفن ، منكذ العيش ، منقطعاً إلى الفقهاء ، مشتغلاً بمناظرتهم ومباحثتهم ، وكان من بين هؤلاء الفقهاء فقيه من أهل الشام ، يصف طيب رياضها ، فحرك هذا الوصف رغبة العماد في معرفتها فقرر الرحيل ، وكانت رحلة للفرجة وليس لقصد أحدٍ من الكرام كما يقول^(٦) .

(١) الديوان : ٢٩٤ .

(٢) عماد الدين بن رئيس الرؤساء : هو أبو نصر علي بن الوزير عضد الدين أبي الفرج محمد بن عبدالله بن المنظر رئيس الرؤساء . لما وزر أبوه للمستنجد ، صار أستاذاً للدار (انظر : الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ : ص ١٦٦) .

(٣) أستاذ الدار : وهو الذي يتولى الأخذ : وتبيض المال (انظر صبح الأمشى ، للقلقشندي ، وزارة الثقافة والارشاد والقوي ، المؤسسة المصرية : ١١ : ١٦٨) .

(٤) الديوان : ٧١ .

(٥) الخريدة ، قسم العراق : ١ : ٦٣ .

(٦) انظر : الخريدة ، قسم الشام ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، وانظر كذلك ، سنا البرق الشامي ، اختصار الفتح بن علي البنداري ، تحقيق فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٧٩ ، ص ١٨ .

- العماد في الشام :

وصل العماد إلى الشام سنة ٥٦٢هـ ، فاستقبله القاضي كمال الدين الشهرزوري ، قاضي دمشق آنذاك ، وخيَّره في النزول حيث يريد ، فاختر النزول في المدرسة العمادية ، التي أصبح مدرستها فيما بعد ، وتردد إلى القاضي كمال الدين في محافل علمه ومجالس حكمه ، وكانت له مشاركة في الاستدلال والاعتراض في الأصول والفروع على الأئمة الفحول كما يذكر^(١) . ومن بين العلماء الذين التقاهم وتلمذ عليهم في الشام ابن عساكر صاحب التاريخ المشهور ، وقد ترجم له في الخريدة ، وسمع بعض أشعاره وأشاد بفضلته وغازاة علمه^(٢) .

وفي الشام بدأ العماد بتكوين علاقات اجتماعية مع سادة القوم فاتصل الود بينه وبين (نجم الدين أيوب)^(٣) لسابق معرفة بين نجم الدين وعمه العزيز أيام كان والياً على تكريت والعزيم مسجون بها ويصف العماد بداية الصلة بنجم الدين أيوب فيقول : « وعرف نجم الدين بالوصول فبعثته معرفة العم العزيز على التعرف بي ، فبكر إلى منزلي لتبجيلي ، وتحقيق تأميلي ، واستقبلته ، وأسرعت إلى بساط الأدب فقبلته ، وخدمته بهذه القصيدة في أواخر شوال سنة اثنتين وستين^(٤) ومطلعها :

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ولا الفراق إلى عيши بمنسوب^(٥)

نمت هذه الصلة بينهما ونال العماد حظوة عند نجم الدين فأكرمه وقدمه على الأعيان ، وميَّزه ، وعرف به ابنه صلاح الدين^(٦) . وقد مدحه بقصيدة أخرى في هذه السنة تحدث فيها عن منزلته الرفيعة وما حققه من إنجازات عظيمة ، قال في

(١) سنا البرق الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي ، ص ١٨ .

(٢) الخريدة : قسم الشام ، ج ١ : ٢٧٧ .

(٣) نجم الدين أيوب : أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين والد السلطان صلاح الدين يوسف ، كان في أول أسرة متسلماً قلعة تكريت هو وأخوه أسد الدين ، خدم نور الدين زنكي ، وتوفي في القاهرة سنة ٥٦٨هـ (وفيات الأعيان : ١ : ٢٦٠) .

(٤) انظر : سنا البرق الشامي ، للبنداري ، تحقيق فتحية البنداري : ١٨ .

(٥) الديوان : ٨٣ .

(٦) ارشاد الأريب : ٨٢:٧ .

مطلعها :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر^(١)

وفي هذه السنة لو هي سنة الوصول إلى الشام بدأت صلاته بالقاضي الفاضل الذي كان يحضر مجالس العماد ، ويذاكره بمجالس الخلاف في الفروع ، وقد أعجب به الفاضل ونوه بذكره عند السلطان نور الدين ، وذكر له تقدمه في العلم ، والكتابة ، وأهله لكتابة الإنشاء^(٢) .

- في ظل نور الدين -

كان دخول العماد في خدمة نور الدين سنة ٥٦٣ هـ ، ويرجع الفضل في ذلك للقاضي كمال الدين الشهرزوري كما يؤكد ذلك العماد نفسه حين يقول : (... وعرفني إليه القاضي كمال الدين الشهرزوري ، ورغبه في استثنائي ، وقرر لديه من حساب أمالي ما لم يكن في حسابي . وقال : « لا بأس بأن تكتب إليه أبياتاً ، ونحن نرجو لك في دولته ثباتاً وفي روضته نباتاً » فأنشأ هذه القصيدة ، وعرضت من جانب القاضي ، ومطلعها :

لو حفظت يوم النوى عهداً ما مقلت بوصولكم وعودها
ماذا جنت قلوبنا حتى غداً في النار من شوقكم خلودها^(٣)

قال فرتبني في ديوانه منشئاً وذلك لاستقبال سنة ثلاث وستين^(٤) وذلك بعد أن استعفى من ديوان الإنشاء كاتبه ، (أبو اليسر شاعر بن عبدالله) كاتب نور الدين لتقدمه في السن . وقد بدأ العماد عمله في ديوان الإنشاء متردداً لأنه لم يتقدم له اشتغال طويل بهذه الصناعة كما يقول ، ولظنه أن صناعة الكتابة لا سيما الإنشاء صعبة ، ويصف لنا ترده بقوله : « .. وأنا أمضي كل يوم إلى الديوان مبكراً ، وبما أقدم عليه في خدمته . لا درية لي بها مفكراً على أن أهل

(١) الديوان : ١٦٩ .

(٢) إرشاد الأريب : ٧ : ٨٢-٨٢ .

(٣) الديوان : ١٤٣ .

(٤) سنا البرق الشامي : تحقيق رمضان ششن : ج ١ : ٦٦ . والروضتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ٢ : ٣٧٧ .

ديوانه ينظرونني شزراً ، ويعدون كثير ما عندي من فضل نزرأ ، وكنت أظن أن صناعة الكتابة ، لا سيما الإنشاء صعب) (١) .

ولا يقف التردد حائلاً بين العماد وطموحه ، فيقبل على الكتابة ويتجرأ عليها ويبدع فيها ، ويخترع أسلوباً جديداً ، بعد أن يضطلع على كتب الأمصار ، والمراسلات الواصلة من سائر الأقطار ، ويجدها على غاية من الركاكة . فيكتب إلى الأعاجم بما يسحرهم ويبهتهم ، وإلى ملوك الشام ومصر بما يعجزهم ويصحبهم (٢) .

ومنذ اتصال العماد بنور الدين ، لازمه ولم يفارقه ، وكتب مراسلاته بالعربية والفارسية ، وتوطدت الصلة بينهما ، مما جعل نور الدين يعتمد عليه في بعض المهمات الصعبة ، فقد أرسله سنة ٥٦٥هـ إلى (خِلاط) في مهم ، ورفع ملم ، كما يقول (٣) ، وهذا المهم هو طلب النجدة من صاحب خِلاط (٤) للقاء الفرنجة (٥) . وفي سنة ٥٦٦هـ أرسله إلى بغداد لطلب الإذن من الخليفة (المستنجد) بدخول الموصل (٦) . وأوكل نور الدين إلى العماد مهمات أخرى منها التدريس في المدرسة النورية وتعيينه ناظراً لها سنة ٥٦٧هـ (٧) . وفي سنة ٥٦٨هـ جعل نور الدين العماد مشرفاً على ديوانه مضافاً إلى كتابة الإنشاء (٨) فحمله بذلك عبئاً ثقيلاً كما يقول : « فجمعتُ بين المنصبين ، وقسمتُ زماني على النصيبين ، فمرة للكتب والمناشير ، وتارة للإثبات في الدساتير ، ولم أثق بنائب ، وبأشرت العمل بنفسي ... الخ (٩) وفي السنة نفسها ولّاه الاستيفاء في مملكته ، فجمع الإنشاء ، والإشراف

(١) سنا البرق الشامي ، تحقيق ششن : ٦٧ .

(٢) نفسه : ٦٧ .

(٣) البرق الشامي : العماد الأصفهاني ، تحقيق فالح حسين ، مؤسسة عبدالحميد شومان ، عمان ، ١٩٨٧ ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

(٤) صاحب خِلاط ، هو ظهير الدين سكرمان شاه أرمن .

(٥) تاريخ ابن الفرات : ج ٤ ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٦) سنا البرق الشامي ، تحقيق ششن : ٩٤:١ .

(٧) نفسه : ١١٩:١ .

(٨) نفسه : ١٢:١ ، والروضتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ٢ : ٥٢٤ .

(٩) سنا البرق الشامي ، تحقيق ششن : ١٢٢:١ .

وقد ظل للعماد منزلة عالية رفيعة عند نور الدين حتي وفاته ، فعادت لتضطرب به الأحوال ، وينبوه الدهر حيناً من الزمن إلى أن يقدر له بعد زمن ليس طويلاً ، الاستقرار في بلاط صلاح الدين ، بعد أن يمرّ بمرحلتين حرجتین هما مرحلة الخدمة مع الملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين وخليفته . ومرحلة العودة إلى الموصل وتعرضه للمرض هناك .

- في خدمة الملك الصالح اسماعيل -

كان الملك الصالح عند وفاة والده نور الدين صغيراً ، تولى الوزارة له «العدل بن العجمي»^(١) . وتصرف المخالفون في الخزانة والدولة ، كما أرادوا ، فقال العماد منهم الأذى ، وذلك بسبب مكانته الرفيعة عند نور الدين ، فلما غاب سنده ونصيره وأصبحت الصولة لهم ، كادوا له وحسدوه ، وجرّدوه من مهمة الإشراف على الديوان والاستيفاء ، وقصروا عمله على الكتابة وحسب ، فاختل أمره ، وتغيرت أحواله ، وأبى الإقامة على الضيم فقرر العودة إلى بغداد^(٢) .

- العودة إلى الموصل :

عندما نقل الملك الصالح اسماعيل من دمشق إلى حلب سار العماد مع ركبته ، ووصل إلى حلب ، وأقام مدة في دار (محي الدين الشهرزوري)^(٣) يظهر لحاشيته المودة ، ثم رحل عن حلب إلى (حرّان) ثم إلى (سروج)^(٤) حيث يخيم صاحب الموصل

(١) أبو صالح العجمي وزير الملك الصالح اسماعيل ، وثبت عليه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه سنة ٥٧٣هـ . (مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٥٠) وانظر الروضتين في أخبار الدولتين ، أبو شامة المقدسي ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) سنا البرق الشامي : ششن : ١٥٩ : ١ .

(٣) محي الدين أبو حامد محمد بن كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري ، ولي قضاء دمشق نيابة عن والده ، ثم ولي قضاء حلب ، ثم انتقل إلى الموصل وولي قضاها ، درس بالمدرسة النظامية في الموصل ، وتوفي سنة ٥٨٦هـ (انظر : وفيات الأعيان : ٤ : ٢٤٦ ، والخريدة ، قسم الشام : ٣٢٩ : ٢) .

(٤) سروج : بلدة قريبة من حرّان من ديار مصر (معجم البلدان ١٦/٣) .

(سيف الدين غازي) ^(١) ويقصد وزير الموصل (فخر الدين عبد رب المسيح) ^(٢) الذي يرغبه بخدمة سيف الدين غازي ، إلا أنه يأبى ويعتذر ، ويمضي إلى الموصل بعد الحصول على الإذن بذلك ، ويقيم فيها على أمل العودة إلى بغداد ليجمع بأخيه شمله ، ولكن المرض يحول دون تحقيق هذه الأمنية ، فيبقى العماد في الموصل ويتردد إليه فيها « كمال الدين ابن الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الجواد » وبعد شفائه من المرض يعود إلى الشام ولا يتحقق حلم الرجوع إلى بغداد ^(٣) .

- العودة إلى الشام (الدخول في خدمة صلاح الدين) :-

بدأت صلة العماد بصلاح الدين عند قدومه إلى الشام سنة ٥٦٢هـ حين اتصل بنجم الدين أيوب الذي عرفه بدوره على ابنه صلاح الدين ، فنشأت بينهما مودة ، ولم يزل صلاح الدين يستهدي العماد نظمه ونثره كما يقول ^(٤) . وقال في مدحه من قصيدة :

نار قلبي لضيف طيفك تبسو كل ليل فيهتدي ويزور ^(٥)

وعلى أساس من هذه المودة فإن العماد حين تتنامى إليه الأخبار بدخول صلاح الدين دمشق يسارع للرحيل عن الموصل ، ويعود إلى دمشق معتمداً على سابق الود الذي كان بينه وبين صلاح الدين ، ويصف هذه العودة ودواعيها فيقول : « ... فوصل نجاباً وذكراً أنه فارق صلاح الدين (بالكسوة) ^(٦) فهاجني الطرب لقصده ،

(١) سيف الدين غازي : سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر ، صاحب الموصل - لم تطل مدته في المملكة وكانت وفاته سنة ٥٤٤هـ (انظر وفيات الأعيان : ٢:٤) .

(٢) فخر الدين بن عبد رب المسيح : كان نائب قطب الدين مودود بن زنكي بالموصل ، والقيم بأمر دولته ، على ابنه سيف الدين من بعده ، يحكم في مملكته وليس له من الأمر إلا الاسم ، وظل على هذا الأمر حتى أقصاه نور الدين سنة ٥٦٦هـ (انظر الروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٢-٤٧٨) .

(٣) انظر : سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن : ١٦٦:١ .

(٤) نفسه : ١٦٦:١ .

(٥) الديوان : ١٧٨ .

(٦) الكسوة : (تربة هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر) (انظر معجم البلدان : ٤٦١:٤) .

لسابق معرفته ، وقديم وده ، وخرجت من الموصل رابع جمادى الاولى ... ودخلت إلى دمشق في ثاني جمادى الآخرة ، وصلاح الدين نازل على حلب ، فنزلت في مدرستي وعدت إلى منزلتي ، وألفيتها ، وفيها مدرس يتولاها ، وقالوا : « إن العماد حلأها » ، فدخلت اليها ، وأخرجته وأبعدته عن النهج الذي نهجته »^(١) .

وأقام العماد حتى عاد السلطان صلاح الدين إلى حمص ، وقصده وقد تسلم قلعتها ، وهناك بفتح بعلبك بأبيات منها قوله :

فتح تسنى في الصيام كأنما شكراً لما منح الأنام - صيام
من ذا رأى في الصوم عيد سعادة حلت لنا ، والظفر فيه حرام^(٢)

كان العماد يطمح إلى الدخول في خدمة صلاح ، ويرغب في تولي ديوان الإنشاء ، ولكن هذا الأمر لم يكن سهلاً المنال لوجود القاضي الفاضل ، الذي كان وزير صلاح الدين ، ونائب ديوانه ، فوجود القاضي الفاضل على رأس الديوان جعل صلاح الدين يتردد في إلحاق العماد بديوانه رغم رغبته في ذلك خشية أن يثير غضبه وهو الرجل المقرب إليه وصاحب الرأي السديد الذي لا يستغني عنه صلاح الدين . وقد أدرك العماد هذا الأمر ، وعرف تردد السلطان ، فكان لا بد له والأمر كذلك من وسيلة تزيل تردد السلطان ، وليس أفضل من الفاضل لهذا الأمر ، ليقتنع السلطان باستخدامه ، وإذا كانت العلاقة بين العماد والفاضل ليست بالمستوى الذي يمكّن العماد من الحديث إليه مباشرة ، فلا بأس من صديق يلجأ إليه ليكون واسطة بينه وبين الفاضل ، وقد اهتدى العماد إلى هذا الصديق وهو : (الأمير نجم الدين بن مصال) ، ويحدثنا العماد عن استعانته بالأمير فيقول : « فلزمت التردد إليه ، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل ، واتخذته من أنجح الرسائل ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً »^(٣) . ومن ذلك ما كتبه إليه :

(١) سنا البرق الشامي ، تحقيق ششن : ١٨٤:١ .

(٢) سنا البرق الشامي ، ششن : ١٨٥:١ ، والأبيات في الديوان : ٣٧٨ .

(٣) سنا البرق الشامي ، ششن ، ١ ، ١٩٣ : وانظر الروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤١ .

لعلّ نجم الدين ذا الفضل
وإن أجل الناس قدراً فتى
يذكر الفاضل في شغلي
بفضله يتعب من أجلي^(١)

أثمرت جهود الأمير نجم الدين في وساطته مع القاضي الفاضل ، فدخل الأجل الفاضل إلى السلطان كما يقول العماد : « وعرفه أنه في رغب ، فقال له : أنت كاتبني ، ومدبر ملكي وصاحبي ، ولو رتبت كاتباً لظن أن في الحال نقصاً » فقال : أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة ، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم ، ولا تستغني في ذلك عن عقد اللطفات وحل التراجم ... والعماد يفي في الوفاء بافتراع كل بكر ، واختراع كل عوان ، ولك أختاره وقد عرف في النبوة النورية مقداره . فوافق قوله مراد السلطان ، وأخذ خط السلطان بما قرر لي من شغلي^(٢) .

لزم العماد خدمة صلاح الدين فرحل برحيله ، ونزل بنزوله ، وأنشده شعره ، وعظم بطولاته ومجدها ، وأنشأ الرسائل باسمه للولايات والأمصار ، وأرخ لوقعاته وسجل أعظم الأحداث في عصره ، فلم يعرف العماد الهدوء والاستقرار خلال علاقته بصلاح الدين ، فقد كان صلاح الدين يحارب أعداءه على كل الجبهات ، ينتقل من دمشق إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى الموصل في جهاد مستمر . فقد خرج العماد مع السلطان سنة ٥٧٢هـ إلى مصر وعاد برفقته إلى دمشق^(٣) . وعاد إليها مرة ثانية برفقة السلطان كذلك سنة ٥٧٦هـ ، ومكث فيها عاماً ثم عاد إلى دمشق^(٤) .

وبعد رجوعه من مصر ، جاهد الصليبيين جهاداً عظيماً موصولاً ، كان من نتائجه الانتصار عليهم في معركة حطين الخالدة سنة ٥٨٢هـ . وفتح بيت المقدس في السنة نفسها ، وقد وضع العماد كتاباً يورخ فيه لهذا الفتح سماه «الفتح القسي في الفتح القديسي» ، ومدح السلطان مهنئاً بفتح القدس^(٥) وبشر الخليفة الناصر لدين الله العباسي بهذا الفتح بقصيدة أرسلها إلى بغداد^(٦) . وكتب على لسان

(١) الديوان : ٣٦٦-٣٦٦ .

(٢) سنا البرق الشامي : ششن ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(٣) الروضتين : حلمي ، ج ١ ، ق ٢ : ٦٧١ .

(٤) سنا البرق الشامي ، ششن : ٣٥٤:١ .

(٥) الديوان : ٢٣٠ .

(٦) نفسه : ٧٤ .

صلاح الدين البشارة بهذا الفتح إلى الأمصار الإسلامية ، وبعد ذلك شهد مع السلطان فتح الكرك وحصونها وصفد^(١) . وشهد في سنة ٥٨٨هـ الصلح بينه وبين الفرنجة وكتب نص الهدنة بإنشائه^(٢) .

- في خدمة خلفاء صلاح الدين :

انتهت خدمة العماد لصلاح الدين بوفاة الأخير ، وبوفاته انقسمت الدولة دويلات يحكمها أبناؤه وأخوته ، وظل العماد في دمشق يخدم الملك الأفضل ، ويلزم الديوان ، يكتب الكتب والرسائل ، لكن ابن الأثير لا يرضيه أن يبقى العماد على ما كان عليه من منزلة عند صلاح الدين ، فيكيد له عند الملك الأفضل^(٣) . وتتغير أحوال العماد فيقرر الرحيل إلى مصر ، ويدخلها سنة ٥٩٢هـ وفيها يلتقي بالقاضي الفاضل ويلزمه^(٤) . ولكن هذه الحال لا تطول ، إذ يعود إلى دمشق ليمكث فيها حتى سنة ٥٩٦هـ معتزلاً بالعمل العام ، مشغولاً بالتأليف . ويرحل رحلته الرابعة إلى مصر سنة ٥٩٦هـ مع الملك الكامل ابن العادل^(٥) وهي الرحلة الأخيرة إلى مصر^(٦) .

مصادر ثقافة العماد وشيوخه :

مرّ بنا أن العماد تلقى علومه في المدارس في المراحل المبكرة من حياته ، فقد تعلم العربية والفارسية في أصفهان ، وسمع الحديث في سنن مبكرة ، وفي بغداد درس الفقه الشافعي ، وتوسع في دراسته على أشهر شيوخ المذهب في المدرسة النظامية ، وأتقن الفقه والخلاف والعربية على يد مجموعة من علماء بغداد ،

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي ، العماد الأصفهاني ، تحقيق محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٤٧ .

(٢) نفسه : ٦٠٥ .

(٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، لابن وأصل الحموي ، تحقيق جمال الدين الشيال ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الجمهورية العربية المتحدة ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٤) نفسه : ٥٧:٣ .

(٥) الملك الكامل بن العادل : الكامل محمد بن أبي بكر العادل ، أبو المعالي صاحب الديار المصرية ، توفي سنة ٦٢٥هـ (انظر وفيات الأعيان : ٨٩:٥) .

(٦) انظر : الروضتين في أخبار الدولتين ، طبعة دار الجيل ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

وكانت مرحلة التعليم في المدارس هي المصدر الأول من مصادر ثقافته ، وأما المصدر الثاني من مصادرها فتمثل في مجالسته للعلماء والأدباء والشعراء والآخر عنهم في حلقات المناظرة ومجالس الوعظ ، فقد كان شديد النشاط في طلب العلم ، ورصد حلقاته ومجالسه ، وقد أفاد منها العلم والرأي ، ومناهج الجدل ، واقتبس أساليب الإقناع والحوار ، وقد استمر على هذا النهج في طلب العلم وتتبع شيوخه والإفادة منهم حتى آخر أيامه ، ومن مصادر ثقافته كذلك رحلاته الكثيرة وتنقله بين الأمصار وما يتحصل له خلالها من مشاهد وأحداث ومقابلات مع رجال العلم في البلاد التي يحل فيها ، ومنها كذلك لمحله في ديوان الإنشاء الذي ساعده على صقل أسلوبه ووزوده بمعارف جديدة والموضوعات التي كان يعالجها ، ومنها ملازمته بلاط السلطان وحضور مجالسه العلمية التي كانت تضم خيرة العلماء ، ومنها ما تحصل له خلال حياته وتنقلاته وأسفاره من مجموعات شعرية أودعها فيما بعد كتابه الخريدة .

شيوخ العماد ^(١) :

التقى العماد خلال حياته بمجموعة من العلماء أخذ عنهم ، وأجازوا له ، وقد ورد ذكر بعضهم عند من ترجموا للعماد . وذكر العماد بعضهم الآخر ونص على أخذه عنهم في مؤلفاته ، وبذلك فإن شيوخ العماد يمكن أن يقسموا حسب هذه النظرة قسمين هما :

- شيوخ ورد ذكرهم عند من ترجموا له ، وهم :

١ - أبو عبدالله الفراوي : كمال الدين ، أبو عبدالله محمود بن أبي مسعود بن أبي العباس النيسابوري الفراوي (بضم الفاء) الملقب بـ بفقيه الحرمين ومسنده خراسان كان فقيهاً شافعيّاً مفتياً ناظراً ، توفي سنة ٥٢٠هـ تتلمذ عليه

(١) أول من حاول أن يُحصى شيوخ العماد من الدارسين الحديثين هو : علي مظفر سلطان ، إذ ذكر منهم ثمانية فقط (انظر : العماد الأمبهاشي حياته وأدبه : ١٢٤-١٢٦) . ومن بعده : محمد بهجت الأثري ، فذكر للعماد تسعة وعشرين شيخاً (انظر الخريدة قسم العراق ، ج ١ ، المقدمة ، ص ٢٠-٢٥) . ثم فواد أبو الهيجا الذي أحصى سبعة وثلاثين شيخاً للعماد (انظر العماد الأديب وخريدته : ٨٦-١٠٠) .

العماد في أصبهان^(١) ، وذكره في شيوخه كل من : ياقوت ، والسبكي ،
والذهبي ، والمنذري وابن العماد الحنبلي^(٢) .

٢ - أبو القاسم بن الحسين : هبة الله بن محمد بن عبدالله بن العباس الحسين
الشيباني البغدادي^(٣) . سمع منه العماد في أصفهان وهو في نحو السادسة
من عمره ، توفي سنة ٥٢٥هـ ، وذكره في شيوخه : ياقوت ، والذهبي ،
والمنذري ، والسبكي ، والنعمي وابن العماد الحنبلي^(٤) .

٣ - أبو المعالي الوركاني : الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد الوركاني : كان
إماماً ، فاضلاً ، مناظراً ، أصولياً ، عارفاً بالأدب ، فقيهاً شافعيّاً مدرس
نظامية أصفهان^(٥) . تتلمذ عليه العماد في أصفهان ، توفي سنة ٥٥٩هـ ، ذكره
من ضمن شيوخ العماد : ياقوت ، والسبكي والنعمي^(٦) .

٤ - محمد بن عبداللطيف الخجندي : وهو أبو بكر محمد بن عبداللطيف بن ثابت
الخجندي المهلبی ، كان مقدم أصفهان ، ورئيسها ، ومدرس النظامية فيها .
تتلمذ عليه العماد في أصفهان وتوفي سنة ٥٥٢هـ^(٧) . ذكره في شيوخه :
ياقوت ، والسبكي والنعمي^(٨) .

٥ - أبو منصور الرزاز : أبو منصور سعيد بن محمد بن محمد بن منصور
المعروف بابن الرزاز الفقيه البغدادي كان شيخ الشافعية في بغداد ، ومدرس

(١) انظر : وفيات الاعيان : ٢٩٠:٤ .

(٢) انظر : إرشاد الأريب : ٨١:٧ ؛ طبقات السبكي : ١٧٩:٦ ؛ العبر : ٢٩٩:٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ٣٤٥:٢٦ ؛
التكملة : ٦٦:٤ ؛ شذرات الذهب : ٣٣٢:٤ .

(٣) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : ابن الجوزي ، طبعة حيدر آباد الدكن ، سنة ١٣٥٨هـ ، ج ١٠ ، ص ٢٤ .

(٤) انظر : إرشاد الأريب : ٨١:٧ ؛ العبر : ٢٩٩:٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ٣٤٥:٢٦ ؛ التكملة : ٦٦:٤ ؛ طبقات
السبكي : ١٧٩:٦ ؛ المدارس في تاريخ المدارس : ٤٠٨:١ ؛ شذرات الذهب : ٣٣٢:٤ .

(٥) شذرات الذهب : ١٨٧:٤ .

(٦) انظر : ياقوت : ٨١:٧ ؛ طبقات الشافعية للسبكي : ١٧٩:٦ ؛ المدارس في تاريخ المدارس : ٤٠٨:١ .

(٧) الوافي بالوفيات : ٢٨١:٢ .

(٨) انظر : إرشاد الأريب : ٨١:٧ ؛ طبقات الشافعية للسبكي : ١٧٩:٦ ؛ المدارس في تاريخ المدارس :

النظامية فيها^(١). عدّه من شيوخه في بغداد معظم من ترجموا للعماد^(٢). وذكره العماد في شيوخه في حديثه عن أبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي^(٣). وفي ترجمته لمحي الدين أبي حامد الشهرزوري يقول مؤكداً أخذ العلم عن ابن الرزاز : « اجتمعنا في بغداد في المدرسة النظامية سنة ست وثلاثين شريكين في الفقه موسومين بالإعزاز عند شيخنا ابن الرزاز »^(٤).

٦ - أبو الحسن بن عبدالسلام : علي بن هبة الله بن عبدالسلام ، ابن الحسن الكاتب البغدادي المولد ، حدث بواسط وبغداد ، توفي سنة ٥٣٩هـ^(٥). ذكره ضمن شيوخ العماد في بغداد : الصفدي ، والسبكي ، والنعمي ، وياقوت الحموي ، والمنذري وابن الديبشي^(٦).

٧ - أبو منصور محمد بن خيرون : محمد بن عبدالملك بن الحسن بن خيرون ، أبو منصور ، المقرئ البغدادي ، كان مقراءً ومحدثاً ، توفي سنة ٥٣٩هـ^(٧). عدّه ياقوت ، وابن خلكان ، والسبكي ، والصفدي ، وابن الساعي ، والنعمي ، والمنذري من شيوخ العماد في بغداد^(٨).

(١) طبقات الشافعية للسبكي : ٣٤٠:١ ؛ شذرات الذهب : ١٢٢:٤ .

(٢) انظر : إرشاد الأريب : ٨١:٧ ؛ وفيات الأعيان : ١٤٧:٥ ؛ التكملة : ٦٦:٤ ؛ مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٠٤ ؛ طبقات الشافعية للسبكي : ١٧٩/٦ ؛ الوافي بالوفيات : ١٣٢:١ ؛ العبير : ٢٩٩:٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ٢٤٥:٢١ ؛ تلخيص مجمع الآداب : ج ٤ ، ق ٢ ، ٨٤٥ ؛ الدارس في تاريخ المدارس : ٤٠٨:١ ؛ البداية والنهاية : ٣٢:١٣ ؛ طبقات ابن قاضي شعبة : ٥٢:٢ ؛ الجامع المختصر : ٦١:٩ ؛ المختصر المحتاج إليه : ١٢٢:١ ؛ طبقات الشافعية للأسنوي : ٣٥٤:٢ ؛ حسن المعاصرة : ٢٧:٢ ؛ شذرات الذهب : ٣٣٢:٤ ؛ الكنى والألقاب ، عباس القمي ، المطبعة العيدرية ، النجف ، ١٩٧٠ ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

(٣) الفريدة : قسم العراق ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٤) الفريدة ، قسم الشام ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

(٥) انظر المنتظم لابن الجوزي ، ج ٩ ، ص ١١٥ .

(٦) انظر : ١٢٢:١ ؛ طبقات السبكي : ١٧٩:٦ ؛ الدارس : ٤٠٨:١ ؛ إرشاد الأريب : ٨١:٧ ؛ التكملة : ٦٦:٤ ؛ المختصر المحتاج إليه : ١٢٢:١ ؛ وفيات الأعيان : ١٤٧:٥ ؛ سير أعلام النبلاء : ٢٤٥:٢١ .

(٧) انظر المنتظم : ج ٩ ، ص ١١٥ .

(٨) انظر : إرشاد الأريب : ٨١:٧ ؛ وفيات الأعيان : ١٤٧:٥ ؛ طبقات السبكي : ١٧٩:٦ ؛ الوافي بالوفيات : ١٣٢:١ ؛ الجامع المختصر : ٦١:٩ ؛ الدارس : ٤٠٨:١ ؛ التكملة : ٦٦:٤ ؛ سير أعلام النبلاء : ٢٤٥:٢١ ؛ المختصر المحتاج إليه : ١٢٢:١ .

- ٨ - أبو المكارم السمذي البغدادي : أبو المكارم المبارك بن علي عبدالعزيز السمذي البغدادي ، سمع منه العماد وكان سماعه صحيحاً ، توفي سنة ٥٢٩هـ^(١) . ذكره الذهبي ، وياقوت ، وابن خلكان ، والصفدي ، والسبكي ، والمنذري ، وابن الدبيثي من شيوخه في بغداد^(٢) .
- ٩ - أبو بكر الأشقر : أبو بكر أحمد بن علي عبدالواحد الدلال ، كان صحيح السماع ، توفي سنة ٥٤٢هـ^(٣) . ذكره ضمن شيوخ العماد في بغداد : ياقوت ، والمنذري ، والسبكي ، والصفدي وابن الدبيثي^(٤) .
- ١٠ - أبو القاسم الصباغ : علي بن عبدالسيد أبو القاسم بن الصباغ^(٥) . ذكره ضمن شيوخ العماد في بغداد : ياقوت ، وسبط بن الجوزي ، والسبكي ، والنعمي وابن العماد الحنبلي^(٦) .
- ١١ - أبو البركات النيسابوري : اسماعيل بن أحمد بن محمود بن دوست أبو البركات ابن أبي سعد الصوفي المعروف بشيخ الشيوخ ، توفي سنة ٥٤١هـ^(٧) . انفرد المنذري بذكره في شيوخ العماد البغداديين فيما أعلم^(٨) .
- ١٢ - أبو الفتوح الاسفراييني : محمد بن الفضل بن محمد بن المعتمد ، واعظ مشهور ومتكلم على مذهب الأشاعرة ، قدم بغداد زمن الخليفة المسترشد والمقتفي واستوطن فيها ، توفي سنة ٥٢٨هـ^(٩) . عدّه ابن الجوزي من شيوخ

(١) المنتظم : ج ١٩ : ص ١١٨ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء : ٣٤٥:٢١ : ارشاد الأريب : ٨١:٧ : وفيات الأعيان : ١٤٧:٥ : الوافي بالوفيات : ١٣٢:١ : طبقات السبكي : ١٧٩:٦ : التكملة : ٦٦:٤ : المختصر المحتاج إليه : ١٢٢:١ .

(٣) انظر : المنتظم : ١٢٦:١ .

(٤) انظر : ارشاد الأريب : ٨١:٧ : التكملة : ٦٦:٤ : طبقات السبكي : ١٧٩:٦ : الوافي بالوفيات : ١٣٤:١ : المختصر المحتاج إليه : ١٢٢:١ : سير أعلام النبلاء : ٣٤٥:٢١ : وفيات الأعيان : ١٤٧:٥ .

(٥) العبر : ١١٥:٤ .

(٦) انظر : ارشاد الأريب : ٨١:٧ : مرآة الزمان : ج ٨ ، ق ٢ : ٥٠:٤ : طبقات السبكي : ١٧٩:٦ : الدارس : ٤٠٨:١ : شذرات الذهب : ٣٢٢:٤ : سير أعلام النبلاء : ٣٤٥:٢١ : التكملة : ٦٦:٤ : العبر : ٢٩٩:٤ .

(٧) المنتظم : ١٢٦:١ .

(٨) انظر التكملة : ٦٦:٤ .

(٩) الوافي بالوفيات : ٣٢٣:٤ : شذرات الذهب : ١١٨:٤ .

العماد في أصفهان^(١) .

١٢- الشيخ أبو محمد بن الخشاب النحوي : عبدالله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخشاب بن عبدالله . ترجم له العماد فقال : من أهل بغداد شيخنا في علم الأدب ، أعلم الناس بكلام العرب ، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو ، واللغة ، والتفسير ، والحديث ، والنسب ، ومعظم قراءتي عليه في بغداد في كتب الأدب والشعر^(٢) . لم يذكره في شيوخ العماد أحد خلا ابن الجوزي^(٣) .

١٤- ابن البناء البغدادي : أبو عبدالله يحيى بن الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي حدث في بغداد وروى عنه جماعة^(٤) . لم يُشر العماد إلى أخذه عنه ، ولم يذكره أحد غير المنذري في شيوخه^(٥) ، وكانت وفاته قبل دخول العماد إلى بغداد سنة ٥٢١هـ . ولعل العماد قد سمع منه في أصفهان أو قاشان .

١٥- أبو زرعة المقدسي : طاهر بن الحافظ محمد بن طاهر المعروف بأبي زرعة ، المقدسي الأصل ، الهمداني الدار ، كان يروي مسند الإمام الشافعي^(٦) . لم يذكر العماد أنه اتصل به أو سمع منه . ولكن المنذري ذكره ضمن شيوخه^(٧) .

١٦- ابن الهيثم : علي بن محمد بن الهيثم العلوي ، ذكره سبط ابن الجوزي أنه من شيوخ العماد في أصفهان^(٨) .

١٧- أبو طاهر السلفي : الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصفهاني . أحد الحفاظ الكثيرين ، وأوحد زمانه في علم الحديث ، توفي سنة ٥٧١هـ^(٩) . ذكر العماد أنه تردد عليه في الاسكندرية بصحبة صلاح

(١) مرآة الزمان : ج ٢ ، ق ٢ : ٥٠٤ .

(٢) الخريدة ، قسم العراق : ج ٢ ، مج ١ ، ص ٧-١٨ .

(٣) انظر مرآة الزمان ، سبط ابن الجوزي ، ج ٨ ، ق ٢ : ٥٠٤ .

(٤) شذرات الذهب : ٩٨:٤ .

(٥) انظر التكملة : ٦٦:٤ .

(٦) البداية والنهاية ، ١٢ ، ٢٨٣ : شذرات الذهب : ١٩٢:٤ .

(٧) التكملة : ٦٦:٤ .

(٨) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ : ٥٠٥ .

(٩) وفيات الأعيان : ١٠٥:١٢ .

الدين سنة ٥٧٢هـ ، وسمع عليه ثلاثة أيام هو وصلاح الدين ^(١) . وقد ذكره في شيوخ العماد : الصفدي ، والسبكي والتعيمي ^(٢) .

١٨- أبو طاهر عون الزهري : صدر الإسلام أبو طاهر اسماعيل بن مكى بن اسماعيل الزهري ، الاسكندراني المالكي ^(٣) . وقد أشار العماد إلى سماعه على أبي طاهر عند توجه السلطان صلاح الدين الى الاسكندرية سنة ٥٧٧هـ ، فقال : « قال : السلطان يفتنم حياة الإمام أبي طاهر بن عون ، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضي الله عنه ، روايته عن الطرطوشي في العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده ولنا به السماع » ^(٤) . ذكره المنذري في شيوخ العماد ولم يذكره غيره ^(٥) .

١٩- ابن عساكر : أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين المعروف بثقة الله الدمشقي الشافعي الحافظ من شيوخ العماد في الشام ، اتصل به وترجم له في الخريدة ، وفاته سنة ٥٧١هـ . وقد ذكر سبط ابن الجوزي أنه من شيوخ العماد ^(٦) .

- شيوخ ذكر العماد أنه سمع منهم ، وهم :

بالإضافة إلى شيوخ العماد الذين ذكرهم مترجموه هناك مجموعة من العلماء ذكرهم العماد في مؤلفاته وأفاد أنه سمع منهم وأجاز له بعضهم ، ومنهم :

١ - ابن الأخوة الشيباني : أبو الفضل ، عبدالرحيم بن أحمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن الأخوة البغدادي الشيباني ^(٧) . أشار العماد إلى اتصاله به واستفادته منه في «أصفهان» وذلك حين ترجم له في الخريدة فقال :

(١) سنا البرق الشامي ، ششن : ٢٤٢:١ .

(٢) انظر : الوافي بالوفيات : ١٢٢:١ ؛ طبقات السبكي : ١٧٩:٦ ؛ الدارس : ٤٠٨:١ ؛ التكملة : ٦٦:٤ .

(٣) العبر : ٢٤٢/٤ ؛ شذرات الذهب : ٣٣٢/٤ .

(٤) الروضتين ، دار الجيل ، ج ٢ : ٢٤ .

(٥) انظر التكملة : ٦٦:٤ .

(٦) الخريدة ، قسم الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ . وانظر رفيات الاميان ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ .

مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٥٤ .

(٧) الخريدة : قسم العراق ، ج ٣ ، مجلد ١ ، ص ١٢٨ .

« حضرت للاستفادة منه بـ «أصفهان» عنده ، واستقدحتُ لاقتباس أنفاسه زَنَدُهُ ، وانتظمت في سلك المستفيدين من غرر أشعاره ، المنحليين بذور نبات أفكاره » وقال في وصفه : أوجد الدهر . وأفضل أهل العصر ، وهو جامع للعلوم ، وتفرد بإنشاء المنظوم والمنثور ، محدث ، مفسر ، نحوي ، أديب ، شاعر ^(١) .

٢ - رئيس الدين الأرجاني : محمد بن القاضي أبي بكر الأرجاني ، ذكر العماد أنه اتصل به في (عسكر مكرم) سنة ٥٤٩هـ وأنه حصل منه على مسودات من أشعار والده ^(٢) . وذكر الأسنوي في ترجمته لأبي بكر الأرجاني أن العماد قد تخرج عليه ^(٣) .

٣ - ابن الحريري : أبو العباس محمد بن القاسم الملقب بزین الإسلام الحريري ، توفي سنة ٥٥٦هـ ^(٤) ، ترجم له العماد في الخريدة ، وقال انه سمع عليه وهو في نيابة الوزير عون الدين بن هبيرة في البصرة مقامات والده ، وعددها أربعون مقامة ^(٥) .

٤ - ابن الحكيم زين الدين ، أبو المظفر محمد بن أسعد العراقي المعروف بابن الحكم ، الواعظ ، الفقيه الحنفي ت ٥٥٦هـ ، من أهل بغداد ، سكن دمشق واستوطنها ، لقيه العماد في دمشق عند قدومه إليها سنة ٥٦٢هـ وسمع بعض أشعاره ^(٦) ، وذكر في ترجمته للحريري أنه سمع المقامات على ابن الحكيم عن الحريري ^(٧) .

٥ - أبو علي البصري : أبو علي الحسين بن أبي منصور بن حامد بن أبي علي بن مقلد بن الأحمر التميمي . ترجم له العماد في الخريدة ، وقال عنه : غزير الأدب ، وقاد الفكر ، وذكر أنه كان يتردد إليه وهو في البصرة ، وأنه قرأ

(١) الخريدة : قسم العراق ، ج ٢ ، مجلد ١ ، ص ١٤١ .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق : ٢٢٥ ، والخريدة ، قسم بلاد فارس (المخطوط) الورقة ٣٤ .

(٣) طبقات الشافعية : للأسنوي ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٤) الخريدة ، قسم الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٥) الخريدة ، قسم العراق ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٧٦ ؛ وفيات الأعيان : ٤ : ٦٣ .

(٦) الخريدة ، قسم العراق ، ج ٢ ، مجلد ١ ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٧) الخريدة ، قسم العراق ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٠٢ .

عليه بعض كتاب ابن فارس مجمل اللغة^(١) .

٦ - يوسف الدمشقي : شرف الدين يوسف الدمشقي المتوفى سنة ٥٦٣هـ . ذكره العماد في شيوخه عندما ترجم لثقة الدولة ابن الدريني ، فقال عن ثقة الدولة : (... وبني ببغداد مدرسة لهم وسلمها إلى شيخنا شرف الدين يوسف الدمشقي ، وأقمت بها ثلاث سنين للثقة^(٢) ، وذكره كذلك في ترجمته (جمال الدين أبي القاسم بن خذاذل) قال : وهو من تلامذة شيخي شرف الدين يوسف الدمشقي^(٣) .

٧ - محمد بن ناصر السلامي : محمد بن ناصر الحافظ البغدادي المتوفى سنة ٥٥٠هـ . ذكره العماد في ترجمته لأبي القاسم الباجسري ، وقال إنه سمع عليه وله منه إجازة بجميع رواياته^(٤) .

٨ - ابن محمويه اليزدي : أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسين بن اليزدي المتوفى سنة ٥٥١هـ ، ذكر في ترجمته (لمقدار بن بختيار) تلمذته على اليزدي وإجازته له^(٥) . وأكد ذلك في ترجمته (لمعدان البالسي) فقال : (... ورواية هذه القصيدة على محمويه اليزدي ، شيخي ، سمعت عليه الحديث ولي منه إجازة ، فيجوز أن أرويها عنه إجازة)^(٦) .

٩ - ابن أبي عصرون : الفقيه الإمام شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد بن أبي عصرون ، ترجم له العماد وقال في ترجمته : « ومن نعوته حُجة الإسلام ، مفتي العراق ، والشام ، وهو شيخ العلم العلامة وليس في عصرنا من أتقن مذهب الشافعي مثله . » وذكر أنه قرأ عليه بعض مصنفاة المذهبية وإنه أخذ عنه^(٧) .

(١) الخريدة : قسم العراق ، ج ٤ ، مج ٢ ، ص ٦٦١ وما بعدها .

(٢) الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ : ١٤٤ ، وله ترجمة في البداية والنهاية : ١٢ : ٢٧٢ .

(٣) الخريدة : قسم العراق ، ج ٤ ، ج ٤ ، مجلد ٢ : ٥١٥ .

(٤) نفسه : ج ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٢٤ ، ٣٤٤ ، ٤٢٨ ، وفيات الأعيان : ٤ : ٢٩٣ .

(٥) الخريدة ، قسم العراق ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

(٦) الخريدة ، قسم الشام ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

(٧) نفسه ، ج ٢ : ٣٥١-٣٥٧ .

- ١٠- الحيص بيص : الأمير شهاب الدين أبي الفوارس سعد بن محمد بن الصيفي التميمي ، ترجم له العماد في الخريدة ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه ^(١) .
- ١١- عبدالله المقرئ الحنبلي : الشيخ أبو محمد عبدالله بن علي بن أحمد بن عبدالله المقرئ الحنبلي المتوفى سنة ٥٤١هـ ، قال العماد في ترجمته : علامة العصر ، والعالم المتفرد بعلم القرآن وإقراءه دون العالم ، ترددت إليه في حال التفقه والصبا ، وسمعت عليه الحديث ، وفزت بإجازتي جميع مسموعاته ومصنفاته ^(٢) .
- ١٢- أحمد الحريري : ذكره العماد في شيوخه عندما ترجم لأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي ، فقال فيه : « سمعتُ الثناء عليه من شيخنا ... ومن شيخنا أحمد الحريري ، ولم يزد علي ذلك » ^(٣) .
- ١٣- ذو البراعتين النطنزي : ترجم له العماد في الخريدة ، وذكر أنه سمع عليه أكثر شعر الأبيوردي في أصفهان وأنه فارقه في سنة ٥٤٩هـ . وذكر أنه مات فيها بعد خروج العماد بسنتين ^(٤) .
- ١٤- أبو الفضل الأرموي : ذكره في ترجمته لأبي اسحق الفيروزآبادي ، وقال عنه : الشيخ الإمام أبو الفضل محمدين عمر الأرموي ، رأيتُه في بغداد ، وتكلمت معه في المسائل وسمعت عليه الحديث ^(٥) .
- ١٥- كثير بن شماليق : ذكر العماد أن له منه إجازة ، وأنه سمع منه الحديث في ترجمته لأبي الحسن محمد بن علي الواسطي ^(٦) .
- ١٦- العبادي : قطب الدين أبو منصور المظفر بن اريش العبادي المتوفى سنة ٥٤٧هـ . ذكره العماد في شيوخه فقال في أحداث سنة ٥٤١هـ : « وفي هذه السنة قدم الأمير العالم قطب الدين أبو منصور العبادي الواعظ ، فأعجز

(١) الخريدة ، قسم العراق ، ج ١٠٢ ، ص ٢٠٢ : انظر وفيات الأعيان : ٣٦٢:٢ .

(٢) الخريدة ، قسم العراق ، ج ٣ ، ص ١ ، ص ٢٥ .

(٣) نفسه : ٣٠ .

(٤) الخريدة ، قسم بلاد فارس ، ج ٢ ، الورقة ٢ : وما بعدها .

(٥) الخريدة ، قسم بلاد فارس ، قطعة من القسم الثاني ، الورقة ٢٢ .

(٦) الخريدة ، قسم العراق ، ج ٤ ، ص ١ ، ص ٣٢٣ .

بالفصاحة ، وأعجب ، وشرق بأنوار البلاغة وغرب ، وحضرت مدة مقامي ببغداد جميع مجالسه أثبتتها من لفظه ^(١) .

١٧- عمر الصفار : الإمام العلامة القدوة أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور بن الشيخ أبي بكر محمد بن القاسم بن حبيب النيسابوري الشافعي ^(٢) . ذكر العماد أنه سمع عليه التفسير للقشيري في ترجمته لأبي نصر عبدالرحيم القشيري ^(٣) .

١٨- وجيه الشحامي : أبو بكر وجيه بن طاهر بن محمد بن محمد بن أحمد بن يوسف الشحامي ، المتوفى سنة ٥٤١هـ من أهل نيسابور ، من أصحاب الحديث ولي منه إجازة ^(٤) .

١٩- عبدالخالق بن أحمد بن عبدالقادر : ذكره العماد في ترجمته للقاضي أبي المعالي الشيرازي ، وقال إنه سمع منه شعر القاضي المذكور ، وله منه إجازة ^(٥) .

٢٠- الشيخ عبدالرحمن الواعظ المعري ، الملقب شمس الدين ، المعروف بابن المنجم ، توفي سنة ٥٦٠هـ ، ترجم له العماد في الخريدة ، وذكر أنه حضر مجالسه في بغداد ، وكان يتردد عليها إلى أواخر سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ^(٦) .

هؤلاء هم أشهر شيوخ العماد الذين تتلمذ عليهم خلال حياته ، ذكر بعضهم من ترجم لحياة العماد ، وذكر هو بعضهم الآخر . وقد قبلت الشيوخ الذين ذكرتهم الدراسات السابقة ، واستثنيت شيخين فقط هما : أسعد الیهبني الذي ذكره

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٩٧-١٩٨ ؛ وفيات الأعيان : ٢١٢:٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم عرقتسوسي ، ١٩٨٥ ، ج ٢٠ ، ص ٣٣٨ .

(٣) الخريدة ، قسم بلاد فارس ، المخطوط ، الورقة ٨٩ .

(٤) نفسه ، الورقة ٩٩ . وانظر كذلك شذرات الذهب ، ٤: ١٢٠ ؛ البداية والنهاية : ١٢: ٢٣٨ .

(٥) الخريدة ، قسم ، الورقة ٢٤ .

(٦) الخريدة ، قسم الشام ، ج ٢ ، ص ٩٢ وما بعدها .

النعميمي في شيوخ العماد^(١) ، والشيخ أبا النجيب السهروردي^(٢) ، فالأول توفي سنة ٥٢٢هـ كما تذكر المصادر^(٣) وكان العماد آنذاك طفلاً في أصفهان . وأما الثاني فلم يذكره أحد في شيوخ العماد . كما لم أجد أي إشارة إليه في الخريدة بأقسامها المختلفة المخطوطة والمطبوعة .

وفي بحثي عن شيوخ العماد وجدت أربعة لم تذكرهم الدراسات السابقة وقد جعلتهم في ذيل القائمة التي اشتملت على شيوخه .

وفاته:

لم يطل مكث العماد في دمشق ، بعد عودته إليها من رحلته الرابعة إلى مصر ، فقد داهمه المرض عام ٥٩٧هـ ، وما لبثت روحه أن فاضت إلى بارئها في دمشق يوم الاثنين في مستهل شهر رمضان من هذا العام ، كما يذكر معظم من ترجم له ، ودفن في مقابر الصوفية^(٤) ، ورثاه ابن الساعاتي بقصيدة طويلة مطلعها :

أحرس الوجد ألسن الأقليمي^(٥)

لا تلمني فلات حين ملامي

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس : ٤٠٨:٩ .

(٢) ذكره أبو الهيجا في شيوخ العماد ، وقال : أن العماد ترجم له في الخريدة ، القسم المخطوط ، بلاد فارس ، ولكنني لم أعثر على هذه الترجمة في الجزء المذكور .

(٣) انظر وفيات الأعيان ، ج ١ ، ٢٠٧ .

(٤) انظر وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ٥١ ؛ العبير ، ج ٤ ، ٢٩٩ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٢ ، ق ٤ ، ص ٢٢١ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ١٧٩ .

(٥) ابن الساعاتي ، الديوان ، تحقيق أنيس المقدسي ، المطبعة الأميركانية ، ١٩٣٩ ، ج ٢ ، ٣٦٠ .

الفصل الثاني

اتجاهات شعر العماد

– الشعر التقليدي

– شعر الجهاد

استطاع العماد أن يحدد له مكاناً بين الشعراء في القرن السادس الهجري ، بالإضافة إلى المكان الذي احتله بين الكتّاب ، فغلب عليه اسم الكاتب ، وأصبح يُعرف بالعماد الأصفهاني الكاتب . وقد سار اهتمام العماد بالشعر وقرضه جنباً إلى جنب مع الكتابة ، فبدأ نظم الشعر في مرحلة مبكرة من حياته ، واستمر في ذلك إلى أن رحل عن هذه الدنيا ؛ وقد أثمر هذا النشاط فيضاً من الشعر في اتجاهات متعددة ، فقدّر شعره في الديوان المفقود بأربعة مجلدات كبار^(١) ويضاف إليها ديوان آخر صغير كله دو بيت وهو مفقود أيضاً^(٢) .

لم يصل إلينا ديوان العماد ؛ فقد تعرض كغيره من عيون التراث إلى الضياع بسبب الظروف التي مرت بها حواضر العالم الإسلامي ، ومراكز الثقافة فيها عبر العصور الماضية . لكن المصادر الأدبية والتاريخية حفظت لنا بعض قصائد هذا الديوان ومقطعاته ، وقد جمعت وحققت ونشرت حديثاً^(٣) .

وبالرغم من انشغال العماد بالكتابة الديوانية ، وكتابته في مواضيع أخرى كالتراجم والتاريخ ، إلا أن إنتاجه الشعري جاء غزيراً ؛ ولعل ذلك يعود إلى أسباب: منها ما يتعلق بشخصيته ، وتنقله المستمر مما وسّع دائرة علاقاته ، فتطلب منه هذا الأمر أن يقول الشعر في مناسبات كثيرة ، وشخصيات مختلفة ، ومن هذه الأسباب ما يتصل بظروف عصره الذي شهد أحداثاً عظيمة استدعت الإكثار من قول الشعر ، فقد عالج القريض ، ونظم الشعر في كل مناسبة عارضة ، وبعد كل حادث جلل .

ويلاحظ على الديوان الذي بين أيدينا ، أن العماد قد نظم الشعر في أغراض متنوعة . فقد مدح وهنأ واستعطف ورثى وتفزّل وتشوّق وشكا ووصف الطبيعة ومظاهر الحياة المختلفة ، كما قال في الحروب الصليبية ، مادحاً أبطالها ، مهنئاً القادة بالانتصارات وواصفاً بطولاتهم ، وانتصاراتهم ، ومعاركهم ، وحاتاً لهم على توحيد الأمة الإسلامية ، ومشجعاً على مجاهدة الأعداء ، وتحرير المقدسات ، والبلاد الإسلامية ، وباكياً لهم بعد موتهم ، ومعدداً مناقبهم ، وقد بلغ شعر العماد المجموع

(١) الصفي ، الوافي بالوفيات ، ١٣٥:١ .

(٢) نفسه : ١٤:١ .

(٣) نشر الديوان سنة ١٩٨٣ ، بتحقيق د. ناظم رشيد .

بيت^(١) .

ويصلح الشعر الموجود في الديوان للدراسة ، ويمكن تقسيمه إلى اتجاهين رئيسيين يندرج تحت كل منهما اتجاهات مختلفة ، وهذان الاتجاهات هما : الاتجاه الأول ، الشعر التقليدي ، ويشمل الأغراض الشعرية المعروفة في الشعر العربي مثل : المديح ، والاستعطاف ، والرثاء ، والإخوانيات ، والشوق والحنين ، والوصف والغزل .

الاتجاه الثاني : شعر الجهاد ، ويشمل الشعر الذي قيل في الصراع بين المسلمين والفرنجة وصور المعارك بين الجانبين في ذلك العصر .

يهتم الاتجاه الأول بدراسة الشعر الذي قيل في المدح ويشمل مدح الخلفاء ، والوزراء ، والقادة ، والعلماء ، وأصدقاء الشاعر ، والغزل ، والوصف ، والشوق والحنين ، والإخوانيات .

وأما الاتجاه الثاني : فيهتم بالقصائد التي قيلت في مدح المجاهدين وتهنئتهم والقصائد التي قيلت في البشارة بالفتوحات الإسلامية والانتصار على الأعداء والتي صورت الصراعات الداخلية العسكرية والسياسية مع الوقوف على أهم الاتجاهات فيها .

(١) العماد الأصفهاني ، الديوان ، المقدمة ، ص ٨ .

الاتجاه الأول : الشعر التقليدي

ويشمل :

- المديح
- الاستعطاف
- الرثاء
- الاخوانيات
- التشوق والحنين
- الوصف
- الغزل

- المديح :

الناظر في ديوان العماد يلاحظ بيسر غلبة قصائد المدح على أشعاره ، فقد بلغت سبعون قصيدة ، وإذا عرفنا أن قصائد الديوان المجموعة لا تزيد على المئتين إلا قليلاً ، أدركنا أن ما يزيد على ثلث شعر العماد الذي بين أيدينا هو في المدح ، فهل لذلك أسباب مقبولة ؟ وللجواب عن هذا التساؤل يمكن القول : إن المديح كان وسيلة الشاعر للتقرب من الحكام ، ولما كان العماد بعيد المهمة كبير الأمل ، وكانت رتبة الإنشاء أدنى أمانيه وأيسر مطامعه ^(١) ، فلا غرابة إذاً أن يوظف شاعريته في المدح ليصل إلى ما يصبو إليه ، وحين وصل العماد إلى خدمة رجال الدولة العباسية ، حافظ على مكانته عندهم ، بالمزيد من المدح ، وعندما انتهى به المطاف في الشام في كنف نور الدين وخليفته صلاح الدين ، مدحهم معبراً عن إعجابه بهم لدورهم في الجهاد ضد الصليبيين .

ولما كان شعر العماد الذي بقي لنا هو ما تناثر في المصادر الأدبية والتاريخية ، فإن هذه المصادر لا تهتم إلا بما يرتبط بالأحداث المهمة ، والشخصيات التاريخية الكبيرة ، وما يقال في ذلك من الشعر يكون في المدح عادة ، وهكذا فإن الأسباب تهيأت لحفظ شعر المديح أكثر من غيره من أغراض الشعر الأخرى .

وقد مدح العماد الخلفاء العباسيين : (المقتفي) ، و(المستنجد) ، و(المستضيء) ، والسلطين والقادة مثل : (نور الدين زنكي) ، و(صلاح الدين الأيوبي) ، و(نجم الدين أيوب) ، و(أسد الدين شيركوه) وغيرهم من أبناء الأسرة الأيوبية ، والوزراء مثل : (ابن هبيرة الحنبلي) و(القاضي الفاضل) و(ابن مصال) وغيرهم من أعيان الوزراء والقادة في الإسلام ، وكانوا جميعاً جمال ذلك العصر بجلال أسرهم وعظم مناقبهم وما سجلوه من غرر آيات الجهاد في ساحتي الدين والدنيا ، وهم بما أشاد به من مناقبهم جديرون كل الجدارة ، ولو لم يفعل لعدّ مقصراً ^(٢) .

تقسيم شعر المديح عند العماد إلى أقسام هي :

- مدح الخلفاء العباسيين .

- مدح الوزراء والأمراء .

- مدح العلماء .

(١) علي مظفر سلطان ، العماد الأصفهاني ، حياته وأدبه ، ٧١-٧٢ .

(٢) العماد الأصفهاني : الخريدة ، قسم العراق ، تحقيق : محمد بهجت الأثري ، وجميل سعيد ، ج ١ ، ص ٦٩ .

- مدح الخلفاء العباسيين :

عندما أحسن العماد أنه امتلك الوسيلة التي تقربه من الخليفة في بغداد ، انتهز أول فرصة عند وصوله إلى بغداد ، ومدح الخليفة المقتفي ، وكان أول المدوحين من الخلفاء العباسيين . يقول : (وأول من مدحته من الخلفاء المقتفي - رضي الله عنه - خدمته في سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة بقصيدة عُقَيْب انكشاف كربة الحصار برحيل محمد شاه عن بغداد وأولها :

✓ أضحت ثغور النصر تيسم بالظفر وغدت خيول النصر واضحة الثغر^(١)

عاصر العماد في حياته ستة من الخلفاء العباسيين ، مدح أربعة منهم ، ووصل إلينا من هذه المدائح ثلاث عشرة قصيدة في ديوانه ، حظي المقتفي منها بقصيدتين ، والمستنجد بأربع ، والمستضيء بست ، وأما الناصر ، وهو أطول الخلفاء مدة في الحكم فقد مدح بقصيدة واحدة كما في الديوان^(٢) .

وقد قام المدح على ذكر الشاعر لمجموعة من الفضائل يتجلى بها المدوح لو قد حددّ قدامة هذه الفضائل بأربع وهي : العقل والشجاعة والعدل والعفة ، وقال أن من مدح بها من الشعراء كان مصيباً ومن مدح بغيرها كان مخطئاً^(٣) . وللفضائل الأربع أقسام كثيرة ، فأقسام العقل مثلاً : ثقافة المعرفة والحياء والبيان والسياسة والكفاية والصدق بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة ، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى .

ومن أقسام العفة : القناعة وقلة الشره وطهارة الإزار ، وغير ذلك مما يجري مجراه .

ومن أقسام الشجاعة : الحماية والدفاع والأخذ بالثأر والنكاية في العدو والمهابة وقتل الأقران والسير في المهام الموحشة ، وما أشبه ذلك .

ومن أقسام العدل : السماحة ، ويرادف السماحة التغايب والتبرع بالنائل وإجابة السائل وقرى الأضياف ، وما جانس ذلك^(٤) .

(١) الديوان : ١٥١ .

(٢) انظر الديوان : الصفحات ١٥١ ، ٣٤٥ ، ٢٦٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٤ ، ٢١٧ ، ٦٤ ، ٢٦٤ ، ٩٨ ، ٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ، ٧٤ .

(٣) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص ٩٦ .

(٤) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ٩٨ .

وقد تحدث العماد في قصائده المدحية لخلفاء بني العباس عن هذه المعاني فوصفهم بالشجاعة والعدل والعفة والعقل ، ووصفهم بصفات أخرى مثل عراقة النسب وإرث الخلافة والحفاظ على الدين وإعلاء شأنه وتطبيق الشريعة .

أشاد العماد بنسب الخلفاء العباسيين ، وذكر في كل قصائده بعراقه هذا النسب المتصل ببني هاشم ، وسيدهم الرسول الكريم ، وكان لهذه القضية أهمية خاصة عند العباسيين لارتباطها بمسألة الخلافة ، وحقهم كما يرون في إرثها لصلتهم ببیت النبوة ، وكان العماد حين يمدح الخلفاء يؤكد اتصال نسبهم بنسب بني هاشم وبالرسول الكريم فنراه يقول في مدحه للخليفة المقتفي :

يا بن السراة فوي العلي من هاشم والأكرمين أولي المناقب من مضر
أنت ابن عم المصطفى وسميه أبشر فإنك بعده خير البشر^(١)

ويؤكد هذا النسب في مدحه للمستنجد إذ يقول :

لك النور موصولاً بنور محمد أضاءت به الأنساب عن شرف محض^(٢)

وفي قصيدة أخرى يتغنى العماد بهذا النسب الذي طابت فروعه وطالت في

العلا ، فيقول مادحاً المستنجد :

لله أصل هاشمي طاهر^(٣) طاب بت وطالت في العلاء فروعه^(٤)
وفي مدح المستضيء يشير العماد إلى نسبه المرتبط بالرسول الكريم ، يقول :
سر النبوة كامن فيه ومن فطر الإمامة مشرق نور الفطن
وبجده عرفت مقالة حيدر لا من دد أنا لا ولا مني البدن^(٥)

ويزيد على ذلك بأنه ابن عم النبي حين يقول :

قد أضاء الزمان بالمستضيء وارث البرد وابن عم النبي^(٥)

(١) الديوان ، ١٥١٠ .

(٢) نفسه : ٢٦٥ .

(٣) نفسه : ٢٩٦ .

(٤) نفسه : ٤٢١ .

(٥) نفسه : ٦٤ .

وإذا كان بنو العباس يتصلون في نسبهم ببني هاشم والرسول الكريم ، فمن حقهم كما يرون أن يرثوا الخلافة وهم أولى بها . وقد جاهدوا طويلاً لتثبيت هذا المبدأ أمام خصومهم السياسيين ، ودافعوا عن الخلافة باعتبارها حقاً لهم ، وباعتبارهم ورثة شرعيين لها ، وكان تأكيد هذا المبدأ من الشعر يلقي هوى في نفوس الخلفاء ويعجبهم ، ولما كان العماد يسعى إلى كسب ود الخلفاء من بني العباس فإنه لم يغفل تأكيد هذا المبدأ في قصائده التي مدحهم بها ، وتحدث عن هذا المبدأ في مناسبات كثيرة ، يقول مؤكداً حق المستنجد في وراثة النبي الكريم:

إرث النبوة بسل خلافتها في يوسف المستنجد القسرم^(١)
ويقول في قصيدة أخرى :

وهناك أنك بين أظهرنا خلف النبي ووارث العلم^(٢)

ومن الصفات التي يذكرها الشعراء في مدحهم صفة العدل ، وخاصة إذا كان المدوح خليفة أو صاحب سلطان ، فالعدل ركن مهم من أركان الحكم ، وسياسة الناس ، وحين يصف الشاعر الخليفة بالعدل فإنه يعرف أن هذا الوصف مدعاة لسروره ومحفز لعطائه . وقد حفلت قصائد العماد في مدحه للخلفاء العباسيين بهذه الصفة إذ صورهم يُشيعون العدل بين الرعية ، يحقون الحق وينصفون المظلوم، وصور الناس وقد تهيأت لهم أسباب الراحة والطمأنينة في ظل هذا العدل الشامل ، فنراه يقول في مدح المقتفي :

ممدود ظل العدل ليس بزائل معمود ركن الملك ليس بمائل^(٣)
ويقول في مدح المستنجد مصوراً عدله :

لقد بسط الإحسان والعدل في الأرض إمام بحكم الله في خلقه يقضي^(٤)
كما يقول في تأكيد هذه الصفة عند المستنجد :

وما صدقت إلا بوارق عدلكم أو ان بروق الظلم صادقة الومض^(٥)

(١) الديوان : ٣٩٩ .

(٢) نفسه : ٤٠٠ .

(٣) نفسه : ٣٤٨ .

(٤) نفسه : ٢٦٤ .

(٥) نفسه : ٢٦٧ .

وأما المستضيء ، فقد وصف العماد عدله بالشمولية ، فقد عمّ الناس جميعاً فسعدوا به وتغيّأوا ظلّاله . يقول مهنئاً أهل بغداد بما هم فيه من نعيم العدل :

لِ فِيَا مَرْحِباً بِهَذَا الْمَجِيءِ	جَاءَ بِالْحَقِّ وَالشَّرِيعَةِ وَالْعَدْلِ
مَلِّ فِي الْمَرْتَعِ الْهَنْيءِ الْمَرْيءِ	رَتَعَ الْعَالَمُونَ مِنْ عَدْلِهِ الثَّمَا
لَا وَخَيْسَمٍ وَلَا وَيْسَلٍ وَيءِ	وَرَعُوا مِنْهُ فِي مَرَادٍ خَصِيْبٍ
فِي ذَرَا الْأَمْنِ وَالْمَهَادِ الْوُطْيِءِ	رَقَدُوا بَعْدَ طَوْلِ خَوْفٍ مَقْضٍ
بَعْدَ بَسْؤِ بِكَلِّ عَيْشِ هَنْيءٍ ^(١)	فَهَيْئاً لِأَهْلِ بَغْدَادٍ فَآزَوْا

والخليفة المستضيء هو الذي أسبغ العدل على رعيته بعد أن تقلّص ، وبنى أسسه بعد أن تقوّضت ، يقول :

أَضْفَى ظِلَالَ الْعَدْلِ بَعْدَ تَقْلُصِّ	وَبَنَى أَسَاسَ الْعَدْلِ بَعْدَ تَقْوُضِّ ^(٢)
--	---

ويضيف العماد واصفاً عدل الخليفة المستضيء فيقول :

أَمَّتْ عَدْلًا عَيُونَ الْعَالَمِينَ بِمَا	أَذْهَبَتْ عَنْهَا الْقَدَى وَالرَّيْنَ وَالْقَمَصَا ^(٣)
---	---

كان الخليفة العباسي رمزاً للسلطة الدينية ، فهو وارث الخلافة ، وسلطته الدينية هي التي توجب طاعته . فلا بد أن يكون محافظاً على أمور الشريعة وتطبيقها ، مؤتمناً على الشرع راعياً للسنن مغلباً شأن الدين ، مدافعاً عنه في وجوه أعدائه ، وإن نظرة في مديح العماد للخلفاء العباسيين ترينا مثل هذه الأوصاف ، فنراه يقول مثلاً في مديح (المستنجد) :

وَيُوسُفُ الْمُسْتَنْجِدِ بْنِ الْمُقْتَفِي	دِينَ الْهَدْيِ سَامِي الْعَمَادِ رَفِيعُهُ ^(٤)
---	--

ويقول :

الدِّينُ مَرْتَبُطٌ بِدَوْلَتِهِ	وَالدَّهْرُ تَابِعٌ أَمْرِهِ الْخَزْمِ ^(٥)
----------------------------------	---

(١) الديوان : ٦٥ .

(٢) نفسه : ٢٦٣ .

(٣) نفسه : ٢٥٢ .

(٤) نفسه : ٢٩٦ .

(٥) نفسه : ٣٩٩ .

ويقول :

رفعت منار الدين عدلاً فأهلته
من العز في رفع وبالعيش في خفض^(١)

ويظهر الخليفة في هذه الأبيات مثلاً للتقى والورع والحرص على مصلحة الأمة، فقد أصبح الدين به عزيزاً ممنعاً، مرتبطاً بدولته، فقد رفع منار الدين بعدله، فنعم أهله بالعز وخفض العيش. ويصور العماد في مدحه للخليفة المستضيء، الدين الإسلامي وقد أصبح ثابت الركن في مصر بعد الخطبة فيها لبني العباس، وزوال نفوذ الفاطميين منها، يقول :

فاغتنى الدين ثابت الركن في مصر
ر، محوط الحمى، مصون الثغر^(٢)

ويصف المستضيء بأنه محافظ على السنن مؤتمن على الشرع، إذ يقول :

بالمستضيء أبي محمد الحسن
رجعت أمور المسلمين إلى السنن^(٣)

ويقول :

ورأى الإله المستضيء لشرعه
وعباده نعم الأمين المؤتمن^(٤)

وخلفاء بني العباس هم خلفاء الهدى، وبهم أصبح الدين ظافراً مستقيماً قوي الظهر كما يقول العماد :

خلفاء الهدى سراً بني العبد
باس الطييون أهل الظهر
بهم الدين ظافر مستقيم
ظاهر قوّة، قوي الظهر^(٥)

وتتردد على السنة الشعراء في مدحهم للخلفاء صفات مثل الجود، وكثرة الأعطيات وكثيراً ما وصف المدوح بهذه الصفات تحفيزاً له على العطاء، واستدراراً لمنائحه السنية، وكانت صفات الشجاعة والكرم هما أبرز صفتين تترددان في أغلب المدائح في مختلف العصور. ولما كانت آمال الشاعر تتعلق بكرم

(١) الديوان : ٢٦٦ .

(٢) نفسه : ١٩٩ .

(٣) نفسه : ٤٢٠ .

(٤) نفسه : ٤٢١ .

(٥) نفسه : ٢٠١ .

السادة المدوحين ، كان من الطبيعي أن تكون صفة الكرم أكثر تردداً في المديح ، وإن اشتركا معاً في أنهما كانتا أبرز المناقب التي خلعتها الشعراء على السادة المدوحين جريباً على ما كان سائداً مشهوراً من أن هاتين الصفتين كانتا القطبين الرئيسيين للمناقب العربية «^(١) .

أكثر العماد في مدائحه للخلفاء العباسيين من ترديد صفة الجود ، ففي قصيدة مدح بها المقتفي جعل كرمه يفوق السحاب في عطائه حتى غدت المزن تجتدي راحتيه لكثرة عطائهما ، وجعل البدر بضيائه يفتقر إلى سناه ، وكل هذه كنايات عن جوده المميز . يقول :

✓ من راحتك المزن في المحل اجتدى وإلى سناك البدر في الليل افتقر^(٢)

ويبدو بيت المدوح كما يصوره العماد كعبة لكثرة الوافدين إليه طلباً للعتاء ، مما أطمع الشاعر في الوفاة إليه ، يقول :

✓ لما رأيت منارَ بيتك كعبةً وافيتُ فيمن حجَّ بيتك واعتَمَرَ^(٣)

ويبالغ العماد في وصف جود المقتفي ، فيشبهه بالبحر الذي يغني وروده عن الورد إلى الأنهر والجدال ، ويصور كفه وقد فاقت منها خمسة أبحر ، يقول :

أوهل يخاف العدمَ مَنْ وجدَ الغنى من جودِ مولانا الإمامِ العادلِ ؟
ولقد وردتُ فناءَ بحرٍ للندى أغنى بهِ عن أنهرٍ وجدالِ
في كفتهِ للجودِ خمسةُ أبحرٍ فياضةٌ تُسمى بخمسِ أناملِ^(٤)

ويبدو العماد في تصويره لجود المقتفي متأثراً بالمتنبي في مدحه لكافور الأخشيدي ، إذ يقول :

قواصدُ كافورٍ تواركُ غيره ومن قصدَ البحرَ استقل السواقياً^(٥)

(١) درويش الجندي ، ظاهرة التكبس بالشعر ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٨ .

(٢) نفسه : ١٥١ .

(٣) نفسه : ١٥٤ .

(٤) نفسه : ٣٤٧-٣٤٨ .

(٥) أبو العلاء المعري ، معجز أحمد ، تحقيق عبدالمجيد دياب ، دار المعارف ، القاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٤ .

وفي مدحه للخليفة المستنجد شبه بالبحر ، وعاتب نفسه على اقتناعه بالقليل في مدحه لمن هم دون الخليفة منزلة ، فقال :

إِنْ كَانَ هَذَا الْبَحْرُ جَمًّا نَمِيرَهُ فَيَمِّمُ اقْتِنَاعِي عَنْهُ بِالْوَمْلِ الْبَرِّضِ^(١)

ولتأكيد صفة الجود عند مدوحه يجعله العماد من قوم كرام يرون من الغنم أن يفرقوا غنائمهم يوم الوقية ، لا أن يستأثروا بها لأنفسهم ، يقول :

قَوْمٌ يَرُونَ إِذَا هُمْ اجْتَمَعُوا تَفْرِيقَ مَا غَنِمُوا مِنَ الْغَنَمِ^(٢)

وعطاء مدوحه مستمر في كل الظروف والأحوال ، وكرمه يشفي العقام ، ويجعل العقيم تلد . يقول مادحاً المستنجد :

وَإِذَا الْمَنَائِمَا عَقَمَتْ فَنَائِلِيهِ شَافِي الْعِقَامِ ، وَنَسَاجُ الْعُقْمِ
لَوْلِيهِ مِنْ فَيْضِ نَائِلِيهِ فَيْضُ الْوَلِيِّ وَنَائِلُ الْعُقْمِ^(٣)

وأما المستضيء فإن كرمه يفيض على أرض الأمانى لكثرتة وغزارته كما يصوره العماد ، إذ يقول :

بجود أمير المؤمنين وسببه تفيض على أرض الأمانى فيوضها
إمام البرايا خيرها مستضيئها غزير الأيادي جمها مستفيضها
تفيض لترويض الرجاء مياهاه وللنجاح يرجي عدها ونضيضها
جزيل العطايا ، وافر الفضل ، وارف الظن للال ، طويل المآثرات عريضها
تبدل بالأموال آمال وفديه فكم فاقه منا بوجد يفيضها
ويفتح من مداحه باللها اللها وقد حال من دون القريض جريضها
أنتنا وفود المكرمات بجوده ووافى إلينا قضها وقضيضها
إذا ظمئت آماننا وردت له بحار لهي يروي العطاش فريضها^(٤)

(١) الديوان : ٢٦٨ .

(٢) نفسه : ٣٩٨ .

(٣) نفسه : ٣٩٩ .

(٤) نفسه : ٢٧٢-٢٧٣ .

ويشبهه العماد جود الإمام في هذه القصيدة بالمطر لا بل هو أشد غزارة ،

يقول :

وما هامر هام من الودق إن بكى تبسم مرهوم الرياض أريضها
بأعزر من جود الإمام الذي به إذا شككت الآمال يشفى مريضها^(١)

ويذكر العماد أثر جود الإمام عليه فيقول إنه قد حباه بثروة أصلحت حاله بعد

أن فقد الأمل بالآخرين ، فيقول :

حباني على ضن الزمان بثروة حلا زبدها في عيشتي ومخيضها
جناح رجائي ريش والناس منهم رجائي محصوص الخوافي مهيضها^(٢)

ويوصف الممدوح بالشجاعة والقوة والمهابة ، إلى جانب وصفه بالجود والكرم .

وقد أثنى العماد على ممدوحيه من الخلفاء بهذه الصفة ، فوصف الخليفة بأنه مهيب

الجانب تخافه الأعداء له سطوة كأنها سطوة الأسد . بيده كل الأمور ، ولا يُبرم أمر

إلا باسمه ، وإذا لم يكن كذلك سريعاً ما يؤول إلى النقض كما يقول العماد :

مهيب يغض الطرف دون لقائه يغض حياءً وهو في الحق لا يفضي
إلا إن أمراً ليس يُرم باسمه فيأبرامه يفضي سريعاً إلى النقض^(٣)

وفي موقع آخر يصور العماد الخليفة أسداً في سطوته وقوته ، وهذه صورة

معروفة ومألوفة في الشعر العربي ، وفي المدح بوجه خاص ، ولا يكتفي العماد

بهذا التشبيه ، إذ يجعل الخليفة في مضاء عزمه كالسيف ، يقول :

كالبدر نوراً والهزبر مطاً يوم الهياج وليلة التسم
لو للسيف مضاء عزمته ويراعه أمنت من التلم^(٤)

(١) الديوان : ٢٧٣-٢٧٤ .

(٢) نفسه : ٢٧٤ .

(٣) نفسه : ٣٦٤ .

(٤) نفسه : ٣٣٩ .

وينظر العماد عند مدحه للخليفة إلى قوة جيشه ، فقوة الجيش مظهر من مظاهر قوة الخلافة ، وهي الدرع التي يحميها من كيد الطامعين ، في هذه الظروف التي كثرت فيها أطماع الأمراء والسلاطين من أجل ذلك وجدنا العماد يتحدث في مدحه للخلفاء عن قوة جيشهم باعتباره مظهراً من مظاهر قوتهم التي يُمدحون بها، فنراه يقول في مدح المقتفي بعد تغلبه على السلطان (محمد شاه) سنة خمسمئة واثنين وخمسين :

ربُّ الخليفةِ بالميانِ والظَّفَرِ	للهِ جيشٌ للخليفةِ قادهُ
وجَّهَ الهجرةَ أنْ يكونَ لها مَجْرٌ	مَجْرٌ إذا جَرُّ القنالا يرتضي
أضحتَ لها هاماتٌ مَخِيطهم ثمر	أشجارٌ خطٌّ أن تشاجرت العدى
إلا وخيلَ عدوها عنها صدرٌ	فوق الجيادِ الجردِ ما وردت وغى
ويردُنْ في الرَّوعِ الدُّماءِ على كَدَمِ	يتركن في الظمأ الزلال بصفوه
وعلى العدى منه فما وجدوا مَقْرٌ ^(١)	فالأرضُ وهي فسيحةٌ ضاقتْ به

هذه الصورة للجيش الإسلامي تنطق بالقوة ، إذ يمده الله بأسباب عنايته ويقوده باليمن إلى النصر ، وتضييق به الأرض وهي فسيحة لكثرت ، والكثرة مهمة ، وقد تكون في بعض الأحيان سبباً في تحقيق النصر على الأعداء ، فهي مظهر من مظاهر القوة ، وقد حرص العماد في مدحه للخلفاء على إضفاء هذه الصفة على جيوشهم ، فنجده يقول في مدح الخليفة المقتفي واصفاً جيشه بالكثرة :

مَجْرٌ ومنهل السحاب الهامل	وعرمرم لجب كنهال النقا
زهر الأسنّة في سماء قساطل ^(٢)	ستر الغزاة بالعجاجة مطلعاً

كما يقول في وصف جيش المستنجد :

من العزّ في رفع وبالعيش في خفض	رفعت منار الدين عدلاً فأهلهُ
تضيّقُ صدورُ البيدِ عنها لدى العرض	بخيل كمثل العارض السحّ كثرةُ
إذا انتجعتهُ ألسنُ السمر بالوخض	معوّدةُ حوض النجيع من العدى
بهام عديّ رُضّتْ بها أيما رَضُ ^(٣)	إذا حقيتْ منها النعمال تنعلتْ

(١) الديوان : ١٥٣ .

(٢) نفسه : ٣٤٨ .

(٣) نفسه : ٢٦٦ .

ومن المظاهر الأخرى التي اهتم بها العماد في شعره واستخدامها للتدليل على قوة الخلافة حكمة الخليفة وقدرته على القيادة العسكرية ، وهيبته وقهره الأعداء ، والانتصار عليهم ، ومثل هذه الصفات نراها في مدح العماد للمقتفي ، يقول :

والجيشُ من مَلِكِ الجيوشِ برأيهِ في صائبٍ وبجائئه في صا ئلِ
هزم العدا ، قبل اللقَاءِ ، برعبه ففدوا بأُمِّ في الشقاوةِ هابلِ
طلبوا الفرارَ ولم يزلْ مُتكفلاً بهزيمةِ الرّعيديِّ بأُسِّ الباسلِ^(١)

يظهر العماد في هذه الأبيات فضل القائد في قيادة الجيش إلى النصر ، فالمقتفي هو الجيش كما يصوره الشاعر ، لأن الجيش لا قيمة له لولا رأيه الصائب ولولا بأسه وقوته ، فقد انهزم الأعداء قبل لقائه خوفاً ورعباً .

وبطش الخليفة بالمخالفين وإذلالهم مظهر من مظاهر قوة الخلافة التي تغنى بها الشعراء ومدحوا بها الخلفاء ، فقد مدح العماد المستنجد لما قام به من مطاردة للمخالفين ، ودعاه إلى القضاء عليهم ، يقول :

أما الطفاة فقد وَسَمَتْهُمُ ووصتَهُمُ بالذِّلِّ والرُّغْمِ
بين الرّجّاجِ تصدّعوا شُعباً صدّعَ الرّجّاجِ لوقعةِ الصُّدمِ
للوقدِ أَنْفَسَهُمْ وَسَمِعَهُمْ للوقرِ ، والأعناقِ للوقمِ
إغمدُ حُسامَكَ في رقابِهِمْ فالذّاءُ مفتقراً إلى الحَسْمِ^(٢)

ومن الأمور التي مدح بها العماد خلفاء بني العباس شيوع الاستقرار والأمن ، فقد وصف عهدهم بالاستقرار والهدوء ، فعندما مدح المستنجد ، وصف لنا كيف بسط هذا الإمام ظله على الأرض الإسلامية ، ووفر لأهلها الأمن فناموا مطمئنين ، وجعل الأعداء يعيشون في الرعب ، ففدا عهدهم متقلصاً وأمرهم إلى زوال كما يقول :

وظلّك في شرق البلادِ وغربها مديدٌ على طول البسيطةِ والعرضِ
أمتّ عبادالله أنأ فلم تدع عيون العدى رعباً تكحلُّ بالغمضِ

(١) الديوان : ٣٤٨-٣٤٩ .

(٢) نفسه : ٤٠٠ .

فمهد الأعادي قاص الظل منقض ونجم الموالي طالع غير منقض^(١)

وفي مدح المستضيء يصور الناس وقد رقدوا بعد خوف طويل واستراحوا
في ذرى الأمن الذي وطّد أركانه الخليفة ، يقول مصوراً ذلك :

رقدوا بعد طول خوف مقض في ذرى الأمن والمهاد الوطني
فهنيئاً لأهل بغداد فازوا بعد بؤس بكل عيش هنيء^(٢)

هذه أهم مقومات مدح الخلفاء عند العماد ، وهي مقومات تقليدية ومعروفة لا
جديد فيها ، إذ لا نجد في مدحه لهم ما يشير إلى حالة الصراع القائمة بين
المسلمين والفرنجة ، فلم يمدحهم مثلاً بالوقوف في وجه الصليبيين ولم يُشير إلى
دورهم في حركة الجهاد لأن ذلك الدور لم يكن بالمستوى الذي يستحق الإشارة
إليه .

- مدح الوزراء والأمرء :

يشتمل هذا المبحث على أشعار العماد التي قالها في مدح ثلاثة من الوزراء
هم : (عون الدين بن هبيرة) وزير المقتفي والمستنجد من بعده ، وليس في ديوان
العماد الذي بين أيدينا قصائد كاملة قيلت في مدح هذا الوزير ، على الرغم من
خدمة عماد الدين له ، والنيابة عنه في واسط والبصرة مدة ليست قليلة ، وما في
الديوان من مدح لهذا الوزير لا يتجاوز الأبيات التي اشتملت عليهما قصيدتان
قالهما العماد في مدح الخليفة المستنجد ، الأولى سنة خمس مئة وسبع وخمسين^(٣) ،
والثانية سنة خمس مئة وتسع وخمسين^(٤) . وإن هذه الظاهرة ملفتة للنظر في شعر
المديح عند العماد ، فهل يعقل أن وجود العماد بمدائحه لكل من عرف من الوزراء
والأمرء والأفاضل ، ويبخل على ابن هبيرة صاحب الأيدي البيض عليه ؟ إن هذا
الامر مستبعد ، والأرجح أن العماد قال أشعاراً في مدح ابن هبيرة ، ولكن هذه

(١) الديوان : ٢٦٥ .

(٢) نفسه : ٦٥ .

(٣) نفسه : ٢٦٤ .

(٤) نفسه : ٣٩٤ .

الأشعار ، إما أن تكون قد ضاعت مع ما ضاع من شعره ، أو أن العماد قد أسقطها من شعره بعد أن تعرض لمحنة السجن في بغداد لصلته بابن هبيرة .

ومن الوزراء العباسيين الذين مدحهم العماد (عضد الدين أبو الفرج) ^(١) ابن رئيس الرؤساء (أستاذ الدار) أيام المستنجد ، ثم أصبح وزير المقتفي ، وكان بينه وبين العماد صداقة عبّر عنها بقوله : « وكانت بيني وبين الوزير عضد الدين خلوص وداد ، وخصوص اتحاد » ^(٢) ، ويشتمل الديوان على قصيدة قالها العماد في مدح الوزير عضدالدين بعد أن رحل الأول إلى الشام ، وفيها أظهر شوقه إلى العراق فقال في مناسبتها : « ولما وصلت إلى الشام وأحوجني التلبس بأشغال المملكة إلى المقام كتبتُ إليه قصيدة أتشوقه فيها وأمدحه بها » ^(٣) .

وقد خص العماد بمدحه ، بالإضافة إلى الوزيرين ، ابنيهما : فمدح (شرف الدين ظفر) ^(٤) ابن الوزير عون الدين بن هبيرة بقصيدة عارض فيها قصيدته التي مطلعها :

بكر العارض ثمّوده النعامي فسقيت الغيث يا دار أمانا ^(٥)
بقصيدة سنة خمسمئة وتسع وخمسين مطلعها :
خطرت تحمل من سلمى سلاما فائنسى يشكر إنعام النعامي ^(٦)

(١) محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن علي بن الحسين بن أحمد بن محمد بن عمر ابن الحسن بن عبيدالله بن عمرو بن خالد بن المرقيل ، يكنى أبا الفرج . ولقبه عضد الدين ، عُرف باسم ابن رئيس الرؤساء ، ولد سنة ٥٢١هـ ، كان أبوه أستاذ المقتفي وأقره المستنجد ، وقد وزر ابن رئيس الرؤساء للقائم بأمر الله ، وكانت وفاته سنة ٥٧٣هـ (مرآة الزمان سبط ابن الجوزي ، ق ٨ ، ج ١ ، ص ٢٤٦) .

(٢) العماد الأصفهاني ، الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٤) ظفر بن يحيى بن محمد بن هبيرة ، أبو البدر بن الوزير أبي المظفر عون الدين بن هبيرة ، كان يلقب شرف الدين ، ناب عن والده في الوزارة ، وكان شاباً ظريفاً أديباً ينظم الشعر ، حبسه الخليفة بعد محنة والده إلى أن مات سنة ٥٦٢هـ (محمد بن شاکر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس ، ج ٢ ، ص ١٤١) .

(٥) نفسه : ٢٧١ .

(٦) نفسه : ٢٧١ .

ومدح أبا الفضل عبيدالله^(١) بن الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء^(٢) ،
ومن مدوحيه من وزراء بني العباس (جمال الدين أبو جعفر بن علي الأصفهاني) ،
وزير صاحب الموصل أتابك زنكي ، وقد مدحه بقصيدة واحدة^(٣) .

جمع العماد في مدحه بين الوزراء بمجموعة من الصفات ، مثل : الجود
والشجاعة والحزم وقوة العزم وبناء المجد ونصرة الدين وسداد الرأي والقيام
بأعباء الحكم باقتدار ، وأبرز صفات مدوحيه من الوزراء صفة الجود ، ولعل في
التركيز على هذه الصفة ما يرضي المدوح ، لأنها من القيم العربية التي يُعتز
بها، والفوز برضا المدوح غاية يسعى إليها الشاعر ، فنجده يبالغ في المدح إلى
حدّ يجعل مدوحه يصل إلى أقصى غايات الجود ويشبّهه بأعظم رموزها وهو (حاتم
الطائي) فنراه يقول في كرم ابن هبيرة :

هو حاتمُ الجودِ ليس يرى استناءً نائله سوى حاتم^(٤)

وتقود المبالغة الشاعر في بعض قصائده إلى تصوير مدوحه متفرداً في
جوده، ولا شبيه له في الدنيا ، فانظر إليه كيف يصور كرم جمال الدين أبي جعفر
بن أبي منصور :

وقائلة: أفني الدنيا كريم سواه؟ فقلتُ: لا وأبي العلاء، لا^(٥)

ويجعل مدوحه أكرم من الغيث في بعض قصائده ، كما فعل عندما مدح
(شرف الدين ظفر الدين بن عون ابن هبيرة) ، فقد وصف الغيث بالبخل إذا ما
قورن بجود شرف الدين :

رفقاً نستق جدوى ظفر فهو من بخل بالجود الغماما
فهو الغيث إذا بث اللها وهو الليث إذا فلّ اللهاما^(٦)

(١) كمال الدين أبو الفضل عبيدالله بن الوزير عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، لما تولى أبوه الوزارة صار
أستاذ الدار (الخريدة ، قسم الحراق ، ج ١ ، ص ١٦٢) .

(٢) نفسه : ٣٥٥ .

(٣) نفسه : ٣٢٢ .

(٤) نفسه : ٤٠٠ .

(٥) نفسه : ٣٢٢ .

(٦) نفسه : ٢٦٧ .

ويضاف إلى هذه الصفة صفات أخرى أسبغها العماد على ممدوحيه من هذه الفئة مثل : الحزم وقوة العزم والشجاعة والقيام بأعباء الحكم . وهي صفات يطرب لها الممدوح لأنها تعزز مكانته في الوزارة ، وقد يأتي الشاعر على ذكر هذه الصفات من خلال مدحه للخليفة ، كما فعل عندما مدح المستنجد ، وأثنى على اختياره عون الدين بن هبيرة للوزارة لما يتمتع به من صفات الحزم والقوة والنهوض بأعباء الحكم :

ويحيا ليحيى كلّ حق قضى وهل	قضى غيركم ما كان للدين من فرض ؟
وزيرٌ بأعباء الممالك ناهض	إذا عجزت ثم الرواسي عن النهض
وعزم كحد الصارم السيف مُتّضّي	نضوت به ثوب الغبار الذي يُنضّي ^(١)

ويقول عنه في قصيدة مدح بها المستنجد مظهراً صفات تمتع بها ابن هبيرة كالحزم والقوة :

أزرت ملكك بالوزير ، فمن	شروا كما في العزم والحزم ^(٢)
ويقول في حزمه :	
إن يكن مانع المراحم بالجو	د فبالأس مانع المحارم
وهو بالحزم مدرك كل مؤلٍ	ولعمري كم حازم رام حازم ^(٣)

وإذا كان الوزير أو من يخدم السلطان بحاجة إلى البأس والقوة والحزم فإنه إلى سداد الرأي أحوج ، لأن سياسة الناس وتصريف أمور الدولة تحتاج إلى الرأي الصواب في موقعه ، لأنه أنفع في كثير من الأحيان من البأس والقوة ، ولأهمية هذه الصفة عند الممدوح وعند الناس ، فإننا نرى العماد ينوه بها في قصائده ، فيشبهه ممدوحه الوزير عضد الدين (بقيس بن سعد)^(٤) بحكمته وسداد رأيه ، إذ

(١) الديوان : ٢٦٧ .

(٢) نفسه : ٤٠٠ .

(٣) نفسه : ٣٦٨ .

(٤) بقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي ، حامل راية الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان والي علي رضي الله عنه في مصر (أنظر : الإصابات في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ق ٥ ، ص ٤٧٣) .

يقول :

نُطِقَ قُسٌّ ، ورأي قيسٍ وإقدا مٌ عليّ ، وجودٌ كعبٍ وحاتم^(١)

وهذا (الفضل عبدالله بن الوزير عضد الدين) أضاء زمان المستضيء بآرائه الميمونة ، وهو رغم صباه إلا أن رأيه رأي الكهول في إصابته وحكمته :

فسي السنّ إلا أن للملكِ قرةً بما هو يستهديه من رأيه الكهل
أضاء زمان المستضيء إمانا بآرائه الميمونة العقيد والحل
فمن رأيه ما يطلعُ السعدُ من سنا ومن عزمه ما يطلعُ النصر من نصل^(٢)

ولا يقف العماد في مدحه للوزراء والأمراء عند هذه الصفات حسب ، بل يذكر صفات أخرى مثل التقوى وإزالة المظالم ونصرة الدين ، ولكنه في هذه الأوصاف لا يخرج عن المؤلف مما درج عليه الشعراء في وصف معدوحيهم من أصحاب الشأن في الدول والإمارات .

- مدح العلماء :

تهيأت الأسباب للعماد لأن يكون على اتصال بعلماء عصره من خلال ملازمته للسلطين ، إذ كانت دواوينهم مجالس للعلماء . فقد عمل نور الدين ، ومن بعده صلاح الدين ، على استقدام العلماء إلى بلادهم . ومن خلال هذه المجالس نشأت صلات صداقة بين العماد وبعض العلماء من الكتاب ، والقضاة والأدباء ، فخلد العماد هذه العلاقة بقصائد في مدحهم أثنى فيها عليهم ووصفهم بأحسن الأوصاف وأجملها ، وكان على رأس معدوحيه من العلماء الكاتب والشاعر والوزير (عبدالرحيم البيساني) المعروف بالقاضي الفاضل الذي أهله لكتابة الإنشاء في بلاط السلطان نور الدين^(٣) . كما أهله للخدمة في بلاط صلاح الدين الأيوبي^(٤) . ومن أصدقائه العلماء الذين مدحهم القاضي (محي الدين أبو حامد الشهرزوري)

(١) الديوان : ٣٦٨ .

(٢) نفسه : ٣٥٩ .

(٣) ياقوت الحموي ، ارشاد الأديب ، ج ٧ ، ص ٨٢-٨٣ .

(٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٤١ .

كان قاضياً لدمشق في دولة نور الدين عند قدوم العماد إلى الشام ، ويروي العماد أن الشهرزوري استقبله استقبالاً حسناً ، فبعث له بعض خواصه وحجابه عندما عرف بنزوله في دمشق ، واعتذر له عن تأخره وخيره في المكان الذي يريد النزول فيه ، فاختر المدرسة العمادية ^(١) . وكان الشهرزوري سبباً في دخول العماد إلى بلاط نور الدين ^(٢) . ومن أصدقائه الممدوحين الأديب المقرئ ، النحوي الشيخ « تاج الدين أبو اليمين الكندي » ^(٣) و « شرف الدين بن أبي عصرون » ^(٤) .

كانت صلة العماد بالقاضي الفاضل متينة ، وذلك لأسباب منها : أن القاضي الفاضل أسدى إلى العماد خدمة عندما هياه للعمل في بلاط نور الدين وصلاح الدين ، وثاني هذه الأسباب أن الرجلين كانا ينتميان إلى مدرسة أدبية واحدة ، وكان القاضي الفاضل أستاذاً هذه المدرسة ، فعرف العماد للفاضل فضله ، فمدحه بأربع قصائد نجدها في الديوان ، الأولى سنة خمسمئة وسبعين ، يصف فيها لقاءه بالفاضل ، ذلك اللقاء الذي أغنى من الفقر ، وأعاد الأمل إلى الشاعر بحياة كريمة ، فيصف ذلك قائلاً :

مُدْ فاضَ لي بالرُّحْبِ بحرُ الفاضل	قد أهدى الإثراء في الإيفاض لي
ما زال صرْفُ الدَّهرِ منه عاضلي	قد عاضَ لي لقاءهُ من فقري غنى
بلقائه حتى غلبتُ مناضلي ^(٥)	كم من منى ظلتُ وعادت الهدى

وبعد أن يصف لقاءه بالفاضل ، يمدحه بمجموعة من الصفات الحميدة ، ويبرز منزلته الأدبية ، إذ يقابل بينه وبين أقطاب البلاغة والفصاحة المعروفين ، أمثال

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن ، ٥٩٠٥٨:١ .

(٢) نفسه : ٦٦:١ .

(٣) أبو اليمين زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي الملقب تاج الدين البغدادي الموند والمنشا ، والدمشقي الدار والوفاء ، المقرئ والنحوي والأديب ، كان أوحد عصره في فنون الأدب وعلو السماع ، توفي سنة ٦١٢ بدمشق ؛ وفيات الأعيان ٢/٣٢٩ : الخريدة ، قسم العراق ، ج ٢ ، مجلد ١ ، ص ٢١٩ .

(٤) شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد بن أبي عصرون ، ومن نعوته حجة الإسلام ، مفتي العراق والشام ، تولى قاضي القضاة بدمشق وجميع المعالك الملكية الناصرية بالشام سنة ٥٧٢ هـ ؛ (الخريدة ، قسم الشام ، ج ٢ ، ص ٣٥١-٣٥٢)

(٥) الديوان : ٣٤١ .

(سحبان وائل) ^(١) و(قس بن ساعدة) ^(٢) يقول :

عائنتُ طودَ سَكِينَةٍ ورأيتُ شمـ
س فضيلةٍ ووردتُ بحرَ فواضـ
ولقيتُ سَحْبَانَ البلاغَةِ ساحباً
بيانهِ ثوبِ الفخارِ لوائـ
أبصرتُ قُسمًا في الفصاحةِ معجزاً
فعرفتُ أنيَ في فهامةٍ باقلـ
حلفُ الفصاحةِ والحصافةِ والسما
حةِ والحماسةِ والتقى والنائل ^(٣)

وإلى جانب الفصاحة والبلاغة كان الفاضل جواداً كثير العطايا وهو بحر من الفضل طامي العباب ليس له ساحل كما يصوره العماد ، إذ يقول :

بحر من الفضل الغزير خَصَمَهُ
طامي العُبابِ وماله من ساحـ
وجميع ما في الأرض سبعة أبحر
وبجوده تُسمى بعشر أنامل ^(٤)

ويمدح العماد القاضي الفاضل بصفات تتعلق بصناعة الكتابة ، إذ يبرز ما لقلمه من دور في تصريف شؤون الحكم ، فيصور يراعه يجري كالحسام وينزل كالقضاء ، ويفوق في أثره ، أثر كتيبة من الجيش بقوتها ، فهو يفعل أكثر مما تفعله تلك الكتيبة ، يقول في وصفه :

في كَفِّهِ قَلَمٌ يُعَجِّلُ جَرِيئُهُ
ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجـ
يجري ولا جَرَى الحسام إذا مضى
حداهُ بل جَرَى القضاء النازلِ
نابتُ كتابتُهُ منابَ كتيبة
كُفِّتْ بهزمِ كتائبٍ وجحافلٍ ^(٥)

(١) سحبان وائل الذي ضرب به المثل في البلاغة ، كان خطيب العرب غير مدافع ، وكان إذا خطب لم يعد حرفاً ولم يتلثم ولم يتفكر بل كان يسيل سيلاً (ابن حجر العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، طبعة ١٩٣٩ ، ج ٢ ، ص ١٠٨) .

(٢) قس بن ساعدة الأيادي : من نسبه خلاف ، عمر طويلاً ، وهو من حكماء العرب وخطبائها المشهورين (البيغدادي ، خزائن الأدب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٩) .

(٣) الديوان : ٣٤١ .

(٤) نفسه : ٣٤٢ .

(٥) نفسه : ٣٤٢ .

ولقلم الفاضل سلطة كبيرة في الممالك بما يسطره من كتب تصدر عن
السلطان يتلقاها الملوك في كل أرض بالتعظيم ، كما يقول العماد :

مَالِكُ الْحُلِّ فِي الْمَالِكِ وَالْعَقْفُ	بِحُكْمِ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ
مُعْمَلٌ لِلنَّفَازِ فِي كُلِّ قَطْرِ	قَلَمًا حَاكِمًا عَلَى إِقْلِيمِ
تَلْقَى الْمَلُوكُ فِي كُلِّ أَرْضٍ	كُتُبَهُ الْقَادِمَاتِ بِالتَّعْظِيمِ ^(١)

ويتفننى العماد في مدحه للفاضل بمنزلته بين أدباء عصره ، فيصفه
بأنه أوجد عصره ، وأفضل الفصحاء ، وأبلغ الفصحاء ، وقد تفرد بمنزلة عالية بين
أدباء عصره لا يدانيها أحد ، يقول :

يَا أَوْحَدَ الْعَصْرِ الَّذِي بَزَّ الْوَرَى	فَضْلًا بَغِيرِ مَشَاكِهِ وَمَشَاكِلِ
يَا أَفْضَلَ الْفَصْحَاءِ بَلْ يَا أَفْصَحَ الـ	بَلْفَاءِ مِنْفَرْدًا بَغِيرِ مَسَاجِلِ ^(٢)

ويمضي العماد في مدحه للفاضل مؤكداً دور قلمه فيصف هذا القلم بأنه
نصير الحق وبه تضبط أمور البلاد ، وهو كما أشار في قصيدة سابقة يوازي كتيبة
من الجيش في أثرها ، والرماح والسيوف تابعة له في حكمه ، كما يقول في وصفه :

وَلَهُ الْيِرَاعُ وَوَيْشُهُ أَبْدًا	يُرْعَى بِهِ وَيُرَاعُ ذُو الْحَقْدِ
كَمْ غَاضَ بَحْرٌ بَنَانَهُ فَنَدَا	دُرُّ الْبِيَانِ يُسَاقُ فِي الْعَقْدِ
إِنْ سَوْدَ الْبِيضَاءِ يَبُضُّ مَنْ	ثَوْبِ الْبِيضَاءِ كُلُّ مُنْوَدِ
قَلَمٌ أَقَالِيمَ الْبِلَادِ بِهِ	وَتَغْوَرُهَا فِي الضَّبْطِ وَالشَّدِ
بَهْزَالِهِ سَمَّنَ الْعُلَا وَكَذَا	فِي الْهَزْلِ مِنْهُ حَقِيقَةُ الْجَدِ
لِلْسَانِ حَجَّجَ يَرُدُّ بِهَا	جَزْمًا قَضَايَا الْأَلْسَنِ اللَّجْدِ
ظَمَانَ يُرْدِي كُلَّ ذِي ظَمٍ	فَاعْجَبْ لِمَنْ وَرِدَ بِلَا وَرْدِ
مَلِكٌ كَتَيْبَتُهُ كَتَابَتُهُ	فَرَّدَ بِجَيْشِ النَّصْرِ فِي جُنْدِ
الْأَسْمَرِ الْخَطَّيِّ تَابِعُهُ	فِي حُكْمِهِ وَالْأَبْيَضُ الْهِنْدِي
وَالنَّائِبَاتُ بِحَدِّهِ أَبْدًا	مَثَلُومَةٌ مَغْلُوبَةٌ لَهُ الْحَدُّ ^(٣)

(١) الديوان : ٣٩٤ .

(٢) نفسه : ٣٤٣ .

(٣) نفسه : ١٣٣-١٣٤ .

ومن ممدوحيه القاضي (محي الدين أبي محمد الشهرزوري) ، فقد مدحه بقصيدة سنة خمسمئة وخمس وستين ، بعد وقوع الزلزلة بحلب ؛ التي خربت منها دار القاضي وفي هذه القصيدة أشاد بعدل القاضي ، فجعله يعدله محيي الرجاء ، وهو أفضى القضاة ، وفضائله لا تحصى يقول في مدحه :

مات الرجاء فإن أردت حياته	ونشوره ، فارحُ الإمام المحييا
أفضى القضاة ، محمد بن محمد	من لست فيه للفضائل مُحصيا
قاضي به قضت المظالم نجبها	وغدا على آثارهن مُعفيا
يا كائناً للحق في أيامه	غُرراً يدوم لها الزمان مُفظيا ^(١)

ومن ممدوحيه كذلك الشيخ (تاج الدين أبو اليمن الكندي) وهو أديب ونحوي ومقري ، وقد مدحه العماد بقصيدة وجدنا منها تسعة أبيات في الديوان ، اهتم فيها بصفات مثل الكرم والفضل والفصاحة والبيان ، فقد تطاول تاج الدين بشعره حتى بلغ منزلة (أبي تمام)^(٢) و(البحثري)^(٣) بل تجاوزهما ، وفاق (عبد الحميد الكاتب)^(٤) في نشره ، ولو عاش (قس بن ساعدة الأيادي) في زمانه لكان مشيداً بفضلته ، هكذا يصوره العماد حين يقول :

تذاكر من ورأد مصر عصابة	حديث فتى طاب الندي بذكره
وقالوا : رأينا فاضلاً ذا نباهة	أديباً يفوق الفاضلين بفخره

(١) الديوان : ٢٥٦ .

(٢) أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي الشاعر ، كان ميلاده سنة ١٨٨ هـ ، بجاسم كان أوحد عصره في ديباجة لفظة ونصاعة شعره وحسن أسلوبه ، مدح المأمون والمعتمد . وكانت وفاته في الموصل سنة ٢٣١ هـ . (انظر وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١١-٢٦) .

(٣) مسلم بن الوليد الأنصاري ، أبو الوليد ، الملقب : صريع الغواني ، ولد بين سنتي ١٣٠-١٤٠ هـ ، وعاش ببغداد ، فاتخذ من الشعر حرفة له ينظمه في المناسبات والمديح ، وكان مباحاً لهارون الرشيد والبرامكة . (كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد العظيم النجار ، ط ٢ ، دار الكتاب الإسلامي (قم ، إيران ، ج ٢ ، ص ٣٢) .

(٤) عبد الحميد بن سعد مولى بني عامر بن لؤي بن غالب ، الكاتب البليغ المشهور ، وبه يضرب المثل في البلاغة ، حتى قيل فُتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد . كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب إماماً ، وهو من أهل الشام . كان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وقتل معه سنة ١٣٢ هـ (وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٢٨-٢٣٢) وانظر الجهشيارى : الوزراء والكتاب . تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ، ١٩٣٨ ، القاهرة ، ص ٧٢ وما بعدها) .

يدين حبيب والوليد لنظمه
ولو عاش قس في زمان بيانه
فضائله كالشمس نوراً ولم تزل
بيان هو السحر الحلال وإتنا
ويحمده عبد الحميد لشكره
لكان مشيداً في البيان بشكره
مناقبه في الدهر أعداد زهره
نرى معجزاً من فضله حل سحره^(١)

لم يبلغ أبو اليمن الكندي هذه المنزلة الرفيعة ، حتى يقارن بهؤلاء الأعلام ،
ولكن العماد أراد أن يعظمه ، وأفضل ما يمكن أن يمدح به وهو من فئة العلماء
صفات مثل الفصاحة والبلاغة ، والبيان ، وهو ما فعله . وما مقارنته بهؤلاء
المشاهير إلا محاولة لإرضائه وكسب وده .

- الاستعطاف :

الاستعطاف غرض شعري معروف في شعرنا العربي القديم ، يلجأ إليه الشاعر حين يكون في موقف صعب ، يرى أنه بحاجة إلى العطف من صاحب السلطان ، فيقدم التماسه إليه على شكل قصيدة ، يمتدحه بها ، ويستدرج عطفه ، ليخلصه من ضيق مادي أو معنوي . وفي شعر العماد نماذج من الاستعطاف يطلب فيها الخلاص من ملمات لحقت به ، وكانت أولى المصائب التي نزلت بساحته دخوله السجن . وعن هذه الواقعة يقول العماد : « ولما توفي الوزير (ابن هبيرة) اعتقلت في الديوان ببغداد بسبب منابتي عنه بواسطة والبصرة »^(١) وفي السجن يفكر العماد إلى من يلجأ ليخلصه من هذه المصيبة ، فلا يجد أمامه أفضل من الخليفة (المستنجد) لينجده فيشكو إليه ما أصابه في السجن من الأذى وتغير الأحوال ، يقول :

ولست أرى عاماً من العمر ينقضي	حميلاً ، ولم أفرح بمرُّ شهره
لحي اللّه دهرأ ضاق بي إذ وسعته	بفضلي ، كما ضاقت صدورُ صلوره
وكان كتابُ الفضلِ باسمي معسونا	فحاولَ حظيَ محوه من سطوره ^(٢)

وفي هذه القصيدة يمتدح الخليفة ويصور الخلافة وقد قرّت عينها به ، فليس له مثيل ولا نظير فقد أشبه سيدنا يوسف عليه السلام في تمكنه من الحكم ، يقول :

وإن رجاءً بالإمام أنوطه	حقيقٌ بآمالي ابتسامُ ثغوره
تقرُّ بعلياء الخلافة عينها	فناظرها لم يكتحل بنظيره
أرى الله أعطى يوسفأ حسن يوسف	ومكّنه في العالمين لخيره ^(٣)

ويطلب من الخليفة أن يأويه بعد أن أضرت به صروف الدهر حتى برته كالقلم ، يقول :

(١) الخريدة ، قسم العراق ، ١ ، ٥٦ .

(٢) الديوان : ٢١٩ .

(٣) نفسه : ٢٢١ .

برتني همروف الحادثات فأوني تضع مني الإنعام عند شكوره
كذا القلم المبري أوتته أنمل فقام يؤدي شكرها بصريه^(١)

وتستمر محنة العماد ويبقى في السجن ، فيستعطف الخليفة المستنجد
بقصيدة أخرى ، يتحسر فيها على أيام الشباب الجميلة ، ويتشوق إليها ، ويبدو
عليه اليأس من رجوعها فيقول :

لله عيش كالحمي أسلفته والشمل غير مفرق مجموعه
أيام دارت للشباب كؤوسه فينا ودرت بالسرور ضروعه
أفراجع ما مر من أيامه ؟ هيهات ! لا يرجي إلي رجوعه^(٢)

ويحاول الشاعر في هذه القصيدة أن يؤثر على الخليفة ويستدرج عطفه ،
ليخلصه من محنته ، فيقول :

يا أفضل الخلفاء دعوة قانع برضاك ما كشف القناع قنوعه
أيكون مثلي في زمانك ضائعاً هيهات - يا مولاي - لست تطيقه
أودع جميلاً لي أذعه فخير من أودعته منك الجميل مذيعه
حسب المؤمل منجماً في قصده أن الرجاء إلى نذاك شفيعه^(٣)

ويبقى العماد في سجنه ويذهب استعطافه للخليفة أدراج الرياح ، وتتبدد
أماله بنيل حريته والعفو عنه ، فيبحث عن منقذ آخر غير الخليفة ، فيطرق باب
(عماد الدين بن عضد الدين) ابن رئيس الرؤساء بقصيدة طويلة يجعل مقدمتها في
الغزل . يقول :

لو كنت تعلم منتهى برحائه حاييت إبقاء على حوبائه^(٤)

ويطيل في المقدمة الغزلية ، إذ يصور سوء حالته ، ويشكو من أقاربه
والدهر ، ثم يمتدح عضد الدين ويصفه بأجمل الصفات ، يقول :

(١) الديوان : ٢٢١ .

(٢) نفسه : ٢٩٥ .

(٣) نفسه : ٢٩٦ .

(٤) نفسه : ٦٦ .

فانصرّ أبا نصرٍ على زَمَنِ أَبِي
واشفَعْ تشفَعْ وعده بنجازه
ذكَرْتُ بحالي الصاحب المولى الذي
وقل : استجار كريم بيتي بي ، وذو الـ
والمستجير بنا مجاراً لم يزل
شافه أمير المؤمنين يحا له
قل للإمام : علام حبس وليكم ؟
أوليس إذ حبس الغمام وليته

نصري ، لفضل أنت من أبنائه
أنتي يخيب فأنت من شفعاؤه
يقوى أمير المؤمنين يرأه
بيت الكريم يجد في إحيائه
ولو أن هذا الدهر من أعدائه
فأرى شفاهك موجب لشفائه
أولوا جميلكم جميل ولائه
خلى أبوك سيلاً بدعائه^(١)

ويستجيب الخليفة لشفاعة (عضدالدين والد عمادالدين) ، ويطلق سراح العماد من سجنه في بغداد ليروح إلى الشام بعد حين ، ويدخل في بلاط نور الدين ويظل في خدمته حتى وفاته ، ويفقد العماد عمله بعد وفاة نورالدين ، ويطمح إلى عمل في بلاط صلاح الدين ، ويهديه قلبه إلى القاضي الفاضل ليكون عوناً في الوصول إلى بلاط السلطان ، فيمدحه سنة خمسمئة وسبعين بقصيدة يرجوه فيها أن يقدمه للسلطان ، ويقرر له الشغل الذي يريد ، يقول :

أرجوك معنياً لدى السلطان بي
كرمأ فمثلك يعتني بأمثالي
توفي وليك ندين مجد عاقه
لشي الوعود من الزمان الماطل
قررت لسي الشغل المبجل مخلياً
بالي من الهم المقيم الشاغل^(٢)

وفي السنة نفسها يستعطف العماد الأمير (نجم الدين ابن مصال) ليذكر القاضي الفاضل بشغله الذي مازال ينتظره ، يقول :

لعل نجم الدين ذا الفضل
يدكر الفاضل في شغلي
إن أجمل الناس قدراً فسي
بفضله يتعب من أجلي
ومثله من يعتني بالعلي
ويستديم الحمد من مثلي^(٣)

(١) الديوان : ٧١ .

(٢) نفسه : ٣٤٤ .

(٣) نفسه : ٣٦١ ، ٣٦٢ .

لجأ العماد إلى الاستعطاف وهو الفن الشعري الذي يمزج فيه المدح بطلب الشفاعة من الممدوح ، ولم يتوان عن استخدامه حين كان يجد نفسه عاجزاً عن تحقيق ما يصبو إليه بالمدح وحده ، وقد لاحظنا من خلال شعره أن استعطافه كان مثمراً إذ تحقق للعماد ما أراد من استعطافه ، فخرج من السجن ، ودخل في خدمة صلاح الدين ، وعاش في كنفه عيشة راضية .

- الرثاء :

الرثاء ضرب من ضروب الشعر التي يعبر بها الشاعر عن أحاسيسه نحو المتوفى وهو البكاء مع إظهار التحسر والأسى واللوعة على الراحل ، وتختلف المشاعر باختلاف موقع المتوفى من الشاعر ، فإذا كان من أسرته أو أحد أقاربه ، أو بطلاً مجاهداً فإن الرثاء يصدر عن عاطفة أقرب إلى الصدق والإحساس بالفجيعة ، وأما إذا كان المتوفى من ذوي السلطان ، فإن الرثاء يصدر عن عاطفة مُجاملة يحركها الطمع ، وطلب الرضى من أهل المتوفى ، وأعوانه . ويكون الرثاء في هذه الحالة نوعاً من الواجب الذي يفرض على الشاعر ، فلا بد له إن مات الخليفة أو أحد الأمراء أو الوزراء أن يبكيه . والعماد ، مثل غيره من الشعراء ، بكى أهله وأصدقائه والقادة العظام في عصره ، فضم ديوانه قصائد ومقطوعات شعرية في الرثاء ، رثى فيها : أخاه (عثمان) وصديقه (المعتمد ابراهيم) و(بهاء الدين عمر أخا مجدالدين ابن الداية) صاحب (حارم) ^(١) ، ورثى من القادة العظام ، نور الدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، وأسد الدين شيركوه ، ولم أجد في ديوانه رثاءً لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين خلافاً لما ذكره علي مظفر سلطان ^(٢) . وخلا ديوانه من رثاء الخلفاء العباسيين بالرغم من وفاة ثلاثة منهم في أوج عطائه الشعري ، فقد توفي المقتفي والعماد في خدمة وزيره عون الدين بن هبيرة ، ومع ذلك لا نجد له رثاء فيه ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى المتأرب التي يرجوها العماد من صلته بالخليفة ، فإذا تحققت أهدافه من الغناء والمدح للخليفة القادم ، فلا حاجة للبكاء على الراحل ، فالترحيب بالقادم أجدى وأنفع من وجهة نظر المتكسب ، ولذلك فإننا نرى أن العماد مدح ثلاثة من الخلفاء العباسيين في حين لم يرث أياً منهم ، وهذا دليل على أن العماد في علاقته مع الخلفاء العباسيين كان متكسباً لا تحرك مشاعره نحوهم غير أطماعه في مزيد من المكاسب .

ويمكن أن يُقسم شعر الرثاء عند العماد من حيث المرثيين ، قسمين :

الأول : في رثاء الأهل والأقارب والأصدقاء .

والثاني : في القادة والأمراء .

(١) حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية ، وهي الآن من أعمال حلب (معجم البلدان ٢/٢٠٠) .

(٢) علي مظفر سلطان ، العماد حياته وأدبه ، ١٦٨ .

أما القسم الأول فقد اشتمل على رثاء لأخيه (عثمان) ولصديقه (المعتمد ابراهيم) ، فقد رثى أخاه عثمان ببيتين بديهة كما يقول ^(١) ، ورثى صديقه (المعتمد ابراهيم) سنة خمسمئة وست وسبعين بمقطوعتين : الأولى في ثمانية أبيات ^(٢) ، والثانية في بيتين سنة خمسمئة وست وسبعين ^(٣) .

يلاحظ على هذا النوع من الرثاء البديهة والارتجال ، ولا يبارى العماد فيه غيره من الشعراء ، فهو محاولة لإظهار الحزن والتأسف على الفقيد وبيان منزلته من نفسه ، ومدى الحزن الذي حلَّ به عند رحيله مع تسليمه بالقضاء والقدر ، يقول في رثاء صديقه :

تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ بِمَعْنِكَ كُلِّهَا	فَلَسْتُ أَرَى الدُّنْيَا عَلَى مَا عَهَدْتُهُ
عَقَدْتُ بِكَ الْإِيمَانَ بِالنَّجْحِ وَانْقَاءِ	فَخَلَّتْ يَدُ الْأَقْدَارِ مَا قَدْ عَقَدْتُهُ
وَكَانَ اعْتِقَادِي أَنَّكَ الدَّهْرَ مُعْجِدي	فَخَانَتْنِي الْأَيَّامُ فِيمَا اعْتَقَدْتُهُ
أَرَدْتُ لَكَ الْعَمَرَ الطَّوِيلَ فَلَمْ يَكُنْ	مَسْوِي مَا أَرَادَ اللَّهُ لَا مَا أَرَدْتُهُ
فِيَا وَحِشَةً مِنْ مُؤْنَسٍ قَدْ عَدَمْتَهُ	وَيَا وَحِدَةً مِنْ صَاحِبٍ قَدْ فَقَدْتَهُ ^(٤)

ويشتمل القسم الثاني من رثاء العماد على القصائد والمقطوعات التي قالها في رثاء الأمراء والسلاطين والقادة ، فقد قال قصائد في رثاء ثلاثة من أبطال المسلمين الذين سطوروا صفحات من المجد سجلها لهم التاريخ في مجاهدة الصليبيين الغزاة . وهؤلاء الأبطال هم : نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، وأسد الدين شيركوه ، وقد أظهر العماد عليهم حزناً عميقاً لما مثلوه من صحوة في ضمير الأمة التي كادت تستسلم وتستكين لغزاتها ، فقام هؤلاء القادة بدور بطولي أعاد للأمة روحها الجهادية ، فكان العماد يلزم هؤلاء الأبطال ، ويشهد معهم الوقائع العظيمة . وقد أمضى في خدمتهم سنوات طويلة ، ولذا فإن فقد أحدهم كان يعني له الشيء الكثير ، والخسارة الكبيرة ، فيبكيه بطلاً من أبطال الأمة الذائدين عن حياضها والمدافعين عن كرامتها ، الذين زهدوا في الدنيا ، وقد

(١) العماد ، الخريدة ، بداية قسم شعراء دمشق ، ٢١٧ .

(٢) العماد ، الديوان : ٢٩٧ .

(٣) نفسه : ٢١٢ .

(٤) نفسه : ٩٧ .

ملكوها، فتركوها لأهلها ليمتلكوا الآخرة التي هي خير وأبقى .

لقد رحل نور الدين سنة خمسمئة وتسع وستين ، وهو يخوض حرباً من أجل التحرير ، وكان ينظر إلى تحرير القدس، فيراه قريباً ، وقد أعدّ لذلك منبراً يكون لمسجدها الأقصى ، ولكن الأجل حان وحال دون تحقيق المراد ، فترك رحيل القائد المجاهد فراغاً كبيراً في حياة الأمة الإسلامية . فرثاه الشعراء بما هو أهله . وبكاه العماد متأسفاً على رحيله، ومنتحسراً على الأيام الجميلة التي قضاها إلى جانبه، ومظهراً مقدار الخسارة التي حلت بالأمة جرأاً فقد القائد في خضم المعركة المحتدمة، وقد حملت إلينا قصائد العماد التي قالها في رثاء نور الدين أصداء الأثر الذي تركه رحيل نور الدين على الأمة الإسلامية . فقد خسرت الأمة برحيله ملكاً فاضلاً كريماً زاهداً كما يقول العماد في المقطوعة التي قالها سنة خمسمئة وتسع وستين :

يا ملكاً أيامه لم تزل	بفضله فاضلة فاحسرة
غاضت بحار الجود مذ غيبت	أتمسك الفائضة الزاخرة
ملكك دنياك وخلفتها	وسرت حتى تملك الآخرة ^(١)

ويضاف إلى هذه المقطوعة في رثاء نور الدين قصيدة طويلة ذكر العماد أنها تجاوزت المئة بيت^(٢) . اشتمل الديوان على جزء منها . وفيها صور الشاعر نور الدين سراجاً مضيئاً للدين الإسلامي وبفقدته أظلم الدين واغتم الدهر ، وكثر المتأسفون على فقدته يقول :

الدَّيْنُ فِي ظُلْمٍ لَغِيْبَةٍ نُورِهِ	والدهرُ في غمٍ لفقد أميره
فليندب الإسلامُ حامي أهله	والشّامُ حافظُ ملكه وثنوره
ما أعظمَ المقدرَ في أخطاره	إذ كان هذا الخطبُ في مقلوره
ما أكثرَ المتأسفينَ لفقد من	قرت نواظرهم بفقد نظيره
ما أعوصَ الإنسانَ في نسيانه	أوما كفاه الموتُ في تذكيره ^(٣)

(١) الديوان : ٢٠٩ .

(٢) نفسه : ٢١٢-٢١٣ .

(٣) نفسه : ٢١٣ .

ويعدد العماد في هذه القصيدة مآثر نور الدين واحدة واحدة ، ومن هذه المآثر بناء المساجد والمدارس ، ومجاهدة الصليبيين ، يقول مبيّناً ما أصاب الأمة من خسارة لفقدائها نور الدين :

لله طوعاً عن خلوص ضميره	من للمساجد والمدارس بانياً
فلقد أصيب بركنه وظهيره	من ينصر الإسلام في غزواته
من للهدى يبغي فكالك أسيره	من للفرنج ، من لأسر ملوكها
من للزمان مهلاً لوعوره	من للخطوب مذلاً لجماحها
من مشرق في التاجيات بنوره	من كاشف للمعضلات برأيه
من لليتيم ، ومن لجبر كسيره	من للكريم ومن لتعش عثاره
من للجهاد ، ومن لحفظ أموره	من للبلاد ومن لنصر جيوشها
برواحه في غزوه وبكوره	من للفتوح محاولاً أبكارها
ووفوده ، من للحجا ووفوره ^(١)	من للعلى وعهودها من للندى

هذه هي صورة نور الدين كما رسمها العماد ، وهي تطابق الواقع إلى درجة كبيرة ، فقد كان نور الدين كما يذكر المؤرخون حاكماً عادلاً ورعاً تقياً مجاهداً في سبيل الله . فتح الكثير من بلاد المسلمين وحررها من الاحتلال الصليبي ، فقد فتح حلب كما يذكر أبو شامة « وأظهر فيها السنة وغير البدعة التي كانت لهم في التآذين ، وقمع بها الرافضة وبنى بها المدارس ، ووقف الأوقاف ، وأظهر العدل ، وحاصر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة فضبط أمورها وحصن سورها ، وبنى بها المدارس والمساجد ، وأصلح طرقها ، ووسع أسواقها ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ ، وسوق الغنم ، والكيالة ، وغيرها ، وعاقب على شرب الخمر ، واستنقذ من العدو ثغر بانياس والمنيطرة وغيرها ، وكان في الحرب ثابت القدم ، حسن الرمي ، صليب الضرب ، يقدم أصحابه ، ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير »^(٢) .

من أجل هذه الصفات والمآثر فإن العماد يندب نور الدين ويبكيه ويبيدي أسفه على فقدته . ويصور الفجوة التي خلفها رحيله على الدين الإسلامي إذ يقول :

(١) الديوان : ٢١٢ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٠ .

ما كنت أحسبُ نورَ دينِ محمدٍ
أعزَّزَ عليَّ بليثَ غابٍ للهدى
أعزَّزَ عليَّ بأن أراه مغيباً
لهفي على تلك الأنامل إنها
ولقد أتى من كنت تجري رسمه
ولقد أتى من كنت تكشف كربه
ولقد أتى من كنت تؤمن سره
ولقد أتى من كنت تؤثِّرُ قربه
يخبو ، وليلُ الشَّركِ في ديجوره
يخلو الشَّري من زوره وزئيره
عن محفلٍ مشرَّفٍ بحضوره
مذ غيبتَ غاض الندى بيحوره
فضع العلامة منك في مشوره
فارفع ظلامته بنصرِ عشيره
وقع له بالأمن من محلوره
فأدم له التقريبَ في تقريره^(١)

ولما كان نور الدين مولعاً بالجهاد وجيشه دائم الاستعداد لخوض المعارك ، فإن
العماد يخاطبه بعد رحيله ويطلب منه أن يركب لاستعراض هذا الجيش ، ويذكر أنه
هو الذي أحيا الشرع وأقام الشريعة ، وهذا المجاهد الذي ما أغمدت سيوفه إلا حين
سكن في لحده ، يقول :

والجيشُ قد ركبَ الغداةَ لمرضه
أنت الذي أحييتَ شرعَ محمدٍ
كم قد أتمتَ من الشريعة معلماً
كم قد أمرتَ بحفرِ خندقٍ معقلٍ
كم قيصرٍ للرومِ رُمْتُ بقصره
أوتيتَ فتحَ حصونه ، وملكْتَ عُقْدَ
أزهدتَ في دارِ الفناءِ وأهلها
فاركبَ لتُصيرَ أوَّانَ عيوره
وقضيتَ بعد وفاته بشوره
هو منذ غبتَ مُعرِّضُ لدثوره
حتى سكنتَ اللحدَ في محفوره
إرواءَ ييضرِ الهندِ من تاموره
رَ بلادِهِ ، وميِّتَ أهلَ قصوره
ورغبتَ في الخلدِ المقيمِ وحروره^(٢)

ظل نور الدين يقود حركة الجهاد حتى وفاته ، وكان تحرير القدس حلمه
الجميل الذي سعى إلى تحقيقه بكل طاقاته ، وقد قطع على نفسه عهداً بتطهير
المسجد الأقصى وأعد له منبراً خاصاً ، ولذا فإن العماد في هذه القصيدة يستنجزه
الوعد بأسلوب يطفح بالأسى والحزن فيقول :

(١) الديوان : ٢١٣-٢١٤ .

(٢) نفسه : ٢١٤-٢١٥ .

أوما وعدتَ القدس أنك منجزٌ
مبعادهُ في فحبه وظهوره
فتى تجير القدس من دنس العدا
وتقدس الرحمن في تطهيره^(١)

وتنتهي القصيدة التي بين أيدينا بنداء حاملي النعش ، والتعجب من نهوضهم به وبيان منزلة نور الدين عند الله إذ جعل الملائكة تشارك في دفنه ، ثم يخاطب العماد نفسه ويعدّ البقاء بعد رحيل نور الدين نوعاً من الجفاء ، ويختم بالدعاء للميت على عادة الشعراء ، يقول :

يا حاملين سريره : مهلاً فمن
عجب نهوضكم بحمل ثيبره
يا عابرين بنعشه : أنشقتُم
من صالح الأعمال نشر عيبره
نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامي بعده
هلاً وفيت وسرت عند ميمره
حياك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الحيا بدروره
ولبت رضوان المهين ساحباً
أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأموره^(٢)

ويرثي العماد نور الدين من قصيدة تشوق فيها إلى أصدقائه ببغداد ، وفيها يشرك المكان في البكاء على فقده ، فالملك والعدل يبكيانه وبرحيله زالت كل الخيرات من الأرض وانحط الدين وأوشك الكفر أن يعلو ، يقول :

لفقد الملك العماد
لبيكي الملسك والعدل
فأين الكرم العبد؟
وأين النائل الجزل؟
وقد أظلمت الآفا
ق ، لا شمسن ولا ظلل
ولما غاب نور الدير
من عنا أظلم الحقل
وزال الخصب والخير
وزاد الشرر والمحل
ومات البأس والجوف
، وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لهاها
ن أهل الفضل والفضل
ومذ فارق أهل الخي
ر ما ضم له شمل

(١) الديوان : ٢١٥-٢١٦ .

(٢) نفسه : ٢١٥-٢١٦ .

وكاد الدين ينحط وكاد الكفر أن يعلو^(١)

قام صلاح الدين بدور كبير بعد وفاة نور الدين ، فقد عمل على توحيد الأمة الإسلامية ولم صفوفها وقاد حركة الجهاد ضد الصليبيين ، وانتصر عليهم في مواقع كثيرة ، وحرر القدس ، وكان مثالاً للحاكم العادل الورع الزاهد المحافظ على الشريعة وهو ، لما حصل على دمشق وقلعتها ، واستوطن بقعتها ، نشر علم العدل والإحسان وعفى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات ، والمؤن والضرائب المحرمات^(٢) ، وبهذه الأفعال نال السلطان صلاح الدين رضا المسلمين ومحبتهم فكانت فجيعتهم به عظيمة يوم اختاره الله إلى جواره ، فرثاه الشعراء بقصائد كثيرة وكان نصيب العماد من هذه القصائد قصيدة طويلة ذكر صاحب الروضتين أن أبياتها بلغت مئتين واثنين وثلاثين بيتاً أولها :

شمل الهدى والملك عمّ شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته
ولكنه لم يذكر منها إلا سبعة وستين بيتاً^(٣)

ويتناول العماد في رثائه لصلاح الدين الحديث عن صفاته المفضلة عند الرعية ، من قيامه بأمر الحكم القائم على العدل والمساواة ، كما يتحدث عن هيئته وقوته ، وقيامه بأمر الجهاد ومقارعة الأعداء والانتصار عليهم والانتصاف منهم للمسلمين ، فقد كان يجد في متاعب الجهاد لذة كبيرة ، ولم تكن لذاته في يوم من الأيام لذاته ، بل كانت من أجل الإسلام وحماية أهله ، يقول بعد أن يصور في المطلع الهدى والملك وقد تشتت شمله والدهر تغيرت أحواله فساء وأقلعت حسناته:

أين الذي مذ لم يزل مخشية مرجوة رهباته وهباته ؟
أين الذي كانت له طاعاتنا مبذولة ، ولربّه ، طاعاته ؟
بالله أين الناصر الملك الذي لله خالصة صفت نيّاته ؟

(١) الديوان : ٣٣٦-٣٣٧ .

(٢) الروضتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ .

(٣) الروضتين ، طبعة دار الجيل ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

يُرْجَى نَدَاهُ ، وَتَقَى سَطَوَاتِهِ ؟
 وَنَمَتْ عَلَى الْفُضْلَاءِ تَشْرِيفَاتُهُ ؟
 ذُلًّا وَمِنْهَا أُدْرِكْتَ ثَارَاتَهُ ؟
 أَطْرَاقُ أُجَيَّادِ الْوَرَى مَنَاتُهُ
 أَجَدْتُ لَطِيبُ الدَّهْرِ تَدْبِيرَاتُهُ
 بِالنَّصْرِ حَتَّى أُغْمِدْتَ صَفْحَاتَهُ
 حَتَّى تَوَارَتْ بِالصِّيَاحِ قَنَاتُهُ
 مُدْعَاشَ قَطْلُ لِسَانِهِ لَذَاتَهُ
 رُوحَاتُهُ ، مِيمُونَةٌ ضَحَوَاتُهُ^(١)

أَيْنَ الَّذِي مَا زَالَ سُلْطَانًا لَنَا
 أَيْنَ الَّذِي شَرَفَ الزَّمَانَ بِفَضْلِهِ
 أَيْنَ الَّذِي عَنَتِ الْفَرْنَجُ لِبَاسِهِ
 أَغْلَالُ أَعْنَاقِ الْعِدَا أَسْيَافُهُ
 لَمْ يُجِدْ تَدْبِيرُ الطَّيِّبِ وَكَمِّ وَكَمِّ
 مَنْ فِي الْجِهَادِ صَفَاحَهُ مَا أُغْمِدْتَ
 مَنْ فِي صَدُورِ الْكُفْرِ صَدْرُ قَنَاتِهِ
 لَذَّ الْمَنَاعِبِ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ تَكُنْ
 مَسْعُودَةٌ غَدَوَاتِهِ ، مَحْمُودَةٌ

كأنما العماد في هذه الأبيات يحدثنا عن سيرة البطل صلاح الدين ، لقد كانت هذه صفاته وهذه أفعاله وهي صفات وأفعال جعلته يتربع على عرش القلوب عند رعيته . ولذا فإن رحيله ترك فراغاً كبيراً مما حدا بالشاعر أن يتساءل متحسراً عن صلاح الدين الذي كان يملا على الأمة حياتها فيدفع الأعداء ويحمي الإسلام ويرحم الضعفاء ويوجد للسائلين المحتاجين ويعطف على الأيتام حتى غدا مثلاً للحاكم الصالح الذي يستحق الثناء من رب العالمين ، يقول العماد في تأبينه وإظهار الأسي على فقده :

ليطول في روض الجنان سناتُهُ
 فمسات كل العالمين ممانَتُهُ
 أبداً إذا ما أسلمتَه حمانَتُهُ
 لما خلعت من بذرته داراتُهُ
 أودى إلى يوم النشور رُفَاتُهُ
 أقوت قراءه وأقوت ساحاتُهُ
 أركاننا وتهنئنا هداتُهُ
 يهوي ولا تهوي بنا مهواتُهُ
 فينا يطم وتتهوي زخراتُهُ
 محفوفةً بوفوده حفاتُهُ

في نصره الإسلام يسهر دائماً
 لا تحسبه مات شخص واحد
 ملك عن الإسلام كان محامياً
 قد أظلمت مذ غاب عنا دوره
 دفين السماح فليس ننشر بعدها
 الدين بعد أبي المظفر يوسف
 جبل توضع من توضع ركنه
 ما كنت أعلم أن طرداً شامخاً
 ما كنت أعلم أن بحراً طامياً
 بحرٌ خلا من واديه ولم تزل

مَنْ لِلتَّامِي وَالْأَرَامِلِ رَاحِمٌ متعطفٌ مفضوضةٌ صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته^(١)

ويدعو لصلاح الدين ويستمطر السحاب له ، ثم يجعل الأشياء التي كان
يزاولها تبكي عليه وتحزن لرحيله وهو بذلك يسير على نهج من سبقه من شعراء
العربية في هذا العرض^(٢) ، يقول :

فعلى صلاح الدّين يوسف دائماً رضوان ربّ العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب تحضّر لرحمة ربّه سقياته
وكعادة البيت المقدس يحزن البيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصنوارم والصواهل إذ خلت من سلها وركوبها غزواته
وبسيفه صدأً لحزن مصابه إذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت من كل قلب مؤمن روعاته
يا حمرتا من بأس راحته الذي يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه أسد وإن بلاد غاباته^(٣)

وفي هذه القصيدة يصور العماد عصر صلاح الدين وقد انقضى بسرعة فكانما
السنوات ساعات لأن الناس كانوا ينعمون فيه بالأمن والهدوء والاطمئنان فمرت
الأيام بسرعة كأنها لمح البصر ، فجاء يوم وفاته والناس لا يعلمون وانتظروه
كعادتهم في كل يوم ، انتظره الجيش ليستعرضه وانتظرته القدس ليحررها ،
وانتظرته الممالك ليصرف أمورها ، كما انتظرته ساحات الجهاد ولكنه لم يطلع في
يوم السبت كما يقول العماد :

ما كان أسرع عصره لما انقضى فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به أيدي المنيات وقد بدت غشياته
والبشر منه تهلجت أنواره والوجه منه تلالأت سبحاته

(١) الديوان : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) قداة بن جعفر ، نقد الشعر ، ١١٨ .

(٣) الديوان : ٨٩ ، ٩٠ .

ويقولُ لله المهيمنِ حكمة
وقفت الملكُ على انتظار ركوبه
كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه
ومالكُ الآفاقِ ساعةً له
هذا مناشيرُ المالكِ تقتضي
قد كان وعدك في الربيعِ بجمعها
والجنْدُ في الديوانِ جددَ عرضهُ
والقدسُ طامحةً إليك عيونهُ
والغربُ منتظرٌ طلوعك نحوهُ
والشرقُ يرجو محرابَ عزمك ماضياً
مغرباً يا سناء الجميلِ كأنما
هل للملوكِ مضاهٍ في موقف
وإذا الملوكُ سعوا وقصرَ سعيهم
كم جاءه التوفيقُ في وقعاته

في مرّةٍ حصلت بها مرضاتهُ
لهم فقيم تأخرت ركباتهُ
واليوم هم حولَ المريرِ مشاتهُ
فمتى تجيءُ بفتحهنَّ ساعاتهُ
توقيعهُ فيها، فأين دواتهُ ؟
هذا الربيعُ وقد دنا ميقاتهُ
وإذا أمرت تجددتْ نفقاتهُ
عجلٌ فقد طمحتْ إليه عداتهُ
حتى تفيءَ إلى هُداك بغساتهُ
في ملكه حتى تطيعَ عصاتهُ
فرضتْ عليه كالصلاةِ صلواتهُ
سُدّتْ على أعدائِهِ شُداتهُ
رجحتْ وقد نجحتْ به مسعاتهُ
من كان بالتوفيقِ توقيعاتهُ (١)

ويخاطب السلطان باعتباره راعياً للدين متسائلاً عن سبب رحيله بأسلوب يعبر عن حزن الرعية عليه وحاجتها إليه ، يقول :

يا راعياً للدين حين تمكنت
ما كان ضرك لو أقمت مراعياً
أضجرت مناً أم أنفت فلم تكن
أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل
فارقت ملكاً غير باقٍ متعباً
أعزز على عيني برؤية بهجة الدنيا

منه الذئابُ وأسلمتْ رعاتهُ
دينا تولى مذ رحلت ولاتهُ
ممن تصابُ لشدة ضجراتهُ
فوق السماءِ عليّةٌ درجاتهُ
ووصلت ملكاً باقياً راحاتهُ
ووجهك لا ترى بهجاتهُ (٢)

وفي لفظة جميلة يوجه العماد خطابه إلى أبناء صلاح الدين ، ويدعوهم إلى الاقتداء بوالدهم والسير على نهجه ، يقول :

(١) الديوان : ٩٠ ، ٩١ .

(٢) نفسه : ٩١ .

أبني صلاح الدين إنَّ أباكم
لا تقتلوا إلا بسنة فضله
وردوا موارد عدله وسماحه
ولكن هوى جلاله لقد بنيت لنا
وبفضل أفضله وعز عزيمته
الأفضل الملك الذي ظهرت على الـ
والدين بالملك العزيز عماده
والملك غازي الظاهر العالي الذي
ولنا بسيف الدين أظهر نصره
ما زال يأتي ما الكرام أبائه
لتطيب في مهد النعم سنائه
لترد عن نهج السمات شمائه
بينه من هضباته ذراته
وظهور ظاهره لنا سرواته
لدينا بزهر جلاله جلواته
عثمان حالية لنا حالاته
صحت لإظهار العلى مغزاته
بالعادل الملك المطهر ذاته^(١)

وللعماد مقطوعة من سبعة أبيات يؤين فيها السلطان صلاح الدين ويذكر مناقبه المختلفة مثل البأس والجود ، ونصرة الحق ، وتحرير المقدسات ، وعلى رأسها القدس ، ويختم المقطوعة بالدعاء للسلطان ، يقول في هذه المقطوعة :

مَنْ لِلْعَلَامِ لِلذُّرَى مَنْ لِلهَدَى
طلب البقاء لملكه في أجل
بحر أعاد البر بحرأ بره
مَنْ كَانَ أَهْلُ الْحَقِّ فِي أَيَّامِهِ
وفتوحه والقدم من أبقارها
ما كنت امتسقي بغيرك وإبلاً
فسقاك رضوان الإله لأنثي
يحميه من للبأس من للنائل ؟
إذ لم يشق ببقاء ملك العاجل
وبسيفه فتحت بلاد الساحل
وبعزته يردون أهل الباطل
أبقت له فضلاً بغير ساجل
ورأيت جنودك مخجلاً للوابل
لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل^(٢)

لقد كان رثاء صلاح الدين ونور الدين مثار إعجاب بعض الدارسين . فرأى فيه أبداع ما نظمه العماد في حياته . ومن أبداع المراثي في الشعر العربي قاطبة^(٣) .

(١) الديوان : ٩٢ .

(٢) نفسه : ٣٤٠ .

(٣) فؤاد أبو الهيجا ، العماد الأديب وخريدته ، ٣٤٩ .

يبدو أن الباحث في حكمه هذا كان متحمساً لشعر الرثاء عند العماد ، وقد قاده هذه الحماسة إلى إطلاق أحكام عامة حين وصف هذا الشعر بأنه أفضل ما نظم ، وفيه شيء من المبالغة ، فلو قال أنه أفضل ما وصل إلينا من شعر العماد لكان ذلك أقرب إلى الموضوعية ، فلعل في شعر العماد المفقود ما هو أروع من هذا الذي بين أيدينا ، وإذا وافقناه على رأيه الثاني الذي يصف فيه مرثي العماد في البطلين نور الدين وصلاح الدين بأنها أبداع المرثي في الشعر العربي قاطبة ؛ فإين نضع مرثي الفحول من شعراء العرب في العصور المختلفة . ولعل الباحث حين أصدر حكمه كان متأثراً بشخصية البطلين ، وأصدر حكمه بناء على ذلك ، فجعله حكماً يليق بالبطلين المرثيين .

ومن الأبطال الذين رثاهم العماد ، وكان لهم دور بارز في مجاهدة الصليبيين البطل أسد الدين شيركوه ، فقد رثاه بقصيدتين : الأولى قالها في حوادث سنة خمس مئة وأربع وستين ، ذكر أنه رثى بها أسد الدين ، وخدم نور الدين وعزى بها أخاه نجم الدين . وهي عبارة عن مقطوعة يحاول فيها الشاعر أن يبين المكانة التي كان يحتلها المؤبّن والأثر والفراغ الذي تركه ، فيقول مبيّناً الخسارة التي حلّت بالدين جراء فقده لأسد الدين :

تضعض في هذا المصاب المباغت من الدين لولا نوره كلّ ثابت^(١)

وفي القصيدة الثانية يعدد العماد مناقب أسد الدين ، وهي لا تخرج عن المناقب المعروفة التي تتردد دائماً على ألسنة الشعراء في رثائهم للموتى ، وهذه المناقب هي : العبادة والمحافظة على الشرع والحلم والتعفف والقوة والاقتداء بالسلف الصالح ، يقول :

أيام عمرك لم تزل مقسومة	لله بين تعبّد وتعرف
متهجداً لعبادة أو تالياً	من آية أو ناظراً في مصحف
فجع الندى والبأس منك بحاتم	وبحيدر والحلم منك بأحنف
بالملك فزت وحزته عن قدرة	ومضيت عنه بسيرة المتعفف
وققت آثار الشريعة كلها	وقد اهتدى من للشريعة يُقتضى ^(٢)

(١) الديوان : ٩٣ .

(٢) نفسه : ٢٩٩ .

إذا أنعمنا النظر في موضوع الرثاء عند العماد نلاحظ أنه لم يكن من شعراء الرثاء المشهورين ، فبالرغم من طبيعة الحياة التي عاشها . وشهد فيها كثيراً من المعارك التي سقط فيها الكثير من الشهداء . فإننا لا نجد في شعره رثاءً جماعياً ، بل اقتصر شعر الرثاء عنده على مجموعة قليلة من الأشخاص ، وظل تقليدياً يحفل بالأساليب المعروفة عند شعراء الرثاء ، من التأسف على المفقود ، وبيان الفراغ الذي خلفه رحيله ، وجعل الأشياء التي يتخذ منها وسائل في حياته تبكي عليه كالسيف والحصان وغير ذلك . وقد اشتمل الرثاء في زمن الحروب الصليبية على معان جديدة ذات صلة بالجهاد ، فقد أبّن الراحلون بصفات مثل الشجاعة والقوة ومقارعة الأعداء وقيادة الجهاد وإدامته . وقد بكى العماد البطلين نور الدين وصلاح الدين وغيرهما من الأبطال نيابة عن الأمة وتعبيراً عن دورهما في النهوض بالأمة الإسلامية من حالة الضعف والهزيمة إلى حالة القوة والنصر ، ولم يكن العماد مبالغاً أو مدهاناً في رثائه لهؤلاء الأبطال ، بل أبّنه بما هم أهله ، ورسم لهم صورة تتناسب مع الواقع ، وترضي ذوق الأمة .

صلى

- التشوق والحنين :

ارتبطت حياة العماد ببيئات مختلفة ، فقد عاش بداية حياته في أصفهان ، ثم رحل عنها إلى بغداد ، وعاش فيها حياة هانئة وادعة رديحاً من الزمن ، ثم تغيرات الأحوال ، فترك بغداد إلى دمشق ، ولازم نور الدين ، ونعم بالراحة والطمأنينة في كنفه ، ثم رحل بعد وفاة نور الدين إلى الموصل ، وعاد إلى دمشق بعودة صلاح الدين إليها ، وتردد بين القاهرة ودمشق خلال حياته ، وقد نشأت له صداقات في هذه البيئات التي عاش فيها ، فتوزعت نفسه بين هذه الأماكن يحن إليها كلما رحل عنها ، وخلف فيها أحبباً ، وفي وصف ذلك نراه يقول ، وهو في طريقه إلى الاسكندرية سنة خمسمئة واثننتين وسبعين :

يوماً (بجي)^(١) و يوماً في دمشق وبال فسطاط يوماً و يوماً بالعراقين
كأن جسمي و قلبي الصبّ ما خلقا إلا ليقتسما بالشوق والبين^(٢)

يكثّر شعر الشوق والحنين في ديوان العماد ، ولعل ذلك يعود في جانب منه إلى النكبة التي حلت بأهله ، والتي شعر معها بحرمانه من الأمن والاستقرار ، فأصبح للاستقرار في نفسه منزلة خاصة ، يشعر بالخطر عليه كلما رحل ، فالرحيل ، وفراق الأهل ، والأحبة يذكرانه بالرحيل عن أصفهان ، وتشرد العائلة ونكبتها . هذه المعاني تثير في نفسه الشوق والحنين الكامنين في اللاوعي إلى مدارج الصبا ، فنجده يكثر من ترويد الأشواق ، ويحن إلى أيامه المنصرمة ، وقد اتجه الشوق والحنين عند العماد إلى ثلاث بيئات هي بيئة العراق ، وبيئة الشام ، وبيئة مصر ، وتركز على حواضر هذه البيئات الثلاث بغداد ودمشق والقاهرة .

أول هذه البيئات التي شده الشوق إليها كانت بيئة العراق . فعندما هجرها مكرهاً بعد خروجه من السجن حنّ إليها وتشوق إلى الوزير عضدالدين ومدحه^(٣) . وعبر عن حنينه بأشعار تشوق فيها إلى أيام الصبا في العراق ، ودعا لتلك الأيام الجميلة أطيب دعاء ، فقال :

(١) جي : مدينة ناحية أصبهان القديمة ، بينها وبين أصبهان نحو ميلين ، بها مشهد الراشد بن المسترشد ، وهي على شاطئ نهر زندروذ (معجم البلدان ٢/٢٠٢) .

(٢) الديوان : ٤٢٠ .

(٣) نفسه : ٣٦٤ .

وسقى الله عيشينا المتقضي
ورعى الله عهدنا المتقادم
حين عصر الصبا كحالي حال
وهو في مره كأحلامِ حالم
فليالي العراق ييضُ من البي
ض غيوانٍ ، من الغواني غوانم^(١)

وفي هذه القصيدة يصف العماد عيشه في بغداد ، ويحن إلى أيامه في العراق ، ويذكر وحدته في الشام ، ويفضل أمسه المنصرم في بغداد على يومه الذي يقضيه وحيداً في الشام ، يقول :

وبذاك الجنب أوطان أوطا
ري كما أنها مغاني المغام
ومراد لمراد بالعرف زاه
ومر اح المراح بالعرف فاغم
وميتي ما بين كأس وثر
رائفاً منهما متى ثمت لائم
وردُ خدٌ ندي وعصن قوام
ذا جنبي غصٌ وذلك ناعم
فأنا اليوم بالشام وحيدٌ
لسنا البارق العراقي ثائم
لا وود على وفائي مقيم
لا وفي بشرط ودِّي قائم^(٢)

هذه الأبيات جزء من قصيدة قالها العماد في مدح الوزير (عضدالدين بن عمادالدين)^(٣) الذي خلصه من السجن في بغداد ، فبعد أن وصل إلى الشام بعث بهذه القصيدة يتشوق فيها إلى الوزير عضدالدين ويمدحه وفاءً لدين طوق به عنقه حين خلصه من الأسر .

ويتشوق العماد إلى العراق في قصيدة كتبها جواباً على رسالة تضمنت شعراً ، وصلت من (سبط ابن التعاويذي)^(٤) ، وفيها يظهر شوقه إلى أيامه الجميلة في العراق ، ويبيدي لهفته على ذلك العيش الذي مضى ، والزمان الذي تكدر

(١) الديوان : ٣٦٦ .

(٢) نفسه : ٣٦٦-٣٧٧ .

(٣) نفسه : ٣٦٤ .

(٤) أبو الفتح محمد بن عبيدالله سبط ابن التعاويذي ، كان ابناً لمولى تركي ، ا سمع طاشتكين ، وهو سبط الصوفي الزاهد المعروف بابن التعاويذي من ناحية الأم ، ولد سنة ٥١٩هـ في بغداد ، وعمل هناك في ديوان المقاطعات وأصيب سنة ٥٧٩هـ بالعمى ، وتوفي سنة ٥٨٣هـ وقيل ٥٨٤هـ (بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٥ ، ص ١٥ .

بالهجران ، وعلى الأصدقاء الذين فرقتهم يد الدهر ، فيقول :

شِ مَضَى فِي دَارِ عَلَّوَةٍ	أه ١ وَالْهَفْيِ عَلَى عَيْدٍ
رَأَى بَعْدَ الْوَصْلِ صَفْوَةً	وَزَمَانَ كَدَّرَ الْهَيْجُ
نَسَبَتُ الْآدَابِ إِخْوَةً	وَكِرَامِ صَيَّرَتْهُمْ
لَعَنَ عَن قَصْدِي بِنَجْوَةٍ	حِينَ كَانَ الدَّهْرُ لِلْغَفَى
لَلْغَيْرِ الْحَبِّ حُبُّوهُ	حِينَ لَمْ أَعْقِدْ وَلَمْ أَحَدِ
بِدِّ ، فَإِنَّ الْحَمْدَ ثَرْوَةٌ	أَبْذُلُ الثَّرْوَةَ لِلْحَمْدِ
شِمَةٌ فِي أَبْهَجِ صَفْوَةٍ	رَافِلاً مَن مَلْبَسِ الْعَيْدِ
كَارِهِتُمْ أَنْ تَتَّأَوَهُ ^(١)	حُقِّ ، يَا قَلْبُ ، عَلِي تَذُ
دَعَّ سَقَيْتُمْ كُلَّ غُلُوَةٍ	يَا أُخِلَّاكِي ، بِدِّ بَغْدَا
رِ ، وَنَلْتُمْ كُلَّ حُظْوَةٍ ^(٢)	وَأَمِيتُمْ نَائِبَ الدَّهْرِ

ولبغداد منزلة حبيبة في قلب العماد لا تدانيها منزلة ومهما بعد عنها فإن حبها لن ينمحي من فؤاده ، ولا تنسيه الحنين إليها أي بلدة نزل بها مهما كانت في جمالها وروعيتها ، يقول :

لَعْنَةُ « جِيْرُونَ » ^(٣) وَرَبَّوَةٍ ^(٤)	مَا تُسَلِّينِي عَن « دَجِ
نِي وَفِيهَا كُلُّ ثَمَّهْوَةٍ ^(٥)	لَا وَلَا (جَلُّقُ) ^(٦) تُلْهِي

إن بغداد كما يصورها العماد في قصائد الشوق والحنين تبدو غاية المنى عنده ، فقلبه متعلق بها ، يهوي إليها أينما كان حتى لو كان بعيداً عنها فإن روحه تهفو إليها كما يقول :

(١) الديوان : ٤٣٩-٤٤٠ .

(٢) نفسه : ٤٤٠ .

(٣) جيرون : سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تظيف بها ، وهي بدمشق في وسطها كالمحلة باب الجامع الشرقي إليها يسمى باب جيرون ، (معجم البلدان ١١٩/٢ : مراصد الاطلاع ٣٦٦/١) .

(٤) ربوه : قيل بدمشق في لحف جبل قاسيون موضع ليس في الدنيا أنزه منه (مراصد الاطلاع ١٦٠٢/٢) .

(٥) جلق : اسم الكورة الغوطة كلها ، وقيل قرية من قراها ، وقيل دمشق نفسها (مراصد الاطلاع ٢٤٢/١) .

(٦) الديوان : ٤٤٠ .

مبتغى قلبي المشوق يبغدا د ، وجسمي نائي المحلّ (بجاسم)^(١)
ليت شعري متى يُشر عني أصدقائي فيها بأني قادم^(٢)

ويستقر العماد في الشام ملازماً (نور الدين وصلاح الدين) وتصبح دمشق جزءاً من كيانه العاطفي والنفسي ، إذ يقيم بها مع أهله وأصدقائه . وكان يرحل عنها ثم يعود إليها مع المجاهد نور الدين ؛ الذي كان يخرج لمحاربة الصليبيين في بلاد الشام ، وقد توزعت أشعار الشوق والحنين إلى دمشق بين عامي خمسمئة وسبعين ، وخمسمئة وست وسبعين ، وقد عبّر العماد عن مشاعر الشوق والحنين في قصائد خصّها للشوق والحنين كما عبّر عن هذه المشاعر في بعض قصائد المديح، فقد تشوق الى دمشق وحنّ إليها وتأسّف عليها سنة خمسمئة وسبعين ومدح صلاح الدين فقال :

أجيران «جبرون» مالي مجيرُ سوى عطفكمُ ، فاعدلوا أو فجوروا
ومالي سوى طيفكم زائرُ فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
يعزُّ عليّ بأن الفؤادُ لديكم أسيرٌ وعنكم أسيرُ^(٣)

ويصف العماد شوقه لأحبته في دمشق بأنه في نموّ وازدياد ، ويشبه حالته الشعورية تلك بفيضان نهرين في دمشق ، وشوقه لا يطفئه غير ماء بردى البارد العذب ، فنراه يقول معبراً عن ذلك :

يزيد اشتياقي وينمو كما «يزيد» يزيدُ ، و«ثور» يشورُ^(٤)

(١) جاسم : اسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ ، على يمين الطريق الأعظم إلى طبرية (مراصد الاطلاع ٢٠٦/١) .

(٢) الديوان : ٣٦٧ .

(٣) نفسه : ١٨٥ .

(٤) يزيد : نهر بدمشق يُنسبُ إلى يزيد بن معاوية ، مشتق من نهر بردى ، يجري في لحف فوق ثورا (معجم البلدان ٣٧٨/١ ، نفسه ٤٣٦/٥ ، ومراصد الاطلاع ١٨١/١ ، ونفسه ١٤٧٨/٢)

ثورا : اسم نهر عظيم بدمشق في سفح جبل قاسيون مشتق من بردى (معجم البلدان ٣٧٨/١ ، نفسه ٨٦/٢ ، ومراصد الاطلاع ١٨١/١ ، ونفسه ٢٠١/١) .

ومن (بردى) ^(١) بردُ قلبي المشوق فها أنا من حرّه مستجيراً ^(٢)

ويعتذر العماد لأصدقائه في دمشق عن نأيه معللاً ذلك بانشغاله في محاربة الأعداء ، ويصور نفسه فقد الحياة برحيله عن أحبته ، ويؤمل عودتها يوم يعود إليهم فيقول :

نأى بي عنكم عدو لدود ودهرُ حَوُونٌ وحظٌ عثور
فقدتكمُ ففقدتُ الحياة ويوم اللقاء يكون النشور ^(٣)

وقبل اللقاء يرسل العماد أشواقه إلى دمشق وأهلها مع الراحلين إليها فيقول :

أيّاً راكبٍ النُضُو يُنْضِي الرُّكَّابَ تَمِيرُ وَخَطْبُ مُرَاهِ يَمِيرُ
يَوْمُ دَمَشَقٍ وَمِنْ دُونِهَا تُجَادِبُ سَهْلُ الْفَلَا وَالْوَعُورُ
وَجَلْتُ مَقْصَدَهُ الْمَسْتَجَارَ لَقَدْ مَعَدَ الْقَاصِدُ الْمُسْتَجِيرُ
إِذَا مَا بَلَغْتَ بِلْفَهْمُ سَلَاماً تَسَارُجَ مِنْهُ الْعَبِيرُ
تَطَاوَلُ بِسَوْلي عِنْدَ الْقُصَيْرِ ^(٤) فَمَنْ نَيْلَهُ الْيَوْمَ بَاعِي قَصِيرُ
وَكُنْ لِي بَرِيداً بِبَابِ الْبَرِيدِ ^(٥) فَأَنْتَ بِأَخْيَارِ شَوْقِي خَبِيرُ ^(٦)

وتبقى العودة إلى دمشق أملاً جميلاً يراود العماد فيتمنى العودة إليها ويسأل نفسه أسئلة كلها بالأمل بالعودة ، فإن تحقق مراده ، فذلك حظ عظيم كما يقول :

(١) بردى : أعظم أنهر دمشق مخرجه من قرية يقال لها قنوا من كورة الزبداني على خمسة فراسخ من دمشق مما يلي بعلبك يصب إلى قرية تُعرف بالفيجة على فرسخين من النهر (معجم البلدان ٣٧٨/١) .

(٢) الديوان : ١٨٥ .

(٣) نفسه : ١٨٥ .

(٤) القصير : أول منزل لمن يخرج من دمشق قاصداً حمص (معجم البلدان ٣٦٧/٤) .

(٥) باب البريد : هو الباب الغربي لجامع دمشق (معجم البلدان ٤٦٦/٢) ، ونزهة الأنام في محاسن الشام أبو البقاء ، القاهرة ١٣٤١ ، ص ٥٦) .

(٦) الديوان ، ١٨٦ .

ويا طيبَ بُشْرَايَ من « جَلَّتِي »
ويستبشر الأصدقاء الكرامُ
تري بالسلامة موجاً يكون
وأنَّ جِوَارِي «باب الصنير»
إذا جاءني بالنجاح البشيرُ
هنالك بي ، وتوفِّي النذور
«باب السلامة»^(١) مني عبور
لعمري من العمر حظٌ كبيرٌ^(٢)

لا يلام العماد في حبه لدمشق وتشوقه إليها ، ففيها قضى زمناً سعيداً في كنف نور الدين ، فقد اعتمد عليه السلطان في كثير من الأمور ، وليس من السهل والامر كذلك أن ينسى النعيم الذي عاشه في ظل الدولة النورية ، بعد حرمانه من ذلك النعيم ، ورحيله عن دمشق إلى الموصل ، فحين يتحدث عنها فإنها تعادل الجنة عنده فهو الذي يقول في وصفها :

وما جنةُ الخلد إلا دمشقُ وفي القلب شوقاً إليها سعيِرٌ^(٣)

وشوق العماد إلى كل ما في دمشق المدينة ميادينها وجامعها ، وأبوابها ، ويجعل أكثر من نصف القصيدة في الشوق والحنين إلى تلك المدينة التي أحبها وعشق جمالها ، وحين يعود إلى دمشق ويعيش في بلاط صلاح الدين فإن نفسه لا تطاوعه علي مغادرتها ، وإذا ما غادرها إلى مصر ، فإنه يعتذر إلى أهله ، ويعدُّ رحيله عنها ذنباً كبيراً ، لا بل نائبة من أشد نوابب الدهر ، وهو وإن سار إلى مصر فإن قلبه متعلق بدمشق لا بل أسير محبتها كما يقول :

هجرتكم لا عن ملالٍ ولا عَدْرِ
وأعلمُ أنني مخطئٌ في فراقكم
أرى نوباً للدهرِ تحضى وما أرى
بعيني إلى لقباً سواكم غشاوةً
وقلبي وصَدْرِي فارقاني لبُعدكم
وإنِّي على العهدِ الذي تعهدونهُ
تجرعتُ صرفَ الهمِّ من كأسِ شوقكم
ولكن لمقدورٍ أتيحَ من الأمرِ
وعُدْرِي في ذنبي، وذنبِي في عُدْرِي
أشدُّ من الهجرانِ في نوبِ الدهرِ
وسمعي إلى نجوى سواكم لندو وقَرِ
فلا صدرٌ في قلبي ، ولا قلبٌ في صدري
ومري لكم سرِّي ، وجهري لكم جهري
فها أنا في صحْوِي نزيفٌ من السكرِ

(١) باب السلامة : باب من أبواب مدينة دمشق (نزهة الأنام ، ٩٢) .

(٢) الديوان : ١٨٧ .

(٣) نغمه : ١٨٧ .

وإنَّ زماناً ليسَ يعمرُ موطني
وأقسمُ لو لم يقسمَ البينُ بيننا
أسيرُ إلى مصر ، وقلبي أسيركم
أخلاي قد شطَّ المزارُ ، فأرسلوا الـ
بسكناكم فيه فليس من العمر
جوى الهمُّ ما أمسيت منقسم الفكر
ومن عجب أسري وقلبي في أسر
خيال ، وزوروا في الكرى، واربحوا أجري^(١)

ويتذكر العماد أحبابه بجلق بعد ما رحل عنهم ويطلب منهم أن يرحموا فقره
الناجم عن تنائيهم بالتداني ، ثم يصف ما يكابده في رحلته إلى مصر من لواعج
الشوق إلى ربوع دمشق فيذكر مراحل الطريق وما يلاقيه من عذاب جسدي
ونفسي . يقول :

تذكرتُ أحبائي بجلقَ بعدما
أخلاي فقري في التناهي اليكُم
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
ولما قصدنا من دمشق (غباغب)^(٢)
نزلنا برأس الماء عند داعنا
نزلنا بصحراء الفقيع^(٣) وغودرت
ونهنئت (بالفوار)^(٤) قور مدامعي
سرينا إلى (الزرقاء)^(٥) منها، ومن يصب
أعادتك يا زرقاء حمراء أدمعي
وسود هومي سودت بيض أزمني
أيا ليل ، زد ما شئت طولاً وظلمة
تذكرت (حمام القصير)^(٦) وأهله

ترحلتُ ، والمشتاقُ يأنسُ بالذكرِ
بحق غناكم بالتلاني أرحنوا فقري
فأسبلتُ دمعي للبكاء على صبري
وبتنا من الشوق المضى على الجمرِ
موارد من ماء الدموع التي تجري
فواقع من فيض المدامغ في الغدرِ
ففاضت وباحت بالكنم من سرري
أواماً يتر حتى يرى الورد أو يسر
فقد مزجت زرق الموارد بالحمرِ
فيومي بلا سورٍ ويلي بلا فجرِ
فقد أذهبت منك المناظمة الهجر
وقد جزت بالحمام في البلد الفقير

(١) الديوان : ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) غباغب : قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ (معجم البلدان ١٨٤/٤) .

(٣) الفقيع : قرية في أول عمل حوران من ناحية دمشق (الروضتين ، هامش ٥ ، ج ١ ، ق ٢ ، ٦٨١) .

(٤) الفوار : اسم مكان قريب من دمشق كانت تجتمع فيه الجيوش (مفرج الكروب ٢٢٧/١) .

(٥) الزرقاء : بين حناصرة وسورية من أعمال حلب وسلمية ، وهي ركية عظيمة إذ وردها جميع العرب
كفتهم (معجم البلدان ١٣٧/٣) .

(٦) حمام القصير ، سقت الإشارة إلى القصير .

وبالقريتين القريتين ، وأين من مغاني الغواني منزل الأدم والعفر^(١)

وعندما وصل العماد إلى مصر سنة خمسمئة واثنان وسبعون كتب قصيدة في مدح (عز الدين فروخ شاه)^(٢) ، تشوق فيها إلى الجماعة في الشام ، وعدّ فراقهم ضرباً من السفاهة فقال :

أرعى نجوم الليل فيكم ساهراً	بنجوم دمع أوجها في الأوجه
خطبُ الفراقِ مُدِّهتُ منه وإنِّي	للنائبَاتِ أمَّدَّها لم أمَّدَّه
نظري إليكم كان إثمَدَ ناظري	وبقيتُ أمرِي خَلْفَ جفنِ أمره
وإذا ألمَّ خيالكم متأوِّباً	لاقيتهُ بتألُّمِ المشأوِّه
في شوقكم أبدأ الزمان تفكّري	وبذكركم عند الكرام تفكّهي
لو قيل لي : ما تشتهي من هذه الدُّ	دنيا ؟ لقلتُ : سواكم لا أمتهي
ما كان أرفهَ عيشتي وألذها	مَنْ ذا الذي يبقى بعيش أرفه ؟
ومن السفاهة أنِّي فارتككم	من أين ذو الحلم الذي لم ينفه ؟
وعقابُ «أيلة» ^(٣) ما يفارقُ «جلقاً»	أحدٌ إليها غيرُ غيرِ أبله
خَلَبَتْ غروبَ الشأنِ مني غربةٌ	في بلدةٍ شأني بها لم ينبه ^(٤)

لم يتخذ العماد مصر دار إقامة أو سكن ، بل أقام فيها فترات قصيرة ، ولذا فإنه حين كان يرحل عنها فإن شوقه إليها لم يكن يوازي بحال من الأحوال شوقه إلى دمشق أو بغداد ، وجاء شعره في الشوق إليها مقطوعات قصيرة مصنوعة ليس فيها حرارة الشوق ، ولا ألم الفراق ، فلا يحرك فيه الهجران غير الندم فنراه يقول عند رحيله عنها :

(١) الديوان : ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) فرخشاء بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخي صلاح الدين وكنيته أبو سعد لقبه عزالدين كان من الأفاضل ، كثير الصدقات متواضعاً سخياً ، وكان صلاح الدين قد استنابه بالشام ، وكان شامراً نصيحاً كانت وفاته سنة ٥٧٨هـ (مرآة الزمان ، ق ١ ، ج ٨ ، ص ٣٧٢) .

(٣) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام ، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام (معجم البلدان ، ٢٩٢/١) .

(٤) الديوان : ٤٤٨ .

أيا ساكني مصر عفا الله عنكم
أبيت على هجرانكم متندماً
فإن كتتم لم تعلموا ما لقيته
بقيتم ، وعشتهم سالمين من الأذى
وعافاكم مما ألقىه منكم
ومن بينا عنكم كيف لا يتندم
من الوجد والأشواق فالله يعلم
ومنة قلبي أن تعيشوا وتسلموا^(١)

وحين يتشوق العماد لأصدقائه في القاهرة فإنه يظهر أسفه على العيش

الرضي الذي تقضى بسرعة ، فيقول :

للله عيش تقضى عندكم ومضى
العيش دان جناة الغرض عندكم
ما كنت أعهد منكم ذا الجفاء ولا
قد أظلم الأفق في عيني لغيبكم
طوبى لكم مصر والدار التي قضيت
وكان مثل سحاب برقه ومضا
والقلب محترق مني بجمر غضا
حسبت أن ودادي عندكم رفا
فإن أذنت لشخصي في الحضور أضا
فيها المأرب ، الأمر معترضا^(٢)

وفي قصيدة أخرى يذكر العماد طيب الحياة في مصر ، ويتأسف عليها

ويتمنى رجوعها ، فيقول :

ساكني مصر هناكم طيها
لا عدتم راحة من قربها
لا تركت الغمض يغشى ناظري
لا وأيام اجتماعي بكم
أنتم روحي وأنتم منيتي
ليتي لما دعا داعي النوى
ليت مصرأ عرفت أني وإن
فمتى أظفر من قربكم
ومتى أحصل بالوصل على الـ
ومتى أطلع في أفقكم
إن عيشي بعدكم لم يطب
فأنا من بعدها في تعب
لا ولا طيب الكرى يأنس بي
إنها كانت زمان الطرب
أنتم مؤلي وأنتم أرمسي
بي من بينكم لم أجب
غبت عنها فالهوى لم يغب
يا أخلاي بنجح الطلب
واصل المرتقب المقرب
قمرأ يجمع شمل الشهب^(٣)

(١) الديوان : ٢٧٩ .

(٢) نفسه : ٢٦٠-٢٦١ .

(٣) نفسه : ٧٨-٧٩ .

يقول العماد إنه نظم هذه الأبيات سنة خمسمئة وثلاث وسبعين في الشوق إلى مصر بعد مفارقتها^(١) ، والصحيح كما يبدو من الأبيات أنه قد تكلف إظهار الشوق إلى مصر بعد مفارقتها ، . لكنه أخفق في هذه المحاولة ، لأنه لم يكن يملك المشاعر الصادقة فجاءت أبياته نظماً سقيماً ، وألفاظاً جوفاء ، خالية من الصور الجميلة ، والمعاني الإنسانية النبيلة التي تفجرها مواقف الفراق والرحيل .

(١) الديوان : ٧٨ .

- الإخوانيات :

الإخوانيات قصائد تصور العلاقات الاجتماعية والإنسانية بين الناس ، ويمكن أن نُسَمِّي هذا الشعر شعر المناسبات ، أو الشعر الاجتماعي لأنه يتحدث عن العلاقات الاجتماعية ، وقد شاع هذا الفن في العصر العباسي وبخاصة في أواخره ^(١) .

وفي هذا اللون من الشعر نجد العتاب والاعتذار والمداعبة وأطرافاً من الصداقة والمحبة ، وفيها بعض المطالب في تلبية حاجة من الحاجات ، وكلما اتسعت معارف الشاعر وصداقاته نما هذا اللون وازداد ، ولا يخفى على المطلع ما حققه العماد من شهرة وعلاقات اجتماعية واسعة في ظل السلاطين ، وما إخوانياته هذه ، إلا صدىً لحياة الدعة والترف والبذخ التي كان يحيها في ظلل الملوك وفي ظل صلاح الدين بخاصة ^(٢) .

لقد كوّن العماد خلال حياته القريبة من مراكز السلطة علاقات واسعة عكستها كثرة إخوانياته التي وصلت إلينا في ديوانه ، والتي قالها في مناسبات مختلفة مع أصدقائه من شعراء عصره وكتابه وعلماؤه .

ومن الإخوان والأصدقاء الذين خصهم العماد بأشعار تترجم أشواقه وإعجابه ومداعباته : القاضي الفاضل الذي ارتبط به بعلاقات وثيقة ، فقال معبراً عن متانة هذه الصلة :

لا صبح إلا وجهك المتهلل	الدهر ليل كله في ناظري
لا تهجروا فالموت عندي أسهل	خيرتم بين النية والنوى
إن كنت أنكر فضلكم أو أجهل ^(٣)	ما كان منكر فضل حقي جاهلاً

ويرسل إلى القاضي الفاضل سنة خمسمئة وثلاث وسبعين مقطوعة ، تغلب عليها الدعابة ، يبين فيها أنه وقع في الغرور حين قدم إلى مصر ، فلم يجد شيئاً مما سمع به أو توقعه قبل قدومه إليها ، فجاء أملاً في نواله ، يقول :

(١) جامع الديوان ، المقدمة : ٤٤ .

(٢) علي مظفر سلطان ، العماد حياته وأدبه : ١٧٢ .

(٣) الديوان : ٢٣٩ .

قيل في مصر نائل عدد الرهد
فاغتررنا بها وسرنا إليها
وحظينا بالرمل والسير فيه
ل ، ووفر كئيلها المفور
وروقنا - كما ترى - في الغرور
ومنعا من نيلها الميسور^(١)

يبدو التهكم واضحاً في هذه الأبيات ، ولا تقبل إلا إذا كانت بين أصدقاء تربط
بينهم أمتن الروابط ، وهذا ما كان بين العماد والقاضي الفاضل مما سمح للعماد أن
يستخدم هذا الأسلوب في مخاطبته .

ومن أصدقاء العماد الذين جرى بينه وبينهم مراسلات اشتملت على أشعار
فيها شيء من الطرافة (الرئيس أبو الفرج العلاء بن علي الواسطي)^(٢) فقد طلب
من العماد أن يساعده في فض نزاع بينه وبين الصوفية في أمر غرفة له ، ويصف
ذلك بقوله : « وكان عند رباط قراجة » (بواسط) يأوي إلى غرفة على شاطئ دجلة
فجرت بينه وبين الصوفية منافرة ، وخلقى الغرفة ثم أرادها لإلفة بها ولقربها من
قلبه ، فكتب إليّ بأن أخذها له ، وعاتبني في رقعة نظماً فأجبتة على وزن شعره
بهذه الكلمة ، وفيها يبدي أعذاره طالباً قبولها ، واصفاً نفسه بصدق النية مع
أصدقائه ، وعفة النفس مغرباً صديقه بالإقبال على وصله ، يقول :

يا مهدياً ، بكتابه وعتابه
حملتني أُنقال عبي خفتها
وأراك لا يؤويك إلا غرفة
وقعت من طيف الخيال بزورة
فاكف كُفيتَ الذم ، كف ملامتي
في غرفة ، أنهاها من تحتها
بالغت في عتبي ، فهل من أوبة
أنا من صَفَت لصديقه نيّاته
وعفت رسوم مطامعي إذ عَفَتها
كلما شَفَت ، وكلوم لوم شَفَتِ
لكن على قلبي ، لودك خَفَتِ
تشاقها ، أطيّب بها من غرفة
ورضيت من برق الوصال بخطفة
فالمذر متضح إذا ما كُفَتِ
تجري ، ففَرَمَنها ، هُدَيْتَ بغرفة
وعدلتَ عن ودّي ، فهل من عطفة
فحكى الذي أبدته عما أخَفَتِ
فمطالبي عزّت ، ونفسي عَفَتِ

(١) الديوان : ٢٠٨ .

(٢) الرئيس أبو الفرج بن المجد الواسطي ، من الفُراتية ، كان شيخاً مسنأ ، صار شاعراً ، وبلغ ستاً وتسعين
سنة ، (الخريدة ، قسم العراق ، ج ٤ ، مجلد ٢ ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦) .

فأقبل معاذيري ، وعد نحو الرضا والحمد ، واثمف مودة قد أشفّت^(١)

وفي قصيدة أخرى يكتبها العماد رداً على قصيدة تلقاها من صديقه (أبو الفرج الواسطي) يقدم لصديقه النصح في المنافرة التي جرت بينه وبين الصوفية، يقول :

يا حاكياً فضل الخليل	ل ، وناشراً علم المبرّد
وتجمعت فيه الفضا	ثل كلها ، وبها تسفرد
أهديت لي شعراً هدي	تُ بنجمه لما توقّد
إسمع هديت نصيحتي	فالنصح لي بالصدق يشهد
عدّ ، وارض عن أهل الربا	ط ، وأرضهم ، فالعود أحمد
لاطفهم ، فالمرء يـ	بلغ بالتظلف كل مقصد ^(٢)

والتهادي بين الأصدقاء شيء مألوف ، وقد يطلب الصديق من صديقه أن يرسل إليه حاجة لا يجدها في بلده ، ونجد في شعر العماد صدى لمثل هذه العلاقات بين الأصدقاء ، ومثال ذلك الأبيات التي يردّ بها على (سيط ابن التعاويذي) الذي طلب من العماد أن يرسل إليه فروة « وكتب من بغداد إليّ رسالة بالشام في طلب فروة وضمنها شعراً ، ومعاني حلوة ، وذلك في عهد نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وأنا متولي مملكته »^(٣) فعملت في جوابها هذه الأبيات وأنفذتها مع الفروة^(٤) ، وقد بدأ العماد قصيدته تلك متغزلاً ثم متحسراً على أيامه الجميلة في بغداد فقال :

بأبي معتدل القفا	مة في عطفه نشوة
حاكم في مهج العث	شاق لا يقبل رثوة

ثم قال :

آه ! والله في عبي	ش مضى في دار علوه
-------------------	-------------------

(١) الديوان ٩٤-٩٥ .

(٢) نفسه : ١٢٠-١٢١ .

(٣) العماد ، الخريدة ، قسم العراق ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

(٤) نفسه : ٤٥ .

حين كان الدهر للغف
يا أخلاي ب (بغدا
وأمتهم نائب الدهر
لة عن قصدي بنجوه
(د) سقيتم كل غدوه
ر ، وناكتم كل حظوة

ويعتذر لصديقه ابن التعاويذي ويمجد شاعريته ويجعله في مصاف الشعراء
الكبار أمثال (حسان بن ثابت) ^(١) و(عروة بن الورد) ^(٢) يقول :

وأنا المذنب فاطلب
يا «أبا الفتح» الذي أض
والذي حل من العد
وهو في الشعر وفي العد
لي من المحسن عفو
حي لأهل الفضل قذوة
بإاء في أسنن ذرّوه
سم ك «حسان» و«عروة» ^(٣)

ولا ينسى العماد الفروة التي جاءت من أجلها الرسالة فيبشر صديقه
بقدمها إليه ، فلا يخف من الشتاء ، يقول :

لا تخف من شتوة جا
ءت ، فقد جاءتك فروة ^(٤)

هذه بعض إخوانيات العماد ، التي اشتمل عليها الديوان ، تضمنت صوراً من
حياة المجتمع في القرن السادس الهجري ، واستطاع العماد بها أن ينقلنا إلى
الأجواء الاجتماعية لذلك العصر ، ويلاحظ على شعر هذا الاتجاه أنه شعر سهل في
معانيه قريب من الفهم ، فالشاعر لا يجهد نفسه في البحث عن المعاني ، بل يبدو
على الأبيات التي ينظمها أنه ينظمها من معانٍ قريبة مألوفة تلائم هذا الغرض .

(١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حزام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي ، ويكنى أبا الوليد ، وهو فحل من
فحول الشعراء ؛ وقد قيل أنه أشعر أهل المدر ، وكان أحد المعمرين من المخضرمين ، عمّر مائة وعشرين
سنة ، سُمي بشاعر الدعوة الإسلامية لدفاعه عن الإسلام وهجائه شعراء المشركين (أبو الفرج الأصفهاني ،
الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، ١٩٥٥ ، بيروت ، مجلد ٤ ، ص ١٢٨-١٧٤) .

(٢) عروة بن الورد بن يزيد شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها
المعدودين المقدمين الأجراء ، وكان يلقب عروة الصعاليك (الأغاني ، طبعة دار الثقافة ، مجلد ٣ ، ص
٧-٨٤) .

(٣) الديوان : ٤٤٩ .

(٤) نفسه : ٤٤٣ .

- الوصف :

لا تخلو حياة العماد الموزعة في المكان والزمان ؛ المليئة بالأحداث من أمور تستحق الوصف ؛ فقد عاش في المدن الكبيرة ، أمثال : أصفهان وبغداد والبصرة وواسط ودمشق والقاهرة ، واستأنس بمعالمها الحضارية وتنقل بين أحضان الطبيعة الجميلة واستمتع بمباهجها ومفاتيحها ، وصور ما شاهده ، ووصف ما أحس به ^(١) . وإلى جانب ذلك شهد العماد مع نور الدين وصلاح الدين ، معاركهم مع الفرنجة ، فكانت هذه المعارك مادة خصبة لشاعريته ليُبدع في وصفها ، فوصف هذه المعارك وصفاً دقيقاً ومفصلاً .

ويسير شعر الوصف عند العماد في اتجاهين : الأول يتعلق بمظاهر الطبيعة والحضارة ومشاهد الحياة اليومية ، وهذا الاتجاه هو الذي يهمننا في هذا المقام ، وسيكون مدار البحث هنا . وأما الاتجاه الثاني فهو المتعلق بوصف المعارك وما يتعلق بها ، وسيكون الحديث عنه في شعر الجهاد .

- المدينة في شعر العماد :

عاش العماد معظم حياته في المدن مثل بغداد ودمشق والقاهرة ، وأمضى فترة طويلة من حياته في ربوع دمشق في خدمة السلطان نور الدين ومن بعده صلاح الدين ، وكانت دمشق في القرن السادس تزدهي بمساجدها ومدارسها ومارستاناتها وحماماتها وأسواقها العامرة وبساتينها الغناء ، وساحاتها الجميلة ، وينابيعها القديمة . وقد ملكت دمشق على شاعرنا نفسه بجمالها ، فوصفها بأجمل الأوصاف وجعلها دُرّة الزمان ليس لها مثيل بين بلدان الدنيا جميعاً ، فنراه يقول في وصفها :

ليس في الدنيا جميعاً بلدةً مثل دمشق ^(٢)

ولم يكتف العماد بأن جعل دمشق مدينة لا مثيل لها في الدنيا جميعاً ؛ بل جعلها جنة الخلد في القصيدة التي قالها متشوقاً إليها ومتأسفاً عليها ، وربط بين التشوق إليها ومدح السلطان صلاح الدين فقال معظماً لها ومتشوقاً لربوعها :

(١) جامع الديوان ، المقدمة : ٢٢-٢٣ .

(٢) الديوان : ٣١٤ .

وما جنة الخلد إلا دمشقُ وفي القلب شوقاً إليها سعيراً^(١)

ويرسم العماد في هذه القصيدة لوحة جميلة لمدينة دمشق يكشف فيها عن مظاهر الجمال فيها إذ يصف أحياءها وميادينها وجوامعها وقبابها وسكانها ، يقول:

ميادينها الحضرُ فيحُ الرّحَابِ
وجامعها الرّحْبُ والقُبَّةُ الـ
وفي (قبة النسر)^(٢) لي سادةٌ
(باب الفرديس)^(٣) فردوسها
وسلماتها العذبُ صافٍ نَمِيرُ
مُنيفةٌ ، والفلكُ المُتديِرُ
بهم للمكارمِ أفقٌ مُنيرُ
وسكانها أحسنُ الخلقِ حورُ^(٤)

ولا ينسى العماد في حديثه عن دمشق وجمالها أن يذكر أسماء بعض الأماكن ، ويتغنى بجمالها ومحاسنها ، يقول :

وعند (المغارة)^(٥) يوم الخميس
وعند (المنبيع)^(٦) عين الحياة
بجسر ابن شواش^(٧) تمّ السكون
وما أنسنَ لا أنسَ أنسَ العبورِ
أغارَ على القلبِ مني مُغِيرُ
مدى الدهرِ نابعةٌ ما تغورُ
لنفسى ، بنفسي تلكَ الجسورُ
على جسر (جسرين)^(٨) إنسى جسورُ

(١) الديوان : ١٨٧ .

(٢) قبة النسر : من قباب مسجد دمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك ، يقال إنه ليس في دمشق أعلى ولا أبهى منظراً منها (معجم البلدان ٤٦٧/٢) .

(٣) باب الفرديس : أحد أبواب جامع دمشق وهو في دبر القبلة ، ينسب إلى محلة الفرديس يقع في شمال دمشق (معجم البلدان ٤٦٦/٢ ، ونزهة الأنام ، ص ٢٥) .

(٤) الديوان : ١٨٨ .

(٥) المغارة : هي مغارة الدم ، وهي مغارة حسنة تزار وتقع في سفح جبل قاسيون (معجم البلدان ، ٤٦٤/٢) .

(٦) المنبيع : محلة وسويقة وحمام وأفران وبها مدرسة الخاتونية ، وهي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها نهر (بانياس) (نزهة الأنام ، ص ٧٦ ، ٧٧) .

(٧) جسر ابن شواش : موضع في دمشق فيه متنزها ينسب إلى رجل يعرف بهذا الاسم . (معجم البلدان ، ٢٧٠/٢)

(٨) جسر جسرين : جسرين من قرى غوطة دمشق (معجم البلدان ١٤٠/٢) .

فَأَيَّنَ اغْبَاطِيَّ (بالغُوطِطَيْنِ) ^(١) وتلكَ اللَّيَّالِي ، وتلكَ القُصُورُ ^(٢)

ويصف لنا فيها جمال أشجارها وطيب نسيمها ونضارة رياضها وأزهارها ، ويشبهه كمائم نوارها بنوع من الحلي الذي تتزين به النساء ، يقول :

وأشجارُ (سَطْرِي) ^(٣) بدتْ كالسَطُورِ	ر ، نَمَّقَهْنَ البليغُ البصيرُ
وَأَيَّنَ تَأَمَّلْتَ فُلْكَ يَدُورُ	وعينُ تَفُورُ ، وبحرٌ يَمُورُ
وَأَيَّنَ نَظَرْتَ نَسِيمٌ يَبْرُقُ	وزهرٌ يَرُوقُ ، وروضٌ نَضِيرُ
كأنَّ كَمَائِمَ نُورِهَا	مُنُوفٌ تَرَكَّبُ فِيهَا مُنُورُ
ومثل اللآلي سقيطُ الندى	على كلِّ مشورٍ نورٍ نيسرُ ^(٤)

وللعماد قصيدة أخرى في وصف دمشق ، عرض فيها لمظاهر الجمال فيها ، ورتب القصيدة على شكل لوحات تضم كل واحدة منها مظهراً جمالياً واحداً ، وأول هذه اللوحات : لوحة العطور . وهي لوحة تفوح من أركانها عطور دمشق ورياحينها ، وكأنها قادمة من الجنة ، ويجعل هذه اللوحة مقدمة لقصيدته ، يقول :

أهدى النسيم لنا رياً الرياحين	أم طيبَ أخلاق جيرانِي (بحيرون)
هبت لنا نَفْحَةٌ من جلتى سحرأ	باحتَ بسرٍ من الفردوسِ مكنونِ
وفاح بالعرف من أرجائها أريج	نال المسرة منه كل محزونِ
هبت تبيته أطرافِي وتبعثها	مني وتوجب للهويم تهويني
وما درينا (دارياً) ^(٥) لنا أرجت	أم دار في دارنا عطسار (دارين) ^(٦)
نسرِي ورتاح الامتنشاء رائحة	هبت سحيراً على وردٍ ونسرين ^(٧)

(١) الغوطتين : الغوطة هي الكورة التي فيها دمشق ، كلها أشجار وأنهار متصلة ، وهي إحدى جنات الأرض . (معجم البلدان ٢١٨/٤) .

(٢) الديوان : ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣) سطرية قرية من قرى دمشق (معجم البلدان ٢٢٠/٣) .

(٤) الديوان : ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٥) دارياً : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة (معجم البلدان ٤٣١/٢) .

(٦) دارين : فرخة بالبحر تجلب إليها المسك من الهند والنسبة إليها داري (معجم البلدان ٤٣٢/٢) .

(٧) الديوان : ٤٣١ .

وتتفوق دمشق بجمالها وروعتها على كل البلدان المنتشرة من مصر إلى الصين ، ولها فضائل يصعب حصرها كما يقول العماد :

دمشق عندي لا تُحصى فضائلها عدأ وحصرأ ويحصي رمل (بيرين)^(١)
وما أرى بلدة أخرى تماثلها في الحسن من مصر حتى منتهى الصين^(٢)

والحياة في دمشق كما يصورها العماد ممتعة لذيدة حتى أن ساعة يقضيها المرء في ربوعها تساوي العمر كله في غيرها . ومن يبيع العمر كله بساعة في دمشق فإنه رابح غير مغبون ، يقول :

وإن من باع كل العمر مقتنعاً بساعة في دارها غير مغبون^(٣)

واللوحة الثانية : لوحة النعيم ، فدمشق دار نعيم برياضها وأزهارها الجميلة . وبثمارها التي لا تنقطع في كل الفصول ، يقول واصفاً هذه اللوحة :

دارُ النعيمِ ومن أدنى محاسنها ثمارٌ تموزُ في أيامِ كانونِ
نعيمها غيرُ ممنوعٍ لساكنها كالخلدِ والمنِّ فيها غيرُ ممنونِ
كأنما هي للأبرارِ قد فُحِتْ من الفرديسِ أبوابُ البساتينِ
أزهارها أبداً في الرّوضِ موقنةٌ فحسُنُ نَيْمانِ موصولٍ بتشّرينِ
وأىُّ عينٍ إليها غيرُ ناظرةٍ وأىُّ قلبٍ عليها غيرُ مفتونِ^(٤)

وأما اللوحة الثالثة فهي لوحة الطيور ، وهي من لوحات الجمال الدمشقية التي رسمها العماد بدقة ، وأسمعنا منها ألحاناً شجيةً تهيج القلب ، فالورق تتلو أساطير الغرام على صوامع الدوح كأنها الرهبان ، والقمرى يتلو ألحاناً شجية كأنها صوت مقرئ يرتل القرآن وهديل حمانمها كأنه الأدعية ، وهكذا تبدو هذه اللوحة مصدراً لموسيقى جميلة يرددها العماد في هذه الأبيات ، إذ يقول :

(١) قرية من قرى حمص (معجم البلدان ١/٥٢٦) .

(٢) الديوان : ٤٣٢ .

(٣) نفسه : ٤٣٢ .

(٤) نفسه : ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

هاجت بلابل قلبي المستهام بها
تتلو (بسطرى) أساطير الغرام على
قمريةا مقريء يشدو بنغمته
وللحمام في الأسحار أدعية
خافت على الروض من عين مطوقة
من كل مطرب صوت غير مضطرب

بلابل الأيك غتنا بتلحين
صوامع السدوح ورق كالرهابين
آياً تعلمها من غير تلقين
مرفوعة شُفعت منا بتأمين
أضحت تعوده منها يياسين
وكل معرب لفظ غير ملحون^(١)

أما اللوحة الرابعة ، فهي لوحة البساتين بأنهارها وأشجارها ، وتبدو في هذه اللوحة الأشجار متسقة في صفوفها كأنها الخيول التي اصطفت في ميدان القتال ، وجرت الأنهار بين هذه الأشجار عبر البساتين كأنها الثعابين ، يقول العماد :

وللبساتين أنهاراً جداولها
وقد تراءت بها الأشجار تحسبها
كأنها شجر الرمان ذو نقبٍ
تستن في الجري أمثال الثعابين
صفوف خيل صفون في الميادين
مُنر دنائره ملء الهمالين^(٢)

وأما اللوحة الخامسة فهي لوحة الأزهار ، التي تضم الأقحوان والنرجس والبنفسج والورد . ويشبه الشاعر الورد في هذه اللوحة بالفتيات الحسان ، فالأقحوان كأنه ثغور الغانيات ، والنرجس كأنه عيون المها ، يقول العماد في هذه اللوحة معتمداً على التشبيهات :

للأقحوان ثغور الغانيات كما
وللبنفسج خال للعنار إذا
والورد خد من التوريد في خجل
للنرجس الغض الحاظ المها العين
ما الخط بالخال حاكي عطفة النون
والغصن قد تثنيه من اللين^(٣)

أما اللوحة السادسة فإنها لوحة الماء ، وفيها يرسم العماد صورة للغير ، وللسواقي ويظهر سطح الغير متموجاً بفعل حركة النسيم كأنه زرد الدرع ، يقول

(١) الديوان : ٤٣٣ .

(٢) نفسه : ٤٣٣-٤٣٤ .

(٣) نفسه : ٤٣٤ .

واصفاً الغدير والسواقي :

وللنسيم ولوعٌ بالغدير فما
يزال ما بين تفريك وتغضين
والماء من نكبه النكباء في زرد
مضاعف المررد ضافي النسج موزون
لكل جارية في كل ساقية
على التواء بها إسراع تنين^(١)

واللوحة السابعة وهي آخر اللوحات فهي : لوحة الجمال الأنثوي يرسمها
العماد ليكمل الصورة التي يمزج فيها بين الإنسان والطبيعة الجميلة . ويبرز في
هذه اللوحة الأخيرة أثر الجمال الأنثوي في القلوب ، يقول :

إن القلوب وأحباط الحسان بها
لكالمصافير في أيدي الشواهيـن
من كل خاطفة للقلب مخطفة
بالخصر تطلني ديني وتكويني
من ثادنٍ مثني العطف معتدل الـ
قوام مستعذب الأخلاق موزون^(٢)

لقد صورَ العماد في قصيدته هذه مظاهر الجمال في دمشق ، وتأنى في
رسمها ، فأخرج لنا صورة جميلة ، ضمت عدداً من اللوحات التي عكست جمال
المدينة وروعها .

- الروض في شعر العماد :

وصف العماد الرياض في غير ما موضع من قصائده ، لا سيما في قصائد
المديح التي مدح بها الخلفاء والسلاطين ، وكان يجعل من هذه الأوصاف مقابلاً
لأوصاف المدوح ، فالروضة بجمالها ليست أفضل من أخلاق مدوحه ، ولا أفضل
من مدحته فيه . ويطول وصف الرياض أو يقصر حسب منزلة المدوح عند العماد،
وغالباً ما يبدأ وصف الروض بعبارة (وما روضة غناء) ثم يذكر بعد ذلك مظاهر
الجمال في هذا الروض من نسيم عليل ، وأزهار متفتحة ، وحمائم تغني على
الأشجار يقول من قصيدة مدح بها الخليفة (المستنجد) سنة تسع وخمسين
وخمسة :

(١) الديوان : ٤٢٤-٤٣٥ .

(٢) نفسه : ٤٣٥ .

ما روضة غناء حالية
 فعرانس الأغصان قد جليت
 وتمايلت أزهارها سحرأ
 فلكل نور نور ثاقبة
 دُرَّان من طل على زهر
 إذكل هاتفة وهاتفة
 فالورق في نوح وفي طرب
 بأتم حسناً من مدائح لي

وشياً تحليه يد الرقـم
 في زهرها بالوشي والوسم
 بنسيمه المتراض النسم
 ولكل نجمة ستاً نجم
 يا حسنه نقرأ على نظم
 مشفولة بالسجع والسجم
 والوجد في بوح وفي كتم
 فيكم منزهة عن الوسم^(١)

ومن قصيدة يمدح بها صلاح الدين يصف روضة غناء جميلة بأزهارها
 وغدرانها وأشجارها التي تبدو في صفوف منسقة كأنها سطور الكتاب ، وحمائمها
 التي تغني على أعوادها ، هذه الروضة الساحرة بجمالها ليست بأزكى ولا أذكى من
 السلطان . يقول :

وما روضة غناء حسناً كما
 إذا قاذني للترجس النضر ناضر
 وللورد خد للحياء مورد
 تلوح به الأشجار صفاً كأنها
 تُغني على أعوادها الورق مثلما
 كأن سقيط الطل عبرة مغرم
 ترى لحيماً الشمس من هامر الحيا
 بأزكى وأذكى منك حسناً وإنما

لوارفها من نسج نوارها مرط
 تلاء عذار للبنفسج مختط
 وللبان قد جوده أبدا يعطو
 سطور كتاب والغدير لها كشط
 يرتل للتوراة ألحانها سبط
 وبارقة من نار لوعته سقطة
 لثام حياء دونه ليس يتحط
 بحسناك لا بالروض للعائد الغبط^(٢)

وفي قصيدته التي يمدح بها الوزير (عضدالدين) ينقلنا العماد إلى روضة
 جميلة ، تشفي أنفاس نسائمها العليقة كل معتل ، ويتردد فيها هديل الحمام ،
 وتنوح بها الورقاء مفعوجة كأنها ثكلى ، كل هذه الصفات الجمالية للروضة لا
 تعادل صفات الوزير إذا ما قيست بها ، فالوزير بأخلاقه متفوق عليها كما يصوره

(١) الديوان : ٤٠٦ .

(٢) نفسه : ٢٨٠ .

العماد، يقول :

وما روضة غناء مرهومة الثرى
شمالها طابت ، وطاب شمالها
تُردِّدُ أنفاسَ النسيمِ عليلةً
تهبُّ الصَّبَا فيها بليلاً بليلاً
لها من ثغورِ الأقحوانِ تِسْمٌ
كأنَّ نَعَامَهَا تَبْلُغُ نَحُونَا
تُورِّجُ أَرْجَاءَ الرِّضَاءِ كَأَنَّمَا
مرجعةٌ فوقَ العِصُونِ حَمَامُهَا
تنوحُ بها الورقاءُ شجوراً كأنَّهَا
مطوّقةٌ أبلتْ سوادَ حَدَادِهَا
بأحسنَ من أخلاقك الزَّهْرِ بهجة

مُضَوِّعَةُ الْأَسْحَارِ طَيِّبَةُ الْفِصْلِ
سَقَّتْهَا شَمُولاً عِنْدَ مَجْتَمَعِ الشَّمْلِ
عَلَيْهَا ، فَيُشْفِي مَرُهَا كُلَّ مَعْتَلٍ
عَلَى زَهْرٍ مِنْ عِبْرَةِ الطَّلِّ مَبْتَلٍ
وَتَنْظُرُ عَنْ أَحْدَاقِ نَرَجِسِهَا النَّجْلِ
تَحَايَا قَرَأَنَاهَا عَلَى أَلْسِنِ الرَّسْلِ
تَجَاسَلُ فِي حَمْلِ التَّحِيَةِ عَنِ جُمْلِ
فَنُونَ هَدِيْلٍ بَيْنَ أَفْنَانِهَا الْهَدْلِ
مَفْجَعَةٌ بَيْنَ الْحَمَائِمِ بِالْكَفْلِ
فَفِي الْجَيْدِ بَاقٍ مِنْهُ طَوْقٌ لَهُ كُحْلِي
وَأَذَكِي وَأَزَكِي مِنْ مَجِيَّتِكَ الرَّسْلِ^(١)

يلاحظ على وصف الرياض عند العماد أنه جاء وسيلة لا غاية ، فهو وسيلة لتجويد المدح ، فلانجد في ديوانه قصيدة واحدة قالها في وصف الرياض ، واقتصر وصفه للرياض على المدائح يجعلها في مقابل صورة المدوح ، أو مقابل مدحته في المدوح ، ويتفنن ويتأنق في رسمها ، ثم يجعل مدوحه يتفوق عليها بصفة من صفاته ، أو يفضل مدحته عليها ، وغرضه من ذلك تجويد المدح ، والتقرب من المدوح لنيل إعطياته .

- وصف الأطعمة :

عُرِفَتْ بِلَادِ الشَّامِ بِكَثْرَةِ خَيْرَاتِهَا ، وَوَفْرَةِ خَضَارِهَا وَفَوَاكِهَهَا ، وَكَانَتْ دِمَشْقُ عَامِرَةً بِبَسَاتِينِهَا ، وَأَسْوَاقِهَا عَامِرَةً بِأَصْنَافِ الْخَضَارِ وَالْفَوَاكِهِ وَالْأَطْعَمَةِ اللَّذِيذَةِ عَلَى مُخْتَلَفِ أَنْوَاعِهَا^(٢) ، وَعَلَى مِدَارِ السَّنَةِ حَتَّى قَالَ عَنْهَا الْعِمَادُ :

دار النعيم ومن أدنى محاسنها
ثمار تموز في أيام كانون^(٣)

(١) الديوان : ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) نزهة الأنام : ١٨٧ وما بعدها .

(٣) نفسه : ٤٣٢ .

ومن هذه الثمار التي وصفها العماد ، ثمار المشمش ، فقد أعجب بها ووصفها
أوصافاً جميلة في غير ما مناسبة ، وقد عُرف عن دمشق اشتهاؤها بالمشمش
وتميّزها بأصناف فريدة منه ^(١) ، وثمار هذه الفاكهة جميلة في شكلها جذابة في
لونها ، طيبة في رائحتها ، لذيدة في طعمها ، وحين يُدعى العماد إلى أكلها فإنه
يهزول مسرعاً ، طالباً المزيد منها ، ونجد في ديوانه أبياتاً من قصيدة يرد فيها
على دعوة تلقاها من صديقه (نشو الدولة) ^(٢) سنة خمسمئة وثمان وثمانين أوان
نضوج المشمش ، يقول فيها مصوراً تلك الثمار تصوير مفتون بها ، وأنشد
القصيدة للسلطان صلاح الدين :

تغنم زمان الجود في اللهو واسبق	وفز واجتماع التمثل قبل التفرق
هلموا نسابق نحو مشمش جلق	وتم لما نهوى على الأكل نلتقي
تصفر شوقاً لانتظار قلوبنا	ومن يتعشق ذا الفضائل يشتق
وما رمقت للشوق رمد عيونه	فإن تفرق منه تنظر وترفق ^(٣)

يبدو العماد في هذه القصيدة مفتوناً بثمار المشمش ؛ فأبدع في تصويرها
في حالاتها المختلفة فهي على الأطباق تسلب العقول بجمالها ، وعند الأكل شهية
لذيدة كأن الشهد مذابٌ فيها ، يقول :

إذا حضرت أطباقه غاب رشدنا	بما يتلقى من مشوق وشيق
لأن مذاب الشهد فيه مجسد	أجد له عهد الرحيق المعتق ^(٤)

ويعد أن صور هذه الثمار على الأطباق ، وقد تذوّق طعمها الشهي ، عاد
ليصورها على أغصانها ، فيشبهها بالجمر المعلق بالفضاء ، وتارة يشبهها بالنجوم ،

(١) انظر نزهة الأنام : ١٨٧-١٩٢ .

(٢) نشو الدولة : الرئيس الشاعر ، شمس الدولة أحمد بن نقاره السلمي الدمشقي ، كان عند السلطان صلاح
الدين بن أيوب في عداد الرؤساء الأخيار الذين يسمونهم بالأمراء ، توفي بدمشق سنة ٦٠١هـ (انظر :
ابن سعيد الأندلسي ، الفصون الياضعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار
المعارف بمصر ، ١٩٤٥ ، ص : ٢٦ ، والخريدة ، قسم شعراء الشام ، ٣٢٩:١ .

(٣) الديوان : ٣١٦ .

(٤) نفسه .

ويجعلها نجوماً للأرض ، وهذا التشبيه موفق من حيث اللون لأن ثمار المشمش تجمع في لونها بين الصفرة والحمرة ، وهذا لون النجوم ، ولون الجمر ، وفي هذا الوصف يقول :

وما اصفر إلا خوف أيدي جناته	فليس له أمن من المتطرق
حكى جمرات بالفضا قد تعلقت	فيا عجبي من جمرة التعلق
كأن نجوم الأرض فوق غصونه	فيا حيرتي من نجمه المتألق
وجناتها محررة وجناتها	فمن يرها مثلي يحب ويعشقي ^(١)

ويتتبع العماد ثمار المشمش وهي بين الأوراق ، فيصورها بين الأوراق الخضراء كأنها كرات من النضار ، وهي كالدنانير الذهبية بين أيدي الصيارفة وهي تتساقط عن أشجارها ، يقول :

بدت بين أوراق الغصون كأنها	كرات نضار في لجين مطرق
تساقطها أشجارها فكأنها	دنانير في أيدي الصيارف ترتقي
ومشمش بستان الزكي بشهده	شهادته تقضي فزك وصدق ^(٢)

ومن الصور الجميلة لثمار المشمش ما نجده في قصيدة كتبها العماد إلى صديقه (نشو الدولة أحمد) سنة خمسمئة وثمان وثمانين ، وهو في طريقه من القاهرة إلى دمشق ، وفيها يشبه ثمار المشمش بالدمية التي يمضي إليها ليرشف من ثغرها المدام والعسل ، ويشبه الأغصان بالعرائس والثمار بالحلي والأوراق كأنها حلل خضراء تسربت بها تلك العرائس ، يقول :

قد صحّ عزمي على المسير فلا	أبغي مقامي ، والقلب قد رحلا
أمضي إلى دمية مقبلها	أرشف منه المدام والعسلا
مصور ، بل مدور ، عجب	تسرى به ، وهو جامد ثملا
ففي قلوب الأشجار منه جذاً	وفي ظهور الغصون منه كلى
طلبوا بماء النضار ظاهره	لباطن في حشاه نار طلا

(١) الديوان : ٣١٦-٣١٧ .

(٢) نفسه : ٣١٧ .

تخفى إذا ما بدا لعينك في حلي تبر على عرائس أغر
حمر حسان الوجوه قد لبست عرائس من خلدورها برزت
حلاوة لا يمل آكلها زهر كتهب السماء راجمة
عيونها الرمد في ترقينا
فيك ، وفيه النوى إذا وصلا صان تشكت من قبلها عطلا
من خضر أوراقها لها حلا تحسب أشجارها لها كللا
إذا الحلاوات أحدثت مللا جن جناة بقطفها كفلا
جاحظة أبرزت لنا مقلا^(١)

وإذا ما تركنا وصف العماد لثمار المشمش ، ونظرنا في أوصافه الأخرى وجدنا وصفاً للأطعمة ، إذ يصف بعض أنواع الحلوى ، مثل القطايف ، فقد أهدى سنة خمسمئة وثمان وستين إلى صديقه الأديب (علم الدين الشاتاني) ^(٢) قطائف ، وكتب معها مجموعة من الأبيات يصف فيها هذه الحلوى ، فيقول :

ما راقدت في صحون مستوطنات في مكنون
يجلسين أمثال المرا ئس بين أبكار وعون
أو كالعقائل في الخلدو ر قد اعتقلن على ديون^(٣)

إن حبات القطائف كالعرائس في الصحون . وكالعقائل في الخدور ، وهي في ترتيبها على الصحف كأنها الدرّ المصون ، فقد نسقت في صفوف مستقيمة كأنها الخيول الصوافن كما يقول :

نضبت بالترصيع في الـ جمامات كالدر المصون
المستقيمات الصفو ف وقفن كالخيول الصفون^(٤)

(١) الديوان : ٣٣٠-٣٣١ .

(٢) علي الحسن بن سعيد بن عبدالله بن بندار بن ابراهيم ، فقيه غلب عليه الشعر واشتهر به ، ولد سنة ٥١٠هـ ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ (وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١١٣ ، ١١٤) .

(٣) نفسه : ٤١٨-٤١٩ .

(٤) نفسه : ٤١٩ .

ويختتم وصفه للقطائف بقوله إنها اشتملت من اللطائف والصفات على فنون كثيرة ، يقول :

وقد اشتملن من اللطا ئف والصفات على فنون^(١)

ويشتمل شعر العماد على أوصاف للخمرة ومجالسها ، فمن قصيدة يمدح بها صلاح الدين نجد وصفاً للمدامة وهي تقدم للشاربين من يدي نادل ساحر اللواظ ، كما يقول :

ما مُدَامٌ يَدِيرُهَا ثَمَلُ العَطْرِ	غِبِ ، بِنَفْسِي كَوُوسَهَا والمُدِيرُ
بِنَتْ كَرَمٌ تُجَلِيْ عَلَى ابْنِ كَرِيمٍ	وَجْهَهُ مِنْ مُعَاعِهَا مُسْتَنِيرُ
مَنْ مَنَا كَأَنَّهَا المِعَاصِمُ والأَنْدَ	خُفْسُ فِيهَا أَسَاوِرٌ وَمُرُورُ
ولها فِي الكَوُوسِ فِي حَالَةِ المَرْزُ	ج حِبابٌ وَفِي النُّفُوسِ حَبُورُ
وَكَأَنَّ الحِجَابَ فِي الكَأْسِ مِنْهَا	ثَرَّرَ فَوْقَ نَارِهِ مُسْتَطِيرُ
طَابَ لِلشَّارِبِينَ مِنْهَا الهِوَا	عَانِ ، فَلَدَّ المَسْلُودُ والمَقْصُورُ
مَنْ يَدَيَّ سَاحِرِ اللِّوَاظِ قَلْبِي	بِهَوَاهُ مَسْتَهْتَرٌ مَسْحُورُ
لِلْحَمِيَا فِي فِيهِ طَعْمٌ وَفِي عَيْدِ	نِيهِ مَكْرٌ وَفَوْقَ خَدَيْهِ نُورٌ ^(٢)

يلاحظ أن العماد في هذه الأبيات التي يصف فيها الخمرة ومجلسها وأثرها في النفوس ، إنما أراد أن يقابل بين هذه المزايا الجميلة للخمرة ومجلسها وبين سجايا السلطان ، ليتفوق بسجاياه عليها ، وهو بهذا يهدف إلى الرفع من شأن معدوحيه .

ونجد وصفاً للخمرة في قصيدة أخرى ، إذ وصف العماد الساقى وأظهر تعلقه به وقد قال هذه القصيدة في نوبة الرملة سنة خمسمئة وثلاثة وسبعين مادحاً الملك (المظفر تقي الدين عمر) يقول فيها :

وقد طلعت شمسٌ من كؤوس	كما شهرت سيوف من جفوت
يطوف بها على الندماء ساقٍ	ثمانله معشقة الفنون
ويطفي جلاوة منها بماء	ويمزج ثمة منها بلين

(١) الديوان : ٤١٩ .

(٢) نفسه : ١٧٨-١٧٩ .

كأن عذاره اللاهية لأم
ولما سلّ عارضه حماماً
وحاجبه المقوس حرف نون
وفسوق لحظه سهم المنون
يدبر لنا رحي الحرب الزبون^(١)
بدا زرد العذار فقلت : هذا

اهتم العماد بهذه الأبيات والتي سبقتها برسم صورة عامة لمجالس الخمر بما فيها من كؤوس شراب ، وتدماء وسقاة ، ولا يظهر من وصفه أنه وصف مجرب بل لا تعدو أوصافه للخمر ومجالسها أن تكون محصلة لثقافته وثقافة عصره .

- أوصاف أخرى

- وصف الحمى :

وصف العماد الحمى في قصيدته التي مدح بها عز الدين فروخ شاه وفي هذا الوصف يظهر أثر المتنبي واضحاً ، فالعماد في هذه الأبيات يحاول أن يقلده في وصفه للحمى ، يقول :

وزائرة وليس بها حياءً
ولو رهبت لدى الإقدام جوري
فليس تزور إلا في النهار
لما رغبت جهاراً في جواربي
أنت والقلب في وهج اشتياقي
لتظهر ما أداري من أواربي
ولو عرفت لظى سطوات عزمي
لكانت من شظاي على حنار
تقيم فحين تبصر من أناتي
ثبات الطود تسرع في الفرار
تفارقني على غير اغتسال
فلم أحلّل لزورتهها إزاري^(٢)

- وصف الكوارث الطبيعية :

تعرضت البلاد الإسلامية في القرن السادس الهجري في مصر والشام إلى سلسلة من الزلازل ، تركت أثراً مدمرة على المدن والقلع والحصون ، وقد ظهر صدى هذه الكوارث في شعر العماد ، فقد صور آثار الكوارث على الناس وممتلكاتهم ، ومن الزلازل التي صورها الزلزلة التي وقعت سنة خمس مئة وخمس وستين فقال من قصيدة مدح بها نور الدين محمود ووصف الزلزلة :

(١) الديوان : ٤٢٣-٤٢٤ .

(٢) نفسه : ١٩٦ .

سطوة زلزلت بسكانها الأر
أخذتهم بالحق رجفة بأسر
خفضت من قلاعها كل عالٍ
والأعادي جرى عليهم من التد
ض ، وهدت قواعد الأطواد
تركهم صرعى صروف العوادي
وأعادت قلاعها كالوهاد
مير ما قد جرى على قوم عاد^(١)

- وصف البراغيث :

ولا يخلو شعر الوصف عند العماد من بعض الأوصاف الطريفة ، ومنها وصف ليلة هاجمته فيها البراغيث والبق ، فغنت ورقصت طرباً مما نالها من سعادة بعد ما شربت من دمه حتى ارتوت ، يقول مصوراً ذلك :

يا لحي الله ليلة قرصتني
شربت بقها دمي فتغنت
قد تعريت من ثيابي لكربي
ويصف كثرتها فيقول :

لو غزا سنجرٌ بها العز يوماً
لم يدع منهم على الأرض شخصاً^(٢)

لم يهتم العماد بالوصف لذاته ، بل جاء مكملاً لأغراض أخرى ، فوصفه للمدينة والطبيعة مثلاً كان مكملاً لقصائده في الشوق والحنين ، فإذا ما تشوق إلى مدينة من المدن التي عرفها وارتبطت عنده بذكريات جميلة ، وجدناه يذكر محاسنها ويبرز مفاتنها ويصور أبرز معالم الجمال فيها ، وإذا ما مدح فإن الروضة الجميلة بأزهارها وعطورها وطيورها خير وسيلة لإظهار جمال المدوح وتميزه .

(١) الديوان : ١٢٦ .

(٢) نفسه : ٢٤٨ .

(٣) نفسه : ٢٤٩ .

- الغزل:

لم يشتهر العماد بأنه من الشعراء الغزليين ، إذ لم ينفرد هذا الغرض من الشعر عنده بقصائد خاصة تتحدث عن المحبوب وتصف لوعة الحب أو فرحته بلقاء الحبيب ، ولكنه جعل للغزل مواضع في صدور قصائده ، المدحية منها ، ولم يكن الأمر بدعاً في الشعر العربي ، بل إنه لمالكوف ومعروف منذ أقدم عصور الأدب، ففي الشعر الجاهلي كان الغزل من المقدمات المألوفة في أغراض الشعر المختلفة ، وسُمِّي هذا النوع من العزل بالغزل التمهيدي . ولم يكن هذا الافتتاح عبثاً أو لغواً من القول ، وإنما كان عملاً فنياً مقصوداً يبدأ به الشاعر المحب لتمثّل موضوعه ، ويندمج فيه ليسهل عليه القول ، وأما الشاعر غير المحب فإنه يستثير به نفسه أو يهيئ السامع لأن يتلقى ما يسمع بعاطفة متفتحة وجدان يقظ ، يقول وأي افتتاح أدعى إلى الإنصات والانتباه من وصف المرأة في جمالها الساحر ، وفي وصلها ، وهجرها ، ورضاها وصددها ؟ ^(١) .

بقي هذا التقليد سائداً في القرن السادس ، وهو القرن الذي عاش فيه العماد ولذلك فإن قسماً كبيراً من غزل هذه الحقبة هو من الغزل التقليدي الذي اعتاد الشعراء العرب أن يفتتحوا به قصائد المديح ^(٢) . فقد وجد الشعراء في المقدمات الغزلية وسيلة للفت الانتباه إلى أغراضهم الأخرى لإقبال الناس على هذا اللون من الشعر فجعلوه في مقدمات قصائدهم . وخاصة ما كان منها في المديح ، وكان العماد واحداً ممن جروا في هذا المضمار ، فقد اشتمل ديوانه الذي بين أيدينا على ما يقرب من ثلاثين مقدمة غزلية طال بعضها حتى بلغ نصف القصيدة أو أكثر . وجاء بعضها أبياتاً قليلة . واشتمل كذلك على مقطعات في الغزل منها ما كان يقصد به الغزل لذاته ، ومنها ما كان يقال ليغنى . وهذه المقطعات قصيرة لا تتجاوز خمسة أبيات ومنها مقطوعة قالها وهو في مجلس غناء بدار القاضي (ضياء الدين

(١) أحمد الحوفي ، الغزل في العصر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص : ٢٦٤ .

(٢) مزهر عبد السوداني ، الشعر العربي في القرن السادس الهجري ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، دار الرشيد ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٤ .

الشهرزوري) ^(١) سنة خمسمئة واثنتين وسبعين ، يقول :

إن لم تجد بالوصل مُت بحسرتي إن الفراق منيتي يا منيتي
لك ناظر ذو صحة في عليّة ما صحتي إلا لديه وعلتي
كم منة لك في الوصال قوية وأراك في الهجران تضعف منتي ^(٢)
ويقول في مقطوعة أخرى :

قلبي العليل فكيف سُور سوغ وصف طرفك بالعليل
وأنا المحبّ المستها م فمما لخصرك والنحول
وسلاف ثغرك ليس يشد في غير رشفتها غليلي
ولقد ظمئت فهل سيب ل نحو ذاك السلسيل ^(٣)

تبدو الصناعة واضحة في هاتين المقطوعتين ، فالعماد لا يتحدث عن تجربة حقيقية ، بل يصف حالة من الهيام تصلح لأن يوصف بها أي عاشق ، فالحبيب جميل كالعادة وصاد عن محبه ، والمحب وله مستهام بمحبوبه يشكو إليه صده وهجرانه .

من بواعث الغزل عند الشاعر رغبته في التعبير عن عاطفة الحب للمرأة التي اختارها قلبه ، وليعبر عن عاطفة إعجابه بجمال هذه المرأة كما يراها هو لا كما يراها غيره ، وهو في الحالين يصور مشاعره ويصف آلامه وآماله ، ويكشف عما يختلج بقلبه ويعتلج بنفسه ، وقد رسم العماد من خلال غزلياته صورة للمرأة تشكلت من جوانب حسية وأخرى معنوية ، فقد وصف المرأة في بعض غزلياته وصفاً حسياً ، فذكر أجزاء جسدها وصفات هذه الأجزاء ، يقول :

كل غصينة الموشح هيفا ء على البدر جيها مَزور ^(٤)

(١) أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري الموصلية ، قاضي قضاء بغداد ، ثم قاضي دمشق ، تولى قضاء بلدة الموصل وبغداد ، وعمل سفيراً للملوك ، ثم ولي قضاء حماه تلبية لرغبته ، توفي في حماه سنة ٥٩٩هـ (ابن كثير ، البداية والنهاية ، طبعة دار الكتب العلمية ، ط ٣ ، ١٩٨٧ ، مجلد ٧ ، ج ١٣ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) العماد ، الديوان ، ٩٥ .

(٣) نفسه : ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٤) نفسه : ١٧٧ .

ويقول :

ولحاظِ تودعِ السكرِ المُدما
سمهرياً أم سلّ حُساما
وقضيبَ البانِ ردفاً وقواماً^(١)

بقوامِ علمِ الهزّ القنا
أتراه إذ تنثى ورننا
وكثيبِ الرملِ قد أحجله

ويقول :

حذراً عليه لضعفه وهائه^(٢)

ويشدّ عقدَ نطاقه في خصره

ويقول :

لم يزدني كاشحي إلا اهتضاماً^(٣)

وهضيمَ الكشّحِ في حبي له

عرض العماد في هذه الأبيات صفات جمالية تتعلق بقوام المرأة وجمال وجهها وعيونها فقوامها أهيف يتثنى كأنه الرمح السمهري أو الحسام حين يسيل وردفها كأنه كثيب الرمل ، وخصرها نحيل ، ويضاف إلى هذه الصفات صفات تعبر عن جمال العيون ، فالطرف أحور والمقلة سقيمة ومخمورة يقول في وصف جمالها :

وأحور يسبي بطرفٍ يكل
وتخجلُ منه الظُّبا والظُّباء^(٤)

ويقول :

وفي مقتلته وقد صحّتا
كما صحّتا سقمٍ وانتشاء^(٥)

وفي سقام المقلة زيادة حسنها كما يقول :

وسقامٍ مقتلته زيادةً حسنها
وأراه في جسمي زيادةً دائمة^(٦)

وفي موقع آخر تبدو مقلة الحبيب مخمورة تسكر الرجال بخمرها ، يقول :

يا للرجالٍ لمقلةٍ مخمورةٍ
يفلو المحبُّ بكأسها مخموراً^(٧)

(١) الديوان : ٢٧٢ .

(٢) نفسه : ٦٧ .

(٣) نفسه : ٢٧٢ .

(٤) نفسه : ٦١ .

(٥) نفسه : ٦١ .

(٦) نفسه : ٦٨ .

(٧) نفسه : ١٦٢ .

ويعبر عن جمال الوجه بتشبيه لونه بلون الورد فيقول من دوبيت في هذا المعنى:
الوردُ على خدِّكَ من أنبته والمسكُ على وردك مَنْ فَسه (١)

ونجد مثل هذه الأوصاف الحسنة للمرأة في مقدمة القصيدة الأولى التي قالها
العماد في مدح صلاح الدين سنة خمسمئة واثنتين وستين ، وفيها يصف عيون
المرأة وحاجبيها وخصرها بصفات مما كانت تنعت به وتعبر عن الجمال ، إذ يقول :

كيف قلتم في مقتلته قور	وأراها بلا قور تجور
لو بصرتم بلحظه كيف يسبي	قلتُم : ذاك كاسر لا كسيير
مؤتر قوس حاجبيه لإصما	ء فؤادي كأنه موتور
كيف يصحو من مكره مستهام	مزجت كأسه العيون الحور
أورثته مقامها الحدق النج	ل ، وأهدت له التحول الخصور (٢)

ويصف العماد وجنات المرأة ويشبها بشقائق النعمان كما يصف الأسنان
ويجعلها كالمنثور ويصف صدغها بطيب الرائحة فنراه يقول في وصف وجناتها
وأسنانها :

وجنات تجنى الشقائق منها	وثنايا كأنها المشور (٣)
ويقول في وصف رائحة صدغها :	
وبنفسه مُعبرُ الصدغ والعا	رض فوق العبير منه العبير

وإلى جانب هذه الصفات الحسية هناك صفات جمالية عامة عبر عنها الشاعر
بتشبيه المرأة بالشمس تارة وبالبدن أخرى وأحياناً بالظبية فنراه يقول مشبهاً
المحبوب ، بالرثم وغصن البان ، والبدن والشمس :

ثبته رثم ، غصن بان بدن دجن شمس ضحوه (٤)

(١) الديوان : ٩٨ .

(٢) نفسه : ١٧٧ .

(٣) نفسه : ١٧٨ .

(٤) نفسه : ٤٣٨ .

ويقول في وصف جمال وجه المحبوب :

إشراق غرّة وجهه في صدغه يَدي لك الإصباح في إمسائه^(١)

ويقول مشبهاً النساء الجميلات بالظباء :

ما تصيد الأسد الخوادر إلا ظيئات كنامهنّ الخـدور^(٢)

هذه أبرز الصفات الحسية للمرأة في شعر الغزل عند العماد ، وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر من المرأة وهو الجانب المعنوي ، نجد أن الشاعر يرسم لها صورة قوامها التيه والدلال والصلف والغدر والخيانة والهجران والصدود وقسوة القلب والبخل بالوصل والجحود ، وقد وردت هذه الصفات في أمثلة متفرقة منها قوله في وصف تيه المرأة ودلالها :

متعدّ ، أوّماً يخـ شئ من المظلوم دَعَسَوْه ؟

فيه تيه ودلال وله لـين وقسـوة^(٣)

ويقول في الشكوى من صد المحبوبة :

ثغفي بأغيد مقبلٍ بوداده لمجّه ، ويصد صدّ المعرض

شكواي من دلّ يزيد مجبب وضناي من صدّ يلوم مُبغض^(٤)

ويقول مصوراً بخل المحبوب :

وبخلتم من الوصال يأسعا في ، أما كتم من الأجواد ؟^(٥)

ويصفه جاحداً فيقول :

يا جاحدي حقّ الوداد وهل حقّ الوداد يضيّع بالجحد ؟^(٦)

ويوصف المحبوب في شعر العماد بالغدر والخيانة والهجران وقسوة القلب ،

فنراه يقول :

(١) الديوان : ٦٧ .

(٢) نفسه : ١٧٧ .

(٣) نفسه : ٤٣٨ .

(٤) نفسه : ٢٦٣ .

(٥) نفسه : ١٢٤ .

(٦) نفسه : ١٣٠ .

أرى حَدَثَانَ الدهرِ يُنسىَ حديثَهُ
حسبتُ حبيبِي قاسِي القلبِ وحدهُ
ويصف المحبوب بالخيانة فيقول :
حناتيكم ما هكذا الودُ والشرطُ^(١)
شرطتمُ له حفظَ الودادِ وحنتمُ

إن صورة المرأة التي رسمها الشعراء على أنها المرأة المثالية كما يتخيلها الرجل ظلت في القرن السادس كما هي في العصور السابقة البعيدة كالعصر الجاهلي ، وصدر الإسلام ، كما أن شعر الغزل في نهاية العصر العباسي لم يزل كما كان في بداية هذا العصر منذ ستة قرون ، يدور في معظمه حول جسم المرأة ، وملامحها الخارجية : فالعيون نجلاء تُشبه نظراتها بالسهم ، والقوام يتثنى كأنه الرمح أو غصن البان ، والخدود أسيلة كأن حمرتها أخذت من دموع العشاق ، والفم رضابه كالخمر يُسكر ألباب الرجال^(٢) .

وينطبق هذا القول على شعر الغزل عند العماد ، فهو لم يخرج في وصفه الحسي لجسد المرأة عن الإطار العام للغزل في القرن السادس الهجري ، الذي جاء تقليداً لما سبقه من القرون في أوصاف المرأة ، فقد وصف في المرأة عيونها وخدودها وخصرها وقوامها وثغرها وعطورها ، ولا نعثر في شعر العماد الذي بين أيدينا على أوصاف جيد المرأة أو شعرها أو يديها ، كما لا نجد وصفاً لجمالها المعنوي كحلاوة الحديث ورقة الأحاسيس وجمال الروح ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن العماد لم يكن صاحب تجربة حقيقية في الحب تجعله قادراً على إدراك هذه الجوانب من الجمال في المرأة ، واكتفى بأن رسم الصورة من الأشياء التي استطاع أن يدركها ، وهي الجوانب الحسية من جمال المرأة .

هذه هي صورة المحبوبة عند العماد ، فكيف ستكون صورة المحب بالمقابل ؟ لا بد أن هذه الصورة ستتأثر كثيراً بصورة المحبوب ، فإذا كان المحبوب جميلاً ، فإن العاشق سيزداد تعلقاً به ، ولكن كيف ستصبح حال هذا العاشق إذا كان محبوبة غادراً بخيلاً بوصله قاسي القلب صادراً عنه ؟ لا بد والحال هذه أن يكون المحب شديد

(١) الديوان : ٢٣٠ .

(٢) نفسه : ٢٧٦ .

(٣) نفسه : ٢٣٠ .

التعلق بمحبوبه حريصاً على وصله ، متلهفاً لرؤيته ، حزيناً على فراقه ، باكياً عند رحيله ، وقد وصف أحد الباحثين صورة العاشق في هذا القرن فقال : « أما صورة الرجل العاشق فلا زالت هي الأخرى دون تغيير ، إنه يطلق لدموعه العنان في إثر الأحباب الظاعنين ، وأبرز ما يتصف به العاشق : النحول والأرق وفقدان الصبر وضعف الحيلة ، ولا بد أن يتصف العاشق بالوفاء غير المحدود على العكس من الحبيب فهو غادر خائن أبداً » (١) .

ويلاحظ على هذه الصفات أنها مناقضة لصفات المرأة المحبوبة ، ومن مجملها تشكلت صورة الرجل العاشق عند العماد فقد وصفه بالعفة فقال :

عفتُ وعفتُ الحيا في هوا هُ حتى استوى صدُّهُ واللقاء (٢)

ووصفه محافظاً على عهده مع المحبوب بالرغم من تغير أحواله وفساد الود بينهما ، يقول :

إذا شئتما عن غير قلبي تحدثا فما حلَّ فيه الهَمُّ إلا ليلبثا
نَحْنَا شاهديَّ صدقي على صحة الهوى ضنِّي ساكناً منِّي ، ووجدنا مُحدثا
مريضكما أثنى على الناس سقمه فلا تعجلا في أمره وترثا
رثي لي علوي من جفأ أحبتي وناهيك من حالٍ ، عدوي لها رثي
عهدكم بعد النوى ما تشعثت وحاشا لذاك العهد أن يتشمنا (٣)

ينقل العماد إلينا في هذه الأبيات فكرة عن أحوال العاشق ، وعلاقته بالمحبوب ، وهي أحوال تجعل السامع يرق له ، ويشعر بالأسى والحزن عليه ، ويرثي لحاله ، فقد حل به هم مقيم وضنى ملازم ، ولازمه الوجد والحزن حتى رثي له عدوه ، وبالرغم من هذه الأحوال إلا أن العاشق يبقى وفيّاً مخلصاً لمحبوبه ويبقى العهد متيناً لا يتشمث .

ويصور العماد العاشق وقد فقد صبره ، وجرى دمه في أثر الأحبة الراحلين ، ونجد ذلك في مقدمة القصيدة التي مدح بها الخليفة المستضيء سنة خمس مئة وتسع وستين ، ولعل العاشق هنا هو العماد والمعشوق هو بغداد وأهلها الذين

(١) مزهر عيد السوداني ، الشعر العربي في القرن السادس الهجري ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) الديوان : ٦١ .

(٣) نفسه : ١٠٠ .

هجرهم العماد مرغماً ، وبقي حبهم يلازمه ولا يستطيع عنه صبراً ، يقول :
أطاعَ دَمْعِي ، وصبري في الغرامِ عَصِي والقلبَ جَرَعَ من كأسِ الهوى غصصا
وإن صفو حياتي ما يكدره إلا اشميتاقي إلى أحبابي الخلصا
ما أطيبَ العيشَ بالأحباب لو وصلوا وأسعدَ القلبَ من بلواه لو خلصا
زفوا فؤادي وصبري والكرى معهم غداةً بانوا وزموا للنوى الخلصا
ومقلّةً طالما قرّت برؤيتهم أضحى السّهادَ لها من بعدهم رمصا
لم تحدر الدمع إلا أنها رفعت إلى الأحيّة من كربِ الهوى قصصا^(١)

وفي واحد من دوبيتاته يبدي أسفه على بعد الحبيب بعد أن يخبره عما أصابه بسبب هذا البعد ، يقول :

القلب كما عهدتم ذو لهف والجسم كما عهدتم ذو دنف^(٢)

لا تكاد صورة العاشق في غزليات العماد تخرج عن إطار الضنى والألم وإظهار التحسر والأسى والحزن على فراق الحبيب ، فجفنه مسهد ، ودموعه جارية وقلبه يلتهب شوقاً ووجداً إلى الأحيّة .

- الغزل بالمذكر :

نجد بين أشعار العماد التي قالها في الغزل مقطوعتين يتغزل فيهما بالمذكر فيقول في إحداهما :

أفدي الذي خلبت قلبي لواظفة وخلدت لذعات الحبّ في كبدي
صفات ناظره مقم بلا ألم سكر بلا قدح ، جرح بلا قود
مُعشِقُ الدلّ من تيه ومن صلّف مرّح العطف من لين ومن ميند
على محيّاه من نار الصّبا شعل وورّد خديّه من ماء الحياة ندى^(٣)

(١) الديوان : ٢٤٩ .

(٢) نفسه : ٣٠٠ .

(٣) نفسه : ١٣٧ .

تصور هذه الأبيات فتنة الشاعر بالغلام ، فقد خلبت اللواظ قلبه ، وقام هذا الحب على قاعدة من الصفات الحسيّة التي تمتع بها الغلام ، وهي صفات مما توصف به المرأة المحبوبة ، من لواظ ساحرة ناعسة وأعطاف لينة متمايسة وتيه ودلال وخذود موردة ، وهو في أوصافه هذه لم ينحدر إلى المعاني المبتذلة الرخيصة كما نجدها عند غيره من الشعراء أمثال : أبي نواس وأبي الحسن السلامي والخيزر أرزي وابن حجاج وابن سكره الهاشمي ^(١) .

استوقف هذا النوع من الغزل بعض الدارسين ، فكال التهم للعماد ، وحاول التمهير به ، والخط من قدره ^(٢) . ووقف بعضهم موقف المدافع عنه ، محاولاً نفي ما ألصقه به غيره من تهم في مجال الغزل بالمذكر ^(٣) ، ولا أرى أن الأمر يستدعي كل هذه الاتهامات للعماد ، فهو لم يخالف شعراء عصره أو ينفرد عنهم في هذا الباب ، وشعره فيه كما ذكرنا بعيد عن الفحش والابتذال ، وليس له من هدف إلا التقليد ، لا سيما أن العماد قد قلّد في الكثير من أغراض شعره أسلافه من شعراء العصر العباسي ، وهذا النوع من الغزل لا يُعبر تماماً عن الواقع بل هو من باب العبث البريء ، وهو ضرب من التصنيع البديعي لإظهار الحذق في الصنعة .

أجمع الباحثون ممن درسوا شعر العماد أنه قد سلك في غزله طريق التقليد ^(٤) ، فلم تكن أشعاره صادرة عن تجربة حقيقية في الحب بل هي مجرد تقليد لمن سبقوه من الشعراء ومجارة لتقاليد العصر التي تجعل من شعر الغزل والتشبيب بالمرأة الجميلة فواتح لقصائد المديح رغبة من الشعراء في تحبيب الناس بمدائحهم .

إن أشعار العماد التي بين أيدينا لا تشير إلى أن قلبه كان متعلقاً بامرأة بعينها فلم يرد فيها اسم لامرأة معروفة ، بل كانت المرأة التي يتغزل فيها نكرة غير محددة ، شكّل من جسدها مقدمات لمداخه إذ وصف ذلك الجسد وصفاً مفصلاً دقيقاً ، ولكن دون فحش أو ابتذال ، وفي جانب آخر من مقدماته أظهر نفسه وقد أضناه

(١) الديوان : المقدمة ، ٣٠ .

(٢) علي مظفر سلطان ، العماد حياته وأدبه ، ٣٨ ، ٢٩ .

(٣) فؤاد أبو الهيجا ، العماد الأديب وخريدته ، ١٢٦-١٢٣ .

(٤) انظر : علي مظفر سلطان ، العماد حياته وأدبه ، ١٧٠ ، فؤاد أبو الهيجا ، العماد الأديب وخريدته ، ٢١٣ :

مقدمة الديوان ، ص ٢٩ .

العشق وأضر بجسمه ، فصورَ نفسه نحيل الجسم ضعيف القوى ، شديد الحزن ، مستعر الشوق إلى محبوبه ، وهذا الجانب هو مظهر من مظاهر التجديد في المقدمة الغزلية في هذا العصر^(١) .

(١) حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، ط ٢ ، ١٩٨٧ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ص ٢٦ .

الاتجاه الثاني : شعر الجهاد

ويشمل :

- البطولة في شعر العماد
نورالدين زنكي
صلاح الدين الأيوبي
أسد الدين شيركوه
- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية
- الحث على الجهاد وتحرير الأرض المحتلة
- الجيش الإسلامي
- جيش الفرنجة

شعر الجهاد

اتجه الشعر في مصر وبلاد الشام والجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري اتجاهاً أملت طبيعة الظروف السياسية التي عاشتها المنطقة ، فقد تقدم في هذا البحث أن المشرق الإسلامي تعرّض لهجمة شرسة من الفرنجة مع نهاية القرن الخامس الهجري ، وتمكنوا مع بداية القرن السادس من إنشاء ممالك لهم في فلسطين وبلاد الشام والجزيرة الفراتية ؛ اتخذوها قواعد للتوسع في ديار الإسلام ، وساعدهم في ذلك حالة الضعف والانقسام السياسي الذي كانت تعيشه بلاد المسلمين آنذاك ، وقد قوبلت هذه الهجمة في بداية الأمر بمقاومة إسلامية ضعيفة غير منظمة ، ولكن ما أن انقضى ربع قرن من الزمان على الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي حتى تشكلت نواة للمقاومة الإسلامية بدأت بإمارة الموصل بزعامة المجاهد عماد الدين زنكي ؛ الذي قاد حركة المقاومة ضد الفرنجة ، ودخل معهم في معارك طاحنة تكلفت باسترجاع قاعدة الفرنجة الأولى في البلاد الإسلامية، إمارة الرها ، واستمر في جهاده إلى أن وافته المنية وهو يحاصر (قلعة جعبر) فحمل الراية من بعده ابنه المجاهد نورالدين زنكي ؛ الذي استطاع أن يدحر الغزاة في غير ما موقعة ، وأن يسترد من أيديهم الكثير من القلاع والحصون والمدن الإسلامية المسلوقة ، ونجح في إنقاذ حركة الجهاد ، وأضفى عليها ما تستحقه من القداسة ، وذلك بتوحيده جهود المسلمين ولمّ صفوفهم ، فكان من أولوياته توحيد الجبهة الإسلامية ، وقد تم له ذلك ، بتوحيد ممالك الشام والجزيرة والربط بين بلاد الشام ومصر إدراكاً منه لأهمية مصر في حربه مع الصليبيين ، وقد توحدت مصر والشام ، وخطب لبني العباس على منابر مصر والقاهرة سنة خمس مئة وسبع وستين بعد سقوط الخلافة الفاطمية . واستمر نورالدين في جهاده يسعى لتحرير البلاد الإسلامية ودرتها القدس ، إلى أن وافته المنية فحالت بينه وبين تحقيق هذا الحلم ، فانبرى لتحقيقه أحد قادته الأبطال ، وهو صلاح الدين الأيوبي الذي نذر نفسه لهذه المهمة الشاقة ، فسار على نهج سلفه في الجهاد ، فقوى دعائم الوحدة الإسلامية بين مصر والشام وبقية الممالك الإسلامية ، وخاض معركة حطين الخالدة ، فشنت جموع الفرنجة فيها ، وأسروا ملوكهم ولاحقهم يُخرب حصونهم، ويهدم قلاعهم إلى أن حصرهم في القدس ، فطهرها من رجسهم ، وحطم

صلبانهم وأخرس نواقيسهم ، وأعاد إلى مآذنها صوت الحق عالياً مردداً الله أكبر ، فقرت عيناً سيده نورالدين تحت الثرى بهذا الفتح ، وعمت البشري ديار الإسلام ، وانطلق صلاح الدين بعد تحرير القدس يطارد فلول الفرنجة ، ويظهر الساحل من بقاياهم ، ولكن ارادة الله شاءت أن يلقي صلاح الدين وجه ربه قبل أن يحقق أمنيته بتحرير ما تبقى من ديار الإسلام ، ولكن حركة الجهاد لم تتوقف بعد وفاته ، بل استمرت ببطء إلى أن انتهى الوجود الصليبي على يد المماليك مع نهاية القرن السابع الهجري .

وهكذا فإن هذا القرن قد شهد ملاحم بطولية سطر فيها أبطال المسلمين أروع صفحات الجهاد ، ولم يكن الشعر مغيباً عن هذه الأحداث ، بل واكبها مواكبة فعلية ، وإن لم يكن في مستوى الحدث في بداية الأمر ^(١) . ومع بداية الانتصارات بدأ الشعر يعبر عن روح الجهاد تعبيراً صادقاً ، وشارك الشعراء بالكلمة الصادقة المعبرة مشاركة كان لها أكبر الأثر في هذه الملاحم ، فقد عبروا عن مشاعر الأمة الإسلامية ، وكانوا لسانها في تمجيد الأبطال ، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية وتحرير المقدسات ، والتفني بالانتصارات والتعريض بالمتخاذلين عن الجهاد ، وقد سجل الشعر أحداث العصر ، وكان صورة لها عكس مراحل الحروب الصليبية ، وما حصل عليه المسلمون من انتصارات أو ما نكبوا به من هزائم ^(٢) .

ويرى بعض الدارسين أن الشعر في القرن السادس الهجري قد غلبت عليه نزعة الحماسة بسبب الحروب الصليبية « غلب الشعر الحماسي على شعراء هذا العصر حتى أصبح طابعاً عاماً غلب على روحه ، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر من شعراء هذه الفترة من ذلك الشعر الحماسي الذي يعكس في صدق صدى البطولات الرائعة في مقاومة الصليبيين ، وتلك الانتصارات التي أحرزها «عماد الدين» ومن بعد «نورالدين» ثم «صلاح الدين» بل لا نغالي إذا قلنا إن هذه القصائد وأمثالها هي التي غلبت في دواوين الشعراء ^(٣) .

لقد واكب الشعر في هذا العصر الأحداث وعبر عن النفسية الإسلامية أصدق تعبير في صراعها مع الصليبيين فالشعر الذي قيل في زمن هذه الحروب شعر

(١) عبدالجليل عبدالمهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٦ ، ص ١٥ .

(٢) محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣٣٤ .

(٣) محمد ابراهيم نصر ، ابن سناء الملك ، حياته وشعره ، دار الكعاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٦ .

صديق لا ريب فيه إذ هو منبعث من أعماق الأفئدة ، والشعراء في هذه الفترة يعبرون عن عواطف الشعوب الإسلامية أصدق تعبير فيترجمون عن إحساساتها ، وما تنطوي عليه جوانحها ، ويتكلمون بأسنتها في كل ما يقولون . فالنفسية الإسلامية في مصر والشام قد سجلت في هذا الشعر تسجيلاً دقيقاً ، فما يكاد المسلمون يستولون على حصن أو قلعة أو مدينة حتى يهب الشعراء لتهنئة الملك المنتصر والإشادة بجهوده العظيمة في سبيل نصرته الإسلام والمسلمين ثم يمزجون هذا بهجاء الصليبيين ^(١) .

ويُعدّ هذا الشعر مصدراً هاماً لدارسي أدب الحروب الصليبية ، لأن الشعراء المسلمين في تلك الحقبة من الزمن ، وصفوا معظم المعارك التي وقعت بين المسلمين وأعدائهم ، كما تحدثوا عن الأسلحة المستخدمة والأماكن التي وقعت فيها تلك المعارك . كما أشاروا في قصائدهم إلى أسماء الشخصيات المهمة التي اشتركت في هذه الحروب ^(٢) . وكان من ألع هذه الأسماء عماد الدين زنكي ، ونورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي . وقد تحدث الشعراء عن بطولاتهم التي سطروها في جهادهم ضد الصليبيين ، ومن هؤلاء الشعراء : ابن منير الطرابلسي ، وابن القيسراني ، وطلّاح ابن رزيك ، وعبدالمنعم الجلياني ، وأسامة بن منقذ ، وابن الساعاتي ، وابن سناء الملك ، وابن عُنين ، وابن سعد الموصلية ، وعماد الدين الأصفهاني ، وغيرهم . وقد قُدّر للعماد أن يكون واحداً من شعراء هذا العصر المتميزين ، فقد انفرد دون غيره من شعراء عصره بملازمته اثنين من أبطال الحرب هما : نورالدين ، وصلاح الدين ، فقد خدم في بلاطهما وكتب لهما الرسائل ، وشهد معهما المعارك ، فكان في بؤرة الصراع يصور الأحداث تصوير شاهد عيان ، يدقق في رسم المعارك ، و يصور مجرياتها كما رآها على مدى عشرين عاماً من الصراع ، فمجّد البطولة ، وأشاد بالروح الجهادية العالية عند القادة ، ودعا إلى الوحدة الإسلامية ، وحرّض على الجهاد ، واسترداد المقدسات ، ووصف الجيوش بأسلحتها ، وتغنّى بالانتصارات ، وبكى القادة عند وفاتهم ، فذكر مناقبهم التي يفتخر بها الإسلام وأهله وشهد له أهل عصره بتفوقه في هذا المجال ، فقال (أبو شامة

(١) محمد سيد كيلاني ، العروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٤٩ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) محمد الهرني ، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، مؤسسة الرسالة ، ص ٩١ .

المقدسي) في شاعريته وقدرته على تصوير مناقب نورالدين : « ولم يبق بعد موت ابن القيسراني ، وابن منير الطرابلسي من الشعراء يصف مناقب نورالدين كما ينبغي إلا أسعد الموصلبي ، إلى أن قدم العماد الكاتب الشاعر سنة اثنتين وستين وخمسمئة ، فتسلم هذا الأمر وعبر عن أوصاف نورالدين ومناقبه ، وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً . »^(١)

وإذا كان العماد قد عبر عن أوصاف نورالدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات ، فلا شك أنه قد عبر عن أوصاف صلاح الدين ومناقبه وغزواته تعبيراً أوفى وأشمل ، وذلك لملازمته صلاح الدين فترة أطول ، تحقق فيها الكثير من الإنجازات والانتصارات ، فكانت موجبات القول أقوى ، فقال وأجاد في تصوير مناقب صلاح الدين وغزواته ، ووقف كثيراً من شعره على مدحه ورثائه بعد وفاته ، فقد وصف المعارك الكثيرة التي خاضها ، ومجد أبطالها ، وصور أثرها في نفوس المسلمين ، وبشر بفتوحاته ، وقد شكل هذا النوع من الشعر جانباً مهماً في شعر العماد حتى عدّه بعض الدارسين أكثر أغراضه شأناً وأجلها خطراً ، فقال : « وأكثر أغراضه شأناً وأجلها أوصافه للحروب الصليبية ، وهي تتصل عنده بتغنييه بمناقب البطلين نورالدين ، وصلاح الدين ، وانتصارات جيوشهما على جيوش الفرنج . وكان العماد شاهد عيان في هذه المعارك والانتصارات الماتعة ، لأنه شارك هذين المجاهدين فيها معظمها ، فوصف في قصائده ما أداه إليه العيان ، مثله في ذلك مثل أبي الطيب المتنبي في مشاركته سيف الدولة في حروب الروم البيزنطيين . »^(٢)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) العماد ، الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

البطولة في شعر العماد :

كانت الأمة الإسلامية في القرن السادس الهجري بعد تلقيها للهزيمة على يد الفرنجة أحوج ما تكون إلى بطل رمز تلتف حوله ، ليوحد صفوفها ويقودها إلى الخلاص من حالة التردّي إلى حالة من النهوض والنصر بعد الهزيمة والهوان ، وقد قيّض الله لها مجموعة من الأبطال تمثلت فيهم صفات القيادة والبطولة ، فأخذوا بيد أمتهم وأيقظوها من سباتها العميق ، فكانت صحوة قادت إلى سلسلة من الانتصارات على العدو الذي عاث في الأرض فساداً ، وقد بعثت هذه الانتصارات الحياة في الشعر ، وأصبح بمستوى الحدث ، فأذكت تلك المعارك حماس الشعراء وألهبت مشاعرهم ، فقد وجدوا في هؤلاء القادة تعبيراً صادقاً عن آمال الأمة وطموحاتها : فأشادوا بدورهم في قيادة الأمة في دروب الجهاد وما حققوه من انتصارات أثلجت صدوراً مלאها الغيظ والحنق على أفعال الغزاة البربرية . وقد مضى أدب هذه الحقبة من الزمن يمجّد الأبطال الذين خاضوا غمار هذه الحرب وأبلو فيها بلاءً حسناً ، فسجلوا في الأدب أسماءهم ، وأحاطهم الأدب بهالة من التقديس والإعجاب ، وخلدهم في صورة حبيبة إلى النفس قريبة إلى القلب ، يزيّن بها الإيمان ، ويجمّلها اليقين ، وصورهم يحيط بهم شعبيهم مطيعاً لهم ، معجباً بهم وترك لنا شعراً كثيراً من صور هؤلاء الأبطال «^(١) .

وكان من أبرز أبطال الحروب الصليبية وأعظمهم شأناً في القرن السادس الهجري ، نورالدين زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، فقد نال هذان البطلان إعجاب الشعراء في عصرهم ، وكان العماد الأصفهاني واحداً من هؤلاء الشعراء الذين مسجّدوا بطولات نورالدين وصلاح الدين ، إذ لازم الرجلين زمناً طويلاً ، ورحل الرجلان والعماد شاهد على رحيلهما ، فبكاهما معبراً عن لوعة الأمة لفقدتهما باعتبارهما رمزين من رموز البطولات والتضحية الإسلامية في زمن الصراع المحتدم بين الإسلام والقوة الباغية التي جاءت لاقتلعه من هذه البلاد ، فقد أكثر العماد من مدح القادة والأبطال الذين خاضوا هذه الحروب ، وكان في حديثه عنهم يعبر عن إعجاب المسلمين بتضحياتهم في سبيل الأمة ، والحفاظ على دينها ، فيصفهم بصفات القيادة ، ويضفي عليهم الصفات الحميدة : كالكرم والشجاعة والعدل والتقوى ونصرة الدين ، والحفاظ على ديار المسلمين ، وحب الجهاد

(١) أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٤٢٧ .

والتضحية ، وكان إعجاب الشعراء بنورالدين وصلاح الدين ينبع من تزعمهما حركة الجهاد . فقد تمثلت فيهما الصورة المثالية للحاكم بكل ما تتحلى به من صفات وفضائل ، ولم يقتصر دورهما على الإعداد للمعركة والتخطيط لها من بعيد ، بل تجاوز ذلك إلى المشاركة الفعلية فيها فجمعا بذلك القيادتين السياسية والعسكرية معا .

- نورالدين زنكي :

لم يكن نورالدين زنكي أول أبطال هذه الحروب ، ولكنه كان أول الأبطال الذين رافقهم العماد الأصفهاني ، وقد تميزت فترة ولايته بالجهاد المتواصل ، إذ حمل الراية بعد وفاة والده وانطلق يوحد ديار الإسلام في مصر وبلاد الشام والجزيرة ، ويشكل جبهة قوية في هذه البلاد ليتمكن من محاربة الصليبيين ، وقد تحققت على يديه كثير من الانتصارات التي خلدها التاريخ بعد أن التفت حوله الجموع الإسلامية التي رأت فيه مثال القائد المسلم المخلص ، ولم يكن نورالدين قائداً عسكرياً مجاهداً فحسب بل كان إلى جانب ذلك حاكماً عادلاً وسياسياً بارعاً وإدارياً ناجحاً مستلهماً سيرة السلف الصالح ، ومتخذاً الشريعة الإسلامية نبراساً يهتدي به في حياته . وقد أضاء العماد في أشعاره سيرة البطل نورالدين . وأظهر الدعائم التي قامت عليها شخصيته فصوره حاكماً عادلاً يرعى مصالح الأمة ويقوم على خدمتها ، كما صورته مجاهداً مخلصاً في جهاده باذلاً ما في سعه من أجل ذلك ، وهو في كل أعماله مقتدر بالسلف الصالح من رجال الأمة المخلصين في مختلف العصور .

- نورالدين راعي المسلمين :

تولي نورالدين زنكي زمام القيادة ، وأحوال الأمة مضطربة ، تفتك بها الصراعات الداخلية بين الأمراء المحليين ، ويتربص بها عدو طامع لا يرحم ، ولما كانت هذه أحوال الأمة فلا منجاة لها إلا بقائد ملهم يسلك بها سبيل الرشاد ، ويقودها بحكمة إلى حيث العزة والمنعة ، وقد منّ الله على الأمة الإسلامية في تلك الظروف بالبطل نورالدين الذي امتاز بقدرات سياسية عالية مكنته من استقطاب الرعية حوله ، فوحد البلاد الإسلامية ورص الصفوف ، وقضى على أعداء الوحدة ، واستطاع أن يقف في وجه الصليبيين بقوة وأن يقلص نفوذهم في ديار الإسلام ، فكانت سيرته في الإسلام أحسن سيرة كما يقول العماد :

قد سرت في الإسلام أحسن سيرة مأثورة وسلكت أوضح منهج
وجميع ما استقرت من سنن الهدى جددت منه كل رسم مبهج^(١)

لقد سلك نورالدين في سياسة الرعية أوضاع المسالك فجدد السنن ، وملك البلاد بالعدل حتى أصبح مؤيداً من السماء فترك آثاراً كلها حميدة : فأحبه الناس وشعروا بالاطمئنان والحياة السعيدة كما يقول العماد في مدحه :

محمد يحمّد عيشَ بلدةٍ	مالكها بعد له محمودها
مؤيد أموره بعزيمةٍ	من السموات العلى تأيدها
آثاره حميدة وإنما	للمرء من آثاره حميدها
إنّ السورى بحبّه وبفضه	يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله ، فمن	به اعتدى فإنّه رشيدها
جلا ظلام الظلم نورالدين عن	أرض الشأم ، فله تميمها
إن الرعايا منه في رعايةٍ	ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر ، بل لأمنها	يخاف ، بل يخصبها بجودها ^(١)

يحدثنا صاحب الروضتين عن سيرة الملك العادل نورالدين نقلاً عن ابن الأثير فيقول : « قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نورالدين ، ولا أكثر تحريماً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يجهز له ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه ، وإنعام يسديه »^(٢) .

وينقل إلينا العماد صوراً كثيرة تُعبّر عن السيرة النقية للملك العادل نورالدين ، فقد أعلا شأن الحق وقمع الشرك ، وأزال الضلال والبدع ، وأحيا العدل بعد موته كما يقول :

يا محيي العدل بعد ميته	ورافع الحق بعد ما أتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الشر	شرك وعفى الضلال والبدعا ^(٣)

(١) الديوان : ١٤٤ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، حلمي ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١١ .

(٣) الديوان : ٢٨٥ .

وفي قصيدة أخرى يؤكد العماد صفة العدل عند نورالدين ويربط بينها وبين

الجود والتقوى إذ يقول :

عدلٌ عميمٌ وجودٌ	غمراً وبسراً وبسراً
وفي العطيّة حلراً	وفي الحميّة مراً
قد استوى منك تقوى الـ	له سرٌّ وجهراً
تقّاكُ والمملكُ عند الـ	قياسٍ عقْد ونحر ^(١)

لقد ترك نورالدين أثراً واضحة في الإسلام بما أقرّه من العدل بين الناس وبما نشره من الإحسان ، وبالرغم من هذه الأفعال الصالحة ؛ فإن نورالدين ظل يخاف ربه خوف المذنب كثير الآثام ، ويظن أنه لم يؤد حق الله عليه في سياسة الرعية والقيام بمصالح العباد ، وجهاد المشركين ، هكذا يصوره العماد حين يقول :

آثارُ عزمِكَ في الإسلامِ واضحةٌ	وسرُّه لك بادٍ غير مكتم
بما من العدلِ والإحسانِ تشرُّه	تخافُ ربك خوف المذنبِ الأثم ^(٢)

وكان من آثار هذا العدل على الممالك الإسلامية أنه لم شملها فتوحدت بفضلها ، لا بل توحد كل شيء في هذه الممالك بفضل عدل الحاكم الذي يصدر في عفوه وإحسانه عن سجيّة نقيه لا تكلف فيها وطبع صادق لا تصنع فيه كما يقول العماد في وصف عدل نورالدين :

أضحى بعدلك شمل الملك ملثماً	وهل بعدلك شيء غير ملثم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلف	ومولي العرف عن خلق بلا سأم ^(٣)

ومن مظاهر عدل العماد أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عُشراً ، بل أطلقها رحمه الله جميعاً في بلاد الشام والجزيرة والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه «^(٤) ، وإلى ذلك أشار العماد في قوله مادحاً

(١) الديوان : ١٧٥ .

(٢) نفسه : ٣٨٠ .

(٣) نفسه : ٣٨٠ .

(٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، حلمي ، ق ١ ص ١٤ ، وابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٩-٢٧ .

نور الدين ومباركاً سياسته العادلة :

أسقطت أقساطاً ما وجدت من الـ مكسٍ بعدلٍ ، والقاسط ارتدعا^(١)

وإلى جانب عدله كان نور الدين زاهداً متقشفاً ، مع سعة ملكه ، وكثرة ذخائر بلاده ، فلم يكن يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من مُلِكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة . ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حديد أو ذهب أو فضة^(٢) .

وقد صورّه العماد زاهداً في الدنيا تاركاً اللذات ساعياً للأخرة ، مقدماً ما يستطيع في نصرة الدين وحماية الشريعة ، فترك الدنيا وسار عنها في طلب الآخرة كما يقول :

ملكْتَ دِيكَ وَخَلَفْتَهَا وَسِرْتَ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرَةَ^(٣)

ومن مظاهر عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ، ويقول نحن شحْنٌ لها نمضي أوامرنا^(٤) وقد منع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ، ومنع صنعها ، وكان يحدُّ شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواسية^(٥) .

وقد صورّه العماد لا مثيل له في حفاظه على السنن وإخلاصه العبادة لله إذ يقول :

هل مثل محمود بن زنكي مخلص متوحدٌ يبغي رضاك بكلِّ فنِّ
زِرْعَ لَدَى المِحرابِ أروعَ محربٍ في حالتيه إن أقام وإن ظنَّ^(٦)

(١) الديوان : ٢٨٦ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، حلمي ، ق ١ ج ١ ، ص ١١ : وابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ٥٣ .

(٣) الديوان : ٢٠٩ .

(٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، حلمي ، ق ١ ج ١ ، ص ١٥ ، وابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠ .

(٥) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ق ١ ج ١ ، ص ١١ .

(٦) الديوان : ٤٢٦ .

وقد أشار العماد إلى هذه الصفة من صفات العماد وهي تعظيم الشريعة في قصيدته التي يقول فيها :

موليٌّ به اشتدُّ للدين من والشريعة أزرُ
نورٌ تجلَّى عياناً ما دونكهُ اليومَ سترٌ^(١)

في هذه الأبيات يصور العماد مدوحه نور الدين وقد اكتملت فيه الصفات المطلوبة التي تمثل طموح الأمة فيه ، فبه اشتدَّ أزر الدين والشريعة ، وكل مقاصده صائبة صحيحة ، وأفعاله لا يقصد بها إلا البر ، ولهذه الشمائل يرى الشاعر أن محبة نور الدين هي أمرٌ واجب على كل المسلمين ، وينسب كل من أحبه إلى الإيمان ، ويكثر كل من أبغضه ، ولا يخفى ما في هذا الرأي من مبالغة ، ولكن الشاعر مأخوذ بشخصية المجاهد نور الدين ، فقد تميَّز عن غيره من الشخصيات الإسلامية التي عاصرت بحبه للجهاد ، وحفاظه على شعائر الدين ، ومقاومته للفساد ، والبدع والضلال ، فهو ملتزم بحفظ أمور الدين كما يصوره العماد إذ يقول :

للهِ دركُ نورالدينِ من ملكِ عدلٍ لحفظِ أمورِ الدينِ ملتزمِ^(٢)

وفي مقابل هذه الصورة لنور الدين يصور العماد الحكام الآخرين غير ملتزمين بأمور الشريعة فقد أضعوا السنن ، وفشت في بلادهم البدع والفساد ، وعمَّ فيها الخوف فهذه حال مصر كما يصفها العماد قبل القضاء على الدولة الفاطمية فيها ، وبفتح نور الدين لها عاد إليها الأمن واتسقت السنة فيها ، وانمحقت البدعة كما يقول :

وأصبحت بكَ مصر بعد خيفتها للأمن والعز والإقبال كالحرمِ
والسنة اتسقت والبدعة انمحقت وعادت دولة الإحسان والكرمِ^(٣)

(١) الديوان : ١٧٤ .

(٢) نفسه : ٣٨٢ .

(٣) نفسه : ٣٨١ .

ويظهر أثر المحافظة على الدين ونصرته إيجابياً على المسلمين وسلبياً على الكفار ، فقد كان من آثار اعزازه للدين وأهله : إذلال وهوان لأهل الشرك ، فنرى العماد يخاطب معدوحيه بلسان الرضا عن سيرته في نُصرة الدين ، يقول :

إِعْزَاذَكَ الدِّينَ الحَنِيفَ وَحزْبَهُ قَدْ خَصَّ أَهْلَ الشَّرْكِ بِالإِهْوَانِ
أذَعَنْتَ لِلَّهِ المُهَيْمِنِ إِذْ عَنَتَ لَكَ أَوْجَهُ الأَمْلَاقِ بِالإِذْعَانِ (١)

وحين يتحدث العماد عن الملوك المعاصرين لنور الدين فإن نور الدين يتفوق عليهم ويتميز عنهم بقيامه بأمور الدين والملك ، كما يقول من قصيدة له فيه :

بالدين والملك له قيامَةٌ وللملوك عنها قعودها
ودأبه ثلَمَ ثغور الكفرِ لا لثَمِ ثغورِ نافع برودها (٢)

ويصوره ملكاً جاداً بعيداً عن اللهو والملذات ، بعكس ملوك زمانه ، يفعل الخير مؤمناً بفعله ويتفوق على الملوك في سياسته وجهاده ، يقول :

ما للملوك لدى ظهورك رونق وإذا بدت شمس الضحى خفى السُّها
إن الملوك لهوا وانك من غدا وبماله والملك منه مالها
شرهت نفوسهم إلى دنياهم وأبى لنفسك زهدا أن تشرها
ما نمت عن خير ولم يك نائماً من لا يزال على الجميل منها
أخملت ذكر الجاهلين ولم تنزل ملكاً بذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجبا تغنى فقيراً أو تجير مدلهها
لرضاهم متحفظاً ولحالهم متفقداً ولدينهم متفقهها
وبما به أمر الإله أمرتهم من طاعة ونهيتهم عما نهى
عن رحمة لصغيرهم لم تشتغل عن رافة لكبيرهم لن تشدها
أتعبتك نفسك كي تنال رفاة من ليس يتعب لا يعيش مرقها
فقت الملوك سماحة وحماسة حتى عد منافيتهم لك مشبها
ولك الفخار على الجميع فدوتهم أصبحت عن كل العيوب منزها

(١) الديوان : ٤١٧ .

(٢) نفسه : ١٤٤ .

وأراك تحلم حين تصبح ساخطاً ويكاد غيرك ساخطاً أن ينفها^(١)

جمع العماد في هذه الأبيات أشرف الصفات وأنبأها للحاكم المسلم ؛ الذي يرى رعاية الرعية واجباً يملئ عليه تفقد أحوالها ، وارشادها إلى أوامر الله ونواهيها وأن يكون رحيماً رؤوفاً بأفراد رعيته ، ان هذه الصفات التي ذكرها العماد جعلت نورالدين متفوقاً على غيره من ملوك عصره حتى أصبح لا شبيه له بينهم ، فتميز عنهم بكل ما هو محبب إلى النفوس السوية فاستحق هذه المنزلة الرفيعة .

كان العماد من المعجبين بسياسة نورالدين وحكمته فقد لازمه حين خدم في بلاطه ، واطلع هن كثر على شخصيته ورأى فيها ما يبعث الإعجاب في النفس ؛ فعبر عن هذا الإعجاب بالثناء على سياسة نورالدين الحكيمة التي أشاعت الأمن في ربوع دولته فعم الخصب والرخاء نتيجة للاستقرار ، فكان بقاء نورالدين مصدراً لرخاء الدولة وعيداً لأهلها كما يقول العماد :

يا دولة نوريةً أمن الوري	وخصبها وجودها وجودها
فأبق لنا يا ملكاً بقاءه	في كل عام للرعايا عيدها
في نعمةٍ جديدةٍ سعودها	ودولةٍ سعيدةٍ حدودها ^(٢)

ومن مظاهر سياسة السلطان نورالدين الحكيمة حرصه على إشاعة العدالة بين الناس ومقاومة الظلم والفساد ، فعندما يحس بمظلمة تقع على الرعية فإنه يتحرك بسرعة لإزالتها ، وهذا ما فعله (بابن حسان) صاحب منبج فعندما تناهى إلى علمه فساده وظلمه للرعية بعث إليه من حاصره وانتزع المدينة منه ، وقد أثار هذا العمل حماس العماد وإعجابه فمدح السلطان نورالدين وأثنى على إنجازته فقال :

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، طبعة دار الجيل ، ج ١ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ ، والروهتين ، تحقيق محمد حلمي ، ج ١ ، ق ٢ : ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) الديوان : ١٤٦ .

ما أعجزتك الشهب في أبراجها طلباً فكيف خوارج في أبرج
ولقدراً من يعصيك أحقر أن يرى أثر العيوس بوجهك المتبلج
لكن تهذب من عصاك سيامةً في ضمنها تقويم كل معوج^(١)

وعندما انتهى الوجود الفاطمي في مصر أثنى العماد على سياسة نورالدين وما أشاعه من أمن واستقرار في ربوع مصر بقضائه على شاور ، يقول مهنئاً نورالدين بملك مصر :

ملك مصر أهني مالك الأمم فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت من العدو بحد الصارم الخدم
أعانها الله في إطفاء جمر أذى من ثمر شاور في الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها للأمن والعز والإقبال كالحرم^(٢)

لقد كان نورالدين مثالاً للحاكم المسلم المخلص لله في سعيه «فقد كان متبعاً للأثار النبوية ، مواظباً على الصلوات في الجماعات ، عاكفاً على تلاوة القرآن حريصاً على فعل الخير ، عفيف البطن والفرج ، مقتصداً في الإنفاق ، متحرياً في المطاعم والملابس ، ولم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره ، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو ارشاد إلى سنة يتبعها»^(٣) . وتظل هذه الصفات فوق ما مدح به من شعر عند العماد وغيره .

- نورالدين (المجاهد) :

من العناصر المهمة التي تشكلت منها صورة البطل نورالدين حبه للجهاد ، فقد ذكر عنه أنه كان يتعرض للشهادة ، ويسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير^(٤) . وكان يقود الجيوش بنفسه ، ويروى أنه كان أصبر

(١) الديوان : ١٠٢ .

(٢) نفسه : ٣٨١ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠ ، ١١ : ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ٥٣ وما بعدها .

(٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠ .

الناس في الحرب وأحسنهم مكيده ورأياً ، « وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركاشين وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها » (١) .

اهتم العماد بهذا الجانب من حياة نورالدين ، فصوّره بطلاً محارباً يمضي ليله بالإعداد للمعارك ، ويقطع يومه على صهوة جواده بين كراً وفرّاً ، في حين يمضي غيره من الحكام حياتهم بين أحضان اللهو والمجون ، يقول :

يمسي ويصبحُ في الجهادِ وغيرهُ يضحى رضيعَ سلافٍ وضجيعَ دنٍ (٢)
والجهاد أحلى أمانيه كما يقول العماد :
أحلى أمانيك الجهادُ وأنسهُ لك مؤذِنٌ أبدأ بكلّ أمانٍ (٣)

ويصوّره مفرماً بالجهاد مولعاً به كأنه الصب الذي لا يستطيع الصبر عن محبوبه ، يقول :

أصبحتَ بالغزوِ صبباً وعنه مالِكُ صبرٍ (٤)

ونتيجة لولع نورالدين بالجهاد وشغفه بالغزو فإنه كان يطلب من العماد أن يذكره دائماً بالجهاد والغزو من خلال دوبيتات يقولها على لسانه في معنى الجهاد والغزو ، ومنها قوله :

أقسمتُ سوى الجهادِ مالي أربَ والراحةُ في سواهٍ عندي تَعَبُ
إلا بالجيدُ لا ينالُ الطلبُ والعيشُ بلا جدٍ جهادٍ لَعِبُ (٥)

وقال أيضاً في معنى الجهاد على لسانه :

لا راحةُ في العيشِ سوى أنْ أغزو سيفي طرباً إلى الطلبي يهترُ

(١) الديوان : ١٩ .

(٢) نفسه : ٤٢١ .

(٣) نفسه : ٤١١ .

(٤) نفسه : ١٧٦ .

(٥) نفسه : ٧٦ .

في ذلّ ذوي الكفرِ يكونَ العزُّ^(١) والقدرةُ في غيرِ جهادٍ عَجَزُ^(٢)
وقال :

للفزو نشاطي وإليه طربي مالي في العيش غيرةً من أرب
بالجدُّ والجهادُ نُجَحَ الطلب والراحةُ مستودعةٌ في التعب^(٣)

يقدم العماد نورالدين للقارئ ، وقد وقف نفسه على الجهاد ، وترك أمور الدنيا لاهلها حتى غدت أفعاله الجهادية مشهورة بين الوري ، وتميز عن غيره من الحكام بتركه الاشتغال بملذات الدنيا ، واشتغاله بالجهاد حتى غدت مقارعة الكفار عادة من عاداته استغنى بها عن معاشره النساء ، وأصبح يطرب للذكر الحسن لا للأغاني والأغاريذ ، ويجد في امتطاء سهوات الجياد راحة ومنتعة تنسيه وصال الحسان من النساء ؛ هكذا تبدو صورته كما يرسمها العماد ، يقول :

عزمتُه مشهورة في الوري وسيفُه ليس بمغمود
وثلمُ ثغر الكفر عاداته لا لثمُ ثغر الغادة الرود
تثني مثاني الذكر عطفيه لا لحنُ المثاني والأغاريذ
وفي مطا الجرد له راحة تُنسي وصال الجرد الغيد^(٤)

ويمضي العماد في رسم صورة المجاهد نورالدين باني الدولة ومحرر البلاد ، إذ يقول :

غدوت للإسلام ركناً وكم ركنِ ضلالٍ بك مهنود
وذلل لأواء بني الشرك في لسواء نصرٍ لك معقود
شيدت بالشام بناء الهدى عزمًا وحزمًا أي تشيد^(٥)

في هذه الأبيات تبدو صورة البطل باني الدولة الإسلامية ، وقد تطلب هذا البناء منه أن يهدم أركان الضلال وأن يذل الشرك والمشركين ، ويتمكن من إشادة

(١) الديوان : ٢٢٢ .

(٢) نفسه : ٧٧ .

(٣) نفسه : ١٢٨ ، ٢٩٠ .

(٤) نفسه : ١٢٩ .

البناء بناء الهدى كما يصفه الشاعر ، الذي بناه بالحزم والعزم والجهاد المتواصل ، فطهر البلاد من المحتلين ، ورفع آيات الإيمان والتوحيد خفاقة في أطرافه ، يقول مصوراً فتكه بالأعداء في بلاد الشام :

لولاك لم تعمل بأطرافه . رايات إيمانٍ وتوحيدٍ
فلم تدع في أرضه كافراً . أو ملحداً ليس بملحودٍ
ولم تغادر منهم سيلاً . يندُر إلا طُمنة السيدِ
ولم تزل تُردى صناديدهم . بجنودك الغر الصناديد^(١)

وفي موقف آخر صور العماد نورالدين وقد تفرد بالجهاد دون ملوك عصره ، وهو لا يلقى الأعداء ثقة بقوته وإنما يلقاهم ثقة بنصرة الرحمن له ، لإيمانه بأن الله ينصر المجاهدين في سبيله ، وما زال نورالدين ينهض بالمهمة الصعبة الثقيلة حتى دانت له الدنيا وملك البلاد من العراق إلى مصر ، يقول العماد مصوراً جهاد نورالدين :

قل أين مثلك في الملوك مجاهد . لله في سر وفي إعلان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة . لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلاً بالذي . لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأيد أقصى مبلغ . ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا فقاصيهما إذا . حققتَه - لنفاذ أمرك - دان
فمن العراق إلى الشام إلى ذرى . مصر إلى قوص إلى أموان^(٢)

اتصف نورالدين بالشجاعة والقوة والمهابة والدراية بفنون الحرب ، فقد روى جماعة عن شجاعته : « أنهم لم يروا على ظهر الغرس أحسن منه ، كأنه خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل »^(٣) ، وكان في الحرب ثابت القدم ، حسن الرمي ، صليب الضرب^(٤) .

(١) الديوان : ١٣٩ .

(٢) نفسه : ٤١٧ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨ .

(٤) نفسه : ١٠ .

وقد رسم له العماد صورة متميزة في القوة والشجاعة ، فجعله غالب الملوك ،
وسالب تيجانها ، وهو فارس الفوارس في ميادين الوغى ، يقول :

يا غالبَ الغلبِ الملوكِ وصائدَ الصم
صيدِ الليوثِ وفارسَ الفُرسانِ
يا سالبَ التيجانِ من أربابها
حُزرتَ الفَخارَ على ذوي التيجانِ^(١)

لقد حاز نورالدين الفخار على الملوك بما حقق من فتوح عظيمة لم يسبق
إليها ، ولوقعاته المشهورة مع الفرنج التي سار ذكرها في الآفاق والبلدان ،
ويصور العماد هذه المفاخر فيقول :

كم بكرٍ فتحٍ ولدتُهُ ظَبَاكُ من
حَرْبٍ لقمعِ المُشركينَ عَوَانِ
كم وقعةٍ لك في الفرنجِ حديثها
قد سارَ في الآفاقِ والبلدانِ
كم مُصعبٍ عَسرِ المقادِهِ قَدْتُهُ
نحو الردى بخزائمِ الخذلانِ
للرومِ والإِ فرنجٍ منك مصائبُ
بالترك ، والأكرادِ والمُربانِ
إعزازك الدينِ الحنيفِ وحزْبُهُ
قد خصَّ أهلَ الشركِ بالإهوانِ^(٢)

ويتحدث العماد عن مهابة نورالدين في نفوس الأعداء ، فقد زرع الرعب في
قلوبهم ، فظهرت علامات الرعب على وجوههم ، يقول :

وامتنارتْ عزائمُ الملكِ العا
دلِ نورالدينِ الكريمِ الأغرُ
وبنو الأصفرِ القوامِ منهُ
بوجوهٍ من الخفاقةِ صُفْرِ^(٣)

وقال دوبيتاً على لسان نورالدين في معنى الجهاد ، صورَ فيها ما لحق
بالأعداء من ذل وهوان على يد نورالدين وما له من عزم وتصميم على جهادهم ،
يقول :

أذللتُ ذوي الشركِ بعزِّ العزمِ
والكفرِ بهزِ صارمِي في عَزْمِ
سَيِّدتُ بنى المَلِكِ بِأمرِي الجُزْمِ
والنصرَ رايئُهُ قريِنَ الحُزْمِ^(٤)

(١) العماد ، الديوان ، ٤١٠ ، ٤١١ .

(٢) نفسه : ٤١١ ، ٤١٧ .

(٣) نفسه : ٢٠٠ .

(٤) نفسه : ٣٩٣ .

وفي قصيدة أخرى قالها في مدح نورالدين يصوره بطلاً يلحق بالفرنج مصائب عظيمة ، ويدخل الرعب في نفوسهم إذ يقول :

جَلَّ رُزْءُ الْفَرَنْجِ فَاسْتَبَدَلُوا مِنْهُ
سَهَ بَلْبُوسِ الْحَدِيدِ لَبْسَ الْحِجْدَادِ
فَرَّقَ الرَّعْبَ مِنْهُ فِي أَنْفُسِ الْكُفِّ
سَارَ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ^(١)

بهذه الصفات جميعها تتجلى صورة نورالدين متفوقة على غيرها من صور حكام عصره ، ويصفه العماد في أعلى المراتب بين الحكام فهو أعظم الناس قدراً ، لا بل هو صاحب القدر الوحيد وليس لغيره قدر ، ويعقد العماد مقابلة بين نورالدين وغيره من حكام عصره ويجعله متفوقاً عليهم وهو متفوق في الحقيقة عليهم كما تذكر كتب التواريخ والسير ، يقول في مدحه :

يَسَا أَعْظَمَ النَّاسِ قَدْرًا
وَسَاهَرًا حِينَ نَامُوا
مَا اعْتَدَتْ إِلَّا وَفَاءً
وَفَعَلْتُكَ الدَّهْرَ غَزْوًا
وَهَلْ لِفَيْرِكَ قَدْرٌ ؟
وَقَائِمًا حِينَ قَرُّوا
وَعَادَةُ الْقَوْمِ غَدْرًا
لِلْمَشْرُكِينَ وَفَهْرًا
وَفَعَلْتُ غَيْرَكَ ظَلْمًا
لِلْمُسْلِمِينَ وَقَسْرًا^(٢)

ظل نورالدين يقود حركة الجهاد دون كلل ، فحرر مدناً كثيرة ، وانتصر على الفرنجة في غير ما موقعة ، وأسر كثيراً من قادتهم ، وظل يقود حركة الجهاد ضد الفرنجة حتى وفاته سنة ٥٦٩ هـ .

- نورالدين (المقتدي بالسلف) :

وجد الكتاب والشعراء في شخصية نورالدين ما يذكرهم بشخصيات إسلامية معروفة فربطوا بين شخصيته وتلك الشخصيات ، وقد أضفى عليه أولئك الكتاب والشعراء صفات الصالحين الاتقياء وشبهوه بالخلفاء الراشدين والصحابه رضي الله عنهم ، وقد صوره العماد يسير على نهج داود عليه السلام في دفاعه عن الملة وحفظه لها ، يقول :

(١) الديوان : ١٢٦ .

(٢) نفسه : ١٧٥ .

والملّة الغراء خالٍ بالها
مفترةٌ ثغورها ممنوعةٌ
وإن بغى جالوتها ضلالة
عال سناها بك حالٍ جيدها
ثغورها محفوظةٌ حدودها
فأنت في إهلاكه داودها^(١)

ويصوره في قصيدة أخرى مقتدياً بسليمان في العفاف وباليسع في الزهد ،
يقول :

أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ويشبه أصحابه بأصحاب الرسول إذ يقول :
سلكٍ وتحكي بزهدك اليسعاً^(٢)
لم تدر غير حمية الفتيان
هم كالصحابة يوم بدر حاولوا
نصر النبي ونبت عن حسان^(٣)

نال نورالدين إعجاب الرعية بما أشاعه من العدل بينهم ، وبما أسداه من الخيرات بينهم ولمواقفه المشرفة في مجاهدة الفرنجة ، وقد حرص وهو في موقع المسؤولية أن يقتدي بالسلف الصالح إيماناً منه بضرورة إحياء الشريعة الإسلامية، مبعث القوة لهذه الأمة ، النازعة إلى التحرر والخلاص من الاحتلال الصليبي ، واستطاع نورالدين بسياسته تلك أن يخطو بالأمة الإسلامية خطوات كبيرة في هذا المجال ، وما لبثت أن حققت النصر بتمسكها بذلك المنهج ، وقد حفظ لنا التاريخ الأدبي والسياسي صورة مشرقة لذلك القائد الفذ .

(١) العماد ، الديوان ، ١٤٥ .

(٢) نفسه : ٢٨٥ .

(٣) نفسه : ٤١٣ ، ٤٩٥ .

صلاح الدين :

كان صلاح الدين الأيوبي من أعظم أبطال الحروب الصليبية ، قاد المعارك ضد الصليبيين طوال مدة ولاية نورالدين زنكي ، ودخل مصر إلى جانب عمه أسدالدين شيركوه ثلاث مرات يقودان جيش نورالدين زنكي لتخليص مصر من الصليبيين ، ومن وزرائها المستبدين ، وقد ظهرت كفاءة صلاح الدين العسكرية في زمن مبكر بما حققه من انتصارات في ساحات الجهاد ، وبعد وفاة نورالدين تولى قيادة الأمة وقيادة الجهاد فسطر أروع الملاحم ، فقد انتزع القلاع والحصون من أيدي الصليبيين ، وحرر المدن وخلص المقدسات ، فأكبرت فيه الأمة الإسلامية إخلاصه للجهاد ، وتغنى الشعراء بطولاته ، ورسموا له صورة عظيمة قوامها العدل والتقوى ، وحماية الدين والدفاع عنه ورعاية الأمة وحماية ديار الإسلام ومجاهدة العدو ، وتحرير المقدسات .

لم يكن صلاح الدين قائداً عسكرياً فحسب بل كان حاكماً مقتدراً تجلت حنكته السياسية في كثير من المواقف ، فقد استطاع بعد وفاة نورالدين أن يقوي الوحدة بين مصر وبلاد الشام والجزيرة الفراتية ، وأن يشكل جبهة قوية في وجه الصليبيين ، وبالإضافة إلى حنكته السياسية في إدارة شؤون الدولة ، فإنه كان حاكماً عادلاً محسناً تقياً زاهداً تجلت فيه صفات القائد المسلم الذي يرى العمل عبادة ينبغي أن تؤدي لله كما يجب .

ظفرت شخصية صلاح الدين بتقدير كبير من شعراء عصره ، ولعله أعظم بطل في الحروب الصليبية ظفر بتقدير الشعراء وإعجابهم ، فأحاطوا به ينظمون أسباب مجده ، ويشيدون بوقائعه وجهاده ، ويسجلون كل ما قام به من حركات مباركة في سبيل مجد الإسلام هو صلاح الدين ، فقد تضافر على رسم بطولاته عدد كبير من شعراء عصره ، زادوا عن الخمسين شاعراً منهم : المصري والشامي والعراقي «^(١) .

شارك العماد غيره من شعراء عصره الإعجاب بصلاح الدين ، فمدحه بجملة من القصائد التي جاول فيها أن يصوره بصورة تنسجم مع بطولاته ، وترضي الذوق الإسلامي العام ، فبدا لنا كما صوره العماد كريماً ، شريفاً ، محسناً ، لطيف المعشر ، صلباً قوياً ، شديد البطش في مواقف الحزم والقوة ، وهذه هي صفات

(١) أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، من ٤٢٤-٤٢٧ .

الفروسية . وبها يصفه العماد ويفضله على غيره حين يقول :

وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى	رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا	وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
وبطشسته الكبرى ، وعزمته القعسا	سجته الحسنى وثيمته الرضا
ينير بما يولي لياينا الدمسا ^(١)	فلا عدمت أيامنا منه مشرقاً

- صلاح الدين (راعي المسلمين) :

سار صلاح الدين على منهج سلفه نورالدين بالاهتمام بأمور المسلمين وتوفيره الحياة الكريمة لهم ، فبنى المدارس والربط والمساجد والبيمارستانات ، وشجع العلم وأشاع العدل بين الناس^(٢) ، وأزال الظلم وقمع الضلال وحارب الفساد . وقد ذكر العماد جملة من مناقبه بعد وفاته ، وهي ذات دلالة أكيدة على اهتمامه بأمور المسلمين ورعاية مصالحهم ، فقد وصف زهده وتحريه للحلال وتجنبه للحرام فقال « وكان لا يلبس إلا ما يحل لبسه ، وتطيب به نفسه ، كالكتان والقطن والصوف »^(٣) و « كان يغضب للكبائر ، ولا يفضي عن الصفائر . ويرشد إلى الهدى ويهدي إلى الرشاد ويسدد الأمر ويأمر بالسداد ، فكان مماليكه وخواصه ، بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد »^(٤) . وقد وجد الشعراء في شخصية صلاح الدين النموذج المطلوب والشخصية التي تحقق طموح الأمة ، فصوره إماماً عادلاً زاهداً تقياً ورعاً محافظاً على السنن خادماً للشريعة ، مدافعاً عن الإسلام ، مزيلاً للمفاسد والمظالم ، محققاً للرعايا حياة كريمة ، وقد شارك العماد شعراء عصره الإعجاب بصلاح الدين وزاد عليهم لأنه لازم السلطان منذ حمله أعباء المسؤولية حتى وفاته . وقد عبّر عن هذا الإعجاب بأشعار كثيرة مدح بها صلاح الدين ورسم له فيها صورة مشرفة للسياسي والإداري الناجح ، والحاكم العادل

(١) الديوان : ٢٢١ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة . مجلد ٦ ، ص ٥٤-٥٥ : رحلة ابن جبير ، ص ١٦ .

(٣) محمد بن قاسم الاسكندراني ، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية ، تحقيق د. عزيز سوريال عطية ، طبعة حيدر آباد الركن ، ١٩٧٠ ، ج ٤ ، ص ٦٩ . وانظر : ا

بن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٣ .

(٤) العماد ، الفتح القسي ، ٦٥٦ .

الملتزم بالشريعة والمدافع عنها . ومن مظاهر إعجاب العماد بالقدرة الإدارية والسياسية لصلاح الدين مدحه له حين تمكن من إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، ويقول مبدياً إعجابه بما تحقق على يدي صلاح الدين :

قد خطبنا للمستضيء بمصر	نائب المصطفى إمام العصر
وأشعنا بها شعار بني العبد	باس فامتشرت وجوه النصر
وتركنا الدعوى يدعو ثوراً	وهو بالذل تحت حجرٍ وحصر
وتباهت منابر الدين بالخط	بجة للهاشمي في أرض مصر
فاغتنى الدين ثابت الركن في مصر	مر ، محوط الحمى ، مصون الثغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا	قبله ، بسين منكرٍ ومقر
والذي يدعى الإمامة بالقفا	هرة انحط في حضيض القهر
خلفاء الهدى مرآة بني العبد	باس والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظافر مستقيم	ظاهر قوة قوى الظهر ^(١)

ويعجبه كذلك ما فعله صلاح الدين بالمخالفين والقضاء على فتنهم ، فنراه يشيد بالنصر الذي حققه السلطان عندما تغلب على مؤتمن الخلافة جوهر في مصر بعد الفتنة التي قادها ضد صلاح الدين أول عهده بمصر ، وامتدح سياسته في مصر وما حققه فيها من أمن واستقرار ، يقول :

بالمك الناصر استنارت	في عصرنا أوجه الفضائل
علي من حقه فروض	شكراً لما جاد من نوافل
يوسف مصر الذي إليه	تشهد آمالنا الرواحل
أجريت نيلين في ثراها	نيل نجيع ونيل نائل
رأيت في الدهر عن رزايا	جلا مهماته الجلائل
كم كرم من نذاك جار	وكم دم من عذاك سائل
أقررت عين الإسلام حتى	لم يبق فيها قذى لبائل
وكيف يزهي بملك مصر	من يستقل ذنباً لنائل
وما نقيت السودان حتى	حكمت البيض في المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقاً	عليهم كفة الحابل

وكل رأيت منهم كراء
وقد خلت منهم المغاني
وما أصيبوا إلا بطل
مؤمن القوم خان حتى
وأرض مصر كلام واصل
وأقربت منهم المنازل
فكيف لو أمطروا بوابل
غائثه من منيره غوائل^(١)

تمكن صلاح الدين من إحكام سيطرته على مصر بعد أن أسقط الخلافة الفاطمية ، فجدد السنن فيها وأزال البدع ، وأعاد إليها عصور مجدها ، وعادت كما كانت في عصر سيدنا يوسف عليه السلام ، من النظام والأمن والاستقرار . وقد عبر العماد عن مقدرة صلاح الدين الإدارية والسياسية في القصيدة التي قالها بعد وفاة العاضد وبين فيها استقرار صلاح الدين بمصر ، يقول :

توفي العاضد الدعوى فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا
وانطفأت جمرة الفؤاد وقد
وصار شمل الصلاح ملثماً
لما غدا معلناً شعار بني الـ
يفتح ذو بدعة بمصر فما
يوسفها في الأمور محتكما
باح من الشرك كل ما اضطرما
بها وعقد السداد منتظما
عباس حقاً ، والباطل اكتما^(٢)

كان السلطان صلاح الدين يرى أن إقامة العدل واجب شرعي يجب القيام به واشاعته بين الناس . وقد عرف عن السلطان أنه « كان يجلس يوم الاثنين والخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل واحد ، وكان يفعل ذلك سرفاً وحضراً »^(٣) . وصفة العدل صفة مهمة لا بد منها لنجاح الحاكم في سياسة رعيته ، وهي صفة لازمت صلاح الدين ، وشكلت مع غيرها من الصفات الشخصية القائد المسلم ، يقول العماد في عدل السلطان :

عدلت فلا ظلم ، وطلت فلا مدى
وقلت فلا مین ، وجدت فلا قحط^(٤)

(١) العماد ، الديوان : ٣٢٤-٣٢٥ .

(٢) نفسه : ٣٧٦ .

(٣) محمد بن القاسم الاسكندراني ، الإمام ، ج ٤ ، ص ٦٩ ، وكذلك ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ١٣ .

(٤) الديوان : ٢٨٢ .

وحين يخلص صلاح الدين مصر من شر شاور فإن العماد يمدحه مؤكداً .
عدله ، مصوراً الرعية في مصر وقد أمنت بهذا العدل . وبما أطفأه من الشرور ،
فنال صلاح الدين بهذه الأفعال الثناء والشكر من الرعية ، يقول :

وأتمتم فيها الرعايا بعدلكم وأطفأتم من شر ثاورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة وحزتم بما أبديتهم الحمد والشكرا^(١)

ومن مظاهر عدل السلطان والتزامه بحكم الشريعة إسقاطه المكوس عن
حجاج بيت الله الحرام سنة خمسمئة وأربع وسبعين ، وتعويض أمير مكة عن هذه
المكوس ثمانية آلاف أردب قمح^(٢) . ويشير العماد إلى هذا المظهر من مظاهر عدل
السلطان ، فيقول :

فكيف مكست الشركين رؤوسهم ودأبك في الإحسان أن تطلق المكسا^(٣)

ويُلبس العماد بطله صلاح الدين ثوباً من التقى والزهد في الدنيا ، فهو لا
يرى النصر بقوته ، وبتعداد جيشه ، ولكنه يراه بتقوى الله ، ومن يتق الله يمنحه
أسباب النصر والقوة ، فيتغلب على أعدائه ، وهكذا كان صلاح الدين ، فقد جاهد
الكفار لينال رضا الله ، ويفوز بنصره ، وترك الدنيا ونظر إليها نظرة الملوك ،
وأغذ السير يطلب الآخرة كما يصفه العماد حين يقول :

رأى النصر في تقوى الإله كل من تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة أغذ من الأولى مسيراً إلى الأخرى^(٤)

أدرك السلطان أهمية العقيدة في صون وحدة الأمة والحفاظ على كيانها أمام
الطامعين . فحافظ على هذه العقيدة وصانها ودافع عنها ، كما حافظ على وحدة
الأمة فحمى حوزة الإسلام من عبث الحكام الفاسدين الذين خرجوا عليه في الشام
والموصل والجزيرة بعد وفاة نور الدين ، يقول العماد مصوراً دفاعه عن الإسلام :

(١) الديوان : ١٦١ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ٣/٢ .

(٣) العماد ، الديوان ، ٢٢٤ .

(٤) نفسه : ١٦٠ .

منعت حمى الإسلام للنصر معطياً
وصلت وكم فرجت عنا مُلمّة

غداة عوت من دونه الأذوب المعط
بسهم الرزايا في الكرام لها لهطاً^(١)

يظهر البطل صلاح الدين من خلال هذه الأبيات وقد منع حمى الإسلام في الشام بتحقيقه النصر على الأعداء الذين أحاطوا بهذا الحمى كأنهم الذئاب الجائعة، وكانت صولاته الكثيرة سبباً في تفريغ الملمات عن المسلمين ، وكانت عودته إلى الشام عودة للحق فيها ، يقول :

بعودك عاد الحق واتضح الهدى
وهبّ نسيمُ النصر وانفجر الضغط^(٢)

لقد أجار الشام بعودته إليها من شؤم جيرانه من الحكام الطامعين ، الذين جاروا واعتدوا على الرعية ، وجبنوا عن ملاقاتة أعداء الإسلام ، فقال في وصفهم :

وأنت أجرت الشام من شؤم جاره
وأنت أجرت الشام من شؤم جاره

ولم يكف رهط الكفر حتى بغى رهط^٣
وصلت وقد خاروا ولنت وقد لطوا

عدلت فلا ظلم ، وطُلت فلا مدى
وقلت فلا مَن ، وجُدت فلا قحط^(٤)

إنها صورة مثالية يرسمها العماد للسلطان صلاح الدين في مقابل صورة غيره من حكام المسلمين ، وحتى يؤكد هذه الصورة فإنه يعقد مقارنة بينه وبين هؤلاء الحكام في القصيدة التي هنأه فيها بكسر عسكر حلب (بتل السلطان)^(٥) سنة خمسمئة وواحدة وسبعين ، يقول :

كم مارقٍ من مَأزقٍ دمه على
يصيبك نهسٌ إن سباه ناهد

مسح الحسام مرقه مسأحه
ولديك جدٌ إن أباه مزاحه

ولك الكعوب مقومات للردى
راح النجيع بها صحاف صفاحكم

ملأى وتملاً كل كأس راحة
وتدور في خلواته أقداحه

(١) الديوان : ٢٨١ .

(٢) نفسه : ٢٨١ .

(٣) نفسه : ٢٨٢ .

(٤) نفسه : ١١١-١١٠ .

ويروقه الخمر الحرام وعندكم
مما يراق من الدماء مباحه
ضرب الطلى بالمشرفي طلابكم
ويراح من شرب الطلا طلاحه
محمراً خدً صقيلة تفاحكم
وأسيئل خدً عقيلة تفاحه^(١)

تتجلى في هذه المقارنة صورة صلاح الدين البطل المجاهد الذي تفتنه الجياد القوية ، ويطرب للرماح المشرعة للردى ، وتخضب سيوفه دماء الأعداء ، وفرسانه تجول على سهوات جيادها في ميادين القتال ، وفي مقابل هذه الصورة القوية الفاتنة في زمن الحرب نرى صورة زرية للحكام الآخرين الذين يمضون أيامهم في اللهو والمزاج وطلب اللذات وشرب الخمر . ولهذه الصفات فإن صلاح الدين نال إعجاب الرعية والتفتت حول قيادته الحكيمة . وقد صور العمد الرعية متعلقة به لا تستغني عن وجوده بينها تفتقه إذا غاب عنها ، وهذه هي حال أهل الشام عندما غاب عنهم في مصر ، فإن العمد يصورهم وهم يرقبون عودته كأنهم يرقبون قدوم العيد ، ويشبه حالهم في انتظاره بحال السقيم الذي يرقب الشفاء ، والفقير الذي يرتجي الغنى ، وعندما يعود فإن عودته تكون عيداً لأهل الشام ، ويربط الشاعر بين هذه الصورة وعودة سيدنا يوسف عليه السلام إلى أبيه يعقوب . وقد جعل منزلة القائد صلاح الدين عند أهل الشام بمنزلة الأب الذي يهش لقدوم ابنه الغائب الذي كان قد ينس من عودته ، يقول :

ورقبتا كالعيد عودك فالير
م به للأنام عيد كبر
مثلا يرقب الشفاء سقيم
أو كما يرتجسي الثراء فقير
عاد من مصر يوسف والي يع
قوب بالتهنئات جاء البشير^(٢)

ويبالغ العمد في تعظيم البطل صلاح الدين حين يصور حاجة الناس إليه في قيادتهم وهو في المهدي لما يتصف به من سداد رأي وكرم لا يدانيه كرم حين يقول :

أنت من لم يزل يحن إليه
وهو في المهدي ، سرجه والمرير
فضله في يد الزمان سوار
مثلا رأيه على الملك سور
كرم سابع ، وجود عميم
وندى سائع ، وفضل غزير

(١) الديوان : ١٨٤ ، ٨٣

(٢) نفسه : ١٨٠ .

راحة أم سحابة ، وبنان أم غمام وانمسل أم بحور ؟^(١)

- صلاح الدين المجاهد :

اشتهر صلاح الدين ، وذاع صيته في الآفاق ، وتخلدت ذكراه على مرّ الأجيال ، ومردّد ذلك إلى دوره في حركة الجهاد وما أحرزه من انتصارات عظيمة ؛ مثل انتصاره في معركة حطين وطبرية وتحرير بيت المقدس وتحرير مدن الساحل ، ولقد كان الجهاد وحبّه والشفغ به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آله ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يُمّنة ويُسرة^(٢)

وقد تغنّى شعراء هذا العصر ببطولات صلاح الدين ، وصوّروه مجاهداً في سبيل الله مخلصاً في جهاده ، ومن هؤلاء الشعراء العماد الأصفهاني ، فأكثر الصور إثارة في شعره الذي قاله في صلاح الدين تلك الصور التي رسمها للبطل المجاهد ، فقد جعل حماية الدين وأهله ، والذود عن حياض الإسلام وحماه ، والبطش بالأعداء من أخص صفاته ، فقد نازل العدو وانتصر عليه في الكثير من المعارك ، فصوّره العماد فارساً شجاعاً مقداماً تطأ سنايك خيله أكثر الأماكن حصانة عند الأعداء ، يلذ لسمعه قرع الطبول وصليل السيوف ، يدافع عن الإسلام وأهله دفاع المستميت حتى غدا حامياً للدين كما يقول العماد :

حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا^(٣)

ويؤكد هذه الفكرة في قوله :

وفي معصم الملك للعز منك سوار ومنك على الدين سور^(٤)

(١) الديوان : ١٨٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

(٣) العماد ، الديوان : ١٦٠ .

(٤) نفسه : ١٩٣ .

ويجعل العماد من الجهاد والشغف به لذة صلاح الدين الوحيدة فليس له شهوات يسعى لإشباعها مثل غيره من حكام عصره ، بل كان الجهاد همهً ولذته الوحيدة كما يقول العماد :

لذّ المتاعب في الجهاد ولم تكن مُدعاش قطّ لذّاته لذّاته^(١)

لقد تعددت مواقف البطولة التي وقفها صلاح الدين في حماية ديار الإسلام ، ومن هذه المواقف حمايته الاسكندرية يوم حاصرها الأعداء سنة خمسمئة واثنين وستين^(٢) . وقد ربط العماد بين مدينة الاسكندرية المحاصرة بالفرنجة وأعدائهم وبين المدينة المنورة يوم حاصرها المشركون ، ويصور جهود صلاح الدين في حمايتها وفك حصارها ، بجهود المسلمين الأوائل في دفاعهم عن المدينة المنورة يوم حاصرتها الأحزاب ، يقول في ذلك :

وحميت الاسكندرية عنهم
حاصروها وما الذي بان من ذبّ
كحصار الأحزاب طيبة قدماً
فأمكر الله حين أولاك نصراً
ورحى حربهم عليك تسلور
ك عنها وحفظها محصور
ونبي الهدى بها منصور
فهو (نعم المولى ونعيم النصير)^(٣)

أعجب العماد بانتصارات صلاح الدين التي أحرزها في ساحات الوغى وتغنى بها مشيداً بدور القائد الذي تحقق النصر بفضل متابعته ، يقول مفتخراً بفتوحاته:

بفتوح عصرك يفخر الإسلام
وبنور نصرك تشرق الأيام^(٤)

لم يكن العماد وحده المعجب بهذه الانتصارات بل شاركه غيره من الشعراء والأدباء ، وأبناء الرعية ، فحين يسّر الله فتح القدس على يدي صلاح الدين عمّت الفرحة بلاد المسلمين ورقص الناس طرباً لهذا الفتح ، وسجدوا لله

(١) الديوان : ٨٧ .

(٢) البنداري ، سنا البرق الشامي ، سنن ، ٦٤ .

(٣) العماد ، الديوان : ١٨٢ .

(٤) نفسه : ٣٧٧ .

شكراً على هذه المنّة . وقد كان انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين على الصليبيين في وقعة حطين ثم دخولهم القدس من الحوادث التي أنطقت الخرس ، واهتز لها المسلمون في طول البلاد وعرضها طرباً ، وسكروا بخمرة الفرح والسرور ، وظهر ذلك بين الشعراء فطفقوا ينظمون القصائد الطوال في التغني بهذا النصر العظيم ، وأشادوا بالسلطان وهمته ، ونوّهوا بجهده وعزمته ، وبفضله في تخليص بيت المقدس من أيدي الكفار ، وتطهير المسجد الأقصى من أضرار الصليبيين بعدما لبث زهاء مئة عام تحت حكمهم » (١) .

وكان العماد معن شاركوا في التغني بهذا النصر وتمجيد أبطاله وعلى رأسهم القائد صلاح الدين الذي صورّه محباً للجهاد يطرب لصليل السيوف ، يعمل بجهاده على إحياء الهدى وأماتة الشرك وفي ذلك يقول :

نصر أعاد صلاح الدين رونقه	إيجازه يبلغ القول إسهاب
قرع الظبي بالظبي في الحرب يطربه	لا قينة صنع باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه	لقد تجلّى الهدى والشرك منجاب (٢)

ويرى العماد أن صلاح الدين قد فتح للإسلام بهذا الفتح العظيم أبواباً كثيرة لقمع الطغاة المشركين ، يقول :

بفتحته القدس للإسلام قد فتحت في قمع طاغية الإشرار أبواب (٣)

كانت القدس من أهم القواعد الصليبية في المشرق الإسلامي وهي عندهم من أعظم الممالك وسقوطها بالنسبة لهم يعني سقوطهم ، وكان استردادها بالنسبة للمسلمين حدثاً عظيماً له قيمة معنوية أثرت في مجريات الأحداث لصالح المسلمين ، فحق للمسلمين أن يفرحوا ، وأن يكون لهم تية وإعجاب ، ويربط بين أماكن العبادة حين يتحدث عن انضمام البيت المقدس إلى البيت الحرام بعد تحرير الأول من يد الفرنجة ، يقول مصوراً ذلك الفرح :

ففي موافقة البيت المقدس للـ بيت الحرام لنا تية وإعجاب (٤)

(١) سيد كيلاني ، العروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ، ٢١٢ .

(٢) (٤، ٣، ٢) الديوان : ٧٥ .

كان فتح القدس من أجل الفتوح التي شهدتها الساحة الإسلامية آنذاك انتظرتة الأمة طويلاً ، وعندما تحقق طارت القلوب به فرحاً ، ولهجت الألسن بالدعاء للقائد والثناء عليه ، ووجد العماد بهذا النصر فرصته للتغني ببطولات صلاح الدين الذي أعاد قبلة الإسلام الأولى إلى سابق عهدها ، وطهرها من دنس المشركين ورجسهم ، يقول العماد في تمجيد البطل صلاح الدين المجاهد مبيناً فضائله :

فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ دُونِهِمْ فَتَحَ الْقُدْسَا	فَلَا يَسْتَحِقُّ الْقُدْسَ غَيْرُكَ فِي الْوَرَى
فَلَا عَدَمَتْ أَخْلَاقُكَ الطَّهْرَ وَالْقُدْسَا	وَمَنْ قَبْلَ فَتْحِ الْقُدْسِ كُنْتَ مَقْدَسَا
فَأَذْهَبَتْ بِالرَّجْسِ الَّذِي ذَهَبَ الرَّجْسَا (١)	وَطَهَّرْتَهُ مِنْ رَجْسِهِمْ بِدِمَائِهِمْ

ولشدة إعجاب العماد بصلاح الدين ، وهو إعجاب مستمد من إعجاب الرعية التي وجدت فيه رمزاً لجهادها ، فإنه يصوره بصورة لا نظير لها بين الحكام ، فصلاح الدين وحيد عصره في سياسة الرعية ، وفي جهاده لأعداء الإسلام ، وهذا ما دعا العماد إلى تفضيله على غيره من حكام الزمان الذين هجرهم وجاء إلى صلاح الدين يقول :

إِلَيْكَ هَجَرْتُ مَلُوكَ الزَّمَانِ	فَمَا لَكَ وَاللَّهِ فِيهِمْ نَظِيرُ
وَفَجَّرَكَ فِيهِ الْقُرَى وَالْقُرَانِ	جَمِيعاً، وَفَجَّرَ الْجَمِيعَ الْفُجُورُ
وَأَنْتَ تَرِيقُ دِمَاءَ الْفَرْنَجِ	وَعِنْدَهُمْ لَا تَرِاقُ إِلَّا الْخُمْسُورُ (٢)

شتان ما بين صلاح الدين الذي يلزم الطاعات ويواظب على مجاهدة الفرنجة ، وغيره من الحكام الذين يدمنون الفجور ، ويلازمون شرب الخمر ، والأمة في حالة صراع مرير ، مع أعدائها من الفرنجة ، هكذا كانت صورة صلاح الدين في عيون رعيته ، بطلاً شجاعاً يلتزم بطاعات ربه ، يعشق الجهاد ويعطيه كل وقته ، وقد عبّر الشعراء معن مدحوه عن مشاعرهم وأحاسيسهم المستمدة من وجدان الرعية ، فكانت صورة معبرة عن حياته الحافلة بالبطولة والأمجاد .

(١) الديوان : ٢٢٢ .

(٢) نفسه : ١٩٤ .

- المقتدي بالسلف :

سار صلاح الدين على نهج السلف الصالح ، فأقام الشرع ، وحفظ السنن وجمدها ، وأحيا ما اندثر منها ، ونشر العدل ، وبعث الإحسان ، وأبطل المكوس ، وحفظ البلاد ، ووحدتها ، وقوى أركانها ، ورد كيد الأعداء عنها ، وعاش حياته مجاهداً باذلاً ماله وروحه في سبيل الله ، مؤدياً حق الله عليه متخففاً من متاع الدنيا ، ومجتهداً في أمر الآخرة ، تقياً ورعاً زاهداً متقشفاً . حتى إن أبا شامة المقدسي شبهه ونور الدين من المتأخرين بالعمرين رضي الله عنهما (١) .

وقد أورد العماد في أشعاره مجموعة من الصفات مدح بها صلاح الدين تشير إلى اقتدائه بالسلف الصالح فهو في كرمه كحاتم الطائي وفي وقاره وحكمه وحكمته كالأحنف بن قيس زعيم تميم في الإسلام ، يقول :

وإنه في السماح حاتمها وإنه في الوقار أحنفها (٢)

ويربط العماد بين شخصية صلاح الدين ، وشخصية سيدنا يوسف عليه السلام فعندما ينظم نجم الدين أيوب وأبناؤه إلى صلاح الدين في مصر فإن العماد يربط بين هذا الحدث وقصة انضمام سيدنا يعقوب عليه السلام إلى سيدنا يوسف عليه السلام في مصر ، فيقول :

بملك مصر ونصر المؤمنين غداً تحظى النفوس بتأيس وتطبيب
ويستقر بمصر يوسف وبه تقر بعد التناهي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بأخوته والله يجمعهم من غير تريب (٣)

وفي موقف آخر يربط بين صلاح الدين وسيدنا يوسف ، إذ يشبه حالة الاستقرار التي تنعم بها مصر الآن في ظل يوسف بن نجم الدين أيوب بتلك الحالة التي عاشتها أيام سيدنا يوسف بن يعقوب عليه السلام ، يقول :

(١) المقدسي ، الروضتين ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٥ .

(٢) العماد ، الديوان ، ٢٠٨ .

(٣) نفسه : ٨٤ .

ويصوّر مصر تشتاق إلى عصر سيدنا يوسف فيعيد الله إليها يوسف وعصره ، بمجيء صلاح الدين إليها إذ يقول :

ولما صبت مصر إلى عصر يوسف أعاد إليها الله يوسف والعصر^(١)

ومن صور الاقتداء بالسلف الصالح الطاعة الخالصة لله سبحانه وتعالى وهذا ما كان يلتزم به صلاح الدين كما يصوره العماد إذ يقول في مرثيته :

أين الذي كانت له طاعاتنا مبنولة ولربّه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي لله خالصة صفت نيّاته^(٢)

وفي هذه القصيدة يحث العماد أبناء صلاح الدين على الاقتداء بسيرة والدهم

العترة فيقول :

أبني صلاح الدين إن أباكم ما زال يأبى ما الكرام أباته
لا تقتنوا إلا بسنة فضله لتطيب في مهد النعيم سناته
وردوا موارد عدله وسماحه لترد عن نهج الشمات شماته^(٣)

(١) الديوان : ١٦٠ .

(٢) نفسه : ٨٧ .

(٣) نفسه : ٩٢ .

- أسد الدين شيركوه :

كان أسد الدين شيركوه من القادة البارزين في جيش نورالدين ، فقد اشتهر بشجاعته وقدرته على القيادة العسكرية وبعزمه الصادق في مجاهدة أعداء الدين . وكان نورالدين قد أوكل إليه قيادة الجيش في غير ما موقعة ، وسيّره على رأس حملات ثلاث إلى مصر ليخلصها من حكم الفاطميين ووزرائهم الفاسدين ، وقد تمكن أسد الدين شيركوه بقوته وشجاعته وحكمته أن ينتصر على الفرنجة والجيش الفاطمي ويبسط نفوذه على مصر ويتسلم الوزارة فيها . وكانت أعماله الحربية سبباً في إعجاب العماد به فخصه بمجموعة من القصائد في المدح والتهنئة والثناء . وصوّره جندياً تجسدت فيه أروع صور البطولة ، فقد بزّ غيره من الأبطال بما حققه من إنجازات عظيمة وقد بلغ بجده منزلة عجز غيره من البشر عن بلوغها ، فقد فتح مصر وهي القلعة المنيعة التي عزّت على غيره ، فتناقلت الدنيا ذكره ، وغدا اسمه حديث السمار في مجالسهم ، وأصبحت سيرته فوق كل السير ، ولو أنها كانت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لنزلت بها السور لسموها ، فنراه يقول مخاطباً البطل أسد الدين من قصيدة قالها في مدحه سنة خمس مئة واثنين وستين :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشرُ	ونلت ما عجزت عن نيله القدرُ
أوردت خيلاً بأقصى النيل صادرةً	عن الفسرات يقاضي وردها الصندرُ
تناقلت ذكرك الدنيا ، فليس لها	إلا حديثك ما بين الوري مسرُ
فأنت من زانت الأيام سيرته	وزاد فوق الذي جاءت به السيرُ
لو في زمان رسول الله كنت ، أتت	في هذه السيرة المحمودة المسورُ ^(١)

ويمضي العماد في ذكر صفات أسد الدين مُبدياً حيرة ملوك الأرض وذوولهم

مما حققه ، ويربط بين شخصيته وشخصيات تاريخية عظيمة ، إذ يقول :

أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً	فقل لنا : أعلي أنت أم عمر ؟
اسكندر ذكروا أخبار حكمته	ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته	وصار فيك عياناً ذلك الخبر

افخر فإن ملوك الأرض أذلهم ما قد فعلت ، فكل فيك مفتكر^(١)

إن الصفات التي يضيفها العماد على بطله هنا يستوحىها من التاريخ ويحاول أن يربط بين هذه الصفات وصفات الأجداد ، فعده يضارع عدل عمر بن الخطاب ، وقوته تماثل قوة علي بن أبي طالب ، وكل ما ذكر من حكمة عن الاسكندر وشجاعة عن رستم وجدها الشاعر قد تحققت في مدوحه .

ويقارن العماد مدوحه أسد الدين بغيره من حكام عصره فيميزه عليهم بجهاده ومواقفه التي تخالف مواقفهم وحياتهم مخالفة تامة ، فنراه يقول في هذه المقارنة :

سهرت إذ رقلوا ، بل هجت إذ سكنوا
وصلت إذ جنوا ، بل طلت إذ قصروا
شكت خيولك إدمان السرى وشكت
من قلها البيض بل من حطمها السمر^(٢)

الكناية في هذه الأبيات واضحة جلية لاختفاء فيها إذ تصور هذه الأبيات أسد الدين رجلاً محارباً يسهر على أمور الجهاد حين ينام غيره عنها ، ويهيج إذا سكنوا ويصول إذا جبن غيره من الحكام ، وخيوله دائمة السرى في سبيل الله ، لا تعرف الراحة وقد أصابها الضرر من ذلك السرى حتى اشتكت منه ، وشكت سيوفه ورماحه لكثرة ما انفلت وانكسرت في معاركه . وبفضل هذا الالتزام بالجهاد ، فإن أسد الدين قد حقق أعظم الانتصارات التي عجز عن تحقيقها غيره ، وذلك بفضل ما اتصف به من حزم وعزم قوي ، فكان فتح مصر :

يسرت فتح بلاد كان أسيرها
لغير رأيك قفلاً فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم ، فاتسقت
مآرب لك عنها أسفر السفر^(٣)

وعندما تولى أسد الدين الوزارة في مصر هنأه العماد بقصيدة مجده فيها أعظم تمجيد وأظهره وقد تفوق على الملوك بتحقيقه الانتصارات البهية ، فقد نال مرتبة عجز الملوك عن نيلها ، وبذلك حق له أن يفخر على ملوك الأرض قاطبة كما

(١) الديوان : ١٧٠ .

(٢) نفسه : ١٧٠ .

(٣) نفسه : ١٧٠ .

يقول العماد :

بالحمد أدركت ما أدركت لا اللعاب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
جرى الملوك وحا حازوا بركضهم
تمل من ملك مصر رتبة قصر
افخر فإن ملوك الأرض قاطبة
كم راحة جئت من دوحه التعب
نادى فعرف خير ابن بخير أب
من المدى في العلى ما حزت بالخب
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
أفلاكها منك قد دارت على قطب^(١)

ويثني العماد على الدور القيادي لأسد الدين شيركوه فقد بلغ من المهارة في قيادة الجيوش أن الجيش الذي يقوده لا يخذل فنراه يسأل باستغراب مؤكداً دوره القيادي فيقول :

وكيف يخذل جيش أنت مالكه والقائدان له التأيد والظفر^(٢)

وقد صور العماد أسد الدين مهيب الجانب ترهبه الأعداء فيفرون من ساحات القتال رعباً منه قبل وصول جيشه ، فينتصر عليهم بالرعب كما انتصر الرسول الكريم على المشركين من قبل :

وأنت من وقعت في نفوس الكفر هيته
وحيث سرت إلى الكفار فانهزموا
وفي ذويه وقوع النار في الحطب
نصرت نصر رسول الله بالرعب^(٣)

ويقدم العماد جوانب أخرى لشخصية البطل أسد الدين منها : نصرة الدين وحماية أهله وإنقاذ بلاد المسلمين والفتك بالأعداء ، ويقول من قصيدة مدحه بها سنة خمسمئة وثلاث وستين :

وملاذ الإسلام أنت ، فلا زل
في نفوس الكفار رعبك قد جد
لم تدع بالظبي رؤوساً وأصنا
أنت من نازل الدعيين في مصد
ست لأهل الإسلام خير ملاذ
ل بصدد الأكياد والأفلاذ
مأ من المشركين غير جذاذ
ر لنصر الإمام في بغداد

(١) الديوان : ٧٨ .

(٢) نفسه : ٨١ .

(٣) نفسه : ٨٠ .

وبلاد الإسلام أنقذتها أن تـ من الشرك أئماً إنقاذ^(١)

وحين يشكو بنو الإسلام ضياعهم وسوء حالهم ويؤتمهم يقوم منهم أسد الدين
مقام الأب الحاني فيدفع عنهم شر الفرنجة ، وينقذهم من شر شاور ، يؤمن
روعاتهم ويحقق آمالهم فيشكرون الله أن حياهم بمثل هذا القائد وفيه يقول :

شكا إليك بنو الإسلام يؤتمهم
فقت فيهم مقام الوالد الحذب
في كل دار من الإفريج نادبة
بما دهاهم ، فقد بانوا على ندب
من شر شاور أنقذت العباد فكم
وكم قضيت الحزب الله من أرب^(٢)

(١) الديوان : ١٤٧ .

(٢) نفسه : ٨٠ .

الدعوة إلى الوحدة الإسلامية :

ظهرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية في وقت مبكر من القرن السادس الهجري مع زيادة الخطر على المشرق العربي ^(١) حين بدأت الأمة الإسلامية تدرك أسباب هزيمتها أمام الصليبيين ، فقد كانت الفرقة بين الحكام من أهم تلك الأسباب . ولكي تنهض الأمة من كبوتها كان لا بد لها أن تتغلب على أسباب الهزيمة فتبدأ بتوحيد جهودها كخطوة أولى من خطوات النصر على الأعداء ، وقد ظهر في هذه الفترة من الحكام من أخلص النية في الجهاد وأدرك أن أهم أسباب النصر والتغلب على الهزيمة تكمن في الوحدة الإسلامية ، فسعى إليها ، وكان عماد الدين زنكي من أول الساعين إلى هذه الوحدة وسار على نهجه ابنه نورالدين الذي تحققت في عصره وحدة مصر وبلاد الشام ، وجاء صلاح الدين الأيوبي فآتم ما قام به سيده وزاد عليه ، وكان هؤلاء الحكام في سعيهم يريدون تحقيق مصلحة الأمة ، ويعبرون عن أمانيتها وطموحاتها في بناء قوة إسلامية قادرة على تخليصهم من شرور الصليبيين واجتثاث خطرهم ، وعن دورهم هذا يقول جوزيف نسيم : « وكانت النتيجة أنهم تمكنوا في سنوات قلائل من توحيد الجبهة العربية من برقة غرباً إلى الفرات شرقاً ، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً في دولة واحدة لها حاكم واحد » ^(٢) .

وقد شارك الشعراء الأمة وحكامها التطلع إلى هذه الوحدة ، فلم يتركوا مناسبة خاطبوا فيها الحكام إلا ذكروهم بأهمية الوحدة وألوية تحقيقها ، وقد شارك العماد شعراء عصره في الدعوة إلى الوحدة ، وتذكير الحكام بها ، وحثهم على إنجازها في كل قصيدة قالها مادحاً أو مهنئاً ، وإذا ما تحققت خطوة نحوها على يد أحد الحكام رقص العماد طرباً لهذه الخطوة وأشاد بصاحبها وعظم فعلته ودعاه إلى الاستمرار فيها ، هذا ما نراه في قصيدته التي قالها في مدح نورالدين سنة ٥٦٣ هـ حين انتصر على الأمير غازي بن حسان صاحب (منبج) . فقد كان هذا الأمير وغيره من الأمراء المحليين عقبة في طريق الجهاد ضد الصليبيين ، ولذا فإن العماد يرى في ضم هذه المدينة إلى مملكة نورالدين بادرة خير تبشر بفتح الممالك

(١) جوزيف نسيم : الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان الغزو الصليبي ، دار النهضة العربية ، بيروت ،

ط ٢ ، ١٩٨١ ، ص ٢٤ .

(٢) نفسه : ٢٨ .

الأخرى وعلى رأسها القدس ، فيقول في مباركة هذه الخطوة التي حققها نورالدين من قصيدة مدحه بها سنة خمسمئة وثلاث وستين :

بُشْرِى الممالكِ فَتَحَ قلعَةَ مَنبِجِ	فليَهَنَّ هذا النصرَ كلُّ مُتَوَجِّ
أعطيتَ هنا الفتحَ مفتاحاً ، به	في الملكِ يَفْتَحُ كلُّ بابٍ مُرْتَجِّ
وَأفسى يَشُرُّ بالفتوحِ وراءَهُ	فانهضْ إليها بالجيوشِ وعَرَّجِ
ما أعجزتكَ الشُّهبُ في أبراجها	طلباً ، فكيفَ خوارجُ في أبرجِ ^(١)

وإذا ما تقلد أسد الدين الوزارة في مصر وخلصها من شر شاور وأعوانه وحقق الوحدة بينها وبين الشام ، فإن العماد يبتهج لهذه الوحدة ويراهنا خطوة عظيمة ستقود إلى النصر على الأعداء ، وفي هذه المناسبة يهنئ العماد أسدالدين ويمتدح ما قام به ، ويأمل أن يكون هذا الفتح مقدمة لفتح بيت القدس فيقول :

فحت مصرَ وأرجو أن تصير بها	ميسراً فتح بيت القدس عن كُتْبِ
قد أمكنت أسدالدين الفريسة من	فتح البلادِ ، فبادرْ نحوها ، وثبِ
من شمرٍ شاور أنقذت العبادَ ، فكم	وكم قضيت لحزب الله من أربِ ^(٢)

وفي هذه القصيدة ، يدعو العماد إلى وحدة شاملة جغرافياً وسياسياً ، فليس كافياً أن تتوحد البلاد جغرافياً ، بل لا بد من تحقيق الوحدة السياسية إلى جانب الوحدة الجغرافية حتى يكون القرار واحداً في مواجهة الأعداء ، فها هو العماد في القصيدة التي هنا فيها أسدالدين بتقلده الوزارة في مصر يدعو بوضوح إلى توحيد المرجع السياسي بإعلان الخطبة للعباسيين في مصر ، وإنهاء الخلافة الفاطمية فيها :

رُدَّ الخِلافةَ عباسية ودع الدَّ	عيَّ فيها يصادفُ شمرَ منقلبِ ^(٣)
----------------------------------	---

(١) الديوان : ١٠٢ .

(٢) نفسه : ٨٠ .

(٣) نفسه : ٨١ .

وكان العماد يتابع إنجازات صلاح الدين فيبتهج ويعلن عن سروره حين تنضم مدينة إسلامية إلى جبهة صلاح الدين ، أو حين ينتصر على جيوش الأمراء المحليين المعارضين لوحدة البلاد الإسلامية ، ومن المواقف التي تبدي فيها سروره في هذا المجال ما قام به صلاح الدين عام ٥٧١هـ إذ فتح البلدان الواقعة حول حلب ، وخلصها من حكامها الظالمين والمتعاونين مع جيش الموصل ؛ فمدحه العماد بقصيدة أشاد فيها بانتصاره في منبج ، وحثه على عبور الفرات لملاحقة جيش الموصل ، وتخليص البلاد من عناصر الفرقة وإتمام وحدة بلاد الشام والجزيرة فقال :

نزلوك في منبج	على الظفر المبهج
ونجحك في المرتجى	وفتحك للمرج
دليل على كل ما	تمساول أو ترجمي ^(١)

ويتابع العماد إظهار سروره بهذا النصر محرضاً صلاح الدين على عبور

الفرات لمطاردة الهاربين فيقول :

فجّل عبور الفرا	ت وأسر ، ومير وأدلاج
وعج نحو تلك البلا	د ، وعن غيرها عرج
فحران ، والرقتا	ذ تالينا منبج
وجل عن المسلم	ين ليلهم المدجي ^(٢)

وعندما تحقق النصر لصلاح الدين على عسكر حلب والموصل ب (تل السلطان) في العام نفسه ، تقدم العماد إليه مهنئاً بهذا النصر ، واستثاره ضد المخالفين ، وحثه على ملاحقتهم ، وعبور الفرات لمطاردة قلوبهم وتخليص الرها وحران وبقية البلاد المجاورة من ظلم حكامها فقال :

فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا ال	موت الأجاج فقد طما طفاحه
لتفك من أيديهم رهن الرها	عجلاً ويدرك ليلها إصباحه
وابغوا حران الخلاص فكم بها	حران قلب نحوكم ملتاحه
نجموا البلاد من البلاد بعدلكم	فالظلم باد في الجميع صراحه

(١) الديوان : ١٠٢ .

(٢) نفسه : ١٠٤ .

وَاسْتَفْتَحُوا مَا كَانَ مِنْ مُسْتَغْلِقٍ فِيهَا فَرَبَّكُمْ لَكُمْ فَتَاحُهُ ^(١)

من أكبر الأحداث التي طرب لها العماد ما كان من أمر الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ عندما أبطل صلاح الدين الخطبة فيها للفاطميين ، وخطب لبني العباس ، فتحققت الوحدة السياسية للعالم الإسلامي آنذاك في مشرقه ومغربيه وخلد العماد هذه الحادثة بقصيدة قالها في مدح الخليفة المستضيء ذكر فيها الإنجاز بكثير من التعظيم ، ومجد من قام به فقال :

قد خطبنا للمستضيء بمصر	نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنصرة العَضْدِ العَا	ضدَّ والقاصر الذي بالقصر
وأشعنا بها شعار بني العبد	اس فاستبشرت وجوه النصر
ووضعنا للمستضيء بأمر الـ	له عن أوليائه كل إصر
وتركنا الدَّعي يدعو ثوراً	وهو بالذل تحت حجرٍ وحصر ^(٢)

ولما زال أثر الفاطميين من مصر بموت العاضد عبَّر العماد عن فرحته بذلك ، لأنه رأى في موته تدعيماً لحكم صلاح الدين في مصر ، مما يقوي الوحدة الإسلامية ، ويجعل صلاح الدين يتفرغ لجهاد الصليبيين ، فقد كان موت العاضد كما يراه نهاية لعصر فرعون ، وإطفاء لجمرة الغواية ، وفيه لمَ لشمل دولة صلاح الدين : يقول العماد معبراً عن ذلك :

توفي العاضد الدَّعي ، فما	يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى ، وغدا	يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواية ، وقد	باح من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئماً	بها ، وعقد السداد منتظما
لما غدا معلناً شعار بني الـ	عباس حقاً ، والباطل اكتتما ^(٣)

(١) الديوان : ١١١-١١٢ .

(٢) نفسه : ١٩٩ .

(٣) نفسه : ٣٧٦ .

قدّر للعماد أن يعيش حتى يرى ثمار الوحدة التي ما فتى يدعو الحكام إليها ويحرضهم عليها . فقد شهد أعظم الانتصارات التي حققتها الأمة الإسلامية على جيوش الصليبيين في هذا القرن بفضل وحدتها ، فقد شهد معركة حطين وما تلاها من انتصارات عظيمة على جيوش الصليبيين ، تكللت بفتح القدس ، وما كان لهذه الانتصارات أن تتحقق لولا القوة الإسلامية التي جاءت ثمرة للوحدة بين الإمارات الإسلامية في بلاد الشام ومصر .

الحث على الجهاد وتحرير الأرض المحتلة :

عُرف عن الشعوب في كل العصور أنها ترفض الاحتلال وتقاومه وتبذل التضحيات الجسام من أجل الخلاص منه ، وهذا ما حدث للأمة الإسلامية عندما تعرضت للهجمة الصليبية في نهاية القرن الخامس ، فقد رفض المسلمون هذا الاحتلال وقاوموه منذ بدايته ، فنظموا صفوفهم ووجدوا جهودهم بفضل بعض القادة المجاهدين الذين برزوا بين أبناء الأمة الإسلامية ليقودوا الجهاد أمثال عمادالدين زنكي ونورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وأسد الدين شيركوه وغيرهم ، فالتفَّ الشعب حولهم ، فكانت قضية الأرض الإسلامية المحتلة التي سقطت في أيدي الغزاة من الفرنج ، من القضايا الكبيرة التي شغلت بال المسلمين وخاصة الشعراء منهم لأنهم لسان الأمة المعبر عن مشاعرهم وهمومهم ، فأكثرُوا من حث القادة الذين تزعموا حركة الجهاد الإسلامي على تحرير الأرض المغتصبة عامة وبيت المقدس خاصة .

وقد شارك معظم الشعراء في الحث على الجهاد وتحرير الأرض الإسلامية المحتلة ، وكانوا بذلك يعبرون عن آماني الأمة الإسلامية ورغباتها ، ففي أغلب القصائد التي قيلت في مدح القادة أو تهنئتهم أو في رثائهم كانت الدعوة إلى تحرير البلاد وتطهيرها من رجس الفرنجة واضحة وصريحة ، وقد تركزت دعوات التحرير في معظمها على القدس فلم تخل دعوة من الدعوات المرفوعة إلى القادة من تذكير بالقدس مع الحث على استرجاعها وتطهيرها من رجس الكفار . وقد بدأت الدعوة إلى تحريرها في وقت مبكر ، أي منذ احتلالها سنة ٤٩٢هـ وبرزت بصورة أكثر جلاءً بعد الثلث الأول من القرن السادس الهجري بعد أن أحرز المسلمون عدداً من الانتصارات الحاسمة في معارك إنَّب والرُّها وغيرها من المعارك .

كان الاهتمام بتحرير القدس بسبب مكانتها الدينية عند المسلمين ، فهي درة الإسلام ورمز المسلمين المقدس ، فكان سقوطها بيد الفرنجة ضربة موجعة للمسلمين كافة ، وبقاؤها أكثر إيلاماً لأنه يذكر المسلمين بتفوق عدوهم عليهم . وكان تخليص القدس من أيدي الصليبيين يعني بداية انهيار وجودهم . ولذا فإن تحريرها بالنسبة للمسلمين كان هدفاً عظيماً بذلوا من أجل تحقيقه الغالي والنفيس ، وتسابق المجاهدون للفوز به ، وقد هيا نورالدين نفسه ليوم تحرير

القدس ، فأعدّ منبراً خاصاً لمسجدها يليق به وبيوم تحريره . وفي هذا العمل دلالة واضحة على تصميم نورالدين وعزمه على تحرير القدس ، لكن هذا الأمر ظل أمنية عظيمة وغالية يسعى إليها نورالدين حتى قضى ولاقى وجه ربه مجاهداً قبل أن يحققها . وكان العماد الأصفهاني يلزم نورالدين في جهاده ويشجعه على تحقيق هذه الأمنية، فيقول في مدحه بعد أن فتح منبج وخلصها من الأمير حسان بن غازي سنة ٥٧١هـ :

فانهض إليها بالجيوش وعرج	واقى يثرب بالفتوح وراءه
ولنبج لسواه كالأمودج	أبشر ، فيبت القدس يتلو منبجاً
وعلى طرابلس ونابلس عج ^(١)	فانهذ إلى البيت المقدس غازياً

إن فتح منبج ليس إلا مقدمة وبشرى بفتوح أخرى ، فانهض أيها المجاهد بجيوشك إلى تلك الفتوح ، وابشر فإن القدس تتلو منبجاً في فتحه ، وما فتح منبج إلا نموذج لفتوحات أخرى قادمة ، وبصيغة الأمر يدعو العماد نورالدين ليغزو بيت المقدس ، وغيره من المدن الإسلامية المحتلة مثل طرابلس ونابلس .

وعندما توحدت مصر وبلاد الشام ، واستتب الأمر في مصر للسلطان نورالدين ، دعاه العماد للاستفادة من القوة الإسلامية التي تحققت بفضل الوحدة لغزو الفرنجة ، وتطهير القدس من رجسهم ، فقال في مخاطبته :

واحطم جموعهم بالذابل الحطم	أغز الفرنج ، فهذا وقت غزوهم
على البغاث وثوب الأجدل القطم	وطهر القدس من رجس الفرنج وثب
في عقد عز من الإسلام منتظم ^(٢)	فملك مصر وملك الشام قد نظما

استمر العماد يدعو إلى تحرير القدس ، فلم ينس ذلك حتى وهو يودع نورالدين الذي قضى في سبيل الله مجاهداً فقال في رثائه :

أوما وعدت القدس أنك منجز	ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدا	وتقدس الرحمن في تطهيره ^(٣)

(١) الديوان : ١٠٢ .

(٢) نفسه : ٣٨٢ .

(٣) نفسه : ٢١٥ .

إن هذه الدعوة موجهة في ظاهرها إلى نورالدين وفي باطنها إلى خلفاء نورالدين فحين يطلب العماد من نورالدين أن ينجز وعده بتحريض القدس ، وتطهيرها من رجس الأعداء ، فإنما يذكر الأحياء بمسؤولياتهم تجاه الدور الذي ينتظرهم ، وهو إتمام الدور الجهادي الذي قام به نورالدين ضد الصليبيين ، وقد اضطلع بهذا الدور بعد نورالدين قائد مجاهد فذ هو صلاح الدين فوجد فيه الشعراء أمنيته المنشودة . فأحاطوا به يباركون خطواته ويشجعونه على تحقيق أمنيته ، وكان استخلاص القدس أعزّ هذه الأمانى وأغلى تلك الرغبات ، وقد أكثر شعراؤه من الحديث عن تلك الغاية ^(١) .

وقد شارك العماد شعراء عصره الإعجاب بدور صلاح الدين الجهادي ، فدخل في خدمته وقال فيه الشعر مادحاً ومهنئاً وراثياً ، وفيه حثه وحرصه على مجاهدة الأعداء ودعاه ليخلص الأرض الإسلامية المحتلة ، وخص القدس بمعظم هذه الدعوات فقد قال في مدحه سنة ٥٦٤هـ قصيدة دعاه فيها إلى تحرير السواحل وتطهير القدس من أرجاس الكافرين :

يا مخجل البحر بالأبيادي قد آن أن تفتح السواحل
فقدس القدس من خباث أرجاس كفر غم أراذل ^(٢)

وفي السنة نفسها يمدحه مهنئاً له بملك مصر ومعزياً بوفاة عمه أسد الدين ، ويدعوه إلى الفتك بالأعداء في مصر كما يطلب إليه ألا يهمل بيت المقدس وأن يعمل على فتحه فيقول :

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا لكم من دم الغادين بها غدرا
فصبوا على الأفرنج سوط عذابها بأن تقسموا ما بينها القتل والأسر
ولا تهملوا البيت المقدس واعز موا على فتحه غازين واضرعوا البكرا

ويرى العماد أن فتوح صلاح الدين مهما بلغت . كثيرة فإنها لن تتم إلا بفتح القدس ، فيدعوه بعد فتح بعلبك سنة ٥٧٠هـ إلى أن يقصد الفتح الذي به تتم فتوحه ألا وهو فتح بيت المقدس فيخاطبه قائلاً :

(١) أحمد بدوي : الحياة الأدبية : ٤٢٢ .

(٢) الديوان : ٢٢٦ .

فتملّ فتحك ، واقصد الفتح الذي بحصوله لفتوحك الإتمام
دُمّ للعلی حتى يدوم نظامها واسلم يعز بنصرک الإسلام^(١)

وتظل القدس هي الهدف الأسمى للمجاهدين ، وتحريرها هو أغلى الأمنيات ،
ويظل العماد يستحث الهمم لتحريرها فنراه يربط بين التشوق إلى دمشق في
قصيدته التي قالها سنة خمسمئة وسبعين والدعوة إلى تحريرها فيقول :

نهوضاً إلى القدس يشفى الغليل بفتح الفتوح وماذا عميرُ
سل الله تسهيل صعب الخطوب فهو على كل شيء قدير^(٢)

وإذا ما حقق السلطان صلاح الدين الانتصار على الأعداء فإن هذا الانتصار
يحفز العماد ويدعوه إلى إغراء صلاح الدين لمزيد من الفتوح فنراه يقول في
القصيدة التي هناها بها لانتصاره على عسكر حلب والموصل بتل السلطان سنة
خمسمئة وواحد وسبعين مغرباً له بمنازلة فرنجة الساحل :

قد كان عزمك للإله مصمماً فيهم فلاح كما رأيت فلاحه
وكأنني بالساحل الأقصى وقد ساحت ببحر دم الفرنجة ساحه^(٣)

وفي القصيدة التي قالها العماد في مدح السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ
نراه يخاطبه بصيغة الأمر طالباً منه أن يسير لفتح القدس ، وأن يسفك بها دماء
الفرنجة لتطهر من رجسهم وأن يعمل السيف فيهم ، ويهد السقوف على رؤوس
زعمائهم ، ويخلص البلاد من كفرهم فيقول :

ويوسفُ مصرَ بغيرِ التقي وبذل الصنائع لم يوصفِ
فسرّ وافتح القدسَ واسفكْ بهِ دمَاءَ منى تجرها ينظفِ
وأهدِ إلى الأسيارِ النارِ وهُدَّ السقوفَ على الأسقفِ
وخلصْ من الكفرِ تلكَ البلادَ يخلصُك الله في الموقفِ^(٤)

(١) الديوان : ٢٧٨ .

(٢) نفسه : ١٩٤ .

(٣) نفسه : ١١١ .

(٤) نفسه : ٢٠٤ .

وقبل أن يفتح القدس بعام واحد يمدح العماد تقي الدين عمر سنة ٥٨٢هـ
ويذكره فيها بمسؤولية بني أيوب تجاه القدس ويحثهم على تحريرها فيقول :
ولا يفتح البيت المقدس غيركم^(١) ويتكلم من كلِّ عاب مقدس^(٢)

وعندما يحقق صلاح الدين أعظم انتصاراته على الصليبيين ويفتح البيت
المقدس ، فإن العماد يطرب لذلك أيما طرب ، ويشارك الأمة الإسلامية هذه الفرحة ،
ويقدم لصلاح الدين التهنية باسم المسلمين ، ويدعوه لمواصلة جهاده ليجتث ما
تبقى من الصليبيين في ديار الإسلام كما يدعو لتخليص مشرق الإسلام من فساد
أهله ويدعوه للتوجه إلى الكرك ليفتك بمن فيها من الفرنجة فيقول :

وصارَ بصورَ عصابة يرقبونكم	فلا تبطئوا عنها وحسومهم حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت	كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقيين ، واجتأ أصلهم	فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولا تنس شرك الشرق غربك مرويا	بماء الطلى من صاديات الطيبي الخمسا
وإن بلاد الشرق مظلمة فخذ	خراسان والنهرين والتُّرك والفرسا
وبعد الفرج الكرك ، فاقصد بلادهم	بزمك واملأ من دمائهم الرمسا ^(٣)

وفي قصيدة أخرى قالها في مدح حسام الدين عمر ابن أخت السلطان صلاح
الدين سنة ٥٨٢هـ ، يؤكد العماد دعواته السابقة للتحرير ، ويرى فتح القدس
حافزا لفتوحات أخرى ، وهي فتوحات لا بد منها لتطهير ديار الإسلام من الفرنجة ،
ويجعل من الممدوح صلة وصل بينه وبين السلطان فيقول داعيا صلاح الدين
لتحرير صور وطرابلس وغيرها :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من	يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى	صور ، فإن فُتحت ، فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انظر سوس ذا الجب	وابعث إلى ليل أنطاكية العسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه	من العداة ومن في دينه وكما
ولا تدع منهم نفسا ولا نفسا	فإنهم يأخذون النفس والنفسا

(١) الديوان : ٢٣٨ .

(٢) نفسه : ٢٣٢ .

نزلت بالقدس فاستفتحتهُ ومتى تقصد طرابلساً فانزل على قدساً^(١)

وهكذا فإن الشاعر قد سار مع المجاهدين جنباً إلى جنب يحرضهم على القتال
ويدعوهم إلى تحرير الأرض والمقدسات ، وتخليص الرعية من جور المحتلين ، وكان
دوره التحريضي لا يقل عن دور المجاهدين في ساحات القتال .

الجيش الإسلامي :

اهتم نور الدين ومن بعده صلاح الدين بأمر الجهاد اهتماماً كبيراً ، فشرع الرجلان يعملان من أجل جيش قوي ليصد اعتداءات الفرنجة ، وليطهر الأرض ويحرر المقدسات ، وتحقق لهم ذلك ، وتشكل الجيش الإسلامي من عناصر مختلفة من العرب والترك والأكراد والتركمان على أساس وحدة العقيدة والهدف ، واستطاع هذا الجيش في فترة قصيرة أن يغيّر اتجاه الحرب ، فيخلع عن الأمة ثوب الهزيمة ، وينتزع رايات النصر من الأعداء ويرفعها فوق ديار الإسلام عالية خفاقة ، وقد رأى العماد الأصفهاني في هذا الجيش تجسيدا لطموحات الأمة ورمزاً لعزتها ودرعاً يقيها صولة الأعداء ، وعليه عُقدت الآمال في خلاصها من عدوها ، فأعدته ليوم النصر العظيم وجهزته بما يحتاج إليه من الأسلحة والأعتدة والأموال ، وأوكلت مهمة قيادته إلى رجال عرفوا بقوة إيمانهم ، وشهدت لهم ساحات الوغى بالشجاعة وقوة البأس ، والصبر على مقارعة الأعداء ، وأرادت القيادة لهذا الجيش أن يكون جيش الأمة الإسلامية الذي يدافع عن ديار الإسلام ، ويحارب من أجل إعلاء كلمة الله لا من أجل مصالح دنيوية ، وقد عبّر العماد عن إعجابه بهذا الجيش في قصائده الجهادية ، فتحدث عن عناصره وعدده وأسلحته ، وأشاد بشجاعته وقوة عقيدته ، وتحدث عن قاداته ودورهم في تعيّنته وتهيئته للنصر في المعركة ، كما تكثرت عن معاركه والتحامه بالأعداء في ساحة المعركة ، وتغنى بانتصاراته الكثيرة.

وإذا ما استعرضنا شعر العماد الحربي نجد للجيش الإسلامي صورة رسمت بعناية ، ترضي الذوق العام في ذلك العصر ، ومن عناصر هذه الصورة كثرة العدد ، فقد حرص العماد عند حديثه عن الجيش أن يظهره كثير العدد ، لما للعدد من أهمية في رفع المعنويات ، وفي إعطاء الصورة شيئاً من القوة والمهابة ، فالكثرة توحى بالقوة والاقتماد ، ومن التشابيه الدالة على كثرة الجيش الإسلامي في شعر العماد تشبيهه بالسيل في زحفه ، فنراه يقول في وصف جيش عز الدين فروخ شاه :

ولرُبُّ مَجْرٍ رَائِعٍ حَمَلَاتُهُ وتخالُّهُ في الرَّحْفِ سَيْلٌ مَدْمَدُهُ
يَقْرِي العَوَاسِلُ مَن فَرَأَسَ أَسَدَهُ لِحَمَا بِنَارِ البِيضِ مُشْعَلَةٌ طُهْيِي^(١)

في هذين البيتين يربط العماد بين الكثرة العددية والقوة والشجاعة . وفي قصيدة أخرى يشبّه جيش القائد نفسه بالبحر الزاخر في كثرته فيقول :

قد كان جيشكم كبحر زاخر واللابسون جوائناً حيتانه
فطمى لهلكهم عليهم بحركم بأساً وغرق فلکهم طوفانه^(١)

وأما جيش تقي الدين عمر فإنه من الكثرة العددية بحيث يشكل النقع الذي يثيره غطاء يحجب الشمس كما يقول العماد في القصيدة التي مدحه بها سنة ٥٨٢هـ ، ووصف جيشه :

إذا أطلق الملك المظفر في الوغى أعتته فالشمس بالنقع تجبس^(٢)

وتتجلى عظمة هذا الجيش وهيئته حين يستعرضه القائد ، وقد لبس كامل أسلحته واستعد للقاء العدو ، فيبدو بينوده الحمر والصفرة وأسلحته اللامعة البيضاء وكأنه الروض الذي يزدهي بأزهاره ، وفي ذلك يقول العماد من قصيدة مدح بها صلاح الدين وهناه بكسر عسكر حلب والموصل سنة ٥٧١هـ ، يقول :

لله جيشٌ بالمروجِ عرضته أسدُ العرينِ رجاله ورماحه
ومن الحديدِ سوابغاً أبدانه ومن المضاءِ عزائمٌ أرواحه
وله فوارسٌ بالنفوسِ سَمَاحها أتعادُ بالمعروضِ المصونِ شِحا حه ؟
روضٌ من الصفرةِ البنودِ وحرها والبيضِ ، يزهي ورده وأقاحه
من كلِّ ماضي الحدِّ طلقَ غمده فكأ لأغمدِ الرقابِ نكاحه^(٣)

في هذه القصيدة تعبير واضح عن كثرة الجيش وقوة رجاله فهم كالأسود ، اصطبفت أبدانهم لكثرة لبسهم الحديد ، وفي ذلك كناية عن كثرة المعارك التي خاضوها ، وعن استعدادهم الدائم لملاقاة العدو ، وهم شجعان لا يهابون الموت بل يقدمون أرواحهم رخيصة في المعركة وسيوفهم مشرعة لا تعرف الأغماد ، كأنها قد طلقها طلاقاً لا رجعة فيه وتزوجت رقاب العدى بدلاً من الأغماد . ويقدم لنا العماد

(١) الديوان : ٤٣٦ .

(٢) نفسه : ٢٣٨ .

(٣) نفسه : ١١١ .

صورة أخرى لاستعراض الجيش الإسلامي وتعبئته من القائد في القصيدة التي مدح بها ناصر الدين محمد بن شيركوه ووصف جيشه سنة ٥٧٠هـ ، يقول :

وكتيبه مثل الرياض كأنما	راياتها مشورة أزهار
وكأنما حضر البارق للقنا	ورق وهامات العداة ثمار
وكمائم الأعماد عن زهر الظبي	فتقت فكل صقيلة نوار
وعلى شعاع الشمس لمع حديدها	يبدو كما يعلو اللجين نضار ^(١)

هذه صورة أخرى يشبه فيها العماد الجيش الإسلامي بالرياض . فراياته كأنها الأزهار ، وبيارقه الخضراء كأنها الأوراق للرماح ، وهامات العدى ثمار للرماح التي أشبهت الأغصان . وحين تخرج السيوف الصقيلة من أعمادها فإنها تشبه الأزهار التي تتفتق عن أكمامها ، وحين يلمع حديدها الأبيض على شعاع الشمس يبدو كأنه الفضة التي يعلوها الذهب .

يريد العماد بهذه الصورة أن يؤكد كثرة الجيش الإسلامي وعظمته ، وحين يصفه وقد اصطف بكامل أسلحته ليستعرضه القائد ويعبئه تعبئة نفسية وقتالية عالية ، فيحقق النصر بفضل المهارة العسكرية للقائد الذي هيا جيشه للقاء العدو، وأعانته الأقدار في هذا اللقاء ، فشئت ما كان منتظماً من جموعهم كما يقول العماد :

عَيَّتها بعزيمة مشفوعة	بالنصر منك تعينها الأقدارُ
لما لقيت جموعهم منظومة	صيّرت ذلك النظم وهو نثار ^(٢)

وتزداد قوة الجيش الإسلامي قوة وعظمة وهيبة في النفوس حين يدخل المعركة ، فتتجلى بطولاته بأبهى صورها ، فيصوره العماد قد حمل على الأعداء حملات صادقة بكل أنواع الأسلحة من سيوف ورماح ، ويعدد بطولاته الفردية فيقول :

حملت عليهم من جنودك فتية	لم تدر غير حمية الفتيان
زخرت بهم أمواج آجلك في الوغى	غزراً وطمّ بهم عباب طمان

(١) الديوان : ١٦٤ .

(٢) نفسه : ١٦٤ .

وتذمّوا من حرب بأس محمد
وبسيف جرديك المجرّد غودروا
وبعين دولتك الذي قدّمته
وتهيّوا الحملات من عثمان
بدماء أهل الغدر في غدران
فقتت عيون الكفر والكفران^(١)

ثم يعدد بطولاته الجماعية مبيناً دور كل فرقة من فرقته فيقول في وصف بطولات اليارقية وهم من التركمان :

واليارقية أرتهم في الدجى
أجفانهم نفت الفرار كما انتفى
بسهام كل حنية مرّسان
ماضي الفرار بهم من الأجفان^(٢)

ثم يتحدث عن الأكراد والأترك والماليك موضحاً دور كل منهم في المعركة فيقول :

وكأئما الأكراد فوق جيادها
ولطالما مهرت على نصر الهدى
لم يترك الأترك فيهم غاية
من كل رام سهمه من وهمه
ولك الماليك الذين بهم عنت
عقبان ملحمة على عقبان
أنصارك الأبطال من مهرا
بالفتك والإرهاق والإثخان
أهدى إلى إنسان عين الراني
أملاك مصر للملكي بغدان^(٣)

تبين هذه الأبيات تكامل الأدوار التي أدتها فرق الجيش الإسلامي بعناصرها المختلفة ، وقوة الرابط بينها ، فقد ارتبطت كلها برباط الإسلام فوحدها ، وجعل منها جيشاً واحداً يواجه عدواً مشتركاً ويسعى لهدف واحد هو نصرته الدين الإسلامي ، واستحق لذلك هذا الجيش بعقيدته الصادقة وإخلاصه في الدفاع عن الإسلام أن يوصف بأجل الأوصاف ويشبه بأجمل التشابيه ، فقد شبه العماد رجال هذا الجيش لجلال دورهم بالصحابه يوم هبوا لنصرة الرسول في بدر وشبه نفسه وهو يمدحهم بشاعر الرسول الكريم حسان بن ثابت فقال في ذلك :

(١) الديوان : ٤١٣-٤١٤ .

(٢) نفسه : ٤١٤ .

(٣) نفسه : ٤١٤ .

هم كالصحابة يوم بدرٍ حاولوا
نصر النبي وثبت عن حسان
الحائزون في السباق خصاله
في ملتقى حرب وفي ميدان
من كل مبسوط اليدين يمينه
ما تمتلي إلا بقبض يمان^(١)

ومن العناصر الأخرى لصورة الجيش الإسلامي أنه قوي بالغ السطوة يبعث
الرعب في قلوب الأعداء إذا نزل بأرضهم ، فانظر إلى جيش نورالدين الذي دخل
مصر كيف صورته العماد :

أوردت مصرَ خيول النصر عادمة
ثني الأعتة إقداماً على اللجم
فأقبلت في سحاب من ذوابلها
وقضبها بدماء الهام منسجم
تمكن الرعب في قلب العدو بها
تمكن النار بالإحراق في الفحم^(٢)

وفي قصيدة أخرى يصور العماد هذا الجيش وقد غدا يبعث الرعب في صفوف
الأعداء قبل أن ينازلهم ، فقد أصبح جيشاً مهيب الجانب قوي الشوكة تهابه
الجيوش وتخشى لقاءه ، ولا تلقاه إلا مكرهة ، فإذا سارت سراياه إلى العدو فإنها
ترسل إليه جيوشاً من الرعب كما يقول العماد :

سراياك تبعث قدامها
من الرعب نحو الأعادي جيوشا^(٣)

ولا ينسى العماد في حديثه عن الجيش الإسلامي أن يظهر دور القيادة في
النصر ، ويصور بطولات القائد المسلم وفتكه بالأعداء ، ففي القصيدة التي تشوق
بها إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ مدح صلاح الدين وحدثنا عن وقعاته التي فلّ بها جموع
الفرنج ، وخلفهم بالعراء يفرقون بدمانهم ، فقال :

وكم قد فللت جموع الفرنج
بضرب تحذف منه الرؤوس
بحد اعتزام شباه طريـر
وطعن تخسف منه النحور
وغادرت غادرهم بالعراء
ومن دمه كل قطر غزير^(٤)

(١) الديوان : ٤٦٤ .

(٢) نفسه : ٣٨١ .

(٣) نفسه : ٢٤٢ .

(٤) نفسه : ١٩٢ .

وفي هذه القصيدة يصور العماد مهارة الجيش وخفته في الحركة والمناورة ويصف أسلحته فيقول :

بجرد عليها رجال الهياج	كأن صقوراً عليها صقور
من الترك عند دبابيسها	صحاح الطلى والهوادي كسور
سهام كئائنها الطائسرات	لهن قلوب الأعادي وكور
وعندهم مثل صيد الصوار	إذا حاولوا بفتح صيدا وصور ^(١)

لقد أتقن هذا الجيش فن الحرب وتدربت خيوله على النزال ، فأصبحت جرداء لكثرة الجري ، وطارت بفرسانها فكأنما هي صقور قد طارت بصقور ، وحمل فرسانها من الأسلحة الخفيفة كالدبابيس والسهام ما مكنهم من انتزاع الانتصارات الخاطفة ، ويمضي العماد في هذه القصيدة مصوراً هيبة الجيش الإسلامي في نفوس أعدائه فيقول :

بجيشك أزعجت جأش العدو فما نفر منه إلا نفور^(٢)

ويؤكد العماد دور القيادة في قصيدته التي هنا بها صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٢ هـ ، فيصور هزيمته للأعداء يوم حطين ، وحطه من قدر ملوكهم بانتصاره عليهم وأخذهم أسرى فيقول :

أقامت بغاب الساحلين جنودكم	وقد طردت عنه ذئابهم الطلما
سحبت على الأردن ردىاً من القنا	ردنيّة ملداً وخطية ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم	ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا ^(٣)

وفي هذه القصيدة يصور العماد أبطال المسلمين من جيش صلاح الدين وهم يستعدون للقاء العدو غير هيابين بلقائه ، بل يتشوقون لهذا اللقاء كأنهم الأسود التي تتشوق للقاء فريستها لتنقض عليها فيقول فيهم :

(١) الديوان : ١٩٢ .

(٢) نفسه : ١٩٢ .

(٣) نفسه : ٢٢٤ .

ونعم مجال الخيل حطين لم تكن معاركها للجرد ضرساً ولادهسا
غداة أسود الحرب معتقلو القنا أساود تبغي من نحور العنا نهسا^(١)

ليست أسباب الأرض وحدها هي التي تقف إلى جانب الجيش الإسلامي في حروبه مع الأعداء ، بل إن أسباباً من السماء تمدّه بهذه القوة وتوازره كما يقول العماد :

جنودك أملاك السماء وظنهم عداتك جن الأرض في الفتك لا الإنسا^(٢)

ويلاحظ أن العماد في شعره الذي يتحدث عن الجيش الإسلامي يحرص على تصويره وقد ظاهرته السماء وأمدته بالعون ، فنراه يقول في وصف خيول نور الدين التي فتحت مصر وهزمت شاور :

لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت من العدو بحد الصارم الحذم
أعانها الله في إطفاء جمر أذى من شر شاور في الإسلام مضظرم^(٣)

لقد شفت هذه الخيول غلة الإسلام ، وانتقمت له من العدو بحد السيف ، وكان المعين لها في تخليص مصر من شر شاور وزيرها المتعاون مع الصليبيين ، وعندما فتح صلاح الدين القدس سنة ٥٨٣هـ خاطبه العماد في التهنئة التي رفعها إليه مشيراً إلى مساعدة الملائكة لجنوده في معركتهم من أجل تحرير القدس فيقول:

جرى بالذي تهوى القضاء وظهرت ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا^(٤)

يبدو الحديث عن رعاية الله للجيش المحارب في شعر هذه الفترة مألوفاً ، وقد تكرر الحديث عن رعاية الله للبطل في شعر هذه الفترة ، وهي رعاية مشروطة بالتزام البطل بما شرعه الله له^(٥) ، وقد راعى العماد هذه الشروط في

(١) الديوان : ٢٢٣ .

(٢) نفسه : ٢٢١ .

(٣) نفسه : ٢٨١ .

(٤) نفسه : ٢٢٢ .

(٥) محمود ابراهيم : حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٧ ، ص ٦٠ .

تصويره للبطل وجيشه ، فصوّر الجيش الإسلامي جيشاً يحارب من أجل الدين ، ومن أجل رفع راية الإسلام لا من أجل مكاسب دنيوية ، يقول في وصف خيول نورالدين التي فتحت مصر :

سَرتَ لثَقَطَعِ ما لِلكَفَرِ من سَببٍ وإِهْ وتوصِلَ ما لِلدِينِ من رَحِمِ
مستهلّات وعورَ الطَّرْقِ في طلبِ الـ علياءِ مفتحاتِ أصعَبِ القَحْمِ^(١)

إن الحديث عن صورة الجيش الإسلامي في شعر العماد يستدعي مثلاً الوقوف على صورته ، في المعارك التي خاضها . وقد تهيأ للعماد أن يشهد كثيراً من الوقائع الحربية بين المسلمين والفرنجة بفضل علاقته بنورالدين وصلاح الدين ، فرسم بالكلمة المعبرة صورة للجيش الإسلامي يخوض المعارك كما شاهدها ، فقال من قصيدة في معركة شهدها مع نورالدين سنة ٥٦٨هـ مصوراً أحداث المعركة :

إذْ في السَّرابِغِ تُحَطِّمُ السَّمَرُ القنا والبيضُ تخضَّبُ بالنَّجِيعِ القاني
وعلى غناءِ المَشْرِيفَةِ في الطَّلَى والهامِ رَقَصَ عوامِلُ المُرَّانِ
وكأنَّ بَيْنَ النَّقَعِ لَمَعُ حديدِها نارٌ تَألَّقُ مِن خِلالِ دُخانِ
في ما زقٍ ورْدُ الوريدِ مَكْفَلٌ فيه برى الصارمِ الظمَّانِ
غَطَى العجاجُ بِهِ نِجومَ سماءه لتسوبَ عنها أُنْجُمُ الحُرْصانِ
يَمْتاحُ من قلبِ القلوبِ دماءها بالسَّمَرِ مَتَّحَ المِاءِ بالأشطانِ
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا طَرَّقَ الضَّلالِ ومركبِ الطغيانِ^(٢)

تجلت صورة المعركة في هذه الأبيات ، وقد التقى الجيشان واحتدم القتال ، فتكسرت الرماح لشدة النزال ، وتخضبت السيوف بالدماء ورقصت الرؤوس على الرماح وظهرت الأسلحة من خلال النقع كأنها النار المتألقة من خلال الدخان ، وارتوت السيوف من دم الأعداء ، وغطى عجاج المعركة نجوم السماء فظهرت الدروع وكأنها النجوم التي غيبها عجاج المعركة .

(١) الديوان ، ٢٨١ .

(٢) نفسه : ٤١٢ .

وهذه الصورة لأحداث المعركة لا جديد فيها بل هي صورة تقليدية تكررت في كثير من القصائد التي وصفت المعارك منذ العصر الجاهلي . ومن المعارك الخالدة في التاريخ الإسلامي معركة حطين ، وهي من مآثر صلاح الدين الأيوبي ، وقد أثارت هذه المعركة اهتمام الكتاب والشعراء وأبدعوا في وصفها ، وكان العماد ممن وصفوها شعراً ونشراً ، فقال من قصيدة يهنئ فيها القائد صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٢هـ ويذكر معركة حطين وما تحقق فيها من انتصار حاسم على الأعداء الصليبيين فقال :

سحبت على الأردن رداً من القنا	ردنية ملداً وخطيه ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم	ولم يبق من أجناس كفرهم جنسا
كسرتهم إذ صح عزمك فيهم	ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم	دماراً كما بست جبالهم بسا ^(١)

ويحدثنا العماد عن نتائج المعارك في بعض قصائده ولا يحدثنا عن مجريات المعركة نفسها فيقول في القصيدة التي مدح بها صلاح الدين سنة ٥٦٢هـ مصوراً نتيجة معاركه في الصعيد ضد الصليبيين وأعوانهم من جنود شاور فيقول :

من دم الغادرين غادرت بالأمر	س صعيد الصعید وهو غدير
ولكل مما تطاولت فيهم	أمل قاصر وعمر قصير
لاذ بالنيل ثاور مثل فرعر	ن ، فذل اللاجي وعز العبور
والذي يدعي الإمامة بالقنا	هرة ارتاع إنته مقهور
وغدا الملك خائفاً من سطاكم	ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنو الهنغري هانوا ففروا	ومن الأسد كل كلب فرور
إنما للكلاب عواء	حيثما كان للأسود زئير
وقليب عند الفرار مليب	فهو بالرعب مطلق مأسور
لم يبقوا سوى الأصاغر للمب	ي فودوا أن الكيسر صفير ^(٢)

(١) الديوان : ٢٢٣ .

(٢) نفسه : ١٨١ .

تنقل إلينا هذه الأبيات نتيجة المعركة التي خاضها صلاح الدين في الصعيد ، وهي نتائج دامية إذا انتهت المعركة بقتل عدد كبير من جيش العدو ، وفرار شاور وأعوانه من الصليبيين وارتياح الخليفة الفاطمي وخوفه من سطوة السلطان ، ويتكرر الحديث عن نتيجة المعركة دون ذكر مجرياتها عند العماد في غير ما قصيدة ، وهذا ما فعله في القصيدة التي مدح بها أسد الدين شيركوه فصور نتيجة المعركة التي خاضها مع الصليبيين وجنود شاور ، وفيها يقول :

لقد بفتة الإفرنج فانتصفت	منها بأقدامك الهنديّة البصر
غرست في أرض مصر من جسمهم	أشجاراً خطّ لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع في مقام وغي	به الحديد غمام والدم المطر
أنهرت منهم دماءً بالصعيد جرى	منها إلى النيل من واديهم نهر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا	سفرأ فما عبروا حتى اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين ، كما	تحت الصوالج يوماً خفت الأكر
أفنت سيوفك من لاقت فإن تركت	قهرماً فهم نفر من قبلها نفروا
لم ينج إلا الذي عافه من خبث	وحشّ الفلا وهو للمحذور منتظر ^(١)

تصور هذه الأبيات نتيجة اللقاء بين أسدالدين شيركوه من جهة وبين شاور وقائد الفرنجة من جهة أخرى ، وتظهر فيها الغلبة للجيش الإسلامي بقيادة شيركوه ، فقد فتك هذا الجيش بجيش العدو وجعله أشلاء وأجرى من دمه أنهاراً سالت في صعيد مصر إلى النيل ، وقد أفنت سيوفه العدو ولم تبق منه إلا نفرأ قليلاً .

إن اهتمام العماد بنتيجة المعركة أكثر من اهتمامه بأحداثها يعود إلى حرصه على تصوير الانتصارات وإعلانها على المسلمين^(٢) . فالنتيجة هي المهمة بالنسبة للمسلمين الذين كانوا ينتظرون على أحر من الجمر ، ولذا فإن العماد كان يحرص على نقل نتائج المعارك مباشرة دون الإطالة في وصف أحداث المعركة ، ليدخل الفرح والسرور إلى نفوس المسلمين .

(١) الديوان : ١٧١ .

(٢) حلمي الكيلاني : موقف العماد من حروب المسلمين والفرنج من خلال شعره : ٢٦٦ .

جيش الفرنجة :

تقدم الحديث عن الجيش الإسلامي الذي وصفه العماد ، وصوّر معاركه مع الفرنجة ، ولا تكمل صورة المعركة إلا بالحديث عن الجيش المعادي ، وهذا الجيش هو الجيش الصليبي الذي أفرد له العماد مكاناً في قصائده الحربية ، فصوّره بحالاته المختلفة قبل المعركة وخلالها وبعدها ، فجاء حديثه كافياً لرسم صورته كما رآها ، فقد تحدث عن عدده وسلاحه ، ولقائه مع الجيش الإسلامي ، كما تحدث عن قاداته ومعتقداته ، فقد جاء حديثه عنها حديثاً مباشراً ، ومن هذه الصفات التي وصف بها الجيش الفرنجي مثلاً كثرة العدد ، فانظر إلى العماد يصور ذلك في القصيدة التي مدح بها صلاح الدين سنة ٥٦٥هـ فيقول :

كم جحفل بالعراء ذي لجبٍ بالصفّ منه يضيف صَفْصَفُهَا
كالبحرِ طامي العبابِ لاعبةٌ بموجهِ للرياحِ أَعْصَفُهَا^(١)

إن هذه الصورة التي تتحدث عن كثرة جيش العدو ليست صورة جديدة في الشعر العربي ، بل هي صورة مألوفة تكررت كثيراً ، فقد حرص الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي أن يصور خصمه قوياً كثيراً العدد ليجعل من النصر عليه أمراً له قيمة ، وليفهم الآخرين أن الجيش الذي أحرز النصر هو جيش أقوى ، وهذا ما يمكن أن يفهم من أبيات العماد السابقة التي ذكر فيها كثرة جيش الفرنجة ، ثم صور بعد ذلك هزيمته أمام جيش صلاح الدين فقال :

كثيَّةٌ متضَيّ مهنْدَهَا إلى الردى مشرّعٌ مُثَقِّهَا
غادَرَتْهَا للنسورِ مأكَلَةٌ حيثُ بأثلاثها تُضَيِّفُهَا^(٢)

إن كثرة الجيش الصليبي لم تفن عنه شيئاً أمام جيش صلاح الدين حين حقق نصراً عليه وقدم أشلاء طعاماً للنسور ، وكأنها الضيوف يقدم إليها القرى ، ويفهم من هذه الأبيات أن جيش صلاح الدين كان جيشاً قوياً كثيراً العدد رغم أن العماد لم يشير إلى ذلك صراحة ، ولكن القياس المنطقي للأمور يقودنا إلى ذلك ، وقد سعى العماد من وراء تضخم جيش الفرنجة إلى إظهار خطرهم الحقيقي من

(١) الديوان : ٣٠٩ .

(٢) نفسه : ٣٠٩ .

ناحية ، وتعظيم دور المسلمين في محاربتهم ودحرهم من ناحية أخرى .
ومن صفات الجيش الصليبي كما يصوره العماد الخشونة ، وهي صفات تدل
على قوة ذلك الجيش وصعوبة منازلاته ، ومع ذلك فإن صلاح الدين حين يلقاه في
ميادين القتال ينتصر عليه ويحطم عنفوانه ، كما يقول العماد في القصيدة التي
مدح بها صلاح الدين وهناه بفتح القدس :

أَتُوا مُكْسَ الْأَخْلَاقِ حُخْناً فَلَيْتَ	حُدُودَ الرِّقَاقِ الْحُشْنَ أَخْلَاقَهَا الشُّكْسَا
طَرَدْتَهُمْ فِي الْمَلْتَقَى وَعَكْسَتَهُمْ	مَجِيداً بِحُكْمِ الْعِزْمِ طَرَدَكَ وَالْعَكْسَا
فَكَيْفَ مَكَسَتْ الْمُشْرِكِينَ رُؤُوسَهُمْ	وَدَأْبَكَ فِي الْإِحْسَانِ أَنْ تُطَلِّقَ الْمَكْسَا
كَسَرْتَهُمْ إِذْ صَحَّ عِزْمُكَ فِيهِمْ	وَنَكَّسْتَهُمْ إِذْ صَارَ سَهْمُهُمْ نَكْسَا ^(١)

وإذا ما سرنا مع العماد في شعره الحربي لنبحث عن صورة الجيش الفرنجي
في معاركه مع المسلمين ، فإننا نجده ضمن حالات ثلاث هي القتل ، أو الأسر ، أو
الفرار ، ولن تجده منتصراً في معركة من المعارك ، وهذا الأمر مثير للاستغراب إذ
لا بد لأي جيش مهما بلغت قوته من تعرضه ولو لهزيمة واحدة ، ولكن هذا
الاستغراب يتلاشى إذا ما أدركنا الوظيفة التي يضطلع بها الشاعر في هذه
الظروف ، فليس من مهمة الشاعر أن يؤرخ للأحداث ، بل من مهمته أن يؤثر في
هذه الأحداث ، فيكتب شعراً تحريضياً لا توثيقياً ، فلا بأس إذاً أن يصور العماد
الفرنجة منهزمين ومخدولين في معاركهم مع المسلمين ، فانظر إليه كيف صور
مصارعهم حين مدح صلاح الدين في قصيدة تشوق فيها إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ ،
فقال :

بجيشك أزعجت جأش العدو	فما نفر منه إلا نفور
تركت مصارعاً للمشركين	بطون القشاعم فيها قبور ^(٢)

وتكررت الصورة في القصيدة التي هنا بها العماد صلاح الدين بفتح القدس
سنة ٥٨٢هـ فقال في وصف هزيمتهم :

(١) الديوان : ٢٢٤ .

(٢) نفسه : ١٩٢ .

كسرتهم إذ صحَّ عزمك فيهم
بواقعة رجَّت بها الأرض جيشهم
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم
وطارت على نار المواضي فراشهم
ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا
دماراً كما بسَّت جبالهم بسا
ولم ترَض أرض أن تكون لهم رمسا
صلاءً فزادت من خمودهم قيسا^(١)

ويقول العماد مصورا ما حلَّ بالفرنجة من تقتيل على يد صلاح الدين في

القصيدة التي قالها في فتح القدس سنة ٥٨٣هـ وخاطب فيها حسام الدين عمر :

عرى ظبأه من الأغصان مهرة
من سيفه في دماء القوم منغمس
أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا
وييت كفرهم من خبيثهم كنسا^(٢)
أدماً من الشرك رداها به وكسا
من كل من لم يزل في الكفر منغمسا

والعنصر الثاني من عناصر الصورة التي رسمها العماد لجيش الفرنجة هو

الفرار من ساحة المعركة ، وأظهر كلفاً بهذا العنصر ، فكان تصويره للهزيمة
تصويراً مفصلاً ، إذ وصف حالتهم النفسية التي غلب عليها الرعب ، فقال مصوراً
ما حلَّ بهم من إحباط في لقاء من لقاءاتهم مع نورالدين سنة ٥٦٨هـ .

يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
جاءوا وظنهم يعجل ربحهم
وظنونهم وقلوبهم قد أيقنت
وجلوت نورالدين ظلمة كفرهم
وهزمتهم بالرأي قبل لقاءهم
والمرأي قبل شجاعة الشجعان^(٣)
في حيرة وأتوا إلى حوران
فأعدتهم بالخزي والخسران
لرعب بالإخفاق والخفقان
لما صدعت بواضح البرهان

وبعد الحديث عن خيبتهم وهزيمتهم يصورهم العماد وقد فروا من ساحة

الوغي ، وقلب شجاعهم يرتجف كأنه السيف في يد الجبان ، ويحدد لنا وجهة
هربهم فيقول :

(١) الديوان : ٢٣٣ .

(٢) نفسه : ٢٣٠ .

(٣) نفسه : ٤١٢ ، وعجز البيت الأخير هو صدر مطلع قصيدة لأبي الطيب المتنبّي وهو قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

ما في النصارى الغنم إلا من له
ولوا وقلب شجاعهم في صدره
فاروا من (الفوار) عند فرارهم
وأزارها الشلالة الثل الذي
ولّى وجوههم سواد وجوههم
في الصلب ، بان الكسر ، والصلبان
كالسيف يرعد في يمين جبان
بالفور ، وامتدوا إلى (المدان)
أهدى لهم شلالاً إلى الإيمان
نحو السواد ، وأذنوا بهوان^(١)

ويرسم العماد صورة ساخرة لهزيمتهم فيصور الكيفية التي فرّ بها كل واحد منهم فيقول :

لما رأى الداوي رأونداءه
طلب الفيرى الفرار بطلبه
باروا فارونيههم بفناائه
ولّى بطاعون بغير طعان
متباعداً من هلكه المتداني
مود ، وسيدهم أسير عان^(٢)

يحرص العماد على إكمال صورة الهزيمة فيعمد إلى تصوير مشاعر الفرنجة بعد فرارهم من المعركة ، فيقول من هذه القصيدة مصوراً أحزانهم على ما حلّ ببلادهم :

أخلوا بلادهم فحلّ بأهلها
عادوا وحين رأوا خراب بيوتهم
بأؤوا بأحزان ، وخاضوا هولها
وقد استفاد المشركون تعازياً
منك الغداة طوارق الحدشان
يسوا من الأوطار والأوطان
بما لقوا بمخاضه الأحزان
والمسلمون تهادياً بتهان^(٣)

وأما العنصر الثالث من عناصر الصورة فهو وقوع الفرنجة وقادتهم في الأسر . ومن ذلك ما قاله العماد في تهنئة صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٣ هـ :

ثقاد بدأ ماء الدماء ملوكهم
سبايا ، بلاد الله مملوءة بها
أسارى كسفن اليم نطت بها القلّسا
وقد شريت بخساً وقد عرضت نخسا

(١) الديوان : ٤١٣ .

(٢) نفسه : ٤١٥-٤١٦ .

(٣) نفسه : ٤١٦ .

يطاف بها الأسواق لا راغب لها لكثرتها ، وكم كثرة توجب الوكسا^(١)

وفي قصيدة أخرى يمتدح بها العماد نورالدين مبيناً إذلاله قادة الصليبيين ، فيصوره وقد قاد أقوى فرسانهم إلى الردى ، وجعل ملوكهم رقيقاً ، وتركهم أذلاء مقيدين في سجونهم ، وجعل الأغلال في أعناقهم يسحبون بها على أذقانهم :

كم مصعب عسر المقادة قدته	نحو الردى بخزائم الخلان
قمصت قومصهم رداءً من ردى	وقرنت رأس برنسههم بسنان
وملكت رق ملوكهم ، وتركتهم	بالذل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم	وسحبتههم هوناً على الأذقان ^(٢)

كما يصور العماد مناظر القتل ، ويبدع في وصفها خاصة لقادة الفرنجة ، وكانت هذه المناظر تعجب العماد لأنه يراها جزاء وفاقاً لجرائمهم التي ارتكبوها بحق المسلمين ومقدساتهم .

ولعل العماد بالإضافة إلى ذلك أراد أن يعبر عن اشتفاء الأمة من هؤلاء الطغاة الذين أذاقوها كؤوس الهوان ، فصور طريقة قتلهم تصويراً ساخرأ ، فقال في قتل الطاغية أرناط صاحب الكرك الذي أذى المسلمين كثيراً فتعرض لحجاجهم ونهب قوافلهم ، وتهجم على رسولهم ، قال فيه يوم حطين :

يا يوم حطين والأبطال عابسة	وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رايت فيه عظيم الكفر محتقراً	مغفراً خده والأنف قد تفسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد	أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص ، إذ طار ذاك الرأس في دمه	كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوماً بغدرتة	والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا ^(٣)

بعد انجلاء المعركة وقع أرناط في الأسر ذليلاً محتقراً ، تعفّر خده بالتراب ، وقد وصفه العماد بأنه عظيم الكفر ، ووصف السيف الذي برى رأسه بأنه كثير

(١) الديوان : ٢٣٥ .

(٢) نفسه : ٤١١ .

(٣) نفسه : ٢٢٩ .

الطهر لأنه أصاب رأس أعظم المشركين وأكثرهم نجاسة ، ويصور العماد عملية القتل تصويراً مضحكاً ، فيشبه رأس البرنس وقد وقع في دمه بعد أن طار إلى أعلى كأنه الضفدع الذي يعطس في الماء ، ويشبه أرناط بغدرة كأنه المزكوم الذي يعطس ، وإذا كان الدعاء هو تشميت العاطس فإن القتل هو تشميت الغادرين أمثال أرناط ، وكان صلاح الدين نذر أن يقتل أرناط بيده إن ظفر به لغدرة ، وقد تم له ذلك بعد أن وقع في الأسر في معركة حطين^(١) .

(١) أبوشامة ، الروضتين ، دار الجيل ، ٧٩:١ .

الفصل الثالث

شعر العماد - التقويم الفني

- البناء الفني للقصيدة

- الأسلوب

- الصورة الشعرية

البناء الفني للقصيدة

تشكل القصيدة العربية كما يرى النقاد من هيكل محدد يقوم على عدد من المقومات ، أبرزها المطلع ، والمقدمة ، والخاتمة ^(١) .

وقد أصبح هذا البناء نهجاً يسير عليه الشعراء في قصائدهم في مختلف عصور الأدب العربي ، مع تفاوت فيما بينهم بدرجة الالتزام بهذا النهج .

وأول عناصر هذا البناء في القصيدة الابتداء أو المطلع ، فقد أظهر الشعراء عناية خاصة بمطالع قصائدهم ، ومثلهم كان نقاد الشعر الذين وضعوا شروطاً ومواصفات للمطلع الجيد ، ومن هذه الشروط «أن تكون العبارة فيه حسنة جزلة ، وأن يكون المعنى شريفاً تاماً ، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة ، وأن تكون الألفاظ الواقعة فيه ، لا سيما الأولى ، مستحسنة غير مركبة من جهة مسموعها ومفهومها» ^(٢) ولذلك فإن على الشاعر أن يتحرز في أشعاره ، ومفتتح أقواله مما يتطير منه . لأن الابتداء أول ما يقع في السمع من الكلام ، فإذا كان حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً ، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام ^(٣) . وحسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح كما يقول ابن رشيق ^(٤) .

ويقال حسن المطلع بمدى مناسبته لمقصد المتكلم من جميع جهاته ، فإن كان مقصد الشاعر الفخر ، كان الوجه أن يعتمد على الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتضخيم ، وإن كان مقصده النسب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة ^(٥) .

ولو نظرنا في بعض افتتاحيات العماد لقصائده لوجدناه موفقاً في هذه المطالع من حيث ألفاظها ودلالاتها على موضوع القصيدة ، ومن الأمثلة على مطالعه الحسنة قوله يمدح أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤هـ ويهنته فيها على تقلد الوزارة في مصر ، يقول :

(١) يوسف بكار ، بناء القصيدة العربية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخرجة ، تونس ، ١٩٦٦ ، ص ٢٨٢ .

(٣) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨١ ، ص ٤٨٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ .

(٤) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٢ ، ص ٢١٧ .

(٥) منهاج البلغاء ، ص ٣١٠ .

بالجدُّ أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جُنيت من دوحة التعب^(١)

فهذا المطلع يتناسب مع مدح القائد ، والألغاز التي اختارها لمخاطبته هي
ألغاز جزلة رصينة ضخمة تناسب الدور الذي قام به في مصر .
ومن استهلالاته الموفقة مطلع قصيدته في مدح صلاح الدين بعد ضم مدينة
بعلبك سنة ٥٧٠هـ / يقول :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام وبنور نصرك تشرق الأيام^(٢)

تتناسب ألغاز المطلع مع حالة النصر ، فهي ألغاز جزلة قوية ، ذات معان
جميلة وكأن الشاعر في هذا المطلع يقول : أن الإسلام يفخر بانتصاراتك يا صلاح
الدين التي ستجعل أيام الأمة مشرقة بالاستقرار والأمن .
ومن استهلالاته البارعة مطلع قصيدته في رثاء نور الدين وصلاح الدين ،
يقول في رثاء نور الدين :

الدين في ظلم لغية نوره والدهر في غمّ لفقد أميره^(٣)
ويقول في رثاء صلاح الدين :
شمل الهدى والملك عمّ شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته^(٤)

فهذان المطلعان يناسبان موقف الموت ، ورحيل القائد في وقت تكون الأمة
في أمس الحاجة إليه ، ويعبر عنه أصدق تعبير بالألغاز منتقاة ، ذات دلالة على ما
أصاب الأمة من هذا الحادث الجلل .

وأما عن المقدمة في قصائد العماد فإننا نجده يُعرض عن المقدمات الطللية
فلا نراه يقف ولو مرة واحدة على أطلال الأحبة ، إذ لم يعد الوقوف على الأطلال
مُلزماً للشعراء بعد أن تمّ الخروج على هذه القاعدة واستعاضوا عنها بمقدمات أخرى
كالغزل ، وقد أكثر العماد من استخدام المقدمات الغزلية في قصائده وخاصة

(١) الديوان ، ٧٩ .

(٢) نفسه ، ٣٧٧ .

(٣) نفسه ، ٢١٢ .

(٤) نفسه ٨٦

قصائده في المدح والحرب ، وقد بلغت هذه المقدمات ثلاثين مقدمة نجدها في الديوان ، تفاوتت في طولها ، وتجاوز أطولها العشرين بيتاً^(١) وقصر بعضها فلم يتجاوز بيتين أو ثلاثة^(٢) .

ومن قصائده المدحية التي بدأها بمقدمة غزلية ، قصيدته في مدح الخليفة المقتفي قبل أن يتولى واسط . يقول فيها :

كُنْ عاذري في حُبِّهم ، لا عاذلي يا فارغاً من شغل قلبي الشاغل
هَبْ أَنْ سَمِعِي للنصيحة قابلٌ ما نافعِي ، والقلب ليس بقابل ؟
أخفيتُ سرَّ الوجد خيفةً عُدْلي فتعرّفوا من أدمعي ومخايلي^(٣)

وغير هذه المقدمة الكثير نجدها في صدور قصائد المديح ، جاء بها العماد تعويضاً عن المقدمة الطللية^(٤) .

وليس البدء بالغزل في مدحياته سنة لا يحيد عنها ، بل نجده يعرض عنها في بعضها ، فقد راوح في مدحه لكل مدوحيه بين البدء بالغزل أو الدخول في الموضوع مباشرة^(٥) .

ويستخدم العماد المقدمات الغزلية في قصائده الحربية التي يمدح بها قادة الجهاد ، ويصور المعارك ، والجيوش والأسلحة ، ويبدو ذلك في قصيدته التي قالها في تهنئة صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٢هـ فقد بدأها بمقدمة غزلية ، وكان مطلعها :

أطيبُ بأنفاسٍ تطيبُ لكم نَفْساً وتعتاضُ من ذكراكم وحشني أنسا^(٦)

وفي قصيدته التي قالها في فتح القدس سنة ٥٨٢هـ مخاطباً (حسام الدين عمر بن محمد لاجين) ابن أخت صلاح الدين ، والتي مطلعها :

(١) الديوان ، ٦٦ - ٦٨ .

(٢) نفسه ، ٨٣ .

(٣) نفسه ، ٢٤٥ .

(٤) نفسه ، الصفحات ، ١٧٧ ، ٢٤٩ ، ٢٩٤ .

(٥) انظر من هذه المقدمات في الديوان ، الصفحات ، ٦٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠١ ، ١٠٤ .

(٦) الديوان ، ٢٣٠ .

استوحش القلب مُذْ غبتم فما أنسا وأظلم اليوم مُذْ بتتم فما ثمسا^(١)

خالف العماد في هذا الأمر غيره من شعراء عصره الذين ابتعدوا عن المقدمات الغزلية في قدسياتهم^(٢) كما خالف النقاد ممن يرون ضرورة الابتعاد عن المقدمات الغزلية في قصائد الحرب «فإذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح معقل ، أو هزيمة جيش ، أو غير ذلك فإنه لا ينبغي أن يبدأ فيها بغزل ، وإن فعل ذلك دلّ على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية^(٣) .

قد يكون العماد معذوراً في ابتدائه بالغزل في هاتين القصيدتين ، فقد قالهما بعد أن تحررت القدس ، وعادت الى أهلها ، وقد تطهرت من الرجس فكانت عودتها غالية عزيزة وألغاز الغزل هي أنسب الألفاظ للتعبير عن حالة الوجد والشوق التي عاشها المسلمون ينتظرون عودة القدس ، وهي الأنسب كذلك للتعبير عن حرارة اللقاء بين المسلمين وحببيتهم القدس ، التي تحررت من الأسر بعد انتظار طويل ، فجاءت هاتان المقدمتان منسجمتين مع الموضوع ، ويبدو هذا التلاؤم في حسن الربط بين المقدمة الغزلية وموضوع القصيدة^(٤) .

اهتم العماد في قصائده المدحية التي بدأها بمقدمات غزلية بإحكام الربط بين المقدمة والموضوع ؛ فأحسن الخروج من الغزل إلى المدح . وتلطف في التخلص من موضوع الغزل ليدخل في موضوع المدح ، وهو بذلك يرضي النقاد الذين يرون ضرورة الربط بين المقدمة الغزلية وموضوع القصيدة برابط يسمونه الخروج ، أو حسن التخلص .

«فالنسيب الذي تفتح به القصائد ينبغي أن يكون متصلاً بما بعده من مدح أو ذم ، غير منفصل عنه ، لأن القصيدة في بنائها كخلق الإنسان في اتصال أجزائه بعضها ببعض فمتى انفصل واحد منها عن الآخر وباينه في صحة التركيب ، غادر

(١) الديوان ، ٢٢٧ .

(٢) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ٢٣٦ .

(٣) ابن الأثير ، المثل السائر ، تحقيق ، أحمد الحوفي ، وبدوي طبانه ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ج ٢ ، ص ٩٧٢ .

(٤) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ٢٣٩ .

بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتغطي معالم جماله .^(١)

لقد أحسن العماد التخلص من مقدماته الغزلية إلى غرضه وهو المدح في مواقع كثيرة ومنها قوله من قصيدة مدح بها (المستضيء) وتفزّل في مقدمتها ووصف أيام الصبّا ، وحنّ إليها ، وتخلّص من الحديث عنها بتشبيهها بأيام الإمام المستضيء في جمالها ، فنراه يقول :

كان الصبّا أصفى الثياب ، وإنما
يا حسن أيام الصبّا وكأنها
ذهبت نضارة عيشتي لما نُضي
أيام مولانا الإمام المستضيء^(٢)

ومن المواقع الأخرى التي يُحسن العماد فيها التخلص من الغزل إلى المدح قوله مادحاً (حسام الدين عمر بن لاجين ، إذ يقول في وصف المحبوب :

في العطف لين وفي أخلاقه شوس
ثم يقول رابطاً بين الغزل والمدح :
يا لين عطفه جنب خلقه الشوسا^(٣)
إن بان ليس مضيئنا لاجين إلى الـ
فتى الحسام بن لاجين بنايلسا^(٤)

ويتخلص من المقدمة الغزلية في القصيدة التي مدح بها نور الدين مظهرأ سبب انشغاله عن أحبابه في العراق بعد أن اتصل بنور الدين ، فيقول :

ما اعتياضي عن حبّهم يعلم اللـ
وانتغالي بخلمة الملك العا
به تعالى إلا يحبّ الجهاد
دل محمود الكرم الجواد^(٥)

وتتعدد المواقع التي يُوفق العماد فيها في التخلص من موضوع إلى موضوع دون إخلال بموضوع القصيدة وبنائها الفني .

وأما خاتمة القصيدة عند العماد فإنها منسجمة مع موضوعاته ، وقد وفّق في ختم قصائده بخواتيم كانت لها كالقفل ، والخاتمة الشعرية كانت من الأمور التي

(١) العمدة ، ٢٠ / ١١٧ .

(٢) الديوان ، ٢٦٣ .

(٣) نفسه ، ٢٢٨ .

(٤) نفسه ، ٢٢٨ .

(٥) نفسه ، ١٢٥ .

استرعت اهتمام الشعراء والنقاد في القصيدة العربية فهي قاعدتها ، وآخر ما يتبقى منها في الأسماع . وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له ، وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه ^(١) . ويقول القرطاجني في خاتمة القصيدة وضرورة الاعتناء بها : «إنما وجب الاعتناء بهذا الموضوع لأنه منقطع الكلام وخاتمته ، فالإساءة فيه معفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس ، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو ، وترמיד بعد إنضاج ^(٢) .

وإذا نظرنا في قصائد العماد فإننا نلمح أن الخواتيم جاءت ملائمة للموضوع ، ومتفقة مع ذهب إليه النقاد من ضرورة الاعتناء بها ، وجعلها قفلاً للقصيدة . ومن خواتيمه الموفقة خاتمة القصيدة التي مدح بها الخليفة العباسي المقتفي سنة ٥٥٢هـ . فقد جاءت الخاتمة مناسبة لغرض المدح إذ صور الشاعر نفسه وقد هجر موقعه ملتجئاً إلى الخليفة ليرفع قدره . وفي هذه الخاتمة يؤكد كرم الخليفة الذي أفاض الشاعر في الحديث عنه ، وهي قوله :

ونأيت عن قومي ليرفع دونهم قدري اصطناعك لي فجئت على قدر ^(٣)

وجاءت بعض الخواتيم التي تتعلق بالحرب معبرة عن روح النصر ، متغنية بالفتح ، كما في خاتمة قصيدته التي هنا بها صلاح الدين بفتحته القدس سنة ٥٨٢هـ ، إذ يقول :

وقد طاب ريباناً على طبرية فيا طيبها ريباً ويا حسنها مرسى ^(٤)

وأما خاتمة قصيدة فقد جعلها متناسبة مع الموضوع ، فحتم القصيدة التي رثا بها نور الدين بأن تمنى له السكن في الفردوس ، إذ يقول :

وسكنت عليين في فردوس حلف المسرة ظافراً بأجوره ^(٥)

وختم رثاءه لصلاح الدين بالدعاء له بالسقيا ، فقال :

(١) العمدة ، ٢٣٩/١ .

(٢) حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء .

(٣) الديوان ، ١٥٤ .

(٤) نفسه ، ٢٣٦ .

(٥) نفسه ، ٢١٦ .

فسقاك رضوان الإله لأنني لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل^(١)

وأما طول القصيدة عند العماد ، فإنه متفاوت في أشعاره التي بين أيدينا ، إذ تجد له قصائد طوالاً تجاوزت أبياتها التسعين^(٢) . في حين اشتمل ديوانه على كثير من المقطوعات التي يتراوح عدد أبياتها بين بيتين وعشرة . وأطول قصائده كانت في المدح ، والثناء ، ووصف المعارك ، ومدح أبطالها ، وفي الشوق ، وليس مهماً أن تطول القصيدة ويكثر عدد أبياتها بل المهم أن تكون جيدة وإن لم تطل^(٣) . ولم تكن قصائد العماد الطوال كلها جيدة ، إذ ظهر في بعضها التكلف في الصور والمعاني والقافية ، فكان طول القصيدة يلجئه إلى قواف غريبة وبعيدة في معانيها .

وسنرى في واحدة من قصائد العماد كيف يبني قصيدته ، وليكن هذا النموذج قصيدته التي هنا بها صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٣هـ^(٤) .

افتتح العماد هذه القصيدة بمطلع جميل خاطب به الحبيب الغائب ، فقال :

أَطِيبُ بِأَنْفَاسٍ تَطِيبُ لَكُمْ نَفْسًا وَتَعْتَاضُ مِنْ ذِكْرَاكُمْ وَحَشْتِي أَنْسَا

يلتزم هذا المطلع المقدمة الغزلية التي قدّم بها لمُدح صلاح الدين ، وفي هذا المطلع يقول : إنه يجود بأنفاسه عن طيب نفس لأحِبته ، وتتبدل وحشته بذكراهم أنسا ، ويشكل هذا المطلع مع بقية الأبيات بعده مقدمة القصيدة ، وهي مقدمة غزلية ، يقول فيها :

وَأَسْأَلُ عَنْكُمْ عَافِيَاتِ دَوَارِسِ غَدَّتْ بِلِسَانِ الْحَالِ نَاطِقَةٌ خَرَسَا
مَعَاهِدَكُمْ مَا بِالْهَسَا كَعَهْدِكُمْ وَقَدْ كَرَّرْتُ مِنْ دَرَسِ أثارِهَا دَرَسَا
وَقَدْ كَانَ فِي حَدْسِي لَكُمْ كُلِّ طَارِقِ وَمَا جِئْتُ مِنْ هَجْرِكُمْ خَالَفَ الْحَدْسَا
أَرَى حَدَثَانَ الدَّهْرِ يُنْسِي حَدِيثُهُ وَأَمَّا حَدِيثُ الْغَدْرِ مِنْكُمْ فَلَا يُنْسَى

(١) الديوان ، ٣٤٠ .

(٢) نفسه ، انظر الصفحات ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ٣٨٣ ، ٣٩٣ ، ٤٢٢ ، ٤٣٠ .

(٣) بناء القصيدة ، ٣٥٢ .

(٤) الديوان ، انظر القصيدة ، ٢٣٠-٢٣٦ .

يصور العماد كما يلاحظ في جزء من هذه المقدمة غدر الأحبة وهجرانهم ،
وبعدهم ، ويقابل بين حال الأحبة وتعاملهم معه ، وحاله في تعامله معهم ، فيقول :

تَزُولُ الجبالُ الرَّاسِيَاتُ وثابِتٌ رَسِيْسٌ غَرَامٍ فِي فؤادِي لَكُمْ أَرَسَى
حَسَبْتُ حَبِيبي قاسِيَ القلبِ وَحَدَّهُ وقلبَ الَّذِي يَهْوَى بِحَمْلِ الهَوَى أَمَسَى

وبالرغم من أن العماد قد خالف النقاد ، وشعراء عصره في التقديم بالغزل
لشعر الحرب ، إلا أن التلاؤم بين المقدمة الغزلية ، وموضوع القصيدة كان واضحاً ،
ويبدو ذلك في حسن الربط بين المقدمة الغزلية وموضوع القصيدة ، أو حُسن
التخلص ، فإنه يختم المقدمة الغزلية بقوله :

فلا تَحْبِسُوا عَنِّي الجَمِيلَ فَإِنِّي جَعَلْتُ عَلَى حُبِّي لَكُمْ مَهْجَتِي حَبْسًا

وقد كان العماد يُكَنِّ حَباً عَظِيماً لصلاح الدين ، ومن الممكن أن ترى قوله في
عجز البيت ينطبق على علاقة العماد بصلاح الدين حباً له ، وإشادة به ، ولهذا تجده
يبدأ مدح الفاتح صلاح الدين بعد البيت السابق مباشرة^(١) .

وبعد المقدمة الغزلية ينتقل العماد إلى موضوع القصيدة الرئيس وهو مدح
السلطان صلاح الدين ، فيقول :

رَأَيْتُ صلاحَ الدِّينِ أَفْضَلَ مَنَ غدا وَأَمْرَفَ مَنَ أَضْحَى وَأَكْرَمَ مَنَ أَمَسَى
وَقِيلَ لَنَا فِي الأَرْضِ سَبْعَةُ أَبْحَرٍ وَلَسْنَا نَرى إِلَّا أَنامِلَهُ الحَمَسَا

ويستمر العماد في ذكر صفات صلاح الدين ، ويصف فتحه القدس ، وتطهيره
لها من رجس الفرنجة ، ويتغنى بهذا النصر ، ويذكر بقية الفتوح التي تحققت
على يد البطل المجاهد صلاح الدين ، ثم يحثه على تحرير ما تبقى من ديار المسلمين
فيقول :

سَجِيَّتُهُ الحُسْنَى وَثِمِيَّتُهُ الرِّضَا وَبَطْشَتُهُ الكَبْرَى ، وَعَزَمَتُهُ القَعْمَا
فَلا عَدَمْتُ أَيامنا مِنْهُ مَشْرِقاً يُنِيرُ بِمِائِ يُولِي لِيالينا الدَّمَسَا
جَنودُكُ أَملاكُ السَّماءِ وَظَنهُمُ عَدائُكَ جَنُ الأَرْضِ فِي الفَتكِ لا الإِنسا
فَلا يَمْتَحِقُ القُدسَ غَيْرُكَ فِي الوَرى فَأَنْتَ الَّذِي مِنْ دُونِهِمُ فَحَّ القُدسا

(١) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ٢٢٩ .

ومن قبل فتح القدس كنت مقدماً
وطهرت من رجسهم بدمائهم
وألبستهم الكفر عن قدس أرضها
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقُدسا
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرُجسا
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا

ويذكر بقية الفتوح التي حققها صلاح الدين والمدن التي حررها فيقول :

وقد طابَ رياناً على طبرية
وعكا ، وما عكا ، فقد كان فتحها
وصيدا ويروت وتبين كلها
ويافا وأرسوفاً تُبنى وغزة
فيا طيبها معنى ويا حسنها مرسى
لإجلاتهم عن مُدن مباحلهم كُنسا
بسيفك ألقى أنفه الرغيم والثمنا
تخذت بها بين الطلى والظبي عرسا

ويمضي العماد مخاطباً صلاح الدين ، حاثاً له على تحرير بقية المدن الإسلامية

والانتقام من الصليبيين بتدميرهم واجتثاثهم ، فيقول :

وصار بصور عصبة يرقبونكم
توكل على الله الذي لك أصبحت
ودمر على الباقيين واجتث أصلهم
ولا تنس شرك الشرق غربك مروياً
وإن بلاد الشرق مظلمة فخذ
وبعد الفرنج الكرك ، فاقصد بلادهم
فلا تُبطئوا عنها وحسوهم حسا
كلاءته درعاً ، وعصمته ترما
فإنك قد صيرت دينارهم فلما
بماء الطلى من صاديات الظبي الخمسا
خرامان والنهرين والتُركَ والقرما
بعزمك واملأ من دمائهم الرُمسا

ويستمر في مخاطبة صلاح الدين مصوراً جيشه ، يقول :

أقامت بغاب الساحلين جنودكم
سحبت على الأردن رُدناً من القنا
حططت على حطين قدر ملوكهم
وقد طردت عنه ذئابهم الطلُسا
رُدنيّة ملداً وخطيئة مُلسا
ولم تُبق من أجناس كفرهم جنسا

ثم يصف جنود الفرنجة قبل المعركة وخلالها وبعدها ، فيقول في وصفهم

عندما دخلوا المعركة :

أتوا شكس الأخلاق خشناً فليئت
طردتهم في الملقى وعكستهم
حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا
مُجيداً بحكم العزم طردك والعكسا

ويقول مصوراً هول المعركة ومصير الأعداء :

بواقعة رجت بها الأرض جيشهم دماراً كما بست جبالهم بساً
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

ثم يصف حالهم بعد الهزيمة وما آلت إليه ملوكهم وقادتهم من ذل وهوان ،
فيقول :

تقاد بدأماء الدماء ملوكهم أسارى كسفن اليم نُطت بها القلُسا
إلى أن يقول مصوراً مقتل البرنس أرناط :
نسفت به رأس البرنس بضربة فأثبه رأسي رأسه العهنُ والبرسا

ويختم القصيدة ببیت يلائم الموضوع . إذ يظهر فيه تغنيه بالانتصار الذي
تحقق فيقول :

وقد طاب رياناً على طرية فيا طيها ريا ويا حسنها مرسى ا

في هذه القصيدة كما في غيرها يحافظ العماد على وحدة الموضوع ، فبالرغم
من تعدد الموضوعات التي يتحدث عنها ، إلا أنها في النهاية تنصهر في موضوع
واحد ، فالموضوع في هذه القصيدة هو الحديث عن الانتصار الذي تحقق على
الفرنجة ، وحرر القدس منهم ، فالقدس هي الحبيبة الغائبة التي يتحدث عنها
الشاعر في المقدمة الغزلية ، والبطل صلاح الدين هو الذي أعادها إلى محبيها ،
وجيشه هو الذي حقق النصر على الأعداء بمشيئة الله فهزم جيش الفرنجة في
معركة حاسمة ، وهكذا كانت هذه القصيدة مثلاً على وحدة الموضوع رغم تعدد
عناصر البناء فيها .

الأسلوب:

اهتم النقاد بالأسلوب ، وعلاقته بأغراض الشعر ، فلكل غرض شعري ألفاظه التي تناسبه وتعبّر عنه ، إذ لا ينبغي للشاعر كما يقول القاضي الجرجاني « أن يجري أنواع الشعر كله مجرى واحداً ، ولا أن يذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل عليه أن يُقسّم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزله كافتخاره ، ولا مديحه كوعيده بل يرتب كلاً مرتبته ويوفيه حقه ، فيلطف إذا تغزل ، ويضخم إذا افتخر»^(١) .

ويرى النقاد أن الارتباط بين اللفظ والمعنى في الشعر أمر غاية في الأهمية ، لأن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الجسد والروح ، «فاللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه»^(٢) .

اجتهد العماد في اختيار ألفاظه ليصل إلى هذا المستوى في شعره من التوافق بين الألفاظ والمعاني ، فأصاب هدفه حيناً وأخطأه أحياناً أخرى ، وقاده الاهتمام بانتقاء الألفاظ وتخيرها إلى الشطط ، فبعد أن كان البحث عن الألفاظ وتخيرها غاية لهدف نبيل ، هو الوصول إلى التوافق بين الألفاظ والمعاني ، أصبح اللفظ غاية يسعى إليها العماد على حساب المعنى ، ففرّق شعره في بحر من الحسّنات اللفظية والمعنوية . وقد ترديد كغيره من شعراء عصره بين الأسلوب الجزل القوي في الأغراض التي تتطلب هذه الجزالة ؛ وتلك سمة شعر المدح والفخر . وبين السهولة في الأغراض الأخرى ، وبخاصة الغزل الذي تُعدّ السهولة شرطاً من شروطه^(٣) .

لقد حرص العماد في مدائحه على التخخير الدقيق لألفاظه ، فجاءت جزلة قوية ، ذات إحياءات لتحقق أعلى درجة من التأثير في نفس المدوح ، فنراه يقول

(١) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد ابراهيم ، وعلي محمد الجاوي ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ص ٢٤ . وانظر العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده ، ١٢٨:٢ . وانظر كذلك ابن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص ١١ .

(٢) ابن رشيقي ، العمدة ١٢٤/١ . وانظر الصناعتين ، ص ١٧٩ .

(٣) أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ، ص ١١١ .

في مدح «المستضيء» سنة ٥٦٩هـ معبراً عن أثر عدله في نفوس الرعية ، وعن هيبته في نفوس الأعداء ، فيقول :

أذمتَ عدلاً عيونَ العالمينَ بما
 أذهبتَ عنها القذى والرَّينَ والغمصا
 علوكم واقعٌ في الرعب طائره
 حتى لقد حسبَ الدنيا له قفصا
 يا خيرَ مَنْ حَجَّ وفلأ لله كعبته
 على المطيِّ الذي في سيره قهصا^(١)

تتناسب درجة اهتمام العماد بألفاظه مع عظمة المدوح وأهمية الدور الذي يقوم به ، ونرى ذلك في مدحه للخليفة (المقتفي) الذي استطاع سنة ٥٥٢هـ أن يكشف كربة الحصار عن بغداد بإجباره جيش محمد شاه علي الرحيل عنها ، فصور هذا النصر بقصيدة تنمق في اختيار ألفاظها . فقال في مطلعها :

أضحت ثغور النصر تسم بالظفر
 وغدت خيول النصر واضحة الغرر^(٢)
 وقال في مدح الخليفة :

وبرزت مثل الشمس تشرق للسورى
 وسناك يحجب عنك ناظر من نظر^(٣)
 وقال في وصف جيشه :

فوق الجياد الجرد ما وردت وغى
 يتركز في الظمأ الزلال بصفوه
 فالأرض وهي فسيحة ضاقت به
 وإلا وخيل علوها عنها صدر
 ويردن في الروع الدماء على كدر
 وعلي العدي منه فما وجلوا مقر^(٤)

وإذا كان الحديث عن الجهاد وأبطاله فإن اهتمام العماد بألفاظه اهتمام خاص، إذ كان يحرص على تخير الألفاظ والعبارات لتعبر عن الأفكار والمعاني التي تعتمل في نفسه ، ويضعها في مكانها اللائق لكي تعبر عما يريد تعبيراً دقيقاً صوحياً . ومن الأمثلة على ذلك قوله من قصيدة يصف بها وقعة شهدا بين نور الدين والفرنجة سنة ٥٦٨هـ :

(١) الديوان ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٢) نفسه ، ١٥١ .

(٣) نفسه ، ١٥٢ .

(٤) نفسه ، ١٥٣ .

نار تألق من خلال دحسان	وكان بين النقع لمع حديدها
فيه بري الصارم الظمان	في مأزق ورد الوريد مكفل
لتنوب عنها أنجم الخرصان	غطى العجاج به نجوم سمائه
بالسمر متح الماء بالأمطان ^(١)	يمتاع من قلب القلب دماءها

ويراوح العماد في شعره الحربي بين الجزالة والرقعة ، فنراه يستخدم ألفاظاً رقيقة في وصف الجيش ، فيقول في مدحه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وفي وصف جيشه :

راياتها منشورة أزهار	وكتيبة مثل الرياض كأنما
فتقت فكل صقيلة نوار ^(٢)	وكانما الأعماد عن زهر الظبي

ويستخدم في القصيدة نفسها ألفاظاً تعبر عن القوة والعنف حين يصف مضارع الأعداء ، فيقول :

بدمائهم فخرت به الأنهار	لما جرى العاصي هنالك طائماً
بل كلت الأنياب والأظفار ^(٣)	وتحطمت عند القرون قرونهم

وتظهر هذه المراوحة بين رقة الألفاظ وجزالتها في القصائد الحربية التي يبدأها بالفزل كما في قصيدته التي هنا بها صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٣هـ إذ يقول فيها متغزلاً ومصوراً بعد الحبيب وهجرانه بالألفاظ عذبة رقيقة :

وأطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا	وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا
حسبت حبيبي قاسي القلب وحده	وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى
أما لكم يسا مالكي الرق رقة	يطوب بها مملوككم منكم نفسا ^(٤)

وينتقل بعد الفزل إلى وصف هزيمة الأعداء وانتصار ناصر الدين عليهم ،

(١) الديوان ، ٤١٢ .

(٢) نفسه ، ١٦٤ .

(٣) نفسه ، ١٦٥ .

(٤) نفسه ، ٢٣٠ ، ٢٣١ .

فيأتي لهذا الغرض من الألفاظ بأقواها وأكثرها تعبيراً عن مشاعره فيقول مصوراً هزيمتهم .

كسرتهم إذ صبح عزمك فيهم	ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا
بواقعة رجعت بها الأرض جيشهم	دماراً كما بست جبالهم بساً
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم	ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا ^(١)

وترق ألفاظ العماد وتسهل من غير ابتذال في موضوعات شعره الأخرى من غير المديح والحرب ، كالوصف والشوق والحنين ، والنسيب والغزل . وللغزل أسلوب خاص إذ يمتاز على العموم بالرقّة واللين والسهولة ؛ فالكلمات رقيقة عذبة تحكي نوازح نفسية رقيقة كالشوق والدلال ، والفتنة والهيام بالحبوب ، أو حارة مقبولة كالصدّ والجوى والسهاد . ونرى العماد يبذل جهداً كبيراً في تصوير عاطفته نحو الحبيب شوقاً إليه وتوقاً للقياء ، والمأ وحرقة وحنناً على فراقه فيبحث في اللغة عن كل لفظ دال على أحوال الحب ليوظفها في قصائد الغزل والنسيب .

فنراه يقول في إحدى قصائده :	
مُغرمٌ هاجت جواه نسمةً	يا لها من نسمة هاجت غراما
نفحمةً أذكت بقلبي لفحمة	كلما هبت له زادت ضراما
عاينت سلمى سُحيراً أم ترى	غازلت بالسروض أنفاس الخزاما ؟ ^(٢)

اندفع العماد في بحثه عن الألفاظ وتخيرها إلى السير في دروب المحسنات اللفظية والمعنوية ؛ فشارك أدباء عصره اهتمامهم بالبديع الذي بدأ يعظم ويتضاعف حتى استحال الأدب إلى صناعة بديعية محضة استبدت بجهودهم^(٣) ، وقد بالغ العماد في تطبيق هذا المظهر من مظاهر المقاييس الأدبية في عصره^(٤) .

(١) الديوان ، ٢٢٢ .

(٢) نفسه ، ٣٧١ .

(٣) أحمد موسى ، الصبغ البديعي في اللغة العربية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٥٤ .

(٤) محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧١ ، ص ١٩٨ .

حتى غدا شعره لوحة من الزخرف ، والألوان فلا يكاد نص من نصوصه الشعرية يخلو من واحد من هذه الألوان ، ومن أكثر ألوان البديع دوراناً على لسان العماد الجناس . فقد اشتهر به حتى أن بعض النقاد ميّزه بهذا الفن فقال : «الذين رزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها جماعة كثيرة» . فذكر كل واحد منهم والشيء الذي رزق السعادة فيه ، ومنهم العماد الكاتب الذي رزق السعادة في الجناس ^(١) .

غلب الجناس على شعر العماد ، وكان الطابع المميز له ، فجاء به تاماً وناقصاً ، وبرع في اشتقاقه من الأسماء والأفعال ، وبثه في ثنايا قصائده ، فازدحمت به وجانس في البيت الواحد بأكثر من لفظين ، ومن الجناس قوله :

ملك تملك جدّه من جدّه فالمحمد مجده والمراح مراجبه ^(٢)

وقوله :

ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً فإنهم يأخذون النفس والنفسا ^(٣)

وقوله :

من في الجهاد صفاحه ما أغمدت بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من في صدور الكفر صدر قناته حتى توارت بالصياح قناته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن منذ عاش قط لذاته لذاته ^(٤)

لم يكتب العماد بحشد الألفاظ والمجانسة بينها بل نجده يحاول أن يشتق الجناس من الأسماء ، فقد كان له غرام بتحويل الأسماء والألفاظ الأجنبية وصياغة أشكال جديدة منها طلباً للجناس ، فالقمص قمص ، والبرنس ، برنس ، وهكذا ^(٥) .
ومن الأمثلة على ذلك قوله :

(١) الصفدي ، الفيث المسجم في شرح لامية العجم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) الديوان ، ١١٢ .

(٣) نفسه ، ٢٢٩ .

(٤) نفسه ، ٨٧ .

(٥) نزار الليدي ، صورة فن الحرب في أدب الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام ، رسالة دكتوراه ،

الجامعة الأردنية ، ١٩٩٣ ، ص ١٣٩ .

نلء داوئها تلهفها
يُردى بهذ السقوفِ أمقفها^(١)

فر فريركما وأزعجهما
يمطر مطرانها العذاب كما

وقوله :

ولى بطاعونٍ بغير طعمان
متباعداً من هلكه المتدانى
لسلامة والهون شأن الثاني
مودٍ وسيدهم أسير عانى^(٢)

لما رأى الداوي داوي دائه
طلب الفريرى الفرار بطلبه
والهنفري مذهان فر مؤملاً
باروا فبارونهم بفنائيه

وقوله :

وظهور ظاهره لنا سرواتُه^(٣)

وبفضل أفضله وعز عزيزه

تحول الجناس عند العماد إلى نوع من التلاعب بالألفاظ سعياً إلى تحقيق إيقاعات موسيقية موثرة تسوّغ الأشعار للجمهور الذي لم يكن له حظ من الثقافة اللغوية ، ولذلك فإن تركيز الشاعر على الصورة والمعاني لن يؤهل شعره لنيل رضى الجمهور في ذلك العصر مثلما تؤهله الموسيقى والإيقاعات الجميلة . فأخذ العماد بهذا المبدأ ، وهو مبدأ الاهتمام بالموسيقى ، فكرر الألفاظ وتلاعب بها ، وكرر الحروف ، فتتابعت نغماته الهامسة في قصائده وأبياته بألحان مطربة شجية ، ومن الأمثلة على ذلك قوله في الحنين إلى دمشق وأهلها :

من الجور حوزوا في مشوقكم الأجر
سقى ورعى ربي مقرى في مقرى
لأن الهوى العذري منى في عذرا^(٤)

أجيران جيرون المجيرون جارهم
ومذ غبت عن مقرى مقرى قد نبا
أحن إلى عذرا ، وعذري واضح

لقد جانس العماد في هذه الأبيات بين الكلمات أجيران ، وجيرون ، والمجيرون ، والجور والأجر . وفي البيت الثاني جانس بين مقرى ومقرى ، وفي البيت الثالث جانس بين عذرا وعذري ، والعذرى ، وعذرا ، فقد بُنيت الأبيات

(١) الديوان ، ٣١٠ .

(٢) نفسه ، ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٣) نفسه ، ٩٢ .

(٤) نفسه ، ١٥٥ .

الثلاثة على ثلاثة ألفاظ اشتقت منها كلمات تناسبها في الإيقاع وفي الحروف شكّل
منها أبياته المذكورة ، ومنها قوله :

وردا بكف العادل النيل في مسرى
ولما نزلنا مصرَ في شهر طوبة
وإيوان كسرى عند إيوانه كسرى^(١)
غدا قاصراً عن قصره قصرُ قيصرٍ

ومنها قوله :

مطارُ الثراءِ تراها المطيرُ
مدارُ الحياة حياها المدرُ
وواعدُها رعدُها المستطيرُ
وموعدها رعدُها المستطيرُ

ومنها قوله :

فأنت الذي من دونهم فتح القدماء
فلا يستحقّ القدس غيرك في الورى
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقوسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدماً
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجساً^(٢)
طهرته من رجسهم بدمائهم

تكررت لفظة القدس ومشتقاتها في هذه الابيات خمس مرات ، وتكررت
لفظة الرجس ومشتقاتها في البيت الأخير ثلاث مرات كذلك ، وتكرر حرف السين
ثلاث مرات في كل بيت . ولا يكتفي العماد في هذه اللعبة الموسيقية بتكرار
الكلمات والمجانسة فيما بينها ، واشتقاق الجناس من الأسماء بل يعمد إلى الحروف
فيكررها في البيت الواحد تكراراً يجعل منها نغمة موسيقية تثير الاهتمام ومن
ذلك قوله مكرراً حرف الحاء .

حمى حوزة الدين الخفيف بحوزه
من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكراً^(٣)

وقوله مكرراً حرف الفاء والكاف واللام ست مرات لكل واحد منها وفي بيت
واحد :

كفلت كفايته بكل فضيلة
أكرم بكسافٍ للفضائل كافل^(٤)

(١) الديوان ، ١٥٨ .

(٢) نفسه ، ١٩٠ .

(٣) نفسه ، ٢٢٢ .

(٤) نفسه ، ١٦٠ .

(٥) نفسه ، ٢٢٢ .

والأمثلة على هذا النوع من تكرار الحروف في شعر العماد كثيرة ومتنوعة
 وحين لا يحصل العماد على الانغام الموسيقية التي يريدها ، من تلاعبه بالالفاظ
 وتكرارها وتكرار الحروف فإنه يبحث عن أداة أخرى يمكن أن تحقق له ما يطمح
 إليه فيلجأ إلى التطريز والتقسيم ليشتيع في النص لوناً آخر من ألوان
 الموسيقى، فنراه يولي عبارته اهتماماً كبيراً ، إذ يحرص على موسيقاها الداخلية
 ويعمد إلى إقامة التعادل والتوازن فيما بينها . وذلك بتقسيمها في البيت الواحد
 إلى أجزاء قصيرة متعادلة مترابطة حتى يعمل على زيادة الدفقة الموسيقية فيها
 ويكسبها رنيناً خاصاً تستريح له النفس ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها قوله :

سراج الهدى ، سحب الندى ، شهب النهى أسد الحروب ، ضراغم الهيجاء^(١)

وقوله في صلاح الدين :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
 سجيته الحسنى وشيمته الرضا وبطشته الكبرى وعزمته القعسا^(٢)

وقوله في الغزل :

وأعلم أنني مخطئ في فراقكم وعذري في ذنبي وذنب في عذري
 وقلبي وصدري فارقاني لبعدكم فلا صدري في قلبي ولا قلبي في صدري^(٣)

وقوله في الغزل كذلك مقسماً صفات المحبوب :

صفات ناظره مقم بلا ألم سكر بلا قدح جرح بلا قود
 معشق الدل من تيه ومن صلف مرنح العطف من لين ومن ميد
 على محياه من نار الصبا شعل وورد خديه من نار الحياة ندى^(٤)

ومما يقارب التقسيم جمع الأوصاف^(٥) ، ويكثر هذا النوع في شعر العماد

ومنه قوله :

أنتم ملوك زماننا وسرراته وكرامه وعظامه وفصاحه

(١) الديوان ، ٦٢ .

(٢) نفسه ، ٢٣٠ .

(٣) نفسه ، ٢٣٠ .

(٤) نفسه ، ١٣٧ .

(٥) الوساطة ، ٤٧ .

عظماؤه كبراًؤه فضلاؤه ورزانه ورضائه وصباحه
أقماره وشموسه ونجومه وبحاره ورضائه وبطاحه
أتم رجال الدهر بل فرسانه ولذي الخلوم الطائشات رجاحه
فأكسه نساكه ضراره نفاعه مناعسه مناحه^(١)

ومن الظواهر البديعية في شعر العماد ظاهرة الطباق : وهي تشيع بكثرة في أشعاره التي يتحدث فيها عن المعارك والحروب ، وتمجيد الأبطال ووصف الجيوش ويلجأ إليها طلباً لتوضيح المعاني وتوكيدها في نفس المتلقي ، ويجمع بينها وبين الجناس في كثير من أشعاره ومن الأمثلة على الطباق قوله في مدح (المستضيء) :

سأوافي فناءه عن قريب مسرعاً كي أفوز غير بطئ
عاد حظي من النحوس بريئاً وغدا السعد فيه غير برئ^(٢)
فقد طابق بين مسرع وبطئ ، وبين النحوس والسعد ، وبرئ وغير برئ .

ومن الأمثلة الأخرى على الطباق ما جاء في القصيدة التي استعطف بها عماد الدين بن عضد الدين : يقول :

إشراق غرة وجهه في صدغه تبدي لك الاصبح في إمسائه
قومت من زمن الشدائد غصنه فاعرج إذهبت رخاء رخائه
متناوم عني إذا ناديت ولطالما استيقظت عند نداءه^(٣)

نجد المطابقة في هذه الأبيات بين الإصبح والإمساء ، وقومت واعوج ، والشدائد ورخاء ، وبين متناوم ، واستيقظت .

ومن الأمثلة على مزجه بين الجناس والطباق في البيت الواحد قوله :

إن لم تجد بالوصل مت بحسرتي إن الفراق منيتي يا منيتي
لك ناظر ذو صحة في علته ما صحتي إلا لديه وعلتي

(١) الديوان ، ١١٢ .

(٢) نفسه ، ٦٥ .

(٣) نفسه ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

كم منة لك في الوصال قوية
وقوله أيضاً :

ولى بكسر لا يرّجى جرّة
فرح العدو بجمعه ولقيته
صحت على ضرب الكماة كسوره
وأراك في الهجران تضعف متي^(١)
وبقرح قلب لا تبيل جراحه
فحوت أفرأحه أحزانه
وتكترت عند الظمان صحاحه^(٢)

وإمعاناً من العماد في تأكيد صفات مدوحه ، خاصة إذا كان من أبطال الحرب مع الصليبيين فإنه يلجأ إلى المقابلة بين ما قام به بطله أو ما يتصف به من صفات وغيره من أمراء المسلمين في صفاته وأعماله ، وتمنح هذه المقابلة في الصفات النص الشعري نوعاً من التناغم الموسيقي الذي يسعى العماد إلى تحقيقه بكل ألوان الحلى ليناسب روح العصر ، ومن الأمثلة على هذه المقابلة قوله من قصيدة هنا بها صلاح الدين بكسر عسكر حلب والموصل بـ (تل السلطان)^(٣) سنة ٥٧١هـ ، قابل فيها بين صلاح الدين البطل المجاهد المدافع عن حمى الإسلام

و المتخاذلين من أمراء حلب والموصل ، فقال :

يُصيبك نهداً إن سباه ناهد
ولك الكعوب مقومات للردى
راح النجيع بها صحاف صحافكم
وتجول في صهواتها فرمانكم
ويروقه الخمر الحرام وعندكم
ضرب الطلى بالشرفي طلابكم
محمّر خدّ صقيله تفاحكم
ولديك جدّ إن أباه مزاحمه
ولله الغداة كعابه ورداحه
ملأى وتملاً كل كأس راحه
وتدور في خلواته أقداحه
عما يراق من الدماء مباحه
ويراح من شرب الطلا طلاحه
وأميل خدّ عقيله تفاحه^(٤)

(١) الديوان ، ٩٥ .

(٢) نفسه ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) تل السلطان : موضع بينه وبين مدينة حلب مرحلة ، نحو دمشق (مراصد الاطلاع ، ٢٧١/١ ، ١١٠ .

(٤) الديوان ، ١١٠ .

وتشبيح مثل هذه المقابلات في شعر العماد المتعلق بالمدح ، ووصف الحرب ومنها المقابلات بين نور الدين وحكام عصره^(١) .

ويستخدم العماد في شعره الذي يتحدث فيه عن البطلين نور الدين ، وصلاح الدين ، التورية في محاولة لتعظيم البطلين حين يربط بينهما وبين شخصيات تاريخية عظيمة ، وعكس ذلك ما يرمى إليه حين يربط بين شخصيات يريد لها التحقير مع شخصيات تاريخية محتقرة ، ومن تورياته قوله من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب سنة ٥٦٢ هـ .

ويستقر بمصر يوسف وبه تقرّ بعد التناهي عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها بأخوته والله يجمعهم من غير تريب^(٢)

لقد ورى بهذه الأبيات بيوسف عن صلاح ، وبيعقوب عن نجم الدين أيوب ، وبأخوته عن أخوة صلاح الدين ، وفي هذه الأبيات إشارة إلى تشابه القصتين ، لقاء سيدنا يوسف بأبيه وأخوته في مصر ، ولقاء صلاح الدين بأبيه وأخوته في مصر ، وقد ذكر العماد قصة سيدنا يوسف وأراد بها قصة صلاح الدين وأبيه وأخوته . وتجد هذا الاستخدام لاسم سيدنا يوسف عليه السلام في غير ما موضع من القصائد التي مدح بها العماد صلاح الدين الأيوبي^(٣) .

ومثلما يستخدم العماد التورية للتعظيم والمدح فإنه يستخدمها للتحقير والذم ، في الموضع المناسب ومن الأمثلة على ذلك قوله في العاضد الخليفة الفاطمي المخلوع :

وعصر فرعونها انقضى وغدا يوسفها في الأمور محتكما^(٤)

فقد ورى في هذا البيت بفرعون عن العاضد تحقيراً له ولعصره ، وورى بيوسف عن صلاح الدين تعظيماً له ولعصره .

(١) الديوان ، الصفحات ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٤ ، ١٧٥ .

(٢) نفسه ، ٨٤ .

(٣) نفسه ، الصفحات ، ١٦٠ ، ١٨٣ ، ٢٢٠ .

(٤) نفسه ، ٣٧٦ .

ويمكن للباحث في شعر العماد أن يجد ألواناً أخرى من المحسنات اللفظية والمعنوية ، مثل السجع^(١) ، وحسن التعليل^(٢) ، وردّ العجز على الصدر^(٣) ، وغيرها من فنون البديع الأخرى .

تنوعت أساليب العماد في شعره حسب المواقف التي عبّر عنها فقد تميّز أسلوبه بمجموعة من الظواهر الأسلوبية المعروفة ، والمألوفة في الشعر مثل المبالغة ، والاستفهام ، والأمر ، والدعاء ، والنداء ، والحوار ، والتكرار ، واستخدام المصطلحات ، والأسماء الإسلامية والنصرانية ، وكان العماد يلجأ إلى مثل هذه الأساليب طلباً للتنوع في طرائق التعبير ، ولتحقيق مزيد من التأثير في السامعين ، وكثرت هذه الظواهر الأسلوبية في شعر العماد الحربي ، وفي قصائده التي تحدث فيها عن أبطال هذه الحرب مدحاً وثناءً .

ومن هذه الظواهر الأسلوبية ، المبالغة ، ونجدها في شعره بمختلف أغراضه ، ومنها قوله في تصوير قوة أسد الدين شيركوه وشجاعته وجهاده في سبيل الإسلام :

أنت الذي هو فرد في بسالته والدين من عزمه في جحفل لجب^(٤)

فلا يخفى ما في هذا البيت من التعظيم الذي أضفاه العماد على أسد الدين إذ جعله منفرداً في بسالته لا شريك له فيها ، وجعل من عزمه جيشاً عظيماً يرعى الدين ويحميه . ومن مبالغاته قوله في رثاء صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ ، إذ صور في مجموعة من أبيات هذه القصيدة حجم الخسارة التي حلت بالإسلام جراء رحيل صلاح الدين فقال :

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً	فمات كل العالمين مماتهُ
ملك عن الإسلام كان محامياً	أبدأ إذا ما أسلمته حماتهُ
قد أظلمت منذ غاب عنا دُورهُ	لما خلّت من بدّره داراتهُ
دُفن السماح فليس يُنشد بعدما	أودى إلى يوم النشور رُفاتهُ

(١) الديوان ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٠٦ .

(٢) نفسه ، ٢٢١ .

(٣) نفسه ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١٣٥ .

(٤) نفسه ، ٨٠ .

الدين بعد أبي المظفر يوسف
جبلٌ تضعع من تضعع ركنه
لو كان في عصر النبي لأنزلت
أقنوتُ قُراه ، وأقنرتُ ساحاته
أركاننا ، وتهدنا هدايته
في ذكره من ذكره آياته^(١)

لقد صورت هذه الأبيات رحيل صلاح الدين رحيلاً لكل خير من الدنيا ، فقد صور العماد موته موتاً لكل الناس ، وبموته أظلمت الديار ، ومات السماح وأقنرت ساحات الدين ، ويبلغ الشاعر ذروة المبالغة في البيت الأخير حين يقول : لو كان صلاح الدين في عصر الرسول لأنزلت في ذكره الآيات .

ويستخدم العماد هذا الأسلوب في أشعاره غير الحربية ، ولكن بنسبة أقل . ومن الأمثلة على مبالغاته في هذا الباب قوله في مدح الوزير عضد الدين بن عماد الدين :

واحد العصر ثالث الشمس والبد
إن يكن مانع المراحم بالجو
شُيِّد المجد وهو في المهدي شُدَّت
ومن صور المبالغة في الغزل قوله :
فقدت حياتي مذ فقدت لقاءكم
وقوله في الغرض نفسه :
فقدتكم ففقدت الحياة
ومن مبالغاته قوله في وصف دمشق :
دمشق عندي لا تحصى فضائلها
وما أرى بلدة أخرى تماثلها
ر ثاني الحيا بغير مزاحم
د ، فالبأس مانع للمحارم
بتمام العلى عليه التمام^(٢)
فهل بحياتي منكم نشأة أخرى^(٣)
ويوم اللقاء يكون النشور^(٤)
عداً وحصراً ويحصى رمل بيرين
في الحسن من مصر حتى انتهى الصين^(٥)

(١) الديوان ، ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) نفسه ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٣) نفسه ، ١٥٥ .

(٤) نفسه ، ٨٦ .

(٥) نفسه ، ٤٣٢ .

إن المبالغة في شعر العماد ليست قبيحة ، فهي لا تحيل الشعر ولا تجعله ملبساً على السامعين ، بل هي مبالغة مقبولة تؤدي دوراً في الإفصاح عن معاني الشاعر وتأكيداً في النفوس ، فالعماد حين يصور رحيل صلاح الدين بأنه معات لكل العالمين . فإن السامع لا يستهجن هذا الوصف ، وذلك لمكانة صلاح الدين ودوره في الحفاظ على حياة الأمة من خلال جهاده ووقوفه في وجه أعدائها .

ينوع العماد صيغ الخطاب في شعره فنراه يستخدم صيغ الاستفهام ، والأمر ، والدعاء ، والنداء ، والحوار ، وأكثر ما يكون ذلك في شعره الحربي المتعلق بأبطال الحرب مدحاً ورتاءً ، فهو يريد أن ينقل صورة حية عن معدوحيه أو البطل الذي يرثيه ، وهذا الأمر يتطلب تنوعاً في صيغ الخطاب ، وهذا التنوع يجعل السامع يعيش الحدث ، ويتمثل الصورة بشكل دقيق .

ومن وسائل تنوع الخطاب استخدام الاستفهام ونجده في مواقع كثيرة من شعر العماد ، ومن الأمثلة عليه قوله في رثاء صلاح الدين موجهاً الخطاب إلى الناس تارة ، يقول :

أين الذي مذ لم يزل مخشبة مرجوة رهباته وهباته ؟^(١)

وتارة يوجه الخطاب إلى صلاح الدين ، فيقول :

أضجرت مناً أم أنفت فلم تكن ممن تصاب لثدّة ضجراته ؟

أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل فوق السماء عليّة درجاته ؟^(٢)

ويستخدم هذا الأسلوب في رثاء أسد الدين شيركوه إذ يقول :

من ذا رأى الأسد الهصور فريسة أم أبصر الصبح المنير وقد خفي ؟

من ثابت دون الكمأة سواه إن زلت بهم أقدامهم في الموقف ؟^(٣)

ويستخدم العماد أسلوب الاستفهام في غرض النسيب والغزل لزيادة التأثير

والإقناع ، فنراه يقول مخاطباً نفسه في واحدة من مقدماته الغزلية :

ما للهوى أبداً يلازمي فيها ؟ فهل كبت الهوى باسمي ؟

أنى يطرب ويستطرب كرى قلب يهيم وناظر يحمى ؟

(١) الديوان ، ٨٧ .

(٢) نفسه ، ٩١ .

(٣) نفسه ، ٢٩٨ .

أو ما سوى هجري عقابهم ؟ أم ليس غير هراهم جرحي ؟
 والقلب مسكنهم فكيف رضوا أن يجعلوه مسكن الهـم ؟^(١)
 ويستمر في الاستفهام مخاطباً نفسه ، فيقول :
 أفتعت من برق الحمى سحراً ونسيمه بالثسيم والشمم ؟
 ورضيت من (نعم) وإن مطلت بنعم ، ونعمى تلك من نعم ؟^(٢)

وإلى جانب الاستفهام فإن العماد يستخدم أسلوب الالتماس ، ويتكى عليه في دعوته لتحرير الأرض الإسلامية ، وحث القادة المسلمين على الاطلاع بهذه المهمة المقدسة ، فها هو يخاطب أسد الدين شيركوه في القصيدة التي هناه فيها بتقليد الوزارة في مصر سنة ٥٦٤هـ ، ويحثه على فتح البلاد الإسلامية ، فيقول :

قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فبادر نحوها وثب^(٣)

ويخاطب نور الدين بالصفة نفسها بعد انتزاعه (منبج) من الأمير (غازي بن حسان) سنة ٥٦٢هـ ، فيقول محرصاً له على تحرير البيت المقدس وغيره من المدن الإسلامية :

وأتى ييشر بالفتوح ورائه فانهض إليها بالجيش وعرج
 فانهض إلى البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس ونابلس نمج^(٤)

ويستخدم العماد هذا الأسلوب في حث صلاح الدين على مطاردة جيش حلب والموصل في القصيدة التي هناه فيها بكسرة ذلك الجيش ، ودعاه فيها لتخليص باق البلاد من الظلم والجور ، وفي ذلك يقول مخاطباً صلاح الدين :

فاعبر إلى القوم الفرات ليشربوا الـ سموت الأجاج فقد طما طفاحه
 لتفك من أيديهم رهن الرها عجلاً ويدرك ليلها إصباحه
 وابغوا لحران الخلاص فكم بها حران قلب نحوكم ملتاحه

(١) الديوان ، ٣٩٤ .

(٢) نفسه ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٣) نفسه ، ٨٠ .

(٤) نفسه ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

نجموا البلاد من البلاء بمدلكم فالظلم باد في الجميع صراحه^(١)

وفي قصيدة أخرى يطلب العماد من صلاح الدين أن يسير إلى القدس ويفتحها ويسفك دماء الفرنج ويهدم ديارهم ، فيقول :

فسر وافتح القدس واسفك به دمأ منى تجرها ينظف
واهـد إلى الاستار النار وهـد السقوف على الأسقف^(٢)

وتكررت مثل هذه الدعوة بصيغة الأمر في مواقع أخرى نجدها في الديوان^(٣)

ومن صيغ الخطاب التي يعتمد عليها العماد في تنويع وتلوين أسلوبه ، أسلوب الدعاء . إذ نجد في أشعاره التي قالها في المدح والرثاء والغزل ، ومنه قوله من قصيدة رثى بها نور الدين :

حياك معتقل القنا بنسيمه وسقاك منهل الحيا بدروره^(٤)

وقوله من قصيدة في مدح الخليفة (المستنجد بالله) سنة ٥٦٠ هـ :

عفا الله عنكم ، قد عفا رسم ودكم خلعتم على عهدي دثار دثوره
رعى الله نجداً إذ شكرنا بقربكم قصار ليالي العيش بين قصوره^(٥)

وفي غير ذلك نجد للدعاء مكاناً في أشعار العماد ، يستخدمه عند الحاجة ولا يُسرف في استخدامه مثل غيره من الأساليب الأخرى وذلك لأن هذا الأسلوب لا يصلح لكل غرض من أغراض الشعر .

وأما أسلوب النداء وهو من صيغ الخطاب التي نوع بها العماد أساليبه الشعرية ، فإننا نجده في أشعار الرثاء ، والغزل ، وقد استخدمه باعتدال وفي مواقع محددة .

كما في قوله مخاطباً حملة نعش نور الدين :

(١) الديوان ، ١١١ ، ١١٢ .

(٢) نفسه ، ٣٠٤ .

(٣) نفسه ، ٢٢٨ ، ٢٨٢ .

(٤) نفسه ، ٢١٥ .

(٥) نفسه ، ٢١٧ ، ٢١٨ .

يا حاملين سريره مهلاً فمن
عجب نهوضكم بحمل ثييره
يا عابرين بنعشه : أنشقتم
من صالح الأعمال نشر عبيره^(١)
وقوله مخاطباً صلاح الدين متحسراً على رحيله :
يا راعياً للدين حين تمكنت
منه الذئاب وأسلمته رعائه
ومن الأمثلة على استخدام أسلوب النداء في الغزل قوله :
يا مالكي رقي آمالكم
من رقة يا حافظي ودي
يا جاحدي حق الوداد وهل
حق الوداد يضيع بالجحد ؟
يا دمع لا تترك مساعدتي
فقد استقال الصبر من وجدي^(٢)

ويلجأ العماد إلى أسلوب الحوار في بعض قصائده ليعطي النص نوعاً من الحيوية ، وغالباً ما يكون ذلك في أغراض مثل الغزل والإخوانيات ، ومن الأمثلة على ذلك قوله :

قالوا مرادك ماذا ؟ قلت : أنتم مرادي
ما بالكم لم تلبوا وقد سمعت أنادي
وكم لكم من أياد لم أنسها وأيادي
يا مالكين السرقة رقوا فقد ملكتم قيادي^(٣)

ومن الأمثلة الأخرى على الحوار قوله من قصيدة يتشوق فيها إلى دمشق ، ويدور الحوار بينه وبين (أم عمرو) ، يقول :

بكت أم عمرو من وشميك ترحلي
فيا خجلنا من أم عمرو ومن عمرو
تقول إلي مصر تسير تعجباً
وماذا الذي تبغي ومن لك في مصر ؟
تبدد في سهل من العيش شملنا
وتنظم سلك العيش في المملك الوعر ؟
فقل أيما عرف حداك على النوى
ومن ظلّة أن تطلب العرف بالسكر^(٤)

إلى أن يقول :

- (١) الديوان ، ٢١٥ .
- (٢) نفسه ، ١٣٠ .
- (٣) نفسه ، ١٢٨ .
- (٤) نفسه ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

ومن فارق الأحباب مستبدلاً بهم
فقلت ملاذي الملك الناصر الذي
فقلت : أقم لا تعدم الخير عندنا
فقلت : صلاح الدين ؟ قلت هو الذي
سواهم فقد باع المرابح بالخسر
حصلت بجذواه على الملك والنصر
قلت : وهل تغني السواقي عن البحر
به صار فضلي عالي الحظ والقدر^(١)

ومن الظواهر الأسلوبية التي يصادفها الدارس في شعر العماد ظاهرة التكرار اللفظي والمعنوي . وللتكرار مواضع يحسن فيها وأخرى يقبح ، كما يقول ابن رشيق ، وأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المباني^(٢) . وهذا القول يصدق على شعر العماد إذ يغلب فيه تكرار الألفاظ على تكرار المعاني ، وقد مرّ بنا نماذج من تكراره اللفظي في موضوع الجناس ، وقد يضاف إليه في هذا المقام تكرار بعض الأدوات والحروف ، مثل تكرار ما التعجبية ، ومن الاستفهامية ، وكم الخبرية ، وقد التوكيدية ، وخير مثال على تكرار هذه الحروف ما نجده في القصيدة التي رثى بها نور الدين ، فقد كرر ما التعجبية ثلاث مرات ، ومن الاستفهامية تسع مرات ، وكم الخبرية ثلاث مرات ، وقد أربيع مرات^(٣) والأمثلة على تكرار مثل هذه الحروف كثيرة في ديوان العماد . ولعل السبب في غلبة التكرار اللفظي على شعر العماد ميله الشديد إلى الجناس ، لذلك تبدو ألفاظه وكأنها مكررة معادة ، لوجود التجانس فيما بينها .

لا يقف العماد عند التكرار اللفظي في أشعاره بل يتجاوزه إلى تكرار المعاني وخاصة عندما يكرن الحديث عن الصراع بين المسلمين والفرنجة ، إذ يلجأ إلى تكرار المعاني ليعبّر عن مشاعره وأحاسيسه في بعض المواقف الحاسمة ، ففي معرض تعظيم الأبطال وتمجيدهم فإنه يقابل بينهم وبين غيرهم من حكام العصر ويفضلهم على هؤلاء الحكام بجملة من الصفات الحميدة ، ولتأكيد هذا التفضيل نراه يكرر مثل هذا المعنى في أكثر من موقع ، يقول في تفضيل نور الدين على غيره من حكام عصره :

(١) الديوان ، ٢٠٧ .

(٢) العمدة ٧٤/٢ .

(٣) الديوان ، ٢١٢-٢١٦ .

وثلم ثغر الكفر عاداته
ولا لثم ثغر الغادة السرود^(١)
ويكرر المعنى نفسه في قصيدة أخرى فيقول :
وواقماً ثلم ثغر الكفر تعجبه
لا لثم ثغر شنيب واضح شيم^(٢)

أحبّ العماد صورة البطل المسلم المجاهد الذي يرهبه الأعداء ، ويزرع الرعب في قلوبهم ، وحافظ على تلك الصورة لتكون وسيلة من وسائل تأكيد دور القيادة وأهميتها لاستمرار حركة الجهاد ، فنراه يقول مادحاً نور الدين مصوراً ما أوقعته هيبتة من رعب في نفوس الكفار :

أماتها رعبك في حصونها
كأئما حصونها لحودهما^(٣)
وقوله في نور الدين كذلك :

تمكن الرعب في قلب العدو بها
تمكن النار بالإطراف في الفحم^(٤)
ومثل ذلك قوله في صلاح الدين الأيوبي :

هزمت جنود المشركين برعبكم
فلم يلبثوا خوفاً ولم يمكثوا ذعرا^(٥)
ويكرر هذا المعنى في مدح أسد الدين شيركوه ، إذ يقول :
في نفوس الكفار رعبك قد جد
ل بصدع الأكباد والأفلاذ^(٦)

ويكرر العماد بعض المعاني التي تصف كثرة الجيش وقوته ، فنراه يقول في وصف جيش السلطان صلاح الدين :

مجر كبحر دارعو فرمانه
حيثانه وزعميهم تمساحه^(٧)
ويتكرر المعنى ذاته في وصف جيش عز الدين فروخ شاه إذ يقول :

(١) الديوان ، ١٣٨ .

(٢) نفسه ، ٣٨٠ .

(٣) نفسه ، ١٤٥ .

(٤) نفسه ، ٣٨١ .

(٥) نفسه ، ١٦٠ .

(٦) نفسه ، ١٤٧ .

(٧) نفسه ، ١٠٩ .

- قد كان جيشكم كبحر زاخر واللابسون جواشناً حيتاناً^(١)
ويقول العماد في مدح نور الدين مبالغاً في تعظيم سيرته :
سيرلوا ان الوحي ينزل أنزلت في شأنها سور من القرآن^(٢)
ويكرر هذا المعنى في رثاء صلاح الدين ، فيقول :
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته^(٣)

ومن الظواهر الأسلوبية الأخرى التي شاعت في شعر العماد الحربي ظاهرة استخدام الألفاظ والمصطلحات الإسلامية والنصرانية التي فتقتها طبيعة الصراع القائم بين المسلمين والفرنج ، ومنها قوله :

- وعادت بيت الله أحكام دينه فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة بأن آذان القدس أبطل النقسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظهرت ملائكة الرحمن أخبارك الحمسا^(٤)
وقوله في وصف هزيمة الفرنجة :
فر فريرئها وأزعجهسا نداء داوئها تلهفها
يمطر مطرائها العذاب كما يردى بهد السقوف أسقفها
تكسر صلبانها وتكسها لقصم أصلابها وتقصفها^(٥)

وقد ساهمت ثقافة العماد الواسعة المتشعبة في تلوين وتنويع شعره إذ شاعت فيه بعض الظواهر الفنية التي تُعلي من شأن الشعر إذا استخدمت الاستخدام المناسب ، ومنها الاقتباس من القرآن الكريم ، والتأثر بأسلوبه . والتأثر بالتراث وظهور النزعة الاتباعية ، والإكثار من ذكر الأسماء والأماكن ، والمواقع والمدن ، وإيراد بعض مصطلحات العلوم المعروفة في عصره . ويقتضي الإيضاح أن نورد بعض الأمثلة على هذه الظواهر ، وأولها الاقتباس من القرآن

(١) الديوان ، ٤٣٦ .

(٢) نفسه ، ٤١٨ .

(٣) نفسه ، ٨٩ .

(٤) نفسه ، ٣٣٢ .

(٥) نفسه ، ٣١٠ .

الكريم والتأثر بأسلوبه . لقد حاول العماد أن يرقى بشعره إلى مستوى رفيع من خلال الاقتباس من القرآن الكريم وتقليد أسلوبه ، ولبرضي الذوق العام الذي يُعلي من قيمة الأدب المتأثر بالقرآن ، وقد ظهر تأثر العماد بالقرآن في مواقع كثيرة منها قوله :

في غرفة أنهارها من تحتها تجري ففزر منها هديت بغرفة^(١)

فقد اقتبس العماد في الشطر الأول من هذا البيت قوله تعالى :
« لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها
الأنهار »^(٢) .
وقوله :

أخذتهم بالحق رجفة بأس تركتهم صرعى صروف العوادي^(٣)

في هذا البيت معنى قوله تعالى : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم
جاثمين »^(٤) .
وقوله :

ويسرى رجائي من مكارمه في النجح طرف غير مرتد^(٥)

فيه معنى قوله تعالى : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك »^(٦) في قصة سيدنا
سليمان ، وقوله :

فأشكر الله حين أولاك نصرأ فهو نعم المولى ونعم النصير^(٧)

(١) الديوان ، ٩٥ .

(٢) الزخرف ، الآية ، ٢٠ .

(٣) الديوان ، ١٢٦ .

(٤) الأعراف ، الآية ٧٨ ، والعنكبوت الآية ، ٢٧ .

(٥) الديوان ، ١٣٢ .

(٦) النحل ، الآية ، ٤٠ .

(٧) الديوان ، ١٨٢ .

اقتبس الشاعر الشطر الأخير من هذا البيت من قوله تعالى : « وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير »^(١) ، وقوله :

وكل نفس مشيخ رهن ما كسبت والسامري رهين بالذي قبصا^(٢)

هذا البيت فيه معنى قوله تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة »^(٣) ، وقوله في مدح المستنجد :

أفسي يوسف المستنجد الله قوله كذلك مكنا ليوسف في الأرض^(٤)

مقتبس من قوله تعالى : « كذلك مكنا ليوسف في الأرض »^(٥) ، وقوله :

زهر كشهب السماء راجمة جن جناة يقطنها كفلا^(٦)

مأخوذ من قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين »^(٧) ، وقوله :

بسطوة بأسهم في كل أرض جبال الشرك عادت كالمهون^(٨)

التشبيه هنا مستمد من قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش »^(٩) وقوله :

براه الله من طهر وطيب وكل الناس من حماء وطين^(١٠)

هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مستنون »^(١١) ،

(١) الأنفال ، الآية ٤ .

(٢) الديوان ، ٢٥٥ .

(٣) المدثر ، الآية ٢٨ .

(٤) الديوان ، ٢٦٤ .

(٥) يوسف ، الآيات ٢١ ، ٥٦ .

(٦) الديوان ، ٣٣٦ .

(٧) الملك ، الآية ٥ .

(٨) الديوان ، ٤٢٨ .

(٩) المعارج ، الآية ٩ .

(١٠) الديوان ، ٤٥٨ .

(١١) الحجر ، الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٣ .

وقوله :

حللن بيا بل وحللن محرراً عقود عقولنا بيد الجفون^(١)
مأخوذ من قوله تعالى : « يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين
ببابل ... »^(٢) ، وظهر التأثر بالقرآن كذلك في تصوير المصير الذي آل إليه العدو
الصليبي المحتل . كما في قول العماد :
بوقة رجت بها الأرض جيشهم دماراً كما بسّت جبالهم بمّا^(٣)

وهو في هذا ينظر إلى قوله تعالى : « إذا رجّت الأرض رجاً ، وبسّت الجبال
بسّاً ، فكانت هباءً منبثاً »^(٤) . ولا يقتصر تأثر العماد بمعاني القرآن الكريم على
الاقتباس ، والأخذ المباشر إنما يلجأ في بعض الأحيان إلى التذكير ببعض القصص
التي جاءت في القرآن ليحدث في النفوس الأثر المطلوب ، ومن هذه القصص
قصة سيدنا يوسف عليه السلام واجتماعه بأهله واخوانه وأبيه في مصر بعد أن
مكّن الله له فيها فنراه يقول :

ويستقر بمصر يوسف وبه تقرّ بعد التناهي عينُ يعقوبِ
ويلتقي يوسفُ فيها بأخوته واللهُ يجمعهم من غير تريبِ^(٥)

ففي هذه الأبيات مضمون قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، كما وردت في
سورة يوسف ، وكما وردت في قصص القرآن^(٦) . وفي موقف آخر يشبّه العماد
عودة صلاح الدين من مصر إلى دمشق التي كان يقيم فيها والده أيوب ، بعودة
يوسف إلى أبيه يعقوب عليهما السلام فيقول :

عاد من مصر يوسفُ وإلى يع قروب بالتهنئات جاء البشيرُ
فلأيوب من إياب صلاح الد ين يومٌ به توفي النّـنـورُ

(١) الديوان ، ٤٢٢ .

(٢) البقرة ، ١٠٢ .

(٣) الديوان ، ٢٣٤ .

(٤) الواقعة ، الآيات ، ٦-٤ .

(٥) الديوان ، ٨٤ .

(٦) محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ، قصص القرآن ، دار الجبل ، بيروت ، ط ١٤ ، ١٩٨٧ ، ص ١٠٢ .

وكذا إذ قميص يوسف لاقى وجه يعقوب عاد وهو بصير^(١)

ففي هذه الأبيات تذكير بقصة سيدنا يوسف عليه السلام - كما وردت في القرآن الكريم^(٢) . وقد قصد الشاعر من التذكير بهذه القصة تعظيم المدوح وتمجيده . ويختار العماد من هذه القصص والحوادث ما يناسب غرضه فيكسبه قوة وتأثيراً ، فنراه مثلاً حين يتحدث عن الزلزلة التي حدثت سنة ٥٦٤ هـ ، وأثرها المدمر على الأعداء يربط بينها وبين ما حدث لقوم عاد ، فيقول في ذلك :

والأعادي جرى عليهم من التد مير ما قد جرى على قوم عاد^(٣)

وقوم عاد كما جاء ذكرهم في القرآن الكريم هلكوا بريح صرصر عاتية^(٤) وجعل الله من قصتهم عبرة لمن يعتبر ، وقد تردد ذكرهم في القرآن الكريم كثيراً^(٥) .

وفي مدح نور الدين يستمد العماد بعض صوره من القصص القرآني فيشبه نور الدين في تغلبه على الأعداء بداود ، ويشبه قائد الفرنجة جالوت فيقول :

وإن بغى جالوتها ضلالة فأنت في إهلاكه داودها^(٦)

وانتهت قصة جالوت بمقتله في صراعه مع داود عليه السلام^(٧) . ويستشهد العماد في قصيدة مدح بها المستضيء بقصة السامري مع قوم موسى ، فيقول :

وكل نفس مشيح رهن ما كسبت والسامري رهين بالذي قصا^(٨)

(١) الديوان ، ١٨٣ .

(٢) يوسف ، الآيات ، ٢١ ، ٥٦ .

(٣) الديوان ، ١٢٦ .

(٤) الحاقة ، الآيات ، ٧٢٦ .

(٥) قصص القرآن ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٦) الديوان ، ١٤٥ .

(٧) البقرة ، الآية ، ٢٥١ .

(٨) الديوان ، ٢٥٥ .

والسامري كما جاء في قصص القرآن رجل من بني اسرائيل أضلهم بعبادة العجل الذي صنعه لهم في غياب موسى عليه السلام^(١) . ويصور العماد حالته وما آلت إليه من استقرار بعد أن التبس بديوان نور الدين ، مشبهاً هذه الحالة بحالة سفينة نوح بعد استوائها على جبل الجودي ، يقول في وصف ذلك :

سفائن الآمال من جوده قد استوى منّا على الجودي^(٢)

يُشير هذا البيت إلى سفينة نوح عليه السلام التي نجّاه الله بها من الطوفان^(٣) ، وجاء ذكرها في سورة هود^(٤) .

ومن السمات الفنية التي تبرز في شعر العماد بوضوح ظاهرة التأثر بالتراث الشعري السابق ، ويُسمى النقاد هذه الظاهرة بالنزعة الاتباعية ، وهي تقوم على الاستفادة من صور ومعاني الشعراء السابقين ، وقد استفاد العماد من أشعار سابقة فضمن أشعاره بعض أشعارهم ، وقلدهم في بعض صورهم ومعانيهم . من الأمثلة على التضمنين قوله :

لا تقطعن ذئب الأفعى وترسلها فالحزم عندي قطع الرأس كالذئب^(٥)

فقد ضمّن بيته الشطر الأول من بيت للشاعر الأسود بن يعفر النهشلي الذي يقول فيه :

لا تقطعن ذئب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذئبا^(٦)
وقوله :

قيدتني بالشم منه الأيادي والأيادي للحمر كالأيادي^(٧)

(١) قصص القرآن ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) الديوان ، ١٣٨ .

(٣) قصص القرآن ، ١٥-٢١ .

(٤) هود ، الآية ، ٤٤ .

(٥) الديوان ، ٨١ .

(٦) صدر الدين علي بن الحسن البصري ، الصماسة البصرية ، تحقيق مختار الدين أحمد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(٧) الديوان ، ١٢٥ .

مأخوذاً من قول المتنبي :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
فمن لك بالحر الذي يحفظ اليد^(١)
وقوله :

وقد وردت البحر الخضم وخلف
ت ملوك الدنيا به كالتمساح^(٢)
مأخوذ من بيت المتنبي الذي يقول فيه مادحاً كافور الأخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقي^(٣)
وقوله في وصف الحمى :

وزائرة وليس بها حياءً
وليس تزور إلا في المساء^(٤)

هذا البيت وما يليه محاولة لتقليد تجربة المتنبي في وصفه للحمى والتي
منها قوله :

وزائرتي كأن بها حياءً
فليس تزور إلا في الظلام^(٥)
وقوله :

مهيب يغض الطرف دون لقائه
يغضي حياءً وهو في الحق لا يغضي^(٦)
وهذا البيت مأخوذ من قول الحزين السهمي في محمد بن علي بن الحسين :

يغضي حياءً ويغضي من مهابته
فما يكلم إلا حين يتسسم^(٧)
وقوله :

ولو كنت جاراً للمعري لم ينل
(لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا)^(٨)
الشرط الأخير من هذا البيت تضمن شرطاً من بيت المعري الذي يقول فيه :

(١) المعري ، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي (معجز أحمد ، تحقيق عبد المجيد دياب ، دار المعارف ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) الديوان ، ١٢٥ .

(٣) المعري ، معجز أحمد ، ج ٤ ، ص ١٧ .

(٤) الديوان ، ١٩٦ .

(٥) معجز أحمد ، ج ٤ ، ص ١٤٠ .

(٦) الديوان ، ٢٦٤ .

(٧) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، دار صادر ، طبعة ابريل ، ١٩٢ ، ص ٧ .

(٨) الديوان ، ٢٨٤ .

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا
يظللهم ما ظل ينبتة الخط^(١)
وقوله :

فإن تخف ألاحظك القاتلات
دمي فبخديك تورده^(٢)
هذا البيت مأخوذ من قول الحصري القيرواني :

يا من جحدت عيناه دمي
وعلى خديــــه تورده
خذاك قد اعترفا بدمي
فعلام جفونك تجحده^(٣)
وقوله :

وما هذه الأيام إلا صحائف
يؤرخ فيها ثم يمحي ويمحق
ولم أرفي دهري للدائرة المنى
توسعها الآمال والعمر ضيق^(٤)
أخذ العماد هذين البيتين من قول الطغرائي :

أعلل النفس بالآمال أرقبها
ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل^(٥)
كما يذكر الصفدي في شرحه للامية العجم^(٦) .
وأما قوله :

وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان^(٧)
فقد ضمنه الشطر الأول من بيت المتنبي الذي يقول فيه :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هي أول وهو المحمل الثاني^(٨)
وأما قوله :

يُفيد العاقل اليقظ التغايي
ليدرك في الغنى حظ الغبي

- (١) المعري ، شرح سقط الزند ، تحقيق : مصطفى السقا ، دار القومية ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ج ٢ ، ص ٤ ، ١٦٠٦ .
- (٢) الديوان ، ٢٠٣ .
- (٣) الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الآليات ، تحقيق زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٢ ، ج ١ ، ص ٩ .
- (٤) الديوان ، ٢١٤ .
- (٥) ديوان الطغرائي ، تحقيق علي جواد الطاهر ورفيقه ، وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠٦ .
- (٦) الغيث المسجم ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .
- (٧) الديوان ، ٤١٣ .
- (٨) المعري ، معجم أحمد ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ .

فلم تُصب السهام على اعتدالٍ بها لولا اعوجاج في القسي (١)

فقد ذكر صاحب بدائع البدائ نقلًا عن العماد أنه نظمها في معنى بيتين لأبي

القاسم الصفدي هما قوله :

تُعيرني وَحُطّ المشيب بعارضي ولولا الحجولُ البيضُ لم يحسنُ الدهمُ
حتى الشيبُ ظهري واستمرت عزمي ولولا انحناءُ القوس لم ينفذ السهمُ (٢)

وأما قوله :

مشطٌ ومنشفة فيه حسدتهما دمعي لذابهما فياض عارضه
فلك حافظةٌ من مسٍّ أخصمه وذاك مستغرقٌ في مسك عارضه (٣)

فقد ذكر صاحب بدائع البدائ نقلًا عن العماد أنه أخذها من أبيات الشريف

أبي المحاسن الراوندي القاشاني في تعريب شعر أعجمي ، وهو قوله :

أني لأحسد فيه المشط والنشفة لذاك فاضت دموع العين مختلفة
هنا يطلق في صدغيه أئمله وذا يقبل رجليه بألف شفة (٤)

يلجأ العماد في بعض الأحيان إلى الحكمة والمثل في شعره ليُدعم موقفاً أو

يوكّد رأياً من آرائه فتراه يقول في الحكمة مؤكداً فائدة حفظ اللسان في تجنب

حصول الأذى :

احفظ لسانك أن يقول فإئما قصر اللسان يكف من غلوائه
والشمعُ قطع لسانه من طوله وحياته سبب إلى إدلائه (٥)

وفي موقف آخر يقول في الحث على القناعة والابتعاد عن الطمع :

اقنع ولا تطمع فإن الفتى كما له في عزّة النفس
وإنما ينقص بدر الدجى لأخذه الضوء من الشمس (٦)

(١) الديوان ، ٤٥٨ .

(٢) علي بن ظافر الأزدي ، بدائع البدائ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٧ .

(٣) الديوان ، ٢٦٩ .

(٤) ابن ظافر الأزدي ، بدائع البدائ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٥) الديوان ، ٦٩ .

(٦) نفسه ، ٢٤٠ .

وتضمنت بعض الأبيات أمثالاً معروفة تقوله :

عُد وارض عن أهل الريا ط وأرضهم فالعود أحمد
 واطلب جوار بريكة فالدار بالجيران محمد^(١)

العود أحمد في البيت الأول مثل معروف^(٢) وأما قوله في البيت الثاني فالدار بالجيران مأخوذ من المثل الذي يقول : «الجار ثم الدار»^(٣) .
 وقوله :

ويفتح من مداحه باللهها اللهها وقد حال من دون القريض جريضها^(٤)
 ضمن هذا البيت المثل القائل : «حال الجريض دون القريض»^(٥)
 وقوله :

أناف في النظم كمن يهـ لدي إلى البصرة عجوه^(٦)
 فيه معنى المثل الذي يقول : «كاستبضع التمر إلى هجر»^(٧)
 وقوله :

وعُدنا في الرعاع فلا في ال غير ندعى ولا في النفير^(٨)
 مأخوذ معنى البيت من المثل الذي يقول : «لا في العير ولا في النفير»^(٩)

ويشيع في شعر العماد استخدام بعض مصطلحات العلوم المعروفة في عصره ويوظفها في أشعاره توظيفاً مناسباً ، فنراه يقول مثلاً مستخدماً مصطلحات بلاغية يصور فيها عظمة الفتح الذي أحرزه صلاح الدين وهي الإسهاب والإيجاز :

(١) الديوان ، ١٢٦ .

(٢) الميداني ، مجمع الأمثال ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٤) الديوان ، ٧٢ .

(٥) الميداني ، مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ٢٤١ .

(٦) الديوان ، ٤٤٢ .

(٧) مجمع الأمثال ، ج ٢ ، ٣٩ .

(٨) الديوان ، ٢٠٩ .

(٩) مجمع الأمثال ، ١٦٨ ، ٣ .

نصر أعاد صلاح الدين رونقه إيجازه ببلغ القول إسهاب^(١)

ويطعم العماد شعره بلفات لغوية ونحوية وصرفية في بعض المواضع يكون لها وقع مميز ، فنراه يقول :

طاب للشاربين فيها الهوا ^(٢) إن فلذ الممدود والمقصور

فقد أراد بالهوائين ، الممدود والمقصور ، الهوا بالالف الممدودة ، وهو النسيم والهوى بالالف المقصورة وهو العشق .

ويقول كذلك في صلته بالقاضي الفاضل من قصيدة مدحه بها :

مضارع الفعل حظاً فضلي ^(٣) وعائق الصرف حرف جزم

ويستخدم العماد اللغة وحروفها في التعبير عن الجمال الحسي للمحبوبة ،

فيشبهه عذار حبيبته اللاهي بحرف النون ، فيقول :

كأن عذاره اللاهي لأم ^(٤) وحاجبه المقوس حرف نون

ويستخدم مصطلحات النحو في خطابه لصلاح الدين إذ يقول :

وأوعز بشريفسي ورسي فإنه ^(٥) لحمدي جزاءً قد تقدمه الشرط

ويستخدم العماد مصطلحات تتعلق بالعبادات ، مثل الشفع والوتر والمثاني ،

والفيء ، والنفل ، فنراه يقول :

روم به وفـرج ^(٦) في شفهم لك وتر

ويقول :

مهبط الوحي يته منزل الذك ^(٧) سر ، بشفع من المثاني وتر

(١) الديوان ، ٧٥ .

(٢) نفسه ، ١٧٩ .

(٣) نفسه ، ٢٩٢ .

(٤) نفسه ، ٤٢٤ .

(٥) نفسه ، ٢٨٣ .

(٦) نفسه ، ١٧٥ .

(٧) نفسه ، ٢٠١ .

ويقول :

لهم كل يوم في جهاد مثلثٍ إذا نصرروا التوحيد فيء مخمس^(١)

ويقول :

لقد فرضت منك النوافل شكرها على الناس حتى قابلوا النفل بالفرض^(٢)
ونجد كذلك بعض مصطلحات الحديث كقوله :

أسانيد السيادة في علاهم معننة مصححة المتون^(٣)

تأثر العماد بالتاريخ الإسلامي فقد ربط بين معارك المسلمين الكبرى ومعارك صلاح الدين فنراه يربط بين حصار الاسكندرية الذي تم على يد الفرنج وشاور سنة ٥٦٢ هـ ، وحصار المدينة في زمن الرسول^(٤) يقول مقارناً بين الحالين :

حاصروها وما الذي بان من ذبك عنها وحفظها محصوراً
كحصار الأحزاب طيبة قدماً ونبي الهدى بها منصور^(٥)

ويشبهه حادثة تطهير القدس من الصليبان على يد صلاح الدين بحادثة عظيمة في التاريخ الإسلامي وقعت بعد فتح مكة حين طهر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الكعبة من الأنصاب والأزلام^(٦) فنراه يقول معبراً عن ذلك :

نفى من القدس صليباناً كما نفيت من بيت مكة أزلام وأنصاب^(٧)

ومن الإشارات التاريخية الأخرى ذات الدلالة صحيفة المتلمس ، التي أودت بحياة صاحبها ، فنراه يقول مشبهاً أبناء زمانه في عُدرهم بصحيفة المتلمس :

(١) الديوان ، ٢٢٩ .

(٢) نفسه ، ٢٦٥ .

(٣) نفسه ، ٤٢٧ .

(٤) ابن هشام ، السيرة النبوية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧١ ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

(٥) الديوان ، ١٨٢ .

(٦) ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ، ص ٤٤ .

(٧) الديوان ، ٧٦ .

لحى الله أبناء الزمان فكلهم صحيفة أودى بها المتلمس^(١)

ومن الظواهر الأسلوبية في شعر العماد شيوع الأسماء ذات الدلالات التاريخية ، مثل شخصيات الأنبياء والرسل ، والخلفاء والملوك والقادة ، وبعض من اشتهر بالحكمة والشجاعة والكرم^(٢) .

ونجد في شعره بعض الأسماء المشهورة بالفصاحة والبيان مثل الشعراء والكتّاب والخطباء^(٣) ، وذلك عندما يمدح أديباً كاتباً أو شاعراً ، ومن الأمثلة على ذلك قوله يمدح تاج الدين أبي اليمن الكندي ، ويربط بين شخصيته وشخصيات معروفة بين الكتاب والشعراء فنراه يقول :

وقالوا : رأينا فاضلاً ذا نباهة أديباً يفوق الفاضلين بفخره
يدين حبيب والوليد لنظمه ويحمده عبد الحميد لفقره
ولر عايش في زمان يئانه لكان مثيلاً في البيان بشكره^(٤)

وفي موضع آخر يقول فيه :

ولقيت سبحانه البلاغة صاحباً يبيانه ثوب الفخار لوائل
أبصرتُ قسافي الفصاحة معجزاً فعرفتُ أنني في فهاة باقل^(٥)

وفي الغزل يستخدم العماد في شعره أسماء من اشتهروا بالغزل مثل مجنون ليلي وكثير عزه ، فيقول مصوراً معاناته في الحب :

ما رأى ما رأيت مجنون ليلي في هواه ولا كثير عزه^(٦)

وفي إظهار حسرته ، يستخدم اسم الخنساء وحننها على أخيها صخر ، فيقول :

(١) الديوان ، ١٨٢ .

(٢) أنظر أمثلة على ذلك ، الديوان ، الصفحات ١٧ ، ١٨٣ ، ١٩١ ، ٢٢٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٤٠٠ ، ٤١٨ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦ .

(٣) أنظر أمثلة على ذلك في الديوان ، الصفحات ١٢ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٩ ، ٣٢٥ ، ٤١٥ ، ٤٤٦ .

(٤) الديوان ، ٢٢٥ .

(٥) نفسه ، ٣٤١ .

(٦) نفسه ، ٢٢٤ .

بكيّت على مستودعات قلوبكم كما قد بكت قدماً على صخرها الخنما^(١)

وعندما يريد العماد تحقير شخصية معينة فإنه يستخدم أسماء بعض الشخصيات المعروفة بكفرها ، وعنادها ، فيقول في وصف فرار شاور مشبهاً له بفرعون :

لاذ بالنيل شاورٌ مثل فرعو ن ، فذلّ اللاهي وعزّ العبور
شارك المشركين بغياً ، وقدماً شاركته قريضةً والنظير^(٢)

ومن مظاهر ثقافة العماد التي برزت في شعره بوضوح ، معرفته بالمواقع الجغرافية ، فقد ذكر في قصائده الحربية ، وفي قصائد الشوق والمدح كثيراً من أسماء المواقع والمدن ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها قصيدته التي قالها في الشوق إلى الشام وهو في طريقه إلى مصر بصحبة السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٦هـ ، فقد ذكر فيها المنازل والمناهل من يوم الرحيل من دمشق إلى يوم الدخول إلى القاهرة ، فقال :

أجيران جيرون المجيرين جارهم من الجور حوزوا في مشوقكم الأجر
وقد غبت عن مقرّي قديبا سقى ورعى ربّي مقرّي في مقرّي
أحنُّ إلى عذرا ، وعذري واضح لأنّ الهوى العذريّ منّي في عذرا
إذا القدرُ المحتومُ من جلق بنا إلى مصر أسرى فالقلوبُ بها أسرى
تركنا دمشقاً والجنان وراءنا وقد أننا بالكسوة الرقصة السّفرا^(٣)

ذكر العماد في هذه الأبيات مدينة دمشق بأسمائها ، جيرون ، وجلق ، ودمشق ، وذكر أسماء القرى مثل مقرّي ، وعذرا ، والكسوة ، وكلها من قرى دمشق ، واستمر بعد ذلك يعدّد المواقع التي مرّ بها في طريقه إلى القاهرة ؛ فذكر مرج الصّفّر ، وتبني ، وبصرى ، والدناج ، والجلاعب ، والبشامية ، ورأس الجشا ، والقريتين ، وجبل الزيتون ، وحسمى ، وأيلة ، والعقاب ، وقلّة الراعي ، ونابع ،

(١) الديوان ، ٢٣١ .

(٢) نفسه ، ١٨١ .

(٣) نفسه ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

وجروى ، والنخيل ، وروضة الجمل ، وحثا ، وعيون موسى ، وبحر القلزم ، وعجرد والبويب ، والمصانع ، وبركة الجب ، ذكر العماد كل هذه المواقع في طريقه من دمشق إلى مصر ، وفي قصيدة واحدة قال في نهايتها :

ولما نزلنا مصر في شهر طوبة وردنا بكف العادل النيل في مسرى^(١)

وفي قصيدة أخرى تشوق فيها إلى دمشق ، ومدح صلاح الدين ذكر كل المواقع المعروفة والمهمة في مدينة دمشق ، من أنهار ، وأبواب ، ومواقع مختلفة : مثل : القُصير ، وباب البريد ، والقريتين والجليجل ، وضُمير ، والقטיפفة ، وباب السلامة ، وباب الصغير ، وباب الفراديس ، وغير ذلك الكثير من مواقع دمشق المهمة آنذاك^(٢) .

وفي القصيدة التي هنا بها العماد صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٢هـ أورد أسماء الكثير من المدن والقرى الإسلامية ، مثل : طبريا ، وعكا ، وصيدا ، وبيروت ، وتبنين ، وأرسون ، وتبنى ، وغزة ، وعسقلان ، وصور ، والكرك وحطين^(٣) .

(١) الديوان ، ١٥٨ .

(٢) نفسه ، ١٨٥-١٩٠ .

(٣) نفسه ، ٢٢٢-٢٢٣ .

الصورة الشعرية :

الصورة الشعرية هي رسم بالكلمات المشحونة بالعاطفة الموجهة نحو القارئ^(١) والتخييل الشعري عملية تعتمد على فاعلية المخيلة لدى الشاعر والمتلقي على السواء ، فالشاعر عن طريق ما تشكله مخيلته من صور يضبطها العقل ، يستطيع أن يؤثر في مخيلة القارئ أو المتلقي ويثيرها^(٢) ، والصورة هي نتاج لفاعلية الخيال ، وفاعلية الخيال لا تعني نقل العالم أو نسخه ، وإنما تعني إعادة تشكيل واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر والجمع بين العناصر المتضادة ، أو المتباعدة في وحدة واحدة^(٣) والصورة الفنية لا تثير في ذهن المتلقي صوراً بصرية حسب ، بل تثير صوراً لها صلة بكل الإحساسات المعكنة التي يتكون منها نسيج الإدراك الإنساني ذاته^(٤) . وتنبع أهمية الصورة من طريقتها الخاصة في تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقي^(٥) .

والصورة الشعرية هي أساس الشعر وروحه ، وهو قائم عليها ، وهي جزء من مبنى القصيدة ، وهي وسيلة الشاعر لتجسيد إحساسه وتعبيره عن حالة نفسية معينة يعاني منها إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة^(٦) . وقد وجد الشعراء في ضروب البيان المختلفة وسيلة لتصويرهم ، وتقريب معانيهم ، فالتشبيه والاستعارة يخرجان الأغمض إلى الأفصح ، ويقربان البعيد كما يقول ابن رشيق^(٧) . فلما كان ما تقع عليه الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه ، والمشاهد أوضح من الغائب ، كان التشبيه المرتبط بالمحسوس أوضح في

(١) سيمبل دي لويس ، الصورة الشعرية ، ترجمة د. أحمد الجنابي ورفاقه ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، ١٩٨٢ ، الجمهورية العراقية ، ص ٢٦ .

(٢) جابر مصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣ ، ص ٢٢٨ .

(٣) نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٤) نفسه ، ص ٣١٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٦) عبد الجليل عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ص ٣١١ .

(٧) ابن رشيق ، العمدة ٢٨٧/١ .

العقل والاستعارة المرتبطة بالحسي المشاهد أقرب إلى الإفهام والتأثير^(١) .
وقد جعل العماد كما جعل غيره من شعراء عصره ، البيان بضروبه المختلفة
من تشبيه ، واستعارة ، وكناية ، ومجاز وسيلة لبناء الصورة الفنية في شعره ،
وجاءت الصورة عنده من حيث الموضوع في إطارين الأول : يضم الصور التي تعبر
عن حالة السلم والاستقرار ، وأما الثاني فيضم صورة الحرب والمعارك وقادة
الحرب .

الصورة في إطارها الأول نجدها في قصائد المدح ، وقصائد الوصف والشوق
والحنين ، والغزل ، وهي صورة جزئية في معظمها ، اعتمد فيها الشاعر على
ضروب البيان من تشبيه وإستعارة وكناية ، واستمدها من بيئته التي عاش فيها ،
الطبيعية ، والحربية ومن مخزونه الثقافي ، وفي الأطار الأول لا يخرج العماد في
مدحه عن المعاني الموروثة في تصوير عدل الحكام ، وكرمهم ، وكثرة جيشهم وقوتهم
فنراه يقول معبراً عن عدل الخليفة المستضيء متكئاً على الاستعارة :

رتع العالمون من عدله الثا	مل في المرتع الهنيء المرمي
ورعوا فيه في مراد خصيب	لا وخيم ولا وييل وبني
رقلوا بعد طول خوف مقض	في ذرا الأمن والمهاد الوطي ^(٢)

وفي تصوير جود عضد الدين بن رئيس الرؤساء يعتمد على الكناية
والتشبية لبيان جوده وفضله ، فيكني بالخصب عن جوده وكرمه ، ويشبها
بتشابهة موروثة ، فهو كالشهاب ، والشمس والغيث والصبح ، يقول :

وأثك الزمان إلى شهاب الدين كي	ييدي رياض الخصب في شهبائه
ونداه ناد فإن أندية المنى	مخضرة الأكناف من أندائه
وهوالشهاب حقيقة فالفضل من	أنواره والطول من أنوائه
كالشمس في آرائه كالغيث في	آلائه كالصبح في لآئيه ^(٣)

(١) جابر عصفور ، الصورة الفنية ٢٧٢ .

(٢) الديوان ، ٦٥ .

(٣) نفسه ، ٧٠ .

ومن الصور الشعرية التي اعتمد فيها العماد على التراث الشعري للشعراء السابقين ، صورة جيش المستنجد ، فقد شبهه في كثرتة بالتراب والمطر الغزير ، وحين دخل المعركة فإن العجاج الذي أثاره غطى الشمس ، فبدت من خلاله كأنها البدر في جنح الظلام ، يقول :

مجر ومنهلّ السحاب الهامل	وعرمرم لجب كمنهال النفا
زهر الأمنة في سماء قساطل	ستر الغزالة بالعجاجة مطلقاً
بدرٌ تطلع جنح ليل لائل	فالشمس ما بين العجاج كأنها
فكأنه لون الشباب الناصل	والنقع ينصل بالفصول خضابه
تمكّي قوادم أنسر وأجادل	والمقربات بأنسر وقوائم
الا أنين صوارم وصواهل ^(١)	في مأزق لا يسمع الواغي به

يرسم العماد صورة لجيش الخليفة قوامها الحركة واللون ، والصوت . وتتناغم عناصر الصورة بشكل يجعلها منسجمة ومتتابعة ، إذ تبدأ بحركة كلية هي حركة الجيش المندفع نحو المعركة وهذه الحركة كما يعبر عنها العماد تبدو منسجمة مع حجم الجيش العظيم ، فهو في حركته كإندفاع التراب المنهال ، وكالامطار المنهمرة ، ولا يخفى ما في هذه الحركة من احياء بالقوة والسرعة . ويؤدي عنصر الحركة هذا إلى عنصر آخر في الصورة هو عنصر اللون فهذا الجيش في حركته يثير العجاج فيستر الشمس ويحجب أشعتها فتبدو خلفه كأنها القمر ، فقد أحال لون الشمس من ساطع إلى خافت ومنح الاسلحة لمعاناً زائداً في سماء المعركة ، ثم يعود في هذه الصورة إلى عنصر الحركة فيصور حركة الجيش خلال المعركة ، ويظهر خفة الخيول ، وسرعة حركتها ويشبهاها بالطيور الجارحة ، واختياره لهذا التشبيه موفّق لما بين هذه الطيور وهي تنقض على فرائسها ، وحال الفرسان على خيولهم وهم ينقضون على أعدائهم من اتفاق .

ويفضي عنصر الحركة الثاني إلى عنصر آخر في الصورة ، وهو عنصر الصوت . وهو عنصر لازم لإتمام صورة المعركة التي يرسمها العماد . فنراه من أجل ذلك يستعير لصوت السيوف وصوت الخيول في المعركة لفظ الانين . وفي ذلك تجسيم للسيوف وإضفاء لصفات الانسان على الخيول في جو المعركة .

ومن مصادر الصورة الشعرية في المدح عند العماد الحرب وأجواؤها ،
فمنها يستخلص معانيه وألفاظه ويشكل عناصر صورته ، فحينما سكن الشام ،
قريباً من صرير الحديد وصهيل الخيل ، وطراد الفرسان أثر أن ينقل السامع إلى
ميادين المعارك التي أصبحت آنذاك شغل الناس الشاغل ^(١) فقال يمدح القاضي
الفاضل سنة ٥٧٢هـ !

مَلِكٌ كَتَيْبَتُهُ كَتَابَتُهُ	فَرَدُّ بِجَيْشِ النَّصْرِ فِي جُنْدِ
الْأَسْمُرِ الْخَطُّى تَابَعُهُ	فِي حَكْمِهِ وَالْأَيْضُ الْهِنْدِي
وَالنَّائِبَاتُ بِحَتِّهِ أَبَدًا	مَثَلُومَةٌ مَغْلُولَةُ الْخَدِّ
كَمْ مَأْزِقٍ نَقَى الْغَرَارُ بِهِ	لِلرَّعْبِ مِنْ جَفْنٍ وَمِنْ غَمْدِ
وَالسُّمْرِ دَامِيَةٌ مَطَاعْنُهَا	كَمْ رَاوِدٍ فِي أَعْيُنِ زُمْدِ
فَرَجَّتْهُ بِشَبَابٍ مُلَطَّفَةٍ	وَرَدَّتْ بِقَسْرِ الْقَمَّورِ الْوَرْدِ ^(٢)

لقد استعار العماد في هذه الابيات وسائل الحرب والقتال ليطلقها على
القلم بيد القاضي الفاضل ، فاليراع الذي يتحرك بيد المدوح على الصحائف لا
يختلف عن الرمح العسال بيد البطل الهمام في ميدان الصراع ، والسيف البتار
في قبضة المبارز الكرار في حلبة الصراع ^(٣).

وتلقي أجواء الحرب بظلالها على أغراض شعرية أخرى غير المدح كالغزل
مثلاً فنرى العماد في غزلياته يستعير ألفاظ المعركة أحياناً ليصف جمال المحبوبة.
وهو بذلك يعطي معانيه قوة إضافية حين يستخدم في الغزل مثل الرماح
والسيوف ، وهي أدوات عرف الناس أثرها المؤلم فاستعارها الشاعر هنا ليعبر عن
حالته مع الحبيب فقال :

أَصْحُ عَيُونِ الْغَانِيَاتِ مَرِيضُهَا	وَاقْتِكِ الْحَاظِ الْحَسَانَ غَضِيضُهَا
تَهْزُ قَلُودَ السَّمْرِ لِلْفَتَكِ سَحْرُهَا	وَتَشْهَرُ مِنْ أَجْفَانِهَا الْبَيْضُ بَيْضُهَا ^(٤)

(١) الديوان . المقدمة . ٢٥ .

(٢) نفسه . ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) نفسه . المقدمة . ٢٥ .

(٤) نفسه . ٢٦٩ .

ويتكى العماد على الطبيعة الجميلة في تصوير جمال الحبوب ، متأثراً ببيئة

الشام وما فيها من رياض وبساتين ، فنراه يقول في وصف الحبيب :

وبدا البنفسج بين ورد حدودهم غصاً فما زج وردها الكافورا
فكسا ربيع الحسن روض جمالهم من نوره فوق الحرير حريرا
ومعبر الصدغين ضم عناره في عارضيه إلى العبير عييرا^(١)

ويكمل العماد هذه الصورة بتشبيه الحبيب بالبدر ، وهي مألوفة مأخوذة من

التراث الشعري الموروث ، يقول :

بدرٌ به كلف العباد فياله عجباً فقد شاب الظلام النورا^(٢)

يمضي العماد في تركيب أجزاء الصورة المعبرة عن الحبيب ، وما يحل به

وبالرجال أمثاله ، من سحر هذا الحبيب ، مستخدماً الاستعارة ، فيوردها في إطار

محب ، جذاب ، كي يزداد أثرها في النفس^(٣) يقول :

يا للرجال بمقلسة مخمورة يغدو المحب بكأسها مخمورا
أبكي ويضحك كالغمام إذا بكى حزناً تبسمت الرياض زهورا
وترى لآلئ ثغره منظومة ولديه لؤلؤ عبرتي مشورا^(٤)

وللعماد كلف خاص بصورة الرياض ، ولعل بيئة الشام الجميلة هي التي

غذت فيه هذا الميل ، فجعلته يرسم لوحات فنية أخاذة بمزيج من العناصر النباتية

والحيوانية ، إذ يصور الروض بأشجاره وطيوره وأزهاره ، يقول :

ما رياض بنورها زاهرات غرّدت في غصونهنّ الطيور
كلّ غصن عليه من خلع النو رداء ضاف ووشي حبير
ورقها في منابر الأيك منها واعظّات من شأنها التذ كبير
وكانّ الروض الأنيق كتاب وكانّ الأمجار فيه مطور

(١) الديوان . ١٦٢ ، وانظر أمثلة على ذلك من ٢٤٧ .

(٢) نفسه ، ١٦٢ .

(٣) نفسه ، ٥٣ .

(٤) نفسه ، ١٦٢ .

أخضر النَّبْتِ والرَّضَابِ نَمِيرُ أشبه الشُّرْبَ فيه ثَمَارِبَ أَلْمَسَى
بِأَلْحَانِهِ تَحَلَّى الزَّبُورُ وكان الهزارَ راهبُ دِيرِ
قد صفا منه صوته والضمير^(١) وكان القمريُّ مقرئُ آيِ

هذه صورة للرياض تكاملت عناصرها من تشابيه واستعارات ، استمدها الشاعر من مورثه الديني والثقافي ، ومن معارفه وعمله ، فقد شبه الحمام تشدو فوق الايك بالوعاظ فوق المنابر يعظون الناس ويذكرونهم ، وشبه الروض الأنيق بالكتاب والأشجار سطور في هذا الكتاب ، والهزار في هذا الروض راهب دير يلحن الآيات ويرتلها والقمريُّ مقرئ للقرآن . إنها صورة جميلة للروض تناغم فيها جمال المنظر وعذوبة اللحن ، فصوّر الحياة بأجمل صورها المحببة إلى النفس .

وأما صورة دمشق كما يرسمها العماد ، فإنها تفيض عذوبة وجمالاً ، إذ يرسم لها صورة تبين مظاهر الطبيعة فيها اشتملت على البساتين والجداول والأشجار المختلفة والأزهار ، والغدران ، والسواقي ، والنساء الجميلات ، وتساهم حركة الريح والماء في اضعاف المزيد من الجمال على هذه الصورة فالرياح تعبث بأغصان الأشجار فتحركها ، وتحرك ماء الغدران الراكد ، ويجري الماء في الجداول كأنه الثعابين وفي السواقي كأنه التنين في سرعته ، وتتكون هذه الصورة من أربع لوحات : لوحة الأشجار ونجدها في قوله :

وللبساتين أنهار جداولها تستنُّ في الجري أمثال الثعابين
وقد تراءت بها الأشجار تحسبها صفوف خيل صفون في الميادين
كأنها ثمر الرمان ذو نشب مثر دنائيره ملء الهمايين
ولللخلاف لإظهار الخلاف على أترابه ورقٌ شبه السكاكين
وكل غصن بعصف الريح ممتحن كأنه عاقل مُبلسي بمجنون^(٢)

عناصر الصورة كما نشاهد هنا هي أشجار متناسقة وجداول من الماء المتعرج .

(١) الديوان ، ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) نفسة ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

ولتوضيح المعنى وإظهار جماله فإن العماد يُشبه الجدول المتعرج بالأفعى في حركته ، ويستعير صورة الخيل تقف في صفوف منظمة في الميادين ليعبر عن تناسق الأشجار ، ويدخل عنصر الحركة على هذه الصورة معتمداً على التشبيه الطريف فيجعل الريح تعصف بالأغصان فيبدو كل غصن في حركته واضطرابه بيد الريح كأنه الإنسان العاقل يضطرب بين يدي آخر مجنون .

وأما اللوحة الثانية في هذه الصورة فهي لوحة الأزهار والورود ، ويضمها قوله :

للنرجس الغض الحاظ المها العين	للأقحوان ثغور الغانيات كما
ما الخطّ بالخال حاكي عطفة النون	وللبنفسج خال للعدار إذا
والغصن قد تشبه من اللين ^(١)	والورد خدّ من التوريد في خجل

مكونات هذه اللوحة كما تبدو في الأبيات هي الورد والغصون ، والأقحوان والنرجس ، والبنفسج ، وقد استعار العماد لها مجموعة من الصفات الحسية ليعبر عن جمالها وروعها فجعل للأقحوان ثغوراً كأنها ثغور الغانيات ، وللنرجس عيوناً كأنها عيون المها ، والبنفسج خالاً لعدار يشبه عطفة النون .

واللوحة الثالثة من لوحات صورة دمشق ، لوحة الماء ، وتظهر في قوله :

وللنسيم ولوع بالغدِير فما	يزال ما بين تفريك وتغضين
والماء من نكبة النكباء في زردٍ	مضاعف السرد ضاقي النسج مروضون
لكل جارية في كسل ساقية	على التواء بها إمسراع تنين ^(٢)

تغلب الحركة على هذه اللوحة من لوحات الصورة ، فالماء ، حتى في الغدير متحرك بفضل النسيم إذ يتشكل من تلك الحركة فيبدو في أمواجه الخفيفة المتلاحقة كأنه زرد الدرع ، وأما الساقية فإنها تتحرك بحركة ملتوية سريعة تُشبه حركة التنين .

(١) الديوان ، ٤٣٤ .

(٢) نفس ، ٤٣٤ .

وأما اللوحة الرابعة في هذه الصورة فإنها لوحة الجمال الأنثوي ، وتبدو في

قوله :

إنّ القلوب وألحاظ الحسان بها لكالعصافير في أيدي الشواهرين
من كلّ خاطفةٍ للقلب مخطفة بالخصر تطلني ديني وتكونني
من شادن مثني العطف معتدل ال قوام مستعذب الأخلاق موزون^(١)

قوام هذه اللوحة التشبيه الجميل الذي يجعل قلوب المحبين معلقة في الألحاظ كأنها العصافير معلقة بأيدي الصقور ، وتكتمل هذه اللوحة بذكر مكونات الجمال الأنثوي الحسي والمعنوي .

تبدو عناصر الصورة التي يرسمها العماد لدمشق متوافقة في لوحاتها المختلفة ، فصورة دمشق هي صورة مصغرة للحياة بمائها ونباتها وإنسانها ، ومن هذه العناصر استطاع العماد أن يشكل صورته فرسم الجمال الأنثوي داخل إطار من الماء والنبات في طبيعة جميلة .

وأما الإطار الثاني للصورة عند العماد فيضم صورة المعركة بأبعادها المختلفة، إذ يصور القائد وجيشه بأسلحته المتنوعة ، كما يصور مجريات المعركة ويصف نتائجها ، ووسيلته في توضيح جوانب الصورة وكشف أبعادها ؛ ضروب البيان من كناية واستعارة وتشبيه يعتمد مثل غيره من شعراء عصره على الأساليب الفنية التصويرية في شعر أسلافه من ناحية ، أو على قدرته في توليد الصورة وابتكارها من ناحية أخرى^(٢) .

وقد جاءت صورة الحرب في القصائد التي قالها العماد وفي مدح سلاطين الدولتين ، الزنكية والأيوبية ، وقادة جيشهم ، وفي القصائد التي قيلت في التهنئة والبشرى بالانتصارات والفتوحات ، وقد تنوعت مصادر الصورة الحربية عند العماد فكان بعضها مستمداً من واقع المعركة وأجواء الحرب وبعضها من الموروث الديني ، وبعضها من الموروث الشعري القديم ، وبعضها الآخر من الطبيعة ، وأول الصور الشعرية في هذا الإطار ذات العلاقة بالحرب هي صورة الجيش الإسلامي كما نجدها في وصف العماد لجيش (ناصر الدين محمد بن

(١) الديوان ، ٤٢٥ .

(٢) عبد الجليل عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، ٣١٤ .

شيركوه) سنة ٥٧٠هـ ، وهي صورة مستمدة من الطبيعة الجميلة برياضها وأزهارها ، يقول فيها :

راياتها منشورة أزهار	وكتيبة مثل الرياض كأنما
ورق وهامات العُدَّة ثمار	وكأنما خضِر اليبارق للقنا
فُتقت فكلّ صقيلة نُوار	وكما تم الأعداء عن زهر الظبي
يدو كما يعلو اللّجين نضار ^(١)	وعلى شعاع الشمس لمع حديد .ها

نقلنا الشاعر في أبياته هذه إلى خميلة غناء بديعة الأزهار والأشجار والأثمار تلفت نظر الزائرين وتعجب الناظرين وأطلق عنان خياله ليخرج تشبيهات بعيدة عن ميدان القتال ، فقد شبه كتيبة الجيش بالروضة ، وشبه راياتها المنشورة بالأزهار ، وبيارقها الخضراء المعقودة على الرماح بالأوراق الخضراء على أغصان الأشجار ، وهامات العدى التي اخترقتها الرماح كأنها الثمار المعلقة فوق الأغصان ، وتزداد الصورة بُعداً عن الواقع حين يُشبه السيوف البيضاء الصقيلة ، وهي تخرج من كمامات أغمادها بالأزهار البيضاء تتفتح في أكمامها ، فيبدو كل سيف وكأنه زهرة بيضاء جميلة عندما يخرج من غمده بيد الفارس ليهوي به على الأعداء .

ويضيف إلى هذه الصورة المستمدة من الطبيعة الجميلة ورياضها ، صورة أخرى ، وهي تشبيه لمعان أسلحة هذه الكتيبة بلمعان الفضة التي يعلوها الذهب . ومن الصور الموروثة التي يعبر بها العماد عن صورة الجيش الإسلامي تشبيهه الجيش بالبحر أو السيل في كثرته ، وبالأسود في قوته وبالطيور الجارحة في سرعة حركته وانقضاضه على الأعداء ، فنراه يقول في تصوير كثره جيش (عز الدين فروخ شاه) :

واللابسون جواثناً حيتانه	قد كان جيشكم كبحر زاخر
بأساً وغرق فلكهم طوفاناً ^(٢)	فظمى لهلكهم عليهم بحر كم

(١) الديوان ، ١٦٤ .

(٢) نفسه ، ٤٣٦ .

وفي موضع آخر يشبه هذا الجيش بالسيل المنحدر في قوة اندفاعه ، يقول :
ولترب مجر رائع حملاته وتخاله في الزحف سيل مدهده^(١)

ويُشبه هذا الجيش بالأسود ، وهي صورة مستمدة من التراث الشعري العربي ، ويخرج العماد هذه الصورة إخراجاً جميلاً ، إذ يجعل الجيش الإسلامي يقدم القرى للرماح من لحوم الأعداء ، وقد شؤيت على نار السيوف ، ويُشبه الجيش الإسلامي بالأسود وأعداءهم بالفرائس من الدواب ، يقول :
يقري العواسل من فرائس أسده لحماً بنار البيض مشعلة طهسي^(٢)

ومن الصور الموروثة التي يستعيرها العماد لرسم صورة الجيش الإسلامي تشبيهه رماح هذا الجيش بالاشيطان ، فنراه يقول في ذلك :
مُتحت به قلب القلوب ذوابل أشبهن أشطاناً بأيدي مُته^(٣)

ويستمد العماد بعض صوره عن الجيش الإسلامي وسلاحه من موضوعات كالغزل ، فنراه يشبه الرماح بالإنسان الناحل المتلوي في سقمه ، والذي لم ينل الشفاء بعد ، ويشبه السيف الذي يقطر دماً بالعاشق المدنف الذي أَلَفَ الضنى ، وجرحه ما زال طرياً ، كما يبدو ذلك في قوله :
فالأسر العسال يحكى ناحلاً متلوّباً من سقمه لم ينقه
والأبيض الرعاف يُشبه مدنفاً أَلَفَ الضنى وأصابه جرحٌ صهي^(٤)

وأما صورة المعركة في شعر العماد فقد جاءت مقتضبة موحية ، بعيدة عن التفصيل لأن الشعر لا يحتمل التفصيل ، ويستعيز عنه بالكلمة الموحية المعبرة ، وهذا ما نجده في قصيدة العماد التي قالها في معركة حطين : فقد صور هذه المعركة حامية الوطيس زلزلت الأرض تحت أقدام العدو وظهرت فيها الأبطال

(١) الديوان ، ٤٥٦ .

(٢) نفسه ، ٤٥٦ .

(٣) نفسه ، ٤٥٦ .

(٤) نفسه ، ٤٥٢ .

عابسة لهولها ، يقول العماد مصوراً مجريات هذه المعركة ^(١) :
يا يوم حطين والأبطال عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قد عبا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً معفراً خدّه والأنف قد تعسا ^(٢)

اعتمد الشاعر على الكناية في إظهار هول المعركة وشدتها ، إذ ظهرت الأبطال فيها عابسة ، وبدا وجه الشمس ، وكأنه عابس بفضل عجاج المعركة وظهر عظيم الكفر محتقراً معفراً الخدّ ، كناية عن ذلّه وهوانه ، ويلاحظ على هذه الصورة أنها مستمدة من واقع المعركة ، معركة حطين ؛ التي قتل فيها (البرنس أرناط) وقد صور العماد مقتله في هذه القصيدة بصورة ساخرة تليق بغيره ، وصلفه واعتدائه على محارم الإسلام ، إذ يقول :

يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجما
وغاص إذ طار ذاك الرأس في دمه كأنه ضفدع في الماء قد غطما
ما زال يعطس مزكوماً بغيرته والقتل تسميت من بالندر قد عطما ^(٣)

تبدو هذه الصورة جديدة مبتكرة فيها من الغرابة ما يثير السخرية والاستهزاء بالقائد الفرنجي ، فقد عبّر العماد من خلال هذه الصورة عن اشتغائه من هذا الغادر الذي اعتدى على الصجيج الإسلامي ، وبالغ في إيذانه وتحديه للمسلمين ، إلى أن أوقعه الله في معركة حطين أسيراً بيد صلاح الدين فنال جزاء ما فعلت يده .

وفي القصيدة التي هنا بها صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٢ هـ رسم لوحة متكاملة للمعركة ، فصوّر القائد صلاح الدين وجنوده كما صور جنود الأعداء قبل المعركة ، وبعدها ، وصور المعركة نفسها ، و رسم صورة ساخرة للملك الأعداء وقادتهم .

وفي بداية الحديث عن المعركة يبرز صورة المدينة وقد تحررت ، فتظهرت من رجس الأعداء الذي أزاله صلاح الدين ، إذ نزع لباس الكفر عن أرضها وألبسها ثوب

(١) أنظر حول صورة هذه المعركة ، بيت المقدس في أدب العروب الصليبية ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٢) الديوان ، ٢٢٩ .

(٣) نفسه ، ٢٢٩ .

الإيمان ، فعادت بهذا الفعل إلى بيت الله أحكام دينه ، فلم يبق صلاح الدين في هذه المدنية أي أثر للصليبيين ، يقول العماد مصوراً ذلك :

ومن قبل الفتح كنت مقدساً	فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم	فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها	وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
وعادت بيت الله أحكام دينه	فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا ^(١)

ويصور العماد فرسان الجيش بسلاحهم على ظهور الخيل كأنهم الأسود والحيات العظيمة التي تبغي الانقراض على فريستها ، يقول :

سحبت على الأردن رُدناً من القنا	رُد ينيه مُلداً وخطوة مُلسا
حططت على حطين قنر ملوكهم	ولم تُبق من أجناس كفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن	معاركها للجُرد هوساً ولا دهما
غداة أسودُ الحرب مُعتقلو القنا	أساودُ تبغي من بحور العدا نهسا ^(٢)

ونتيجة لانتصار صلاح الدين على الصليبيين فإن العماد يصور فرسانهم وقد لينت السيوف في المعركة من خشونتهم ، يقول مصوراً ما فعله صلاح بصناديدهم في المعركة :

أنوا شكس الأخلاق خشناً فلينت	حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا
طردتهم في الملتقي وعكستهم	مجيداً بحكم العزم طردك والعكسا ^(٣)

ثم يصور العماد في هذه اللوحة المعركة وما أسفرت عنه من نتائج في غير صالح الفرنجة ، والمصير الذي ألوا إليه ، فيقول مستمداً أركان الصورة من القرآن الكريم :

بواقعة رجت بها الأرض جيشهم دماراً كما بسّت جبالهم بساً^(٤)

(١) الديوان ، ٢٢٢ .

(٢) نفس ، ٢٢٤ .

(٣) نفس ، ٢٢٤ .

(٤) نفس ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ .

وأصبحت حال الفرنجة بعد هذه المعركة أسوأ حالاً بعد العزة والقوة
والجبروت ، يقول مصوراً حالهم بعد المعركة :

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم	ولم ترض أرض أن تكون لهم رمماً
وطارت على نار المواضي فراشهم	صلاًء فزادت من خمودهم قبماً
وقد خشعت أصوات أبطالها فما	يعي السمع إلا من صليل الظبي همماً ^(١)

لقد صورَ الشاعرُ الأعداءَ صرعى تلقفهم بطون الذئاب بعد أن رفضت الأرض
أن تؤوي جثثهم ، وصورهم جماعات من الفراش تهوي إلى نيران سيوف المسلمين ،
وتخشعت أصوات الأبطال ، وأصبح صوت السيوف كأنه الهمس ، وفي هذه الصورة
كناية عن ضعف مقاومة الأعداء ، وانهزامهم ، وفي هذه القصيدة يصور العماد
ملوك الفرنج أذلاء بعد أن كانوا طغاة جبارين يقادون في الأسر بعد الهزيمة في
بحر من الدماء كأنهم السفن التي تشق عباب البحر ، ولا يخفى ما في هذه الصورة
من تحقير وازدراء لهؤلاء الملوك ، فنراه يقول :

تُقاد بدماء الدماء ملوكهم أسارى كسفن اليم نطت بها القلما^(٢)

كما يصور الشاعر سبأيا العدو ، وقد ملأت البلاد لا أحد يرغب فيها ولا
يشتريها لكثرتها كما يقول :

سبأيا بلاد الله مملوءة بها	وقد شريت بخساً وقد عرضت نخسا
يُطاف بها الأسواق لا راغب لها	لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا ^(٣)

ويعود العماد في هذه القصيدة إلى التهكم بالبرنس ، ويصوره وقد قتل
بصورة مضحكة تفيض بالازدراء والسخرية ، فيصف رأسه يشكو من اليبس ، ولا
دواء له من دانه هذا إلا السيف الذي يحتسي دمه جزاء لغدره ، ويشبه هذا الرأس
وقد طار بفعل الحسام وكأنه القطن ، أو الصوف ، وذلك كناية عن قوة الضربة
التي تلقاها كما يقول مصوراً ذلك :

(١) الديوان ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ .

(٢) نفسه ، ٢٣٥ .

(٣) نفسه ، ٢٣٥ .

شكا يساً رأس البرنس الذي به
 حما دمه ماضي الغرار لغدره
 تندى حمام حاسم ذلك اليبسا
 وما كان لولا غدره دمه يُحمى
 فسفت به رأس البرنس بضربة
 فأثبته رأسي رأسه العهن والبُرسا
 تبوغ في أوداجه دم بغية
 فصال عليه السيف يلحمه لحسا^(١)

ويحدد العماد في هذه الصورة التهكمية الساخرة (لأرناط) مصيره الذي آل إليه ، وهو النار حين يقول مخاطباً صلاح الدين :

بعثت إمام أمة النار نحوها فزار إمام أرناطها ذلك الحيسا^(٢)

لا يقف العماد في رسمه للصورة الحربية عند حدود الرسم والتشخيص حسب ، بل يدخل فيها عنصر الحركة لتكون موحية معبرة عن الحدث ، كما لاحظنا في الصورة التي رسمها لفتح القدس ، فقد جعل الصورة تمور بالحركة حين صور المنازلة ، وكيف تطير رؤوس الأعداء على نار المواضي كأنها الفراش ، وكيف طار رأس البرنس كأنه القطن أو الصوف ، وهذه الحركة التي أدخلها العماد على الصورة جعلتها تناسب جو المعركة التي تقوم على المنازلة بين الفرسان فيختلط بها صوت سهيل الخيل ، بصوت صرير السيوف ، وتهوي فيها الفرسان صرعى بعد أن يتصاولوا على الخيول ، كأنهم العقبان أو الصقور .

ومن صور المعارك الأخرى ، صورة المعركة التي شهدها العماد مع نور الدين ، وهي صورة مستمدة من أجواء المعركة وقد لجأ إلى البيان لتوضيح جوانبها ، كالاستعارة والتشبيه ، والكناية ، فقال في وصفها :

وكان بين النقع لمع حديدها نار تألق من خلال دخان
 في مازق ورد الوريد مكفل فيه برى الصارم الظمان
 غطى العجاج به نجوم سائه لتتوب عنها أنجم الحرمان
 يمتاح من قلب القلوب دماءها بالسمر متح الماء بالأمطان^(٣)

(١) الديوان ، ٢٢٥ .

(٢) نفسه ، ٢٣٦ .

(٣) نفسه ، ٤١٢ .

يغلب على هذه الأبيات عنصر اللون ، وهو عنصر مهم في بيان أجواء المعركة، فإذا اختلطت الألوان في المعركة كان ذلك دليلاً على شدتها وضراوتها ، والألوان في المعركة أمّا أن تكون قاتمة سوداء أو لامعة مضيئة ، هكذا يصور العماد معركة نور الدين مع الفرنجة فالنقع في سماء المعركة كأنه الدخان ، ولمعان الأسلحة خلاله كالنار المتألقة ، ويضيف إلى الصورة عنصر الحركة فيصور الرماح وهي تهوي إلى قلوب الأعداء تستنزف دماءها وكأنها الدلاء تمتح ماء البئر . ولكي يكمل الصورة فإنه يتبعها بحركة جنود نور الدين فيصور حملاتهم على الأعداء ويبرز أدوارهم الفردية ، وما أصاب الأعداء من حملاتهم ، يقول معبراً عن شدة بأسهم :

حملت عليهم من جنودك فيّة	لم تدر غير حميّة الفتيان
زخرت بهم أمواج أجك في الوغى	غزراً وطّم بهم عباب طمان
وتذمّوا من حرّ بأس محمد	وتهيّوا الحملات من عثمان
وبسيف جرديك المجرّد غودروا	بدماء أهل الغدر في غدران
واليارقية أرقّتهم في الدجى	بسهام كلّ حنيّة مرّنان ^(١)

وحرصاً من العماد على إكمال الصورة ، وتتابع عناصرها وانسجامها ، فإنه ينتقل من تصوير جنود نور الدين وهم يحملون على الأعداء ، ويوقعون بهم ، إلى تصوير الأعداء وهم يولون الأدبار ، والرعب يملأ قلوبهم ، وقد تركوا كل شيء حتى الممالك والحصون ، ويلاحظ أن العماد انتقل في هذه الصورة من حركة إلى حركة أخرى مضادة لها ، فالأولى : اندفاع وقوة وانتصار ، والثانية ضعف وهزيمة وانكسار ، يصور فيها هزيمة الأعداء ويرسم لهم ولقاداتهم صوراً كاريكاتورية مضحكة تناسب حالهم الذي ألوا إليه ، يقول :

ولوا وقلب شجاعهم في صدره	كالسيف يُرعدُ في يمين جبان
فاروا من الفوار عند فرارهم	بالفتور ، وامتدوا إلى المسدان
وأزارها السلالة الشلل الذي	أعدى لهم شللاً إلى الأيمان
ولّى وجوههم سواد وجوههم	نحو السواد ، وأذّنوا بهسوان ^(٢)

ويقول في وصف هروب زعمائهم :

(١) الديوان ، ٤١٤ .

(٢) نفسه ، ٤١٣ .

لما رأى الدأوي رأوا نداءه^(١) ولّى بطاعون بغير طعمان
 طلب الفريري الفرار بطلبه متباعداً من هلكه المتداني
 والهفري مذهباً فر مؤملاً والهون شأن الثاني
 باروا فبارونهم بقبائله مؤيد ، وسيدهم أمير عان
 أخلوا بلادهم فحل بأهلها منك الغداة طوارق الحدشان^(٢)

أكد الشاعر في هذه الأبيات حالة الفرنج والرعب الذي حل بالأعداء ، فرسم لهم صورة تناسب هذه الحالة ، فرأيناهم يفرون في كل اتجاه ، وقد قرّب العماد صورة الفرنج في تلك النفوس بتشبيهه قلب أشجعهم بالسيف المرتجف في يد الجبان، واعتمد على الجناس المشتق من أسمائهم في توضيح ما تبقى من الصورة. اهتم العماد في تصويره بالتجسيم والتشخيص لما لهذا العنصر من دور في توضيح المعاني وكشف جوانب الغموض في الصورة ؛ فقد بث الحياة في كثير من الجمادات ، وجعلها كائنات حية ، من ذلك قوله في الحديث عن الفرنجة والانتصار عليهم :

وبعين دولتك الذي قدمته فقتت عيون الكفر والكفران^(٣)

فقد جعل من الكفر في هذا البيت إنساناً فقتت عيناه .

ولا يترك العماد صورته الحربية بلا ألوان ، فقد أشاع فيها ما يلزم من الألوان فصور الأعداء وقد اصفرت وجوههم من الخوف ، فقال :

وبنو الأصفر القوام مننه بوجوه من الخفاقة صفر^(٤)
 ويقول في تصوير أعلام المسلمين :

ونشرنا أعلامنا السود ههراً للعدى الزرق بالمناي الحمر^(٥)

(١) هكذا وردت في الديوان ، وقد صوبها ، نزار اللبدي ، وقال في تصويبها : « والصواب ما أثبت وهو أكثر انسجاماً مع سياسة العماد التي تعتمد التشويق ، وأقرب إلى المعنى ، وهذا الضبط أكثر قبولاً من الضبط الذي ورد في الديوان (انظر صورة فن الحرب ، ص ١٣٨) .

(٢) الديوان ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٣) نفسه ، ٤١٤ .

(٤) نفسه ، ٢٠٠ .

(٥) نفسه ، ٢٠٠ .

ويقول في وصف الجيش الإسلامي :

روضٌ من الصَّفَرِ البَنُودِ وَحُمْرِهَا والبيضِ يُزْهِى رُدَّهُ وَأَقَاحُهُ^(١)

وينسبُ إلى العماد في مجال الصورة أنه أشاع ظاهرة جديدة ، وهي تطلب الصورة مهما بعدت ، فقد كان له شغف باصطياد الصور ، دون نظر إن كانت ناجحة أو مخففة^(٢) . ومن الأمثلة على هذه الظاهرة ، تصويره لمدوحه يلعب بالصولجان ، ولكنه أحياناً يجعل السيوف صوالجه ، ويجعل من رؤوس الأعداء كرات يلعب بها كما في قوله :

صوارمُهُ صَوَالجُهُ إِذَا مَا رُوؤُسُ عَدَاةٍ كَانَتْ كَالكُورِينِ^(٣)
وسهام الممدوح طيورٌ ، ولكنها تختار عيون الأعداء وكوناً لها كما في قوله :
وما لطيورٍ أسهمه المواضي سوى مقل الأعداء من وكونٍ^(٤)

وعدو مدوحه (تقي الدين) له طنين كالذباب ، ولهذا يسלט عليه ذباب سيفه ليحدث فيه طنيناً كما يقول :

عَنُوكَ كَالذُّبَابِ لَهُ طَنِينٌ وفيه ذبابٌ سيفك ذو طنينٍ^(٥)

وهذه الظاهرة ليست عامة في شعر العماد ، بل جاءت محدودة في أماكن معينة من شعره ، وغلب على الصورة عنده الوضوح والدقة والتحديد ، فليس فيها غموض ولا تعقيد ، وهي بسيطة لا تحتاج إلى عمق في التفكير ، والخيال فيها ليس ببعيد عن الحقائق أو قائم على الاختلاق والتزييف والأوهام ، والمعميات ، وبخاصة في قصائده التي تناول فيها وصف الحرب^(٦) . فمعظم هذه الصور قريبة سهلة التركيب ، واضحة الدلالة لا يبذل القارئ جهداً كبيراً في فهم معناها .

(١) الديوان ، ١١١ .

(٢) نزار الليدي ، صورة فن الحرب في أدب الدولتين ، ١٤٠ .

(٣) نفسه ، ٤٢٧ .

(٤) نفسه ، ٤٢٧ .

(٥) نفسه ، ٤٢٩ .

(٦) الديوان ، المقدمة ، ٥٢ .

الفصل الرابع

النثر الفني / موضوعاته

- النثر التاريخي ، موضوعاته :

- صورة البطل المسلم

- تصوير المعارك

- الجيش الإسلامي

- صورة الفرنيجة

- الطبيعة

- الحضارة

- النثر الأدبي : ويشمل :

أ (ما يصدر عن ديوان الإنشاء :

- الرسائل

- المنشورات

ب) الرسائل الإخوانية

ج) النثر في المصنفات

قبل الحديث عن أقسام النثر الفني عند العماد تجدر الإشارة إلى أنه قد تبوأ منزلة رفيعة بين كتّاب عصره ، وكان له في ميدان الكتابة الفنية حضوره المتميز، حتى إنه عُرف بين أهل عصره بكنية جاءت من الكتابة .

تنوعت كتابات العماد في موضوعاتها لتنوع اهتماماته ومجالات عمله :

فجاء بعضها نتاجاً لملازمته قادة الجهاد ، وتسجيل الأحداث التي عاصرها معهم بأسلوب أدبي ، فأعطانا بذلك لوناً من ألوان النثر الفني الذي يرصد الحدث التاريخي ويقدمه بحلّة أدبية موشاة بالصنعة اللفظية والمعنوية ، فكان ما يسمى النثر التاريخي .

وبعض نثره جاء محصّلة لعمله في ديوان الإنشاء إذ كتب إبّان عمله ذلك ، مجموعة كبيرة من الرسائل والمنشورات والتقاليد والعهود اقتضتها الظروف السائدة آنذاك .

وجاء بعض نثره نتاجاً لعلاقاته الاجتماعية الودية مع بعض كتّاب عصره أمثال القاضي الفاضل ، وهذا اللون هو ما يسمى بالرسائل الإخوانية .
وأما اللون الأخير من نثره فهو نتاج جهده التأليفي ، واشتمل على مقدمات نثرية لتراجمه الأدبية في كتاب الخريدة .

النثر التاريخي

تمكّن العماد من خلال علاقته بنور الدين وصلاح الدين ، من رصد أهم الأحداث في عصريهما ، فسجل مجريات الأحداث وتفاصيل الحياة اليومية ، في كتابيه «البرق الشامي» و «الفتح القسي» ، وصاغ الحدث فيهما بأسلوب أدبي غلبت عليه الصنعة اللفظية والمعنوية . وعلى أساس من أسلوب الكتابين يمكن تصنيفهما في باب الأدب التاريخي ، فالبرق «هو تقريباً سيرة ذاتية للمؤلف ، بقدر ما هو تأريخ لصلاح الدين»^(١) ، وهو أشبه بالمفكرة المهنية للعماد الكاتب . فهو مشتمل على مقتطفات طويلة من رسائله الرسمية ، بالأصالة عن صلاح الدين ، وعلى كتب تعيينات الوظائف العامة ، ومراسلاته شبه الخاصة مع القاضي الفاضل ، واستشهاده بقصائده ، أو قصائد الآخرين في مناسبات مختلفة ومنها الكثير مما هو أشبه بمذكرات داخلية شخصية حول انشغالاته الخاصة وعلاقاته بشخصيات أخرى^(٢) .

وأما كتاب «الفتح القسي» فقد جعله سجلاً لبطولات صلاح الدين وجهاده ضد الصليبيين ، وبدأه بفتح القدس سنة ٥٨٢هـ ، وختمه بوفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ وما أعقبها من أحداث ، واشتمل على مجموعة من الرسائل الصادرة عن ديوان الإنشاء بقلم العماد . وقد اختار العماد الأسلوب الأدبي الملتزم بالسجع والمحسنات اللفظية والمعنوية وألوان البيان والبديع ، لتصوير الحدث التاريخي ، وأراد بعمله هذا أن يخدم التاريخ والأدب كما يتضح ذلك من حديثه عن الغاية من وضع الكتاب إذ يقول : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء ؛ الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يتشوقون إلى السير المتجلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع ، والأديب أن يقول : فإن فيه من الألفاظ ما صار معدناً من معادن الجواهر التي تولدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار به لساناً من ألسنة العجائب التي نوردها »^(٣) .

(١) صلاح الدين الأيوبي ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، السير هاملتون آر. جيب ، حررها يوسف ايبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٨٢ .

(٢) نفسه : ١٠٦ .

(٣) الفتح القسي ، ٤٢ .

إنّ عمل العماد في كتابيه عمل متميز ، لأنه يجمع بين تاريخ مكتوب بلغة أدبية مسجوعة ، وبين أنواع مختلفة من الإنشاء ، لا يكاد المرء يميّز بينهما ، فإذا نظر في نص تاريخ يصف حدثاً ، في واحد من الكتابين وتابع النظر في رسالة تصف ذلك الحدث ، فإنه في أغلب الأحيان لا يكاد يشعر بهذا الانتقال لتشابه النصين في لغتهما وأسلوبهما .

وإذا ما نظرنا في النص التاريخي في الكتابين ، فسنجد أن هذا النص في معظمه يتحدث عن الأعمال الجهادية ضد الصليبيين في بلاد الشام والجزيرة ومصر، وما يتعلق بهذه الأعمال من وصف المعارك وأبطالها ، وتصوير الجيوش ومعداتها ، وتصوير المدن والقلاع والحصون ، وتصوير المظاهر الحضارية في المجتمع الإسلامي ، وتصوير الطبيعة . وسوف يكون الحديث عن موضوعات النثر التاريخي وفق الترتيب المبين وهو :

- صورة البطل المسلم .
- صورة المعركة .
- صورة الجيش الإسلامي .
- صورة العدو .
- صورة المظاهر الحضارية .
- صورة الطبيعة .

- صورة البطل المسلم :

يمكن للدارس أن يتبين صورة البطل المسلم في فترة الحروب الصليبية ، من كتابي : البرق الشامي ، والفتح القسي ، للعماد الأصفهاني ، فقد وقف مادة كتابيه المذكورين على رصد الأحداث في أثناء ولاية نورالدين وصلاح الدين ، وكان حديثه عنهما حديث العارف ، المطلع على دقائق الأمور وخفاياها ، ولذا فإن الناظر في نشره التاريخي ، ورسائله الديوانية ، يمكن أن يشكل صورة واضحة المعالم لشخصية البطل المسلم . ولعل من المفيد في هذا البحث أن تكون شخصية صلاح الدين الأيوبي هي الشخصية التي ستمثل صورة البطل في نثر العماد ، وذلك لأسباب منها ، أن المدة التي أمضاها العماد في خدمة صلاح الدين كانت أطول مما أمضاه في خدمة نورالدين . كما أن هذه المدة شهدت أحداثاً عظيمة وكثيرة كان صلاح الدين في بؤرتها ، ويضاف إلى ذلك أن النثر التاريخي الموجود بين أيدينا إنما يؤرخ للأحداث التي وقعت في فترة ولاية صلاح الدين ، بينما ضاع ما يتعلق بنورالدين من البرق الشامي ^(١) .

وقد نهض صلاح الدين خلال توليه مسؤولية القيادة بمهمتين أساسيتين هما : مهمة الحاكم ، المطلع بأمور الرعية ومصرف شؤون الدولة ، ومهمة ثانية ، هي مهمة القائد العسكري ، الناهض بأعباء الجهاد ومقارعة الأعداء .

- راعي الأمة :

تبدو صورة البطل صلاح الدين كما يصورها العماد في نشره ، محافظاً على السنن ، ملتزماً بالشرع ، مقيماً للعدل ، ناشراً للإحسان بين الناس ، مقرباً له أهل العلم ، مكرماً لأهل الحاجات . ونلاحظ بعض ملامح هذه الصورة في وصف العماد : دخول السلطان إلى عكا وما قام به من الأفعال فيها ، يقول : « ودخل السلطان المدينة ، وسكن بها في كنف السكينة ، مستقيماً على المحبة المستبينة مقيماً للحجة المتينة ، وشرع في إعداد العدد واستمداد المدد وإبرام معاهد الحل والعقد وإحكام قواعد الدين والمجد وإحياء سنة السماح والفضل وإعلاء سناء الإحسان والعدل وإفادة الكرم وإكرام الوفود وإسعاف العافين وإبعاد العادين

(١) الأجزاء الموجودة من البرق الشامي هي الأجزاء : الثالث والخامس ، ويبدأ الجزء الثالث برصد الأحداث من

وإدناء أهل العلم وإغناء ذوي العدم ... »^(١) .

ويظهر العماد السلطان مهتماً بأمور رعيته ، حين يصوره يستحث ولاية الأمر عنده على الالتزام بالشرع في أحكامهم ، فيقول : « وأمر الرعاة برعاية أمر الرعية ، وحكم على القضاة بالحكم في كل قضية بالجهة الشرعية المرعية »^(٢) .
ويظهر السلطان في نثر العماد كما تصوره المصادر التاريخية مطلعاً بشؤون الرعية ، يجلس للمظالم بنفسه ، ويحكم بين الناس بالشرع ، ويدني العلماء والحكماء ويكرمهم ، وهذا ما يبدو من حديث العماد ، حين وصف دخول السلطان إلى دمشق سنة ٥٨٥هـ ، ووصف أعماله ، يقول : « ثم خرج السلطان وسار على طبرية ، ودخل دمشق مستهل صفر ... ، وبدأ بحضور دار العدل ، فدرّ عدله للبادي والحاضر وأفاض الفضل ومحا المحل ... وأعلى أعلام العلماء وأحلى أحلام الحلماء وأمضى أحكام الحكماء وقضى بإكرام الكرماء وأسدى المعروف وأعدى الملهوف وأنكر المناهي ونهى عن المنكر وطهر حكم الشريعة وحكم بالشرع المطهر ... الخ »^(٣) .

يجتهد العماد في نثره أن يُظهر السلطان بصورة الحاكم المسلم المثالي : بما تمثله هذه الصورة من الكرم والعدل والرحمة والزهد وقوة الإيمان والمحافظة على الشعائر ، وهذه صفات يراها الناس ضرورية لمن يتولى أمورهم ، وقد تحلى صلاح الدين بهذه الصفات ، فكان كريماً متفرداً في جوده كما يصوره العماد مستعيراً له صوراً من التراث ومنها قوله : « والسلطان وجود جود السحاب ويأمر بالعطاء والحساب ويجد في حث النواب ، ويجد في بعث الأصحاب » ، ويقول : « أنفقوا ولا تخشوا إقلالاً ... الخ »^(٤) . ونجد تأكيداً لهذه الصفة في غير ما موقع من نثر العماد ، فنراه يقول مبيناً أفضاله التي غمرت العلماء والشعراء : « وجلس يوماً آخر للأكابر والأمثال والأكارم والأفاضل ، فأضاء النادي وقاضت الأيادي وغدق الندى وصدق الهدى وكرّ الكرم وفرّ العدم وضاق العلماء بالبذل وأعان بأفضاله أعيان أهل الفضل وفاز بالحمد وجاز الثناء وأجاز الشعراء وأكرم

(١) الفتح القسي : ١٨٠ .

(٢) الفتح ، ٢١٨ ، وانظر مثلاً آخر على ذلك ، في البرق الشامي : ١٠٥:٥ .

(٣) نفسه : ٢٧٦ ؛ وانظر أمثلة على تصريفه أمور الرعية بنفسه في الفتح ، صفحات ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٤) نفسه : ٤٥٨ .

الكرماء ... الخ»^(١) .

ويحاول العماد أن يقدم لنا جانباً مهماً في شخصية السلطان وهو جانب العدل ، فيصوره يحكم بين الناس بنفسه، يجلس في دار العدل ، وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل ، فيستمع إلى قصص المتظلمين ويحكم فيها ، فيعطي كل ذي حق حقه ويردع الظالمين ، ويبين العماد هذه الصورة حين يصف مجلس السلطان في دار العدل ، فيقول : « وابتدأ بالجلوس في دار العدل وبحضرة القضاة والعلماء من أهل الفضل ، واستوضح قصص المتظلمين واستمع إلى غُصص المتألمين وكشف الظلمات المظلمة وفصل الحكومات المستحكمة وقرأ كل قصة وقرأها بكل حصة وحقق الحقوق ورتق الفتوق ، فما انقضى ذلك اليوم ، وانفض أولئك القوم ، إلا عن مظلوم أجيّز بالحق ومعلوم أجري من الرزق وعالم أعين وظالم أهين الخ»^(٢) . وكان السلطان في دولته يجلس جلوساً عاماً لإزالة المظالم^(٣) ، وهو في جلوسه إنما يسير على نهج السلف الصالح ، رسولنا الكريم وخلفائه الراشدين ، وبعمله هذا يكون قد أحيأ سُنَّة من السُنن الصالحة . ويحرص السلطان كما تظهر صورته في نشر العماد على إشاعة العدل والتخفيف على الرعية ، فيسعى إلى كل ما يحقق ذلك ، فإذا شعر أن الرعية لا تقوى على النهوض بعبء من الأعباء سارع إلى التخفيف عنها بإبطاله ، ومثل ذلك ما فعله حين أسقط المكوس عن حجاج مكة ، وعوَّض أميرها بجلاب غلَّة تحمل إليه في كل سنة مقدارها ثمانية آلاف أردب قمح^(٤) .

ويمكن أن نلاحظ ونحن ندرس نشر العماد أن السلطان كان شديد الزهد في حياته ، ومن مظاهر زهده أنه كان يبذل كل ما يملك في سبيل الله ، ولا يلتفت إلى شيء من المال ومتع الدنيا ، كل همه أن يلقي الله راضياً مرضياً مجاهداً في سبيله ، وقد تعددت المواقف التي تظهر زهده ، ومنها قصة تنازله عن مدينة (أمد)

(١) نفسه : ٢٦٥ ؛ وانظر حول كرمه أمثلة في المصدر نفسه : من ٢٢٦-٢٢٤ ؛ وفي البرق ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

(٢) الفتح ، ٢٦٤ .

(٣) انظر أمثلة على عدله ، النوادر السلطانية ، ١٣-١٦ .

(٤) البرق ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

بعد أخذها^(١) بما فيها من غنائم عظيمة دون أن يلتفت إلى شيء من ذلك ، وقد علّق العماد على هذه القصة بقوله : « وإنما شرحت هذه القصة لتعلم أن الدنيا لم يكن لها عند السلطان قدر وأنه لم ينطو منه على قلبها صدر »^(٢) ، ولا يخفى ما في هذه الحادثة من دلالة على زهد السلطان في متع الدنيا وإقباله على الآخرة يطلبها ويُعدُّ العدة لها .

وقصة الدار التي بناها للسلطان (الصفى بن القابض)^(٣) لدليل آخر على زهده في الدنيا وتخفيفه من متاعها الزائل^(٤) . ومن مظاهر زهده كذلك عدم التفاته إلى الغنائم عندما ينتصر على عدوه . ويتضح هذا الجانب من قول العماد : « وترك السلطان الأسلاب والخيول لأخذها ، وكانت بأموال عظيمة ، فما أعارها نظرة ولا تردد أمره فيها ... الخ »^(٥) .

مثل هذه الصفات تجعل من يتحلّى بها من الحكام ، قريباً إلى نفوس رعيته محبوباً لا يُستغنى عنه ، يُفتقد عند غيبته ويُفرح لعودته ، وهكذا كان صلاح الدين كما صوره العماد في نثره ، إذا رحل عن بلدة اغتم أهلها ، وإذا دخل إلى أخرى فرح أهلها واستبشروا بقدومه خيراً ، وهذه النظرة من الرعاية لهي من الدلائل على نزاهة السلطان ، وقيامه بالرعاية الحقة لرعيته ، وهذا ما نلمسه في وصف العماد حين يُحدثنا عن استقبال أهل دمشق للسلطان ، فيقول مصوراً فرحتهم وسرورهم بقدومه « ورحل السلطان نحو دمشق ... ودخل إليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول ... ، وتلقاه أهل البلد بوجوه لإقباله متهلة وألسنة له بالدعاء مبتهلة وعيون لأنواره مجتلية وصدور بأيامه منشرحة وأمال في أفعاله

(١) تنازل السلطان صلاح الدين عن هذه المدينة لـ (نورالدين محمد بن قرا ارسلان) ؛ انظر : البرق الشامي :

٩٥:٣ ، ٩٦ ، وانظر الروضتين ، طبعة دار الجيل ، ١ : ٣٧ ، ٢٨ .

(٢) البرق الشامي : ٩٦:٥ .

(٣) صفى الدين بن قابض : كان يتولى الديوان في دمشق ، وكان وكيل الخزانة فيها في أيام السلطان صلاح

الدين ، غضب عليه السلطان وعزله بسبب داراً بناها للسلطان في دمشق : الروضتين ، ط . دار الجيل ،

١٢٥:٢ : البداية والنهاية : ٣٥١:١٢ .

(٤) الفتح القسي : ٢١٥ ، ٢١٦ ، وانظر عن كرمه : التراجم السلطانية : ١٧ ، ١٨ .

(٥) نفسه : ٤٤٩ .

منفسحة وتقوى على طاعة الله في طاعته مجبولة «^(١) .

ظلت منزلة السلطان عالية عند رعيته حتى آخر أيامه ، ويبدو ذلك جلياً في حديث العماد يصف رجوع السلطان إلى دمشق سنة ٥٨٩هـ بعد غياب عنها دام أربع سنوات في الجهاد ، فقد كان استقبالهم له استقبال الأبطال الذين يُجلّم شعبيهم ، وقد صور العماد هذا الاستقبال أروع تصوير ، فجعل مدينة دمشق تهتز وتختال لقدمه ، والأعين تقرأ بفضائله ، والألسن تقرّ بفواضله ، كما صور الأنفس وقد طابت بقدمه ، والأبؤس وقد غابت ، وانجلت المكاره وتجلت المكارم «^(٢) .

- المجاهد :

تبوأ صلاح الدين منزلته الرفيعة في التاريخ الإسلامي بفضل قدراته العسكرية ، ومجاهدته الطويلة للصليبيين ، التي تكللت بنجاحات وانتصارات عظيمة خلّدها التاريخ ، فقد كان صلاح الدين مجاهداً بحق أعطى هذا الجانب من حياته جلّ اهتمامه ، وعاش من أجله ، فكان همّه الكبير الذي يسعى إليه دوماً متجاوزاً في سبيله كل المصاعب ، وقد تمكن العماد من خلال نشره التاريخي ورسائله أن يُبرز ملامح الصورة الجهادية لصلاح الدين ، ومن أبرز جوانبها حبه الشديد لملاقاة الأعداء ، فقد كان « لا تستقر به دار ، ولم يدر به قرار ، ولا يثبت في جفنيه غرار ، ولا يبيت إلا وبين جنبيه لحب لقاء العدا أهل النار نار »^(٣) . ومن أجل ذلك ؛ قام بالكثير من الأعمال ، وخاض عدداً من المعارك في سبيل توحيد الجهد الإسلامي ضد الصليبيين .

وكان يرى أن مجاهدة الصليبيين لا تتم إلا بهذا العمل ، وهو توحيد البلاد الإسلامية^(٤) .

وبالرغم من انشغال السلطان بتوحيد ديار المسلمين ، إلا أن هذا الأمر لم يثنه عن جهاد الصليبيين ، فقد كان مولعاً بهذا الأمر ، ويراها فرضاً لازماً ، فلا يقبل

(١) الفتح : ٢١٤ .

(٢) نفسه : ٦١٩ .

(٣) نفسه : ٢١٥ .

(٤) حول جهوده في توحيد البلاد الإسلامية ، انظر : البرق الشامي ، ج ٥ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٨٤ ، ٨٨ - ٨٤٩ . وانظر : صلاح الدين القائد وعصره ، مصطفى الحياوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٤ ، ص ١٨٥ وما بعدها .

أن يسجل عليه قصور فيه ، وقد صورَ العماد السلطان مندفعاً للجهاد ، باذلاً غاية جهده فيه ، وذلك في حديثه عن غزوة غزة والرملة إذ يقول مبيناً إخلاصه في الجهاد : « وعاد السلطان إلى القاهرة ، وأقام بها ظاهر السلطان ، باهر البرهان ، ثم تقاضته عزمته ، واهتمت بالغزاة همته ، وجدَّ بالجهاد وجده وجهده ، وجردت سريجاته ، وأسرجت جرده ، وضمرت مذاكيه ، وأذكيت ضوامره ، وماجت زواجره .. الخ » ^(١) . وفي نوبة الرملة يصور العماد السلطان مصمماً على الجهاد فيقول : « ثم رحل السلطان مقدماً ، ولعزمه في الجهاد مصمماً ، ولرأيه في بذل الوسع والاجتهاد متمماً ، وسار في جيش مجر ، لسيل الخيل مجر الخ » ^(٢) .

ويصور العماد السلطان قائداً للمعركة مخططاً للعمليات العسكرية ، مشرفاً على تنفيذها بنفسه . كما فعل في فتح طبرية ، حين كان يسير إلى الأعداء في كل صباح ويشرف عليهم ، ويتعرض لهم ليتعرضوا له ، ثم سار إلى طبرية ونزل عليها وأمر عساكره وأمراء جنده وأكابرهم أن يقيموا قبالة الفرنج ويضيقوا عليهم » ^(٣) .

ويصوره النص يشرف على تعبئة جنود قبل المعركة وخلالها ، فيغير مواقعهم بما يحقق لهم موقفاً أقوى ، يقول مصوراً السلطان يعين جنوده ويستعرضهم : « وقد عَبَّأَ السلطان ميمنته وميسرته ، وطلب من الله نصرته ، وثبت قلبه ، وقلبه ثابت ، وحزبه في صف الحرب ثابت ، ورعبه لكبة العدو كابت ، وهو يمر بالصفوف ويأمر بالوقوف ويخص على خط الأبد ويحث على الجلاء والجلد ... ولما شاهد شروق بروقهم وخروق مروقهم وكثافة ميسرتهم وحشود كثرتهم ، أنهض رجال القلب لتقوية ميمنته على الحرب » ^(٤) .

لقد فرضت طبيعة الصراع على السلطان أن يكون دائم الاستعداد للمعركة ، ولقاء الأعداء ، فكانت حالة التأهب هي الحالة السائدة بين جنوده . ولم تكن الظروف الجوية لتحول دون قيامه بواجب الجهاد . إذ كان يقوم بحملات في الشتاء

(١) البرق ، ج ٢ ، ٢١ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٦ ؛ وانظر مثلاً على تصميمه على الجهاد : الفتح ، ٩١ ؛ وانظر عن اهتمامه بأمر الجهاد : النوادر السلطانية ، ٢١-٢٢ .

(٣) الفتح ، ٧٤ ، ٧٥ ؛ وانظر كذلك في توليه أمر قيادة الجيش : الفتح ، ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٩٣ .

(٤) نفسه : ٢٠٨ .

رغم قسوة الظروف الجوية ، وتسمى هذه الحملات بالشواتي ، ونلاحظ وصفاً لواحدة من الشواتي حين يصف عزم السلطان على الجهاد فيقول : « ... وما صده البرد عن قصده ، ولا رده عن مورده ، ولم يحتفل باحتفاله ، ولم يبال ببلاله ... فاعتاض الاصطلاء بحر الحرب عن الاصطلاء بناره ، وجرى على عادته في مصابرة الأعداء ، والجري لها في مضماره »^(١) .

وفي واحدة من الشواتي التي حاصر فيها السلطان مدينة صور ، يصوره العماد وهو يحث جنده على التحلي بفضيلة الصبر لأنه لا ظفر إلا معها ، فيقول بعد أن يذكر امتناع المدينة أمام المحاصرين ، واشتداد وطأة الطقس عليهم : « ... فلحاهم السلطان على ما لاح ، وعرفهم أن في الصبر الفلاح ، وأمرهم بالمقام والاستقامة على الأمر ، وإنه لا ظفر إلا مع الصبر ، وإن الظلم تنجلي عن تجلي الضجر ... »^(٢) .

ويصور العماد السلطان قائداً فذاً لديه من الخبرة والدراية ما يجعله قادراً على انتقاء الأفضل من رجاله للمهام الصعبة لقيادة فيالقه العسكرية ، ومساعدته في مقارعة الأعداء ، وذلك لمعرفته بأهمية القائد الناجح في تحقيق النصر ، والأخذ بيد جنوده نحو هذا الهدف .

ويصور العماد السلطان محباً للشورى ، مؤمناً بها ، حريصاً على أخذ آراء قادته ومساعدته في مختلف الأمور ، فلم يكن ينفرد برأيه في إدارة دفة الجهاد ، بالرغم من قدراته العسكرية والسياسية المتميزة ، بل كان يرجع إلى جنوده ومساعدته ينظر معهم في الأمور ويقلبها على وجوها قبل أن يتخذ القرار فيها ، دون أن يشعر بالغضاظة أو الحرج .

وفي نثر العماد نجد صوراً لعدد من مجالس الشورى التي كان السلطان يعقدها ، فقد أقام صلاح الدين مجلساً للشورى لإقرار العمليات الحربية والإشراف عليها ينعقد كلما دعت الضرورة إلى انعقاده^(٣) . ومنها المجلس الذي عقده للنظر في شروط الصلح بعد فتح القدس ، يقول العماد في تصوير هذا المجلس : « فعقد السلطان محضراً للمشورة ، وأحضر كبراء عساكره المنصورة وشاورهم في الأمر ،

(١) نفسه : ٢٥٤ .

(٢) نفسه : ١٧٢ .

(٣) نظير حسان سعادوي ، جيش مصر في أيام صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢ .

وحاورهم في السرّ والجهر ، واستطلع خبايا ضمائرهم ، واستكشف خفايا سرائرهم ... الخ »^(١) .

ومنها موقفه من المسير إلى صور بعد فتح القدس ، فقد أقام أياماً بعد فتح القدس يفكر في الأمر ويطلب المشورة من قادته إلى أن أشار عليه أحدهم بالاستعجال إليها ، فسار إليها حتى إذا ما وصل جمع إليه أمراءه وعظماء ملكه وخبرائه وطلب منهم الرأي في مهاجمة المدينة المحاصرة^(٢) . وهذا التصرف يدل على الحكمة وبُعد النظر عند القائد الذي يسعى إلى النصر بأقل الخسائر المادية والمعنوية ، وقد يطلب القائد المشورة من فئة محددة من قادته ، وأما إذا كان الأمر خطيراً ، لا يفيد فيه الرأي الفطير ، دعا إلى مجلس للشورى ، يطلب فيه من كل من يحضره أن يدلي برأيه ، ويصور العماد لنا واحداً من المجالس ، فيقول : « وحضر أكابر الأمراء عند السلطان يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان فقال : « اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد أجلب بخيله ورجله ، وأناخ بكل كل كفه ، وقد برز بالكفر كله إلى الإسلام كله ... » ، ثم قال : « ليشرك كل منكم برأيه ولا يقدم على قول رأيه من ورائه » . فتجاذبوا حبل الاضطراب ، واختلفوا في الآراء بحسب اختلاف الآراء ، وركب كل منهم هواه ، وأعلن بما نواه ... وما زلنا في مشاورة ومحاورة ؛ ومجاذبة ومجاوبة ؛ ومناظرة ومساورة ؛ حتى تنخل الرأي وتمخض »^(٣) .

ومن مجالس الشورى التي عقدها السلطان أثناء جهاده ، المجلس الذي عقد للتشاور في أمر الهدنة والصلح مع الفرنجة سنة ٥٨٨هـ ، فقد « أحضر السلطان أمراءه المشاورين ، وشاورهم في الأمر ، وأظهرهم على السر ، واستطلع ما عندهم من الرأي ، وسرد لهم الحديث من المبادئ إلى الغاي ، وقال لهم : « نحن بحمد الله في قوة ، وفي ترقب نصره مرجوة ... » وقد ألفتنا الجهاد وألقينا به المراد ، والقطام عن المألوف صعب ، وما تصدع إلى اليوم بتأييد الله لنا شعب ، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو ، وما نحن مما يشوقه اللعب ويسوقه اللهو ، وإذا تركنا هذا العمل فما العمل ؟ وإذا صرفنا عنهم الأمل ففيم الأمل ، وأخشى أن يأتيني -

(١) الفتح القسي : ١٥٣ .

(٢) نفسه : ١٥٧ ، ٣٢٢ .

(٣) الفتح : ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

في حالة بطالتي الأجل - ومن ألف الحيلة كيف يآلفه العطل . رأيي أن أخلف رأي الهدنة ورأيي ، وأقوم بتقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي ^(١) .

كان رأي السلطان أن يمضي في الجهاد ويرفض الهدنة ، كما يتضح من كلامه لمشاوريه ، وهذا دليل على رغبته في الجهاد وتصميمه عليه ، ولكن هذه الرغبة لا تجعله ينفرد برأيه ، بل نراه هنا يستمع إلى رأي مشاوريه ، ويقبل بالهدنة بعد أن قالوا له : « الأمر على ما تذكره ، والتدبير ما تراه ، والرأي ما تدبره ، ولا يستمر إلا ما تراه من الأمر ... ، وإنك تجد من نفسك القوة والاستمساك ... ، فانظر إلى أحوال البلاد ، فإنها خربت ، وتشعثت والرعايا فإنها تعكست وتعلثت ، والأجناد فإنها نصبت ووصبت ، والجياد فإنها عطلت وعطبت ... وما زال الجماعة بالسلطان حتى رضي وأجاب إلى ما اقتضى ^(٢) .

ومن المزايا التي تحلّت بها شخصية البطل المجاهد كما يصورها العماد في نثره ، قوة إيمان تلك الشخصية ، وهذا سر من أسرار نجاح السلطان ، وانتصاره في حروبه ، فالإيمان القوي يمنح المجاهد قوة إضافية في ساحات الحرب ، وقد كان السلطان صلاح الدين في مقارعتة للأعداء يؤمن إيماناً مطلقاً أن النصر من عند الله ، وقيامه بواجب الجهاد امتثال لأمر الله سبحانه ، وليس له في هذا الأمر إلا أن يجتهد فيه ، ويمتثل لأمر باريه ، وينقل العماد حديثاً عن السلطان يؤكد قوة إيمانه وتسليحه بهذا الإيمان في وجه الأعداء ، فنراه يقول : « فقال السلطان : قد أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائلون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد وامتثال أمره فيه بالانقياد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولا تكترث الآساد بكثرة النقاد ^(٣) ، ولو اجتمع أهل الأرض ذات الطول والعرض ، لتوكلنا على الله في اللقاء ، ولم نبال بأعداد الأعداء » ^(٤) .

ومن مظاهر البطولة التي يكشف عنها العماد في شخصية السلطان ، عدم التفاتة إلى عدد الأعداء حين ينازلهم ، لأنه لا يرى بدأً من اللقاء ، فهو واجب ديني ، والنتيجة واضحة لديه ، فإما نصر للإسلام عظيم ، وإما شهادة وجنات نعيم ، فلا

(١) نفسه : ٦٠٢ .

(٢) نفسه : ٦٠٣-٦٠٥ .

(٣) النقاد : مفرداً نقداً ، وهي الغنم الصغار الحجازية (اللسان) .

(٤) الفتح ، ٢٤٠ .

خوف من خسارة ، وإبادة العدو عبادة لا توازيها عبادة^(١) .

ومن الصور الدالة على تعلق السلطان بالجهاد ، ما نجده من وصف في نشر العماد يبين حجم الإنفاق الذي جهز به الجيوش وأعدّها للقتال ، يقول واصفاً إنفاقه في سبيل الله : « وكان السلطان في تلك المدة أنفق أموالاً كثيرة على تلك الآلة والعدة »^(٢) وفي سبيل صون الدين وحمائته والدفاع عنه يُنفق خزائنه ويُنفذ دقائمه^(٣) .

يجد الباحث في نشر العماد مواطن كثيرة صُورَ فيها السلطان تصويراً جامعاً؛ شمل صفات بطولية مثل : سداد الرأي وقوة العزم والحزم والشجاعة ، ويعبرُ العماد عن هذه الصفات في حديثه عن حصار صور ، يقول : « والسلطان مصيب حكمه ، صائب سهمه ، ماض عزمه ، قاض حزمه ، بار حدّه ، جار جدّه ، وار زنده ، سار وفده ، باتك غربه ، فاتك ضربه ، قاطع شبا بأسه ... الخ »^(٤) .

وفي موقف آخر يؤكد العماد صفات البطولة التي اتصف بها السلطان ، فيصف موقفه من قدوم ملك الانكليز بجيشه الكبير ، ويصوره قوي القلب ، ثابت الإيمان ، صاف اليقين ، عظيم الإيمان لا يتزعزع أمام الخطوب ولا يلين أمام الشدائد^(٥) .

ونجد في نشر العماد مواقف كثيرة تكشف عن نزعة السلطان الإنسانية النبيلة ، المتأصلة في نفسه ، فلم يكن في حروبه سفاحاً محباً لسفك الدماء ، ولا مُغامراً يسعى لكسب المال والجاه ، بل كان مجاهداً يهدف من حروبه إلى تطهير ديار المسلمين من رجس الفرنجة المغتصبين ، فشخصية السلطان القوية التي تطرب لصليل السيوف ، وتبتهج حين ترى مصارع الأعداء ؛ لها مواقف إنسانية نبيلة ، لا تصدر إلا عن فارس مجاهد ، ومن هذه المواقف تعامله مع الأسرى وإشفاقه على السبايا ، فبالرغم من أفعال الفرنجة الخسيصة إلا أن السلطان لم يكن يعاملهم بمثل أفعالهم حين يقعون في الأسر ، بل كان يكرمهم ، ويحسن إليهم ،

(١) الفتح ، ٤٩١ .

(٢) نفسه ، ١٧٤ .

(٣) نفسه : ٢٠٥ .

(٤) نفسه : ١٥٧ .

(٥) نفسه : ٤٨٥ .

كما فعل مع الأسرى من ملوكهم بعد معركة حطين ، فقد أجلس الملك بجانبه وكان يلهث من الظمأ ، فأنسه وحاوره وهدأ من روعه وأسقاه ماءً مثلوجاً^(١) .

ومثل ذلك ما فعله مع صاحبة الكرك التي جاءت بعد فتح القدس تطلب فك أسرها ولدها ومعها زوجة ابنها ، ابنة الملك ، ويصور العماد استقبال السلطان الحسن فيقول : « فأكرم السلطان وفادتهن ووفّر أفادتهن وقرب إرادتهن وقرر زيادتهن ووهب لهن ولاتباعهن وأشيعاعهن ما كان يلزمهن ويلزمهم من مال القطيعة، ووصلهن بصلاته الرفيعة »^(٢) .

وقصة الرضيع الذي اختطفه بعض جنود المسلمين من معسكر الصليبيين وردّه لأمه ، لهي من أدلّ المواقف وأبلغها على إنسانية السلطان ورحمته حتى مع الأعداء^(٣) .

(١) الفتح : ٨١ .

(٢) نفسه : ٢٠٦ .

(٣) نفسه : ٤٨٠ ، ٤٨١ .

- تصوير المعارك :

عُني العماد في نشره التاريخي عناية كبيرة بصورة المعركة ، فوضع كتاباً خاصاً تحدّث فيه عن معارك صلاح الدين التي انتهت بتحرير القدس ، والساحل الفلسطيني ، وما سبق هذا الفتح من معارك وما تلاه من تخليص الكثير من الحصون من أيدي الصليبيين ^(١) . واشتمل كتاب البرق الشامي على معظم الوقعات والمعارك التي حدثت بين عام ٥٦٢هـ - وعام ٥٨٩هـ ، سنة وفاة صلاح الدين ، وتعدّ هذه الفترة من أهم فترات الصراع بين المسلمين والفرنجة ، وفيها وقعت أكبر المعارك ، وأكثرها شدة مثل : معركة حطين ، وتحرير بيت المقدس ، وجرت فيها معارك أخرى برية وبحرية ، وكان العماد شاهد عيان على كثير من هذه الوقائع كما يظهر من قوله : « وكنت في جماعة من أهل الفضل قد ركبنا في ذلك اليوم ، ووقفنا على التل نشاهد الوقعة ، ومنتظر ما يكون من القوم . وما ظننا أن القوة تهى ، وأن الواقعة إلينا تنتهي ، فلما خالطونا في المخيم ، وباسطونا في الجثم ، وكنا على بغال ؛ بغير أهبة قتال ، استدركنا أمرنا ، وأخذنا منهم حذرنا » ^(٢) .

- المعركة البرية :

نجد في نشر العماد صورة مفصّلة للمعركة بمختلف أشكالها ، إذ يصور المعركة تصويراً دقيقاً بكل جوانبها ومراحلها وأبعادها ونتائجها ، ويسير في وصفه للمعركة مع تسلسل أحداثها ، فيبدأ بالحديث عن الخطط وإعدادها ، وما تتطلبه من إعداد مادي ومعنوي ، ثم يتحدث عن استعراض الجيش وتعبئته المعنوية ، وإذا ما انتهى من الحديث عن التخطيط والاستعراض فإنه يصف الجيش متحركاً إلى أرض المعركة ، وإذا ما نزل فإنه يصف نزوله واستعداده للمعركة بنصب المنجنيقات ، وأخذ المواقع وتقسيمه إلى فرق ، تأخذ كل فرقة مكانها استعداداً للخطوة اللاحقة ، والتي غالباً ما تكون مبارزات بين الفرسان ، ثم تأتي الخطوة الحاسمة في المعركة وهي الالتحام بين الفريقين ويكون الحديث عن هذه الخطوة مفصلاً ، وفيه ميل إلى التهويل والمبالغة لإظهار شدة المعركة ، والخطوة

(١) الإشارة هنا إلى كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي .

(٢) نفسه : ٢٠٩ .

الأخيرة هي تصوير النتائج ، ويكون الحديث فيها موجهاً لوصف حالة المنهزمين ، والآثار التي تركتها المعركة على الجانبين .

قبل أن تكون المعركة أحداثاً على الأرض ، ما هي إلا فكرة في ذهن القائد يعمل على تنفيذها من خلال خطة يرسمها ويسير عليها .
وفي نشر العماد نماذج كثيرة لمعارك بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة ، نقلها إلينا العماد وفق تسلسل أحداثها ، وأعطى كل مرحلة ما تستحقه من الوصف .

لقد اهتم العماد بالحديث عن الخطط الحربية ، وبيان استعداد القائد قبل المعركة ، وما يقوم به من تقسيم الجيش إلى فرق وأطلاب ، وبيان المهام الموكلة إلى كل فرقة . يقول في وصف استعداد السلطان لدخول ديار الفرنج : « ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ويؤبه تبويهاً ، ويعبئه بعيداً وقريباً ، وقرر لكل أمير أمراً ، ولكل مقدم مقاماً ، ولكل موفق موقفاً ، ولكل كمين مكاناً ، ولكل قرين قريناً » (١) .

ويبين العماد ، ضمن الاستعداد والتخطيط للمعركة ، ما يقوم به القائد من تحديد مواقع أمراء جيشه ، ودعوتهم إلى الالتزام بهذه المواقع ، كما يبين لهم خطة الهجوم ، والهيئة التي سيكون عليها الجيش عند دخول بلاد الأعداء ، يقول موضحاً ذلك : « وعيّن لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ، ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه ، وأخرج الجاليشية الرماة الكماة من كل طلب ، ووصى كل حزب بما يقربه من حزب . وقال : « إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا ، وصورة مواردنا ومصادرنا ومواضع أطلابنا ومطالع أبطالنا ومصارع أسنتنا وشوارع أعنتنا وميادين جردنا وبساتين وردنا » (٢) .

واستكمالاً لحالة الاستعداد ، فإننا نجد في حديث العماد عن المعارك وصفاً لتسليح الجيش وإمداده بالعدد اللازمة ، وما يلزمه من الجياد والدواب والأموال والميرة ، فنراه يقول : « وقوى الآمال بما بذله من الأموال ، وحقق في إنجاز المواعد وإنجاح المقاصد رجاء الرجال ، وجمع العدد وفرق العدد ، وهب الجياد وأجاد المواهب ، ورغّب في العطايا وأعطى الرغائب ، ونثر الخزائن ونثّل الكنائس ،

(١) الفتح : ٦٩ .

(٢) نفسه : ٧٠ .

وأنفق الذخائر واستنفذ كرائمها والأخاير ، وقسم أحمال النشأب فتفرق الناس منه بأكثر من ملء الجعاب «^(١) .

وبعد أن يطمئن القائد إلى أن حالة الاستعداد قد اكتملت ، وأن الجيش في حالة مادية ومعنوية تسمح له بالتحرك ؛ يُعطي الإشارة بالرحيل ، وكان رحيل السلطان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الآخر ، وسار الجيش وفق النظام والهيئة التي تقدم ذكرها ، من المقانب المقلبة ، والكتائب المكتبة ، والمراتب المرتبة^(٢) .

ومن الخطط الحربية التي يحدثنا عنها العماد ، خطة صلاح الدين في معركة حطين ؛ فقد وصف لنا كيف رتب السلطان أطلابه في مقابلة الأعداء ، وحجز بينهم وبين الماء ، يقول واصفاً تلك الخطة الناجحة : « فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه ، وقصر على مقاتلتهم آرابه ، وحصل بعسكره قدامهم ، وحجز بينهم وبين الماء ، ومنع ذمامهم على الوفاء ، وحلأهم عن الورد ، وصدعهم بالصد «^(٣) .

والمرحلة الثانية من مراحل المعركة هي مرحلة التحرك والمسير للملاقاة الفريق الآخر ، ويحرص العماد في هذه المرحلة أن يظهر الجيش المتحرك قوياً عظيماً كثير العدد ، وهو لا يقول ذلك مباشرة ، بل يلمح إليه من خلال وصف الأسلحة ولمعانها ، وكثرة العجاج والغبار الذي يرافق حركة الجيش ، يقول واصفاً نزول جيش السلطان على حصن بيت الأخوان : « فخرجنا في جيش فض بالفضاء ختام قتامة ، وورد على الأصباح بإظلامه ، وأثرنا الإثارة في جوى الجو غرام رغامة «^(٤) .

ويصف حركة جيش (تقي الدين عمر) إلى (تبنين)^(٥) بأوصاف تثير الدهشة في النفس وتبعث على الرهبة ، يقول : « وتحرك السواد كمهيل النقا ، واشتبك على الآساد غيل القنا ، وسالت الأودية بالسباحات العتاق ، وطالت على السير

(١) الفتح : ٧٠ .

(٢) نفسه : ٧١ .

(٣) الفتح : ٧٨ ؛ وانظر عن الخطط الحربية : البرق الشامي ، ٣ ، ١٦٢ .

(٤) البرق الشامي ، ٣ ، ١٧٥ .

(٥) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطللة على بلد بانياس بين دمشق وصور . (معجم البلدان ، ١٤/٢) .

أعناق الإعناق ، ومالت إلى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق «^(١) .
كثّف العماد هذه الصورة وعبرَ فيها عن ضخامة الجيش الإسلامي فكثى
بتحرك السواد عن الجيش العظيم المتحرك إلى المعركة وشبّه اندفاعه بانهيال
التراب ، وشبّه رماحه لكثرتها بالأشجار الملتفة ورجاله بالأسود في غابها ، فجرت
بهم الخيول كأنها المياه المتدفقة في أوديتها ، وسيوفه الرقاق تميل إلى أعناق أهل
الكفر لتثار للإسلام منهم .

ويصف تحرك الجيش الصليبي إلى المعركة ، ويستخدم في وصفه أكثر
الألفاظ دلالة على ضخامة هذا الجيش وقوته .

يرمي العماد من هذا الوصف إلى إظهار الخطر الحقيقي الذي يمثله الجيش
الفرنجي على المسلمين من جهة ، وإلى تعظيم دور الجيش الإسلامي حين يحقق
النصر على مثل هذا الجيش .

يقول في وصف الجيش الصليبي المنطلق إلى طبرية : « والفرنج سائرون
إلى طبرية بقضهم وقضيضهم ... وهم كالجبال السائرة ، وكالبحار الزاخرة ،
أمواجها ملتطمة ، وأفواجها مزدحمة ، وفجاجها محتدمة »^(٢) .

والمرحلة الثالثة من مراحل المعركة كما يصورها العماد ، هي مرحلة اللقاء
واحتدام القتال ، وفيها يفصل القربل إذ يصف حركة الخيول السريعة بين الكرّ
والفرّ ، ويصف وقع السهام وتشاجر الرماح وصليل السيوف ومجالدة الفرسان
ومصارع الرجال . ويجتهد العماد في إظهار المعركة بصورة مهولة مخيفة ، فنراه
يقول مصوراً اللقاء بين الفريقين في معركة حطين مركزاً على دور الأسلحة :
« وانتبهت في الجفون الصوارم ، والتهبت في الضوامر الضوارم ؛ وتيقظت
الأوتار ، وتغيظت النار ، وسل الفرار^(٣) ، وسلب القرار ؛ وخرج الجاليشية^(٤) ،
تحرقت بنيران النصال أهل النار ، ورنّت القسي ، وغنت الأوتار ، ورقصت مران^(٥)
المراد ، لجلاء عرائس الجلال ، وبرزت البيض من ملانها في الملاعارية ، ورتعت

(١) الفتح : ٩٩ .

(٢) نفسه : ٧٧ .

(٣) الفرار : حدّ السيف (اللسان) .

(٤) الجاليشية : مقدمة الجيش (السلوك) ج ١ ، ق ٢ : ٦٢٨ .

(٥) مران : الرماح الصلبة (اللسان) .

السمر لكئها من الكلى راعية^(١) .

وبعد الحديث عن الأسلحة يحدثنا العماد عن مصير الفرنج وما آل إليه حالهم، وتغير أحوالهم ، وما لحق بهم من ذلّ وصغار ، ويصور اضطرابهم أمام المسلمين بعد أن دارت عليهم الدوائر ، يقول : « فقد شوتهم نار السهام ، وأشوتهم وصممت عليهم نار القسي القاسية وأصمتمهم ، وأعجزوا وأزعجوا ، وأخرجوا وأخرجوا ، وكلما حملوا ردّوا وأردّوا ، وكلما ساروا وشدّوا أسروا وشدّوا ، وما دبّت منهم نملة ولا ذبت عنهم حملة ، واضطرموا واضطربوا ، والتهفوا والتهبوا ، وناشبههم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ ، وضايقتهم السهام ، فوسعت فيهم الخرق النافذ^(٢) . وفي موقع آخر يصف العماد خروج الصليبيين والطريقة التي تصدى بها المسلمون لهم ويطلق العنان لقلمه في وصف مجريات المعركة مهتماً بما يصدر عنها من أصوات بشكل خاص ، ويبدأ وصف المعركة بتحديد الزمن الذي خرج به الأعداء وهو قبل العصر ، ويصف هيئة خروجهم وكثافتها ، فيقول : « وخرجوا يوماً قبل العصر في عدة كالليل خارجة عن الحصر فتلقاهم منا كل ضارب للهام ، ضارب بالحمام ، جار إلى الإقدام »^(٣) . ثم يصف ما جرى خلال المعركة وصفاً يعبر عن احتدامها كما يبدو من خلال الأصوات الصادرة عنها إذ تختلط بأصوات الأبطال همهمتهم وزئيرهم كأنهم الأسود بقرع الظبا وجعجة رحي الحرب وهفيف السهام، وحين تقرأ وصف العماد فإنه ينقلك إلى ساحة الوغى فتطرق أسماعك تلك الأصوات التي يقول عنها : « فلم يسمع إلا أنين الحنية لحنين المنية ، ورنين الأوتار، من كنين الأوتار ، وهفيف السهام لوفيف اللهام ، وهممة الأبطال ، وغمغمة الإقتال ، وزئير الضرعام ، وزفير الضرام ، وقرع الظبا بالظبا ، ووقع الشبا على الشبا ، وضجة الحديد من الحديد ، وعجة الشديد من الشديد ، وجعجة رحي الحرب ، وقعقة أداة الطعن والضرب »^(٤) .

وفي المرحلة الأخيرة من المعركة يصور العماد النتائج ، وهي إما نصر أو هزيمة ، وما يترتب على الحالتين في كل جانب ، من أوصاف مادية ومعنوية تناسب

(١) الفتح القسي : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) نفسه : ٧٩ ؛ وانظر مثلاً آخر في البرق الشامي : ١٦٨:٣ .

(٣) الفتح القسي : ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٤) نفسه : ١٦٥ .

حالته ، وفي معظم المعارك التي صورها العماد في نثره يظهر الصليبيون وقد ولوا الأدبار أمام المسلمين ، ولحق بهم الذل والهوان ، وهم بين أسير أو قتل . وبالمقابل فإن العماد يصور المسلمين وقد ازدهوا بالنصر ، وغمرتهم الفرحة بما تحقق لهم من الانتصار على أعدائهم . وهذه معركة حطين يصف نتائجها فيقول مبيناً هزيمة القومص : « ولما أحس القومص ^(١) بالكسرة ، حسر عن ذراع الحسرة ، واقتال من العزيمة ، واحتال في الهزيمة ، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع ، واضطراب الجمر ، وامتداد الحرب ، واحتدام الحر ، فخرج لطلبه يطلب الخروج ... ، ومضى كومض البرق ، ووسع خطى خرقه قبل اتساع الخرق ... » ^(٢) . وتبع القومص في الهزيمة أتباعه ، بعد أن ضيق عليهم المسلمون الخناق ؛ وأحاطوا بهم إحاطة النار بأهلها ، فهرب من هرب ، ووقع في الأسر من لم يستطع الفرار . ويصف العماد نهاية هذه المعركة والأحداث التي دارت داخل معسكر الصليبيين ، ووقوع كبيرهم في الأسر ، يقول : « ثم استجرت الحرب ، واشتجر الطعن والضرب ، وأحيط بالفرنج من حوالهم بما حوا إليهم ، ودارت دائرة الدوائر عليهم ، وشرعوا في ضرب خيامهم ... وترجوا خيراً ، فترجلوا عن الخيل ، وتجلدوا وتجادوا ، فجرفهم السيف جرف السيل ، وأحاط بهم العسكر إحاطة النار بأهلها ... ، وأسِر الشيطان وجنوده ، وملك الملك وكنوده » ^(٣) .

ويمضي العماد في وصف نتائج المعركة فيصور الأسرى وقد استعرضهم السلطان ، وخاصة الملوك والأمراء والقادة ، يصف حالتهم المادية والمعنوية ، ما أصابهم من مذلة وهوان ، يقول : « وجلس السلطان لعرض أكابر الأسرى ، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . فقدم بدائه مقدم الداوية ^(٤) ، ومعه عدة

(١) القومص : هذا اللفظ تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes) أي الأمير (مفرج الكروب ، حاشية رقم ١ ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٢) الفتح : ٧٩ .

(٣) نفسه : ٨٠ .

(٤) الداوية : قوم من الفرنج حبسوا أنفسهم لقتال المسلمين ، وقد أطلق المسلمون هذا الاسم على فرسان المعبد (Templers) وأصبحت هذه الجماعة هيئة حربية دينية (الروضتين ، تحقيق حلمي ، حاشية رقم ١ ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨٤) .

كثيرة منهم ومن الاسبتارية^(١) . ويصف مقتل الابرنس أرناط على يد السلطان فيقول : « فلما دخل سرادقه ، استحضر الابرنس فقام إليه ، وتلقاه بالسيف فحلّ عاتقه ، وحين صرع أمر برأسه فقطع ، وجر برجله قدام الملك حين أخرج فارتاع وانزعج »^(٢) .

ويصف العماد في حديثه عن نتيجة المعركة جثث القتلى ، وما أصابها من تشويه ، ويفصل الحديث في وصفها وهو حديث يثير الهلع في النفوس ، يقول : « وحطت حطين تلك الجيف على متنها ، طلب نشر النصر بنتنها ، وعبرت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمأزرق ، مقطعة الهام ، موزعة الأقدام ، مفقوة العيون ، مبعوجة البطون ، مكسورة العظام ، مهتومة الأسنان ، سائلة الأحداق كأحجار بين الأحجار ، عبرة لأولي الأبصار »^(٣) .

وكان من نتيجة هذه المعركة كما يظهر من تصوير العماد لها وقوع أعداد كبيرة من الأعداء في الأسر ، حتى إن أطناب الخيم لم تكف لقيدهم وشدهم ؛ ويذكر العماد أنه رأى في حبل واحد ثلاثين أو أربعين يقودهم فارس ، وفي بقعة واحدة رأى مئة أو مئتين يحميهم فارس ، ويصور العماد هؤلاء الأسرى في حالة نفسية محطمة بائسة ، يقول في وصفهم : « والقوامص قنائص والفوارس فرائس ، ووجوه الداوية عوايس ، والرؤوس تحت الأخامص ... »^(٤) . وتتفق هذه الصورة مع ما تذكره الروايات التاريخية ، فقد ذكر ابن شداد أن القومص هرب إلى صور وأن المسلمين قد أحاطوا بالمشركين من كل جانب وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين ، فلم ينج منهم أحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له حطين ، فتابعهم المسلمون على التل وأشعلوا حوالهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون » ويضيف ابن شداد قائلاً : « ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي

(١) الاسبتارية : طائفة من الفرسان الدينيين تأسست سنة ١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس (مفروج الكروب ، حاشية رقم ٢ ، ج ١ ، ص ١٨٨) .

(٢) الفتح ، ٨١ .

(٣) نفسه : ٨٢ .

(٤) نفسه : ٨٣ .

بحوران شخصاً واحداً ومعه طناب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرحهم وحده لخدلان وقع عليهم «^(١) .

ويتخذ العماد من هزيمة الأعداء مادة للسخرية والاستهزاء بهم ، فيصورهم بصور مزرية تليق بوضعهم بعد الهزيمة ، بعد أن كانوا كالأسود أصبحوا كالغنم ، ولم ينجُ منهم إلا أقل القليل ، فقد توزعوا بين القتل والأسر ، « فقد امتلأت الأرض بالقتلى والأسرى ، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى ، وقيدت الأسارى بالحبال واجفة القلوب ، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال »^(٢) .

لقد تركت المعارك التي خاضها البطلان نورالدين وصلاح الدين أثرها الواضح على أدب العماد ، فجاء أدبه معبراً تعبيراً صادقاً عن الوقائع الحربية بمختلف أشكالها .

ومن هذه الوقائع وصف حصار الأسوار ، فقد كانت أغلب المعارك التي حدثنا عنها العماد تدور حول الحصون والقلاع لأن الصليبيين في ممالكهم كانوا يقيمون فيها ، وذلك لشعورهم بأنهم غرباء ، وأن المجتمع الذي يحيط بهم ليس مجتمعاً صديقاً ، فلا بد والحال كذلك أن يهتموا بالتحصينات لي شعروا بالأمن ، فقد حمتهم هذه التحصينات وحفظت مملكتاتهم ومكنتهم من مراقبة خصومهم بصورة مستمرة^(٣) .

لا تختلف المعارك التي تدور حول القلاع والحصون عن المعارك البرية إلا في مرحلة واحدة هي مرحلة الحصار ، وفي بعض الأسلحة المستخدمة لمهاجمة الأسوار . إذ تبدأ كأي معركة أخرى بالتخطيط ، ثم تحرك الجيش إلى أرض المعركة ، وعند وصول الجيش إلى الحصن المستهدف بالهجوم تُنصب المنجنيقات ، وتعد الأسلحة الأخرى اللازمة لمهاجمة الأسوار ، ثم تبدأ عملية نقب السور ومهاجمة الأبراج . ومن الأمثلة على حصار الحصون والقلاع : حصار السلطان صلاح الدين لحصن (بيت

(١) النوادر السلطانية : ٧٧ ؛ وانظر الروضتين ، ط. دار الجيل ، ٢ : ٧٥-٨٠ ؛ وانظر مفرج الكروب : ١٨٨-١٩٤ .

(٢) الفتح القسي : ٨١ .

(٣) فولفغانغ مولر-فينر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة محمد وليد الجلال ، دار الفكر بدمشق ، ط ٢ ، ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٠ م ، ص ٩٠ .

الأحران^(١) سنة ٥٧٥هـ^(٢) ، فقد تتبع العماد أحداث هذه المعركة من لحظة استعداد السلطان وتهيئة الجيوش ، حتى سقوط الحصن بيد المسلمين .

وقد بدأ الحديث عن هذه المعركة بوصف الجهود المبذولة لحشد الجيوش من مصر وبلاد الشام ، والاجراءات التعبوية ، وهذه خطوات في إعداد خطة المعركة ، يحرص القائد العسكري على إنجازها قبل الدخول في المعركة ، وهذا ما فعله السلطان قبل المسير إلى الحصن كما يذكر العماد . ولذا فإنه حين ينطلق إلى المعركة ينطلق بجيش قوي ، يملك كامل القدرة على القتال . ويطلق العماد في وصف ذلك الجيش العنان لقلمه فيصف رجاله وسلاحه وخيوله وروحه المعنوية وضخامته . وعندما يصل الجيش إلى الحصن ، فإن العماد يصف لحظات الوصول بعبارات تشير إلى ضخامته ، فقد كانت الأيام التي وصل فيها كأنها الليالي من ظلمة الغيّر ، والليالي كأنها الأيام من سنا النور^(٣) . وبعد أن يصل الجيش ، يصف العماد نزوله على الحصن وأخذة المواقع بالقرب من أسواره ، يقول : « وجعلنا البرج مركز دوائر المخيم ، ورميناه من نزالنا ونزولنا بالصيلم ، واحتفى الفرنج وامتلا بهم البرج ، وضاق بالعسكر ذلك المرج ، ورفعنا على تلك الآكام آكاماً من المخيم ، وعقدنا بالجو ركاماً من أنفاس تلك الأمم ... الخ »^(٤) .

وبعد النزول ، يبدأ نصب آلات الحصار ، وتهيئة ما يلزم هذه الآلات من حجارة وأخشاب ، وتسوية الأرض حول الأسوار ، وهذا ما قام به السلطان صلاح الدين صبيحة اليوم الثاني من وصوله إلى مخاضة بيت الأحزان ، إذ ركب يوم الأحد إلى (صفد)^(٥) وأمر بقطع كرومها ، وحمل زرجونها^(٦) وأخشابها لينصب

(١) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل . كان الفرنج عمروه وبنوا به حصناً حصيناً ، فنزل عليه الملك الناصر يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٥هـ ففتحته وأخربه (معجم البلدان ٥١٩/٨) .

(٢) انظر حول فتح هذا الحصن ، محمد بن تقي الدين شاهنشاه ، مضمان الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشي ، عالم الكتب ، ١٩٦٨ ، ص ٢٤-٣١ .

(٣) البرق الشامي ، ج ٢ ، ١٧٦ .

(٤) نفسه : ج ٢ ، ١٧٦ .

(٥) صفد : مدينة في جبال عاملة المطللة على حمص بالشام ، وهي من جبال لبنان (معجم البلدان ٤١٢/٣) .

(٦) الزرجون : كلمة فارسية معناها شجر العنب ، كل شجرة زرجونة (الجواليقي ، المغرب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طهران ، ١٩٦٠ ، ص ١٦٥) .

المجانيق .

ومن الخطوات المهمة في الحصار عملية نقب الأسوار وفتح فجوات فيها ليتسنى الدخول إليها ، وفي حصار هذا الحصن جمع السلطان الأمراء والكبراء لتنفيذ هذه المرحلة ، وقسم عليهم البناء . وقد وصف العماد هذه الخطوة فقال : « ثم جمع الأمراء والكبراء وفرّق عليهم البناء ، فأخذ عزالدين فرخشاه الجانب القبلي ، وجمع عليه الصناع والنقابين والحجارين ، وجاء الخرسانية وراء الجفاتي^(١) جارين ولاثقها جارين . وأخذ (ناصر الدين محمد بن شيركوه)^(٢) بقربه نقباً ، وأقام له فيه حرباً ، وأقرّ تقي الدين له قسماً ، وحدّ عليه عزمًا ، وكذلك كل كبير شرع في طرف ، وأخذ العمل فيه بسرعة وسرف ، والفرنج من فوقهم على السور ووراء الستائر يرمون بالفواقر ، ويصوبون الجروح^(٣) ، ويرومون لعقود الخطوب الفسوخ^(٤) . »

وفي وصفه لنقب سور حصن بيت الأحزان يظهر ما يلقاه النقابون من صعوبات بتعابير يغلّب عليها التأثير بالقرآن الكريم ، فيقول : « وكان الحصن جديد البناء رطبه ، شديد التآتي صعبه ، يعسر على النقاب إخراج حجره ، وإظهار مضمرة ، كأنما أفرغ من حديد ، وقد أوى الكفر منه إلى ركن شديد^(٥) . »

وبعد إحداث النقب في السور تبدأ مرحلة أخرى من مراحل الحصار ، تتمثل في حشو النقب بالحطب وإشعال النار فيه ، وهذا ما تمّ في النقب الذي أحدثه السلطان في السور ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح في إحداث الفجوة المطلوبة ، فكان لا بد من معاودة النقب ثانية ، وتطلب ذلك تبريده بالماء ، فبذل المسلمون جهداً كبيراً لتبريده ، وعاد النقابون إلى عملهم ، وتمكنوا من تحقيق هدفهم ،

(١) الجفاتي : حبال عظيمة مصنوعة من القصب (دوزي : تكملة المعاجم العربية ، ترجمة محمد سليم النعيمي ، ج ٢ ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص ٢٢٩ .

(٢) محمد بن أسد الدين شيركوه ، ولقبه ناصرالدين ابن عم زين الدين ، كان السلطان يخافه لأنه كان يدّعي أنه أحق بالملك منه ، وهو زوج أخت السلطان ست الشام ، كانت وفاته بحمص سنة ٥٨١هـ (مرآة الزمان ، ق ١ ، ج ٨ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦) .

(٣) الجروح : مفردتها جرح ، وهي آلة حربية ترمى عنها السام والنفط (دوزي تكملة المعاجم العربية ، ١٧٤:٢ .

(٤) البرق الشامي : ١٧٨:٣ .

(٥) نفسه : ١٧٩:٣ .

فانهدم جانب السور ودخل المسلمون الحصن وتحقق لهم النصر ، وبعد انتهاء المعركة يبرز العماد أهم نتائجها ، فيصور السلطان وقد عاد إلى خيمته مُنتشياً بالنصر مسروراً ، ويصف أرض المعركة وما انتشر فيها من جثث القتلى ، وما قام به الجيش الإسلامي من تدمير للحصن ، فقد أزالوه من أساسه ولم يُبقوا له أثراً^(١) .

◀ هذه هي أبرز المراحل في معارك القلاع والحصون ؛ كما وردت في نثر العماد التاريخي^(٢) . وتختلف هذه المعارك عن المعارك البرية في بعض جوانبها ، مثل السلاح وطريقة الهجوم ، واستخدام بعض الأدوات الخاصة ، بنقب الأسوار ، وكذلك استخدام الحطب والنار والنفط ، ومشاركة بعض العمال المدربين على نقب الأسوار ، وصنع الأبراج .

يهتم العماد في وصف معارك الحصون والقلاع بوصف الأسلحة المستخدمة في هذه المعارك ، وخاصة ما كان منها شديد التأثير في التحصينات مثل المنجنيقات ، فقد حظي هذا النوع من الأسلحة المستخدم في مهاجمة الأسوار بعناية العماد وخصّه بالكثير من الأوصاف فقال في إظهار أثره عند حديثه عن فتح عسقلان : « فأقام السلطان عليها مجانيق ، مجت نيقها ، وفرجت بالحجارة طريقها ، ورجت بالتفريق فريقها ، ووسعت بالتضييق ضيقها ، وأضعفت بالتوثيق وثوقها ، وجمعت شمل الحجارة بالنار التي وقودها الناس والحجارة »^(٣) .

وفي حصار بيت المقدس ، يصف العماد المجانيق بأوصاف تكشف عن دورها الفاعل في المعركة ، فهي كما يقول : كالمجانين ، وهي أمأت الدواهي ، والمنايا ، وحوامل تلد البلايا ، وسهامها لا تخطر إلا بالخطر ، وتصدم وتهدم ، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها ، وتفل شمل المباني بتفريقها ، وتبيدها وتقوض القواعد بضربها من أساسها^(٤) .

(١) البرق الشامي : ٣٠ : ١٨٠ .

(٢) انظر حول هذا الموضوع البرق الشامي ١٥٣:٥ ؛ الفتح القسي : ١٠٤-١٠٧ ، ١٢٢-١٢٩ .

(٣) الفتح ، ١١٣ .

(٤) نفسه : ١٢٥-١٢٦ ؛ وانظر الصفحات من المصدر نفسه ١٦٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ ، ٤٧٩ .

وللأبراج دور مهم في هروب الحصون وفي اقتحام الأسوار ، إذ تسهل على المهاجمين الذين بداخلها الوصول إلى السور واقتحام المدافعين عنه ، وتصنع الأبراج من الخشب ، وقد استخدمها الصليبيون في مهاجمة أسوار عكا سنة ٥٨٥هـ. وقد وصف العماد طريقة إعداد هذه الأبراج فقال : « وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار ، شرعوا في عمل الأبراج الكبار ، وركبوا من الأخشاب الطوال ، والعمد الثقيل ، وبنوها وقدموها ، ونصبوها ، وأحكموها ، وسقفوها طباقاً ، وسمروها بالحديد ، وجعلوا لها منه أطواقاً ، ووثقوها شداً ، وشدوها وثاقاً ، ولبسوها بالسلوخ ، وملأوها بالجروخ ، وزحفوا بها إلى السور ، وكشفوا بالرمي منها بعض سقوف الدور » (١) .

وفي الحديث عن مهاجمة الأسوار يصف العماد طرق مقاومة الأبراج وإحراقها من المدافعين المحاصرين ، ففي حصار عكا يسوق العماد وصفاً لما دبره المسلمون في عكا لإحراق أبراج الفرنجة التي تهاجم أسوار المدينة ؛ يقول العماد في وصف الخطة التي دبرها عريف النحاسين في دمشق : « ... فلما وجد الأذن وزن القدور وعيَّرها ، ورمى بواحدة منها إلى أحد الأبراج في المنجنيق وعيَّرها واعتبرها ، ثم لما استتوت رمايته ، وصحت في الإصابة درايته ، رمى بقدور نطف لا نار فيها ، وهو يصبها على أعالي البروج ويسقيها ، والفرنج يعجبون من البلل ، ولا يدرون بما وراءه من الشعل ، ثم قذف بقدور نارية متشعبة بكل بليّة ، فوقعت في الطبقة الوسطى ، ورمى أخرى فوقعت في السفلى ، فاشتعل البرج من طرفيه الأدنى والأعلى ، وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص ، وكانوا سبعين فاحترقوا أجمعين » (٢) .

ومن آلات الحصار الأخرى التي يصفها العماد آلة الدبابة (٣) ، وقد استخدم الصليبيون هذه الآلة في حصار عكا سنة ٥٨٥هـ ، وقد وصف العماد هذه الآلة ووصف شكلها وأثرها المدمر على الأسوار ، فقال : « واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة وآلة للغوائل غائلة ، في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش ، وله قرنان في

(١) نفسه : ٣٦٧ .

(٢) نفسه : ٣٧١ .

(٣) الدبابة : آلة حربية عبارة عن شبه برج متحرك كبير يتحرك على عجلات ، يصعد الجنود إلى طبقاته لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار (السلوك ، ج ١ ، حاشية ٥ ، ص ٧٨) .

طول رُميه كالعمودين الغليظين ، أقفال الأسوار المغلقة بها تُفَش ، فكم سور إذا
نطحته طحنته ، وكم معقل حصَّنه الدهر حصته وصحنته « ، ويصف بناء آلة
الدبابة فيقول :

وهذه الدبابة في هيئة الخريشت الكبير ، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة
الحديد ، وكملوا لها أسباب الإحكام الشديد ، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد
بالنحاس ، وكسوها حذراً عليها من النار سائر لباس الباس ، فلم يبق للنار إليها
سبيل ، ولا للعطب عليها دليل ^(١) .

- المعركة البحرية :

كان البحر ميداناً شهد معارك ضارية بين الفريقين ، فقد اهتم الصليبيون
بركوب البحر لأنه وسيلتهم للوصول إلى البلاد الإسلامية ، كما أنه سبيلهم للتنقل
فيما بين مناطق نفوذهم في مصر وبلاد الشام ، وكان للمسلمين في مصر أسطول
شارك في المعارك الدائرة بين المسلمين والصليبيين ، وقد أولاه قادة الجهاد ما
يحتاج إليه من الاهتمام ، وجهزوه بما يلزمه من عدَّة وعتاد ليوقف في وجه أساطيل
الصليبيين ، وقد صورَّ العماد في نشره الأساطيل البحرية ، والأسلحة المستخدمة
في القتال البحري ، وما جرى بينها من المعارك .

ومن المعارك البحرية التي وصفها العماد ، معركة بين أسطول (أرناط)
صاحب الكرك ، وأسطول مصر ، سنة ٥٧٨هـ ، فقد عمل أرناط في هذه المعركة على
صنع السفن عنده في الكرك ، ثم نقل أخشابها على الجمال إلى ساحل البحر
الأحمر ، وملاها بالرجال والسلاح ، ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة في
(أيلة) ^(٢) . وانطلقت بقية المراكب إلى (عيزاب) ^(٣) ، فقطعت طريق التجار ، وشرعت
في القتل والنهب والأسار ، وتوجهت بعد ذلك إلى أرض الحجاز : « ثم توجهوا بعد
ذلك إلى أرض الحجاز ، فتعذر على الناس وجه الاحتراز ، فإنه لم يعهد في ذلك

(١) الفتح ، ٤٣٢ .

(٢) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم بما يلي الشام ، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام (معجم البلدان
٢٩٢/٨) .

(٣) عيزاب : بُلَيْدَة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد (معجم البلدان
١٧١/٤) .

البحر طروق الكفار ولا تأجج في لجة شرار الأشرار ، فعظم البلاء واعضل الداء ، واستشيري الشر ، وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر ، وأصيبوا بالنفيسين من وطن ووطر ، وخافت السواحل حلول الأسواء ، ونزلت بالبلاد نوازل البلاء ... الخ»^(١) .

ولما وصل الخبر إلى الملك العادل في مصر ، شرع في تجهيز الأسطول المصري، وأمر عليه أحد القادة المشهورين وهو (حسام الدين لؤلؤ)^(٢) ، وجهاز المراكب بالرجال من ذوي البأس والشدة والشجاعة والقوة ، وانطلق الأسطول الإسلامي في أثر أسطول الفرنجة ، فظفر بمركب للفرنجة عند أيلة ، ثم لحق بالمراكب الأخرى عند عيذاب ، وهنا يصف العماد ما فعله المسلمون بمراكب الأعداء ، دون أن يصور المعركة بين الطرفين ، يقول : « ... وقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها ، وقطع قطعها ، ونسف بريح بانسة سفنها ، وأزارها وهي هاوية وهيها ووهنها . فخرجت إلى بعض سواحل البرية بشعابها محتمية ، وفي تلالها مرتقبة ، وبقतालها مبتدئة ، ومن اغتيالها مختشية ، فلم يزل الحاجب لؤلؤ ناكبه مراكبها ، راكبه مناكبها حتى أزالها ، وفلّ فلها وأشلها وشلأها ، وهجم على كثرتها فاستقل إليها واستقلها »^(٣) .

اعتمد طرفا الصراع في الحرب على الأساطيل في مهاجمة المدن الساحلية ، وكانت هذه المدن تحتفظ ببعض القطع البحرية لغرض الدفاع عن نفسها ، وفي حديث العماد عن المعارك البحرية ، أولى الأسطول الإسلامي أهمية خاصة ، فقد وصف سفنه ورجاله بأوصاف تبعث في النفس الإعجاب بمستوى تجهيزاته وأسلحته واستعداده الدائم لخوض المعارك . يقول في وصفه : « وسفننا بالساحل عندنا مربوطة ، وبحفظنا محوطة ، ودامت تدب عقاربها ، وتذب سواربيها ... وتطير للقنص بزاتها ... وتلاطم الأمواج بأمواجها ، وترفع شرع الهدى بشرعها ، وتقلع عرش الغواة بإقلاعها ، وتنقض على شياطين الكفر شهبها ... » ويقول في قوة وشجاعة أبطالها : « فكأنها الأسود السود ، ركبتهما الأسود ، من كل أفعوان

(١) البرق ، ج ٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، من جنود الفاطميين ، أصبح مقدم الأسطول في زمن صلاح الدين ، اشتهر بالشجاعة والإقدام ، توفي سنة ٥٩٦ هـ ، ودفن في القاهرة (الكامل لابن الزثير ، ج ١١ ، ص ٤٩٠) .

(٣) البرق ، ج ٥ ، ٧٠ ، ٧١ .

يحملة أفعاون ، وشجاع امتطته شجعان » . ويضيف مصوراً وسائل القتال المستخدمة في الأساطيل : « وقد ملئت برماة الحدق ، وحماة الحلق ، وزارقي النار ، وطراقي الثار والخطاطيف ، والقاذفين بالمقاذيف ، والكالبين بالكلايب ... » .

وعند الحديث عن نتيجة المعركة فإن الهزيمة من نصيب الأعداء ، والنصر لأسطول المسلمين ، ويوظف العماد الهزيمة توظيفاً ساخراً للحط من الروح المعنوية للأعداء ، وتقوية الروح المعنوية عند المسلمين ، فيقول مبيناً ما أحدثته السفن الإسلامية في سفن الأسطول الصليبي في إحدى الرقعات : « فانشقت مرائر الفرنج ، وأزاحت سفنها عن النهج ، وقرنصت بزاة البيزانية ، وتقلصت جناة الجنوية ^(١) وكرثت أدواء الداوية ، وكثرت أسواء الاستبارية ، وزادت آلام الألمانية وعادت أسقام الفرنسية ، وصارت مراكبهم في المينا لا تبين ، وشدتهم بشد شوانينا لا تكاد تلين » ^(٢) .

يقدم العماد في بعض المواقف صورة مفصلة لمجريات المعركة البحرية ، ويبين كيف تدور أحداثها ، ولن الغلبة فيها ، مستخدماً الجمل القصيرة المسجوعة ، ومستعيناً في الإفصاح عن نفسه بالصور البيانية ، فنراه يقول في تصوير أحداث معركة بين أسطول السلطان صلاح الدين وأسطول الفرنجة في حصار عكا : « ... فصدمتها مراكبنا بمناكبها ، وملأت معاطفها بمعاطبها ، واستطال الأسطول المنصور على أساطيلها ، وجاء حقه بإزهاق باطلها ، وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوماً ، وقذفت لشياطين الكفر رجوماً ... وقطعت بأشباه أمواجها ، وسدت فجاجها بأفواجها ، ونكست أعلام الأعلام عن أثباجها » ^(٣) .

ويحدد العماد في حديثه الأسلوب الذي تم فيه هجوم الأسطول الإسلامي على الأسطول الصليبي ، وهو أسلوب المباغنة ، وقد حقق نتائج إيجابية على ساحة المعركة ، يقول في وصف أسلوب الهجوم : « فجاءت فجاءة وسفن العدو كالجبال تمرّ مرّ السحاب ، وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب ، فصدتها وصدعتها وروتها وروعتها ، فكأنما نعبت غربانها بين أحبة الكفر أعاديها ، وأناخت ظعائن الضغائن

(١) الجنوية : أهل مدينة جنوه في إيطاليا .

(٢) الفتح ، ١٦٠ ، وانظر كذلك المصدر نفسه ، ١١٣ .

(٣) نفسه : ١٦١ .

على شواني شوانيتها ... الخ » .

ويختم العماد حديثه عن هذه المعركة بتحديد نتائجها ، وهي نتائج أدخلت البشر والسرور في نفوس المسلمين لانتصارهم في هذه الموقعة كما يقول : « وتفرقت سفن الفرنج أيدي سباً ، وأصلد زندهم وكبا ، وعادوا محصورين محسورين ، قد دفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم ، وأيقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم ، وسيرت بوصول الأسطول كتب إلى الأقطار ، وبُشر المسلمون بما حصل بها من الاستظهار » ^(١) .

ومن المفيد عند الحديث عن المعركة في نشر العماد التاريخي ، أن نقدم نموذجاً مكتملاً للمعركة لكي تكتمل الصورة ، وتحقيقاً لذلك ، فإن النص التالي الذي يتحدث عن معركة مرج عيون ، سيكون النص النموذج في هذه الدراسة .

(١) الفتح ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، وانظر الصفحات : ٢٣ ، ٢٣١ ، ٣٨٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

ذكر وقعة مرج عيون ونصرها

وكسر الفرنج وكسر مقدميها وأسرها^(١)

ولما نهض أصحابنا تلك الليلة وأدلجوا ، وخاضوا بحر الظلام ولججوا ،
وامتدوا وأبعدوا ، وتعلقوا وتزودوا ، أصبح السلطان يوم الأحد راكباً ومعه
صمصام الدين أجك والي بانياس مصاحباً في موكب خفيف وجمع غير كثيف ،
ووقف على الطريق ، وسأل الله حسن التوفيق ، فوجد في تلك الغياض أبقاراً
جافلة ، وسروحاً عن مراتعها زائلة ، وجاءه بعض الرعاة ، وأخبر أنه شاهد عساكر
العداة ، وأنهم عبروا بالقرب ، على قصد المتعلقة بالنهب والحرب ، فعجب
السلطان من هذا الخبر واستبعده ، وقال : لو كان للفرنج قصد لجاننا الجاسوس عن
العدو وأوضح لنا جده ، وذكر عدده وعدده . فما صدق الخبر حتى جاء من أوائل
العسكر من ارتاع ، وعجل في العود الإسراع . فجاء السلطان إلى المخيم وقت
الظهر ، ففتاء لنا به للظهور ، ونادى في متخلفي مماليكه وخواصه بالحضور .
وكانت في اسطبله خيل عراب شددت للتضمير ، وجياد عتاق أعدت ليوم النفير ،
فبذل مصونها وأصفي لخواصه صفونها ، وقال : اركبوا وأدركوا العدو وانكبوا ،
وعن قصد لقائه لا تنكبوا . وما زال ينهض محرباً ، ويقنب متقنباً ، حتى انتظمت
له كتيبة شهباء ، وبهمة دهماء ، ولاحت له في غرة النصر وهي بيضاء ، وسقى
بماء المنون لها ذمه وصوارمه وهي حمراء ، وساروا ليلة العجاج في يوم الهياج
سوداء ، والخضراء من وقع الحوافر ونقع الحوافر غرباء . وهاج كما ماج الدأماء ،
وتلالات خرصانه كما تزينت بالزهر السماء ، وجزت بالجبال الرياح ، وقلقت في
أشباح الغمود الأرواح ، ونزعت عرائس البيض إلى خضابها ، واشتاقت شفاه
الشفار من مرافق الطلا إلى رياضها ، واشتارت ذئب الطيبي ضرب ضرابها ،
وأنست عاسلات السباع من عاسلات اليراع بصحبة أضرابها ، وطارت العقبان من
أمثالها من الرايات ، ونزلت الملائكة من نص النصر بالآيات ، ولوت فوارع الألوية
مواعد اللأواء ، وأشرعت شوارع الأسنة موارد الدماء ، وشغفت أحياء الله بلقاء
الأعداء ، وحفز الزحف ومرج ، وفتح الحقف المرتج ، وتعب غراب الغبار بين
الأعادي ، وطميت طي الغضاب الغضاب إلى هدّ الهوادي .

(١) وصف لمعركة برية (البرق الشامي ج ١٦٢-١٦٦).

وجرى سيل الخيل ، وجرّ القتام على بهار النهار ، ذيل الليل . وللبنود
اختفاق ، وللجنود التفاف واتفاق ، وللعود إشراق ، وللصوارم انتشاء وانتشاق ،
وللصرائم إجماع لا افتراق ، وللرماح مراح ، وللأرواح إلى الموت ارتياح ،
والسلطان في موكب جلالته كالقمر المبدر في هالته ، وإبداء النصر برشده
بدلالته ، فلم يزل يعنق ويخب ، ويبرق ، ويجري ويجير ، ويفري ويفر ، ويمري
ويمر ، والسوانح للتجار حاملة ، والجوانح للكفار حاصلة شاملة حتى تراءى
الجمعان ، ودنا الرعان من الرعان ، وعنا العنان للعنان وحنا السنان على السنان ،
ونشطت أيمان الإيمان ، وقرب قران الأقران واحترب حزب الله وحزب الشيطان ،
وحلا ضرب الضرب وطعم الطعان ، بعذب القضب ومرّ المرآن ، ومالت للتداني
أعطاف اللدان ، وصافحت الصفاح أشجاع الشجعان ، ووقف الجمعان ووقف
الجمعان ووقد الجمران وطلعت في أبراج الصباح نجوم الخرصان ، وتحقق خراب ما
للأعمال من العمران (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان) .

واتفق أن الأفرنج لما أشرفوا على العلافّة ، سدوا طريق الأمن بطوارق
المخافة ، وكان عسكرينا الناهض لما عرف إقدامهم ، لم يقف قدامهم ، وسار عن
أثقاله بعيداً ، ورجا من النجدة مدداً جديدة ، فحفّ رجالتهم إلى الأثقال ، وفارقوا
خيل المنزال وفوارس القتال والمقدمون والأكابر يأنفون من الاشتغال بالنهب ، ولا
يقتحمون إلاّ حرّ الحرب ، فقصدهم السلطان في أبطاله ، وشغلهم بقتاله ، ورماهم
برماة رجاله ، وكماة مصاله ، وهم على رأس راس ، راكبون شناخيبي من أكام
وأفراس ، فأحدق بهم العسكر ، وتكاثر العثار وتكاثف العثير وجاء قلّ العسكر
الجافل ، ووفرت أقساطها القساطل ، وطلبت صلة مناها المناصل ، وأصيب من
الكفر في القتال المقاتل ، فتحرّكت جبالهم ، وتدرّكت المنى أو المنون أبطالهم ،
وبرز ابن بارزان مقدماً في مقدمتهم ، وحمل بحملتهم ، وكادوا يكسفون الأنوار ،
ويكسفون الأستار ، ويشقون الغبار ، ويسبقون المضمار ، فثبت السلطان أمامهم ،
وردهم وراءهم ، وميل بهم عن استوائهم إلى أسوائهم ، وترادف المدد ، وتضاعف
العدد ، وكلما ردّوا ردوا ، وكلما تصدّوا صدّوا ، وكلما ودّوا سلامة أودوا . وسدت
الملحمة عليهم فما ألحموا ولا أسدوا . فحملوا حملة كادت تنم ، وبسّر الشرّ تنم ،
وطعن فيها صمصام الدين أجك ، وخشي أنها لم تتدارك ، فردّهم خوف التردي
إلى الجبل ، وضاق عليهم واسعات الجبل ، وطلبوا وراءهم طريقاً فما وجدوها ،

وعدموا رجالتهم التي أنجدوها ، وأحرقت بسيدانهم أسودنا إحراق النار بالحلفاء ، وخاضت غمار الهيجاء ، وأسروا بأسرهم ، وصحّ النصر من كسرهم ، وتم يسرنا بعسرهم ، وربحنا بخسرهم ، ودخل الليل فما خفي بسواده سوادهم ، وقيد بخزائم الذل فؤادهم وصيد بالوصيد صيدهم ، وماصين صناديدهم ، وما فرس إلا فرسانهم ، وما شجن وشجب إلا شجعانهم . فإن الرجالة لما شاهدوا عساكر الإسلام ، تبدد شملهم في الوهاد والاكام ، وارتاعوا من الروع ، وما اجتمعوا بما لهم من الجمع ، فيما ضغم إلا ضيغم ، ولا قدم إلا كل مقدم ، ولا شقي إلا كل منعم ولا اعتقل إلا كل معتقل ، ولا شمل البلاء إلا كل مشتمل ، ولا شهر إلا كل مشهر ، ولا قسر إلا كل قسور ، ولا قهر إلا كل قاهر ، ولا عقر إلا كل عاقر ، ولا نذب إلا كل نذب ، وما ضرب إلا كل ضرب ، ولم يفلت من بينهم ، ولم ينج من حيهم إلا الملك المجذوم ، فإن آخر مهلكه المحتوم وقيل : إن أحدهم حمله على قفاه وسرى به تحت الليل وأخفاه ، ثم نجابه ونجّاه .

وعاد السلطان إلى مخيمه بعد هدم من الليل ، ويوم النصر بالعجاج ساحب الذيل ، وداعي الكفر في الفجاج صاحب الويل . ووافت البشائر إلى العسكر بالنحو من العصر ، وصدرت شروحا بشرح الصدر ، وجلس السلطان في سرادقه ونحن عنده جلوس ، وحول شمس من الأفاضل شמוש .

ومن شموع الحضرة المشتعلة نجوم ، ومن جموع الكفرة المعتقلة قروم ، وهو يحدثنا بالحادث ، ويكثر خطر الكارث ، ويقول : لولا التأييد من الله لكان الخطب خطيراً ، والخبط كثيراً والشركريثا ، والضرب حثيثاً . فإن القوم أغاروا ونحن غائرون ، وأسروا أسراهم ونحن بحالتنا سارون ، لكن الله أعماهم وعن سبيل القصد أغواهم ، فإنهم لو بدأوا بالعسكر والحي خلوف والكبد مخوف ، والجند غيب والشأر كتب والنار حطب ، لأعجلوا عن الإلحام والإسراج ، وسدوا على الكرب مناهج الإفراج ووجدوا الفرصة بادية ، والعرضة خالية ، قصد الله قصدهم وأعما بخطأهم عمدهم .

ثم أذن في تقديم الأسارى ، وهم يتهادون كأنهم سكارى . فأول من قدم ابن بارزان بادوين ، وأسرته من أمرائنا الأكراد محمد بن خوشترين ثم قدم أودم مقدم الدأوية الكبير ، وقد اشتهر في الفرنج بأسه المبير ، وأحضر (هو) ابن القومصية ، وكان يعرف بالنفس الأبية والنخوة الغضبية ، وقيد أخو صاحب جبيل ، وطالما

انهض إلى ثغور الاسلام الخيل ، وجماعة من مقدميهم الاكابر جمعتهم الجوامع
وقمعتهم - حتى هانوا ودانوا - المقامع وأنا جالس بقرب السلطان منفرداً
استعرضهم بقلمي في الدستور ومشاركاً أولياء الله في الحبور والسرور ،
فأجلسهم من حوله ، وأنسهم بقوله ، وأمر لهم بفراء مصيحية ، فأقرؤا بطوله
طوله ، من أطف الله أنا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين ، والأسراء قد
أنافوا على سبعين وقد أنزل الله علينا السكينة ، وخصهم بالذلة المستكينة ، وطلع
الصباح ورفع المصباح ، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به العشاء ،
والاعطاف من المسرة قد شارفت على الانتشاء .

ثم جلسنا حتى تم عرض المأسورين ، فبلغوا مائتين ونيّفاً وسبعين ، من
الفرسان المقدمين سوى من أسره في خيمته ، ولم يسمح بهديته ، وسوى من لا
يذكر من الاتباع فإنهم عدواً من سقط المتاع .

ثم نقل الأسرى إلى دمشق فاعتقلوا ، وبالحديد ثقلوا ، فأما ابن بارزان فإنه
بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار ، وإطلاق ألف أسير من
المسلمين . وكان الفقيه «ضياء الدين عيسى» من نوبة الرملة عندهم من
المأسورين ، فالتزم إدراكه ، وأن يؤدي من قطيعته المذكورة القطيعة التي عرف بها
فكاكه . وأما «هو» ابن القومصية فإنه استفكته أمه بخمسة وخمسين ألفاً من
الدنانير الصورية . وأما «أوذ» مقدم الداوية فإنه انتقل من سجنه إلى سجين ،
فطلبت جيافته فأخذوها بإطلاق أسير من مقدمي المؤمنين وطال أسر الباقين ،
فمنهم من هلك وهو عان ، ومنهم من خرج بقطيعة وأمان .

النص المتقدم نموذج من نثر العماد التاريخي يصف به معركة برية ، وفيه يمكن للدارس أن يقف على أهم الخصائص الفنية والموضوعية لهذا النثر .
يبدأ العماد وصف المعركة برصد أحداثها ويسير الوصف مع تسلسل الأحداث وتتابعها مع شيء من التفصيل والتكبير .

أول خطوات المعركة الاستعداد . فقد أصبح السلطان يوم الأحد راكباً ومعه بعض قادته عازماً على مهاجمة الأعداء ، فجاءته الأخبار بقربهم ، ومفاجأتهم له ، وقد عاد السلطان إلى المخيم لتلافي تلك المفاجأة وشرع يعد الخطط لمواجهة الأعداء وهياً جنده مادياً ومعنوياً لتلك المواجهة ، إذ وزع عليهم السلاح والخيول ، وحثهم وشجعهم على الصمود وعلى الفتك بالأعداء يقول العماد واصفاً هذه الخطوة : « فجاء السلطان إلى المخيم وقت الظهر فتفاء لنا به للظهور ، ونادى في متخلفي مماليكه وخواصه بالحضور ، وكانت في اسطبله خيل عراب شدت للتضمير ، وجياد عتاق أعدت ليوم النفير ، فبذل مصونها وأصفى لخواصه صفونها ، وقال اركبوا وادركوا العدو وانكبوا وعن قصد لقائه لا تنكبوا .

بعد الاستعداد المادي والمعنوي يصف العماد انطلاق الجيش ومسيرة إلى المعركة يقول : « وساروا ليلة العجاج في الهياج سوداء والخضراء من وقع الحوافر ونقع الحوافر وعند الوصول إلى ارض المعركة تبدأ مرحلة جديدة ومهمة وحاسمة وهي مرحلة اللقاء بين الفريقين وفي هذه المعركة يصف تغرض السلطان للأعداء فيقول : « فقصدهم السلطان في ابطاله وشغلهم بقتاله، ورماهم برماة رجاله وكماة مصاله » ويصف شجاعة الجيش الاسلامي وصموده أمام الأعداء يقول : « .. فأحدق بهم العسكر وتكاثر الغبار وتكاثف العثير ، وجاء فلّ العسكر الجافل ، ووفرت اقساطها القساطل وطلبت صلة مناها المناصل ، واصيب من الكفر في القتال المقاتل ، فتحركت جبالهم ، وتدركت المنى أو المنون أبطالهم وبرز ابن بارزان مقدما في مقدمتهم وحمل بحملتهم وكادوا يكسفون الأنوار ، ويكشفون الاستار ، ويشقون الغبار ، ويسبقون المضمار .

فثبت السلطان أمامهم ، وردّهم وراءهم وميّل بهم عن استوائهم .. الخ » .
وبعد تحقيق النصر يعود السلطان إلى المخيم يستعرض الأسرى يقول : « وعاد السلطان إلى مخيمه بعد هدء من الليل ، ويوم النصر بالعجاج صاحب الذيل ، وداعي الكفر في الضجاج صاحب الويل .. وجلس السلطان في سرداقة ونحن عنده

جلوس .. ثم أذن في تقديم الأسارى . وهم متهاودون كأنهم سكارى . فأول من قدم ابن بارزان بادوين .. الخ » .

هذه هي أبرز مراحل المعركة كما أوردها العماد ويظهر من خلال النص أن العماد مفرم بتصوير المعركة لابتقل وقائعها رغم أنه ينقل الوقائع تامة وكما حدثت وهو هنا لا يبدو مؤرخاً بل اديباً يتخذ من الحدث التاريخي مادة لأدبه فالنص الذي بين أيدينا يغلب عليه الاحتفال بالصنعة اللفظية والمعنوية والاهتمام بالتصوير والميل إلى التفصيل والاكثار من الاسماء ذات الدلالات الدينية ، وأسماء الأماكن والأشخاص .

ومن مظاهر الصنعة في هذا النص الأكثار من السجع ، ولشدة تعلق الكاتب به يحس القارئ أنه هدف الكاتب الأسمى ، وأن الرغبة في توليده تأخذه إلى نوع من التفصيل الملل ، ومثال ذلك قوله يصف استعداد السلطان لملاقاة الأعداء : « فلم يزل يعنق ويخب ، ويبرق ويهب ، ويزخر ويموج ، ويزجر ويعوج ، ويجري ويجر ، ويفري ويفر ، ويمرئ ويمر ، والسوائح للتجار حاملة ، والجوائح للكفار حاصلة شاملة ، حتى تراءى الجمعان ، ودنا الرعان من الرعان ، وعنا العنان للعنان ، وحنأ السنان على السنان ، ونشطت إيمان الأيمان ، وقرب قران الأقران واحترب حزب الله وحزب الشيطان » .

إن السجع المتلاحق لا تمنح القارئ فرصة للانعتاق من إيقاعاتها ليربح عن الحقيقة التاريخية وإذا ما أراد أن يبحث عنها فإن الصورة الفنية تأخذه بعيداً لتدبر عناصرها وأجزائها فنرى العماد في هذا النص يشبه حركة الرماح خلال المعركة بحركة الأصدقاء الذين يميلون إلى بعضهم للتداني ، ويشبه حركة السيوف وهي تقع على أشاجع الشجعان بحركة المصافحة بين الرجال ، ويشبه أسنة الرماح في سماء المعركة بالنجوم اللامعة في كبد السماء .

لم يكن العماد يبحث عن الأحداث ويرصدها ، بل كانت تفرض نفسها عليه ، ويجد نفسه في بورتها ، وهي أحداث هزت وجدان الأمة ، وكان العماد شاهد عيان في معظمها وملزماً لأبطالها ، وقد تركت تلك الأحداث أثرها في نفسه ، وانعكست في أدبه .

أراد العماد أن يسجل مجريات الأحداث التي شهدتها ، ولكنه وهو يسجلها لم يستطع أن يكون مؤرخاً يسجل الأحداث بمنطق المؤرخ الصارم ، بل راح يصور

الأحداث بروح الأديب الذي يهمله من الحدث التاريخي انعكاساته وأثارة فصور العماد اللحظات الحاسمة في النصر على الأعداء ، وخلق لحظات الفرح ، وأحاسيس المنتصرين ، وقابلها بتصوير مشاعر الذل والهوان عند المنهزمين ولو قابلنا ما قاله العماد في هذه المعركة وبين ما قاله ابن واصل ، وأبو شامة المقدسي لعرفنا الفرق بينهما ، يقول ابن واصل : « ولما أصبح السلطان جاء الخبر أن الفرنج قد خرجت فالتقاهم فنصر الله المسلمين عليهم ، فأسر فرسانهم وشجعانهم ، وأنهزمت رجالتهم في أول اللقاء فكان في جملة الأسرى مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية ، وصاحب الطبرية ، وأخوه صاحب صُجيل ، وابن القومصية ، وابن بارزان صاحب الرملة ، وصاحب جنين ، وعسقلان ويافا وعدة كثيرة من خيالة القدس وعكا ، والبارونية ، وغيرهم من المقدمين ، ما يزيد عن مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم »^(١)

أن الحقيقة التاريخية التي ذكرها العماد في حديثه عن وقعة مرج عيون لا تختلف عنها عند ابن واصل ، فالحقيقة التاريخية واحدة ، ولكن الأسلوب مختلف بين العماد الذي يجعل من الحدث التاريخي مادة لأدبية فيوشية بحلل يطرزها السجع والجناس والطباق والتكرار ، والصور الفنية بألوانها المختلفة ، والمؤرخ أمثال ابن واصل وأبي شامة المقدسي ، إذ يقدم المؤرخ الحدث التاريخي مجرداً خالصاً كما حصل ، وهذا الاختلاف يجعل لنثر العماد التاريخي قيمة مزدوجة ، وأنه يقدم الحقيقة التاريخية بقلب أدبي له سماته الخاصة ، فالحقيقة التاريخية لا تغيب وإن بدت غير جلية إلا أنها موجودة في ثنايا ديباجة أدبه وقد وصف العماد نثره التاريخي عند ما تحدث عن كتابه الفتح القسي مشيراً إلى قيمته فقال : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول : فان فيه من الألفاظ ما صار معدناً من معادن الجواهر التي نولدها ، ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من أسنة العجائب التي نوردها »^(٢)

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢ : ٧٥ ، ٧٦

(٢) الفتح القسي : ٤٢

الجيش الإسلامي :

رسم العماد في نشره صورة متكاملة للجيش الاسلامي ، وكرر هذه الصورة أو أجزاء منها ، فصوّر الجيش في حالة الاستعداد والتعبئة والانطلاق إلى موقع المعركة ، وفي مواجهة الأعداء ، وصوّر أعماله البطولية ، وتحدث عن أسلحته وخيوله .

وصوره جيشاً قوياً مؤمناً متحفزاً للجهاد ، كثير العدد وافر العدة ، يستمد قوته وعزيمته من إيمانه بالله وقوة قائده المحب للجهاد دائم الاستعداد له .

ومن عناصر الصورة التي يضعها العماد للجيش حالة التحفز قبل الإنطلاق إلى المعركة وهي حالة يمكن ملاحظتها في وصفه لجيش السلطان المنطلق إلى غزه وعسقلان سنة ٥٧٣هـ إذ يقول : « وعاد السلطان إلى القاهرة وأقام بها ظاهر السلطان باهر البرهان ، ثم تقاضته عزمته واهتمت بالغزاة همته ، وجدّ بالجهاد وجده وجهده ، وماجت زواجره ، وأصحرت خوادره ، واستعرت مشاعره وعرضت عساكره »^(٢) ، وفي هذه الحالة يصور الجيش الاسلامي وقد بدأ يتحرك وتهبأت فرسانه للقاء العدو فزأروا كأنهم الأسود يقول « وزارت ضراغمة ، وزخرت غماغمة ، وزخرت خضارمة ، وخفقت بوارقه ، وأورقت مآرقه ، وسبقت عتاقه ، وعتقت سوابقه ، وقلقت بغواربه أجفانه ، وقربت للعسلان مرّ أنه ، وتلذذت لسوق الطعان لدانه ، وفاضت على البحور غدرانه ، وتلبست بالاجسام أبدانه »^(٣) .

أن العماد وهو يصور حركة الجيش ، لكنما يكتب على أنغام ضربات الطبول السريعة القوية التي تصاحب تلك الحركة ، فهذه الألفاظ القوية التي تنطلق بعبارات قصيرة مسجوعة تشكل مدركاً حسيّاً يقرب الينا صورة الجيش الممتلئ بالإيمان والقوة وهو يندفع إلى غايته مجاهداً في سبيل الله .

ومن عناصر صورة الجيش الأخرى عند العماد كثرة العدد وقد استخدم أوصافاً كثيرة للتعبير عن هذه الصفة فتارة يصفه بالبحر الزاخر فيقول عن جيش السلطان « وسار في جيش مجر ، ولسيل الخيل مجر ، من سواد القتام في

(٢) البرق الشامي ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، ٢٢٠ ، وانظر كذلك المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ، وج ٥ ، ص ٢٤ والفتح القسي ص ٥٢١ .

ليل ، ومن بياض البيض في فجر»^(١) ويقول مصوراً جيش صلاح الدين وهو يحاصر طبرية : « وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط ، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط ، ... وطمت الأطلاب أمواجاً على أفواج ، وانعقدت سماء العجاج ، وطلعت منها أنجم الخرصان والزجاج »^(٢) وتارة أخرى يصوره وقد امتلأت به الشعاب فتحول البر إلى بحر يموج بهذا الجيش ، فنراه يقول معبراً عن هذه الصورة : « وعبرنا نهر العاصي في طاعة الله بقصد الغزاة ، والجرد تحت المرد ، والكمث تحت الكمات ، ومالت العراب وسالت الشعاب ، فالبر بحر من موج العرمم المجر ، والنقع رقع لخرق الفجر »^(٣) .

يبلغ الجيش في كثرته حداً يضيق به الفضاء الرحب ، اذا انضم اليه العرب^(٤) ، والتركمان^(٥) كما يقول العماد في وصف جيش أسد الدين شيركوه : « ووفد منهم جموع من الأجناد والأعيان وحشود من العرب والتركمان ، ففاض بهم الفضاء ، واكتسى برياشهم العراء ، وكثرت الجنود وانتشرت البنود وحلقت عقبان الألوية وتلاحقت ذؤبان الأودية .. الخ »^(٦) .

ويتحدث العماد عن رجال الجيش الإسلامي حديث المعجب ، فيصفهم بأعظم الصفات التي تدل على البطولة والشجاعة والقوة يقول في وصفهم : « .. من كل أغلب قسورى وأجدل مضرحي ، وأحمس حمي ، وندب شمري ، وضرب كمي ، وذمر مشيح ، وللمهج مبيح ، وللفضل منتضى ، وللقرن سالب ، وللطنن طالب ، وللثائر ثائر ، وبالزار زائر ، وللقاء العداة محب ولنداء المنايا ملب »^(٧) ومن صفات الجيش الاسلامي أن الأعداء يخافونه ويستشعرون الرعب منه قبل وصوله ويظهر

(١) البرق الشامي ، ج ٢ ، ٢٦٠ .

(٢) الفتح القسي : ٧٢ ، ٧٣ ، وانظر كذلك الصفحات ٨٨ ، ٢١٢ ، ١٢٦ ، ١٧٦ ، ٢٢٦ .

(٣) نفسه : ٥ : ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٤) العرب : هم فرقة من فرق جيش صلاح الدين الاضافية ومعظمهم من الخيالة وأبرزهم بنو منقذ ، أصحاب شيزر ، (جب صلاح الدين الأيوبي دراسات في التاريخ الاسلامي ، حررها يوسف أيبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ١٧٢) .

(٥) التركمان : هم فرقة من قوات صلاح الدين الاضافية ، كان لهم دور كبير في المروب الصليبية (جب صلاح الدين الأيوبي ص ١٧١) .

(٦) الفتح القسي : ٢٦٣ .

(٧) البرق الشامي : ٢ : ١٧٦ . وانظر الفتح القسي : ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

ذلك في قول العماد : « وضاعت بعساكرنا أودية ذلك الرعب ، وتقدمت إلى العدو قبل رعب جيوشنا جيوش الرعب »^(١) تبدو هذه الصورة متأثرة بالحديث النبوي الشريف الذي يقول نصرت بالرعب .

يحدد العماد في حديثه عن الجيش الإسلامي الفرق التي يتشكل منها ودور كل فرقة في المعارك التي خاضها المسلمون ضد الصليبيين ، مع الإشادة بقيادة هذه الفرق وقد كان الجيش يتكون من عدة وحدات تنسب كل وحدة منها إلى سلطان سابق ، فيقال للمالِك النورية نسبة إلى السلطان نور الدين محمود ، أو تنسب الفرقة إلى أحد القواد العظام السابقين فيقال للمالِك الأسيدي نسبة إلى أسد الدين شيركوه ، أما مالِك صلاح الدين فأطلق عليهم عدة أسماء ، فيقال لهم المالِك الصلاحية نسبة إليه أو الناصرية نسبة إلى لقبه الملك الناصر ، أو جند الحلقة . وقد تنسب الفرقة إلى جنسية أفرادها فيقال الطائفة الكردية نسبة إلى الأكراد ، وتفرع من هذه الطائفة طوائف أخرى مثل الهكارية ، والمهرانية والحميدية ، والزرزارية^(٢) .

وفي حديثه عن فرق الجيش يصور هذه الفرق قوية مستبسلة في لقاء العدو، ويشيد بشجاعة قادتها ، يقول مشيداً بدور تقي الدين القيادي وشجاعته ويذكر بعض القادة المشهورين ، المشهود لهم بالبسالة في مواجهة الصليبيين : .. والملك المظفر تقي الدين ذو السطوة المبيدة المبيرة ، وسيف الدين على المشطوب - الذي تشب بناره الحروب ، وتصب على العدا منه الكروب ، والهكارية ، والمهرانية ، والحميدية ، والزرزارية ، وأفراد القبائل من الأكراد ، أقتال القتال ، وأجادل الجلال، ورجال الحلقة المنصورة واقفين في القلب لابسي الحلق السرد خائضي بحر الحرب »^(٣) .

ويصف العماد في تصوير الجيش اسلحته وخيوله وجنوده ، فالأسلحة كثيرة ومتنوعة وفتاكة ، والخيول قوية سريعة خفيفة الحركة كأنها الطيور الجارحة ، والرجال أقوياء ، شجعان ، متمرسين بأساليب القتال ، محبين للجهاد ، يشبهون

(١) البرق الشامي : ٥ : ١٥٢ .

(٢) نظير حسان سعداري ، جيش مصرفي أيام صالح الدين ، ط ٢ ، ١٩٥٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٢٤ ، ٢٦ .

(٣) الفتح القسي : ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

الأسود في إقدامهم والطيور الجارحة في سرعة فتكهم بالأعداء ، يقول مصوراً جيش الملك المظفر تقي الدين عندما أمره السلطان بالتحرك إلى سنجار وحصرها: « فسار في الأسد والغاب ، والحمس الغضاب ، والصم الصلاب ، والغلب الغلاب ، والبرق والرعد ، والسحاب ، والقب والقباب ، العتاق والعراب ، والخضرم العياب ، والعرمرم الجواب ، والسمر الدقاق ، والبيض الدقاق الغلاظ الرقاب ، ونهض في عجيجه وعجابه وخرصانه وزجاجة وبحوره وأمواجه »^(١) .

ويحدثنا عن جيش العادل القادم من مصر ويذكر أسلحته الكثيرة والمتنوعة ويذكر كل نوع باسمه يقول واصفاً قدوم الجيش : « وجاءوا بالغبسة القبطية ، والترسة اللمطية ، والصلال القفطية ، والإلال النوبية ، والحراب الحربية ، والصعاد الصعيدية ، والصوارم المذروبة ، والصرائم المشبوبة ، والأسنة المسنونة ، والسوابغ الموضونة ، والسراحين السارحة ، والشعابين الجارحة والتماسيح المزدردة ، والشياطين المتسوقدة ، والزانات واليزنيات ، والهنديات ، واليمانيات »^(٢) .

لقد تميز الجيش الاسلامي عن جيش الصليبيين بالسرعة وخفة الحركة ، ويذكر المؤرخون أن المقاتلين في الجيش الاسلامي كانوا اسرع منهم في الجيش الفرنجي وأكثر منهم مرونة في المناورة ، وذلك لسرعة خيولهم ورشاققتها وخفة اسلحتهم فقد كان القوس سلاحهم الرئيسي ، يضاف اليه الترس ، والرمح والسيف ، والهاوذة وقد استفاد الجيش الإسلامي من هذه المرونة أموراً عدة منها : أنها كانت تمكنه من البقاء بعيداً عن العدو ، ليختار اللحظة المناسبة للإلتحام به . ومنها أنهم كانوا يطبقون أسلوب التقهقر الكاذب المضلل ، كما أنهم كانوا يستفيدون من خفة الحركة في مهاجمة خيالة العدو ومؤخرته ومهاجمة العدو أثناء المسير وأرغامه على القتال^(٣) .

غالباً ما يصور العماد الجيش الاسلامي وقد خرج من المعركة منتصراً ، فهو جيش خبير بأساليب القتال ، قوي الإيمان ، محب للجهاد في سبيل الله ، يقوده

(١) البرق الشامي : ٥ : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) الفتح القسي : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٣) ر.س سميل ، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ترجمة محمد وليد الجلاذ ، ١٩٨٥ ، طلاس لدراسات والترجمة ، دمشق ، من : ١٣٤ .

قائد مجاهد مخلص لدينه ورعيته يتزود بأحسن الأسلحة ، ويركب أجود الخيول وقد تعددت مشاهد النصر التي اشتمل عليها نثر العماد . ومن هذه المشاهد : مشهد فتح طبرية فقد صور العماد نتيجة المعركة التي أسفرت عن الهزيمة النكراء للفرنجية والنصر المؤزر للمسلمين فقال : « ثم استجرت الحرب واشتجر الطعن والضرب ، وأحيط بالفرغ من حوإلهم بما حوإلهم ودارت دائرة الدوائر عليهم . وشرعوا في ضرب خيامهم ، وضم نظامهم . . . وأحاط بهم العسكر إحاطة النار بأهلها ، ولجأوا إلى حزم الأرض فبلغ حزامهم الطبيعيين من سهلها ، وأسر الشيطان وجنوده ، وملك الملك وكنوده »^(١) .

ومن مشاهد الانتصار الأخرى مشهد فتح حصن برزية يقول مصوراً اقتحام السور وفتحه : « وجاءت النوبة الثالثة تالية ، وأقدمت أمدادها متوالية متعالية . وعادت النوبة الأولى لنشاطها ، وزادت في انبساطها . فبلغوا وغلبوا ، والتهموا والتهبوا . وتعلقوا بالسور ، وتسلقوا كالنسور ، وطلعت القلعة ، وقلعت الطلعة ، واقتضت العذرة ، واقتضيت النصر ، وأعان القدر فقدر الأعوان ، ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان . وأن أهل القلعة لما أيقنوا أنهم ملكوا ، طلبوا الأمان حتى لا يهلكوا »^(٢) .

والجيش الاسلامي جيش ترعاه عناية الله وتحرسه وتهمي له أسباب النصر والقوة ويمده الله لصدق إيمانه بالملائكة تقاتل معه ، يقول : « وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها »^(٣) ويقول في موقع آخر : « واتصلت للمماليك من الملائكة أمداد النصر المتواترة »^(٤) .

وقد أرجع أحد المقاتلين النصر الذي تحقق للمسلمين على أعدائهم إلى العون الإلهي . فقال : « فعرفت أنه نصر الهي ، وصنع رباني ، في مذاق الإيمان شهبي ، وفي أفاق الإحسان بهي . فايقنت أن النصر ما ملكت إلا الملائكة نصرت . وأن الظهور ما سر إلا لأسرار لله ظهرت »^(٥) .

(١) الفتح القسي : ٧٨ ، ٨٠ .

(٢) نفسه : ٢٥٦ .

(٣) نفسه : ٧٢ .

(٤) نفسه : ١٠٢ .

(٥) نفسه : ٢١٢ .

صورة الفرنجة

أ - جيش الفرنجة

رسم العماد في نشره صورة للعدو الفرنجي الغازي ، ولجيشه من جوانب مختلفة ، فقد أبرز استعداده للقتال ، واندفاعه لملاقاة خصومه في المعارك ، وتحدث عن رجاله وقوتهم وصمودهم وتحفزهم للقتال ، كما تحدث عن عددهم ، ووصف قاداتهم ، واسلحتهم وخيولهم ، وعدد فرقهم المقاتلة ، كما وصف كثرتهم ، ورسم لهم صورة أثناء المعركة وبعدها وقد حلت بهم الهزيمة ووقعوا في الأسر .

ومن صور الاستعداد والتعبئة التي نقلها لنا العماد عن جيش الفرنجة استعداده لمعركة حطين ، إذ اصطف هذا الجيش (بمرج صفورية) ^(١) ، وقد أخذ أهبطه للحرب بكامل سلاحه ، وتجمعت فرقة ، احتشد رجاله : «والفرنج قد صفوا راياتهم بصفورية ولووا الألوية ، ومدوا على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات وأوقدوا في ظلام القتام الثائر سراج السريجيات وصوبوا إلى صوب بناب اليزنيات ، .. وجمعوا الأوشاب والأوباش ، ورتبوا الجيش وثبتوا الجأش ، وحشدوا الفارس والراجل والرامي والنابل » ^(٢) .

وفي موقع آخر يصف العماد استعداد الجيش الفرنجي للمعركة نفسياً ومعنوياً ، فقد اهتاج واضطرب ، واستشاطت شياطينة ، وسرحت سراحينه ، وطغت طواغيته وسعرت ، مساعيره ، وهاج هائج ، وماج مائج ، ودعت دواعيه ، وعدت عواديه وسعت أفاعيه ^(٣) وزاد من حماس هذا الجيش ما قام به رجال الدين الذين بثوا الحمية في نفوس أفرادهم كما يقول العماد « وحضتهم قسوسهم ، وحرضتهم رؤوسهم ، وحركتهم نفوسهم ، وجاءت بجوى السوء جواسيسهم » ^(٤) .

وإذا ما اندفع الجيش الفرنجي لملاقاة خصومه فإنه يندفع بعزم وقوة ويصمم على الفتك بهم ، يبذل ما في وسعه لتحقيق ذلك في تنافس شديد بين أفرادهم ، ويصف العماد هذا الاندفاع فيقول : « فخرج إليهم الفرنج في جمع شاك ، وجمر

(١) مرج صفورية : صفورية : كورة وبلدة من نواحي الأردن ، بالشام وهي قرب طبرية (معجم البلدان ٤١٤/٣) .

(٢) الفتح ، ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) نفسه ، ١١٩ .

(٤) نفسه ، ١١٩ .

ذاك وقنطاريات طائرات ، وسابريات سابقات ، ولداوي دوي ، وللاسبتاري هوي ، والباروني ، يقدم على البوار ، والتركبولي يلقي نفسه على النار «^(١) .

يصور العماد في نشره جيش الفرنج كثير العدد وافر العدة ، اجتمع رجاله حول الصليب من كل الأقاليم ، يقول : « نادوا في نوادي أقاليم أهل الأقاليم ، وصلبوا الصليب الأعظم بالتعظيم ، وما عصاهم من له عصا ، وخرجوا عن العدة والاحصا ، وكانوا عدد الحصى »^(٢) ولكي يبين العماد كثرة الجيش الفرنجي فانه لا يترك لفظا يساعده في ذلك إلا ويستخدمه ، ويستمد من الطبيعة صوراً معروفة للتعبير عن هذه الصفة ، فالجيش في حركته كالجبال السائرة ، وكالبحار الزاخرة ، المتلاطمة أمواجها ، والمزدهمة أفواجها ، والمحتدمة فجاجها «^(٣) .

وإذا خرج الجيش الى المعركة في عدده الكثير وسلاحه الوفير ، بدأ كالليل يخرج عن الحصر في عدده ، وقد انتظم رجاله والتأموا ، وتقدموا إلى المعركة بسيوفهم ودروعهم ورماحهم ، تطير بهم خيولهم ملتثمين ، والى الحتف مقتحمين^(٤) .

ينبه العماد في بعض أحاديثه المسلمين بحلى كثرة الجيش الفرنجي قبل وصوله ، ليأخذوا حذرهم ، وليقدروا حجم الخطر الذي يشكله هذا الجيش القادم إليهم ليعدوا العدة لملاقاته ، ودفع شره عن بلادهم ، ومن الأمثلة على ذلك ما وصف به جيش ملك الألمان الذي وصل إلى القسطنطينية ، وقد بين العماد قوة هذا الجيش وصفاته الخلقية والخلقية ، فجنوده كأنهم ما خلقوا إلا للحرب ، يقول في وصفهم : « .. وإنه في ثلاثمائة ألف مقاتل ، من كل سالب باسل ، وطالب باطل ، وجهم جهنمي ، واشقر سفري وأنمش أفعواني ، وصل صليبي ، صلائي ، وأرقش حنشي ، ومستعر سعيري .. وكل ذئب عاسل ، ذاب بعاسل ، وأزرق لأبيض مشتمل ، وأصهب لأسمر معتقل ، وكل جحيمي جاحم ، وجمري فاحم .. ومشمر إلى الموت متمرن ، ومتحين إلى المنون مُتَحَنن »^(٥) .

(١) الفتح ، ٦٢ ، ٦٣ ، وأنظر المصدر نفسه ، ص ٤٧٨ .

(٢) نفسه ، ٧٤ .

(٣) نفسه ، ٧٧ .

(٤) نفسه ، ١٦٤ ، وأنظر كذلك ص ٣٠٢ .

(٥) نفسه ، ٣٠٣ .

يكرر العماد في مواقف كثيرة الحديث عن صفات الجيش الفرنجي ، وهي صفات تدل على قوته وشراسته وفتكه ، وهي مستعارة من البيئة وجو المعركة ، وبمثل هذه الصور يرصد العماد مفاجأة الفرنجة للجيش الاسلامي في نوبة الرملة ، يقول : « فما شعروا إلا بالفرنج طالبة بأطلابها حازبة بأحزابها ذابة بذئابها ، عادية بكلابها ، مصحرة خادرات أسادها في غابها ، زائرة بزئيرها في مساعير سعيرها ، ومن كل جاحم جحيم ، وشيطان رجيم ، وسرحان هجمه ، وفارس بهمه ، ورئبال وبال ، وضرغام خبال ، وذئب ثلة وضبع ظلة ، ونمر فتك ، وخنزير هتك .. الخ »^(١). ومثل هذه الصفات يطلقها العماد على قادة الفرنجة ، وهي صفات تعبر عن خستهم وحقارتهم ، مثل صفات الكفر والخبث والنجاسة ، وقد وصف بها المركيس فقال : « وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينه ، وأضرى سراحينه ، وأخبث ذئابه ، وأنجس كلابه ، وأنهش صلاله ، وأفحش ضلاله ، .. وافجر فجاره ، وأروغ ثعالبه ، وألسب عقاربه ، وأحنث معاهديه وأنكث معاقديه ، وهو الطاغية الداھية ، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية .. »^(٢)

ويصور العماد رجال الجيش الفرنجي اذا التقى الجمعان بصور تعبر عن قوتهم وشجاعتهم ، وصبرهم واقدامهم واستبسالهم وبذلهم للأرواح في سبيل المحافظة على مقدساتهم ، يقول واصفاً التحامهم بالجيش الاسلامي في معركة تحرير القدس : « وقاتلوا أشد قتال ، وناضلوا أحد نضال ، ونازلوا أجد نزال وطافوا بصحاف الصفاح لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح ، وجالوا بالأوجال .. واستهدفوا للسهام ، واستوقفوا للحمام ، وقالوا : « كل واحد منا بعشرين ، وكل عشرة بمئتين ، ودون القمامة تقوم القيامة ، ولحب سلامتها تعلق السلامة »^(٣) .

لم يستطع الجيش الفرنجي الصمود في وجه جحافل الجيش الاسلامي ، فبالرغم من درجة استعداده العالية وقوة رجاله وشجاعتهم وتمرسهم بأساليب القتال واستخدامهم لكل أنواع الأسلحة المعروفة في زمانهم إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم في معظم المعارك التي خاضوها مع المسلمين كما نقلها إلينا العماد في نثره التاريخي ومن صور هزائمهم هزيمتهم في معركة حماه سنة ٥٧٣هـ

(١) البرق ج ٣ ، ٢٨٠ ، وأنظر مثل هذه الصفات في الفتح ص ، ٢٧٠ .

(٢) الفتح ، ١٠٩٠ .

(٣) نفسه ، ١٢٤٠ ، ١٢٥٠ ، وأنظر كذلك البرق ج ٣ ، ١٢٨٠ ، ١٢٩٠ .

اذ وصفت الهزيمة وصفاً حسياً وصور حالتهم النفسية المنهارة ، يقول : « ثم سقطت مهابتهم في النفوس ، وتبدل بشرهم بالعبوس ، وحصلوا في دائرة البوس ، فما صدقوا كيف يرحلون ، وعرفوا أنهم كانوا يجهلون ، فكسعت^(١) أدبارهم ، وكسحت أثارهم ، ونفرت أنفارهم ، وكثر قتلهم وإسارهم ، وسلب قرارهم ، وعميت من رماة الحدق لبصائرهم أبصارهم ، وسالت سيولهم في الهزيمة ، وجرت أنهارهم وثقلت عليهم أوزارهم ، وغابوا وانقطعت أخبارهم ، ولم تعرف أسرارهم ، وانطقاً شرارهم ، ولزمهم عارهم ، واغرقتهم بحارهم وبودنا دام دمارهم »^(٢) .

وبعد أن يحدثنا العماد عن الأعداء خلال المعركة فإنه اذا ما وقعت الهزيمة في صفوفهم ، بادر إلى رسم صورة تعبر عن اشتفاء المسلمين بما حصل لهم ، فيصورهم في الأسر ، ويظهر في الصورة تبدل أحوالهم وتدنى معنوياتهم ، وانكسارهم وخنوعهم ، ويصفهم والسلطان يستعرضهم يتهادون في السلاسل كأنهم سكارى مما لحق بهم من اعياء ومهانة ، ويقول في وصف استعراض أسرى معركة مرج عيون « ثم أذن في تقديم الأسارى ، وهم يتهادون كأنهم سكارى ، فأول من قدم ابن بارزان بادوين .. ، ثم قدم أود مقدم الداوية الكبير ، وقد اشتهر في الفرنج ببأسه المبير ، وأحضر (هو)^(٣) ابن القومصية ، وكان يعرف بالنفس الأبية والنخوة الغضبية ، وقيد أخو صاحب جيل ، وطالما أنهض إلى ثغور الإسلام الخيل وجماعة من مقدميهم الأكابر »^(٤) .

وتتكرر مشاهد الأسرى عند العماد ومنها صورتهم بعد معركة طبرية ، وهي المعركة التي أسر فيها عظماء الفرنجة ، وقد صور العماد أوضاعهم النفسية السيئة وهم يعرضون على السلطان فقال : « وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى ، فقدم بدائه مقدم الداوية ، ومعه عدة كثيرة منهم ومن الاستبارية ، وأحضر الملك (كي) وأخوه (جفري) و(أوك) صاحب

(١) فكسعت : الكسع ، الضرب على الأدبار (اللسان) .

(٢) البرق ج ٣ ، ٥٤٠ ، وأنر الفتح ، ٢٩٠ .

(٣) هو : كونراد الثالث إمبراطور المانيا ، قاد الحملة الصليبية الثانية مع لويس السابع ملك فرنسا (مفرج الكروب حاشية (٣) ج ١ ، ص ١١٢) .

(٤) البرق ، ج ٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(صنجيل)^(١) و (هنفري) ، والبرنس (أرناط) صاحب الكرك وهو أول من وقع في الأسر وكان السلطان قد نذر دمه ، وقال لأعجلن عند وجد انه عدمه «^(٢) .

إن صورة الأعداد كما تبدو في نثر العماد ، قبيحة في مظهرها المادي والمعنوي ، وهي صورة تتناسب وما كانوا عليه من صفات حقيقية ، فلم يكن العماد في تصويره لهم بعيداً عن حقيقتهم ، بل كان أقرب ما يكون إلى ما اتصفوا به من صفات تعبر عن طبيعتهم وقد وصفهم العماد بصفات حسية فهم في قوتهم وشجاعتهم كالشياطين والذئاب والضباع والأفاعي والخنازير ، وفي مراوغتهم كالثعالب وفي خستهم كالكلاب . ويصف العماد زعماءهم بصفات معنوية مثل الكفر والغواية ، والنجاسة والفحش والفجور والمخادعة ونكث العهود وصفات أخرى كثيرة .

ب - المرأة الفرنجية

لم تقتصر صورة العدو في نثر العماد على الرجال فحسب ، بل شكلت المرأة الفرنجية جزءاً من هذه الصورة ، وكان لها دور فاعل في الصراع الدائر بين الفريقين وقد عقد العماد في كتابه الفتح القسي فصلاً تحدث فيه عن حال نساء الفرنج وذكر أحوالاً مختلفة لهؤلاء النسوة ، فقد اشتهر بعضهن بالخلاعة والمجمون والابتذال ، وكان دورهن الترفيه عن المحاربين ، يقول في وصف هذه الفئة : « وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة أفرنجية مستحسنة ، متحلية ، بشبابها وحسنها ، متزينة ، وقد اجتمعن في الجزائر ، وانتدبن للجزائر ، واغتربن لاسعاف الفرباء ، وتأهبن لاسعاد الأشقياء وترافدن على الإرفاق والإرفاد ، وتلهبن على السفاح والسفاد »^(٣) .

ومن هؤلاء النسوة من كانت في موقع القيادة والأمانة فقد « وصلت في البحر امرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر ، وهي في بلدها مالكة الأمر ، وفي حملتها خمسمئة فارس بخيولهم وأتباعهم ، وغلماهم وأشياعهم ، وهي كافلة بكل ما

(١) صنجيل : صنجيله ، ذكر بعض المؤرخين أنها اسم مدينة في بلاد الأفرنج ، وأن صنجيل الأفرنجي كان صاحب اللاذقية وصار بطرابلس ، كان اسمه ميمند ، وصنجيل نسبة إلى هذه المدينة ، (معجم البلدان ،

٣ ، ٤٢٥)

(٢) الفتح ، ٨٠ ، ٨١ .

(٣) نفسه ، ٣٤٧ .

يحتاجون إليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة ، وهم يركبون بركباتها ، ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها»^(١) .

واشتهرت بعض نساء الفرنجة بالشجاعة وشاركن الرجال في المعارك ، وجالدن مجالدة الأبطال ، وقد ذكر العماد بطولات هذه الفئة فقال : « وفي الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس ، وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال وفي يوم الواقعة قلعت منهن نسوة ، لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن مع لينهن قسوة ، وليست لهن سوى السوابغ كسوة .»^(٢) .

وأما العجائز من نساء الفرنج فكان دورهن تحريض الجيش وتشجيعه على الصمود والاستبسال في مواجهة المسلمين^(٣) .

يستدل من نثر العماد أن المرأة الأفرنجية قد شاركت الرجل مشاركة فعلية ، وكانت تقف إلى جانبه في كل الأحوال ، في السلم والحرب وكثيراً ما أسند إليها دور القيادة وحكم الممالك .

ويصور العماد المرأة الأفرنجية في الأسر ذليلة مهانة ، نزعت عنها كل أثواب العفة والحياء وقدمت نفسها رخيصة لمن يطلب ، يقول في وصف السبايا : « فكم محجوبة هتكت ومالكة ملكت وعزباء نكحت وعزيزة منحنت ، وبخيلة تسمحت ، وحيية توقحت ومجدة مزحت ، ومصونة ابتذلت وفارغة شغلت ، وعقيلة امتهنت ، وجميلة امتحنت وعذراء أفتrect .. الخ »^(٤) .

– الطبيعة

صور العماد بعض مظاهر الطبيعة الجميلة الفاتنة بما فيها من أشجار وأزهار وأنهار وحدائق غناء ورياض نضرة ، وطيور مفردة ، ونجد مثل هذه الأوصاف في الصورة التي رسمها للميدان الأخضر ، وهي صورة شاملة لكل ما يبهج النفس ويريح القلب وتحس وأنت تقرأها أنك تنعم بشذى عطرها الفواح

(١) الفتح ، ٣٤٩ .

(٢) نفسه ، ٣٤٩ .

(٣) نفسه ، ٣٤٩ .

(٤) نفسه ، ١٣٦ .

وتطرب لغناء طيورها العذب حين تسمع العماد يقول : « وللأشجار اشجان تبتها الحمائم وللزوار ادوار تحثها العزائم ، والنوار قد شب وشاب ، والهزار قد لب ولاب ، والعندليب قد طرب وغنى ، وللعرار شميم وللنهار نسيم ، وللمجلس زين وللنرجس عين وللورد منة ، وللورد جنة ، وللكام أجنة وللغمام دجنة ، وللانس من الأغاني جنة .. وللجدول جدوى وللبلبل شكوى ، وللأقاحي ثغور وللضواحي حبور .. الخ » (١)

ونجد في نثر العماد صورة لتغير الأحوال المناخية والانتقال في الفصول فنراه يصور الخريف ، وما يحمله من تغيرات في أحوال الطقس ، ويركز على عنصر الحركة فيقول « فقد تشاجرت عواصي العواصف مع الأشجار وألقت حواملها أجنة الأثمار .. وأرتجت الأرض وأرتجزت السماء ، وعوى لمكاس السماك العواء .. » (٢)

ويصور العماد استقبال الناس للفصل الجديد واستعدادهم لمتطلباته من غذاء وتدفئة فيقول « وخزنت الفواكه وقرنت الشواكه وأعدت الكوانين للكوانين وجمع الفحم ، وحمل الشحم .. الخ » (٣)

ويحدثنا العماد في بعض نثره عن فصل الشتاء وأثره على حركة الجيش ، فيصف الأمطار والثلوج والبرد الشديد ، ويقول « ودخل الشتاء واشتد البرد ، وبلغ الجد وفرغ الجهد ، ووقع الثلج ، وعمى النهج ، امتلأ به ذلك المرج ، وأصبحنا وصباحنا أبيض ، وجناحنا لا ينهض ، والعروق لا تنبض ، والبروق لا تومض ، والخيام لجمودها واقفة على غير عمودها ، والنيران مقرورة الخ » (٤)

— الحضارة

تعرض العماد في نثره التاريخي للحديث عن بعض مظاهر الحضارة في عصره ، مثل الموائد والأطعمة والأشربة والفواكه والملابس والحلي وأدوات الزينة ، والعمارة والهدايا والتحف .

(١) البرق ، ج ١١٥ ، ص ٥

(٢) نفسه ، ج ١٣٢ ، ص ٣

(٣) نفسه ، ج ١٣٢ ، ص ٣

(٤) نفسه ، ج ١٣٥ ، ص ٣ ، و ج ١٧٠ ، ص ١٧١

- الأطعمة والأشربة :

حدثنا العماد في نثره عن مائدة أعددها السلطان صلاح الدين لعماد الدين صاحب سنجار ، فوصف طريقة اعداد المائدة اعداداً أولياً فقال في ذلك : « ثم بسط السماط ، ومدت الموائد ، وعدت الفوائد ، ونضد الخوان ، وكونت الألوان ، وحفت الجفان » ثم وصف أنواع الطعام الذي أحضره الطهاة ليضعوه على المائدة فقال مفصلاً : « وأحضر الطهاة من كل حاجة وباجة ، وخروف ودجاجة ، وحلو وجامت ، وحامز وحامض ، وتفه وقابض ، ومطبوخ ومشوى ، ومصنوع ومقلي ، ما طاب مذاق مذاقة ومخضه ، وطالت الأيدي في بسطه وقبضه »^(١).

ويضيف إلى هذه المائدة ثمار المشمش التي وصلت من دمشق في أحمال ليقدّم لضيف السلطان ، وقد وصفها العماد بأوصاف كثيرة فقال في أنواعها : « وطلعت في أبراج الأطباق نجومها كأنها كرات من التبر مصوغة أو بالورس مصبوغة ، صفر كأنها ثمار الرايات الناصرية » ويقول في وصف مذاقة : « حلا ذوقاً وأحل شوقاً ، ولو نظم جوهره لكان طوقاً ، وهو أحلى من السكر ... الخ »^(٢) . وبعد الحديث عن ثمار المشمش يعود العماد ليصف المائدة في وضعها النهائي ، تنتظر قدوم الضيوف ، فيقول : « ومادت أعطاف الموائد بالالطاف ، وتهادت أكناف السرايق بمواشي الأفواف ، وهناك المسموط والسلوخ ، والمخطوب المطبوخ ، والمقلو المقلوب و المحبو المحبوب ، والأغذية واللحمان ، والأشوية والحملات والألبان والألوان »^(٣) .

- التحف والهدايا والعطور والملابس :

يذكر العماد أن السلطان عندما استقبل عماد الدين قدم له بعض التحف والهدايا السنية ، وكان من جملتها أسلحة وخيول وملابس ، يقول في بيان ذلك : « فلما رفع من ناديه القرى ، وفرع بأيديه الذرا ، قدم ما أعده للهدايا والتحف السنايا من الجياد المقربة والثياب المذهبة والعدد المعجبة والأسلحة المذرية وكل ما

(١) الفتح ، ٢٢٠ .

(٢) نفسه ، ٢٢٢ .

(٣) نفسه ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

بروق ويزروع ، ويضىء ويضوع »^(١) .

ويفصل العماد الحديث عن هذه الهدايا التي قدقت لضيف السلطان ، فيصف الخيول بأحسن الصفات ، يقول : « ولما فرغت الموائد ، وبلغت المقاصد أحضر السلطان لعماد الدين هداياه وحياه بأحسن من تحاياها ، من خيل صفون ، وحصن كحصون ، وعراب جياذ من طوائف الطريفيات ، وسوابق سوابح من العتاق الأعوجيات ، والمذاكي المنسوبات ، من كل مطهم مطهر الخيم ، وكريم من نسل كريم .. الخ »^(٢) .

ثم يصف العماد بقية الهدايا المقدمة من التحف والعدد والأسلحة فيقول : « ثم أحضر له ما يناسبها من التحف اللاتقة ، والطرف الرائقة والعدد الرائعة ، والأسلحة المانعة ، والسابريات السابغات والدروع والزرديات والرؤوس والرائانات ... الخ »^(٣) .

ويصف بعد ذلك الملابس والحلي والجواهر والعطور التي قدمت هدايا لضيف السلطان فيقول : « ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية والملح والديبقي ، والمصمت والمغربي والعراقي ، ومن نسج تونة وتنيس ، كل ثمين وتنيس ، وما شاكله من أنواع الطيب ، على النمط والترتيب »^(٤) .

(١) الفتح ، ٢٢٠ .

(٢) نفسه ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٣) نفسه ، ٢٢٤ .

(٤) نفسه ، ٢٢٥ .

النثر الأدبي

أ - ما يصدر عن ديوان الإنشاء :

- الرسائل

- المنشورات

ب - الرسائل الإخوانية

ج - النثر في الخريدة

النثر الديواني :

يطلق هذا الاسم على ما يصدر عن ديوان الإنشاء من مكاتبات مختلفة ، كالرسائل والمناشير ، والتقاليد ، والعهود ، وهي مكاتبات تصدر عن كاتب الإنشاء باسم الخليفة أو السلطان أو الوزير ، وفي زمن الدولة العباسية كان ديوان الإنشاء تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذي ينفذ أموره بقلمه ويتولى أحواله بنفسه ، وتارة يفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ويكون الوزير هو الذي ينفذ بكلامه ويقرنها بتوقيعه على القصص ونحوها ، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد على ما يرد عليه من ديوان الوزارة ويمشى على ما يلقي إليه من توقيعه ^(١) . وقد تبوأ كاتب الإنشاء منزلة رفيعة ، فلا يكاد يكون عند الملك أو السلطان من هو أخص منه ولا الزم لمجالسته ، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن ، مقدماً لديهم على من عداه ، يلقون إليه أسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ^(٢) .

وقد قامت دواوين الإنشاء بدور مهم في تصريف أمور الدولة في العصور المختلفة ، بما صدر عنها من مكاتبات تنظم شؤون الحياة السياسية والاقتصادية وشؤون الرعية ، وقام على إدارة هذه الدواوين نخبة من الكتاب المشهورين . في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية ارتقت دواوين الإنشاء واحكم تنظيمها ، لا سيما ديواني الإنشاء في دمشق والقاهرة ^(٣) .

وإذا نظرنا في نثر العماد الديواني نظرة عامة ، فإننا سنلاحظ أنه يتناول موضوع الصراع بين المسلمين والصليبيين ، والجهود المبذولة لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين ، كما يتناول تعريف أعمال الدولة وما يتصل بها من توليه الولاية ، وتوليه القضاء ، والمدرسين وعمال الدولة الآخرين ، وموضوعات إدارية أخرى .

ويمكن أن نقسم موضوعات نثر العماد الديواني لغايات الدراسة إلى قسمين هما :

(١) الفلشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٢٧

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٢٥

(٣) مصطفى محمود زايد ، النثر ٥٩ في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام ، رسالة

دكتوراه الجامعة الأردنية ١٩٩٢ .

- الرسائل الديوانية وتشمل :

رسائل طلب النجدة

رسائل البشرى

الرسائل الأخبارية

رسائل الشكر

رسائل التعزية

المنشورات والتقاليد

رسائل طلب النجدة :

كانت المناوشات بين المسلمين والصليبيين لا تهدأ على مدار العام ، لكن المعارك الكبيرة كانت تأخذ طابعاً موسمياً ، إذ تتوقف في فصل الشتاء ، وتنشط في الفصول الأخرى ، وتقوم بالمهمة الأولى وهي المناوشات ، قوة ضاربة تدعى العسكر ، وتتكون من المماليك وممن أعتق منهم ، وأما المهمة الثانية ، فكانت تتطلب مشاركة العنصر الثاني من عناصر الجيش ، ويتألف هذا العنصر من قوات حكام الولايات التابعة للسلطان^(١) ، ولذلك فإن جيش السلطان الذي يقف في مواجهة الفرنجة يحتاج مساندة قوات الأمراء من حكام الولايات عند التخطيط للقيام بعملية عسكرية كبيرة ضد الصليبيين . أو عند التعرض لهجوم قوى من الأعداء وقد صدر عن ديوان الإنشاء في الدولتين مجموعة من الرسائل التي يطلب فيها الاستنجد بجيش من جيوش الولايات ، وقد سطر العماد بعض هذه الرسائل خلال عمله في ديوان الإنشاء ، ووصل إلينا ما تبقي منها في كتابيه الفتح القسي في الفتح القدسي ، والبرق الشامي ، بجزئيه الثالث والخامس^(٢).

ومن رسائل الاستنجد التي أنشأها العماد رسالة بعث بها إلى (تقي الدين عمر) في مصر سنة ٥٧٩ هـ يستدعى فيها العساكر للجهاد ، وفيها يصور أحوال الأمة وقد تهيأت للجهاد ، ولم يبق لها عذر في تركه ، يقول : « فالعساكر تجتمع والمعاذ ترتفع والخبرات تتسع ، والآمال تنتجع ، والأعشاب تكثر وتكثف ،

(١) ر . س . سميل ، فن العرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر : ١١٨ .

(٢) تجد هذه الرسائل في الفتح القسي ، الصفحات ، ٣٩٧ ، ٤٤٠ ، ٤٠١ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٣٥ . وفي البرق

الشامي ، ج ٣ ، ١٤٥ ، ج ٥ ، ١٧١ .

والبركات تكمل وتكثف ، وقد أنهض الله إلينا أمداد الآتة ، وأقدمها لينهض بقوادمها إلى جهاد أعدائه ، فلم يبق لنا عذر في ترك الجهاد يقبل ولا ينال بعد هذا من أمر الغزو ما لا يفعل «^(١) .

في هذه الرسالة يذكر مكاتبة السلطان للأمراء في الأطراف ، واستدعاءهم للجهاد ، ويصور اندفاعهم وحبهم للقاء العدو ، وليس من عائق يعوق قدومهم إلا الشتاء ، فإذا ما انقضى وأقبل الربيع اقبلوا للنداء ملبين وللجهاد مجيبين يقول في ذلك : « وقد كاتبنا أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعائهم وأن يحزموا بجمع العساكر وأمرهم لأمرائهم ، فما منهم إلا من يسابق إلى تلبية النداء ويسارع إلى إجابة الدعاء ويعشق ولا عشق لقاء الأحبة لقاء الأعداء وهم الآن ينتظرون شتات شمل الشتاء وإذا رأوا أذار مقبلاً ، أقبلوا ، فإنهم قد شاهدوا فرع العارض حافلاً احتفلوا وأجمعوا أمرهم قبل الأجماع بأمرنا الخ »^(٢) .

وفي سنة ٥٨٦هـ كتب العماد رسالة إلى الديوان العزيز في بغداد يخبرهم فيها عن قدوم ملك الألمان بجيشه إلى بلاد الشام ، ويصور في هذه الرسالة حجم الخطر المحدق بالمسلمين فيقول : « وقد وصل الخبر بالداهية الدهيا ، والغمة الغماء ، والنكبة النكباء ، والشدة الدهماء ، والليلة الليلاء وهي أن ملك الألمان ، ومعه ملوك الأفرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها ، وأحزاب الشياطين وجنودها ، وألوية اللأواء وبنودها ، وصل جاراً على السماء ذيول قتامة ، مجريا في الأرض سيول لهامه ، ثائراً بالهداية لطلاب ناره ، سائراً بخيله ورجله كالسيل إلى قراره »^(٣) .

وفي نهاية الرسالة يستنهض العماد هم المسلمين ، ويحثهم على القيام بوجه هذا الخطر ودفعه ، ويخص بهذا الاستنهض الخلافة في بغداد ، فيقول : « قد تعين الجهاد على كل مسلم ، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم ، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأم الفروض والخدم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض ، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه

(١) البرق الشامي ، ج ٥ ، ١٧٢ .

(٢) نفسه ، ج ٥ ، ١٧٢ .

(٣) الفتح ، ٢٩٧ .

ولا تتركه ، وأن الذي يستبعد من النصر القريب يتسقى ويتسع به سلكه ومسلكه »^(١) .

ويمضي العماد في استنهاض الهمم في وجه العدو الألماني مخاطباً أحد الأمراء من رسالة في الاستنجد يقول : « فلينهض نهوض الكريم إلى مساعدة الكرام وليخطب اهتمام العظم لملايسه الخطوب العظام ويثب وثوب الأسد على الفريسة ، وينتخ للاسلام انتخاء ذوي الأنفس الأبوية ، والهمم العلية النفيسة ، وليكن أول سابق في مضمار الجد ، وأسعد طالع في أفق الجد ، فإن الاسلام في انتظاره ، والمطالع مستشرفة إلى اشراق أنواره ، لا زالت الأقدار جارية في اسعاد الدين والدولة بأقدارة »^(٢) .

يلجأ العماد في رسائل الاستنفار والاستنجد إلى كل ما يحرك المشاعر ويثير الهمم ، فيخاطب الناس محركاً فيهم مشاعر النخوة والحمية بعد أن يصور خطر الألماني الذي وصل بجيشه من البر والبحر : « وهذا أوان تحرك ذوي الحمية ونهوض أهل الهمم الأبوية العلية ، فإن القوم في كثرة ولا يقاتلون إلا بالكثرة والمجلس أولى من تولى تفريج هذه الغمة وكشف هذه الملثة حتى تخلف أمانى الألماني وتبطش إيمان الأيمان ، وتخذل انصار النصراني »^(٣) .

ثم يخاطبهم محركاً فيهم المشاعر الدينية فيقول : « فإن المؤدون فرض الجهاد المتعين ، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين ، وأين المسلمون ؟ وحاش أن يكونوا للإسلام مسلمين : وأين المقدمون في الدين ؟ ومعاذ الله أن لا يكون في نصرته على الموت مقدمين ! »^(٤)

والرسالة التالية نموذج يمثل رسائل الاستنفار عند العماد في نشره الأدبي .

(١) الفتح ، ٣٩٨

(٢) نفسه ، ٤٠٠

(٣) نفسه ، ٤٠١

(٤) نفسه ، ٤٠١

فصل من كتاب^(١)

قد أحاط العلم بما عرا من الملم ، وعرض من الخطب المدلهم ، ووصل من العدو
الثائر ، ونزل من النازلة التي هي أم النوازل ، والدائرة التي هي أم الدوائر .
وقد أن للإسلام أن يسلم ، وللإيمان أن يعدم ، وللتثليث أن يعلن ، وللتوحيد
أن يكتب ، وللکفر أن يقدم ، وللهدى أن يحجم .

فقد قذف البحر من الفرنج بزبدته والبر أتى أتية من كل بلد للکفر بسببه
ولبده ، ووصل الألماني ، المخذول ، بعدده وعدده . وهذا خطب قددهم ، وعدو قد هجم
وشر قد غم . وجمرداهية قد وقد ، وجمع طاغية قد وفد ، في جيوش جائشة ،
وجموع طائشة ، وجنود محشورة ، وبنود منشورة وخبول مجففة ، وسيول
مجففة .

وهذا أوان تحرك ذوي الحمية ، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية ، فإن القوم
في كثرة ، ولا يقاتلون إلا بالكثرة . وهم مفترون بعلوهم ، معتززون بعتوهم ،
مستنون في طريق العثرة ، والسييل إذا وصل إلى الجبل الراسي وقف ، والليل إذا
بلغ إلى الصبح المستنير انكشف . والمجلس أولى من تولى تفريج هذه الغمة وكشف
هذه الملمة حتى تخلف أماني الألماني ، وتببطش أيمان الأيماني ، وتخذل أنصار
النصراني ، وتجنني وتبزر رؤوس الجنوى والبيزاني .

فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين ، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين ،
وأين المسلمون ؟ - وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين ! وأين المقدمون في الدين ؟
ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين ولولا التقيد بهذا العدو
الرابض ، لأطلقت أعنة النهضة إلى العدو الناهض ولا بد من لقائه قبل تلفق
الجمعين وإراءة الملاعين وجوه حتوفهم ملء العين .

(١) الفتح القسي : ٤٠١ .

هذا فصل من رسالة بعثها السلطان إلى الديوان العزيز في بغداد يخبر فيها عن قدوم ملك الألمان إلى ديار المسلمين وفيها يطلب العون ويستنجد بالمسلمين لمواجهة الخطر الداهم ويتشكل هذا الفصل من محورين أساسيين :

الأول : يصور الخطر الداهم ، ويصف هذا الخطر بالخطب المدلهم وبالنازلة والدائرة ، ويتنبأ للإسلام معها بالاستسلام وللکفر بالانتصار ، ويهدد العماد من هذا التصوير ببيان الخطر الحقيقي المحقق بالأمة لتأخذ حذرها، وفيه محمولة لاستنهاض الهمم واثارة النفوس وكسب مزيد من العون والمدد .

وأما المحور الثاني فيشتمل على الدعوة إلى النفي للدفاع عن الإسلام المهدد إذ يقول هذا أوان تحرك ذوي الحمية ، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية .

ويخص المجلس بالدعوى إلى تلبية نداء الاستغاثة وتفريج الغمة ، إذ يقول : « والمجلس أولى من تولى تفريج هذه الغمة وكشف هذه الملمة »

ثم يجعل الدعوة عامة للجهاد إذ يثير في الناس مشاعرهم الدينية ، ويذكرهم بما فرض عليهم من الجهاد ، يقول : فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين « وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين ، وأين المسلمون ؟ وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين ! » .

أدى هذا النوع من الرسائل دوراً مهماً في بناء جبهة الجهاد وتوحيدها وتدعيمها من خلال ما قام به من دور تحريضي ضد الغزاة والمتخاذلين ، وتذكير الناس بدورهم ، والكشف عن الأخطار المحيطة بهم .

الرسائل الإخبارية

كانت هذه الرسائل أشبه ما تكون بالبيانات العسكرية ، تصدر عن ديوان السلطان يكتبها العماد لتحمل إلى الخليفة في بغداد أو الحكام في الولايات أخبار ساحة الصراع المستمر بين السلطان وأعدائه من الفرنجة أو خصومه من حكام بعض المدن الإسلامية من المعادين للوحدة الإسلامية والمتحالفين مع الفرنجة وقد واكبت هذه الرسائل حركة الجهاد وساهمت فيها بدور إيجابي وفعال ، واعطتنا صورة واضحة عن الدور الذي اضطلع به القائد المسلم المجاهد وصورت الوقائع بمجرياتها ونتائجها وأثارها كما اعطتنا صورة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المسلم آنذاك في مصر وبلاد الشام .

ومن الرسائل الإخبارية رسالة إلى الديوان العزيز والوزير « عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء » أصدرها العماد سنة ٥٧٣هـ^(١) . أخبر فيها عن عدد من الموضوعات ، منها وقعة الفرنج بحمص ، وانتصار ناصر الدين محمد بن شيركوه عليهم في هذه الوقعة ، وفصل منها في محاصرة الفرنج قلعة حارم بين فيها حالة حارم المحاصرة ، وقدم السلطان لفك حصارها فقال : « وما بعث الخادم على قصد الشام في هذا العام إلاّ الاهتمام بهمام من جعلتها ربوض الفرنج بحارم ، حماها الله تعالى ، ونزولهم عليها ، واصحارهم للمحاصرة ، وعظم مصابها بالمصابرة ، وكانت في مضايقة لها ، وضائقة بها ، ومنازلة إيها ، ونازلة بسببها حتى أقوت فيها قواها ، وأقفرت منها مناها ، ووجدت حارما لحظها حارمه ، وبقيت مدة أربعة أشهر وهي تصبح كل يوم وتمسي لعدة من فارسها وراجلها عادمة .. الخ »^(٢) .

وفي هذه الرسالة يخبرنا عما قام به السلطان من ترتيب الأمور في مصر وتقوية ثغورها قبل أن يرحل إلى الشام لمحاربة الفرنجة فيقول : « وما فورقت تلك الديار المصرية إلى أن قويت ثغورها ، وترتبت أمورها ، وأسهمت وعورها ، وشكر من العدد العدة بها وفورها ، وحصنت أطرافها ، وحميت أكنافها ... ووطننت على مواضع العوارف عساكرها ، وجهزت الأساطيل المنصورة التي تباشر الأعداء في بلادها وتحاصرها وبمصر اليوم جند لهم من نصر الله جند ، وأخوه نائب ماض لا يفل له حد ، وما سار عنها حتى شحنتها بالرجال الحماة ، والأبطال الكماة ،

(١) البرق الشامي : ٣ : ٧١ .

(٢) نفسه : ٣ : ٧٢ .

والأجناد الهداة ، والأنجاد الغزاه .

ثم يخبرنا في الرسالة نفسها عن المحل الذي حل بالشام ، ويعتذر به عن الجهاد في هذا العام مع الإشارة إلى عزم السلطان على الجهاد في العام القادم بعد أن يقوي بلاد الشام في هذا العام إذ يقول : « فهو يجتهد في تقوية بلاد الشام في هذا العام ويكثر بها الذخائر للإسلام ، ويأمل ببركات اعتزازه بالاعتزاء إلى العبودية بالمواقف المقدسة الأمامية المستضيئة أن يستقبل في الربيع القابل استدراك ما يتأخر في هذه السنة من أمر الجهاد ، ويضعف في هذه المدة قوة الأخبار والآلة الاستعداد يستفتح العزيمة حينئذ بفتح البيت المقدس ، وجميع الساحل ، ويخطب بالسنة الأسنة محصنات الحصون وعقائل المعازل ، ويقصي من المسجد الأقصى عبده الصليبان ، ويظهر من أرجاس أولئك الأنجاس بيوت الرحمن الخ .^(١) .

وجاءت بعض هذه الرسائل لتصور معركة من المعارك^(٢) : ومنها الرسالة التي كتبها العماد في أواخر سنة ٥٧٤هـ بأمر من السلطان وأرسلها إلى القاضي الفاضل ليصف بها نوبة هنفري ومقتله .^(٣) وفيها يصور عظمة جيش الفرنج وكثرته لبيان حقيقة الخطر الداهم وليكون الاستعداد بحجم هذا الخطر . يقول العماد مصوراً هذا الجيش : « فانهم خرجوا في جمع حم ، جمره حام ، بحره مائج ، حشده هائج ، حشره كثيف عدده ، كثيرة عدده ، مجلب بخيله ورجله ، لجب بسيله في سله ، جالب برماحه ورمائه طالب بأطلابه ، وأبطاله من الدين اطلال دمانه الخ »^(٤) . ثم تصوير المعركة ومقتل هنفري فيقول : « واستمرت المراماة عند (تل الجارة)^(٥) ، واشتجرت الحرب بين المغيرة والغارة ، وطلب أصحابنا طلب الملك فوفروا سهامه في السهام وحمل هنفري جريحاً ، وأودع بعد يومين ضريحاً ... ويضيف واصفاً نتيجة المعركة ، وكانت نصرة أثيلة ، ونوبة أثيرة ، وثورة من أعداء الله في تلك الفورة مستثيرة ، وحالة صدقت قول الله

(١) البرق : ٣ : ٧٤

(٢) أنظر مثل هذه الرسائل في البرق الشامي : ٣ : ١٦٦ ، ١٦٩

(٣) البرق الشامي : ٣ : ١٤٩

(٤) نفسه : ٣ : ١٤٩ - ١٥٠

(٥) تل الجارة : لم أجد ذكراً لهذا المكان في المعاجم الجغرافية المتاحة .

في محكم كتابه « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة »^(١) فما ولوا مدبرين إلا والأدبار وليهم ، وما غرهم بالله الفرور إلا لأنه أراد أن يملى لهم وبالخزي يملهم ، وما عادوا إلا بخسر وعسر ، وقتل فيهم وأسر ، وكسب منهم وكسر) .

وبعد أن صور نتيجة المعركة نقل إلينا أثرها على نفوس المسلمين وما أحدثته من بهجة وسرور بالنتصر المبين وقد وضع ذلك بقوله : « وعدنا بالحمد وحمدنا الله في العود ، وأحمدنا في نصره تجارة الوعد ونشرنا لاعلان أعلام السعد وجلونا بالبلد عرائس تلك الفرائس ، وعقدنا بعذب الرماح ذوائب أولئك الفوارس ، وعبرنا بأسارهم وعددهم عبره »^(٢) .

للعناد اهتمام خاص في رسائله التي تصور المعارك بسير المعركة ونتائجها فنراه يصف اللقاء بين الفريقين ، ويصور المنازلة وحركة الجنود ، واسلحتهم . كما يصور حالتهم النفسية فنراه يقول من رسالة أرسلها إلى مجاهد الدين قايماز^(٣) بالموصل في خبر معركة مرج عيون « وجعل الله لنا عليهم الكرة وصحح فيهم الكسرة ومنحنا أكتافهم ، وأعدنا بالقتل والأسر إلى الأحاد آلافهم ، ومهدنا في بطون القشاعم أكتافهم ومزقناهم في المأزق كل معزق . وما تركنا جمعا لهم في المفر غير مفرق ، ولجأوا إلى أودية ومضائق ، وأدواء وبواثق .. ولم يزل الضرب يضربهم ، والطنع يقربهم الخ »^(٤) ويجد العماد في هزيمة الصليبيين في هذه المعركة ووقوعهم في الأسر مادة خصبة للتندر بهم وبزعمائهم فيصورهم بصور مزرية تناسب ما هم فيه من ذل وهوان فنراه يقول في هذه الحالة « واشتمل بعد ذلك حبل الأسار على مئتين من كبار الكفار فأسر كل مقدم مقدم ، وهمام معلم ، ودوى الداوي ، وفر الفريري ، وبار الباروي ، وضعفت قوى القومصي ، وكانوا رؤساء متربين ، فصاروا اتراب الأخامص ومن جملة ما حصل في الاسار ، وصلح للخسار ، وكبر بأن يذكر في الكبار ابن بارزان وهو الثاني الكبير الشأن ،

(١) البقرة ، الآية ٢٤٩

(٢) مجاهد الدين قايماز . أبو منصور بن عبد الله الزيني ، الملقب بمجاهد الدين قايماز ، فوض اليه سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل الحكم في سائر بلاده لما رآه من حسن مقاصده واعتمده عليه في كل أحواله (أنظر وفيات الاميان ج ٤ ، ٩٢-٨٤ ، ومفرج الكروب ، ج ٢ ، ١٥٣)

(٣) البرق ج ٢ ، ١٥٢

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ١٦٨

وصهرة الأعور ، وهو الذئب الأغبر ، وهو صاحب طبريا ، وهو من الصابرين على اجتناب السابرية^(١).

ويحدثنا العماد في هذه الرسائل عن الجيش الاسلامي ، ويظهره بأجلى صورته وأقواها فهو جيش قوي كثير العدد مستعد للقاء الأعداء متعطش للنزال ، يقول العماد في وصف تحرك هذا الجيش إلى بيسان : « ... فنهضنا بعساكرنا المنصورة المصرية الحاضرة ، والشامية ، وعساكر حلب وبلاد الجزيرة ، وسرنا في مجر على المجرة ذيل نقعة المثار ، ويسدل عجاجه دون عروس الشمس سترأ على الأقطار ، وضوامر ما أردن ماء الأردن إلا ليردن من أهل الساحل بحر الدم ، وبواتر بواتك كأنها في أيدي الدارعين بوارق السحب تتألق في جنباتها لقمات الضرام ، وعبرنا مخاضة الحسينية يوم الخميس تاسع جمادي الآخرة في الخميس العرمم ، وكان قصدنا لقاء الفرنج في مجمعها وإخراجها إلى مصرعها . وإلجأها إلى ضرب المصاف ... الخ »^(٢).

يؤكد العماد في رسائله الديوانية معاني الجهاد ، فلا تكاد تخلو رسالة من هذه الرسائل من حديث عن الجهاد ، وحث للمسلمين على القيام به لتحرير البلاد المغتصبة ، والمقدسات المستباحة ، وفتح القدس اسمى الأهداف ، وأشرف الغايات ، وتذكير الأمة الإسلامية بضرورة الجهاد من أجل القدس أمر لا بد منه ، وهو ما يحرص عليه العماد دائماً فنراه يقول من رسالة : « ولم يبق لنا الآن / أرب إلا في الجهاد الذي تعين فرضه ، ولزم في الذمة فرضه ، ووجب علينا حقه ، وسهلت لدينا إلى اقامه واجبه طرقة ، ففتح المسجد الأقصى أدنى الينا من كل فتح وربح المسلمين فيه أوفر وأدنى من كل ربح ، وليلة انتظار فتحه ، وأن طالت فلا بد لها من صبح »^(٣).

وجاءت بعض الرسائل الأخبارية على شكل بيانات شاملة تنقل أخبار سنة كاملة ومن الأمثلة على هذا النمط الرسالة التي أرسلها السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الاسلام باليمن .^(٤) واشتملت على أخبار وتحركات السلطان وحروبه

(١) البرق ج ٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) نفسه ج ٥ ، ١٥٠ .

(٣) البرق : ٣ : ١٤٢ - ١٤٣ .

(٤) الفتح : ١٩٠ ، ٥٤٦ - ٥٤٨ .

وانتصاراته في سنة ٥٨٣ هـ . وقد وصف في هذه الرسالة الفتح بأجمل الأوصاف ، ثم تحدث عن حال القدس خلال الاحتلال وجهود السابقين في فتحها ، ثم وصف خروج السلطان وجيشه من دمشق واستعدادهم لمنازلة الصليبيين واجتماع الجيوش الإسلامية من الأمصار كافة المصرية والشامية والفراتية ، وحصول بعض المواجهات مع الأعداء ، ثم يصف العودة إلى الشام ، وتكامل جيوش الإسلام فيقول : « وعدنا إلى الشام ، وقد تكاملت به جموع الإسلام ، وزخر بحر الفضاء بأمواج الأعلام وطفا على أثباج لجه حباب الخيام ، وقد فض الفضاء ختام القتام الخ »^(١)

وفي هذه الرسالة يصور العماد حالة الاستعداد عند الصليبيين فيقول : « وقد سمع الفرنج تجمعنا فجمعوا ، ونادوا في بلادهم فأسمعوا واجتمعوا على صفورية من صفر ، وحشروا في تلك الأشهر من جمعهم في المحشر جموع سقر ، وأخرجوا صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، فتهافت إلى شعلة ناره فراشهم ، وتوافى إلى ضله ضلاله خشانهم الخ »^(٢)

ويستمر العماد في الحديث عن مراحل المعركة فيصور مرحلة ما قبل المواجهة، وهي مرحلة عرض الجيش ، ويبدو فيها بصورة تبعث الرعب في النفوس لكثرتة وقوته وسطوته فيوم عرضه كأنه يوم القيامة كما يقول العماد : « فلما تكامل منا الجمع وأخذ بعجابه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع ، عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض ويتلوا لنزول الملائكة « ولله جنود السماوات والأرض » في رايات خافقة كقلوب الأعداء ، عالية كهيم الأولياء وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء ، وسار في كتائبها نازل القضاء ، وسحب ذيل الأرض غبار نقعها على السماء الخ »^(٣)

وإذا ما التقى الجمعان ابدع العماد في وصف هذا اللقاء فنراه يقول مصوراً بدقة وقائع معركة حطين : « فاغتنمنا الفرصة في اللقاء وهجنا إلى الهيحاء وأسرعت الأعنة وأشرعت الأسنة ... جال الجاليش وطار السهم المريش وعصفت رياح السوابق ، واستعبرت عيون الجوارق ولقيناهم في عرمرم عارم . ومجر جار

(١) الفتح : ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) نفسه : ١٩٢ .

(٣) نفسه : ١٩٥ .

وعوامل جوازم ، وصواهل صلادم إلى أن يقول : وأصبحنا يوم السبت وأهل الأحد على حالهم لم يريموا مواضع قتالهم ، وما زالت الحملات تتناوب والأسلات تتواثب وتتشاوب والسواعد بقرع الظبا سواع ... والمناياتثن ، والحنايا تحن ، والبيض تصافح البيض صفاحها ، والذكور نتاج الحرب العوان بالفتح عند اللقاء لقاحها ، والذوابل في اشاجع الشجعان ذواب الخ^(١) .

وبعد هذا الوصف للمعركة ينقل الينا العماد نتائج هذه المعركة وما اسفرت عنه من غنائم واسرى وتحرير مدن وقلاع وحصون إسلامية كانت بيد العدو ، كما يصف صداها في المجتمعين الاسلامي والفرنجي ، ويذكر بعد ذلك ما قام به السلطان في بقية العام المذكور من فتح مدن الساحل وحصار صور ، ويختم رسالته بالحديث عن فتح عكا وبيت المقدس .^(٢)

يمكن للدارس أن يلاحظ اهتمام العماد في حديثه عن المعارك والوقائع بين المسلمين والصليبيين أن يظهر شجاعة الجيش الاسلامي وإقدام قاداته بقوله في حديثه عن لقاء بين الفريقين مصوراً أقدام (صارم الدين قايماز النجمي) : « وتقدم السلطان إلى الأمراء فترجلوا ونازلوا حين نزلوا وهجموا على الضراغم في أجسامها وأحوجوها بجد الأقدام إلى احجامها ، ونصب صارم الدين قايماز النجمي علمه على سور الفرنج بيده ووقف عنده بجلاده وجلده » .^(٣)

وصدرت بعض الرسائل الإخبارية عن ديوان السلطان إلى الديوان العزيز في بغداد لتصف حال الجيش وتخبر عن حاجته إلى الراحة والعتاد والسلاح ، والرواحل ، وإلى جانب الدور الأخباري لهذه الرسائل فان لها دوراً آخر وهو استنهاض الهمم والتماس المعونة من القيادة الاسلامية العليا في بغداد فبعد الرحيل عن عكا سنة ٥٨٧هـ ارسل السلطان رسالة بإنشاء العماد إلى الديوان العزيز يصف مطاولة الحروب والجراح وفناء الخيل والعدد والسلاح .^(٤) إذ يقول عن الجيش : « وقد نهك العكسر طول البيكار^(٥) وانضاه قتال الكفار بالليل

(١) الفتح : ١٩٦

(٢) نفسه : ٢٠١-٢٠٢

(٣) نفسه : ٥٠٨-٥٠٩

(٤) نفسه : ٥٥٢

(٥) نفسه : ٥٥٢

والنهار لا سيما في هذه السنين الأربع ، فإنه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا ربيع ولا شتا ولا صاف ، إلا حيث صف العدو وصاف ، وقد تكررت عليه الزحوف ، وتعثرت به الحتوف ، وتفللت منه السيوف ... حتى سنم ومل ، وضجر وكل ، وكم عقد عزمه وحل وأنهل نصله من دم الكفار وعل ، وأمل النصر فقال عسى ولعل ، وأما خيول الجيش فقد أجهدها الجهاد ، وأنضاهها الطراد ، وفرس جلودها الجلاذ ، وعزت لكثرة الجروح السهام المفرقة منها بين الجسم والروح ، أما العدد فقد فقدت بالكلية ، وعمدت وتكسرت وتحطمت ، وأما الشباب فإنه قد فني بعد أن اتخذ من أخشابه من مناحتها ونقضت الكنائن ، ونقضت منه ومن كل ما يُذخر بالخزائن »^(١) .

وفي رسالة يصف بها نوبة ياف أرسلها إلى الديوان العزيز ينقل إلينا فيها أخبار الهدنة التي عقدت بين السلطان والفرنجة سنة ٥٨٨هـ ، وبنفاذها وضعت الحرب أوزارها مدة وجيزة ، وأخذ الفريقان يستعدان خلالها للمعركة القادمة . وقد حدد العماد في رسالته مدة الهدنة بثلاث سنوات وثمانية أشهر وقال في الإخبار عنها وما يترتب عليها من آثار : « ... ومدة الهدنة التي أخذوا بها اليد ، وأعطوا اليمين ثلاث سنين وثمانية أشهر ، أولها أول ايلول يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين ، ووضعت الحرب أوزارها ، ورحضت بماء السلم أوضارها ، وأخذت من أهل النار ثارها ، وتعهد الفرنج من وراء البحر ديارها ولا شك أنهم يستعدون في هذه المدة ، ويستمدون ما يستطيعونه من القوة والعدة ويستجدون عزمة العدة » .

يؤكد العماد في هذه الرسالة ان صلاح الدين قد استفاد من هذه الهدنة في تحصين الثغور ، وإتمام أسوار القدس وخنادقه ، وتعبئة العساكر وتهيئتها للمرحلة القادمة يقول مبرزاً دور القائد : « وقد شرع الخادم في تحصين الثغور ، واقرار الأمور ، وإبرام معاهد المعامل ، وإحكام قواعد الحق لتعفية آثار الباطل ، وإتمام أسوار القدس وخنادقه حتى يبقى على الدهر أمناً من طروق العدو وطوارقه ، وإعادة الأعمال والأحوال إلى عادة عمارتها وحلية نضارتها ، وإحجام العساكر وإراحتها ليوم تعبها الذي هو عين راحتها » .

(١) الفتح : ٦٠٦-٦٠٩

لم تكن الرسائل الإخبارية مقتصرة على نقل أخبار الصراع بين الفرنجة والمسلمين بل اهتمت في جانب منها بنقل أخبار الحروب الداخلية ، التي خاضها السلطان صلاح الدين في سبيل توحيد الجبهة الاسلامية ضد حكام المدن والولايات الاسلامية المتخاذلين عن القيام بواجبهم في مواجهة الخطر الصليبي ، ففي عام ٥٧٨ هـ قام السلطان بحملة واسعة ضد الحكام المتخاذلين والمتحالفين مع الفرنجة فقد ترك حصار حلب وعبر الفرات مستجيباً لنصيحة صاحب حران (مظفر الدين كوكبري بن علي كوجك) ^(١) فاستولى في حملته هذه على بلاد الجزيرة ، ونزل على الموصل وعاد إلى سنجار وأخذها سنة ٥٧٨ هـ ^(٢) ولشرح الحال وبيان ما قام به السلطان .

أنشأ العماد رسالة أرسلها إلى الديوان العزيز ^(٣) . بين فيها الأسباب التي دعت للقيام بهذه الأفعال فقال : « ... وأقبل إليها لينزل عليها بجد جديد ، وحد حديد وهيبتة رائعة وهيئة رائقة ، وعزيمة في ابطال الباطل ، وتحقيق الحق صادقة ، ونشاط نشأ من حميته بحمى الدين ، واحتياط رأت في تملكها للمسلمين ، فإن القوم قد أجتروا على الاسلام باسلامه ، واحترموا كسب الذم في فض ذماره ونقض ذمامه ، واستنصروا بالنصارى وبذلوا لهم البذول منقودة وموعودة ، وأخرجوا من الفرنج إلى ثغور الشام جنودا محسورة ، وجموعاً محشودة » ^(٤) .

يفهم من النص أن جرأة أهل هذه البلاد على الاسلام واستعانتهم بالفرنجة هي الدافع الرئيسي لقيام السلطان بالنزول على بلادهم وتخليصها وتخليص بلاد المسلمين كافة من شرورهم وقد استطاع السلطان انجاز هذه المهمة دون اراقة دماء المسلمين كما يقول العماد في احدى رسائله : « وعبر الفرات فلم يصل إلى بلد إلا تسلمه سلماً ، وتولاه حلماً وتملكه سهلاً ولقي به أهلاً ، فكأنما وصل إلى بيته

(١) أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل أطلعته صلاح الدين الرها مع حران وسمياط وزوجه أخته ، نزل عن بلاده السابقة مقابل أربل وضم إليه صلاح الدين شمشور توفى سنة ٦٣٠ هـ ودفن في إربل (وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ١١٣ ، ١٢١ ، وذيل الروضتين ، ١٦٦)

(٢) الروضتين ، دار الجيل ، ج ٢ ، ص ٣٠

(٣) البرق ، ج ٥ ، ٤٢٠

(٤) نفسه ، ج ٥ ، ٤٢٠ ، ٤٦٠

ورعيته ، واجناده مستبشرين بخدمته كذلك دخل إلى الموصل ولم يشهر سيفاً ، ولم يقصد لعدوه من فتح حتفاً ،^(١) .

وتصف بعض الرسائل ما استقرت عليه أحوال البلاد التي ضمها السلطان إلى ولايته في جهوده لتوحيد البلاد الإسلامية ، ومن هذه الرسائل ما أنشأه العماد لشرح أحوال بلاد الجزيرة في رسالة إلى (خطيبا)^(٢) والى (زبيد)^(٣) إذ يقول في وصف الأحوال : « ... فبلاد الجزيرة قد استقرت في خدمتنا عساكرها ، ودانت لطاعتنا أكابرها ، وأمر فيها أمراؤنا ، وولي بها أولياؤنا ، وأصبحت ربقتها لرضا اصحابنا ، وانصرفت نوابها بتصرف نوابنا ، وعنا ذور عنادها ، وساء ذور سدادها ، ومجدنا كرامها ، وكرمنا أمجادها ، وجئنا إلى حلب وقد اسرجت لنا والجمت شهاؤها ، وزينت لتزف علينا حسناؤها وانتظمت في سلك الممالك حصونها ومعقلها ، وانظمت إلينا عساكرها ، واستفاضت بنا مغافرها ، وأطاعت عواصي عواصمها ، وامتلات المغاني بمغانيها وظهرت المعالي في معالمها ... »^(٤) .

ويظل موضوع الجهاد هو الشغل الشاغل للسلطان ، فلا ينسى العماد التذكير به فيما يعرض له من مواقف فيها هو يقول في هذه الرسالة بعد أن انجزت وحدة بلاد الشام وبلاد الجزيرة ومصر : « ولم يبق إلا التوفر على الجهاد بالاجتهاد من سائر الجهات ، وانجاز عدات الله في النصر على هداه والسعي في تملك القدس ، وافتتاحه وتحصيل مراد الاسلام والنزول على اقتراحه »^(٥) .

(١) البرق ، ج ٥ ، ٤٤٠ ، ٤٦٠

(٢) خطيبا : لم أجد له ترجمة .

(٣) مدينة مشهورة باليمن أحدثت أيام المأمون سنة ٢٠٤ هـ (معجم البلدان ج ٣ ص ١٣١ ، ١٣٢) .

(٤) البرق : ٥ : ١٢٢

(٥) نفسه : ٥ : ١٢٣

ذكر فصل إلى الديوان العزيز واشتمل على مجاري الأحوال^(١)

قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل ، ومجاولة أهل الغواية بالفوائل ، ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل وقد نزلوا على عكاء المحروسة ، براياتهم المنكوسة وارانهم المعكوسة ، وحشودهم المجموعة ، وجموعهم المحشودة وظلال الضلال الممدوده وإقدام الأقدام المصدودة المسدودة .

وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت ، والروعات التي وقعت ، اكثر من عشرين الف مقاتل ، من فارس وراجل ، ورامح ونابل ، فما أثر ذلك في نقصهم ، ولا أرت إلأنار حرصهم ، وما قلل حد حديثهم الحادث ، ولا قلل عدد كثيرهم الكارث ، ولا غضوا عيون أطماعهم ، ولا فضوا ختوم اجتماعهم ، ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى ، ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى ، ولو قطعوا بالمدى ، وهم لمواضعهم ملازمون ، وفي مصارعهم جاثمون ، وعلى الموت صابرون ، وإلى الحمام صائرون . وبالخنادق من البوائق محتمون ، وبالطوارق من الطوارق معتصمون ، وعندهم أنهم للبلد محاصرون ، وهم على الحقيقة وان كانوا لكثرتهم غير محصورين محاصرون ، وان جندنا لهم المنصورون .

وللعساكر الإسلامية فيهم كل يوم نكاية شديدة ، وفتكة مبيده ووقعة ناكية ، وجمرة ناكية ، وصدمة صادعة ، وخدمة رادعة .

ولما امتنع الدخول عليهم ، وتعذر الوصول اليهم ، جمع راجل البلاد ، وحشد إلى حشودهم ذوو الاستعداد ، حتى نقاتل الراجل وقد وصل الاخ العادل وفقه الله للمراضى الشريفة ، بالجموع الكثيرة الكثيفة ولعل الله ان يجعل حتف هؤلاء الفرنج فتحاً لأبواب الفتح ، ويعجل لليالي آجال المسلمين بطلوع صبح النجج .

وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ، ويأتي عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر وجميع من في ديار الكفر ، فإنه لم يبق لهم مدينة ، ولا بلدة ولا جريزة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة ، إلا جهزت مراكبها ، وأنهضت كتائبها ،

(١) رسالة اخبارية (الفتح ٢٢٧-٢٢٩)

وتحرك ساكنها وبرز كامنها ، وأنهضت قرائنها ، وانقضت معاونها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخايرها . وثار ثائرها ، وسار سائرها ، وطار طائرها ، وثلت كنائن كنائسها ، واستخرجت دفائن نفائسها .

وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها ، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها وتصلبت للصليب السليب ، وتفصبت للمصاب المصيب ، ونادوا في نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجراً ، وبحرب الاسلام مجاهراً ، ولتعبده مسترداً ولجده في النخوة لدينه مستجداً ، فقد وهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه .

ومن عجز عن السفر سفر بعدته وثروته من قدر . وبذل البدر لمن بدر فجاءوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحداد ، وتواصلت منهم الأمداد بالإمداد ، وتوالت أنجاد الإنجاد وهم على النقص يزيدون ، وعلى الأبد يبيدون ، وبالمهج يهودون ، وعن اللجاج في خوض اللجج لا يعودون .

وهؤلاء هم الواصلون في البحر القاطعون أثباجه ، المكاثرون أمواجه . فأما ملوكهم الواصلون في البر فقد تواترت اخبارهم ، بأن خلت منهم ديارهم ، ورمتهم إلى اغراضهم البعيدة أوتارهم ، وبهم يستفحل الشر ، ويعضل الأمر ، ويصول الكفر ويجول ، ويتناول الشرك ولكنه لا يطول ، فإن لدين الله من خليفته ناصرأ لا يسلمه ورازقأ لا يحرمه ، وماتمكسك بحبل طاعته إلا من فاز قدحه وحاز السناء قدحه ، وأسفر صبحه ، ووفر نجحه ، وبدا علوه ، وباد عدده .

والخادم بقوة رجائه في العوارف الامامية ، والعواطف النبوية وشدة استظهاره بالنصره الظاهرة الناصرية ، أن أن يفرق الجمعين ويجمع الفريقين القمعين . ويعيد البر بحرا من دماء وافدي البر والبحر ، ويقطع دابرهم دابر الكفر .

هذا الفصل نموذج يمثل الرسائل الاخبارية ، فقد كتبه العماد إلى الديوان العزيز في بغداد يصف فيه أحوال الجهاد ومنازلة العدو ، ويبين حالة المسلمين ومقاومتهم التي استمرت ثلاثة أشهر ، وفيها أوقعوا الكثير من الخسائر بجيش الفرنجة ، وهذا النوع من الرسائل يحمل الأخبار مفصلة إلى خارج جبهات القتال ويبدو ذلك واضحاً في هذه الرسالة إذ يصور العماد صمود الفرنجة ومواجهة المسلمين لهذا الصمود بخطط جديدة بتوفير مزيد من الإمدادات ، وذلك بقدم الملك العادل بالجيوش المصرية وقد قابل الصليبيون هذه الخطط بجمع حشودهم واحتشاد جمعهم للوقوف بوجه الجيوش الاسلامية .

ويختتم العماد هذه الرسالة بخاتمة تحمل معنى الاستنجاد حين يقول ، والخادم بقوة رجائه في العوارف الإمامية ، والعواطف النبوية ، وشدة استظهاره بالنصرة الظاهرية الناصرية ، أن أن يفرق الجمعين ويجمع الفريقين القمعيين ، ويعيد البر بحرأ من دماء وافدي البر والبحر ، ويقطع دابرهم دابر الكفر » .

تتشابه هذه الرسائل في أسلوبها مع نثر العماد التاريخي ولا يكاد القارئ يميز بين الأسلوبين إذ يقدم الحدث التاريخي أو الموضوع المراد الأخبار عنه من خلال سلسلة من الألفاظ المسجوعة المتقابلة والمتجانسة ومثال ذلك أخباره عن نزول الفرنجة على عكا إذ يقول : « وقد نزلوا على عكاء المحروسة ، براياتهم المنكوسة ، وأرائهم المعكوسة ، وحشودهم المجموعة ، وجمعهم المحشودة ، وضلال الضلال المحدودة ، وإقدام الأقدام المصدودة المسدودة » ويصف صمود الأعداء وصبرهم بالاسلوب نفسه ، إذ يقول « وما قلل حدّ حديثهم الحادث ولا قلل عدد كثيرهم الكارث ، ولا غضوا عيون أطماعهم ، ولا فضوا ختوم اجتماعهم ، ولا ردوا وجوههم عن مواجهة الردى ، ولا قطعوا أملهم عن الوصول إلى المدى ، ولو قطعوا بالمدى ، وهم لمواضعهم ملازمون ، وفي مصارعهم جاثمون ، وعلى الموت صابرون ، وإلى الحمام صائرون الخ »

إن في هذا الوصف تجاوزاً للحدثين : نزول الفرنج على عكا وصمودهم في وجه المسلمين ، فالحدثان لا يحتملان هذا الوصف إذا أردنا الحقيقة التاريخية المجردة ، ولكن العماد تأخذه روح الأديب للدخول في موضوع الصنعة اللفظية ، فيتسع ثوب الألفاظ على المعاني .

ومن الأمور التي يمكن ملاحظتها في هذا النص استخدام بعض المصطلحات ذات الدلالات الدينية وهي تعكس طبيعة الصراع القائم بين أتباع عقيدتين . ومن الألفاظ في هذه الرسالة قول العماد يصف أحوال الفرنجة : « وقد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وحصل الشرك على قروحه وعدم اقتراحه » .

رسائل البشرى

لاقى المسلمون عنثاً شديداً في صراعهم مع الصليبيين ، وكان النصر حليماً جميلاً يداعب خيال المجاهدين ، فإذا ما تحقق النصر في معركة من المعارك ، أو تصرر حصن أو قلعة أو مدينة من يد الأعداء ، طارت القلوب فرحاً بما تحقق ، وخفت الرسل إلى الأمصار تحمل رسائل البشرى بهذا النصر ليعم الفرح ديار الإسلام ، وقد تسابق الكتّاب في تجويد رسائلهم وتنميقها لتحمل أخبار الحدث المفرح إلى كل المسلمين ، وقد ساهم العماد بحكم عمله في ديوان الإنشاء في تدبيح رسائل البشرى وهي رسائل تحمل الأخبار السارة إلى النواحي الإسلامية عن الأحداث التي تجري في ساحة الصراع السياسي والعسكري آنذاك . ومن هذه الرسائل البشارة التي أمر نورالدين زنكي كاتبه عماد الدين بإنشائها لتقرأ في سائر البلاد الإسلامية . وبشارة ثانية خاصة تقرأ بحضرة الإمام المستضيء بنورالله العباسي في بغداد تبشر بسقوط الخلافة الفاطمية في مصر ؛ وإقامة الدعوة العباسية بسائر الديار المصرية سنة ٥٦٧هـ .

وانتدب لنقل هذه البشارة إلى الديوان العزيز القاضي (بهاء الدين بن أبي عصرون)^(١) .

ويحدثنا العماد في هذه البشارة عن الوجهة التي أرسلت إليها الرسالة ، والسبب الذي أنشئت من أجله ، فبين أنها صدرت إلى جميع البلاد الإسلامية عامة . وإلى سائر البلاد الجزرية والطلبية والفراتية والشامية خاصة ، ثم يذكر السبب الذي أرسلت من أجله الرسالة فيقول : « مبشرة بفتح الفتوح ، والنصر المنوح ، والسعد المشرق ، واليمين المتألق ، والصبح المسفر بعد الإظلام ، والنجاح الميسر بعد المرام ، والنعمة التي يجب على أهل الإسلام القيام بشكرها ... وهو ما اعتمدنا من إقامة الدعوة الهادية العباسية ، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار ، المصرية والاسكندرية ، ومصر والقاهرة ، وسائر الأطراف القاصية والدانية ، والبادية والحاضرة ... ولم يبق بتلك البلاد منبرٌ إلا وقد أقيمت عليه الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بنورالله ، أمير المؤمنين ... الخ »^(٢) .

(١) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ، ج ١ ، ١٧٤-١٧٧ .

(٢) نفسه : ١٧٥ .

ويوضح العماد في بشارته هذه النتائج الإيجابية التي تحققت بزوال الدولة الفاطمية ، ومنها : زوال العقبات من وجه الوحدة الإسلامية ، وانتهاء البدع . يقول العماد مصوراً هذه الآثار : « واهتزت أعطاف البلاد لبركتها ويمنها ، واعترت أطراف البلاد ببهجتها وحسنها ، وجلبت معالم العلم بالمدارس بعد الدرس ، وهبت أرواح الطمأنينة ، وأنفاس السكينة على الأرواح والنفوس ... الخ »^(١) .

ويصور هذا الحدث بأنه شرف لهذا الزمان وأهله ، يفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله ، وفضيلة خص الله بها نورالدين دون سائر الأنام ، ومنقبة أهداها له دون ملوك الإسلام ... »^(٢) .

ومن الانتصارات المهمة التي أشاعت الفرح والبهجة في نفوس المسلمين استرجاع القدس ، فللقديس عند المسلمين أهمية خاصة لا تدانيها فيها أي مدينة أخرى في بلاد الشام فهي مسرى الرسول وأولى القبلتين وفيها المسجد الأقصى والصخرة المشرفة ، وكان استرجاعها أهم الأهداف وأشرف الغايات التي يسعى إليها المجاهدون وأمنية غالية راودت كل الملوك الذين سبقوا صلاح الدين ، ولكن الله خصه بفضيلة تحريرها من أيدي المحتلين وتطهيرها من رجسهم وذنوبهم ، وإعادتها إلى حظيرة الإسلام لتعود إلى قداستها وطهرها بعد طول احتلال .

كان لتحرير القدس رنة فرح عظيمة عمّت بلاد المسلمين ، فشعر الناس بسعادة غامرة إذ تكلفت جهود السلطان صلاح الدين ومن سبقوه بهذا الفتح العظيم . ولما كان السلطان على علم تام بمدى شوق المسلمين لتحرير القدس فقد عجل بنقل البشائر إلى الأمصار وإلى الديوان العزيز في بغداد ، ووكّل بهذه المهمة كاتبه العماد فكتب في ذلك اليوم الذي تلا الفتح وهو يوم السبت سبعين كتاب بشارة سيرها إلى الأمصار^(٣) . ومنها كتاب إلى الديوان العزيز في بغداد . وهو كتاب وضع فيه العماد جلاً خبرته في صناعة الإنشا والترسل فقال في وصفه : « وافتتحت في بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز ، وأوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز ، وشحت وشعنت ، وشعبت واشبعت ، وأطلت و أطنبت ... وكتبت

(١) ابن الفرات : ١٧٥ .

(٢) نفسه ، مجلد ٤ ، ج ١ ، ١٧٦ .

(٣) ذكر المقدسي في الروضين بعض هذه الرسائل ، انظر الصفحات ٩٦-١٠٠ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، ج

٢ : وذكر العماد رسالتين ، انظر الفتح : ١٤٨ ، ١٤٩ .

إلى كل ذي طرف بمعنى طريف ، ولفظ فصيح حصيف ، وسهرت تلك الليالي ، حتى نظمت اللآلي ، وحلّيت المعالي ، وقرحت المعادي ، وفرحت الموالي ، وسارت شواردي إلى المشرق والمغرب ، معربة عن هذا الفتح المعرب عن النصر المذهب»^(١) . وقد افتتح هذا الكتاب بآية قرآنية تحمل معنى البشرى بالنصر ، وتحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر ، فقال : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منكم ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »^(٢) . وبعد هذه الآية أفاض الكاتب في التحميدات ؛ فحمد الله الذي أنجز لعباده ما وعدهم به من الاستخلاف في الأرض ، وحمده علي قهره المشركين ، ونصره لأهل التوحيد عليهم ، وتمكينه لدينه الذي ارتضى ، وتبديله الأمن من المخافة ، وحمده على هذا النصر العظيم الذي خصّ به السلطان بعد أن انقضت الملوك الماضية والقرون الخالية كما يقول على حسرة تمنيه ، وحيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسنيه^(٣) . ويستمر العماد في تحميداته فيحمد الله الذي أعاد القدس إلى القدس ، وأعاده من الرجس ، وحقق من فتحه ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عزّ يومه ماحياً ذل أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس^(٤) .

تبرز النزعة الدينية في رسائل البشرى وفي هذا الأمر دلالة واضحة على طبيعة الصراع بين الفئتين المتحاربتين ، فهو صراع بين عقيدتين ، بين أهل الإيمان أهل الشرك ، بين أهل التوحيد كما يسميهم العماد و أهل الأحد . وتبدو هذه النزعة بوضوح في رسائل العماد فنراه يقول في رسالته هذه مصوراً النصر ذاكراً بعض أسبابه « وهذا الفتح قد أقدره الله على اختصاصه بالحرب العوان ، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الأنصار ، وأظهر الأعوان ، وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ، وقمع من كان يقول إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد وأعان الله بإنزال الملائكة والروح وأتى بهذا النصر الممنوح الذي هو

(١) الفتح : ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) سورة النور ، الآية ٥٥ .

(٣) الروضتين ، دار الجيل ، ج ٢ ، ٩٦-٩٧ .

(٤) نفسه ، ج ٢ : ٩٧ .

فتح الفتوح وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً وعبُد الله في البيت المقدس سرّاً وجهراً»^(١).

وتظهر في مبشرات العماد أصداء تلك الانتصارات التي يبشر بها ، ففي بشارته التي نقلها ضياء الدين الشهرزوري إلى الديوان العزيز ببغداد يصور القدس وقد تبدلت أحوالها ، فعادت إلى قداستها ، وتطهرت من الرجس ، ورجع الإسلام إليها بعد أن كان غريباً فيها ، يقول مصوراً ذلك : « ... وأعاد به القدس إلى قدسه ، وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه ، وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره وخرج قمر الهدى من سراره ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره ، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس ، وأمنت الخلوف فيها وبها مضارب صباح السرى ومناخ التعريس ، وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون الأقربون ، والملائكة المقربون ، وخرس الناقوس بزجل المسبحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين»^(٢).

ويصور العماد الأماكن المقدسة وقد شاركت الناس الفرح والسرور ، فظهرت عليها البهجة بعد أن تطهرت واجتمع شمل المسلمين فيها ، ورفعت عليها الأعلام العباسية ، وخرج منها أهل الشرك ودخلها أهل التوحيد ، ويعبر العماد عن هذه الحالة فيقول : « وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شملاً ، ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت بألسنة عذبها : « نصر من الله وفتح قريب»^(٣) . وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين ، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين ، فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوي ، وقامت بدلالاتها براهين الإعجاز الحمدي ، وصافحت الأيدي منها مواضع القدم ، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها في القدم»^(٤).

ولا ينسى العماد في بشارته أن يتحدث عن عظمة الفتح فيقول مصوراً ذلك : « ولو شرح ما لهذا الفتح من جلاله العظمة ؛ ودلالة المكرمة ، لكب قلم البليغ في

(١) الروضتين : ١٧:١ .

(٢) الفتح : ١٤٧ .

(٣) سورة الصف : الآية ١٣ .

(٤) الفتح ، ١٣٨ .

مضمار البيان ، ولم يبلغ مدى «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً»^(١) .

تعددت كتب البشائر التي سطرها العماد بتعدد الانتصارات التي تحققت في زمنه سواء على صعيد المعارك الداخلية التي استهدفت توحيد الأمة الإسلامية^(٢) . أو على صعيد المعارك مع الصليبيين الغزاة^(٣) . ولم تكن رسائل البشرى كلها في الأخبار عن الانتصارات بل جاء بعضها ليحبر ويبشر بقدوم جيش أو وصول أسطول . ومن الأمثلة على ذلك بشرى العماد بصوول الأسطول المصري الثاني سنة ٥٨٦هـ ، ودخوله إلى عكا المحاصرة يحمل المدد إلى أهلها ، وبعد أن يذكر العماد وصول الأسطول يصور لنا استعداد الصليبيين لملاقاته في البحر ، فيقول : «وكان الفرنج عند وصول أسطولنا المنصور قد جهزت مراكبها ، وأبرزت مراكبها ، وحمت بالرجال والعدد جوانبها ... وسحبت على ثبج البحر سحائبها ، وأدبت إلى عقبان أساطيلنا المحلقة بعقابها ثعابينها وعقاربها ... الخ) .

ثم يقول واصفاً أسطول المسلمين (الأسطول المصري) وخرج الأسطول الأول من الشفر مستبشراً بدخول الثاني ، واجتمع شمل الشواني^(٤) بالشواني . وتفرقت سفن العدو شذر مذر وعُذر حين دُعر فحذر ، وكسبت شوانينا ست بطس لهم فكسرتها ، ووجدت فيها عدة من الرجال المقدمين والنساء فأسرتها ... الخ^(٥) .
والرسالة التالية نموذج لرسائل البشرى عند العماد .

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٩ .

(٢) انظر هذه البشائر في البرق الشامي ، ج ٣ ، ١٧٤ ، ج ٥ ، ١٢٠ ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) الفتح ، ٢٥٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٤) الشواني : مفردا شيني ، وهي سفينة عربية كبيرة ، تقام فيها الأبراج والقلاع للدفاع وتسير بمساعدة مئة وأربعية مجدافاً (السلوك ، حاشية رقم ٧ ، ص ٥٦) .

(٥) الفتح ، ٢٨٦ .

مما كُتبه إلى الديوان العزيز مجده اله للبشرى بفتح القدس
مع الرسول ضياء الدين الشهرزوري من رسالة^(١)

وقد سبقت البشائر بما مَنَّ الله به من الفتح العظيم ، والنصر العميم ،
والعرف الجسيم ، والفضل الوسيم ، واليوم الأغر الأعز الكريم ، والشرف الذي
ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الأعصار ، وأراد تأخير فخاره إلى هذه الأيام
ليكون بها تاريخ الفخار . فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته وافتضاض عذرتة ،
وخص من أجراه على يد بسمو قدره ونمو قدرته . وأعاد به القدس إلى قدسه ،
وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع الإسلام القريب منه إلى داره ،
وخرج قمر الهدى به من أسراره ، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره . وعادت الأرض
المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس ، وأمنت الخوف فيها وبها فصارت
صباح السرى ومناخ التعريس . وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصيون من الله
الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون الأقربون والملائكة المقربون ، وخرس الناقوس
بزلج المسيحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين .

وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة و
الجماعة ما جمع للمسلمين فيه شملاً . ورفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت
من بره أوفى نصيب ، وتلت بالسنة عذبة « نصرٌ من الله وفتح قريب » . وغسلت
الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين . وبعد أهل الأحد من قربها
بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوي ، وقامت بدلالاتها
براهين الإعجاز الحمدي وصافحت الأيدي منها موضع القدم ، وتجدد لها من البهجة
والرسالة ما كان لها في القدم .

فهو ثاني المسجدين ، بل ثالث الحرمين ، فليهن البيت الحرام خلاص أخيه
البيت المقدس من الأسر ، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر ،
وتطهير مواقف الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، من أدناس الأرجاس ، وتضوع أرج
الرجاء في أرجائه بعد اليأس ، فالحمد لله الذي أبدل الأيحاء بالأنبياس ، ونزع
عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس . وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين -
صلوات الله عليه - على الأعصر مفضلاً ، وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه ،

(١) رسالة في البشرى (الفتح ١٤٧-١٤٩) .

فأصبح فخرالدين والدنيا به مكملاً ، ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها ، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الافرنج بقتلها وأسرها . ولقد حل الكف عروة عروة ، وهد ذروة ذروة ، وعادت حباله رثائاً ، وعقوده أنكاثاً ، ومساكنه أجداثاً ، وصار حديثاً بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثاً .

فالرتاج مستفتح ، والرجاء مستنجد ، والبلاد مستخلصة ، والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة ، والعقائل مقتضة ، والمعائل منفضة ، ومناهل المنى بمياه النجاح مرفضة ، ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضة ، والثغور مبتسمة ، والأمور منتظمة ، والحصون متسلمة والخصوم مذعنة مستسلمة ، وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها ، بل يستولي على أوساطها وأكنافها ، ويعيد إلى الطاعة كرهاً مذهب خلافها . ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين ؛ وهذا أوان حصادها وقطافها . والنعمة بحمد الله عظيمة ، والموهبة وإن خصت هذا الإقليم فهي في جميع أقاليم المسلمين عميمة .

ولو شرح ما لهذا الفتح من جلاله العظمة ، ودلاله المكرمة ؛ لكب قلم البليغ في مضممار البيان ، ولم يبلغ مدى (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) ؛ والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري ، قد توجه لهذه النعمة واصفاً ، وعندما يؤمر به من إنهاء البشرية بها واقفاً ، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفاً ، وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور مصادر شرحه ، ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بإنهاء ما تسنى من فتحه ، ويحدث وهو الضياء بأسفار صبحه .

هذه الرسالة نموذج لرسائل البشري التي سيرها العماد إلى الأطراف الإسلامية بمناسبة إسلامية سعيدة . فقد رأى العماد في فتح القدس حدثاً عظيماً وشاركه أهل عصره في نظرتهم لهذا الفتح ، وترددت أصدائه في المجتمع الإسلامي حتى بلغت بغداد . إذ نقل القاضي ضياء الدين الشهرزوري هذه البشارة في رسالة أبدعها يراع العماد عبّر فيها عن عودة الأحوال إلى ما كانت عليه في المدينة المقدسة على يد السلطان صلاح الدين ، فقد أعاد بهذا الفتح القدس إلى قداسته ، وأظهره وطهره من رجس الكفر ورجسه ، ورجع الإسلام الغريب منه إلى داره ، فأقصى الكفار عنه وأدنى منه المسبّحين ، وخرس الناقوس بزجل المسبّحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ^(١) .

لقد صورّ العماد في هذه الرسالة غبطة المسلمين بهذا الفتح ، واجتماع شملهم في القدس ، وإقامتهم الشعائر فيها ، وحرصهم على تطهير الأماكن المقدسة من رجس المشركين ودينهم ، يقول العماد مصوراً حالة الفرح التي شارك فيها المكان بالإضافة للإنسان : « وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شملاً . ورفعت الأعلام العباسية على منبره . فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت بالسنّة عذبة (نصر من الله وفتح قريب) ^(٢) وغسلت الكعبة المشرفة بدموع المتقين من دنس المشركين ، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين ، فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوي ، وقامت بدلالاتها براهين الإعجاز المحمدي ... الخ » ^(٣) .

ويستدل من هذه البشري أن فتح القدس كان ذا أثر بعيد في الحياة الإسلامية في مختلف جوانبها ، إذ هيأ الظروف لحركة فكرية نشأت في هذه المدينة وأقيمت المجالس الأدبية ، وحلقات الدرس ، وفي المجال السياسي ، كان فتح القدس مقدمة لفتوحات أخرى ، وبداية لانهاية الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي . فقد كانت القدس أعظم الممالك عند الصليبيين . ونستطيع أن نلمح الأهمية السياسية والعسكرية لفتح القدس من قول العماد : « وكمل بهذا الفتح الشريف شرف

(١) الفتح ، ١٤٧ ، وانظر حول هذا الموضوع رسالة السلطان إلى أخيه سيف الإسلام في اليمن . الفتح القسي ، ص ١٩٨ .

(٢) سورة الصف ، الآية ١٣٦ .

(٣) الفتح ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

زمانه ، فأصبح فخرالدين والدنيا مكملاً ، ويسر ببركات أيامه فتح البلاد
الساحلية بأسرها ، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها ،
ولقد حلّ الكفر عروة عروة ، وهُدّ ذروة ذروة ، وعادت حباله رثائاً ، وعقوده أنكاثاً ،
ومساكنه أجداثاً ، وصار حديثاً بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثاً «^(١) .

- رسائل الشكر :

صدر عن ديوان الإنشاء مجموعة من الرسائل ، أنشأها العماد تحمل الشكر لأمراء الولايات على ما قدموه من معونة للسلطان في جهاده وحربه من أجل التحرير ، كإرسال الجيوش أو إرسال السلاح والعتاد وأدوات القتال ، أو إرسال العمال المهرة لبناء الأسوار أو حفر الخنادق . ومن الأمثلة على رسائل الشكر رسالة السلطان إلى (عزالدين مسعود) ^(١) صاحب الموصل لما أهداه من النفط الأبيض والرماح والتراس ، فعندما وصل السلاح والعتاد أرسل العماد رسالة على لسان السلطان يشكر فيها (عزالدين مسعود) يقول فيها : « وصل السلاح وتم للإسلام من قروح الكفر الاقتراح ، واستجيدت التراس والرماح . وفارقت للقائنا أجسام الأعداء والأرواح ، واتصل بالنفط الواصل من أهل النار الاحتراق ، وطعنت وضربت منهم النحور والأعناق ، وقد هدأ بما أهداه النصر إلى الهدى ، والردي إلى العدا » ^(٢) .

ويبين العماد في هذه الرسالة ما يبذل من تضحيات في المعركة فيقول: إن العدة ما طلبت إلا للحاجة الضرورية لها ، فإن الحرب قد أتت على كل العدد إذ تحطمت الرماح وتثلمت السيوف : « وقد أفنى المصال النصال ، والنضال النبال ، والرماء الأفواق ، واللقاء العتاق ، والمصاع المناصل ، والقراع الذوابل ، والصيال الصواهل ، وعمل الجهاد الدائم العوامل ، فلا ضامر إلا وهو وإن كان غالباً لا غب ولا صارم إلا وهو في دم العدو الفائن ناصب ... الخ » ^(٣) .

ومن هذه الكتب ما كان في الشكر على إرسال جيش كما فعل صاحب الموصل إذ سير ولده في جيش لمساعدة جيش السلطان ، فكتب العماد له رسالة يشكره فيها على لسان السلطان ويقول العماد في هذه الرسالة في شكره لصاحب الموصل: « الحمد لله الذي نصر الدين بأهله وعجل بأنصاره جمع شمله ، ووفق أسد عرين الملك أن يحمي حوزة الإسلام بشبلة ، وللمجلس في طوله اليد الطولى والمنة

(١) أبو الفتح وأبو المظفر ، مسعود بن قطب الدين سودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر ، أتابك صاحب الموصل ، الملقب بعزالدين ، كان مقدم الجيوش أيام أخيه غازي . استقل بملك حلب بعد وفاة أخيه ، توفي سنة ٥٨٩هـ (وفيات الأعيان ٥ : ٢٠٣-٢٠٨) .

(٢) الفتح ، ٣٥٢ .

(٣) نفسه ، ٣٥٠ ، ٣٥١ .

الثانية التي أربت على الأولى ... وشرف بولده علاء الدين من تقلده بوروده أو في منه ، وتعجل من وفوده أقوى منه وأوفى جنة ، فلقد ورد إلى الساحل بحراً ، وطلع في ليل القساطل بديراً ، وأسفر لمرتقبتي صباح النصر فجراً ، وجلا وجوه المؤمنين ببشراه بشراً وملا صدر الإسلام أمناً وقلب الكفر ذعراً ^(١) .

وعند وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل فإن العماد يرسل رسالة ثانية إلى والده في الشكر على إرسال الجيش مع ولده ، ويصف أحوال البلد وما هي فيه من ضعف فيقول : « ... ولا خفاء عن العلم بحال الفرنج في هذه السنة ، واجتماع ملوكهم وكنودهم وتوافد أمداد حشودهم ، وقد استشرى شرهم ، واستضرى ضرهم ، وأعضل خطبهم واستفحل أمرهم ... الخ » ^(٢) .

وحين عزم السلطان على عمارة القدس وحفر خندقه وتجديد سورته أرسل إليه صاحب الموصل جماعة من الحجارين ، وعدتهم خمسون رجلاً سيرهم إلى القدس للعمل في الخندق وتعميق الحفر والقطع في الصخر ^(٣) . وعند وصولهم أرسل العماد رسالة إلى صاحب الموصل يشكره فيها على إرساله للجصاصين قال فيها : « قد أصبح البيت المقدس يقدس ويسبح ، ويعرب عن فضيلة منجده ويفصح ، فقد وصل الرجال الواصلون بالنجح رجاءه الحامون بحفر خندقه أرجاءه وما فيهم إلا من أبان عن جده وأبان نجده ، وألان الشديد بشده ، وثلم الحديد بثلم الصخر وهذه ... الخ » ^(٤) .

والرسالة التالية نموذج مكتمل لرسائل الشكر عند العماد .

(١) الفتح : ٣٨٣ .

(٢) نفسه : ٤٩٨ .

(٣) نفسه : ٥٦٥ .

(٤) نفسه : ٥٧٩ .

وكتبناه في شكره^(١)

وصل السلاح وتم للإسلام من قروح الكفر الاقتراح ، واستجيدت التراس
والرماح . وفارقت للقاتها أجسام الأعداء والأرواح ، واتصل بالنفط الواصل من
أهل النار الاحتراق ، وطعنت وضربت منهم النحور والأعناق ، وقد هدأ بما أهداه
النصر إلى الهدى ، والردي إلى العدا . وأجود الأكارم وأكرم الأجاود من جاد بما
أجدى ، وأهدى ما هدى ، وعاد من المكرمة بما بدا .

لا أخلى الله المجلس من يد يتخذها ، وأياد يسيرها وينفدها ، ومحمدة
يستخلصها لنفسه ويستنقضها ، وحمية للدين يقيم بها حماة الشرك ويقذها ،
ونخوة للإسلام تُمهي حدود الهمم النابية وتشحذها .

وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة ، والضرورة الشاقة ، فإن
الصروب المتطاولة المدد ، أتت على جمع العدد . فالسمر متحطمة ، والبيض
متثلثة ، ووجوه الصفاح بلثام النجيع متثلثة . وعيون النصال عن حواجب القسي
إلى مقل الأقران رامقة مارقة ، وحمام الحمام في مريشات السهام بكتب الكبت من
حنايا المنايا السائقة سابقة .

وقد أفنى المصال النصال ، والنضال النبال ، والرماء الأفواق ، واللقاء
العتاق ، والمصاع المناصل ، والقراع الذوابل ، والصيال الصواهل ، وعمل الجهاد
الدائم العوامل . فلا ضامر إلا وهو وإن كان غالباً لا غب ، ولا صارم إلا وهو في دم
العدد الفائض ناضب ، ولا جارح إلا وهو مجروح ، ولا قارح إلا وهو مقروح ، ولا
جامح إلا وهو مصحب ، ولا باشر إلا وهو مقطب . فبأية عدة من هذه العدد أنجد ،
غار الحمد وأنجد ، وتأسس الشكر لإنعامه وتمهد . ومن العجب أن العدة تفنى ولا
تفنى العداة ، وتنمو على الحصاد وكأنها النباتات ، ويتسارع إلى إمدادها الموت
والهلاك ، ويخلفها في إبدالها الحياة . فإن البحر يمدهم ، والكفر إلى الردي يردهم ،
وكلما أخلفتهم الأيام فإن الليالي تجدهم . وما جمعهم القدر إلا ليفرقهم ، وما حمل
أهل النار في الماء إلا ليفرقهم في دمائهم وبنار البواتر يحرقهم .

(١) الرسالة في شكر عز الدين مسعود ابن مودود بن زكي صاحب الموصل (الفتح ٣٥٠-٣٥١).

جاءت رسالة الشكر هذه معبّرة عن الغرض ، وقد اشتملت على مجموعة من المعاني : أولها الأخبار عن وصول السلاح والعدة المطلوبة ، وما كان لها من أثر إيجابي على المسلمين تمثل بتقوية روحهم المعنوية ، وإمدادهم بالقوة اللازمة للصمود .

وثاني هذه المعاني : الدعاء لمجلس صاحب الموصل عزالدين مسعود على ما قدمه للسلطان وجيوشه من أسلحة ونفط .

وثالث المعاني ، بيان الأسباب التي أوجبت طلب الأسلحة ، من امتداد فترة الصراع بين المسلمين والفرنجة ، التي أتت على جميع العدد فأصبحت الحاجة ماسة للمزيد من السلاح لمواجهة الأعداء الذين يأتيهم المدد من كل مكان .

وقد غلّف العماد هذه المعاني بفيض من الألفاظ المسجوعة ، فقد أغرق في الصنعة عندما أبدى الأسباب التي أوجبت السلطان وجيشه للسلاح فقال في جمل قصيرة مسجوعة : « وما طلب من العدة ما طلب إلا للحاجة الحاقة ، والضرورة الشاقة ، فإن الحروب المتطاولة المدد - أتت على جميع العدد ، فالسمر متحطمة ، والبيض متثلثة ، ووجوه الصفاح بلثام النجيع متثلثة » .

واهتم في هذه الرسالة بالصور ، فتارة يصور السلاح ، وتارة يصور الأعداء . يقول في تصوير السلاح مستخدماً التشخيص : « وعيون النصال عن حواجب القسي إلى مثل الأقران رامقة مارقة ، أما الأعداء فإنه يشبه كثرتهم رغم فتك المسلمين بهم بالنبات الذي يزيده الحصاد نمواً ، يقول : « ومن العجب أن العدة تبنى ولا تبنى العداة ، وتنمو على الحصاد وكأنها النبات » :

ويبدو على أسلوب العماد في هذه الرسالة التكرار والإطناب ، والتلاعب بالألفاظ ، ليصل إلى السجع ، مع ما يرافق ذلك من تكلف وتعقيد وإغراب ، فنراه يقول في وصف نفاذ الأسلحة : « وقد أفنى المصال النصال ، والنصال النبال ، والرماة الأفواق ، واللقاء العتاق ، والمصاع المناصل ، والقراع الذوابل ، والصيال الصواهل » .

- رسائل التعزية :

صدرت هذه المكاتبات عن ديوان الإنشاء تحمل الخبر بوفاة شخص من عظماء الدولة ، ويحاول منشؤها أن يخفف مصاب الأمة بهذه الرسالة ويصف فيها مناقب الفقيد ، ومقدار الخسارة التي حلت بالأمة جراء فقده . ومن رسائل التعزية التي أنشأها العماد وحفظتها لنا الكتب التاريخية ، رسالتان الأولى في التعزية بوفاة نورالدين والثانية بوفاة صلاح الدين ، فبعد وفاة نورالدين سنة ٥٦٩هـ أصدر العماد كتاباً عن ابنه الملك الصالح إلى صلاح الدين الأيوبي يخبره فيه بوفاة نورالدين . وقد بدأ الكتاب بالتعزية ، ثم ذكر صفات البطل نورالدين وقيامه بأمر الجهاد ، يقول : « أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعظم أجرنا ، وأجره في والدنا الملك العادل ندب الشام ، بل الإسلام ، حافظ ثغوره ، وملاحظ أموره ، ومقدام الجهاد مقتني فضيلته ، ومؤدي فريضته ومحبي سننه ... الخ »^(١) .

يبين العماد في هذه الرسالة الخطر الفرنجي على المسلمين بعد غياب نورالدين الذي كان يعتمد في جهاده ضد الصليبيين على البطل صلاح الدين ، والعماد في هذه الرسالة يذكر صلاح الدين بدوره في الجهاد بعد وفاة نورالدين ، فيقول موجهاً الخطاب له : « وما ها هنا ما يُشغل السرّ غير مشغل الفرنج خذلهم الله ، وقد عرف السيد أدام علّوه ما يتعين عليه في مثل هذا الخطب الملم واليوم المدلهم من كل ما يُعرف من خصوص وفائه ، وخلوص ولائه ، وطيب المحتد وزكائه ، وكرم النجر وسنائه ، فما كان اعتماد مولانا السعيد الملك العادل رضي الله عنه إلا عليه ، وسكونه إليه إلا بمثل هذا الحادث الكارث ، فقد أدّخره لكفّ أنياب النواثب ، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب . وأملّه ليومه وغده ، ورجاه لنفسه وولده ، ومكّنه قوة لعضده وأيداً ليده »^(٢) .

ويذكر العماد في رسالته هذه أمر البيعة للملك الصالح اسماعيل بن السلطان نورالدين ، فيقول : « واجتمع أمراء الحضرة ، ومماليك الدولة ، وأنشاء النعمة وأولياء الطاعة ، وأرقاء الخدمة ، على البيعة المؤكدة ، والأيمان المغلظة ، والمواثيق المستحكمة »^(٣) .

(١) الروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ٢ : ٥٨٦ ، ومفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٢) سنا البرق الشامي ، تحقيق : سنس : ١٥٥ .

(٣) نفسه : ١٥٥ .

وكانت الفاجعة على الأمة الإسلامية بوفاة صلاح الدين أعظم وأشد تأثيراً ، وذلك لعظم الدور الذي اطلع به في الجهاد ضد الصليبيين ، ويمكن أن نلمس الفراغ الذي تركه رحيل صلاح الدين من خلال رسالتين كتبهما العماد الأصفهاني ، الأولى على لسان الملك الأفضل إلى عمه السلطان سيف الإسلام باليمن ، وقد بدأ هذه الرسالة بالحديث عن النبأ العظيم ، وفيها يصور العماد وفاة صلاح الدين بأنها مصيبة عظيمة حلت بالأمة الإسلامية ، ويصفها بالنبأ العظيم ، والخطب الجسيم ، والرزة العميم ، والحادث الاليم ، والغمة التي غامت بها الأيام ، وغم لها الأنام ، واعتل منها الإسلام ، واختل النظام ، ويصور الدنيا وقد فقدت بهجتها ، والعلياء قد ضلت محجتها ، والضلال قد اهتدى إلى الهدى ، ... وأرتجت أبواب الفتوح ... واضطربت الدهماء ... وبطلت مواسم الحق ، وابهمت مظالم الخلق ، وانقطعت مسالك الجهاد ، وتفجعت معالك البلاد ، ويرجع العماد سبب ما حل بالأمة من المصائب إلى وفاة الملك الناصر صلاح الدين ، ويظهر ذلك في قوله : « وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم . وأظهره من سر قدره المكتوم . بمصاب مولانا الملك الناصر - روح الله روحه ، وروض في جنان رضوانه وغرفات غفرانه ضريحه »^(١) . ويعرض العماد في رسالته إلى حال الدنيا عرضاً فيه موعظة وعظة ، ويطنب في وصف حالها ، ويصفها بالدنية فيقول : « وأعلمنا أن الدنيا الدنية حبالها رثاث ، وحياتها غثاث ، وعقودها أنكاث ، وسهولها أوعاث ، وقصورها أجداث ، وسرورها غرور ، ومواهبها أحداث ، وسكونها قلق ، وأمنها فرق ، وصحتها سقم ، وأملها ألم ، وغبظتها ندم ، ووجودها عدم ، ... الخ »^(٢) .

ويهتم الكاتب في رسالة التعزية بإبراز مناقب الفقيد ، فيصف العماد صلاح الدين في هذه الرسالة بأنه زاهد في الدنيا متبوع لسنة الرسول الكريم قائم على إحياء معالم الهدى محافظ على إعلاء راية الجهاد وإشاعة العدل والإحسان ، فنراه يقول : « ولقد كان السلطان السعيد - قدس الله روحه - بحقيقتها عارفاً ، ولطريقتها عازفاً ، ولزخرفها عانفاً ، ومن ملكها أنفاً ، وعن مالها متعفاً ، فاشتغل عن الدنيا بالدين ، وخصه الله بتأييده في علم اليقين ، واقتدى بسنة النبي - صلوات الله عليه - فما زاغ بصره وما طغى (ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة

(١) الفتح : ٦٤٤-٦٤٥ .

(٢) نفسه : ٦٤٥-٦٤٦ .

هي المأوى^(١) . ووقف حياته على إحياء معالم الهدى والإعلان بشعار التقى وإعلاء منار الجهاد وإشاعة سنن العدل والإحسان في البلاد والعباد ... الخ »^(٢) .

وأقصى عن المسجد الأقصى مدنسيه ، وأزال عنه أيدي غاصبيه ، وأصرخ الصخرة المطهرة ، وطهرها من الأرجاس ، وأبعد عنها أجناس الأنجاس ، وقهر الكفر وخذله ونصر الإيمان وأخذ له ، وأحيا للكرم كل سنة حسنة^(٣) .

وفي الرسالة التي كتبها العماد على لسان الملك الأفضل ، وأرسلها إلى الديوان العزيز يخبر فيها عن وفاة والده ، تبرز مناقب السلطان والتي كان أظهرها وأشهرها مجاهدة المشركين ، والمحافظة على الشريعة وصونها ، فنراه يقول : « وقد أحاطت العلوم الشريعة ، مجدها الله - بأن الوالد السعيد الشديد السيد ، المبر للشرك المبيد ، لم يزل أيام حياته وإلى ساعة وفاته ، مستقيماً على جد الجد ، مستقيماً في صون فريضة الجهاد وبذل الجهد . مستنفذاً في كل ما يحوز به المراضي الشريفة وسعه ، مستفرغاً طاقته في الشغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه ... ولكم أحرص دعاة الأدعياء ، وحرس ولايات الأولياء ، وكانت لكتائبه وكتبه سيوفه وأقلامه للأقاليم أقاليد ، ولم تزل جنود الشيطان ، وجموع الطغيان في الممالك بممالك الدار العزيز وعبيدوها عبايد ، وأمطر بلاد الكفر من دماء أهلها شآبيب . وأقام بها منار الإسلام ومنابره »^(٤) .

ويشير العماد في رسالته إلى ما أنجزه السلطان في ميدان الجهاد وما تحقق على يديه من فتوحات عظيمة ، وصفها العماد فقال : « وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع ، وعقوده تروق في سلك الملك وتروع ، ومصر بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة ، والأنجاد والأغوار في نظر عزمه واحدة . والبيت المقدس من فتوحاته ، والملك العظيم من نتائج عزماته ... وهو الذي ملك ملوك الشرك ، وغل أعناقها ، وأسرى طواغيت الكفر وشب وثاقها ، ونظم أسبابها وسد الثغور ، وسدد الأمور^(٥) . ويمكن أن نرى نماذج أخرى لرسائل التعزية ، ومنها الرسالة التالية :

(١) سورة النازعات ، الآية ٤٠ .

(٢) الفتح : ٦٤٦ .

(٣) نفس : ٦٤٦-٦٤٧ .

(٤) نفس : ٦٥٢ .

(٥) نفس : ٦٥٢-٦٥٣ .

فصل من كتاب إلى صاحب السويداء في جوابه
وقد توفي أيضاً ولده^(١)

فأما ما أقامه من سنّة العزاء ، فنحن معزّوه في المصاب الذي نحن فيه
مساهموه ، ولنصيب التفجع للمّة المؤلم مقاسموه ، فعظّم الله لنا وله الثواب
الصافي الأثواب ، وأجرى لنا وله الأجر الموعود به على الصبر والاحتساب ، وان
العاقل من لا يسخطه ما جرى من القدر بل يرضيه ، ولا يفارق يقظته لما يقضيه .
وما الأعرزة إلا ودائع الله فإذا استردها فلا يعدّ ذلك من الفجیعة ، والمودع الأمين لا
يجزع لرد الوديعة ، والأسى المفاجئ لا يتولج معاقل العقول المنیعة ، والروعة
الحادثة لا تلهي عن التحدث بما سلف من الصنیعة . وان الله عز وجل قد يبتلي
عبده بنعمته ، وقد ينعم عليه في ضمن بليّته . فيجب أن يكون المرء في الحالتين لا
يميل به الخوف فيأسى ، ولا يبطره الرجا فيتناسى ، ولا يأسف على ما فات فيهلك
يأساً ، ولا يفرح بما أوتى فيطلب في دار الوحشة إيناساً . والموت طريق إلى الآخرة
لا بد من انتهاجها ، والحياة حلّة ان راقّت جدّتها فمرّ الجديدين يسرع في إنهاجها ،
وأيه نفس تسكن / إلى قدرتها وقوتها والقدر المحتوم جار بإعجازها وإزعاجها . انا
لله وإنا إليه راجعون وبقضائه راضون ولقدره مستسلمون ، لا مردّ لمراده ولا معاذ
من معاده ، وبهاء الدين يحافظ على بهاء دينه بما يلزمه من سنّة الصبر المؤذن
بتسليته وتسكينه ، والله يخصّه بتوفيقه وتمكينه .

(١) رسالة تعزية (البرق ، ج ٥ ، ١٣١ ، ١٣٢) .

يمثل هذا الفصل نموذجاً من رسائل العماد في العزاء ، وقد بدأ العماد الحديث بتقديم العزاء لصاحب السويداء يقول : « فنحن معزّوه في المصاب الذي نحن فيه مساهمونه ، ولنصيب التفجع للممة المؤلم مقاسموه » ويتبع ذلك بالدعاء الجماعي فيقول : « فعظم الله لنا وله الثواب الصافي الأثواب ، وأجرى لنا وله الأجر الموعود به على الصبر والاحتساب » . وبعد الدعاء يقدم لأهل الفقيد مجموعة من الحكم والمواعظ والعبر ليخفف المصاب . وهي حكم تقوم على بيان سنة الله في خلقه ، وحتمية الموت ، وإن الإنسان ما هو إلا وديعة يستردها صاحبها وهو الخالق متى شاء . وإن الموت الطريق إلى الآخرة ولا بد من سلوكها . وما الحياة إلا حلة تبلى مع الأيام .

إن العماد بهذه الحكم إنما يريد الوصول إلى التسليم بقضاء الله وقدره من أهل المتوفى والرضى بما أراده الله سبحانه وتعالى . وقد قدّم العماد مواعظه وحكمه بأسلوب يقوم على الوضوح والبعد عن الإغراب والتكلف والتلاعب بالألفاظ ، وعندما استخدم السجع استخدمه دون إسفاف ولا إغراق بل كان سجعه مقبولاً لا غرابة فيه ، ولعل ذلك نابع من طبيعة الموقف الذي يتحدث عنه العماد ، فمواقف الحزن والعزاء لا تحتمل الإطالة والإطناب والسجع .

- المنشورات :

هذا النوع من النثر الديواني ، هو عبارة عن مراسيم تصدر عن السلطان ؛ يقرر فيها التعيين في الوظائف العامة ، كالولاية والقضاة والمدرسين والأطباء والمحاسبين ، أو يقرر فيها أمراً من أمور الدولة ؛ مثل إلغاء الضرائب والمكوس عن سلعة معينة ، وقد كتب العماد مجموعة من المناشير في أثناء خدمته في ديوان نورالدين زنكي^(١) ، ومن هذه المناشير منشور أصدره نورالدين سنة ٥٦٦هـ يقضي بإسقاط المكوس والضرائب جميعها ، وقد جاء فيه على لسان السلطان : « قد قنعنا من كنز الأموال باليسير الحلال فسُحِقاً للسحت ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت ، وبُعداً لما يُبعد من رضى الرب ، ويُقصي من محل القرب ، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه ، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه ، وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة ، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة الخ »^(٢) .

ومنشور يقضي بالإعفاء من ضريبة الأتبان ، كتبه العماد بأمر السلطان نورالدين سنة ٥٦٩هـ يذكر في بدايته سياسة نورالدين في التخفيف عن الرعية ، فيقول : « و بعد فإن من سُنننا العادلة وسير أيامنا الزاهرة ، وعوائد دولتنا القاهرة ، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم وإعفاء رُسم ما سنّه الظالمون من جائرات الرسوم » ويضيف مبيناً المحتوى الرئيس للمنشور وهو إبطال الضريبة المفروضة على الأتبان ، فيقول : « وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير ... مزارعها الجارية في الأفلاك ، وجميع ما يُقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص ، والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ، وقرناه على أربابه وطلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه الخ »^(٣) .

ولما اتسعت بلاد السلطان نورالدين ، وطالت مملكته فامتدت من حدّ النوبة ، الى همذان ، أمر باتخاذ (الحمّام الهوادي) لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان ، وتقدم إلى العماد بكتابة منشور إلى أربابها ، وإعزاز أصحابها ، فكتب العماد

(١) انظر الروضتين ، طبعة دار الجليل ، ج ١ ، ص ١٤٩ ؛ والروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٦ ؛

وسنا البرق الشامي ، تحقيق ششن ، ج ١ ، ص ١٣٥ ، ١٩٨ .

(٢) الروضتين ، طبعة دار الجليل ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

(٣) الروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

منشوراً بذلك سنة ٥٦٧ هـ يصف فيه الحمام ، ويبين أهميته ودوره في نقل الرسائل بين المجاهدين بسرعة لا تتوافر في وسيلة أخرى غيرها ، فيقول في وصفه : « هي برائد الأنباء ، المخصوصة بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء ، والسابقات الهوج في الاهتداء ، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدة الى أبعاد غاية ، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار » . ويبين العماد فضلها على المجاهدين في سبيل الله ، والمرابطين على الشغور ، يقول في ذلك : « وقد عمّ بها نفع المرابطين للغزاة ، والمجاهدين في سبيل الله ، في إهداء أخبار الكفرة إليهم في أماكنها ، دالة على مكايدها ومكامنها ، طائفة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا ... الخ » ^(١) .

أنشأ العماد في أثناء خدمته للسلطان صلاح الدين مجموعة من المنشورات حفظت لنا المصادر التاريخية والأدبية بعضها ومعظمها في تفويض الأمر بالحكم والإدارة ^(٢) . وفي هذه المناشير التي يعين بها الولاة والحكام ينقل إلينا الخطوط العريضة التي يرسمها السلطان لولاته في إدارة الشؤون التي يتولون القيام بها ، فنراه يرشدهم إلى الاستعانة بأهل الثقة عند طلب المشورة ، ويطلب منهم أن يعاملوا الرعية معاملة حسنة ، وأن يشددوا على أهل الضلالة والفساد ، كما يطلب منهم إشاعة العدل وإنصاف المظلوم ورد المظالم لأهلها ، وهذه المناشير أشبه ما تكون بكتب التكليف التي يصدرها الحاكم إلى مساعده والتي يحدد فيها السياسة العامة التي سيلتزم بها ، ويمكن ملاحظة هذا الأمر في المنشور الذي أصدره السلطان لرئيس سنجار من بني يعقوب ، ومما جاء فيه قوله : « ... ونفوض إليه تدبير مدينة سنجار وقلعتها ، والزعامة على أهلها ورعيتهما ، والرئاسة التي لم تزل في بيته ثابتة القواعد ، والولاية التي أضحت له منا بصفو ولائه صافية الموارد ، والنظر في الأعمال نظر المستقل المستبد ، والنهضة في مصالح الخدمة نهضة المجتهد المجد ، وبسط اليد للرعايا بالعدل والإحسان ... والاستعانة للاستنابة عنه في المعاملات إلى ذوي الكفاية والأمانة ، والاعتماد في الأعمال دقيقتها وجليلها وكثيرها وقليلها على أهل النزاهة والصيانة ، وله اليد الطولى في التنفيذ

(١) الروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢١ .

(٢) انظر عن هذه المناشير ، الفتح ، ٥٧٩ ، البرق ج ٥ ، ٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٩ .

والإمضاء ، والإعادة للمصالح والإبداء وإظهار شعار الدولة باتباع الشرع ،
والمحافظة عليه في الأصل والفرع ، وإحياء سنة العدل »^(١) .

تدرج بعض المناشير التي كتبها العماد في باب تنظيم المهن ، إذ وضعت في
تحديد مهنة من المهن ، وبيان شروطها ، وشروط العاملين فيها ، مع توجيهات
عملية لممارستها . ومن الأمثلة على هذه المناشير مجموعة أنشأها العماد سنة
٥٧٩ هـ لاهل حلب^(٢) . وفيها حدد شروط المهن وواجبات أصحابها ، ففي المنشور
الذي وجهه للشيخ الإمام (علاء الدين الكاساني) مدرس المدارس الحنفية بحلب ،
يحدد واجباته تجاه المدارس التي يشرف عليها ، فيقول : « وأن يستنيب في هذه
المدارس من الفقهاء ؛ مدرساً ومعيداً ومفتياً ومفيداً وإليه العزل والتولية
والتبديل والعطاء والمنع والتسوية والتفضيل وترتيب كل منهم في منزلته التي
يستحقها بأهليته ، والتنزيل ، فمن قبله فهو المقبل المقبول ، ومن حرمه فهو
المحروم المرذول »^(٣) .

وفي المنشور الذي كتبه لاحتساب حلب يحدد العماد شروط الاحتساب ،
والصفات التي ينبغي أن تتوافر في المحتسب من الأمانة والنزاهة والاستقامة ،
والمحافظة على السنن ، يقول في بيان صفات من يقوم بوظيفة المحتسب : « ... نرى
أن تولي الاحتساب من يكرم محتده ، ويسمو سؤدده ، فيضج في النباهة
بالفضائل والنزاهة عن الرذائل جدده ، ومن تقوى بالتقوى نفسه ، ويشرق في أفق
دينه بالتوفيق رشده ، وتنبسط في الحق بالأيديده ، ويخلص لله في الاستقامة
عن سنن العدل قصده ، ومن يستقيم في الديانة مذهبه .. عارفاً بأحوال الناس
في المعاملات والمعاش ، ثابت القلب في ملابسة الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، رابط الجأش »^(٤) . ويقول في بيان مهام المحتسب : « وليشرع في فظ
المعاملات على جدد الشريعة ومنهاجها ، وليصن حديثها بتجديد دعاء الناس إليها
في إنهاجها ... ولينه عن الغش في العرض والنقود وعن الرباء في المفروض

(١) البرق ، ج ٥١٠٥ .

(٢) انظر هذه المناشير في : البرق الشامي ، ج ٥ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ .

(٣) البرق ، ج ١٣٥٥ .

(٤) نفسه ، ج ١٣٦٥ .

والمعقود ... الخ «^(١).

والمنشور التالي نموذج مكتمل يمثل المنشورات التي أصدرها العماد خلال

عمله في ديوان الإنشاء .

(١) البرق، ج ٥، ١٣٧٠.

ذكر بعض المناشير التي كتبها لأهل حلب
منشور من إنشائي للشيخ الإمام علاء الدين الكاساني
مدرس المدارس الحنفية بحلب^(١)

الحمد لله ذي المن المتضاعفة المتظاهرة ، والمنح المتناصرة المتضافرة ، والنعم المتكاثفة المتكاثرة ، والقسم المتوافرة ، نحمده على نعمه الباطنة والظاهرة ، ونسأله أن يصلي على سيدنا نبيه محمد هادي وشفيع الآخرة ، وعلى آله وأصحابه ذوي المفاخر العلية والمعالي الفاخرة وبعد ، فإن من شرف بالعلم قدره ، وشرح لشرح صدور المستفيدين بإفادته صدره ، وسما في سماء السنا لكشف ظلمات الشبه بسنا هداه بدره ، وسفر لتفسير معاني الشرع وتحقيق وجوه أدلته وجهه ، وأسفر فجره ، وطاب في نشر مطاوي العلوم وإحياء معالمها وإنشار مواسمها نشره ، كان جديراً بتوفير الهمم على إعزاز جانبه ، وإبداء أنوار المناجع في مطالع مطالبه ، وإصفاء مشارب الإنعام له وإعذاب مشارعه ، وإضفاء ملابس الإكرام عليه وإسباغ مدارعه ، وتفويض مدارس العلم إلى نظره وتصفية مورده به من رنق الشوب وكدره . والشيخ الإمام العالم علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن محمد الكاساني ، أدام الله توفيقه ، ذو الفضل الواسع والعلم الجامع ، والبرهان القاطع ، والدليل الصادق الصادع ، وهو البحر الطامي عبابه ، والغيث الهامي سحابه ، والعالم الذي هو أوجد العالم في عصره ، والحبر الذي حبر علم الفقه بذكر وضوحه وإيضاح ذكره ، وهو مالك قلم الفتيا وسالك لقم العليا ، وموضح المذهب إلى رفع الخلاف ، والموضع في سبيل الإفادة بفضل الإسعاد والإسعاف ، والمتحلي من الفضائل بأحسن الحلى وأشرف الأوصاف . وقد أقررناه على المستمر من عاداته ، والمستقر من قاعدته فيما هو مفوض إليه ومعول فيه عليه من تولى المدارس التي تحت ولايته ، ونظره ورعايته بمدينتي حلب والرقعة للحنفية ، وفقهم الله ، وهي المدرسة النورية ، غربى الجامع عند باب الحلاويين ، ومدرسة الحدادين ومدرسة جاولي ، وخزانة الكتب بالجامع ، والمدرسة النورية بالرقعة على الفرات ، وتولي أوقاف ذلك جميعه على الاستقلال والاستبداد . وأن يستنيب في هذه المدارس من الفقهاء مدرساً ومعيداً وفقهياً ومفيداً . وإليه العزل والتولية

(١) منشور (البرق ، ج ٥ ، ١٣٤٠ ، ١٣٥٠) .

والتبديل ، والعطاء والمنع والتسوية والتفضيل ، وترتيب كل منهم في منزلته التي يستحقها بأهليته والتنزيل . فمن قبله فهو المقبل المقبول ، ومن حرمه فهو المحروم المرذول ، فإنه ما يعتمد أمراً إلا بدليل مستنده المشروع والمعقول ، وهو الذي دلت على الفروع ببيانه الأصول ، وصح بروايته وإسناده المسموع والمنقول . وسبيل النواب إعزاز جانبه وإنجاح مآربه ، والشد على أيدي نوابه ؛ وإظهار جاه أصحابه ، وتفريغ سره ، فيما هو بصدده وترفيه خاطره لإفادة العلم وإيضاح جده ، وكف أيدي معارضه في ولايته ، وإقامة حرمة الشرع به فإنه نافع روايته ورافع رأيه .

في هذا المنشور تفويض للشيخ الإمام علاء الدين الكاساني مدرس المدارس الحنفية بحلب بالإشراف على المدارس الحنفية فيها .

يبدأ المنشور بالتحميد والصلاة على الرسول الكريم ، إذ يقول : « الحمد لله ذي المنن المتضاعفة المتظاهرة والمنح المتناحرة المتضاهرة ، والنعم المتكاثرة المتكاثرة والقسم المتوافرة ، نحمده على نعمه الباطنة والظاهرة ، ونسأله أن يصلي على سيدنا نبيّه محمد هادي وشفيع الآخرة ، وعلى آله وأصحابه ذوي المفاخر العلية والمعالي الفاخرة وبعد » .

وبعد التحميد ينتقل العماد لبيان أسباب اختيار الإمام لهذه المهمة ، و تتمثل هذه الأسباب بسعة علمه ومنزله الرفيعة بين العلماء ، يقول في ذلك : « فإن من شرف بالعلم قدره ، وشرح لشرح صدور المستفيدين بإفادته صدره ، وسما في سماء السنا لكشف ظلمات الشبه بسنا هداه بدره ، وسفر لتفسير معاني الشرع وتحقيق وجوه أدلته وحججه ، وأسفر فجره ، وطاب في نشر مطاوي العلوم وإحياء معالمها وإنشار مواسمها نشره كان جديراً بتوفير الهمم على إعزاز جانبه ... وتفويض مدارس العلم إلى نظره وتصفية مورده به من رنق الشوب وكدره » .

ثم يشيد العماد بالإمام ويبين منزلته فيقول : « والشيخ الإمام العالم علاء الدين ... أدام الله توفيقه ذو الفضل الواسع والعلم الجامع ، والبرهان القاطع ، والدليل الصادق الصادق ، وهو البحر الطامي عبابه ، والغيث الهامي سحابه ، والعالم الذي هو أوجد العالم في عصره ، والحبر الذي حبر علم الفقه بذكر وضوحه وإيضاح ذكره » .

وبعد هذه المقدمات يكون قرار التفويض صريحاً واضحاً ، إذ يقول : « وقد أقررناه على المستمر من عاداته ، والمستقر من قاعدته فيما هو مفوض إليه ومعول فيه عليه من تولى المدارس التي تحت ولايته ، ونظره ورعايته ، بمدنيّتي حلب والرقعة للحنفية وفقهم الله » ويحدد المدارس التي يشرف عليها بالاسم ، ويحدد مهامه والتي تتمثل في تولية المدرسين وعزلهم وتبديلهم ، وكل ما يتعلق بهم وبمدارسهم » .

تبدو عناصر المنشور واضحة محددة ، ويغلب على لغته ، السجع والجناس في البداية ثم تميل إلى التحديد فيقل الجناس والسجع والتلاعب بالألفاظ ، كما يغلب على أسلوب هذا المنشور استخدام الجمل الدعائية في التحميدات والصلاة

على النبي الكريم ، والإشادة بالإمام العالم .
ويصور هذا المنشور بعض ملامح الحياة الثقافية في بلاد الشام في القرن
السادس الهجري ، وهي حياة مزدهرة يتضح ذلك من خلال الاهتمام بالمدارس
وبالقائمين عليها وتنظيم شؤونها .

الرسائل الإخوانية

الرسائل الإخوانية : مكاتبات تكون بين الأصدقاء ، أو الأخوة ، يتبادلونها في المناسبات ، ويعبرون فيها عن المواقف الحياتية المختلفة ، كالتهنئة بمناسبة سعيدة ، أو التعزية بمصاب أليم ، وقد تكون في العتاب ، أو تبادل الآراء في موضوع من موضوعات الحياة ، وقد تعرف العماد خلال حياته على عدد من العلماء والأصدقاء في البيئات التي عاش فيها أو زارها ، ونشأت بينه وبينهم علاقات ودّ وصداقة ؛ فتبادل معهم الرسائل .

كانت أوثق الصلات تلك التي نشأت بين العماد والقاضي الفاضل ، وقد دامت تلك الصلة مدة طويلة ، بدأت بقدوم العماد إلى الشام سنة ٥٦٢هـ ، وانتهت بوفاة القاضي الفاضل سنة ٥٩٦هـ . وخلال هذه الفترة لم تكن المكاتبات لتقطع بين العلمين . وقد وصف العماد هذه المكاتبات المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل فقال : « والمكاتبات الفاضلية منه ، وإليّ ، والإجابات مني إليه كثيرة ، وفواضله فيها غزيرة ، ومطالع مطالبني بها منيرة ، ولو أوردتها جميعها لما استوعب في الشكر صنيعها . لكنني أوردت هذه اللمعة للافتخار بها ، والمباهة بمواهبها ومناقبتها ، وإن أنسا الله في الأجل ، ومن في العمر وبالمهل ، أفردت لها كتاباً ، بل روضاً لا يلقي لنضيره نظير ، ولا ينسب لملك إلا السرور به سدير »^(١) .

يدل هذا الحديث دلالة واضحة على العدد الكبير من الرسائل الإخوانية التي تبادلها الرجلان خلال علاقتهما الطويلة ، ولكن المصادر التي بين أيدينا لم تحفظ لنا من هذه الرسائل إلا عدداً قليلاً ، وأما البقية فقد ضاعت كغيرها من مؤلفات العماد .

تنوعت موضوعات رسائل العماد الإخوانية ، فمنها ما يتناول علاقات خاصة ، ومنها ما يتناول علاقات عامة ، ومن الرسائل التي تناولت علاقات خاصة بين العماد والقاضي الفاضل تلك التي يطلب فيها مملوكاً كان السلطان قد أمر له به ، قال فيها مخاطباً القاضي الفاضل يستعجله تنفيذ أمر السلطان : « ينهي المملوك أن مالك الأمر ، أمر له بمملوك مقبول ، ووقع به على سبي الأسطول » وسبب ذلك أنه أمره أن يضرب رقبة أفرنجي يوم قيّدت الأسارى في حماه ، ولكنه لم يفعل ،

(١) البرق ، ج ٢ ، ١٢٦٠ .

معتذراً عن ذلك بأسباب مقنعة»^(١).

وكانت بعض موضوعات الرسائل العمادية التي يرسلها إلى القاضي الفاضل تحمل ردوداً على رسائل فاضلية وردت إلى العماد ، ومن هذه الرسائل رسالة كتبها إلى الأجل الفاضل من بعلبك في جواب كتاب ورد بالعتب يبدي فيه الاعتذار ، يقول فيه « وأما العتب فقد نُفِض بساطه ونقض سباطه . وقطع سمطه ، وعلقت بالمسامع أقراطه ، وسبقت إلى المصانع قُرَاطه ، وأما الذنب فقد بتَّ حبله ، وثُبِّث خبله ، وعرف خطاؤه ، ورفق خطله ، وزال خجله ، ففيم معاودة العتاب ، ومواعدة العقاب ، وحاشا لببيت بناه فضله من الخراب ، فإن بيت المملوك من كنف المولى ، وشعره في سوم سموه غال ، وعرسه من سقيا الأنعام رديّ ، وزنده من لقيا الأكرام وريّ ، فلا يجتني على موضعه ، ولا يخاف من وضعه ، وتعرفه بالمولى سبب رفعه ، ولا يشك أن العذر قبل ، والذعر قتل ، والذنب الفاسد ذاب ، والخبُّ الحاسد خاب ، وذو الجوب حوبي وحبي ، وذو النبوة أنبي وبني ، والعبد هفا والسيد عفا »^(٢).

تمثل هذه الرسالة أسلوب المجاملات بين الأصدقاء في ذلك العصر ، إذ يُبدي العماد بها أعتذاره ، ويلتمس العفو من صديقه طالباً رفع العتب وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه . ويرد العماد على رسالة القاضي الفاضل دون أن يذكرها في كتابه ، ولو كان فعل لعرفنا مدى تأثيره برسالة الفاضل شكلاً ومضموناً .

ومنها الرسالة التي يذكر بها حضور الفاضل في الحج ، وفيها إشادة به إذ يضيف عليه صفات فيها الإجلال والتكريم ، فيشبهه بشخصيات معروفة بتميزها بالكرم والحكمة والفصاحة ، يقول : « طوبى للحجر والحجون من ذوي الحجر والحجى ، مُقبل الجدى الجدى ، ومنبر الدجى ولنديّ الكعبة من كعب الندى ، وللهدايا المشعرات من شعر الهدى وللمقام الكريم من مقام الكريم ، ومن حاطم منار الفقير للحطيم ، ومتى رُئي هرم في الحرم ، وحاتم ماتح زمزم ، ومتى ركب البحر البحر وسلك البر البر ، لقد عاد قس إلى عكاظه، وعاد قيس بحفاظه ، ويا عجباً لكعبة تقصدها كعبة الفضل والأفضال ولقبة تستقبلها قبة القبول والاقبال »^(٣).

(١) البرق، ج ٣، ١٣١.

(٢) نفسه، ٣: ١٤١.

(٣) نفسه، ٣: ١٤٧.

هذه أحكام يصرح بها العماد لصديقه الفاضل ويصفه فيها ، وهي أحكام لها حظ من الواقع ، فقد عرف عن الفاضل فصاحته وحكمته وكرمه وتقواه وصلاحه^(١) . وجاءت بعض رسائل العماد الإخوانية لتعبر عن عاطفة الشوق والحنين بعد فراق قد يطول أو يقصر بين صديقين ، فعندما سار القاضي الفاضل إلى مصر سنة ٥٧٩هـ بعد غزوة الكرك ، بقي العماد وحده في خدمة السلطان صلاح الدين ، فتحررت لواعج الشوق في نفسه وكتب رسالة إلى صديقه يتشوق فيها إليه ويشكره على ما يسديه إليه من الحسنى ، فقال : « أدام الله أيام مولانا الصاحب العالم الأجل الفاضل ظاهرة المباهج مبهجة الظهور ، منيرة المطالع ، طالعة النور ، أمرة بالثبات ثابتة الأمور ، وافرة المزيد زائدة الوفور .. إلى أن يقول ولا زالت الليالي بلالائه مقمرة ، والوجوه بالآئه مسفرة ، والقلوب بقبوله مقبلة ، واسود الممالك بأقلامه مشيلة والكتائب بكتائبه مكتّبة ، والمذاهب بمواهبه مهذبة ، والكواكب بمناقبه حاسدة ، والفضائل الا في سوق فواضله كاسدة ، والسحب من نبانه مستعيرة والشهب ببيانه مستنيرة ، والصباح من صباحته خجلا ، والسماح من سمائه هطلا والحدّ بحدّه مشفوعا والمجد بحدائه مرفوعاً . ولا فتى بجود كفه الولي محبوباً مجبوراً ، وبكف جوده العدو مكسوراً محسوراً ، وبميسور شكمه الشكر مأسوراً ، وبمنشور أفضاله الفضل منشوراً »^(٢) .

ومن الرسائل الإخوانية في الموضوعات الخاصة ما كانت في الشكر ، ومن هذا النوع رسالة كتبها العماد يشكر القاضي الفاضل على هدية مكونة من كتب كان قد أرسلها الفاضل إلى العماد من مصر ومن ضمنها كتاب العمدة ، وقلائد العقيان ، والحديقة ، وغيرها ، وهي رسالة طويلة منها قوله : « وصلت الكتب كأنها الشهب ، يُهدىها شمس نهار الفضل إلى ساري ليل ، طَلَبه ليهديه بنورها في غيابه ، ويقيمه بسناها على سنن مذهبه ، وهي تسع مجلدات ، بل تسع آيات بينات آتاها عبده كليم الفصاحة المتوقدة بافتراع الكلام الحر ، وكريم السماحة المتفرد بافتراع الأنعام المبكر ... الخ »^(٣) .

(١) الخريدة ، قسم مصر ، ١ : ٣٥-٣٧ .

(٢) البرق الشامي : ١٧٣ : ٥ .

(٣) الخريدة - قسم مصر ، ٢ : ٤٤ .

تعطينا هذه الرسالة صورة عن العلاقات الثقافية بين أدياء ذلك العصر كما تعطينا صورة عن الحياة الثقافية عامة، وتقدم لنا بعض المؤلفات المهمة .

ومن الرسائل الإخوانية ما كان في الموضوعات العامة وهي رسائل تصور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومنها رسالة كتبها العماد إلى الفاضل يصف فيها القحط الذي أصاب بلاد الشام سنة ٥٧٤هـ . وكان الفاضل قد سافر إلى الحج . وقد ربط العماد بين رحيل الفاضل وما حل بالشام من قحط وجعل الرحيل سبباً له ، فقال : « إن بلاد الشام بعد غيبة المولى عنها انتظمت الليالي فيها ، فعافت عواديها ، وعفت بوادر السيول والسيوف بواديها بواديها ، ونوى النوى نوءها ، ودنى وخبا بالضوى ضوءها واختبا ، وبخل ودقها ، وخبلى برقها ، ومحق حقها ، وزري رزقها »^(١) .

إن رسائل العماد الإخوانية كثيرة تناول فيها مواضيع شتى وتبادل أغلبها مع القاضي الفاضل ولذا فإن الدراسة اعتمدت على الرسائل الإخوانية المتبادلة بينه وبين الفاضل لكثرتها وتنوعها ، وندرت غيرها .
والرسالة التالية نموذج يمثل رسائله الإخوانية التي تبادلها مع القاضي الفاضل .

(١) البرق الشامي : ١٤٦:٣ .

جواب على رسالة يحب فيها القاضي الفاضل على انقطاع الكتب

يقول العماد في الجواب ^(١) :

أدام الله أيام المجلس العالي المولوي وأسبغ أنعامه ، وأجرى باستخدام السيوف والأقلام في أقاليم الممالك سيوفه وأقلامه ، وأعلى مهاد الهدى بهديه واعلامه ، وصوب في نفع أدام أوامر المملكة بصوب ملاذ ملاذها حلّه وعقده ونقضه وإبرامه . ولا زالت عوارفه موات وفود مواديه بوفور موادها ، وجوائزها جوائز أماند آمال مجتديه بسفور جوادها ، وعواطف جوده عواطف الأجياد إلى هوادي جباد قناص قصّادها وأعطاف أعطياته في رضاه مهتزة إلى رواء رؤادها ، ومعالم المعالي بمعانيه من إفراط أطرافها مغترة من وراء ورآدها . ولا برح شأن شاني جدّه دائماً داميا ، وشأن ناشئ جداه صالحاً حاصلأ ، وعدوه على عدوه مصادلاً ، ووليه لوليه مواصلاً ، مارجا رجال ذمام كريم ، ونجا نجار من ذمّ لثيم . وسما حليف سماح بقبول قلوب في صدور ، وشى حلي وشاح في لحوثه بنحول خصوره .

ووقف المملوك على المثال العالي ووقف حائراً لا غادياً ولا رائحاً ، وجدّ لاهيا نفسه بما وجد في نفسه لائحاً ، وألقى أفاظها حوشية فظة الحواشي ففاضت روحه ، ولاذ بسفينه السكينة من غرق الفرق نوح نوحه ، وصعق موسى سومه ، وطاف بعد اللقاء الأقلام في لوحه ، و حول لحوحه . ولزم يوسف أسفه سجن حبسه إلى أن يصل كتاب العزيز إلى الذليل بتنفس نفسه ، وصدف الذعر عن صدق العذر وخاف سره من جهر الهجر ، ومتى بغى البغاث وكره وكره في قصر الصقر . ولا يظن أنه ارتج بالاعتاب باب الارتجاء لمخدومه والارتجال لخدمه . واستقرار استزادته لكلمه وقلمه ، وما سرت رفقة إلا ورافقتها سرية بل كتيبة من كتبه ، ولا صدرت صحبة الا وقد أصدر معها جملة جميلة من وفود رجائه وصحبه ، ولا علم أنه أقلّ بفرض وقته حتى اختل برفضه ومقتته ، ولا قدر أن قدرته تنهض بعبء العتب ، أو منته تخطو إلى منتهى الخطب ، ثم عاود ذكره فكره أن يعاول ان كان بإنكاره خطاه ، ولا يجلد بالاعتراف من منهل الاعتراف صداه وصداه .

(١) البرق الشامي : ٤ : ١١٨ ، ١١٩ .

تعتبر هذه الرسالة الإخوانية عن موضوع خاص بين الأديبين ، وهو العتب من انقطاع الكتب والرد على ذلك بإبداء الأعذار . وقد بدأت الرسالة كما هي عادة الكتاب عند مخاطبة الوزراء بالدعاء للمجلس أو لآيامه وهنا دعا العماد لآيام المجلس ونعته بالعالى . وأطال فى الدعاء له ، معتمداً على التلاعب بالألفاظ وتكرارها مستخدماً السجع والجناس الناقص والتام ، وقد أدى به هذا التلاعب بالألفاظ إلى تحريف الكلام عن موضعه حتى غدا معقداً عسيراً على الأفهام .

وفىما تبقى من الرسالة يبدي أسفه وحزنه الشديدي على ما بدر منه فيقول :
« ووقف المملوك على المثال العالى ووقف حائراً لا غادياً ولا رانحاً وجدّ لآحيا نفسه بما وجده من نفسه لآنحا » وللتعبير عن أسفه وحزنه يستعير صوراً من القرآن وقصصاً لبعض الأنبياء فيقول فى اشارة إلى سفينة نوح ، وقصة موسى ، وقصة يوسف عليه السلام : « ولاذ بسفينة السكينة من غرق الغرق نوح نوحه ، وصعق موسى سومه ، وطاف بعد القاء الأقلام فى لوحه وحول لوحه ، ولزم يوسف أسفه سجن حبسه إلى أن يصل كتاب العزيز الى الذليل بتنفس نفسه » .
يحاول العماد فى رسائله الإخوانية التي يتبادلها مع القاضي ، الفاضل أن يرضى ذوق استانه فيكثر فيها من المحسنات اللفظية والمعنوية ، ويتعب نفسه فى تكلف الصنعة حتى يقوده ذلك إلى الإغراب والخروج عن الهدف كما فى هذه الرسالة .

موضوعات النثر الفني في الخريدة

اشتملت الخريدة على مجموعة كبيرة من التراجم الأدبية ، والمقدمات النثرية، ذات الطابع الأدبي والنقدي ، كتبها العماد ممهداً بها لإنتاج الشعراء والأدباء الذين يترجم لهم ، أو للموضوعات التي تحدث عنها ، وتفاوتت هذه المقدمات في طولها ، واختلفت في موضوعاتها ، وشكلت في مجموعها لونا من ألوان النثر الأدبي عند العماد .

ومن موضوعات هذه المقدمات بيان أسباب تأليف كتاب الخريدة ، والتي يبينها بقوله : « أما بعد فإنني لما رأيت الفضل في عصرنا هذا ، وإن ضاع عرفه قد ضاع عرفه ، كما أنه وإن زان ضعفه فقد زاد ضعفه لفساد أمره ، وكساد سعره ، وهبوط نجمه ، وسقوط رسمه ، وحط حظه ، وقلة عناية أهله بحفظه ، أثرت أن أثر من مآثر أهل العصر ما يخلد آثارهم ، ويجدد منارهم وكنت قد طالعت كتابي (يتيمة الدهر) للشعالبي و(دمية القصر) للباخرزي في محاسن أهل عصريهما الشعراء ، وقد بلغا الجهد في إظهار اجتهاد البلغاء ، وما وجدت بعد ذلك من عنى بذلك كعنايتهما ، ولا من حدث نفسه أنه يبلغ إلى غايتهما ، فصنفت هذا الكتاب وألفته ، ورقمت هذا الوشي وفوقته »^(١) .

تتضح في هذا النص الغاية التي من أجلها وضع العماد كتابه الخريدة ، وهي: تخليد مآثر أهل عصره من الشعراء ، وفيه إتمام لجهد بدأه غيره في هذا الميدان ، ويبين في هذه المقدمة سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم ، ويصفه ، فيقول : « وسميته خريدة القصر وجريدة العصر ، لأنها حسناء ذات حلي وحلل ، وغانية تغبطها على الحسن أقمار الكلل ، فهذا الكتاب كالروض الأنق ، يجمع أنواع الزهر، وكالبحر يتضمن على نواصع الدرر ، وكالدهر يأتي بعجائب العبر ، يشتمل على فنون وعيون ، وأبكار للمعاني وعون ، وأصناف فوائد ، وأصداف خرائد .. الخ »^(٢) . وجاءت معظم المقدمات النثرية في الخريدة تراجم للشعراء ، وقد اختلفت موضوعات هذه التراجم باختلاف المترجم لهم ، فإذا كان المترجم له خليفة مثلاً ، فإن الاهتمام ينصب على وصفه بصفات الكرم والشجاعة والعدل والسماح والفضل والقوة والسطوة والفصاحة والحلم والعلم وتحقيق النصر على الأعداء

(١) الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ ، ٣-٦ .

(٢) نفسه : ج ١ ، ٦ .

وهذا ما نجده في الترجمة التي وضعها العماد للإمام (المستضيء) يقول في مدحه :
« والإمام المستضيء واحد العصر نبلاً ، وثاني البحر فضلاً وثالث القمرين تلالاً ،
بل ثالث القمرين أنواراً ، وثاني القدر أثراً وإيثاراً ، وواحد الزمان قدراً ومقداراً ،
وهو الثالث والثلاثون من خلفاء بني العباس ، ذو الفضل والأفضال ، والنائل
والسطوة ، تُرجى موهبته ، وتخشى هيبته ، وتدعى هيبته ، وينادى نداءه ... وأما
الكرم فهو بحر عطائه الزاخر ، وأما الفضل فهو جامع شتاته ورافع راياته »^(١) .

أما إذا كان المترجم له من أهل الديوان والوزارة فإن الصفات التي يذكرها
العماد في مقدمة الترجمة تناسب عمل المترجم له كما فعل في ترجمة « للأجل سديد
الدولة » منشئ ديوان الخلافة فقد أبرز تميزه في الكتابة فقال : « ... وكان رحمه
الله عزيز الفضل ، رائق الخط واللفظ ، ولما كان فضله لم يخل ديوان من شعر أهل
العصر من مدحه ... ولو جُمع ما فيه من شعر الأرجاني لكان ديواناً بنفسه ، فاضل
مفضل ، منشئ منشئ بالحقيقة لأبكار الأفكار ، عارف بنقد الشعر وجهابذته »^(٢) .
ويظهر العماد في بعض تراجمه اهتماماً بالجانب السلوكي للمترجم له ،
فيصف مكونات شخصيته الخلقية والخلقية ، فنراه يقول في واحدة من ترجماته :
« شاب يتوقد ذكاء ، ويتوقر حياء ، ويتوقى الله اتقاء ... مرتد بالتقوى ، ومسدد
للجدوى ، ومتحل بمحاسن الأخلاق ، ومتحل بأنوار الفضائل في الأفاق ، قد خلى
الدنيا وتحلى بالدين ، وسلك طريق أهل اليقين »^(٣) .

ويعالج العماد في تراجمه الجوانب الفنية لفن المترجم له ، بشكل خاص ،
فيُطري بعض الشعراء ، ويصور جوانب الإبداع عندهم ، وأسلوبهم في نسج
القصيدة وبنائها الفني فنراه يقول في ترجمة الأمير (مجد العرب أبي فراس
العامري) : « شاعر مبرز محقق ، وله خاطر معجز مطلق . هو الداھية الدهيا ،
وأعجوبة الدنيا ، وله العزة القعساء ، والغرة الزهراء ، والرتبة الشماء ، يصب
الشعر في قالب السحر ، ويباهي الفضلاء بالنظم والنثر ، ويصوغه في أسلوب
غريب وعهده في قانون عجيب ... إن جال في مضمار القريض ، وجرى في ميدانه
الطويل العريض ، أفحم (أبا الطيب) و(أبا تمام) ، وردّ عقدهما داهية النظام ، ،

(١) الخريدة ، قسم العراق ، ج ١ ، ٩-١١ .

(٢) نفسه : ج ١ ، ١٤١ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ١٦٧ .

ينسج على منوال (أبي فراس) ويكنى بـ (أبي فراس) ^(١).

ويشتمل نثره الأدبي في الخريدة على بعض التراجم لشيوخه الذين أخذ العلم عنهم ، ويحدثنا في هذه التراجم عن مصنفاتهم ، والعلوم التي برعوا فيها ، ويمتدح صفاتهم ، ويُعلي منزلتهم بين أدباء عصرهم ، فنراه يقول في ترجمة الشيخ (أبو محمد بن الخشاب النحوي) : « شيخنا في علم الأدب ، أعلم الناس بكلام العرب ، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب. الطود السامي ، والبحر الطامي ، وكان فضله على أفاضل الزمان ، كفضل الشمس على النجوم ، والبحر على الغدران . وله المؤلفات الفريدة ، والمصنفات الخريدة ، والغرر المفيدة ، والفكر المجيدة ، وإذا كتب كتاباً بخطه يشتري بالمتين ، وتتنافس عليه بواعث المستفيدين ومعظم قراءتي عليه في بغداد في كتب الأدب والشعر ، وهو ألين سجية من الماء العذب ، وأحسن حمية من غرار العضب ، وما أظن أن الوجود يسمح بمثله ، وأن الدهر ينتج أحداً في فضله ... الخ » ^(٢).

يورد العماد في الخريدة تراجم لبعض الشعراء ، ولكنها تراجم مختصرة ، تهتم بالجوانب الفنية للشاعرة دون التعرض لحياتها الشخصية ، ومن هذه التراجم ترجمته لحياة الشاعرة النجيبة القحطانية وفيها يقول : « وكانت امرأة شاعرة فصيحة حسنة الشعر رقيقة الطبع » ^(٣).

وتشتمل المقدمات النثرية في الخريدة على تراجم لبعض الأسر التي نبغ فيها عدد من الأدباء والشعراء . ومن هذه التراجم ، حديثه عن ملوك العرب وأمرائها من بني يزيد الأسديين النازلين (بالحلة السيفية) على الفرات ، وفيها عدد صفاتهم وأظهر محاسنهم ، وأشاد بكرمهم وجودهم ، فقال : « كانوا ملجأ اللاجئين ، وكمال الراجين ، وموئل المعتفين ، وكنف المستضعفين ، تُشد إليهم رحال الآمال ، وتنفق عندهم فضائل الرجال ، ويفوح في أرجائهم أريج الرجاء ، وتطيب بنداً نداهم أندية الفضلاء ... ليوث الوغى ، وغيوث الندى ، وغيث الورى ... وما زال ذيل نعمهم سابغاً ، ومشرب دولتهم سائغاً ، وأمورهم مستقيمة ، والحدود عندهم مقيمة ، إلى أن قتل صدقة ، وأظلمت أيامه المشرقة ، وانتقلت

(١) الخريدة ، ج ٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) نفسه ، قسم العراق ، ج ٣ ، مجلد ١ ، ص ٨٢٧ .

(٣) نفسه ، ج ٣ ، مجلد ٢ ، ص ٤١٥ .

الإمارة إلى دبببب ابنه الخ «^(١) .

وتصور بعض التراجم جانباً من الصراعات الداخلية كما في ترجمته للأمير (دبببب بن صدقة) إذ نقل إلينا فيها جانباً من الصراعات الداخلية ، وصراع هذا الأمير مع الخلافة العباسية ، يقول : « فخرج الإمام (المسترشد) نوباً وولى هرباً وتفرق من نجا من جنده أيدي سباً الخ «^(٢) .

وقد تركزت بعض المقدمات النثرية على النقد الأدبي إذ قارنت بين بيئتين شعريتين مختلفتين ، كما فعل في المقدمة التي قابل فيها بين شعر الشاميين وشعر العراقيين . وقد اشتملت على مجموعة من الأحكام النقدية ، وفيها قوله : « وشعر الشاميين أصح وزناً ، وأصحُّ مَزْناً وأمتن صيغة وأحسن صبغة وأحكم صنعة وأسلم رقعة وأرفع نسجاً وأنفع مَزْجاً ؛ وأقوم معنى وأحلم مبنى «^(٣) .

هذه سمات الشعر الشامي كما يراها العماد ، وهي سماتها تختلف عن سمات الشعر العراقي والذي يصفه بقوله : « فإن العراقيين بغاية لطفهم ونهاية ظرفهم ، غلبت الرقة على كلامهم حتى اعتل نسيم نسيبهم ، وانماعت في ماء اللطف صناعة ترتيبهم وتهذيبهم ، فكان نظمهم روح بلا شبح وراح بلا قدح «^(٤) .

في هذه المقابلة يفضل العماد الشعر الشامي من حيث إحكام الصنعة على الشعر العراقي ، ويتأكد ذلك من قوله تعقيباً على المقابلة : « وأما أهل الشام فإن جبلة جبلهم اقتضت لهم إحكام الحكم ، وأفضت بهم إلى إتقان الكلم ، وقصدوا الإمعان في المعاني ، وخلوا للمجان حلوة المجاني ، فخشنوا ولانوا ، وعزوا وهانوا ، ودنوا وما دانوا ، وبعدوا وما بانوا ، وأبدوا وأبدعوا ، فأولئك رقوا وهؤلاء دقوا ... الخ «^(٥) .

وتشتمل التراجم الأدبية على تراجم غير الأدباء ، ومن هذه التراجم ترجمة صلاح الدين الأيوبي ، زغم أنه ليس من الشعراء ، إلا أن العماد علل الترجمة له بأنه ناقد وخبير بفنون الشعر ، يقول في هذه الترجمة : « ... وإن كان لا يقول

(١) الخريدة ، ج ٤ ، مجلد ١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ، مجلد ١ ، ١٥٢-١٥٦ .

(٣) الخريدة : بداية قسم شعراء الشام ، ص ٥ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه .

الشعر ، لكنه ناقد خبير ، ونافذ بصير ، يعجبه المعنى المعري ، واللفظ السهل الأبي ، وهو يحفظ من محاسن العرب ، وخزائن الأدب ، وأعاجيب السير ، وأساليب العبر ، وقصائد القدماء ، وشوارد الحكماء ، ما يستشهد فيه لكل حادث وحديث بما هو اللائق ، ولا يجري في مجلسه ومأنسه إلا ما هو من الحكم ، والكلم الفائق الرائق ، يحب الشعر الجيد ، ويحبوه بشعار جوده «^(١) .

وكان موضوع بعض المقدمات التصوير الساخر والهجاء اللاذع ، إذ تعرض بعض الشخصيات عرضاً ساخراً بأسلوب نثري مسجوع ، فإذا أراد العماد أن يحط من قدر هذه الشخصية لجأ إلى هذا الأسلوب ، ومن الذين وصفهم العماد بأقذع الصفات وأخسها وبالغ في تحقيره (أبو صالح العجمي الحلبي) ، فقد قال في تحقيره : « وهذا ابن العجمي كان عدل الخزانة لنورالدين رحمه الله ، شنتت شمل الملك بعده ، واستولى بشره واتسع مكر مكره ، مفسد ملحد ، شرير خمير ، نفل نذل ، شوهة بوهة ، شيطان ليطان ... عقرب اللدغ ، ثعلب الروغ ، كلب الرجس ، ذئب النهس ، يوم الشؤم ، غراب اللوم ، عقق العقوة ... صوف الكلب ، لا ينتفع به في أمر ، وسم الأفعى لا يدخر إلا لشر ، نافر الحدقة ، وافر العنفة ، هادر الشقشقة »^(٢) .

وتتركز بعض التراجم على إنتاج الشاعر ، وتكون تلك التراجم عبارة عن أحكام نقدية ، وهي أحكام في معظمها انطباعية تأثرية تهتم بمجمل أعمال المترجم له وبشخصيته الأدبية ، ومن الأمثلة على ذلك ما نجده في ترجمة الأديب (أبو الفضل يحيى بن سلام الحصفكي) إذ يقول فيها : « علامة الزمان في علمه ومعري العصر في نثره ونظمه ، بل فضل المعري بفضله وفهمه ، وبذّ الحريري بركة طبعه وقوة سجعه وجودة شعره وغزارة أدبه وانفراده بأسلوبه في الشعر ومذهبه ، له الترصيع البديع والتجنيس النفيس والتطبيق والتحقيق واللفظ الجزل الرقيق والمعنى السهل العميق الخ »^(٣) .

وفي بعض المقدمات يتحدث العماد عن جهود غيره في التصنيف ، معن أخذ عنهم في كتابه الخريدة ، ومثال ذلك حديثه عن كتاب قلائد العقيان وأخذه عنه كما

(١) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ، ٧٨ .

(٢) نفسه ، ١٠-١٢ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ٤٧١-٤٧٢ .

يقول : « طالعت كتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان بعد إيراد الذين ذكرهم من الشعراء ، فوجدته مشتملاً على ذكر طائفة من أهل العصر الفضلاء ، شذو عن الأثبات ، وقد بذو الغايات ، فأوردتهم في هذا المجموع ، ليشرقوا في أفاقه إشراق السعود في الطلوع »^(١) .

(١) الخريدة ، قسم المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ .

الفصل الخامس

التقويم الفني لنثر العماد

– البناء الفني للرسالة

– الأسلوب

– الصورة الأدبية

البناء الفني للرسالة

كان للرسالة الديوانية في العصر الأيوبي أصولها وقواعدها الفنية التي لا ينبغي أن يحيد عنها المنشئ، ويعدّ الالتزام بها ميزة تذكر لصاحبها والعزوف عنها منقصة تعيب الرسالة وتقلل من شأنها، فبات المنشئ إذاً محكوماً بقواعد وأصول معروفة يلتزم بها عندما ينشئ رسالته، فلا بد من افتتاحية بالفاظ مخصوصة، وتناسب حال المخاطب ومنزلته. ومقدمة رشيقة تنبئ عن الموضوع بعدها وتتصف ببراعة الاستهلال، ويتبع هذه المقدمة الموضوع الرئيس الذي يحسن بالمنشئ أن يتخلص إليه من المقدمة بأسلوب حسن مقبول، وفي نهاية الرسالة لا بد من خاتمة تناسب الموضوع تكون بمثابة القفل له.

وقد حاول نقاد هذا العصر وما تلاه أن يلمّوا في مؤلفاتهم^(١) بقواعد هذا الفن الأدبي، فتحدث القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) عن الاستهلال، وذكر أن المشهور فيه أربعة أساليب هي:

- أن تفتتح المكاتبة بالدعاء للمجلس أو الجنب، ثم يقال نشعر المجلس أو الأمير بكذا، ونحو ذلك، ويؤتى على المقصود إلى آخره، ويختم بالدعاء، وقد يختم بغيره.
- أن تفتتح المكاتبة بلفظ الإصدار، مثل أصدرنا هذه المكاتبة، أو صدرت، ويؤتى على المقصود على ما تقدم.
- أن تفتتح المكاتبة بلفظ هذه المكاتبة إلى المجلس.
- أن تفتتح المكاتبة بلفظ كتابنا، وباقي الأمر على نحو ما تقدم^(٢).

وأما مكاتبات الملوك إلى الخلفاء من بني العباس في أواخر دولتهم ببغداد، فالحال فيها مختلف، فتارة تفتتح المكاتبة بالدعاء للديوان العزيز، وتارة بالدعاء لما يعود عليه، وتارة بالصلاة، وتارة بالسلام، وربما افتتحت المكاتبة بآية

(١) من هذه المؤلفات: إحكام صنعة الكلام، لأبي القاسم الكلامي؛ أولتعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري؛ وصبح الأعشى، للقلقشندي؛ ومعالم الكتابة ومغانم الإصابة، لابن شيبة القرشي؛ والمثل السائر؛ الجامع الكبير، لابن الأثير؛ ومواد البيان، لعلي بن خلف.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧، ٦، ٢٠-٢٩.

من القرآن الكريم مناسبة للحال . وقد تفتتح بخطبة مفتوحة بالحمد ^(١) .
ويحدثنا علي بن خلف عن عادة الكتاب في المقدمات فيقول : بأنها جارية
على الافتنان بالمقدمات التي يقدمونها أمام رسائلهم ، بحسب أفنان أغراضها ، ولا
تخلو رسالة منها من فرش يتطرق إلى ما بعده ، ولموضع عنايتهم بذلك قال
بعضهم : إنه لا يحسن بالكاتب أن يخلي كلامه ، وإن كان وجيزاً نافذاً في أقصر
الأمور من مقدمة يفتتحه بها ؛ وأن وقعت في حرفين أو ثلاثة ليوافي التأليف
حقه ^(٢) .

وينبغي أن يكون للكاتب عناية خاصة بالألفاظ هذه المقدمات ومعانيها ، فيجب
أن يتخير ألفاظها من أوجز الألفاظ وأشرفها وألطفها وأخصها ، لأنها مبادئ
الكلام التي تفرع الأسماع أولاً . وإذا شرفت شرف ما يلحقها ويرادفها لتعلق القلب
بالابتداء ، وأما معانيها فيجب أن يودعها كل ما تحتاج إلى الإبانة عنه لتدل
بصدورها على إعجازها وبمبادئها على تواليها ، ولا يخفى على سامعها ما ينتهي
إلى خاتمتها ^(٣) .

ويعدُّ ابن الأثير حسن الافتتاح عنصراً مهماً من عناصر الرسالة ينبغي أن
يعطيه الكاتب عناية خاصة ، إذ يطلب منه أن يأتي بالألفاظ تعبيراً عن براعة
الاستهلال في مقدمة رسائله . فيأتي بصدر المكاتبة مثلاً بما يدل على عجزها ، فإن
كان الكتاب في الفتح أتى في أوله بما يدل على التهنئة ، أو بتعزية أتى في أوله
بما يدل على التعزية ، أو في غير ذلك من المعاني أتى في أوله بما يدل عليه ليطلع
من بدء الكتاب ما المراد منه ، مثل أن يأتي في صدر كتب الحث على الجهاد فيذكر
اقتراضه على الأمة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه وخذلان أعدائه .. وإعزاز
الموحدين وقمع الملحدين ^(٤) .

ويرجع ابن الأثير حسن الابتداء إلى معنيين :

- (١) صبح الاعشى : ٤٤٨:٦-٥١٥ .
- (٢) علي بن خلف ، مواد البيان ، تحقيق : حسين عبداللطيف ، منشورات جامعة الفتح ، ١٩٨٢ ، ص ١٢١ .
- (٣) نفسه : ١٢٢ .
- (٤) ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، مكتبة نهضة
مصر ، ١٩٥٩ ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ؛ ومواد البيان ، ص ٥١٥-٥١٦ ، ٥٥٣-٥٥٨ .

الأول : يكون الحسن فيه راجعاً إلى المبتدأ به كالاتّتاح بالحمد في بعض المكاتبات ، أو بالسّلام ، أو بما فيه تعظيم المكتوب إليه من تقبيل الأرض واليد أو الدعاء له وغير ذلك .

والثاني : أن يكون الحسن فيه راجعاً إلى ما يوجب التحسين ؛ من سهولة اللفظ وصحة السبك ، ووضوح المعنى ، وتجنب الحشو ، وغير ذلك من موجبات التحسين ^(١) .

وينبغي للكاتب أن يقدم لكتبه التي يحثُ فيها على الجهاد بمقدمات يرتبها على ترتيب يهز الأريحيات ويشحذ العزائم ^(٢) .

وحكم المقدمة أن تكون متصلة بما بعدها وغير منفصلة عنه ، وذلك عن طريق المعنى ، إذ تشتمل على معاني ما جعلت مقدمة له بقول مختصر ، ويشتمل ما بعدها على تفصيل ما أجمل فيها .

ومن العناصر الرئيسية في الرسالة الخاتمة ، فهي قفل الموضوع وآخر ما يبقى في النفس . فلا بد والحال هذه أن يراعي الكاتب في رسالته حسن الختام ، فهو لا يقل بحال من الأحوال عن حسن الافتتاح . وقد أرجع ابن الأثير الاختتام إلى معنيين :

أولهما : أن يكون الحسن فيه راجعاً إلى المعنى المختتم به ، إمّا بمعاطاة الأدب من المرؤوس إلى الرئيس ، ونحو ذلك ، كالاتّتاح بالدعاء ، ونحو ذلك مما يقع في مصطلح كل زمن .

وثانيهما : أن يكون الحسن منه راجعاً إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ وحسن السبك ووصف المعنى ، وتجنب الحشو ، وغير ذلك من موجبات التحسين ^(٣) .

وإذا نظرنا في رسائل العماد الديوانية التي أنشأها على لساني نورالدين وصلاح الدين فإنها لا شك ستعطينا صورة عن طريقته في بناء الرسالة الديوانية التي حدّدت قواعدها في هذا العصر تحديداً واضحاً .

(١) القلقشندي ، صبح الأعمى ، ج ٦ ، ص ٢٦٤ .

(٢) علي بن خلف ، موارد البيان ، ٥١٦ .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعمى ، ٤٨٨:٧ .

أنشأ العماد في حياته كثيراً من الرسائل الديوانية ؛ خاطب فيها الخليفة العباسي في بغداد والأمراء والقادة والولاة ، كما خاطب الوزراء وأعيان الدولة ورجالاتها . وقد تنوعت موضوعات هذه الرسائل ، فجاء بعضها في الحث على الجهاد ، والبشرى بالفتوح والشكر والتعزية والتهنئة ووصف الأحوال ونقل الأخبار ، وقد اتبع العماد في رسائله النهج المألوف فجعل لرسائله استهلاً ومقدمة وموضوعاً ، وخاتمة . فخاطب الخليفة العباسي ، ووجه الخطاب إلى الديوان العزيز ^(١) . وقد استخدم هذا الاصطلاح في معظم مراسلاته إلى الخليفة ومنها : رسالته عند النزول على سنجار وذكر سبب قصد الموصل يقول فيها : « من كتاب أنشأته إلى الديوان العزيز بشرح الحال عند نزولنا على سنجار » ^(٢) . ورسالته المبشرة بفتح القدس ، يقول : « وما كتبتك إلى الديوان العزيز مجده لله للبشرى بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهرزوري من رسالة » ^(٣) . وفي مواضع أخرى كثيرة غير ذلك ^(٤) . وتستخدم هذه الصيغة في مخاطبة الخليفة رغبة من المخاطب في إظهار الخضوع له وتعظيمه ^(٥) ، وخاطب العماد أرباب الأقاليم من الوزراء منهم بلفظ المجلس العالي ^(٦) ودعا له فقال في إحدى رسائله إلى القاضي الفاضل : « أعز الله نصر المجلس العالي الأجلي الفاضلي » ^(٧) وفي أخرى : « ضاعف الله علاء المجلس العالي الظهيري » ^(٨) .

نوع العماد افتتاحيات رسائله ، فبدأ رسائله إلى الخليفة بالدعاء للديوان العزيز في بعضها فقال في واحدة منها : فصل من الكتاب إلى الديوان العزيز بعد ذكر الدعاء « وتابع قوله : « أصدر العبد هذه الخدمة ، وصدره مشروح بالولاء ،

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق : سمير الدروبي ، جامعة مؤتة ، الأردن ، ١٩٩٢ ، ص ٢٧ .

(٢) البرق الشامي : ٤٢:٥ .

(٣) الفتح القسي : ١٤٧ .

(٤) نفسه : انظر الصفحات : ٣٣٧ ، ٣٩٧ ، ٥٤٦ ، ٦٥١ .

(٥) التعريف بالمصطلح الشريف : ٧ .

(٦) نفسه : ٩٨ .

(٧) البرق الشامي : ٥٩:٣ .

(٨) نفسه : ٦٩:٣ .

وقلبه معمور بالصفاء ، ويده مرفوعة إلى السماء للابتهاال بالدعاء «^(١) . ولا يكون الدعاء من السلطان إلا لمن ماثله في الملك «^(٢) . وقد تقع فيه براعة الاستهلال «^(٣) ، حين يكون الدعاء في أول الكتاب دالاً على المقصود «^(٤) . وبدأ العماد بعض رسائله إلى الخليفة العباسي بالحمد كما فعل في الرسالة التي بشر بها بإزالة الدولة العبيدية وإقامة الدعوة العباسية بسائر الديار المصرية ، فقال : « الحمد لله مُعلي الحق ومعلنه ، وموهي الباطل وموهنه ... الخ » «^(٥) . وبعض رسائله إلى الخليفة افتتحها بآية من القرآن الكريم ومثال ذلك رسالة البشري بفتح القدس إلى الخليفة الناصر لدين الله «^(٦) ، فقد افتتحها بقوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » «^(٧) . وقد أغفل العماد الافتتاح في بعض رسائله المرسلة إلى الديوان العزيز كما في رسالته التي أخبر فيها عن سقوط عكا بيد الفرنجة ، إذ بدأ الحديث مخبراً عن أمر عكا ، ولعل صعوبة الموقف وشدة وقعه على المسلمين وعلى الكاتب هي التي صرفته عن الافتتاح فقال : « فقد عرف أمر عكا وأن العدو قصدها ورصدها ونزلها ونازلها ... الخ » «^(٨) .

وفي مخاطبة الوزراء والولاة لم يخرج العماد في افتتاحياته عن الدعاء والحمد وفي بعض المواقف خاطبهم خطاباً مباشراً دون افتتاح أو استهلال . وقد وجّه العماد الدعاء للمجلس ونوع في الصيغ فقال : أعز الله نصر المجلس ، وضاعف الله علاء المجلس ، وظاهر الله علاء المجلس ، وأدام الله أيام المجلس ، ونعت المجلس بنعوت كثيرة فقال في وصفه : العالي ، الأجلي ، الفاضلي ، السامي ،

(١) الفتح القسي : ٦٥١ .

(٢) عبدالرحيم بن شيبة القرشي : معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، بيروت ، ١٩١٣ ، ص ٣ .

(٣) صبح الأعشى : ٢٦٧:٦ .

(٤) معالم الكتابة : ٧٨ ؛ وانظر كذلك : أبو القاسم الكلامي : أحكام صنعة الكلام ، تحقيق رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٦ ، ص ٢٣٥ .

(٥) تاريخ ابن الفرات : ج ١ ، مجلد ٤ ، ص ١٧٤ .

(٦) صبح الأعشى : ٥١٦:٦ .

(٧) سورة الانبياء ، الآية ١٠٥ .

(٨) الفتح القسي : ٥١٤ .

الظهيري ، الصاحبى ، المولوى ، المجاهدى ^(١) .

وبعد الاستهلال يجعل العماد لرسائله مقدمات دالة ذات ارتباط مباشر بالموضوع المطروق ، وتطول هذه المقدمات في مواضع وتقتصر في أخرى حسب الغرض الذي أنشئت فيه الرسالة . ومن المواضع التي تطول فيها : رسائل الحث على الجهاد والإخبار عن الفتوح والبشرى ، يقول العماد في مقدمة رسالته التي بعثها إلى الخليفة في بغداد مبشراً بزوال سلطان الدولة العبيدية بمصر : « الحمد لله مُعلي الحق ومعلنه ، وموهي الباطل وموهنه ، ومولى النعم ومديمها ، ومعيد المنح ومبيدها ، ومكرم أنصار الإيمان ومبين سبيله ، ومرغم أصحاب الطفيان ، ومهين أهله ، الذي نصر الهدى بإعلاء راياته ، وقهر الضلال بصرف ملماته ، وكشف غياباته ، وجلى ظلمة البدعة ، بسنا السنة ، وأزال بنور اليقين سنة الدين ، والريب عن القلوب المستكنة ، والذي اتبع النعمى ، وأحمد العقبى ، وقرن سعادة الأولى بخير الأخرى ، وختم لنا في حاضرنا بالحسنى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا .

نحمده حمد من توكل عليه فكفاه ، وفوض أمره إليه فأغناه ، واعترف بنعمه السابغة فزاده وحباه ، واستسغفه في أمانيه فأناك مراده ومناه . » ^(٢)
ويمكن معرفة بناء الرسالة عند العماد من خلال استعراض نماذج من رسائله ، وسنرى ذلك البناء في رسالة كتبها عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلى الناصر لدين الله في بغداد بفتح القدس ^(٣) .

← الرسالة المبشرة بفتح القدس إلى الناصر لدين الله بغداد :

افتتح العماد رسالته هذه بقوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ^(٤) . وهذا الافتتاح من الاستهلالات الحسنة التي يلجأ إليها الكتاب ، ولا يخفى ما لهذه الآية هنا من وقع جميل على نفوس المسلمين ، إذ جاءت تحمل إليهم البشرى بأن الله صدق وعده وأورثهم

(١) العماد : البرق الشامى ، ج ٣ ، الصفحات : ٥٩ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ، ١٦٦ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، ج ١ ، مجلد ٤ ، ص ١٧٤ .

(٣) صبح الأعمش : ٥١٥-٥١٩ .

(٤) الانبياء ، الآية ١٠٥ .

الأرض ورداً إليهم القدس بعد أن ظلت سنين طويلة بيد المشركين ، ويُلمح هذا الاستهلال إلى طبيعة الموضوع الذي سيحدثنا عنه الكاتب ، فالوعد الذي تحمله الآية بعودة الأرض لعباد الله الصالحين إشارة واضحة إلى عودة القدس إلى أهلها . وبعد الافتتاح يقدم للبشارة بمزيد من التحميد ، فيحمد الله على إنجازه الوعد ، وهو نصره الدين فيقول : « الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وعلى أن أجرى هذه الحسنه التي ما اشتمل على شبهها كرام الصحائف ، ولم يجادل مثلتها في المواقف ، في الأيام الإمامية الناصرية زادها الله غرراً وأوضاحاً ، ووالى البشائر فيها بالفتوح غُدُوّاً ورواحاً ، ومكّن سيوفها في كل مازق ، من كل كافر ومارق ... الخ » (١) .

ويستمر العماد في التحميد وتمجيد الفتح فيحمد الله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وأيده وأظفر جنده الغالب وأنجده ، ويذكر حادثة الفتح ويربط بينها وبين أحداث تاريخية سابقة ، يقول : « وخوِطِبَ الدين بقوله : « ولقد مننّا عليك مرة أخرى » فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى هذه التي عتق فيها من رقّ الكآبة ، فهو قد أصبح حرّاً فالزمان كهيئته استدار ، والحق بمُهْجته قد استنار ، والكفر قد ردّ ما كان عنده من المستعار ، وغسل ثوب الليل لما فجر فجر من أنهار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور المؤمني برقراق ماء الموردرات البوارد . ويحدثنا العماد في هذه المقدمة عن أسباب النصر فيقول : : أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ، عزّت سيما الإسلام بمسومها ، وترادف نصره بمرادفها ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مُترفيها كان لم تُؤوِّ فيها ، ... » . ويحمد الله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه ، بعد أن كان جديداً حبله ، مبيضاً نصره ، مُخضراً نصله ، متّسعاً فضله ، مجتمعاً شمله » (٢) .

أطال العماد في مقدمته ولجأ فيها إلى المزيد من التحميد ، وليس في الأمر بدعة بل هو أمر معروف جرت به العادة (٣) . ولم تشكل الإطالة خللاً في الرسالة بل جاءت مناسبة لجلال الموضوع الذي عبّر عنه العماد ، فعودة القدس التي طال

(١) صبح الأعمش : ٥١٥:٦ .

(٢) نفسه : ٥١٦:٦ ، ٥١٧ .

(٣) معالم الكتابة : ٤٨ .

أسرها تستحق من المسلمين المزيد من الحمد لله الذي منّ عليهم بهذا الفتح العظيم والنصر العظيم . وأعاد القدس إليهم طاهرة مطهرة .

وقد أحسن العماد الربط بين المقدمة وموضوع رسالته ، فالناظر في المقدمة يعرف أن الحديث عن فتح عظيم أحرزه المسلمون على أعدائهم من الفرنجة حين يقرأ قول العماد : « الحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه ... » وبهذا تحقق هذه الرسالة شرطاً مهماً من الشروط الفنية للرسالة الديوانية إذ جاء في صدرها ما يدل على عجزها ، وهذا هو حسن الافتتاح الذي ذكره النقاد وأشادوا به في بداية الرسائل ^(١) .

وحين تخلص العماد من المقدمة أحسن الانتقال إلى غرض الرسالة ، فلم ينتقل انتقالاً مباشراً أو مفاجئاً بل جعل بين المقدمة والموضوع رابطة قوية ، فذكر أن الخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشيرة بما أنعم الله به - من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه - وتلك سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » ^(٢) ورايته إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية » ^(٣) .

وبعد أن يذكر العماد أيام المعركة مجملة في المقدمة يبدأ في الموضوع بعرض مجمل الأحداث في هذه الأيام ، وقد شكلت هذه الأيام المحاور الرئيسية لموضوع الرسالة . فالיום الأول وهو يوم الخميس فتحت طبرية وفاض ربي النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها . وفي يوم الجمعة والسبت كُسِرَ الفرنج الكسرة التي مالهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة . وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان، ورفعت بها أعلام الإيمان ، وهي أم البلاد ، وأخت إرم ذات العماد ، وقد أصبحت كأن لم تغنّ بالكفر وكان لم تفتقر من الإسلام ^(٤) .

(١) صبح الأمشى : ٦ : ٢٦٥ .

(٢) سورة العاتة ، الآية ٧ .

(٣) صبح الأمشى : ٦ : ٥١٧ .

(٤) نغمه : ٦ : ٥١٨ .

حدد العماد في موضوع الرسالة أبرز الأحداث وأجمل ما حدث في كل يوم من أيام المعركة وبدا متأثراً بالقرآن في لغته وتصويره حين قال : « وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة . وقوله في وصف عكا : وهي أم البلاد وإرم ذات العماد .

وبعد هذا الحديث عن أحداث المعركة يُبرز العماد آثارها على الصليبيين ويصور ما حلّ بهم من الأسر والقتل والهوان ، ويقابل هذه الصورة بصورة المسلمين التي امتلأت عزة ونصراً وفخاراً : فيقول معبراً عن حال الصليبيين بصور بعضها جديد « وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصليبوت مأسور، وقلبُ ملك الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديداً مسلماً يفرق خطوات الكفر عن الأقدام ، وأنصار الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عُمدته والديّير داره ، قد أحاطت به يد القبضة، وأخذ رهناً فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » (١) .

ويصور العماد ديار الإسلام وقد تحررت وتطهرت وتبدلت أحوالها وازدانت بأعلام الإسلام فيقول مصوراً المدن الإسلامية المحررة : « وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يومها ، بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير ، وقد غُسل عن بلاد الإسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضير . وقد صارت البيع مساجدهم بها من أمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المناحرُ مواقف لخطباء المنابر ، واهتزت أرضها لوقوف المسلمين فيها ، وطالما ارتجت لمواقف الكافر ، والبأس الإمامي الناصري قد أمضى مشكاته على يد الخادم حتى بالدني في الكنائس ، وإن عزّ أول الإسلام بحط تاج فارس ، فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس » (٢) .

ويحدثنا العماد في رسالته هذه عن القتلى والأسرى فقد زادوا في هذه المعركة عن ثلاثين ألفاً . ومن هؤلاء القتلى فرسان الداوية والاسبتارية الذين هوا في الجحيم . يقول في وصف مصيرهم : « وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم سيوف نار الجحيم ، ووصل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم ، وفتك بافرنس كافر الكفار ، ومشيد النار ، من يده في الإسلام كما

كانت يد الكليم «^(١) .

وختم العماد رسالته إلى الخليفة العباسي بالتحميميات ، وهو بذلك يوافق ابن خلف فيما ذهب إليه من أن الكتاب يختمون رسائلهم بحمد الله القاضي لاوليائه بالإدالة ولأعدائه بالإذالة^(٢) . يقول في خاتمته : « فالحمد لله حمداً لا تضرب عليه الحدود ، ولا تزكى بأزكى منه العقود ، وكأنه بالببيت المقدس وقد دنا الاقصى من أقصاه ، وبلغ الله فيه الأمل الذي علم أن يحصيه وأحاط بأجله وأقصاه ، فلكلُّ أجل كتاب وأجل العدو هذه الكتابب الجامعة ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدي لطاعته جنات نعيمه الواسعة ، والله المشكور على ما وهب ، والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جد الإسلام وهباً »^(٣) .

جاءت هذه الخاتمة مناسبة لموضوع البشرى ، فليس أفضل من الحمد لله والشكر على ما من به وأنجز لعباده الصالحين من نصر عظيم . وأحسن العماد صنفاً حين جعل هذا الحمد قفلاً للموضوع وخاتمة ، فقد بدأ بافتتاح حسن وختم بمثله ، فكان هذا الاختتام متلائماً مع موضوع البشرى الذي حملته الرسالة إلى بغداد .

هكذا بنى العماد جلّ رسائله ، فقد راعى فيها حسن الاستهلال وقدم لها بمقدمات ذات ارتباط وثيق بموضوعاتها وأتمّ حسنها بخاتمة ملائمة لموضوعها ، مع المحافظة على الترابط بين أجزائها ووحدة الموضوع فيها . فهذه الرسالة ذات موضوع واحد وهو موضوع الفتح الذي اشتمل على الحديث عن مجريات الفتح من لقاء العدو والتغلب عليه وتحرير الأرض منه ووصف حالة العدو بعد الهزيمة وحالة المسلمين بعد الانتصار مع تصوير القتلى والأسرى ورصد نتائج هذا الفتح على الجانبين . وبالإضافة إلى وحدة الموضوع التي عالجه العماد من خلال هذه الرسالة فإنه عالج وحدة المشاعر التي أثارها هذه الرسالة عند المسلمين الذين استقبلوا هذا الفتح بالفرح الغامر . والدعاء لقادة الجهاد والشكر لله على هذا النصر . وقد عمل العماد من خلال وحدة الموضوع على إحكام الربط بين عناصر هذه الرسالة وفقراتها فجعلها نسيجاً واحداً محكماً في نسجه ، فلا تحس وأنت تقرأ

(١) صبح الأعشى : ٥١٨:٦ ، ٥١٩ .

(٢) مواد البيان : ٥٥٨ .

(٣) صبح الأعشى : ٥١٩:٦ .

أنك تنتقل من عنصر إلى آخر ، بل تلمس أن المعاني يأخذ بعضها برقاب بعض في انسجام تام .

وأما حجم الرسالة عند العماد فليس لها حجم محدد ، إذ أن طبيعة الموقف وحجم الحدث هما اللذان يحددان حجمها ، فإذا كان الحدث عن نقل أخبار الجهاد ، أو تصويره المعارك والتعزية فإن الرسالة تطول بعض الشيء كما في رسالة السلطان إلى أخيه سيف الإسلام في اليمن^(١) ورسالته في استيلاء الفرنج على عكا^(٢) فمثل هذه المواقف ، مواقف الحرب والمعارك بما فيها من وصف للخيل والسلاح وآلات الحرب هي مما يحسن بسط الكلام فيه^(٣) . كما يحسن في الكتب الصادرة عن السلطان في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة أن تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب^(٤) . ومن الرسائل الطوال كذلك رسالة العماد في التعزية بوفاة السلطان صلاح الدين^(٥) .

وبالرغم من طول الرسالة عند العماد في بعض الموضوعات ، إلا أن الطول لا يشكل خللاً بينيتها ، فإذا طالت فإنها تطول من غير إملال ، وإذا قصرت فإنها تقصر بلا إخلال ، والغالب على رسائل العماد أنها متوسطة الحجم ليس فيها إسهاب ولا إطناب بالرغم من تركيزه على اللفظ وسيلة تعبيرية .

(١) العماد ، الفتح القسي : ١٩٠ .

(٢) نفسه : ٥١٤ .

(٣) شهاب الدين محمود الحلبي ، حسن التوسل في صناعة الترسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، ١٩٧٦ ، ص ٢٤٣ .

(٤) الصناعتين ، ص ٢١٠ .

(٥) الفتح القسي : ٦٤٤ .

الأسلوب :

تتباين الأساليب بين كاتب وآخر ، وعند الكاتب نفسه بين حين وآخر ، فلكل فن أسلوبه الخاص به ، ولغته المفضلة ، فلفة الشعر غير لغة النثر .

ونثر العماد له سماته الخاصة ، ولغته المميزة التي لاءمت الموضوعات التي تناولها ، فالألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها ^(١) . وتنقسم الألفاظ في نظر ابن الأثير عند الاستعمال قسمين : جزلة ، ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ؛ فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف ، وأشباه ذلك ^(٢) . وأما الرقيقة منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق ، وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك . « واللفظ كالصورة ، والمعنى كالروح ؛ فإن اتفقا وقع الكمال ، وإن اختلفا وقع النقص » ^(٣) . ويرى صاحب الوساطة أن الألفاظ ينبغي أن تقسم على رتب المعاني في النثر كما في الشعر فيقول مخاطباً الكتاب : « ... يجب أن يكون كتابك في الفتح أو الوعيد خلاف كتابك في التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة » ^(٤) .

حاول العماد في نثره الفني أن يجعل من ألفاظه أدلة على معانيه وأمثلة للإبانة عنها ، واجتهد في نقل أفكاره بلغة تعبر عنها تعبيراً صادقاً ودقيقاً ، فإذا ما أراد أن يصور المعارك بين المسلمين والصليبيين فإنه ينتقي للتعبير عن هذه المعاني أكثر الألفاظ قوة وجزالة وأقدرها على الإثارة والتهويل ، فنراه يقول في وصف جيش الفرنجة في غزوة بيسان : « ووصل الخبر بأن الفرنج قد واقوا بجمعهم المحشود وحشدهم المجمع مانحين بالسوابح السوابق في بحار السوابغ والدروع ، وزحفوا كأنهم أسود الثرى في آجامها ، وهضاب شروري بأعلامها » ، ويضيف في الرسالة نفسها واصفاً الجيش الإسلامي الذي سيواجه الجيش الصليبي : « فبعث إليهم الجالشية فجالت أمامها ، وجاشت قدامها ،

(١) ابن الأثير ، كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، تحقيق ، نوري حمودي القيسي ورفاته ، د.ت ، ص ١٩٣ .

(٢) المثل السائر : ١ : ٢٤٠ .

(٣) كفاية الطالب : ٤٥ .

(٤) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٢٤ .

وألهبت نصالها في ماء الوريد ضرامها ، وعبيننا الأطلاب للموت طلابا ، والنصر بلسان النصل خطابا ، وحلقت أجنحة الرايات فاقتترنت بها في الجو أجنحة أمثالها من العقبان الكواسر «^(١) .

ويحدثنا العماد عن حصار صور ويصف لنا عمل المنجنيقات في سورها ، فيعبر عن ذلك بألفاظ تكاد تسمع منها ضجيج الردم والتدمر إذ يقول : « ولم تزل المنجنيقات ترمي والجمارات تدمر وتدمي ، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروح وأطباق البروج تبني وتُغطى بالسلوخ »^(٢) .

وفي تصويره للقاء بين المسلمين والفرنجة في معركة طبرية يكاد المرء يسمع من ألفاظه صليل السيوف ، وصهيل الخيل وقعقة السلاح ، وهي ألفاظ تتناسب وشدة المعركة التي يظهر فيها الرجال وقد تصافحوا بالصفائح وتجاوروا بالجراح ، وتواصلوا بالقواطع ، وتعانقوا بالمقالع . وتصارعوا على المصارع ، وتجلدوا وتجادلوا ، والباسل برد والباس يرد ، والصقيل الصادي يصدأ بالدم ويروي ، وحزب الكفر يضعف وحزب الإسلام يقوى »^(٣) . ويبدو في هذه الصورة التلاؤم بين المقاطع ، والمقابلة ، فهي تسير على نسق واحد من التلاؤم والمقابلة .

يستخدم العماد في وصف هذه المعركة ألفاظاً دالة على هولها ويصورها بصور مرعبة حين يرسم صورة للجثث المتناثرة في أرضها إذ تبدو من خلال ذلك الرصف : « مفقوءة العيون ، مبعوجة البطون ، مخضوبة الضفائر ، مقصوفة الأضالع ، مرضوضة الصدور ، مقضوضة النحور ، مقلصة الشفاه ، بائدة الوجوه ، بادية المكروه ، مهدومة البنيان ، مهتومة الأسنان ، مهركة الدماء ، سائلة الأحداق ، مائلة الأعناق ، مفتوتة الأنفلاذ ، مبتوتة الأنفخاذ ، مشدوخة الهامات ، مسلوخة اللبات ، عديمة الأرواح هشيمة الأشباح ، كالأحجار بين الأحجار ، عبرة لاولي الأبصار »^(٤) .

حرص العماد في تصويره للمعارك على أن ينقل السامع إلى جو المعركة ، وهذا الأمر يتطلب لغة خاصة قادرة على نقل الصورة بكامل عناصرها ، وقد وفق

(١) البرق الشامي : ١٤٨٥ .

(٢) الفتح القسي : ١٥٨ .

(٣) نفسه : ١٠٦ .

(٤) نفسه : ٨٣ .

في إيجاد هذه اللغة التي لاءمت أفكاره ومعانيه ، فجاءت صورته للمعركة مؤثرة
تشعر الناظر فيها بواقعيته كما تنبئ عن معرفة تامة بأجواء المعركة .

وإذا ما أراد العماد أن يتحدث عن موضوعات غير الحرب فإن لغته تلين وترق
لتلائم الموضوع الذي يعالجه ، ويتبدى ذلك في رسائله الإخوانية التي خاطب بها
القاضي الفاضل ضمن رسالة جوابية يقول ممتدحاً القاضي الفاضل وداعياً له :
« ولا زالت نوافله نواقل محامل المحامد ، وورغائبه ركائب وفود الفوائد ، ومنائحه
موالك مدى المدائح ومواهبه سواك مذاهب المنائح ، ومآثره مآثورة بألسن ذوي
اللسن ، ومناقبه ظافرة المقانب بالحمد الحسن » ^(١) . وتظهر مثل هذه الرقة في
ألفاظه التي يتحدث بها عن فصول السنة والطبيعة الجميلة ، فنراه يقول في
وصف فصل الخريف « ... وطفقت ليالي تشرين تشرى ما انتشر من لآلى أيلول ،
وابتدى الندى يطل الطلول ، ودق الودق ، تراب التراب » ^(٢) .

ويقول مصوراً الميدان الأخضر بألغاز تشاكل جمال ذلك الميدان : « نزلنا
بالميدان الأخضر في الزمان الأنظر ، والربيع في ريعانه ، والصنيع في إحسانه ،
والدهر في زهره وزهوه ، والشجر في نوره ونوته ، والروض في ضوعه وضوته ،
والطير في شوقه وشدوه ، والدوح بالورق بين أوراقه في حدوه ، وللأشجار
أشجان تبثها الحمائم ، وللزوار أدوار تحثها العزائم ، والنوار قد شب وشاب ،
والهزار قد لب ولاب والعندليب قد طرب وغنى والحبيب قد طرف وتجنى » ^(٣) .

يتضح من الأمثلة المتقدمة أن أسلوب العماد في نشره أسلوب يراوح بين
القوة والجزالة والرقة والليونة في غير ابتذال ، فألفاظه صور لمعانيه وأفكاره ،
وهي ألفاظ مقبولة سهلة مفهومة في أغلب الأحيان ، ولكن السجع يخرج بها في
أحيان أخرى إلى نوع من الغرابة غير المقصودة لذاتها بل بسبب إلحاح العماد على
اصطناع السجع كما في وصفه لحركة الجيش الإسلامي ، واستعداده للقاء جيش
الفرنجة إذ يقول : « وفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى زحف العدو إلى البلد
بالجد والجلد ، والعجاج والعجيج ، والوشيج بالوشيج ، والأمر المريح ، والقصد
بالقصد ، والزعف والزرد والأوباش والأوشاب ، ودبوا وذبوا ، وشبوا وسبوا ،

(١) العماد ، البرق الشامي : ١١٠:٥ .

(٢) نفسه : ١٣٣:٢ .

(٣) نفسه : ١١٥:٥ .

وصالوا وصبوا ، ونالوا ونبوا ، وعبوا وعبوا^(١) . لم يكن العماد يقصد إلى الإغراب في لفته بل قاداته الرغبة في اصطناع السجع إلى هذا الإغراب فكان همه أن يجد اللفظة التي تساعد على الاستمرار في ترتيب إيقاعاته حتى لو كانت غريبة بعيدة المعنى .

ولما كان العماد يصور الصراع بين المسلمين والفرنجة وهم أتباع ديانتين مختلفتين ، فلا بد والحال كذلك أن تظهر في نشره الألفاظ والمصطلحات ذات الدلالات الدينية ، وقد استخدمها العماد استخداماً موفقاً في الكثير من المواقف التي تستدعي ذلك ، وهذه الألفاظ بعضه دلالتة إسلامية ، وبعضها الآخر دلالتة نصرانية . ومن الأمثلة على المصطلحات والألفاظ الإسلامية : التوحيد ، الهدى ، الإيمان ، أهل الجمعة ، درجات الجنان ، مالك ، رضوان ، سجد ، ركع ، أهل الإيمان ، مسجد ، جامع ، نور الهدى ، الجمعة ، الفريضة ، القبلة ، المنبر ، بيت المقدس ، الموحد ، الجنة ، التقوى ، الأتقياء ، الملائكة ، المحشر ، المنشر ، المعراج ، أولي القبلتين ، ثاني البيتين ، ثالث الحرمين ، ملائكة السماء ، الإسراء ، المسجد الحرام ، المسجد الأقصى ، القدم النبوية ، الروح الأمين ، الأبرار ، الابتهاال ، الحجر الأسود ، الصخرة البيضاء وغيرها الكثير مما يصعب حصره ولا مجال لذكره هنا .

ويقابل هذه الألفاظ والمصطلحات ما يشابهها في الديانة النصرانية ، منها ما يدل على أماكن العبادة ، ومنها ما يدل على القائمين عليها ، وبعضها يشير إلى العبادات ذاتها ، ومن هذه الألفاظ والمصطلحات : « التثليث ، دين متى ، المسيح ، الصليب ، المعمودية ، صليب الصليوت ، الصليب الأعظم ، الكفر ، الضلال ، الشرك ، الكنيسة ، الهاوية ، ملة الصليب ، الناقوس ، الأجراس ، البطرك الأعظم ، الحواريين ، الأحبار ، الرهابين ، الكهنة ، السيدة ، الهيكل ، صوامعهم ، المائدة ، المهد ، الصبي ، النواقيس ، البتول ، الضلالات ، الطاغية ، طواغيت الكفر ، أهل التثليث ، أهل الأحد ، القسوس ، القومص ، القوامص ، البطرك ، عباد الطاغوت ، ضلال الناسوت ، اللاهوت ، أهل الأقانيم ، أهل الطاغوت ، رجز الكفر ورجسه ، المثليين ، حزب الكفر وغيرها مما يصعب حصره بثها العماد في ثنايا نشره وإنما دعت الحاجة لذلك . وغالباً ما كانت تذكر هذه الألفاظ مقترنة مع ما يقابلها في

(١) الفتح القسي ، ٤٧٨ : انظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه من : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٢١ ، ٣٠٨ ، ٤٨٨ : البرق

الشامي ، ج ٣ ، ص ٣٨ ، ١٢٩ ، ج ٥ ، ص ٤٨ ، ٨٥ ، وأمثلة كثيرة غيرها .

الديانة الإسلامية ، فإذا ذكر الشرك مثلاً قابله الإيمان ، وإذا ذكر التوحيد قابله التثليث ، وإذا ذكر أهل الجمعة قابلهم بأهل الأحد ، وهكذا في معظم هذه الألفاظ والمصطلحات . وهي مصطلحات نجد أمثلة كثيرة توضحها في نثر العماد ومنها قوله في الرسالة المبشرة بفتح القدس : « ويكون السيف في اليد الموحدة يُغني بالضربة الموحدة ، وفي اليد المثلثة لا يغني بالضرب مثلنا » ^(١) . وقوله في اللقاء بين المسلمين والصليبيين : « وبرز التوحيد إلى التثليث ، وإن جندهم مهزوم وإنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله ، وإن الإيمان كله برز إلى الشرك كله » ^(٢) . وقوله مقابلاً بين أهل الجمعة والأحد : « وأقيم صليب الصليبوت ، فلا يقعد عنه من أهل الأحد أحد ، وأمد يد الأيد لجمعى فلا تمتد لأهل الجمعة يد » ^(٣) . ويصف جمع الصليبيين فيقول : « وحشروا أبطال الباطل ، ورفعوا صليب الصليبوت ، فاجتمع إليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت ، واللاهوت ، ونادوا في نوادي أقاليم أهل الأقاليم ، وصلبوا الصليب الأعظم بالتعظيم » ^(٤) . ويقابل جمع المشركين جمع المسلمين يقول العماد في وصفه : « ويات الإيمان للكفر مقابلاً ، والتوحيد للتثليث مقاتلاً ، والهدى للضلال مراقباً ، والإيمان للشرك محارباً ، وهينت دركات النيران ، وهننت درجات الجنان ، وانتظر مالك واستبشر رضوان » ^(٥) . وإلى جانب هذه المصطلحات التي فرضتها طبيعة الموضوعات فإننا نجد في نثر العماد مصطلحات أخرى لغوية وفلكية ، يستخدمها في مواقف محددة ، وللتعبير عن صور طريفة ، ومن الأمثلة عليها قوله يصف المنجنيق مستعيراً من النحو بعض مصطلحاته إذ يقول : « جزمت أفعالها حروفها » ^(٦) . وقوله في موقف آخر : « ولكنه لزم ما لا يلزم ، وجزم ما لا يجزم وعين شرطاً له مانع » ^(٧) . وأما مثال استخدامه لمصطلحات الفلك فقوله يصف فصل الخريف : « ... والغزاة لما

(١) صبح الامشى : ٥١٧:٦ .

(٢) الفتح القسي : ٦٤ .

(٣) نفسه : ٦٦ .

(٤) نفسه : ٧٤ .

(٥) نفسه : ٧٨ .

(٦) نفسه : ٥٨٥ .

(٧) البرق الشامي : ١٦٦:٥ .

نفرت من الأسد ، واستوعبت رعي السنبل ، قنصتها صاحبة الميزان دون السماك في أول المنزلة ... بل وقع دينار الشمس في ميزان السماء لمشتريها ، وفارقت بيت عطارد ، فهو للاقتران بها تاليها ، وتلقته الزهرة في بيتها ، وأشعلت سراجها بزيتها ، فهي متصرفة عنها إلى باب المريخ «^(١) .

ويجد الناظر في نثر العماد الكثير من أسماء المدن والأماكن الجغرافية ، مما يعطيه قيمة تاريخية ، والأمثلة على ذلك كثيرة فمن المدن التي ذكرها مدينة « دبوريه ، وجنين ، وزرعين ، والطور ، واللجون ، وبيسان ، والقيمون ، وطبرية ، وعكا ، والزيب ، ومعليا ، واسكندرونة ، وتبنين ، وهونين ، والناصره ، وصفورية ، والفوله ، وسمسطيه ، ونابلس ، وأريحا ، وسنجيل ، والبيرة ، ويافا ، وأرسوف ، وقيسارية وغيرها الكثير^(٢) .

ومن الظواهر الأسلوبية الأخرى التي تميّز بها أسلوب العماد في نثره ظاهرة الإطناب ، إذ كان ميّالاً إلى التفصيل والاستقصاء رغبة منه في الإحاطة بجوانب الموضوع ، وظهر هذا الميل في المواقف التي يتحدث فيها عن المعارك التي خاضها السلطان في سبيل توحيد ديار المسلمين وتحريرها من الفرنجة ، وفي الرسائل التي زفّ بها البشرى بالنصر للخليفة في بغداد ولحكّام الولايات ، ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة بجلاء في حديثه عن فتح طبرية^(٣) ، ووصفه لوصول عماد الدين صاحب سنجار واستقبال السلطان له^(٤) . وفي نسخة الكتاب الجامع للفتح القسي الذي أرسله إلى شقيق السلطان سيف الإسلام في اليمن^(٥) ، ففي حديثه عن فتح طبرية تحدث مثلاً عن حصارها ، وعمل النقابين في سورها ، وذكر مواقف للقومص ، ووصف جيش الفرنجة بخيوله وجنوده وسلاحه وتحركاته . وفصل في ذكر صفاته ، ووصف رجاله ، ثم ذكر استعداد السلطان وتعبئته للجيش الإسلامي ، وصور اللقاء بين الفريقين المتحاربين ، ونقل مشاهد المعركة نقلاً تفصيلياً وكشف عن نتائجها المتمثلة بهزيمة الأعداء وهروب قادتهم من أرض المعركة ووقوع أعداد

(١) البرق الشامي : ١٣٢:٣-١٣٣ .

(٢) الفتح القسي ، انظر الصفحات : ٩٧ ، ٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ؛ وكذلك البرق الشامي : ٤٧:٥ .

(٣) نفسه ، ٧٦-٨٤ .

(٤) نفسه : ٢١٩-٢٢٢ .

(٥) نفسه : ١٩٠-٢٠٢ .

كبيرة منهم ومن جنودهم في الأسر ، واستعراض السلطان لهؤلاء الأسرى ، الذين
ظهروا بصورة مهينة ، كبرها العماد تعبيراً عن سخريته منهم . ثم عاد إلى أرض
المعركة واسترسل في وصف جثث القتلى من الصليبيين ، وما أصابهم وبالغ في
هذا الوصف مبالغة تقود القارئ إلى الاعتقاد بأن العماد إنما أراد بهذا الوصف أن
يستعرض مقدراته الإنشائية وحسب . ومهما يكن مقصد العماد من هذا
الاستقصاء والتفصيل فإنه في مواقف الحرب أمر مطلوب ومحبوب ولا يُعدّ عيباً
أو ضعفاً في قدرة المنشىء ، بل هكذا ينبغي أن تكون المكاتبات الصادرة عن
السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة ^(١) .

ومن المظاهر الأسلوبية المميزة لأسلوب العماد تأثره بالقرآن الكريم ، ويمكن
أن نلمس ذلك جلياً من خلال الاقتباسات الكثيرة من أي الذكر الحكيم . ومن خلال
نثر هذه الآيات في رسائله ونثره التاريخي ، فالعماد في هذا الجانب يجمع بين
الاقتباس المباشر للآيات وتوظيفها في نثره وبين نثرها وادخالها في سياق النص .
والاقتباس من القرآن أمر مهم وضروري ويعدّه ابن الأثير ضرباً من ضروب
الفصاحة والبلاغة ، وهو عنده ركن من أركان الكتابة الخمسة ، ولا ينبغي عنده أن
يخلو أي كتاب من معنى من معاني القرآن الكريم ^(٢) .

ويشترط ابن خلف أن يقتصر الاقتباس على المكاتبات النافذة في الأمور
الجليلة ، لغاية الترصيع والتحلية ، والاستشهاد للمعاني على ما يقع في موقعه ،
ويليق بالمكان الذي يقع فيه ، ولا يستكثر منه حتى لا يكون هو الغالب على الكلام
تنزيهاً لكلام الله عن الابتدال ^(٣) .

ويلاحظ على العماد الاعتدال في اقتباسه للآيات القرآنية ، فكان لا يأتي بها
إلا في موضعها ، وحين تكون الحاجة ظاهرة إلى برهان أو دليل قاطع . ويظهر
حسن اختياره للآيات المقتبسة في رسالته التي بعث بها إلى الخليفة الناصر لدين

(١) ابن الأثير ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، تحقيق مصطفى جواد وجميل سعيد ،
طبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٦ ، ص ١٤٧ ؛ وانظر كذلك : أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعات ،
ص ٢١٠ .

(٢) ابن الأثير ، المثل السائر ، ١٢٤:١ .

(٣) علي بن خلف الكاتب : ١٢٣ .

الله مباشرة بفتح القدس^(١) . فقد بدأها بالآية الكريمة وهي قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون »^(٢) . والدلالة واضحة هنا من عودة الأرض المقدسة إلى أهلها الموحدين ، وفي الرسالة نفسها يعبر عن استرداد المسلمين لطبيرة وانتصارهم على الفرنجة فيها تعبيراً بليغاً فيقول : (وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة)^(٣) ، وهو هنا ينظر إلى قوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك القرى وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد »^(٤) . وللتعبير عن خيانة بعض الملوك والأمراء وتحالفهم مع الفرنجة والحشيشية ضد الإسلام ، يقول : « ويريدون أن يطفئوا لك نوراً »^(٥) ، وهو هنا ينثر قوله تعالى : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »^(٦) . وتبدو الآيات المنثورة من جنس الموضوع الذي يتحدث عنه إذ ثلاثه ملاءمة تامة حتى لا يكاد المرء يميزها في بعض المواقف كما في قوله « فإن استمنحوك السلامة فاجتنب ، وإن جنحوا للسلم فاجتنب ، وما في العصا سير والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح في الغزو لا في البذل »^(٧) . لقد اقتبس العماد هذا النص من قوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجتنب لها وتوكل على الله »^(٨) . وقوله « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً وإعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »^(٩) .

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ٥١٦:٦ .

(٢) سورة الانبياء ، الآية : ١٠٥ .

(٣) صبح الأعشى ، ٥١٦:٦ .

(٤) سورة هود ، الآية ١٠٢ .

(٥) البرق الشامي ، ١٣٦:٣ .

(٦) سورة التوبة ، الآية ٣٢ .

(٧) البرق الشامي : ١٤٦:٣ .

(٨) سورة الأنفال ، الآية ٦١ .

(٩) سورة النساء ، الآية ١٢٨ .

ومن رسالة يصف فيها أبواب حلب التي فتحها السلطان يقول : « فهي جنة عدن مفتحة الأبواب للمتقين » ^(١) ، وهذا القول مأخوذ من قوله تعالى « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » ^(٢) . ويعبر عن تحرير هذه المدينة بعبارة تتكىء على النص القرآني فنراه يقول في تحريرها « وقد أورثنا الله إياها وقد سبقت كلمته بإرث الأرض لعباده الصالحين » ^(٣) ، وهذا النص مأخوذ من قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » ^(٤) . ويقتبس قوله تعالى « ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه » ^(٥) ليعبر به عن شكره لله على أن شد أزر السلطان بأخيه الملك العادل سيف الدين الذي ولاه حلب وقلعتها بعد تحريرها ^(٦) ، وللموقف نفسه ^(٧) يقتبس قوله تعالى « واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري » ^(٨) . وليس لهذا الموقف أفضل من هاتين الآيتين ، فقد جاءتا في موقعهما المناسب الذي تمثل بمؤازرة العادل سيف الدين لأخيه السلطان صلاح الدين ، فحاجة صلاح الدين لأخيه لا يشابهها إلى حاجة موسى عليه السلام لأخيه هارون .

وللتدليل على أهمية المسجد الأقصى فإن العماد يقتبس من القرآن الآيات ذات الدلالة على هذه الأهمية فنراه يقول معبراً عن عودة المسجد الأقصى إلى أيدي المسلمين : « ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صورة كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة ، وقال عزّ من قائل : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ^(٩) . وفي هذا المسجد محراب مريم عليها

(١) البرق الشامي : ١٢٢:٥ .

(٢) سورة ص ، الآية ٥ .

(٣) البرق الشامي : ١٢٢:٥ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٥ .

(٥) سورة النمل ، الآية ١٩ .

(٦) البرق الشامي : ١٦٠:٥ .

(٧) نفسه : ١٦١:٥ .

(٨) سورة طه ، الآية ٢٩ .

(٩) سورة الإسراء ، الآية ١ .

السلام الذي قال الله فيه « كلما دخل عليها زكريا » وهو هنا يقتبس من قوله تعالى « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا »^(١) ، « ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه » ويقصد بقوله سبحانه قوله تعالى « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى »^(٢) .

وللتدليل على عظمة فتح بيت المقدس وعدم مقدرة الأقلام على بلوغ الغاية في الوصف فإن العماد يقتبس من القرآن قوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً »^(٣) ، وهذه هي حال الفتح الذي أنجزه السلطان ؛ فإن الأقلام تكل قبل أن تبلغ الغاية في وصفه^(٤) .

ويصف العماد حريق الأبراج في رسالة إلى اليمن فيقول : « فتسلطت النار على عمل أهل النار ، وتصاعدت زفرات عينها بأنفاس الشرار ، ولع نور النصر الساطع من خلال ظلمة ذلك الدخان »^(٥) . وليجعل هذه الصورة أكثر وضوحاً وجلاء في نفس السامع فإنه يقتبس لها من القرآن ما يناسبها فيقول : وكان كما قال الله تبارك وتعالى « يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »^(٦) . وهذه الآية كما يلاحظ شديدة الاتصال بالموضوع الذي يصفه العماد ، ولذا فإن اقتباسها جاء مناسباً وموائماً ، ومثلها في مواءمة الموضوع الآية التي يقتبسها ليصف بها صورة الأعداء الذين انتشرت جثثهم في أرض المعركة وفيها يأخذ جزء من الآية ويوظفه في النص ، ويترك للقارئ أو السامع أن يستذكر بقية الآية ليكمل الصورة ، فنراه يقول في وصف المعركة : « وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف » فترى القوم فيها صرعى^(٧) وطابت من نثن جيفهم ريح النصر »^(٨) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ١٠٩ .

(٤) الفتح القسي ، ١٤٩ .

(٥) نفسه : ٣٧٧ .

(٦) سورة الرحمن ، الآية ٢٥ .

(٧) سورة الحاقة ، الآية ٧ .

(٨) الفتح القسي ، ٤١٠ .

ولعل العماد حين لم يكمل الآية أراد أن يعطينا الفرصة لنتمثل ما يسمح به الخيال عن تلك الحالة التي صُرِّع عليها الأعداء .

وعندما يصف العماد بطس الغلة القادمة من مصر إلى عكا فإنه يجد في صورة سفينة نوح الواردة في القرآن مثلاً معبراً عن حالة هذه البطس المحملة بالغلل ، فيقتبس الآية التي وصف الله بها سفينة نوح وهي قوله تعالى : « وهي تجري بهم في موج كالجبال »^(١) . ويستطرد في حديثه المعبر عن الموقف المتماسك في بناء سليم فيقول بعد الآية : « والريح تطردها طرد النعام والماء يرسلها على رغم أهل النار »^(٢) وعن محاولة الصليبيين احتلال عكا وتصدي المسلمين لهم وردهم^(٣) يقتبس قوله تعالى « وإنهم كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله »^(٤) . وإذا ما رجعنا إلى مناسبة هذه الآية وهي محاولة اليهود القضاء على الإسلام في بداية عهده ، وجدنا أن التشابه بين الحالين كبير ، اليهود ومحاولتهم القضاء على الإسلام في الماضي وبين الصليبيين ومحاولتهم القضاء عليه في الحاضر، ومن الأمثلة المتقدمة يمكن القول إن العماد قد رصَّع نثره التاريخي ورسائله بالآيات القرآنية حينما اقتضت الحاجة لذلك دونما إكثار ، فجاءت الآيات المنثورة والمقتبسة في موضعها الصحيح ، فأضفت على النص رونقاً وجمالاً .

ومن السمات الفنية لنثر العماد غلبة النزعة الدينية عليه ، وهو بذلك يجاري روح العصر ويوافقها ، إذ أن العصر كان عصر صراع بين الإسلام والشرك ، ولذا فإن الخطاب الموجه للأمة ينبغي أن يُراعى تلك الروح ، وقد امتلأ نثر العماد بالإشارات المعبرة عن تلك النزعة ، فنراه يقول في إشارة واضحة إلى يوم القيامة في وصفه لاستعراض الجيش الإسلامي : « وكان يوم عرضه مذكراً بيوم العرض »^(٥) . ويقول في موقع آخر مبيناً الصراع بين المسلمين والفرنجة : « وبرز التوحيد إلى التثليث »^(٦) ، ويضيف « وإنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله ، وإن الإيمان كله برز إلى الشرك كله »^(٧) . وفي موقع آخر يقول : « والتوحيد للتثليث منازل والإيمان

(١) سورة هود ، الآية ٤٢ .

(٢) الفتح القسي ، ٤١٩ .

(٣) نفسه : ٥٢١ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٦٤ .

(٥، ٦، ٧) الفتح القسي : ٦٤ .

للكفر مقاتل «^(١) ، فالعماد هنا يصور الصراع بين عقيدتين ، فيستخدم ألفاظاً ذات دلالات دينية مثل التوحيد والتثليث ، والإيمان والشرك ، ويصور الجيش الإسلامي جيشاً مؤمناً يأتيه العون من السماء في صراعه مع المشركين إذ يقول : « وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها »^(٢) . ويعبر عن انهزام الفرنجة وخذلانهم ، وانتصار الإسلام بألفاظ تطفح بالمعاني الدينية من مثل قوله في فتح القدس : « وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان ، وكف الكفر عنه بإيمان الإيمان وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس »^(٣) . ويقول من كتاب إلى الديوان العزيز في البشرية بفتح القدس : « وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصى الأقصون من الله الأبعدون . وتوافد إليه المصطفون الأقربون والملائكة المقربون وخرس الناقوس بزجل المسبحين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين »^(٤) . ويظهر العماد في حديثه عن صلاح الدين التزام الأخير بأمر الله وطاعته له وقيامه بأمر الجهاد ، وتوكله على الله في كل ذلك ، إذ يقول موضحاً : « فقال السلطان : قد أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وامتنال أمره فيه بالانقياد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد .. ولو اجتمع أهل الأرض ذات الطول والعرض لتوكلنا على الله في اللقاء ، لم نبال بأعداد الأعداء »^(٥) . وعندما يكتب لاستنهاض الهمم فإنه يستثير الجوانب الدينية في نفوس المسلمين حين يخاطبهم فيقول : « فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين ، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين وأين المسلمون ؟ وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين ، وأين المقدمون في الدين ؟ ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين »^(٦) . وعندما يتحدث عن المجاهدين فإنه يصفهم بفئة الله . ويسمي سيوفهم سيوف الله ، فنراه يقول في نوبة الرملة : « ولم تزل فئة الله بسيوفه ضاربه »^(٧) . وفي وصف الملك

(١) الفتح القسي : ٤٣٧ .

(٢) نفسه : ٧٢ .

(٣) نفسه : ١١٧ .

(٤) نفسه : ١٤٧ .

(٥) نفسه : ٢٤٠ .

(٦) نفسه : ٤٠٦ ، ٣١٦ .

(٧) البرق الشامي ، ٤٥:٣ .

العدل يقول : « وينصر بجده الدين والتوحيد ، ويخذل بحده التثليث والشرك ، ويورد أولياء الله من العزّ الهدى ، وللأعداء من الذل والهلك »^(١) .

ويؤمن العماد إيماناً مطلقاً بأن الله يرعى الجيش المجاهد ، وإن النصر من عنده ، ويظهر ذلك جلياً في نثره ، كما في قوله عند استرجاع المسلمين لحصن بيت الأحزان « ولكن الله نظر للإسلام ونصره ، وقمع الكفر وقهره ، ويسر لنا ما ظنناه عسيراً ، ولم يزل للمؤمنين نصيراً »^(٢) . ومن رسالة يصف بها غزوة بيسان يصور الملائكة وقد نزلت لنجدة الجاهدين فيقول : « ونزلت عساكر الملائكة متحدة لما استصحبنا من العساكر . وكثر الله المؤمنين في أمين الكافرين »^(٣) .

ويتسم أسلوب العماد في نثره بالميل إلى السخرية من الأعداء ، وهي سخرية دافعا كرهيتهم لما اقترفوه من جرائم بحق المسلمين ، فحين ينهزم الأعداء فإن العماد يبدع في رسم صور مضحكة لهم ، وهو بذلك يسعى إلى إدخال السرور والسعادة إلى نفوس المسلمين الذين تجرعوا كؤوس الأسى خلال الاحتلال الصليبي لديارهم ، ومن هذه الصور المضحكة التي يرسمها العماد للأعداء صورة الأسرى وهو يرسفون في قيود الذل والهوان « كأنهم سكارى وما هم بسكارى ، مشدودين في الحبال ممددين بالخبال ، معروضين على الردى ، مقبوضين من العدى ، ببسط أيدي الهدى »^(٤) .

ومنها صور القادة وهم منهزمون من المعركة كما في قوله عن القومص : « ولما أحس القومص بالكسرة ، حسر عن ذراع الحسرة ، واقتال من العزيمة ، واحتال في الهزيمة ، ومضى كومض البرق ، ووسع خطى خرقه قبل اتساع الخرق »^(٥) .

وللمبالغة في تصوير الذل والهوان الذي لحق بالأعداء جراء الهزيمة فإن العماد يصورهم ، وقد عادوا ضعافاً بعد أن كانوا مستأسدين « وكانوا أسوداً فعادوا

(١) البرق الشامي : ٨٢:٢ .

(٢) نفسه : ١٨:٢ .

(٣) نفسه : ١٤٨:٥ .

(٤) نفسه : ١٢٩:٢ .

(٥) الفتح القسي : ٧٩ .

من النقد «^(١) ، لا بل هم أحقر من ذلك وأكثر انحطاطاً ، فهم شياطين وقرود كما يقول في وصفهم ، ونيران المسلمين تنزل عليهم : « ورجمت النفاطات شياطين الداوية المردة ، وتعادت الأسود العادية على أولئك القردة »^(٢) ونجد في حديث العماد عن خروج الصليبيين من القدس وصفاً مزيئاً لما آلت إليه أحوالهم ، وما أصاب نساءهم : « فكم محجوبة هتكت ، ومالكة ملكت ، وعزباء نكحت ، وعزيرة منحت ، وبخيلة تسمحت ، وحيية توقحت ، ومجدة مزحت ، ومصونة ابتذلت ... الخ »^(٣) . ويصورهم في رسالته إلى سيف الإسلام في اليمن ، بالجمر المتقد وقد صب عليه الماء فقال ساخراً من جمعهم يوم حطين : « وكان جمعهم جمرأ وقد وقد ، فصب عليهم السيف نهراً فخمد ، وفضوا بالفضاء ، وفرشوا بالعراء ، وعب دأماء الدماء ، وغصت الفجاج بالقتلى والأسراء »^(٤) .

ولا يكتفي العماد بالسخرية من الأعداء وتصويرهم بصور مضحكة بل يجعل الشيطان يسخر منهم وهذه أقصى درجات الاستخفاف والاستهزاء فنراه يقول في ذلك : « وحل فيهم من الرزء ، وسخر بهم الشيطان في موقف الهزء »^(٥) .

ومن المظاهر الأسلوبية الطاغية على أسلوب العماد في نثره الفني ظاهرة الصنعة البديعية ، فقد تبوأ العماد منزلة عالية في مدرسة الصناعة اللفظية في القرن السادس الهجري التي كان على رأسها شيخ الصناعة وإمام البلاغة القاضي الفاضل ، ويعتبر العماد نفسه في هذا الجانب تلميذاً لشيخ الصناعة بل حسنة من حسناته ، وهو يجهر بذلك مفتخراً إذ يقول في حديثه عند وفاة القاضي الفاضل : « وكنت من حسناته محسوباً وإلى مناسب لأنه منسوباً ، أعرف صناعته ويعرف صناعتي ، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي ، ولم يزل يجذب بضبعي ويجلب نفعي .. وإنما نسجت على منواله ومزجت من جرياله ، ورويت بزاله ، وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب وأغربه من الإبداع وأبدعه

(١) الفتح القسي : ٨١ ، والنقد جنس من الغنم صفيير الأرجل (مادة نقد اللسان) .

(٢) نفسه : ١٠٥ .

(٣) نفسه : ١٣٥-١٣٦ .

(٤) نفسه : ١٩٦ .

(٥) نفسه : ٣١٥ .

من الغريب «^(١) .

وهذا الاعتراف يفسر لنا كلف العماد الزائد بضروب الصنعة من جناس وطباق ، وسجع ومقابلة وتقسيم ، فالتلميذ مفرم بتقليد أستاذه ، ويسعى دائماً لإرضاء ذوقه ، وأفضل وسيلة لإرضاء ذوق الفاضل كما يراها العماد هي نثر منمق مرصع بضروب الصنعة المختلفة ، كما يقول من رسالة إلى القاضي الفاضل : « وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق والترصيع والمقابلة والموازنة والترشيح »^(٢) .

لم تكن الصنعة نتاجاً لهذا القرن بل يمكن القول إنها تعود في جذورها إلى القرن الرابع الهجري ، ففي أوائل هذا القرن « أخذت الصناعة اللفظية تغلب علي الكتابة رويداً رويداً ، وكانت خطواتها الألى على يد ابن العميد صاحب الطريقة التي عُرفت باسمه ، واتسمت بسمات خاصة من أبرزها ، السجع القصير الفقرات ، والاقْتباس من القرآن والسنة ، وتضمين الأبيات أو أنصاف الأبيات ، وحلّ المنظوم ، والجناس والمطابقة »^(٣) . واستمر الاهتمام بالصنعة بعد ابن العميد معتداً حتى القرن السادس الهجري ، ففي هذا القرن : بلغ التأنق البياني في الشعر والنثر مبلغاً عظيماً ، وقد ظهر تأثيره في كل العصور التالية حتى انصرفت عناية المتأدبين إلى ما يلبسون الكلام من زخارف الزينة اللفظية «^(٤) . وفي هذا القرن « أوغلت المدرسة المسماة بمدرسة الصناعة اللفظية في الزخرف اللفظي ، وبخاصة التورية والجناس ، ومن ثم أظهرت أساليبها المسجوعة موشاة أيضاً بألوان البديع الأخرى من طباق ومقابلة تلميح وتوجيه ، فضلاً عن ترصيعها بآيات القرآن ، وغرر الأقوال ، وحكم الأمثال ، وفرائد الشعر المنثور »^(٥) . ويُعدّ القاضي الفاضل - بطريقته الفنية الخاصة - رائد هذه المدرسة ، « فقد تأصلت أساليبها على يديه ، واستقامت طريقته على طريقته ، وأخيراً عرف أسلوبها

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، طبعة دار الجيل ، ص ٢ : ٢٤٠-٢٤١ .

(٢) العماد : الفريدة ، قسم مصر ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٣) الصيغ البيديعي في اللغة العربية : ٣٢٧ .

(٤) أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ط ٦ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ص ٢٩٢ .

(٥) محمد نبيه حجاب ، بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، دراسة نقدية تحليلية لتطور الأساليب ، ١٩٦٥ .

« بالطريقة الفاضلية »^(١) .

ويُعد العماد في نثره الفني من أتباع المدرسة الفاضلية ، فقد ترسم خطى القاضي الفاضل في إكثاره من استخدام الصنعة البديعية ، والإسراف فيها ، إلى درجة الإسفاف والخروج عن موضوع الحديث أحياناً^(٢) . وأبرز ما يميز هذه المدرسة عنايتها الفائقة بالصنعة ، كالسجع والجناس والطباق والتورية والمقابلة والتقسيم ، وهذه الأجناس تشيع بكثرة في نثر العماد ، وتنضوي كل هذه المحسنات تحت لواء السجع ، فالسجع هو سيد الموقف في نثر العماد بمختلف ألوانه وأشكاله ، فقد أكثر منه إكثاراً لافتاً للنظر ، والتزم به إرضاء لذوق عصره ، الذي اهتم بالصنعة ارضاء لبعض الأذواق في المجتمع الإسلامي آنذاك ، فأصبح التركيز على استغلال الخاصية الموسيقية لعلاقة الكلمات فيما بينها ، وخاصة الحروف الموسيقية في الكلمة الواحدة مبعث اهتمام الكثير من المنشئين ، من هنا فإن البحث عن التمييز بين المنشئين والكتاب أصبح يتم من خلال الألفاظ المسجومة والمتقابلة أو المتجانسة والمتطابقة ، وكان العماد واحداً من كتاب هذا العصر ممن تميزوا ، بمقدرتهم على استغلال خاصية الألفاظ الموسيقية ، فجعل نثره مقطوعات موسيقية يأخذ بعضها برقاب بعض من خلال سجعيات متتابعة تبدأ مع بداية النص ، وتنتهي بنهايته ، يتخللها الكثير من ضروب المحسنات الأخرى ، والتي يأتي بها العماد لضرورة السجع لا لذاتها ، مثل : الطباق والجناس والمقابلة وغيرها ، فالسجع إذاً هو الهدف الذي يسعى إليه العماد ولا يلتفت إلى غيره إلا بمقدار ما يخدم هذا الالتفات قضية السجع ، ولذلك نجده يلتزم السجع التزاماً تاماً ، وتحس وأنت تقرأ نثره التاريخي والأدبي ورسائله أنه يبحث عن الألفاظ المسجومة لا ليكشف بها عن جوانب الموضوع الذي يتحدث عنه ، وإنما يأخذها ويفضلها على غيرها لخصائصها الموسيقية ، ولمناسبتها للسجعة التي سبقتها حتى لو كانت غريبة أو بعيدة في المعنى ، ويترك من الألفاظ ما هو أفصح منها وأوضح للمعنى لا لشيء إلا لأنها لا تملك الخصائص الموسيقية المطلوبة لمقطوعته الموسيقية التي يبنيها من السجعيات المتلاحقة من سجعيتين أو ثلاث سجعيات أو

(١) محمد نبيه حجاب ، بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، دراسة نقدية تحليلية لتطور الأساليب ، ١٩٦٥ ،

(٢) محمد زعلول سلام ، تاريخ النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، دار المعارف مصر ، ص ٧٧ .

أكثر ، فنراه يقول في وصف رحيل السلطان إلى سنجار « ونهض في عجيجه وعجاجة ، وخرصانه وزجاجة ، وبحوره وأمواجه ، وجموعه وأفواجه ، ولجبه وضجاجة ، وارتجائه للفتح وارتجاجة ، واقتراحه بالحتف ، وامتزاجه ، وخفقت كواسره ، وتدفتت مواطره ، وبرقت بواتره ، وردعت قساوره ، وصاحت زماجره ، وماجت زواجره ، ودجت بالعثير سواقره ، وسفرت بالسفور دياجره » (١) .

أراد العماد بهذا النص أن يصف الجيش الإسلامي النازل على سنجار ، وكان يكفيه للتدليل على عظمة هذا الجيش وقوته أن يذكر بعض صفاته بلغة مسجوعة أو غير مسجوعة ، ولكن شغفه بالصنعة يأبى عليه إلا أن يتعب نفسه في البحث عن الالفاظ المسجوعة والتي يمكن أن تدل على الصفات التي يريدها لهذا الجيش فيحيط بها إحاطة تامة ويجعلها في هذا النص .

ويصف العماد دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر إلى ديار الفرنج بلغة مسجوعة ظاهرة التكلف فيقول : « وقد فض الغضاء ختام القتام ، وشدت للشدائد كتب الكتب على جمام الحمام ، وحننت ضلوع الحنايا على أجنة السهام ، وتكفلت العوجاء بالمعتدلة ، وضمت المنفلتة إلى المنفلتة ، ووفت الأوتار بالأوتار ، وثار كل طلب لطلب الثار » (٢) .

ويبلغ العماد في طلبه للسجع حد الإسراف في بعض المواقف ، فنراه ينطلق دون ضوابط ، ولا يقف عند حد مقبول ، ومن الأمثلة على ذلك قوله في وصف ماطلة السلطان رسل الفرنج : « وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره ، وابتسام ثغر الربيع وأفتزاره ، والتهاب زهر أزهاره ، وانتهاج سرح أسحاره ، وانتباه عيون نهاره ، واندلاق غرار غراره ، وائتلاق أنواء نوآره ، وانطباق نواظر غاره ... الخ » (٣) .

وهكذا فإن العماد في هذا النص ينسى الموضوع الأول ، وهو الحديث عن مواعيد السلطان ، ويقع أسيراً للربيع في البحث عن صفاته المسجوعة ليحشد منها ما يستطيع .

(١) البرق الشامي : ٤١:٥ ؛ وانظر أمثلة أخرى الفتح ، ص ١٢٤-١٢٧ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، وأمثلة أخرى كثيرة .

(٢) الفتح القسي ، ٦٩ .

(٣) نفسه : ٦٢٠ .

ويأتي السجع في بعض المواقف مقبولاً حين يعبر عن مواقف الانفعال ، وحين لا يكون مسرفاً في التكلف ، ومن أمثلة السجع المقبول عند العماد وصفه لمشاعر الناس بعد انقضاء أول صلاة جمعة في المسجد الأقصى بعد تحريره إذ يقول : « ضج المتباكون وعج المتشاكون ، ودقت القلوب ، وخفت الكروب ، وتصاعدت النعرات ، وتحدرت العبيرات ، وتاب المذنبون ، وأتاب المتحدثون ، وصاح التوابون ، وناح الأوابون »^(١) .

هذه النصوص المسجوعة والمأخوذة من نثر العماد ليست أمثلة على ظاهرة السجع عنده ، بل هي مجرد إشارات إلى هذه الظاهرة المسيطرة على نثره والتي اختلفت حولها الآراء ، فذكر ابن الأثير أن بعض أرباب هذه الصنعة قد ذمه ، ولكنه لا يرى وجهاً مقبولاً لهذا الذم ، إذ لو كان السجع مذموماً كما يقول لما ورد في القرآن ، ولكنه يستدرك على قوله هذا موضحاً فيقول : « إن السجع لا يحمى على كل حال ، ولا في كل موضع حتى يتوخاه المؤلف في كلامه بحيث يذهب بفضيلة المعاني لأجله »^(٢) . ويرى الكلاعي أن لا وجه لذم السجع إلا إذا دل على تكلف^(٣) .

أدى الإلحاح في طلب السجع عند العماد إلى شيوع بعض عناصر الصنعة الأخرى في نثره مثل الجناس والطباق والمقابلة والتقسيم ، وكانت ترد معظم هذه المحسنات مجتمعة في نثر العماد ، ويأتي الجناس في المرتبة الثانية بعد السجع في نثره ، والأمثلة عليه كثيرة يمكن اختيار بعضها للدراسة ومنها قوله : « واجتمع بالسلطان ولده صاحب مصر (الملك العزيز عثمان) على عسقلان بشارة وبشارة ، ورأيه وأيه ، وهيئة وهيبة ، وثرة وثروة ، ... وعدة وعدة ، وجده وجده ، ومثدة ومثدة ، وحده وحده ، وضرعه وروعه ، ونخوه وسطوة ، وصوت وصيت ، ومصاعيب ومصاليت ومساعير ومغاوير ، ودُهم ودهم ، وشهب وكمت ، وصلاب وصلاد ، وأنجاد وأنجاد ، وجلب ولجب ، وبيض ويلب وبيض وسود ، وأسود وأسود ، وجرذ وجرذ ، وكهول وفحول ، ورقاق وعتاق ، وقود وقيدود ، وأطلاب وأبطال ،

(١) الفتح القسي : ١٤٠ .

(٢) الجامع الكبير ، ٢٥٣ ، والمثل السائر ، ٢٧١:١ .

(٣) أحكام صنعة الكلام : ٢٣٥ .

وفوارس ورجال ، وخفاف وثقال ، وعراب وأعاريب وسراحين وسراحيب «^(١) .
 لقد جانس في هذا النص بين ألفاظ كثيرة جناساً تاماً وجناساً ناقصاً ،
 فقد جانس جناساً تاماً بين ألفاظ بشارة وبشارة ، وقصد بالأولى الرمز وبالثانية
 الأخبار السارة ، وبين عدة ، وعدة ، ويقصد بواحدة العدد وبالثانية السلاح .
 وجانس بين جده وجده ، وقصد بالأولى التصميم والثانية بمعنى الشيء الجديد
 والحديث . كما جانس بين ألفاظ أخرى جناساً ناقصاً مثل : رايه وأية ، وحد وحده ،
 وهيبة وهينة ، وثرة وثروة ، وضوعه وروعه ، وإنجاب وإنجاد وغيرها ، وغالباً ما
 يلجأ العماد إلى الجناس في المواقف التي تحتاج إلى نوع من الاستثارة كوصف
 المعارك ، ووصف الجيوش ، فهذه المواقف تتطلب أن يشحن النص بطاقات تأثيرية
 اضافية ، ويجدها الكاتب في الجناس بما يوفره من موسيقى ، ترفد موسيقى
 السجع وتقويها .

ومن مظاهر الصنعة الأخرى التي امتاز بها نثر العماد ظاهرة الطباق ، التي
 يستخدمها في رسم بعض الصور لتعطيها البعد الحقيقي لها ، ومن الأمثلة
 على ذلك قوله في الخطبة التي ألقيت في المسجد الأقصى بعد تحريره ووصف فيها
 الخطبة : « وخطب وأنصتوا ، ونطق وسكتوا ، وأفصح وأعرب ، وأبدع وأغرب ،
 وأعجز وأعجب ، وأوجز وأسهب »^(٢) . فقد طابق في هذا النص بين خطب وأنصتوا ،
 ونطق وسكتوا ، وأوجز وأسهب ، وكان الموقف يقتضي مثل هذه المطابقة ليظهر
 الاختلاف والتغيير في الأحوال ، ومن الأمثلة الأخرى على الطباق قوله في وصف
 اجتماع الفرنجة لحرب المسلمين : « فاجتمع اليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب
 المقفلة المغلقة ، وتعقدت وكانت منحلة ، وتسددت وكانت مختلفة »^(٣) .

ويكثر في نثر العماد كذلك ظاهرة المقابلة والتقسيم ، وقد لجأ العماد إلى
 هذه الضروب من الصنعة طلباً للمزيد من الموسيقى ، ومن الأمثلة على التقسيم
 عنده ، وصفه لعمله في كتابة الرسائل فتراه يقول : « فما نهضت حتى أنهضت
 كتائب كتبي إلى البلاد ، وما قمت حتى قمت في ذلك المراد بالمراد ، وأمددت

(١) الفتح : ١١٤-١١٥ ؛ وانظر كذلك الواو الأخرى من الجناس في الصفحات ١٢٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٥١٧ ؛ البرق
 الشامي : ٦١:٣ ، ١١١ ، ١٢٦ ؛ البرق ، ١٧٦:٥ ، ١٧٨ .

(٢) الفتح القسي : ١٣٩ .

(٣) نفسه : ١١٠ .

الأقاليم من مداد أقليمي بالإمداد ، ووسعت صدري للإصدار والإيراد ، وكتبت وبتلت ، وسكنت وحركت ، وتملكت وملكت ، وأحكمت ، ونقضت وأبرمت وأمنت وخوِّفت ، ووعدت وسوفت ، ووشعت وفوِّفت ، وأنشأت وأنشرت ، وافتكرت وابتكرت ، وأطنبت وأوجزت ، وأعجبت وأعجزت ، ونسجت وطرزت ... الخ «^(١) . وهكذا يستمر العماد في إجراء هذه المقابلات بتقسيمات جميلة متساوية مسهباً فيها مستعرضاً قدراته اللغوية والفنية مضيفاً سمة جديدة لأسلوبه المرصع بالمحسنات البديعية التي كان مبعثها الابتهاج بالنصر الذي حققه المسلمون على أعدائهم من الصليبيين كما يقول أحد الباحثين حين يتحدث عن نثر العماد : « فالعماد الأصفهاني قد أسكره ما أحرزه المسلمون من نصر ، وفعل الطرب في نفسه ما لا تفعله الخمرة ثم اتخذ لنفسه هيئة الموسيقى أو المصور أو النحات جلس إلى غرفته الخاصة يحاول تصوير الموقعة التي انتصر فيها المسلمون تصويراً يشبع الناحية الفنية »^(٢) .

ومهما يكن الدافع للصنعة عند العماد فإن ما حققه في هذا المجال ما زال شاهداً على عصره إذ طبع ذلك العصر بطابع التكلف في الصناعة اللفظية والزخرفة الفنية ، وقد اضطلع بهذه المهمة مدرسة أدبية كبيرة هي مدرسة «القاضي الفاضل الفنية» والتي كان العماد الأصفهاني من أنجب تلاميذها وأكثرهم إخلاصاً لشيخها وانتماء لها .

(١) البرق الشامي ، ١٠٨:٥-١٠٩ .

(٢) عبداللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٩ ، ص ١٧٥ .

الصورة الأدبية

الصورة الفنية طريقة خاصة من طرق التعبير ، أو وجه من أوجه الدلالة ، تنحصر أهميتها فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية وتأثير^(١) . وتتمثل أهميتها في الطريقة التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه ، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به^(٢) . وقد اهتم العماد في نشره الفني بالصورة الأدبية وأكثر منها ، وقد شاركه أديبا عصره هذا الاهتمام ، فالصورة الأدبية كانت سمة عامة من سمات العصر الأيوبي^(٣) .

أكثر العماد من الصور الأدبية في نشره ، وبذل جهداً كبيراً في تركيب عناصرها ، في محاولة منه لإظهار المعاني التي كان يطفئ عليها الجانب اللفظي في أسلوبه ، وقد دارت الصورة في معظمها حول موضوعات العصر ، وكانت مستمدة من الواقع ، والتراث والبيئة الطبيعية والاجتماعية وثقافة العصر وثقافة الأديب وتجاربه .

لقد غلب على هذه الفترة من الزمن أدب الحرب ، فكان نشر العماد في معظمه نشرأ يصف حركة الجهاد ، فجاءت صورته لذلك في معظمها حربية ، واشتمل نشره على صور أخرى غير الصور الحربية ، مثل صور الطبيعة ، وصور الأماكن المقدسة ، وصور المدن والأبنية ومظاهر الحضارة .

وقد شكلت المعركة الإطار العام لصور العماد الحربية في نشره الفني ، فقد اشتملت هذه الصورة الكلية على صور جزئية ، مثل صورة الجيش الإسلامي ، وصورة العدو ، وصور الأسلحة ثقيلها وخفيفها وصورة الخيول والأساطيل والأبراج والقلاع والحصون والأسوار .

وحاول العماد في نشره الفني أن يبرز دور الجيش الإسلامي في المعركة ، ولتحقيق ذلك لجأ إلى التصوير القائم على الاستعارات والتشبيهات والكنايات ، واهتم في صورته بعنصر الحركة واللون والصوت ، وركز في تصويره الجيش الإسلامي على حجمه ، ورجاله ، وخيوله ، وأسلحته ، وألويته ، فالجيش الإسلامي جيش كثير العدد وافر العدة ، كثير السلاح ، قوي الإيمان ، محب للجهاد ، رجاله

(١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب : ص ٢٢٢ .

(٢) نفسه : ٢٢٨ .

(٣) عبدالجليل عبدالمهدي : بيت المقدس في أدب العروب الصليبية : ٢٩٠ .

أشدها أقوياء لا يخشون لقاء الأعداء ، يلبون نداء الجهاد مندفعين بكل قوة كما يصورهم العماد في نوبة الرملة ، إذ يقول : « ثم رحل السلطان مقدماً ، ولعزمه في الجهاد مصمماً ، ولرأيه في بذل الوسع والاجتهاد مُتَمَمّاً . وسار في جيش مجر ، لسيل الخيل مجر ، من سواد القتام في ليل ومن بياض البيض في فجر ، ومن حب الغزو في وصل ، ومن سلو الحياة في هجر ، وفي أجرى أجر وأنحى نحر ، وفي عرمرم عرم ، وخضم ضرم ، ولهام ملتهب ملتهم ، وصليم مصطل مصطلم ، ومشقي من بقي من عدو الإسلام منتقم ، وكل قرم إلى لقاء القرن قرم ، وكل سهم فوق شيطان ، ومعلم تحت علم ، وضيغم في جلد أرقم ، ومطهر على مطهم ، وصلد وصلد ، ومجرم ومرمم ، ومقدام مقدّم ، نبي مفخر مقحم إلى حج الجهاد محرم ، ولغير إراقة دم الكفر المباح محرّم ، وبالحرم متحرّم وعلى الروح منقحم ، ولليراع المقوم في الصدور محطم ، وملك مسود معتضد بملك مسوم ، وروض من الجحفل لا يخضر ورق حديده من الموت الأحمر إلا بديمة دم ، وقلق من الفيلق مسفر من النقع في الفسق ، وساروا على النسق في أشجار المرآن وورق الدرق وخرق خفقان الخرق ، سادين للأفق صادين للشفق ... الخ »^(١) .

أجمل العماد في هذا النص معظم عناصر الصورة للجيش الإسلامي ، فصور كثرته وعبر عنها من خلال الحركة واللون عندما شبه حركة الخيول بحركة السيل ، ولون القتام بالليل ، ولمعان الأسلحة والدروع بالفجر ، فهذه كلها كنايةات عن كثرة الجيش . وصور العماد قوة رجال هذا الجيش بصفات تعبر عن القوة من خلال تشبيههم بالحيوانات الكاسرة . وصور أسلحة هذا الجيش وشبهها بالأشجار فحين سار كأنه يسير في غابة من الرماح ، وتبدو عناصر هذه الصورة متلائمة منسجمة ليس فيها تنافر بل يكمل بعضها بعضاً ، فكثرة الجيش تلازمها قوة رجاله وكثرة أسلحته . ويلازم الجيش عند حركته واندفاعه مظاهر أخرى تعبر عن كثرته وقوته ، مثل الحركة والألوان الناتجة عن تلك الحركة ، والصورة مألوفة ومصدرها الواقع والبيئة الطبيعية .

إن الصور المعبرة عن كثرة الجيش الإسلامي تملأ نثر العماد وغالباً ما يربط بين كثرة الجيش وصورة الأسلحة ويعبر عن كثرة هذا الجيش بكثرة أسلحته أو بما يثيره من غبار أثناء حركته ، يقول : « وسرنا في أفواج كالأمواج نستضيء في

(١) البرق الشامي : ٣٦:٣ ، ٣٧ .

ليل العجاج بسرج الأسنة والزجاج «^(١) ، كما يعبر عن هذه الصفة وهي صفة الكثرة بعدد الخيول وكثرتها ، فيقول : « دب براجل كرجل الدبا ، وغصت بخيوله الشعاب والربى »^(٢) ، ويستمد من الطبيعة عناصر الصورة المعبرة عن كثرة هذا الجيش فيقول في وصف جيش السلطان صلاح الدين : « أصبح بالمخيم عارضاً من العسكر لعارض ثجاج ، وبحر بالعجاج عجّاج ، وخضم بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح نبي أمواج . وقد رتب أبطاله وأطلابه ، وسحب على وجه الأرض سحابه .. »^(٣) . ويرسم العماد صورة لألوية هذا الجيش وأسلحته ويجعل السماء إطاراً لهذه الصورة الجزئية للجيش الإسلامي فنراه يقول في وصف ألوية الجيش وأسلحته : « في ألوية كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها ، وبيارق كأنما حبتها أنف الرياض بزهرها »^(٤) تقابل صورة الجيش الإسلامي في نثر العماد صورة الجيش الصليبي ، فقد خصص لهذا الجيش مجموعة من اللوحات صوراً فيها الجيش الصليبي بقاتته وجنوده وخيوله وأسلحته وحركته في أثناء المعركة ، فصوره في حالات كثيرة قبل المعركة وبعدها ، فأظهره منظم الصفوف ، مندفعاً ، مدججاً بالسلاح قبل المعركة ، وقوياً مستتبساً خلالها ، ومهزوماً بعدها ، وهذه لوحة تمثل حالة الجيش الفرنجي قبل دخوله المعركة يقول فيها : « وأصبح الفرنج ؛ وقد رفعوا الصليبان ، وزحفت أسودهم في غاب المران ، وطارت بهم خيولهم عقباناً على عقبان ، وجرت بالجبال منهم رياح ، وجالوا دون التل كأنهم له وشاح ، وخرجوا على التعبية ، وشفعوا نداء الكفر بالتلبية ، وشففوا بالتبرية للتربية . وتقدموا معتزمين ، وعزموا مصممين ، وثاروا ثورة الشيطان ، وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل أمام الفرسان . وزحفوا أطلاباً ، وحفزوا طلاباً ، ودبوا دبب الليل إلى النهار ، وهبوا هبوب الخيل إلى المضمار ، وأجروا سيول السوابق إلى القرار ، وجروا ذيول السوابغ إلى الغوار ، وتحركوا وهم هضاب ، وتداركوا وهم غضاب ، وما زالت ميسرتهم تكثر وتكثف ؛ وتعطو وتعطف ؛ وتفور وتثور ؛

(١) البرق الشامي : ٥٧:٣ .

(٢) نفسه : ١٧٥:٣ .

(٣) الفتح القسي : ٦٩ .

(٤) نفسه : ٦٤ .

وتزود وتدور ؛ وتهم وتهمهم ؛ وتقدم وتدوم «^(١) .

تمثل هذه اللوحة صورة جيش الفرنجة قبل المعركة ، في حالة حركته إليها وتشمل عناصر مثل تصوير قوة الجيش وكثرته وتصوير خيوله وفرسانه وأسلحته . ويوظف العماد في هذه اللوحة الاستعارة والكناية لتوضيح الصورة . ويستخدم ألفاظاً دالة على قوة الجيش وكثرته . فيشبهه رجاله بالأسود وسط الغابة ، ويشبه خيولهم بالعقبان في سرعتها وقوتها ، ويستعير للتعبير عن قوة اندفاعهم ألفاظ مثل ثورة الشيطان وفورة الطوفان ، وللتعبير عن كثرتهم وشدة اندفاعهم يستعير ألفاظاً مثل دبوا دبب الليل إلى النهار ، وهبوب الخيل إلى المضمار ، وتحركوا وهم هضاب ، وتبدو الصورة مترابطة الأجزاء متناسقة ومتلائمة في عناصرها لا نشاز فيها إذ يدور الحديث فيها حول تحرك الجيش الصليبي إلى المعركة وترسم خطوات التحرك بشكل متسلسل ومنظم .

يحرص العماد في تصوير الجيش الصليبي على إظهاره بصورة تعبر عن شراسته وكثرته فيعتمد على صور تراثية مستمدة من البيئة أو مستمدة من ثقافة الكاتب ومعتقداته الدينية . يقول في وصفهم : « فخرجوا يوم الأربعاء في حشد يُذكر بحشد الساهرة ، واسودّ بياض النهار من سوادهم ، وتراءت الأجام لنا متوافية بأسادهم . وامتدوا إلى الخيم العادلية ، واشتدوا بما استصحبوه من البلية . من كل ذئب أمعط ، وسيد قوم تورط ، وسرحان سرح ، وأفعوان كيلج ، وجهنمي تجهم فهجم ، وجحيمي أقدم وما أحجم ، وسعيري ناري استعار حدمة النار ، ... وفارس يفرس الرجال ، وراجل يرجل الفرسان الأبطال . وأزرق زرقة الموت الأحمر ، وأنمشي يمشى واليوم أغبر . وأشقروهو أشقى وأبقع إذا غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى »^(٢) . كأنما عقدتها حور الجنان بخمرها وبيارق كأنما حبتها أنف الرياض بزهرها ، ويوم كالليل عجاجاً ، وليل كالיום ابتلاجاً ، وفيلق لهام اللهام يغلق ، وقلوب يمانية رفاق في صدر الأغماد تغلق وطيور سهام في أوتار الحنايا إلى أوكار المنايا تحرق »^(٣) .

(١) الفتح القسي : ٢٠٨ .

(٢) نفسه : ٤٤٤ .

(٣) نفسه : ٦٤ .

ويصور رايات جيش صلاح الدين في رسالة بعثها إلى سيف الإسلام في اليمن خفاقة كأنها قلوب الأعداء ، وعالية كأنها همم الأولياء . وهي رايات جيش كثير العدد . يقول في وصفه ووصفها : « عرضنا عساكرنا في يوم يذكر بيوم العرض ... في رايات خافقة كقلوب الأعداء ، عالية كهمم الأولياء ، وسرنا في جموع ضاق بها واسع الفضاء ، وسار في كتائبها نازل القضاء ، وسحب ذيل الأرض بمُثار نفعها على السماء » ^(١) .

ويصور العماد الأسلحة ويشبها بالنجوم تارة وبالعرانس طوراً آخر فنراه يقول : « وتلألأت خرصانة كما تزيّنت بالزهر السماء ، وجرت بالجبال الرياح ، وقلعت في أشباح الغمود الأشباح ، ونزعت عرائس البيض إلى خضابها ، واشتقات شفاه الشفار من مراشف الطلا إلى رياضها ، واشتارت ذئاب الظبي ضرب ضرابها ... الخ » ^(٢) .

وتشتمل صورة الجيش الإسلامي في نثر العماد على وصف رجال هذا الجيش ، وقوام هذا الوصف القوة والشجاعة والإقدام ، ويستعير العماد لجنود الجيش الإسلامي صفات تدل على شدة بأسهم ويشبهم بالمفترس من الحيوانات مثل الأسود والذئاب والجوارح مثل الصقور والعقبان . يقول في وصف جيش العادل القادم من مصر : « ... من كل أجدل على مرقب ، وأجود على جواد مقرب ، وصاف عتيق على صافن عتيق ، وطود على طود ونيق على نيق ، وصقر على سوذنيق ، وبحر على سابح ، وجذع على قارح ، ومن كل رنبال على تنفل ، وأغر محجب على أغر محجل ، ومن كل أبيض ضرب بالبيض ضراب ، وكل أسمر باسل بالسمر سلاب .. ومن كل أسد خادر ، وقصور قاسر ... الخ » ^(٣) .

وحين يتحدث العماد عن قادة الصليبيين فإنه يصورهم بصور تعبر عن خستهم ونجاستهم وكفرهم وخبثهم ، ولا ينسى صفة تساعده في تحقيق مزيد من التحقير لهم إلا ويأتي بها . يقول في وصف أحد زعمائهم وهو « المركيس » : « وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه وأخزى سرايينه وأخبث ذنابه وأنجس كلابه وأنهش ضلاله وأحنث معاهديه وأنكث معاقيه ، وهو الطاغية

(١) الفتح القسي : ١٩٢ .

(٢) البرق الشامي : ١٦٣:٢ .

(٣) الفتح القسي : ٢٣٥ .

الداهية التي خلقت له ولأمثاله الهاوية »^(١) .

ويرسم العماد للجيش الصليبي لوحة تمثل حالته في خضم المعركة ، وتظهره هذه اللوحة جيشاً قوياً مستتبسلاً وخصماً عنيداً عارفاً بفنون القتال ومجهزاً بكل وسائله . يقول العماد في وصف الجيش الفرنجي في معركة حطين : « ... وكان الملك المظفر تقي الدين من اليمين على الجناح ، في جمع يعثر بعثيره وارد الصباح . وكلما تقدموا تأخر يستجرهم ، ويحذر مكرهم ومكرهم فعرفوا أنهم لا قبل لهم لمقابلته ، وأن هذا ليس ميقات مقاتلته . فتركوه واستقبلوا القلب ، وزخر بحرهم وعب . وحملوا حملة دوى فيها الدو وأسود منها جوى الجو ، ووصلوا إلى جموع ديار بكر والجزيرة وغاصوا في لجتها بغدران السوابج والسوابغ ... وجاءوا إلى القلب وقلبوه وحاربوه وحربوه وخربوا حربه وخرقوا حجه ... الخ »^(٢) .

وفي موقف آخر يصور العماد الجيش الصليبي وقد أصيب إصابات قاتلة ولحق به أشد الأذى في المعركة ، وولى هارباً يبحث عن عاصم يحميه من سيوف المسلمين ، يقول في وصف مشهد من مشاهد حطين : « ... وقد شوتهم نار السهام وأشوتهم ، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية وأصمتمهم ، واضطرموا واضطربوا ، والتهفوا والتهبوا ، وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ ، فأورا إلى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشقتهم الظبا وفرشتهم على الربا ، ورشقتهم الحنايا وقشرتهم المنايا وفرشتهم البليا »^(٣) .

ويصور الجيش الصليبي بعد المعركة ، ويحدد مصيره ويجعل من بطون الحيوانات المفترسة قبوراً له إذ يقول : « وجعل الله لنا عليهم الكرة ، وصحیح فيهم الكسرة ، ومنحنا أكتافهم وأعدنا بالقتل والأسر إلى الأحاد آلافهم ، ومهدنا في بطون القشاعم أكنافهم »^(٤) .

وأما صورة الأسرى فإنها صورة تتلاءم وحالتهم وما هم فيه من ذل وانكسار ويتخير العماد لهذه الصورة كنايات وتشابيه واستعارات معبرة تكشف عن سوء

(١) الفتح القسي : ١٠٩ .

(٢) نفسه : ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٣) نفسه : ٧٩ .

(٤) البرقي الشامي : ١٦٨:٣ ، ١٦٩ .

أحوالهم . يقول في أسرى حطين : « وجلس السلطان يستعرض أكابر الأسارى وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى . وكان الملك يلهث ظمياً ، ويميل من سكرة الرعب منتشياً » (١) .

ومن الصور التي تشيع في نثر العماد صورة المعركة ، فقد حرص العماد على إبراز المعركة بصورة مؤثرة تبعث الإعجاب في النفس وتثير فيها مشاعر مختلفة، ولجأ إلى كل وسائل الإثارة من صوت وحركة وتجسيم في نقل صورتها وجعل عناصرها متحركة متلاحمة تتناغم مع بعضها لتعطينا صورة معبرة ، فنراه يقول في وصف معركة طبرية : « حتى إذا أسفر الصباح ، وفجر فجر أنهار النهار ، ونقر النغير غراب الغبار ، وانتبهت في الجفون الصوارم ، والتهب في الضوامر الضوارم ، وتيقظت الأوتار وتغيظت النار ، وسل الفرار ، وسلب القرار ، وخرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسي ، وغنت الأوتار ، ورقصت مرآن المران ، لجلاء عرائس الجلاذ ، وبرزت البيض من ملائها عارية ، ورتعت السمر لكننها من الكلى راعية » (٢) .

يكاد العماد ينقلنا إلى جو المعركة وهو يصف أحداثها ، فكأنك وأنت تقرأ أوصافها تنظر إلى الرجال وقد اشتجر الطعن والضرب فيما بينهم في ساحة المعركة يقول في وصف اللقاء بين الفريقين : « ثم استجرت الحرب ، واشتجر الطعن والضرب ، وأحيط بالفرنج من حوالهم بما حووا إليهم ودارت دائرة الدوائر عليهم ، وشرعوا في ضرب خيامهم ، وضم نظامهم ، فحطوا على حطين مضاربهم ، وقلت حدود الرماة الكماة مضاربهم .. فترجلوا عن الخيل ، وتجلدوا ، وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل ، وأحاط بهم العسكر إحاطة النار بأهلها ولجأوا إلى حزم الأرض فبلغ حزامهم الطبيين من سهلها ، وأسر الملك وجنوده ، وملك الملك وكنوده » (٣) .

أما معركة بيروت فإن العماد ينقلها إلينا مستخدماً الصورة الجزئية القائمة على الاستعارة والتشبيه والكناية ، فلكي يعبر عن احتدام المعركة ، وكثرة القتلى يجعل للمنايا كؤوساً تدور على الأرواح بخذي وهاتي ، ويشبه حركة الأبطال في

(١) الفتح القسي : ٨١ .

(٢) نفسه : ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) نفسه : ٧٨ ، ٧٩ .

المعركة بحركة السهام المنطلقة من الرامي فنراه يقول : « ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخذي وهاتي . وطارت القوارير ، وثارت المساعير ، واشتعل النفط ، واشتغل الرهط ، والتهم الزرّاق ، والتهب الحُرّاق ، ومرق الشهم الكمي ، مروق السهم من الرمي ... »^(١) .

وفي موقعة أخرى يجعل العماد من صليل السيوف ، وصهيل الخيل هادياً لظعائن الضفائن ، ويُشبه أوداج الأعداء وهي تنزف دماً بعيون البواكي ، يقول في ذلك : « وظعائن الظفائن تحدي بصليل البواتر ، وصهيل الضوامر ، والأوداج شاخبة كعيون البواكي »^(٢) .

يغلب عنصر الصوت على بعض الصور عند العماد ، فحين يحدثنا عن معركة نحس ونحن نقرأ الوصف كأننا نسمع ما يصدر عن المعركة من أصوات مختلفة صادرة عن الخيول والسلاح والرجال ، فتقرع أسماعنا تلك الأصوات وتنقلنا إلى جو المعركة حين يقول : « فلم يسمع إلا أنين الحنية ، لحنين المنية ، ورنين الأوتار من كنين الأوتار ، وهفيف السهام لذفيف اللهام ، وصهيل نبات الغمود من غليل أبناء الحقود ، وهمهمة الأبطال ، وغمغمة الأقتال ، وزئير الضرغام ، وزفير الغرام ، وقرع الظبا بالظبا ، وضجة الحديد من الحديد ، وعجة الشديد من الشديد ، وجمجمة رحي الحرب ، وقعقعة أداة الطعن والضرب ، وجرجرة الفحول ، وزمجرة الذحول ، وهديل حمام الحمام ، وهدير قروم الأقدام ، ووعوعة ذئاب الوغى ، ومعمعة التهاب اللظى ، ودعدعة صاع المصاع ، وجلجلة سباع القراع ، وصلصلة الزير ، ولولة الزمر ، وحيلة دعاة النصر ، وهيقلة رعاة الكفر »^(٣) .

يحاول العماد في صورة المعركة أن يبرز دور الأسلحة ، إذ تشكل تلك الأسلحة أهم عناصر الصورة ، فهي عماد المعركة وهي أداة الحسم فيها ، ولذا فإننا نلاحظ أن العماد في تصويره للمعارك يهتم بصور الأسلحة ، ويبرز دورها فنراه يقول في واحدة من المعارك : « وشبت المرهفات في ماء الحياة نار شباتها ، وهبت جفون الجفون لرقداتها من وقداتها ، وجادت جداول الأغمد بسقيا هامها »^(٤) .

(١) اللتح القسي : ١٠٥ .

(٢) نفسه : ١٦٣ .

(٣) نفسه : ١٦٤-١٦٦ .

(٤) البرق الشامي : ١٦٨٣ .

وينزل العماد الأسلحة منزلة الكائن الحي ، ويشخصها ليعبر عن مدى فاعليتها في المعركة ؛ فيجعل الرماح ترقص على أشجاع الشجعان ، والصوارم تخطب على منابر الطلى ^(١) . وتشتاق لدات اللدات إلى العناق ، وتتوق شفاه الشفار إلى لثم الأعناق ، وتطول رقاب السيوف إلى غلاظ الرقاب من الفرنجة ^(٢) وتغني لهم الأوتار برنين القسي ^(٣) ، وترقص قدود السمر على غناء الصواهل ، وتصيح ثعالب الأسل في لبة الأسود ^(٤) .

إن العماد في تصويره المعارك يبذل ما في وسعه ليظهرها بما تستحق من الاحتدام والقوة ويستمد من بيئته ومن مخزون التراث ما يساعده على رسم صور تخدم هدفه ، وحين يريد أن يقرب الصورة أو يجعلها أكثر إثارة فإنه يلجأ للتشخيص فلا يقول عن الرماح إنها فعلت فعلها في الأعداء . ولو قال ذلك لما أحدث هذا القول الأثر الذي يريده ، ولكنه يستعير للرماح ألفاظاً تدل على كثرة الحركة وخفتها ، وهي مأخوذة من حركات يؤديها الإنسان في حالة الفرح والنشوة ويطلق عليها الرقص . فهذه الصورة استعارة الرقص للرماح وغيرها من الصور التي تضارعها هي أكثر إثارة وتأثيراً في نفوس السامعين لارتباطها بمشاعر معينة وعن طريقها يمكن أن يصل المنشئ إلى ما يرمي إليه .

ويصور العماد الأسوار في حالة مهاجمتها وحصارها ، ويقرب صورة الحصار ، بتشبيه صورة الجيش المحيط بالسور بتشابهه منتزعة من البيئة الاجتماعية والطبيعية يقول في وصف مشهد من مشاهد الحصار : « وأخذت الثقوب في كل جانب في الركن ، وأحاطت الجماعة بالسور المحكم إحاطة السوار بالمعصم ، والخلخال بالمخدم ، بل أحدقت به أحداق الأجنان بالحدقة ، والسياج بالحديقة » ^(٥) إن هذه التشابه تصور مدى إحكام الطوق حول السور وهي تشابه قريبة سهلة تقرب إليها حالة الحصار تقريباً حسياً يجعلنا ندرك كيف تكون المعركة بين الطرفين ، ويصور العماد عملية نقب الأسوار والوسائل المستخدمة

(١) الفتح القسي : ٣١٤ .

(٢) نفسه : ٣٦٣ .

(٣) نفسه : ٤٣٥ .

(٤) نفسه : ٤٣٥ .

(٥) البرق الشامي : ١٨٢:٣ .

فيها وهي جزء من عملية الحصار ومهاجمة الأسوار يقول في وصف عملية النقب :
« ولما أخذ النقبون مواضعهم شاهد القوم مصارعهم ، فما زالت المعاول تعول
والجنادل تتخلخل ، والنقب يعمل ، وإخراب بيت الأحزان في تبييته يعجل ، حتى
استقامت النقب ، واستنامت القلوب ، وخطب الخطب منها نكاح كفاحها ، وعط
العطب بها رداء رداحها ، ظن أن النقب استتم واستتب ، وإنه كما تهوى القلوب
في قالب الهوى للصواب صباً ، ولم يعلم أن البكر بعذرتها لم تفتض . وإن الحائط
بحوطته ما أن أن يرفض ، وأن الجدار برمته ما يريد أن ينقض » (١) .

ويلجأ العماد في تصويره للأسوار المهاجمة إلى بعض الاستعارات الغريبة
يستعيرها للأسلحة المستخدمة في مهاجمتها وأهم هذه الأسلحة المنجنيق الذي
تنتشر صورته انتشاراً واسعاً في نثر العماد ، فالعماد مفرم بنقل صورها
والمبالغة في وصفها . ووصف آثارها المدمرة على الأسوار والحصون والقلاع ،
ويستخدم العماد في تصوير المنجنيق وبيان آثاره المدمرة كل وسائل التعبير
الممكنة من تشبيه واستعارة وكناية وتجسيم وتشخيص ، ويبني من الصورة
الجزئية صوراً كلية للألة العظيمة المدمرة فنراه يقول في بيان أثر المنجنيقات في
الأسوار : « وزاحمنا مناكب أبراجها من المنجنيقات بمناكب ، وأصبنا فوائدها لما
رميناها بمصائب ، وأحمينا مقاتل الأسوار بسهام قسيها ، وعاقبناها بحبالها
وعصياها ، واقتدنا بخزام الكره أنف الطاعة من عصيها وصافحنا بيض الصفائح
يدي الرضى من أبيها ، وباشرت سهام المجانيق بسواكها ثنانيا الشرفات فهتمتها ،
ونهضت أحجار الرماة إلى أحجار البناء فهدتها وهدمتها ، وغنى فيها معول
النقاب فرقصت للاضطراب لا للإطراب وعادت الحجارة إلى أصلها من التراب » (٢) .
تمتلى هذه الصورة كما يلاحظ بالحركة وتبدو هذه الحركة من خلال الأفعال
زاحمنا ، وأصبنا ورميناها واقتدنا وصافحنا وباشرت وهتمتها وهدمتها وهدتها
وغنى ورقصت . ويصاحب هذه الحركة ما يناسب الأفعال من أصوات ، وهي صورة
معبرة عن دور تلك الآلة المعروفة بالمنجنيق وما قامت به دور فاعل في الحروب
في ذلك العصر .

(١) البرق الشامي : ١٨٢:٣ .

(٢) الفتح القسي : ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ويقول العماد في تصوير المنجنيقات التي تدك أسوار الكرك : « ... وقامت الحرب من المنجنيق على ساق ، وأقمنا من نصر الله على أوكد ميثاق ، وكانت سبعة قد فتحت لأهل جهنم سبعة أبواب ، وفغرت أفواهاها وكشرت عن أنيابها . ولم يزل يرمج الحصن الزاني وتهدم فيه المباني » ^(١) . في هذه الصورة يشخص العماد المنجنيقات ويجعلها إنساناً يؤدي الطاعة لربه من خلال إقامة الحد على الحصن الذي يشخصه كذلك ويجعله رجلاً محصناً ارتكب خطيئة الزنا ، فجاء المنجنيق مثلاً للسلطان الذي يقيم حدود الله وأقام الحدّ عليه .

وفي حصار عسقلان تبدو الآثار التي أحدثتها المنجنيقات بالأسوار واضحة المعالم من خلال وصف العماد لما قام به السلطان فقد أقام عليها مجانيق مجت نيقها ، وفرجت بالحجارة طريقها ، ورجت بالتفريق فريقيها ، ووسعت بالتضييق ضيقها ، وأضعفت بالتوثيق وثوقها ، وجمعت شمل الحجارة بالنار التي وقودها الناس والحجارة » ^(٢) .

وفي موقف آخر يشبه العماد المنجنيقات بشتبيهاث معبرة عن طبيعتها وقوة بطشها فهي كالجانين في قذفها للحجارة ، وكالجال تجذبها الحبال ، وكالحوامل تلد البلايا وحجارتها المنطلقة كأنها النجوم المنقضة » ^(٣) .

وفي المعركة التي استردت بها القدس ، يصور العماد الأسوار تركع والأبراج تسجد بفعل المنجنيقات إذ يقول : « فنصبنا عليهم منجنيقات هدت أحجار السور بسورة أحجارها ، وأذن ركوعها بسجودها لأبراج في أجبارها ، ووفت الصخور بإصراخ الصخرة ، وعثرت تلك القلل بإقالة ما دام بها من العثرة » ^(٤) .

ويجد الدارس في نثر العماد صوراً للسفن الحربية والمعارك البحرية ، ويركز العماد على ضخامة السفن عند تصويرها ويشبها بتشابهه مختلفة ، يقول في وصف سفن الأسطول المصري : « وكان قد استدعي الأساطيل المنصورة ، فوافت كالفتع الكواسر بالفلك المواخر ، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً وأفواج تزاحم أفواجاً ، وتدب على البحر عقاربها ، وتخب كقطع الليل سحائبها ،

(١) البرق الشامي : ١٥٤:٥ .

(٢) الفتح القسي : ١١٣ .

(٣) نفسه : ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٤) نفسه : ١١٧ .

تجر بالذوايل ذوائبها ، وتزاحم مناكب الأطواد مناكبها «^(١) . وتظهر السفن في صورة أخرى متحركة في البحر تغير على الأعداء ، فتقلع عروش الغوأة ، وتنقض على شياطين الكفر شهبها ، يصور العماد هذه الحركة فيقول : « وتلاطم الأمواج بأواجها ، وتزاحم الأثباج بأثباجها ، وترفع شرع الهداة بشراعها ، وتقلع عرش الغوأة بأقلعها ، وتنقض على شياطين شهبها ، وترقص بشأبيب الذعر سحبا «^(٢) ، ويصور العماد الرجال الذين تحملهم تلك السفن فيستعير لهم ألفاظاً تدل على شدة فتكهم وقوة بأسهم ، يقول : « ... فكأنها الأساورد السود ركبتهما الأسود ، من كل أفعوان يحمله أفعوان ، وشجاع أمتطته شجعان ، وغراب بشتات العدا ناعق ، وسحاب بوميض الهدى بارق ، فيا لها من أغربة دارت بعقبان ، وأجنحة طارت بظلمان «^(٣) .

ويحدد العماد في هذه الصورة أدوار الجنود والمهمات التي يقومون بها ، ويصنفهم في فئات حسب أسلحتهم وأدوات القتال التي يستخدمونها في المعركة البحرية ، يقول : « ... وقد ملئت برماة الحدق ، وحماة الطلق . وزراقى النار وطراقى الثار ، والخاطفين بالخطاطيف ، والقاذفين بالمقاذيف ، والكالبين بالكلايب ، والسالبين بالأساليب ، والحاربين بالمحاريب ، والراجمين بالرجام والمعلمين على الأعلام «^(٤) .

تتميز السفن في هذه الصورة بضخامتها وقدرتها على الحركة والمناورة ، كما يمتاز رجالها بالخفة وسرعة الحركة وشدة الفتك بالأعداء ، وهي سفن تثير الرعب في نفوس الأعداء ، وترفع ألوية الهدى ، وتقلع عروش الطغاة ، كما تمتاز هذه الصورة بالتوافق التام بين عناصرها ، وفي دلالتها على جو المعركة والحرب ، إذ يستعير العماد صوراً من التراث ليعبر عن حالة السفن ورجالها ، وعندما يصور العماد سفن العدو فإنه يشبها بتضاريس الطبيعة في ضخامتها ، يقول في وصف سفن صاحب صقلية : « واتفق وصوله في تلك الأيام في ستين قطعة تحسب

(١) الفتح القسي : ١١٥ .

(٢) نفسه : ١٦٠ .

(٣) نفسه : ١٦٠ .

(٤) نفسه : ١٦٠ ، ١٦١ .

كل واحدة منها قلعة أو تلة»^(١) ويقول في وصف مجموعة أخرى من سفن الأعداء: « وسفن العدو كالجبال تمرّ مرّ السحاب ، وتطوي اللّجة كطي السجل للكتاب »^(٢) . يبدو العماد في تصويره الأخير لسفن العدو متأثراً بالقرآن الكريم فهذه الصورة مأخوذة من قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب ... الخ »^(٣) وقوله « يوم تطوي السماء كطي السجل للكتاب ... »^(٤) .

لا ينسى العماد في حديثه عن السفن والأساطيل أن يصور المعارك البحرية التي تخوضها تلك الأساطيل ، يقول في وصف المعركة البحرية التي دارت بين الأسطول المنصوري المصري ، وأسطول الفرنجة : « فصدمتها مراكبنا بمناكبها .. واستطال الأسطول المنصوري على أساطيلها ، وجاء حقه بإزهاق أباطيله ، وطلعت في سماء البحر كواكب مراكبنا نجوماً ، وقذفت لشياطين الكفر رجوماً ، ويضيف قائلاً : « فجاءت فجأة وسفن العدو كالجبال تمرّ مرّ السحاب ، فصدمتها وصدعتها، وردتها وردعتها ، فكأنما نعبت غربانها بين أحبة الكفر أعاديها ، وأناخت ظعائن الظفائن على شواني شوانيها ، وعادت قوامص الكفر فيها قنائص جوارح جواربها »^(٥) .

ومن الأمور التي اهتم العماد بتصويرها ، يوم فتح القدس ، فقد صور في هذا اليوم مشاعر الناس وأحاسيسهم ، وعبر في هذه الصورة عن الفرح الغامر الذي عمّ ديارهم فصور الهيئة التي كان عليها السلطان ثاني يوم الفتح ، وعندما تقرأ وصف المشهد تحس كأنك تشارك في ذلك اليوم أو تعيش المشهد ، أو تشاهده عن قرب ، إذ ظهر السلطان في مجلسه كأنه القمر يحيط به الناس فكانهم هالة عظيمة ، فقد أحاط به القراء يقرأون والشعراء ينشدون ، وظهرت الأعلام لتنتشر ، وجهزت الأقلام لتبشر بهذا الفتح الكبير ، والنصر العظيم ، والناس لهذا المشهد العظيم يغلب عليهم التأثر فتدمع عيونهم وتخضع قلوبهم لشدة الفرح وتنطلق

(١) الفتح القسي : ٢٣١ .

(٢) نفسه : ٣٤١ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٨٨ .

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٥) الفتح القسي : ٣٤١ .

الأسنة مبتهلة إلى الله شكراً له على هذه المنّة^(١).

لم يكتف العماد بإظهار مشاعر الناس تجاه هذا الفتح بل شخص المكامن وأنطقه ، فقال المحراب في القدس لأهله : مرحباً وأهلاً^(٢) . وانطلقت نجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضة ، وابتسمت الثغور فرحاً بما تحقّق^(٣) .

لقد كان لفتح القدس أثره الكبير في مسيرة التحرير والتخلص من الاحتلال الصليبي الذي صورته العماد بالظلام . وقد جاء هذا الفتح ليجلو جلابيب ذلك الظلام ، فتعود ديار المسلمين مشرقة بأهلها بعد زوال الاحتلال الصليبي . وإظهار عظمة هذا الفتح فإن العماد يقابل بينه وبين فتح آخر عظيم هو فتح مكة ، فيصور الدين وقد خوطب بقوله تعالى : « ولقد منّنا عليك مرة أخرى »^(٤) ، فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والثانية هذه التي عتق فيها من رق الكآبة ، فهو قد أصبح حراً فالزمان كهيئته استدار ، والحق بمهجته قد استنار ، والكفر قد ردّ ما كان عنده من المستعار ، وغسل ثوب الليل بما فجرّ الفجر من أنهار النهار ، وأتى الله ببنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموريات البوارد^(٥) .

استخدم العماد للتعبير عن حالة القدس بعد تحريرها صوراً قوامها والتشبيه والاستعارة والكناية فهذه القدس كانت مستبعدة إبّان الاحتلال فكأنها الإنسان المملوك الذي لا يملك حريته ، فجاء الفتح وعتقها لتصبح حرة وتعود إلى ما كانت عليه ، وقد شبّه العماد وجود القدس بيد العدو بالعارية التي رُدّت إلى أهلها بهذا الفتح .

ويصور الليل ليل الاحتلال بالإنسان الذي يلبس ثوباً متسخاً ، فجاء فجر النصر وغسل ذلك الثوب بما فجرّه من أنهار النهار ، وانطلقت تلك الأنهار تقتلع بنيان الكفار من القواعد ، وتشفي غليل صدور المؤمنين برقراق مائها البارد ، لقد

(١) الفتح القسي : ٣٤١ .

(٢) نفسه : ١٤٧ .

(٣) نفسه : ١٤٨ .

(٤) سورة طه ، الآية ٣٧ .

(٥) صبح الأمشى : ٥١٦:٦ ، ٥١٧ .

حوك هذا الفتح العبودية إلى حرية ، والرق والأسر إلى انعتاق وانطلاق ، فتحوالت القدس من بلد يتسربل بأثواب الظلام إلى بلد ينغم بأنوار شمس الحرية .

ويستمر العماد في رسم صورة جميلة تعبر عن روعة النصر معتمداً على التشخيص والتقابل فيصور الفتح وقد : « أعاد الإسلام جديداً ثوبه بعد أن كان جديداً حبلة ، مبيضاً نصره ، مخضراً نصله ، متسعاً فضله مجتمعاً شمله » (١) . ويشبه النصر الذي تحقق في طبرية وانطلق إلى ما يجاورها وانتهى بتحرير القدس ومدن الساحل ؛ بالماء يفيض من بحيرتها ليروي ما حولها : « فيوم الخميس الأول فتحت طبرية وفاض ربي النصر من بحيرتها » (٢) .

وبالإضافة إلى صور الحرب فإننا نجد في نثر العماد صوراً أخرى يصف فيها الطبيعة الجميلة وفصول السنة مثل الخريف والشتاء ، ويعتمد في رسمه لهذه الصور على التشابيه والاستعارات والكنائيات والتجسيم والوصف ، ففي حديثه عن فصل الخريف يقول : « ودخل فصل الخريف ومالت الطباع إلى التحريف ، واصفرّت الأوراق ، واغبرّت الأفاق » (٣) . وللتعبير عن التحول في الفصول والانتقال من الصيف إلى الخريف ، فإن العماد يصور بعض مظاهر الانتقال مثل تغير حركة الرياح واشتدادها وسقوط البذور وتغير النسيم ، فالرياح القوية تتشاجر مع الأشجار والحوامل من الشجر تلقي أجنة الأثمار ، والهزار ينوح على الأزهار ، ويبوح نفس الجو العليل بالأسرار ، وترتجز السماء ، ويضحك البرق ، بهذه الاستعارات الجميلة استطاع العماد أن ينقل السامع إلى أجواء الخريف المصفرة المضطربة .. التي تشهد بدايات الأمطار ، وما يرافقها من برق ورعد ترتج له الأرض ويرتعد له الثرى (٤) .

ويصور الشتاء بصور تعبر عن شدة البرد وقسوته مستخدماً الكنائيات ، فقد أصبح الجنود في المخيم وصباحهم من الثلج الأبيض ، وجناحهم من شدة البرد لا ينهض وعروقهم لا تنبض والبروق لا تومض ، وخيامهم لجمودها واقفة على غير عمودها ، ونيرانهم مقرورة وزنادهم كابية ، ووجوههم في عبوس جمدوا حتى

(١) القلقشندي ، صبح الاعشى : ٥١٧ .

(٢) نفس : ٥١٧-٥١٨ .

(٣) العماد : البرق : ١٣٢:٣ .

(٤) نفس : ١٣٢:٣ .

كأنهم بلا نفوس . وبعد هذه الصورة المعبرة والمثلة لجو الشتاء القارس ، فإن العماد يشبه التفاف الجنود حول الكوائن من شدة البرد ، بالعباد في الصوامع » وكنا في الأكنان حول الكوائن كأننا في صوامع «^(١) .

وفي رسالة إلى القاضي الفاضل يصور العماد الشتاء والثلوج بصور يعتمد في تشكيلها على الاستعارة والكناية والتشبيه ، فالسنة التي يتحدث عنها صورها امرأة قدمت حسنتها وفتحت عيونها ، فغسلت بمائها أسنانها وسننها ، وصور السحب حوامل وضعت أجنحتها ، فتهيات الأرض لتزخرف جنتها ، وسحب السحاب ذيل سيله فشرق وغرب ، وصور رؤوس الجبال المكتسية بالثلج الكثيف بالرأس الذي علاه الشيب بكثافة ، وصور السحاب المطر قد تحلى بالذهب ورمز إليه بالبرق ، وبالفضة التي رمز إليها بالودق . وصور هذا العارض صاحب مذاهب في إنبات الربيع في الشعاب ، وصور الجداول قد صقلت من الجليد سيوف سيولها ، والثلوج نقلت للأكام أكمام ملابسها المروية ، فجرت على الوهاد فضول ذيولها ، وصور السماء وقد غارت على الشمس فأخفتها بالسحب « والسماء قد غارت على غزالتها فدلّت سجف المزن دونها ، وصاننتها في خدر الحفز فكم تبدل مصونها ، والليالي جادت على رائب التراب بعقود اللآلئ بل بأمثال شهبها »^(٢) . إن المتتبع لباقي أجزاء الصورة في هذه الرسالة يدرك أن العماد أراد بهذا التصوير أن يظهر قدرته وبراعته في تصوير الطبيعة وهي قدرة لا تقل بحال من الأحوال عن قدرته في تصوير الموضوعات الحربية^(٣) .

تنوعت مصادر الصورة عند العماد ، فقد استمد بعضها من مخزونه الثقافي ، وبعضها الآخر من أجواء المعركة ، وبعضها من الطبيعة بعناصرها المختلفة الجامدة والمتحركة ، وبعضها من عادات المجتمع وتقاليده . ومن المصادر المهمة التي كانت موقلاً للعماد استمد منه الكثير من صورته ، القرآن الكريم ، ففي تصويره للجيش الإسلامي في حربه مع الجيش الصليبي كثيراً ما كان يستعير صوراً وردت في القرآن ، أو يقترن بين ما يريد تصويره ومواقف ذات دلالات دينية ، عندما تحدث عن عرض جيش السلطان مثلاً وأراد أن يبين كثرته لم يجد أفضل من تشبيهه في

(١) البرق : ١٣٥:٣ .

(٢) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٧٠-١٧١ .

(٣) انظر صوراً للشتاء في الفتح القسي ، صفحات : ١٧٥ ، ١٨٠ ، ٤٥٢ .

عرضه بيوم العرض العظيم ، وهو مشهد ترتجف له القلوب ، وتخر من هول الجبابرة .

وللتعبير عن اليُمن الذي لازم هذا الجيش جعل ألويته وكأنما عقدتها حور الجنان بخمرها إذ يقول : « وكان يوم عرضه يذكر بيوم العرض في ألوية كأنما عقدتا حور الجنان بخمرها » ^(١) . واستعار من القرآن صورة النجوم وهي تنقض راجمة للشياطين ، فصور سيوف المسلمين وهي تنزل على الكفار كأنها النجوم تنقض على الشياطين فقال : « ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الإيمان منقضة » ^(٢) . وصور الأبراج تقوم ببعض حركات الصلاة كالسجود والركوع ^(٣) .

وشبّه نار النفاطات بالشهب التي ترجم شياطين الداوية فقال : « ورجمت شهب النفاطات شياطين الداوية المردة » ^(٤) . وهذه صورة مستمدة من القرآن في وصفه لعذاب الشياطين بالشهب .

ومن الصور الأخرى المنتزعة من ثقافته الدينية ، تجسيم الآلات الحربية وإنطاقها بعبارة دينية كقوله : « وابتدأ الجرخى باسم الله ، وختم المنجنيق بلا إله إلا الله » ^(٥) .

ويأتي العماد ببعض صوره من بيئته الاجتماعية بعاداتها وتقاليدها ، أفراحها وأحزانها ، ملابسها وحليها ، فنراه يشبه السفن بالعرائس والأوانس فيقول : « وما أحسنها وقد زُفت عرائس وجلت أوانس » ^(٦) . ويقول في موقع آخر مشبهاً السفن بالعرائس مرة أخرى : « وهي تجري بهم في موج كالجبال ، وكان جواربها عرائس يُزفن بما لهن من الجهاز وكان البحر المتموج ثوب بتلك الأعلام المنشآت معلم الطراز » ^(٧) .

(١) الفتح القسي : ٦٤ .

(٢) نفسه : ١٤٨ .

(٣) نفسه : ١٦٣ .

(٤) نفسه : ١٠٥ .

(٥) نفسه : ١٦٣ .

(٦) نفسه : ٢٨٨ .

(٧) نفسه : ٤٢٦ .

ويجد العماد في صوت الغناء والرقص معادلاً لحركة الأسلحة حين تحتدم المعركة فيستعير ألفاظاً مثل الرقص والغناء ليعبر فيها عن الأصوات الصادرة على الأسلحة أثناء المعركة فنراه يقول : « ورنث القسي ، وغنت الأوتار ، ورقصت مرآن المراد لجلاء عرائس الجلاء »^(١) .

وصور المعول الذي ينقب الأسوار يغني والأسوار ترقص للاضطراب لا للإطراب « وغنى فيها المعول النقب ، فرقصت للاضطراب لا للإطراب »^(٢) . وصور الرماح ترقص على سهيل الخيل فقال : « ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل »^(٣) .

ويستمد العماد بعض صورته من أدوات الزينة وبعضها من صفات بعض الأعضاء في الإنسان ، وبعضها من الطبيعة لتضاريسها ، فنراه يقول في إحاطة المسلمين بسور الصليبيين : « وأحاطت الجماعة بالسور المحكم إحاطة السوار بالمعصم ، والخلخال بالمخدم ، بل أحدقت به أحداق الأجنان بالحدقة ، والسياج بالحديقة »^(٤) .

اتكأ العماد على الطبيعة الحية والجامدة باعتبارها مصدراً من مصادر الصورة ، فجاءت أغلب الصور للجيش والمعارك منها ، فنراه مثلاً حين يصور جيش المسلمين وهو يحاصر طبرية يشبهه بالبحر فالجيش المحيط ببخيرة طبرية كأنه البحر المحيط ، ومضاربه كأنها السفن حين نزلت على الأثباج ، وأطلابه كأنها الأمواج المتلاطمة »^(٥) . و يصور عساكره في حركتها وتدافعها بالبحر الزاخر ، فيقول : « وماجت عساكره في موكب كالبحر الزاخر »^(٦) . وفي موقف آخر يصور حركة الجيش معتمداً على الطبيعة بوديانها وطيورها الجوارح ، وأسودها ، وبروقها ، وسحابها ، وعودها ، وبحارها وشهبها ، ونجومها فيقول : « وأسلنا الأودية ، ونشرنا الألوية ، وأطرنا العقبان ، وأثرنا الأضغان ، وسرنا بالأسود في

(١) الفتح القسي : ٧٨ .

(٢) نفسه : ٢٠٢ .

(٣) نفسه : ٥٠٨ .

(٤) البرق الشامي : ١٨٢:٣ .

(٥) الفتح القسي : ٧٢ .

(٦) نفسه : ١٢٩ .

غابها ، وبالبروق في سحابها ، وبالرعود في اصطخابها ، وبالبحور في عبابها ، وبالشموس في حجابها ، وبالنجوم في نقابها وبالجبال وهضابها «^(١) . وللتعبير عن احتشاد الجيوش الإسلامية في أرض المعركة لا يجد العماد أفضل من الطبيعة المحيطة بما فيها من أزهار وغدران وأنهار وطيور وحدائق وبساتين وحيوانات مفترسة ، ليشبه الجيش بها ، فالفوارس كالأسود ، والسيوف كطاقات الرياحين ، والرماح كأشجار البساتين ، والرايات صفر تخفق بعذبات الياسمين ، والألوية حمر كأنها شقائق النعمان ، والدروع كالغدان ، والسهام زرق كالأطيوار والأقواس تموج كالافنان ، والبيض تلمع كثغور الأتحوان ، والخيول كالعقبان «^(٢) .

ويصور السلطان بصور مأخوذة من البيئة المحيطة وهي صور معروفة ، كالقمر والأسد ، فنراه يقول عن السلطان : « والسلطان في موكب جلالته كالقمر المبرد في هالته »^(٣) . ويصور نزول السلطان على طبرية فيشبهه بالأسد والقمر ، فيقول : « وتزل السلطان على صحراء طبرية كالأسد المصحر والقمر المبرد »^(٤) .

ومن المصادر الأخرى للصورة عند العماد الإنسان بصفاته وأعضاء جسمه ، فالمجانيق كأنها المجانين ، وحوامل تلد البلايا «^(٥) ، والثغور تبتسم «^(٦) ، وعيون النصال عن حواجب القسي إلى مقل الأقران رامقه ماركه «^(٧) ولدات اللدات تشتاق إلى العناق ، وشفاه الشفار تتوق إلى لثم الأعناق ، ورقاب الرقاق تطول إلى غلاظ الرقاب «^(٨) . والمنجنيقات حبالى من الجبال أجنحتها «^(٩) ووجوه الصوارم تبكي وتضحك ، وعيون اللهازم تفتك وتبتك «^(١٠) .

(١) البرق الشامي : ٨٢٥ .

(٢) الفتح القسي : ٧٣ .

(٣) البرق الشامي : ١١٢:٢ .

(٤) الفتح القسي : ٨٤ .

(٥) نفسه : ١٢٥ .

(٦) نفسه : ١٤٨ .

(٧) نفسه : ٣٥٠ .

(٨) نفسه : ٣٦٢ .

(٩) نفسه : ٤٧٩ .

(١٠) نفسه : ٥٦٩ .

ويشكل جو المعركة بيئة خصبة يستمد منها العماد كثيراً من صورته بما تشتمل عليه تلك الأجواء من جيوش متلاحمة تتماوج بأسلحتها تملأ الفضاء بما تثيره من القتام ، وبما فيها من أسلحة وخيول ، وما تنطوي عليه تلك المعارك من مشاهد عظيمة ، نجد العماد يرسم صوراً معبرة قوامها الجيوش المتحاربة وما يلزم لها في تلك المعارك . ومن الأمثلة على صورته المستمدة من أجواء الحرب قوله : « وقد رمدت بما أثارته الأسد عين الغزالة ، وبطشت من ليل العجاج بضوء النهار يد الإزالة ، وعادت تلك البراري من مراكز رماحنا بساتين ، ومن مراكز جيادنا ميادين ، فالليوث معتقلات شعابين معطيات من السراحيب سراحين ، وكأنها من لبس الحديد رياض بأيديها من القواضب رياحين ^(١) .

وينقل إلينا العماد من جو المعركة حركة السهام منطلقاً من أوتار الأقواس إلى أوكار المنايا وكأنها الطيور ^(٢) . ويصور السيوف وقد برزت عارية من ملاءتها في المعركة ، والرماح قد رتعت في كلى الأعداء إذ يقول : « وبرزت البيض من ملاءتها عارية ورتعت السمر لكلنها من الكلى راعية » ^(٣) . كما يصور السيف وهو يحصد رقاب الأعداء بالسيل يجرف ما يعترض طريقه : « فجرفهم السيف جرف السيل » ^(٤) .

وللتعبير عن احتدام المعركة واشتداد أوارها يصور العماد الحديد وقد ضج من الحديد ، ويصور الشفار الظامنة وقد مجت ورد الوريد ^(٥) . ويصور الجيش الإسلامي في المعركة وقد سقى : « بماء الوريد الجاري أنهار أهل النار مفارس الهدى الزاكية » ^(٦) . ويصور المعركة ويركز على الأسلحة فيصورها وقد تظافرت في المعركة لتلحق الهزيمة بالعدو « فقد توافرت سهام السهام من المقل ، وتبدت بنات الكنائن من الدم القاني حمر الحلل ، وأسقطت حوامل المنجنيقات أجنة

(١) الفتح القسي : ٢٤ .

(٢) نفسه : ٦٤ .

(٣) نفسه : ٧٨-٧٩ .

(٤) نفسه : ٨٠ .

(٥) نفسه : ١٥٦ .

(٦) نفسه : ٢٥٢ .

الصخور^(١) . ويصور الأسلحة بيد المسلمين وقد فعلت فعلها بالأعداء إذ يقول : «
وخطنا بأبر السهام من موقها الأماق ، وأطرنا النشاب إلى أوكار المقل ، وأزرناهم
رسل النصال بكتاب الأجل »^(٢) .

(١) الفتح القسي : ٢٤١ .

(٢) نفسه : ٢٣٦ .

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة أدب العماد الأصفهاني وسيرته ، وكشفت عن أهم خصائص عصره ، فقد بينت أن الحالة السياسية كانت مضطربة في بداية القرن السادس الهجري ، وأن الصراعات الداخلية كانت أبرز سماتها ، ولم يكن للخلافتين الفاطمية والعباسية من السلطة إلا اسمها فيما كانت السلطة الحقيقية بيد السلاجقة في بغداد ، وبيد الوزراء المتصارعين في مصر ، وقد ظلت ساحة الجهاد ضد الصليبيين خالية من القوة الإسلامية المؤثرة ، حتى قيام الإمارة الزنكية التي أخذت على عاتقها محاربة الصليبيين وتوحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام ومصر والجزيرة الفراتية . وبعد منتصف هذا القرن بدأت كفة الصراع تميل لصالح القوة الإسلامية الناشئة ، وقد شهد هذا القرن أحداثاً فاصلة وتحققت فيه نجاحات كبيرة للمسلمين على يد الدولتين الزنكية والأيوبية .

وفيما يخص الحياة الاجتماعية فقد أظهرت الدراسة أن الحياة الاجتماعية تأثرت تأثيراً كبيراً بما جرى في هذا القرن وما سبقه من حروب وفتن داخلية ونزاعات وكوارث طبيعية وأوبئة ، وانعكست آثار تلك الأحداث في الأدب وخاصة الصراع بين المسلمين المدافعين عن بلادهم والصليبيين الغزاة .

وأما الحركة الثقافية فقد تأثرت بعدم الاستقرار السياسي ، لكن عناية الدولتين الزنكية والأيوبية ساعد على إبقاء جذوة الثقافة في زمن الصراعات والفتن من خلال الاهتمام ببناء المدارس وتوفير معلمين لها ، والعناية بالكتب والمكتبات ورعاية العلماء والأدباء .

وفيما يتعلق بسيرة العماد فقد كشف البحث عن أهم مراحل حياته والبيئات التي عاش فيها ، كما كشف عن مصادر ثقافته وشيوخه الذين لم تذكرهم الدراسات السابقة ، وصحح البحث بعض المعلومات المتعلقة بسيرته وشخصيته .

ومن خلال دراستي لموضوعات شعر العماد وجدت أن هذه الموضوعات يتنازعها اتجاهان : أولهما الاتجاه التقليدي ، وهو اتجاه يشتمل أغراضاً مثل المديح والاستعطاف والرثاء ، والإخوانيات ، والتشوق ، والحنين ، والوصف ، والغزل .

وفي هذا الاتجاه مدح العماد عدداً من خلفاء بني العباس ووصفهم بصفات مثل العدل والحفاظ على السنن ، وإقامة الشريعة والتقوى ، والشجاعة وبسط الأمن ، كما وصفهم بالكرم والحلم والاستقامة ، وكلها صفات تقليدية لا جديد فيها ، كما مدح وزراءهم ، وتوسّع في المدح ليشمل العلماء والأدباء والمفكرين من أصدقائه . وقد لجأ العماد إلى الاستعطف عندما تقلبت به الأحوال ، ودخل السجن في بغداد وقد مزج في هذا الغرض بين المدح وطلب العون والمساعدة ، ونجح في ذلك وأدرك بغيته .

وفي موضوع الرثاء لا نجد رثاءً للخلفاء العباسيين الذين نالوا مدحه وقد تركز الرثاء في مجمله على البطلين نورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، وقد عبّر العماد في رثائهما عن فجيعة الأمة برحيلهما ، وكان في تأبينه لهما إنما يتحدث بلسان الأمة الإسلامية .

وفي موضوع الإخوانيات أبرزت الدراسة صلوات العماد الاجتماعية من خلال هذا الغرض الشعري الذي طرقه العماد مثل غيره من شعراء عصره تعبيراً عن روح المودة والإخاء التي كانت تسود بين أرباب ذلك العصر ومفكره . وأظهرت الدراسة أن العماد كان مهتماً بموضوع التشوق والحنين ، فقد أكثر من القول في هذا الغرض لكثرة دواعي القول ، من سفر دائم وحياة في بيئات مختلفة وكثرة الأصدقاء .

وعُنيت الدراسة بالوصف في شعر العماد ، وخاصة وصف المدن ، فقد وصف دمشق وصفاً دقيقاً وذكر مواقع الجمال فيها . واهتم بوصف الرياض وجعل وصفها مقابلاً صورة المدوح أو المدحة . واهتم بوصف الأطعمة والأشربة ، ووصف ثمار المشمش بأوصاف جميلة معتمداً في تصويرها على مجموعة من التشبيهات المبتكرة . وفي موضوع الغزل أظهرت الدراسة أن العماد لم يكن شاعراً غزلاً ، بالمعنى الدقيق لهذه الصفة بل كان شاعراً يحسن القول في موضوع الغزل ، وجاء غزله في معظمه تقليداً أودعه مقدمات قصائده المدحية .

وقد واكب العماد في الاتجاه الثاني من شعره حركة الجهاد وعبر فيه عن النفسية الإسلامية في صراعها مع الصليبيين ، وقد كشفت الدراسة عن دور مهم قام به العماد من خلال شعره في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ، فقد واكب الأحداث وعبر عنها وعن عواطف الأمة الإسلامية في تمجيد أبطالها وحثهم على

توحيد ديار المسلمين ، وتحرير المغتصب من أرضهم . وقد صور العماد المعمارك البرية والبحرية وعبر عن إعجابه بالجيش الإسلامي من خلال تصوير بطولاته وأسلحته وصولاته ضد الأعداء ، وصور جيش العدو بصور تعبر عن قوته وغدره وانكساره أمام جحافل الجيش الإسلامي ، ورسم صوراً معبرة عن حالة ذلك الجيش عند الهزيمة ، وعند وقوعه في الأسر ، وعبر في بعض صورهِ عن خبث قادته ونجاستهم وغدرهم وخستهم .

وأما الجانب الفني من شعر العماد ، فقد اهتم البحث بدراسة بناء القصيدة ، وأسلوبها ، وبالصورة الشعرية فيها . فمن حيث البناء ظهر العماد في بنائه للقصيدة تقليدياً سار على نهج من سبقوه من الالتزام بعناصرها الرئيسية من مراعاة لحسن الابتداء ، وحرص على أن يكون الابتداء أو المطلع مناسباً لمقصد المتكلم ، مع اهتمام بالخروج الحسن والتخلص اللطيف من المقدمة إلى موضوع القصيدة والاهتمام بوحدة الموضوع الذي يتحدث عنه في القصيدة الواحدة ، والبحث في النهاية عن الخاتمة المناسبة للموضوع .

وجاء أسلوب العماد في صياغة أشعاره متنوعاً فقد أظهرت الدراسة أنه كان يتخير الألفاظ لتلائم الأغراض ، ويراجح في ذلك بين الألفاظ الرقيقة في الأغراض التي تتطلب الرقة كالوصف والغزل ، وبين الألفاظ القوية في الأغراض التي تتطلب القوة مثل وصف المعمارك والجيوش ، وقد غلب على شعر العماد الموسيقى ، ومن أجل الحصول على الموسيقى المطلوبة أجهد نفسه في البحث عن الألفاظ التي تحقق هدفه . وشاع في شعر العماد أنماط أخرى من الصنعة اللفظية مثل الطباق والتورية وحسن التعليل والسجع ورد العجز على الصدر .

وفي مجال الصورة الشعرية أوضحت الدراسة أن العماد جعل للصورة الشعرية إطارين : الأول ضمّنه الصورة التي تعبر عن حالة السلم والاستقرار مثل صورة الطبيعة ومظاهر الحضارة ، والثاني وضمّنه صورة الحرب بجوانبها المختلفة، واعتمدت الصورة عنده على ضروب البيان المتنوعة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ، واستمد الصورة من البيئة المحيطة ، ومن الموروث التراثي ، والظروف والأحوال السائدة .

وفي مجال النثر ، أثبتت الدراسة أن العماد كان كاتباً أكثراً ومُجيداً ، وذلك بما تركه من نثر أدبي له صفة التاريخ ، وبما دبّجه من رسائل ديوانية ومنشورات،

ورسائل إخوانية ، ونثر أدبي في مصنفاة .

وقد اشتمل نثر العماد التاريخي على موضوعات أبرزها تصوير البطل المسلم ، والمعركة والجيش الإسلامي ، وجيش العدو ، كما تضمّن صوراً لمظاهر الحضارة والطبيعة .

وأما نثره الذي صدر عن ديوان الإنشاء من رسائل ومنشورات ، فقد خدم قضية الجهاد وإدارة شؤون الدولة وسياسة الرعاية ، فكانت رسائله في موضوعات مثل الدعوة إلى الجهاد واستنفار الجيوش ، وبعضها في البشري بالفتوح والانتصارات، ومنها ما كان في الشكر والتعزية ونقل الأخبار ، وأما المنشورات فكان معظمها في تصريف الشؤون العامة مثل تعيين القضاة والولاة والمعلمين والمحتسبين والأطباء .

وقد أثبتت الدراسة أن نثر العماد كان مرآة لعصره ، إذ صور أبرز مظاهر ذلك العصر المتمثل بقيام الدولة الإسلامية القوية في وجه المدّ الصليبي في البلاد الإسلامية ، وكان على رأس القوة الإسلامية البطل صلاح الدين السياسي والمجاهد . وقد بينت الدراسة أن العماد من خلال نثره التاريخي ورسائله قد رسم صورة للبطل الإسلامي من مختلف جوانبها ، فبدأ صلاح الدين راعياً للامة أخذاً بأسباب ذلك من إشاعة العدل والتزام الشرع ، والزهد في الدنيا ، والإقبال على الآخرة بالاجتهاد على إرضاء الله تعالى بمحاربة أعدائه ، وتحرير مقدساته ، ونصرة دينه ، وقد كشفت الدراسة من خلال نثر العماد عن دور صلاح الدين المتميز في سياسة الأمة وقيادتها إلى تحقيق النصر على أعدائها .

وتناولت الدراسة نثر العماد من الجانب الفني وكشفت عن أهم خصائصه ، ففي موضوع البناء الفني للرسالة لم يخرج العماد عن القواعد الفنية المرعية في عصره إذ وجدناه كثير الاهتمام بالاستهلال الحسن والمقدمات المؤدية إلى أغراضه في الرسائل مع العناية بوحدة الموضوع والخاتمة الملائمة ، وأظهرت الدراسة أن العماد ينوع في مقدماته بحسب أغراضه ، وأنه في بعض رسائله يتجاوز عن المقدمة ويخوض في الموضوع خووضاً مباشراً . ومن خلال بعض النماذج من رسائله أثبتت الدراسة أن بناء الرسالة عند العماد جاء محكماً ، ملتزماً بالقواعد المتعارف عليها في عصره .

وأما أسلوب العماد فقد امتاز باحتفاله الكبير بالصنعة اللفظية ، وأهم عناصرها السجع والجناس والطباق ، وقد كان السجع العنصر المهيمن على غيره من العناصر . وأثبتت الدراسة أن الاحتفال بالسجع أخلّ بالمعادلة القائمة بين الألفاظ والمعاني لصالح الألفاظ وفي كثير من المواقف كان الوصول إلى الحقيقة في بحر الألفاظ المسجوعة المتلاطم أمراً غير يسير ، ويحتاج جهداً إضافياً للوصول إليه .

وكشفت الدراسة عن مظاهر أسلوبية أخرى امتاز بها نثر العماد مثل التأثر بالقرآن الكريم ، وبروز النزعة الدينية ، وشيوع المصطلحات الدينية والعسكرية والأسماء الأفرنجية فيه .

وأما فيما يخص الصورة الأدبية ، في نثر العماد فقد أظهرت الدراسة أن التصوير كان ركناً أساسياً من أركان التعبير الفني عنده ، وغلبت الصورة الحربية في نثره على غيرها من الصور ، وقد شكلت المعركة الإطار العام لتلك الصورة ، واشتملت صورة المعركة على صور جزئية مثل صورة الجيش الإسلامي ، وصورة العدو ، وصورة الأسلحة ، وصورة الخيول والأساطيل والأبراج والقلاع والحصون والأسوار . وقد أثبتت الدراسة أن العماد أظهر مقدرة فنية عالية في نقل الواقع الذي عاصره وشاهد معظم أحداثه عن طريق الصورة الكلية والصورة الجزئية .

وكان من نتائج هذه الدراسة الوصول إلى بعض أشعار العماد المفقودة التي لم يشتمل عليها الديوان ، في ثنايا بعض المصادر المخطوطة والمطبوعة . وقد جعلت هذه الأشعار التي ضمت قصائد ، وبعض المقطوعات في ملحق خاص جعلته في ذيل الرسالة .

وإني في الختام لأرجو الله أن تكون هذه الرسالة قد أضافت جديداً إلى ما تقدم في هذا الباب .

والحمد لله حمداً يليق بجزيل نعمه .

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة :

- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، البرق الشامي ، مكتبة ليدن 1592 Cordor .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، خريدة القصر و جريدة أهل العصر ، نسخة مكتبة ليدن OR210 ، القسم الثاني من الخريدة ، العجم وفارس وخرسان .

المصادر والمراجع المطبوعة :

- ابن الأثير ، ضياء الدين ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، تحقيق مصطفى جواد ، وجميل سعيد ، طبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٦ .
- ابن الأثير ، ضياء الدين ، كفاية الطالب في نقد كلام الشعراء والكاتب ، تحقيق نوري حمودي القيسي ورفاقه .
- ابن الأثير ، ضياء الدين ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق ، أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة ، ط ٢ ، دار نهضة مصر ، ١٩٥٩-١٩٦٢ .
- ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق عبدالقادر طليمات ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ، الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٦ ، ١٩٨٦ .
- ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ، الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .
- أحمد بن ابراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٩ .
- أحمد إبراهيم موسى ، الصيغ البيديعي في اللغة العربية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

- أحمد أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عهد الحروب الصليبية بمصر والشام ، مكتبة نهضة مصر .
- أحمد أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط ٢ ، دار نهضة مصر ، القاهرة .
- أحمد الحوفي ، الغزل في العصر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- الأسنوي ، جمال الدين أبو محمد عبدالرحيم بن الحسن ، طبقات الشافعية ، تحقيق عبدالله الجبوري ، وزارة الأوقاف ، بغداد ، ١٩٧١ .
- أمينة البيطار ، تاريخ العصر الأيوبي ، جامعة دمشق ، دمشق ، ١٩٨٢-١٩٨١ .
- أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ط ٦ ، دار العلم للملايين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- البغدادي ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- أبو البقاء عبدالله بن محمد البدري المصري دمشقي ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، المكتبة العربية ، بغداد ، ١٣٤١هـ .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٨ .
- جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ .
- ابن جُبَيْر ، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبیر الكِنَانِي ، رحلة ابن جُبَيْر ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- أبو منصور الجواليقي ، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، المعرب ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طهران ١٩٦٦ .
- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد عبدالقادر ورفيقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢ .

- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دار المعارف العثمانية ، ١٣٥٨ هـ .
- جوزيف نسيم ، الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان الغزو الصليبي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨١ .
- الجهشياري ، أبو عبدالله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتّاب ، تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٢٨ .
- حاجي خليفة ، اسماعيل بن محمد الباباني البغدادي ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، طبعة وكالة المعارف ، ١٩٤١ .
- حازم القرطاجني ، أبو الحسن حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ، تونس ١٩٦٦ .
- حامد ذياب ، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، دار الثقافة للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق محمد البيجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة .
- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، طبعة ١٩٢٩ .
- حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، منشورات المكتبة الأهلية ، ١٩٦٥ .
- حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- الحصري القيرواني ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، زهر الآداب ، وثمر الآليات ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٧٢ .
- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت . ١٩٧٧ .

- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .
- درويش الجندي ، ظاهرة التكسب بالشعر ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- دوزي ، رينهارت ، تكملة المعاجم العربية ، ترجمة محمد سليم النعيمي ، بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٧٩ .
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤ .
- ج ٢٠ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم ، عرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- ج ٢١ ، تحقيق بشار عواد معروف ، ومحي هلال السرحان ، مؤسسة الرسالة ، العراق ، ١٩٨٤ .
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، العبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٣ .
- ابن رشيقي ، أبو الحسن بن رشيقي القيرواني ، الأزدي ، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده ، ط ٤ ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- ابن الساعاتي ، علي بن رستم : الديوان ، تحقيق أنيس المقدسي ، المطبعة الأميركية ، ١٩٣١ .
- ابن الساعي : تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب ، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير ، المطبعة السريانية ، ١٩٣٤ .
- سبط ابن الجوزي : شمس الدين أبي المظفر يوسف ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٥١ .
- السبكي : تاج الدين ، أبو نصر عبدالوهاب بن علي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ورفيقه ، الناشر ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٨ .
- سيسل دي لويس ، الصورة الشعرية ، ترجمة أحمد الجنابي ورفاقه ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٢ .

- ابن سعيد الأندلسي ، الفصون اليبانة في محاسن شعراء المائة السابعة ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٥ .
- سعيد عاشور ، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ .
- س. سميل ، فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ، ترجمة محمد وليد الجلاذ ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ١٩٨٥ .
- السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٢ .
- السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ، حسن المحاضرة ، مطبعة الموسوعات ١٣٢١ .
- سهيل زكار ، حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار إحسان ، دمشق ، ١٩٨٤ .
- أبو شامة المقدسي : شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسماعيل ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الذيل على الروضتين ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- أبو شامة المقدسي : شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسماعيل ، الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمي ، المؤسسة العربية ، القاهرة ١٩٦٢ .
- أبو شامة المقدسي : شهاب الدين أبي محمد عبدالرحمن بن اسماعيل ، الروضتين في أخبار الدولتين ، دار الجيل ، بيروت .
- أبو شامة المقدسي : شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي ، عيون الروضتين في أخبار الروضتين ، تحقيق أحمد البسيومي ، منشورات وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٩١ .
- ابن شداد : بهاء الدين بن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، سيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال الدين الشياح ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ .

- ابن شداد : عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق يحيى عبارة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٨ .
- شهاب الدين محمود الشلبي ، حسن التوسل في صناعة التوسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، ١٩٧٦ .
- صدر الدين علي بن الحسن البصري ، الحماسة البصرية ، ط ٢ ، تحقيق مختار الدين أحمد ، عالم الكتب ، بيروت .
- صدر الدين الحسيني ، زبدة التواريخ ، تحقيق محمد نور الدين ، دار اقرأ ، ١٩٨٥ .
- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات ، ط ٢ ، باعتناء هلموت ريتر ، فسبادن ، ١٩٦٢ .
- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك ، الشعور بالعور ، تحقيق عبدالرزاق حسين ، دار عمار ، ١٩٨٨ .
- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٥ .
- صفى الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي ، مرصد الأطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البيجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢ .
- ابن طباطبا : محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، تحقيق عباس عبدالستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٢ .
- الطفراشي ، أبو اسماعيل الحسين بن علي ، ديوان الطفراشي ، تحقيق علي جواد الطاهر ورفيقه ، وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٦ .
- عبدالجليل حسن عبدالمهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٦ .
- عبدالرحيم بن شيت القرشي ، معالم الكتابة ومغانم الإصابات ، بيروت ١٩١٣ .
- عبداللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٩ .
- ابن العديم : كمال الدين عمر بن أحمد ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ١٩٨٨ .

- علي بن خلف ، مواد البيان ، تحقيق حسين عبداللطيف ، منشورات جامعة الفاتح ، ١٩٨٢ .
- علي بن ظافر الأزدي ، بدائع البدائة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- علي مظفر سلطان ، العماد الأصفهاني حياته ، وأدبه ، طبعة وزارة الثقافة السورية ١٩٥١ .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، البرق الشامي ، ج ٣ ، تحقيق مصطفى الحيارى ، مؤسسة شومان ، عمان ١٩٨٧ .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، البرق الشامي ، ج ٥ ، تحقيق فالح حسين ، مؤسسة شومان ، عمان ، ١٩٨٧ .
- عماد الدين الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح بن علي البنداري الأصفهاني ، دار الآفاق ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٠ .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، خريدة القصر و جريدة العصر ، القسم الرابع ، المغرب وبلاد الأندلس ، تحقيق عمر الدسوقي ، وعلي عبدالعظيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٦٤ .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، خريدة القصر و جريدة العصر ، تحقيق محمد المرزوقي ورفاقه ، النشرة الثانية ، ج ١ ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٢ .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، خريدة القصر و جريدة العصر ، القسم العراقي ، ج ١ ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، وجميل سعيد ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٥ .
- ج ٢ ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٦٤ .
- ج ٣ ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٦-١٩٧٨ .
- ج ٤ ، تحقيق محمد بهجت الأثري ، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٣ .

- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، خريدة العصر و جريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٨ .
- العماد الأصفهاني ، محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني ، خريدة القصر و جريدة العصر ، قسم شعراء مصر ، تحقيق أحمد أمين ، وشوقي ضيف وإحسان عباس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١ .
- العماد الأصفهاني ، أبو عبدالله محمد بن صفى الدين الكاتب ، الديوان ، تحقيق ناظم رشيد ، الموصل ١٩٨٢ .
- العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط ٢ ، دار السيرة ، بيروت ١٩٧٩ .
- العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عنيت بنشره مكتبة القدس .
- عماد الدين خليل ، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ، عهد ولاية السلاجقة في الموصل ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٩٨١ .
- عمارة بن أبي الحسن اليميني ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، باعتناء هرتويغ درنبرغ ، ١٨٩٧ .
- الفتح بن علي البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ .
- الفتح بن علي البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٧٩ .
- أبو الفداء : عماد الدين ، المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية المصرية .
- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ، ج ١ ، تحرير ونشر ، حسن محمد الشماع ، جامعة البصرة ، ١٩٦٧ .

- أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين ، الأغاني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٥ .
- ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، تحقيق سمير الدروبي ، جامعة مؤتة ، الأردن ، ١٩٩٢ .
- فولفغانغ مول-فيتتر ، القتال أيام الحروب الصليبية ، ط ٢ ، ترجمة محمد وليد الجلاذ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٠ .
- ابن الفوطي : كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق البغدادي ، تلخيص مجمع الآداب ، تحقيق مصطفى جواد ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٢-١٩٦٣ .
- أبو القاسم الكلاعي : أحكام صنعة الكلام ، تحقيق رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٦ .
- القاضي الجرجاني : علي بن عبدالعزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، دار القلم ، بيروت .
- ابن قاضي شهبه : بدر الدين ، طبقات الشافعية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٩٧٩ .
- ابن قاضي شهبه : بدر الدين ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق محمد زايد ، دار الكتب الجديدة ، بيروت ، ١٩٧١ .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، دار صادر ، طبعة ابريل ، ١٩٠٢ .
- قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- القلقشندي : أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .
- القلقشندي : أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية .
- ابن القلانسي : حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ، تاريخ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٣ .

- القمي : عباس بن محمد رضا ، الكنى والألقاب ، المطبعة الحيدرية ، النجف . ١٩٧٠ .
- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ط ٢ ، ترجمة عبدالحليم النجار ، دار الكتاب الإسلامي ، قم ، إيران .
- ابن كثير الدمشقي : أبو الفداء ، البداية والنهاية ، ط ٢ ، تحقيق أحمد ملحم ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- ابن كثير الدمشقي : أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية ، ط ٤ ، تحقيق أحمد ملحم ورفاقه ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٨ .
- محمد إبراهيم نصر ، ابن سناء الملك حياته وشعره ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- محمد أحمد جادالمولى ، قصص القرآن ، ط ١٤ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ .
- محمد بن أحمد الذهبي ، المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الديلمي ، تحقيق مصطفى جواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٥١ .
- محمد بن تقي الدين شاهنشاه ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق حسن حبشي ، عالم الكتب ، ١٩٦٨ .
- محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري ، دار المعارف بمصر .
- محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ .
- محمد سيد كيلاني ، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، دار الكتاب العربي ، مصر ١٩٤٩ .
- محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط ٢ ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٤ .
- محمد بن قاسم الاسكندراني ، الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام ، والأمور المقتضية في وقعة الاسكندرية ، تحقيق عزيز سوريال ، حيدر آباد الدكن . ١٩٧٠ .

- محمد القزاز ، الحياة السياسية في العراق في العهد العباسي الأخير ،
النجف ١٩٧١ .
- محمد كرد علي ، خطط الشام ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٢٦ .
- محمد نبيه حجاب ، بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، ١٩٦٥ .
- محمد الهرفي ، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، مؤسسة
الرسالة .
- محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، مكتبة
الأقصى ، عمان ١٩٧١ .
- محمود إبراهيم ، حطين بين أخبار مؤرخيها ، وشعر معاصريها ، دار
البشير ، عمان ، ١٩٨٧ .
- مزهر عبد السوداني ، الشعر العربي في القرن السادس الهجري ،
منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، دار الرشيد ، ١٩٨٠ .
- مصطفى الحيارى ، صلاح الدين القائد وعصره ، دار الغرب الإسلامي ،
بيروت ، ١٩٩٤ .
- المعري ، أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المعري أبو العلاء ، شرح
ديوان أبي الطيب المتنبي (معجز أحمد) ، تحقيق عبدالمجيد دياب ، دار
المعارف ، القاهرة .
- المعري ، أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي أبو العلاء ، شرح سقط
الزند ، تحقيق مصطفى السقا ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
- المقرئزي : أحمد بن علي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط ٢ ، ج ١ ، ق ١ ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- المنذري : زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي ، التكملة لوفيات
المنقلة ، تحقيق بشار عواد ، مؤسسة الرسالة .
- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأنصاري ، لسان العرب ،
طبعة دار صادر ، بيروت .
- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني ، مجمع الأمثال ، تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

- ابن ميسر : تقي الدين أحمد بن علي ، المنتقى من أخبار مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة .
- نظير حسان سعداوي ، جيش مصر في أيام صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، ١٩٥٩ .
- النعيمي ، عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٨٨ .
- السير هاملتون آ. ر. جب ، صلاح الدين الأيوبي ، دراسات في التاريخ الإسلامي ، حررها يوسف إيبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- ابن هشام ، أبو محمد عبدالمك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧١ .
- أبو هلال العسكري : الحسن بن عبدالله بن سهل ، كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ، تحقيق مفيد قميحة ، ط ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤ .
- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الجمهورية العربية المتحدة .
- ابن الوردي : زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدرابي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٠ .
- اليافعي : عفيف الدين أبو السعادات عبدالله ابن أسعد ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان ، حيدر آباد ، دائرة المعارف النظامية ، ١٩١٨ .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبدالله ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأريب ، اعتناء د. س. مرجليوث ، مطبعة هندية بالموسكي ، بمصر ، ١٩٢٥ .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبدالله ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ .

- يوسف حسين بكار ، بناء القصيدة العربية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- يوسف سركريس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، مطبعة سركريس بمصر ، ١٩٢٨ .

الرسائل الجامعية :

- اكتمال اسماعيل ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العراق من ٤٤٧-٥٩٠هـ ، رسالة ماجستير ، جامعة دمشق ، ١٩٩٠ .
- أمين أبو دومة ، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي ، رسالة ماجستير ، جامعة دمشق ، ١٩٨٨ .
- فؤاد حسين أبو الهيجا ، العماد الأديب وخريدته ، رسالة دكتوراه ، الأزهر ، ١٩٧٧ .
- نزار عوني اللبدي ، صورة فن الحرب في أدب الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية ، ١٩٩٢ .
- مصطفى محمود زايد ، النثر الغني في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية ، ١٩٩٢ .

الدوريات :

- حلمي عبدالفتاح الكيلاني ، موقف العماد الأصفهاني من حروب المسلمين والفرنج « من خلال شعره » ، مؤتة للبحوث والدراسات ، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد السادس ، العدد الثاني ، ١٩٩١ .
- سوادي عبد محمد ، الإفاقة العربية الإسلامية بوجه الخطر الصليبي ، مجلة المورد ، المجلد الرابع عشر ، العدد الثاني ، ١٩٨٥ .
- ناظم رشيد ، الأدب عند بني أيوب ، مجلة المورد ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ، السنة ١٩٧٦ .

وقائع مؤتمرات :

- سعيد عاشور ، تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع ، مؤتمر بلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٤ .

الملاحق

« أشعار العماد التي لم ترد في ديوانه المحقق »

قافية الهمزة :

ولعماد الدين من قصيدة (١) :
مرضي منكم ومنكم شفائي
أنتم بالفراق أتلفتموني

كيف أرجو من عند داي دوائي
فتلافوا بالوصل منكم بقائي

قافية الباء :

وله في الملك العزيز أيضاً (٢) :
لو حفظتم بالرفق قلب المحب
كان ذنبي أني ادعيتُ هواكم
أنا لا أرتضي سواكم وتأبون
حاجتي إن قضيتوها والآن
كم تريدون في حساب همومي
٦ جنبوني خطب الفراق فإني
وله من قصيدة (٣) :

لم يقل يا أحيتي ضاع قلبي
وأرى هجركم عقوبة ذنبي
فقولوا ما وجه هذا التأبي
أقضي بحسرة الوصل نجبي
والذي بي من الصباة حمبي
لا أبالي سوى الفراق بخطب

أنتم عدتتم من ذنوبي حيكم
عودوا وعودوا مدنفاً ملقى ظنياً
أبعدتموه بغير ذنب منكم
تجفونه وهو المحب وكم وفي
إن كتتم أدبتموه فإنسه
٦ لم لا يفيض مع المدامع جارياً
ومنها في المخلص :

ما كان أسعد من تعد ذنوبه
قد ملّ عايده وحرار طيبه
فمتى يقرر منكم تقريبه
مثلي محب خانة محبوبه
لم يدرك أن فراقكم تأديبه
قلبي ونيران الغرام تذييه

والعادل الملك الذي يفتون
وافى كما جاء الربيع بخصبه
بشرى بمقدم من به قد عاد
العز يشرق حين بان طلوعه

أغنى الورى عن كل طيب طيه
والدهر زالت حين جاء حدوبه
من إلى وطن الرجاء غريبه
والنصر ينزل حيث كان ركوبه

(١) مخطوط البرق الشامي ، الورقة ١٤٩ .

(٢) المخطوط ، الورقة ٥٧ .

(٣) المخطوط ، الأوراق ٥٤-٥٦ .

وبدا ووجه البشر زال قطوبه
بادٍ وفي قلب الحسود ندوبه
في الروع مخشى الجلال مهيبه
صبحاً ونجح للرجاء يُثيبه
والكفر واه صلبه وصليبه
حقاً تعين فرضه ووجوبه
لولا اجتهادك يستوي ترتيبه
وتبدلت بالمآثرات عيوبه
زهراً تربي في الربيع ريبه
وتمدا الهزار فشاقتا تطريه
فكأتما تفضيضة تذهيبه
ونسيمه المعتل صبح هبوبه
فقدنا وذيل سرورنا مسحوبه
فأصيب في حد الشقيق صلبه
فضلى مشيع فضلها وخطيبه
لبى نداء نداءك فيه لبيبه
وتهن فضلاً رايقاً أسلوبه
وشرعته شعر فقيل حبيبه
أبدأ وبحراً يستحيل نضوبه
حه المكتوم نصرهك للهدى مكتوبه

وافى وسر البر زاد سروره
بدر لعين وليه منه الندى
في السلم مغشى الجنب مزوره
يوماه تقع للغوار يثيره
والدين دان نصره ونجاحه
يا شاعلاً ذم المكارم حمده
ترتيب أمر الملك منك ولم يكن
حلّت مكارمك الزمان وأهله
ما نور روض نوره متألّق
رقّ النسيم فراقنا تضويعه
والشمس تشرق من خلال ظلاله
وشيمه المتل فاح أريجيه
سحب السحاب عليه ذيل سماحة
ودم البروق أصيب في حافاته
أبهى وأبهج من خلايقك التي
يا حسن هذا الفضل من حسنك إذ
تمل نظماً رائعاً إحسانه
ولدته قولاً فليل وليده
وبقيت غيثاً يستهل فيوضه
وأطاعك القدر الذي في لور

قال العماد (١) :

بما أتاح وهل حلم بلا سبب
وهي المآثر لا المآثرات في الكتب
تملكت روعة في قلبه الوجيب
في مبذر الشرك منتدب
برغم أنف وخحد صاغر ترب

حلم تملك عون الله سببه
هذي العلى لا التي تزهى الملوك بها
وكلهم منك إذ أوجبت هلكهم
وشاوروا شاور خابت ضنونكم
غادرته حيث كان القدر شيمته

(١) انظر هذه الأبيات في تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ، ج ١ ، ص ٤٥-٤٧ . وهي جزء من القصيدة التي وردت في الديوان ص ٨٠ .

روحته بشبا هنديك العرب

٦ لما نوى رأسه تطليق جثته

قافية التاء:

ولعماد الدين يرثي صلاح الدين^(١) :
فيم اغترارك بالزمان وخدعه
كم تأكل الأرض الكرام وكلما
تباً لدهر غنادر بدمامه
من أبهج الأسماع نعت صفاته
يا يؤس يوم الأربعاء فإنه

ان الزمان كثيرة نكباته
شعب الثرى تزايدت نهماته
لم تبق قط على بنيه بناته
في الخلق أزعجت القلوب نعاته
فجأت بما فجع الأنام عداته

قافية الشاء:

وله في الملك المظفر^(٢) :

غدت دمعتي في هذب عيني كأنها
وأهيف حزني فيه أرث في الحشا
يقول خليلي الشفيقان لوحشتي
رأيتم طريق الحب وعشاً وإنما

وقد علقت فيه غريق تشبشا
من النار ما في خده الحسن أرثا
على غير مستن الهوى ما توعثا
أرى طرقات الصبر عندي أوعثا

قافية الدال:

وله يمدح وزير الديوان^(٣) :

قضى الوجد أنني لا أفيق من الوجد
أيا حادي الأظمان خلل زمامها
وما كنت أدري قبل صارم جفنه
ولا صبح إلا وجهه الواضح السنا
وما أرؤس الأعداء إلا سنابك
كان لثام الزعف من فوق وجهه

فيا ضلّة اللاحي إذا ظن أن يهدي
ودعها على خدي بظعنهم تخدي
وقتلي أن السيف يقتل في الغمد
ولا شمس إلا رأيه الثاقب الزند
وما نبتت إلا لسيفك والحصد
غمام لبدر التّم رقرقه مبد

(١) المخطوط ، الورقة ١٢٨ .

(٢) المخطوط الورقة رقم ١٨ ، وقد وردت أبيات أخرى في المخطوط ولكنها موجودة في الديوان ، ص ١٠٠ .

(٣) المخطوط ، الورقة ١١٨ ، ١١٩ .

وطرف كأن البرق يومض في البلد
مساورة الأميال للأعين الرمد
من مراضيه لهجته يفدي

بدرع كأن الهجر في البحر زاخر
تساور أفواه الجراح رماحه
وما لأمير المؤمنين كيوسف فتى

والعماد :

ة وانتقمست من دعبي اليهود^(١)
وله في الملك العزيز حين جاء نجدة للملك العادل^(٢) :

أدالت بمصر لداعي الهدا

وشركم مصون ما يعاد
وملتموه فما يراد
فضعت فلا عهد ولا عهد
وطاب به معاشي والمعاد
ولا للفضل من دهرى عناد
.....^(٣) العزم ما فيه ارتداد
إذا ما دام بينكما اتحاد
.....^(٤) وما أعظم ما استفاد

مجتكم مريض ما يعاد
ومهجور لكم غادرتموه لقي
وكنت ذخرتكم لحفاظ عهدي
وبالملك العزيز ملكت عزى
فلا للعيش من همى عناء
.....
فلا يجد العدى لهم سبلاً
وحال المسلمين كمثل هذا

قافية الراء :

قال العماد :

ه أقر الحقوق خير مقرر^(٥)
مدامة أوردتني ظلمة الخير

١ قل لداعي الدعي حسبك فالله
وله من قافية الراء^(٦) :
٢ أشكو إليك على ضعفي ومسكتي

(١) ذكر السيوطي هذا البيت وقال إنه من قصيدة قالها العماد في الخليفة العباسي بعد قصيدته التي
بشر فيها بالخطبة لبني العباس في مصر . (انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٤٤٦) .

(٢) المخطوط ، الورقة ٥٦ .

(٣) (٤٠٢) كلمات غير واضحة .

(٤) هذا البيت زاده ابن الفرات على أبيات القصيدة التي وردت في الديوان ، مرسله من العماد إلى الوزير
عبدالدين في بغداد يخبره فيها بالخطبة للمستضيء في مصر سنة ٥٦٧هـ . (انظر هذه القصيدة في
الديوان ص ١٩٨-٢٠٢) وانظر هذا البيت في تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(٥) المخطوط ، الورقة ٥٩ .

مما جئيت فتعفو عفو مقتدر
إلا رضاك فلم أجنح إلى العذر
على اختياري ولكن في يد القدر
بالنفع الا جاء بالضرر

وقد أسأتُ وعذري عذر متصل
ولو نظرت لنفسي لم يكن أحد
لو كان تصريف أمري في يدي لجرى
فما هممت بأمر كنت أعمله يجيء

قافية السين:

وله من قصيدة طويلة (.....)^(١) في مدح تقي الدين الملك المظفر^(٢) :
عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا
أما لكم إلا يبلوأي سلوة
جرحتم فؤادي مذ هدمتم تجلدي
ظننتم بعيني أنها تألف الكرى
ولم أنس أنسى بالحنى منى الحمى
ولي فيه من ثغر الحبيب وخده
على أنه شمس الظهيرة يجتلي
ونحسب في خديه للحسن جنة

ومنها في المدح :

بنو قبة تجري المواهب أبحراً
وهل يظنماً الراجي مكارم مساجد
تشكي إليك العرب جور ملوكه
بني الأصفر الأرجاس صبحت أرضهم
شموس ظبي تغلوا لها الهام منجناً
تسمر بالنقع السماء كأنها
وكم كفى الإسلام سوء بملككم
بأثمار شكري غرس نعماك مثمر

فهل قلم في كفه أو قلمس
عيون الندي من كفه تتجسس
فأشكيتته والجور بالعدل يعكس
وفيهم سحاب البيض بالضرب يرجس
فلله نصرانية تتمجسس
لخوف فناكم بالعجاج تترسوا
كفيتم على رغم المعادين كل سوء
وتزكوا ثمار الفرس إن طاب مفرس

(١) كلمات غير مقروءة .

(٢) مخطوط البرق الشامي (الورقة ١١٩ ، ١٢٠) .

وله في الملك المعظم (.....)^(١) قصيدة قالها أنشدها في (لو)^(٢) رجب وتوفي في
مستهل رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة^(٣) :

حضوركم نَعْمِي وغَيْبَتِكُمْ بَوْمِي
فَعُودُوا إِلَى عَهْدِ اللَّقَاءِ وَأَطْلِقُوا
وَمَا أَوْحَشَ الرَّبْعَ الَّذِي بَانَ أَهْلُهُ
وَيَا لَهْفُ نَفْسِي زَادَ بِالشَّوْقِ كَرْبَهَا
وَقَفْتُ غَدَاةَ الْبَيْنِ وَالرَّكْبَ سَائِرُ
وَفُودِي غَدَاةَ مِنْ رَوْعَةِ الْبَيْنِ مُخْلَسَا
وَأَتَبَعْتُهُمْ طَرَفًا لِيَغْنِمَ نَظْرَةَ
وَقُلْتُ لَهُمْ نَعْمَ الْأَحِبَّةَ أَنْتُمْ
أَحْبَبْنَا عُودُوا وَعُودُوا مُتِمِّمًا
وَلَمَّا تَخَيَّلْتُمْ مَنَامِي بَعْثْتُمْ
أَيَا عَاذَلِي فِي الرَّجْدِ مَا أَنْتَ مُنْصَفِ
إِذَا كُنْتُ لَا تَوْلِي الْجَمِيلَ لِحَفْظِهِ
وَكَمْ صَاحِبٌ لِي قَالَ عُدَّ عَنِ الْهَوَى
تَرْجِيئْتَ أَيَّامَ الشَّبَابِ وَعُودَهَا
تَرَى الدَّهْرَ مَنكُوسَ النَّصَارِيْفِ لِلْوَرَى
فَقُلْتُ لَهُ يَا سَعْدَ سَعْدِي مَسَاعِدِي
وَلَا تَلْتَمِسْ إِلَّا سَمَوِي فَإِنِّي وَجَدْتُ
وَلِي شَرْفَ الدِّينِ الْمُعْظَمِ مَوْئِلِ
مَلَاقِي بَعْلِيَاهُ رَجَائِي بِحَاجَةِ
وَهَلْ فِي مَلُوكِ الْأَرْضِ لِلْبَاسِ وَالنَّدَى
بِمَعْدَلَةِ ابْنِ الْعَادِلِ اعْتَدَلْتُ لَنَا
فَكَمْ حَاطَتْ الْأَعْدَاءُ هَيْبَةَ بِأَسِهِ

(١) كلمات غير مقروءة .

(٢) كلمات غير مقروءة .

(٣) القصيدة موجودة في مخطوط بعنوان البرق الشامي (مودع في مكتبة ليدن تحت رقم 1592 Cordor) .

أحلّت بأعلام المعادين تنكيسا
بنار ظبناه فارس السروع مفروما
رأيت له في همة المجد تغليسا
تأملته من كيسه ينفض الكيسا
فلا تلوعن باب المعظم تعريسا
وفظنته زادته فهماً وتفريسا
أجدوا لدين الله في الشام تأميسا
أماكن طيب مامها الكفر تنجيسا
إلهاً تعاليه عن الشرك قدوسا
ذرى الشرك لما امتدت الحرب تضريسا
خميساً وسنوا للغنايم تخميسا
وذلك تطهيراً إذا عبد تديساً
وأرناط وجفري ومركيسا
بأسوسهم رأياً وأشومهم سومسا
يعيد له رسماً من العُرف مطومسا
جحاجة ثماً غطارفة ثومسا
فلا استبدلت أوجه الشر تعبيسا
تتجسس أمواه المواهب تبجيسا
شعاب لها تجلجو علينا الفراديسا
رهابين تستدعي إلى الدير قميسا
لأقرانها بين الصفوف الدبايسا
بأكمامه تبغي عن الشوك تتريسا
تحاول من زهر الأزاهر تأنيسا
تردد حرفاً للثلاوة مهمومسا
إذا شوهت قدست ربك تقديسا
فأبدى لدى الأعراض في الوجه تعبيسا
وياس حسنه للماجد الحر ملبومسا

إذا ما سمّت راياته لكريهة
ويحسبه ليث الهياج مفادراً
ص إذا أصبح الأملاك في همة العلى
وإن ختموا الأكياس عن معتفيهم
إذا شئت بالإدلاج أن يُحمد السرى
فراسته دلت على الغيب فطرة
فنى آل أيوب الذين بحدهم
هم طهروا بالطيب والطهر منهم
بممع ذوي الثلاث في القدس (...) (١)
وفي ملتقى حطين حطت سيوفهم
وقادوا إلى تصنيف كل مثلك
بسفك دم الكفار تحمر بيضهم
ص أبادوا جهاداً باردين وقومصها وهري
حمى الله هذا الدين بعد صلاحه
وهذا أبو بكر أتى بعد يوسف
وما برحوا في السلم والحرب سادة
وتزدان بالملك المعظم جلق
لأنمله فيضاً مناب مناب
وما روضة غناء في كل بقعة
كأن الحمام الداعيات هزارها
كأن فروع الدوح ترك تجاذبت
وللورد خدً بالحياء مورد
ص وثغر الأقاحي باسم مهلل
وقمرها في الند والشدو مقرئ
بأبهج من أيامه الغر إنها
فداؤك من فوقت سهم رجائه
مدحتك فأحب ملبس الحمد ضافيا

يألف تطبيقاً بديعاً وتجنيساً
(...) (١) ها بأنوار المكارم تقييساً
فاغن أياتاً أنتك مغاليساً
لتجلسو عن غرّ المديح طواويساً
مقادير أبناء العلى والمقاييساً
بأحداث دهر تحت أقدامها ديساً

ثملّ بها مصنوعة لفظ فضلها
سنا (...) (٢) في أفق ملك مشرق
وقد أيست من كل نقد لحظها
وانهض إلى المجدوى بزاة قرائحي
ونوه بقدري إتما أنت عارف
وهذي الأيادي خذ بها يد عائر

قافية اللام:

أجدد عهدي بالسماحة والبذل
وقال اذا ما غبت يا أبتى من لى
إليكم نظيم الحال متصل الخيل
ويجمع في إحسانه لكم شملى
وعدتُ به أهلي من النابل الجزل
وأخبرتهم بالحال والخلى لا العطل
فإنى لسان الدهر بالمتطق الفصل
وأنت بلا مثل إذا قلت من مثلى
ليقتنموا شرعي ويقتبسوا عقلي
وأجمع ما بين الصحيحين في نقل
فأحسنت من قول وأحسنت من فعل

وله في الملك العادل مودعاً (٣) :
وعهدي بعيدٌ بالكريم لعننى
تذمّم من ترحالي ابني محمد
فقلت له جود العزيز يعيدنى
سيشملى إنعامه ويعزنى
وها أنا قد وافيت ارتقب الذى
كأنى بهم حولي وهم يسألوننى
فأنطق لسانى بالذى أنت أهله
ولا بدع أن أصبحت عندك مائلاً
يرجى إياي الفاضلون اليهم
وأروى لهم أخبار بأسك والندى
« يهتني قومي بما جنتهم به

قافية الميم:

يلون باللحن الشجي المرخم

وله في نصراني أمر (٤) :
نظرت وقد قاموا النصارى عشية

(١) فراغ .

(٢) فراغ .

(٣) المخطوط ، الورقة ٥٧ .

(٤) المخطوط : ٥٩ .

ويسقيك الرحيق من الفم
يشاركني في الروح واللحم والدم
لست على دين المسيح بن مريم

غزال يريك الورد في وجناته طرباً
وكاد هواه من تأمل ساعة
وما أنا لولا مسكة من تقية
وله من قصيدة^(١) :

بعد ما جفت العروق أداما
ودارك عليّ عاماً فعاما
فرادى من لؤلؤ وتوأما
لك من طبعها سجايا كراما
لم تدعه حتى يصير غلاماً
أكسبته طلاقة وابتاماً
الشوق أو نهج الغراما

يا نديمي وما دعوتك الا
فاسقينها كأنها ألق الشمس
فاسقني من عقيقها بيد المزج
مزة حلوة الشمائل تهدي
فإذا الشيخ عبّ منها ثلاثاً
وإذا ما الكؤوس دارت عليه
فأدرها وغني لثيتت ثعث

قالية الهاء:

قال العماد : وسار نورالدين من منبج إلى قلعة نجم وعبر الغرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج ، وهو سديد الرأي رشيد المنهج ، فنقله إليها مقطعاً ووالياً . وأقام نورالدين بقلعة الرها مدة ، فمدحه العماد بقصيدة ، وتحجّب له صلاح الدين في عرضها ، وهي^(٢) :

وبلغت من نيل الأمانى المنتهى^(٣)
متكرّماً بالطبع لا متكرّها
من عدله رعت الأسود مع المها
لبهائها ضحك الزمان وقهقها
مردى العدا ، مسدى الجدا ، معطى اللها
ويعقنضاً دائرُ فلِكَ النهى
منقُدس عن ثوب مكر أودها
متأدباً من فوقه متأوها

أدركت من أمر الزمان المنتهى
وبقيت في كنف السلامة أمناً
يا محي العدل الذي في ظله
محمود المحمود من أيامه
مولى الورى ، تولى الندى ، معلى الهدى
آراؤه بصوابها مقرونة
متلبس بحصافة وحصانة
يا من أطاع الله في خلواته

(١) المخطوط : ٥٩ .

(٢) الروضتين ، تحقيق حلمي ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٣) ورد هذا البيت في الديوان : ٤٤٦ .

عملاً يبيّض في المعاد الأوجهها
مستحكماً لا نقض فيه ولا وهماً
والمشرقان ، فكيف منبج والرّها^(١)
وإذا بدت شمس الضحى خفى السّها
وعماله والمملك منه مآلها
وأبى لنفسك زهداً أن نشرها
من لا يزال على الجميل منبها
ملكاً بذكر العالمين منوها
تغني فقيراً أو تجير مدلهها
متفقداً ، ولدينهم متفقهها
من طساعة ونهيتهم عما نهى
عن رافة لكبيرهم لن تُشدها
بالرد دونك سائل لن يُجبهها
من ليس يتعب لا يعيش مرقها
حتى عدنا فيهم لك مشبهها
أصبحت عن كل العيوب منزها
ويكاد غيرك ساخطاً أن يسفها

أبدأ تقدم في المعاش لوجهه
كل الأمور وهى ، وأمرك مبرم
ما صين عنك الصين لو حاولتها
ما للملوك لدى ظهورك رونق
ما للملوك لهو أو انك من غدا
شرهت نفوسهم إلى دنياهم
ما نمت عن خير ولم بك نائماً
أخملت ذكر الجاهلين ، ولم تزل
ورأيت إرعاء الرعايا واجباً
لرضاهم متحفظاً ، ولخالهم
وعمابه أمر الإله أمرتهم
عن رحمة لصغيرهم لم تمتغل
باليأس عندك أمل لم يمتحن
أتعبت نفسك كي تنال رفاة
فقت الملوك ساحة وحماسة
ولك الفخار على الجميع ، فدونهم
وأراك تحلم حين تصبح ساخطاً

(١) ورد هذا البيت والذي يليه في مخطوط البرق الشامي ، الورقة ٥٠ .

Abstract

Al-Emad Al-Asfahani : Poet and Writer

By

Abdul Rahim Bakhit Mufdi Al-Shihab

Supervised by

Prof Dr. Abdul Jalil Hasan Abdul Mahdi

This study aimed at investigating and exploring Al-Emad al-Asfahani as a poet and writer. The thesis consists of an introduction and five chapters. The first chapter introduces the political context in Iraq, Egypt and Syria during the sixth Hijri century. The internal conflicts were examined and their effect on the Islamic resistance to the crusaders' invasion was also pointed in the introduction. In addition, the introduction included the transformations that accompanied the emergence of the Zinki State. The role of the Ayobi State in advancing the Islamic nation was also discussed; and the major features of the cultural aspects such as education and libraries were also explored in this introductory chapter.

Chapter one was devoted to the biography of al-Asfahani which included dates of his birth and death, his immigration to Baghdad, and his education. His professional life was also studied including his connections with Ibn Hubirah whom he represented in Basra and Wasit. This chapter also included a discussion of Al-Asfahani's plight in Baghdad and his departure to Syria; his relationships with Noor Al-Deen and Salah Al-Deen were also investigated.

٤٤٥٤٨٣

In the second chapter the types of Al-Asfahani's poetry were examined. It was found that his poetry included traditional genres

such as praising the Caliphs of Bani Abbas, ministers, scientists, condolences, affection, description and flirting. The second type of his poetry is Jihad (holy war) in which he attacked the crusaders and praised the glory of Noor Al-Deen, Salah Al-Deen, and Asad Al-Deen Shirkoh.

The technical aspects of Al-Asfahani's poetry were the subject of chapter three. The structure of his poems and how he built his verse were discussed. His language was also analysed in relation to the phenomena addressed in his poetry. In particular, the effect of the Holy Korán on his poetry was pinpointed in this chapter. His poetic imagery was also investigated in this chapter.

In the fourth chapter, the prose of Al-Asfahani was discussed. It included his historical writings in which he described the movements of Salah Al-Deen and the description of the Moslem heroes and their battles against the crusaders. Also in this chapter, the subjects of "Diwan Al-Insha" which included his letter to the Royal court were examined. Brotherly letters were also explored especially those addressed to Al-Qadi Al-Fadil. Furthermore, his literary prose entitled Nathr Al-Emad was discussed.

In the final chapter, chapter five, the technical structure of Al-Asfahanis' prose was studied and discussed. His vocabulary and style; his rythems and the literary pictures; and his organisation and coherence were all examined and discussed in this chapter.